المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

هارى سينت فيلبى

الربع الخالى

وصف للصحراء الكبرى فى جنوب الجزيرة العربية
التى تعرف بالربع الخالى

ترجمة وتقديم
صبرى محمد حسن

1221

الربع الخالى

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١٢٢١
- الربع الخالى
- هارى سينت فيلبى
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

The Empty Quarter

being a description

of the Great South Desert

of Arabia known as Rub al Khali

by: H. St. J. B. Philby

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

الرُّبع الخالى

وصف للصحراء الكبرى فى جنوب الجزيرة العربية
التى تعرف بالرُّبع الخالى

تـألـيــف : هارى سينت فيلبى

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

فيلبي ، هاري سينت

الربع الخالي ، وصف للصحراء الكبرى في جنوب الجزيرة العربية والتي تعرف بالربع الخالي . تأليف : هاري سينت فيلبي ، ترجمة وتقديم : صبري محمد حسن .

- ط ١ - القاهرة المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٧

٦٠٨ ص ، ٢٤ سم

١ - الربع الخالي

أ - العنوان

ب - حسن ، صبري محمد (مترجم ومقدم) ٩١٥,٣١٦١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢١٣٩١

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 437 -488-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات

تقديم الترجمة 7

تصدير 25

مقدمة 29

القسم الأول – جافورة وجابرين :

الفصل الأول : رفع الستار 33

الفصل الثانى : شمالى الجافورة 51

الفصل الثالث : مصبات الجيبان 79

الفصل الرابع : جنوبى الجافورة 111

الفصل الخامس : جابرين 133

القسم الثانى – الرمل :

الفصل الأول : مقيمنة 161

الفصل الثانى : أنهار منسية 185

الفصل الثالث : وبار 223

الفصل الرابع : المياه المرة 251

الفصل الخامس : شتاء 303

القسم الثالث – الربع الخالى :

الفصل الأول : الصحراء الحقيقية 325

الفصل الثانى : التراجع 357

الفصل الثالث : التعافى 379

الفصل الرابع : الأرض الخراب الخالية من الماء 393

الفصل الخامس : الخاتمة 467

ملاحق الكتاب :

(أ) الأحجار النيزكية والمومضات / د.إل جى سبنس 473

(ب) النتائج الجيولوجية :

١ – المعادن والبتروليات /د. كامبل سميث 483

٢ – الاستراتيجرافية وعلم الإحاثة / ل. ر . كوكس 505

٣ – أصداف المياه العذبة / جى .سى. روبون 515

(جـ) بيوض النعام بيرسى ر. لوى 519

(د) الرمال المغنية د. فوغان كورنش 523

(هـ) ثدييات الربع الخالى / نقيب جى - جى دوكان 527

(و) طيور الربع الخالى/ ن.ب. كنير 529

(ز) الزواحف / هـ. و. باركر 535

(ح) الحشرات :

١ – خنافس الربع الخالى / ك.جى. بلير 539

٢ – بق الربع الخالى / و. أى . شينا 543

٣ – فراش وعث الربع الخالى / ن.د. رايلى 545

٤ – ذباب الربع الخالى / الأنسة أويكرتف 549

٥ – جندب الربع الخالى/ ب.ب. يوفاروف ... إلخ 550

٦ – الزنابير والنحل فى الربع الخالى / هوج سكوت 551

(ط) الحياة النباتية فى الربع الخالى / جى. رامسبتوم 555

(ى) قائمة بالأسماء اماكنمجهولة اعطيت أسماء أثناء الرحلة 556

(ك) الارتفاعات الأرضية فى الربع الخالى 558

(ل) أقسام قبيلة المرّة 561

تقديم الترجمة

اسمه هاري سينت جون بردجر فيلبي Harry St. John Bridger Philpy ، وهو مستكشف ومؤلف بريطاني، ولد عام ١٨٨٥ الميلادى ، أى قبل أن يبدأ بالجريف رحلته "وسط الجزيرة العربية وشرقها"(*) بعام واحد، ومات فى عام ١٩٦٠ الميلادى. وهذا يعنى أن هذا المؤلف الرصين عاش خمسة وسبعين عامًا. وفى عام ١٩١٧ الميلادى، أى عندما كان فى الثانية والثلاثين من عمره التحق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية، وأوفد فى مهمة خاصة إلى الجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التى تشكلت مؤخرًا للمشاركة فى المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود ، الذى يعرفه العرب باسم ابن سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) .

كان هدف البعثة الرئيسى هو مناقشة ابن سعود فى الرياض فى إمكانية تجريد حملة عسكرية على حائل ، التى كانت حليفًا لتركيا فى ذلك الوقت، ومناقشة بعض المسائل الخاصة بكسر الحصار الذى كان مفروضًا على الكويت من قبل البريطانيين لوقف استيراد البضائع من الخليج ومنع وصولها إلى الأتراك وحلفائهم، وكان من أهداف تلك المناقشات البحث عن وسائل لتهدئة العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين فى مكة، استهدافًا لضمان اشتراك الشريف حسين فى الثورة العربية على الأتراك وعدم انسلاخه عنها .

وعلى الرغم من نجاح فيلبى فى إقناع ابن سعود (وذلك على العكس مما نصحه به شعبه) فى تجريد حملة على حائل، فإن السياسة البريطانية الرسمية طويلة الأمد

(*) ترجم هذا الكتاب د. صبرى محمد حسن، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر .

لم تكن تتفق أو تتطابق دومًا مع سياسة ابن سعود؛ إذ كانت بريطانيا تود للحاكم السعودى هو والشريف حسين فى مكة أن يعيشا فى سلام ووفاق ووئام (فى حين واصل ابن سعود فى عشرينيات القرن العشرين ضم الحجاز وبعض المناطق الأخرى ليكون دولة موحدة هى (السعودية). وكانت بريطانيا تود أن تقتصر مطامح ابن سعود الإقليمية على الشمال وتأمين استقلال دولة شرق الأردن الجديدة (الأردن حاليًا)، وبذلك تكون تلك السياسة هى أنجح السياسات. ومع ذلك أحس فيلبى بالصدمة والاستياء عندما نقض البريطانيون وعودهم ورفضوا إمداد ابن سعود بالمال والسلاح. وكان السبب فى ذلك أن الحملة المزمع قيام ابن سعود بها على حائل أصبحت غير ذات بال بعد استيلاء البريطانيين على كل من القدس ودمشق. وعلى الرغم من كل ذلك تواصلت علاقة الاحترام المتبادل والصداقة بين ابن سعود وفيلبى سنوات طويلة بعد ذلك. وبذلك يصبح فيلبى أول أوروبى يزور المناطق الجنوبية من نجد. والغريب فى الأمر أن ذلك الرجل عمل طوال ما يقرب من ثلاثين عامًا، مستشارًا لابن سعود ، ملك السعودية .

كان فيلبى مستشرقًا مستعربًا بارزًا، سافر إلى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وسرعان ما ذاع اسمه وصيته، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمضى بضع سنوات فى استكشاف السعودية، ووضع مجموعة من الكتب فتحت شبه الجزيرة العربية المجهول أمام القراء فى كل أنحاء الدنيا، زد على ذلك أن النسخ الخاصة التى احتفظ بها فى مكتبه، وكذلك الطبعات النادرة من كتاب "جنوبى نجد" على سبيل المثال، والذى طبع منه فى القاهرة مائة نسخة فى عام ١٩١٩، وكذلك كتاب "الربع الخالى" الذى طبع فى لندن فى عام ١٩٣٢ الميلادى ، إضافة أيضًا إلى مجموعة كبيرة من الكتب الكثيرة التى كانت فى مكتبته ، ومن بينها الكتاب الذى كتبه ولستد Wellsted عن أسفاره وترحاله فى الجزيرة العربية، والذى نشر فى لندن عام ١٨٤٨، كل هذه الكتب الكنوز موجودة حاليًا فى جامعة جورجيتون Georgetown، التى تلقت تلك الكتب هى وكتبًا وأبحاثًا أخرى هدية من السيدة هوب هيدلى Hope Headly ابنة روبرت ولستد Robrt Wellsted هيدلى . وبعد أن أسلم فيلبى أطلق على نفسه اسم

عبد الله فيلبى، وكتب كتاباً عن "هارون الرشيد"(*) نشرته دار بيتر ديفز ليمتد فى عام ١٩٣٣ ، كما كتب كتاباً آخر بعنوان "الحاج فيلبى"، وكتاباً أيضاً بعنوان "الجزيرة العربية فى ظل الحكم الوهابى" .

وجديد فيلبى، الذى رحل عنا منذ ما يقرب من اثنين وأربعين عاماً، أن صالة سوزبى للمزادات في لندن عرضت للبيع، فى اليوم العاشر من شهر مايو من عام ٢٠٠١ الميلادى، ثمانى عشرة رسالة بالغة الأهمية، لم يسبق نشرها ، وحددت لها ثمناً يتراوح بين ٨٠٠٠٠ جنيه إسترلينى و١٠٠٠٠٠ . وهذه الرسائل كلها تقريباً معنونة إلى السير بيرسى كوكس Sir Percy Cox المفوض المدنى فى بلاد الرافدين فى ذلك الوقت، وتتعلق بالمهمة التاريخية التى قام بها فيلبى إلى الجزيرة العربية فى أواخر الحرب العالمية الأولى، والأهم من ذلك أن تلك الرسائل لها صلة أيضاً بتعاملات فيلبى مع عبد العزيز بن سعود الأسطورى، مؤسس السعودية وأول ملك لها، يضاف إلى ذلك، أن هذه الرسائل تحكى بالتفصيل عن أول رحلة يقوم بها رجل من الغرب إلى جنوب نجد، وعن قبيلة الدواسر الموجودة فى تلك المنطقة. وفيلبى، فى تلك الرسائل، يعلق بين الحين والآخر على النجاح وكذلك على الفشل الذى أصاب معاصره لورانس الذى أطلق عليه اسم "لورانس العرب" .

والقسم الأكبر من تلك الرسائل يغطى الفترة من شهر يونيو عام ١٩١٨ الميلادى إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبى فى فترة متأخرة، فى عام ١٩٢١ – ١٩٢٢ الميلادى .

وترجع الأهمية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم، من ناحية، صورة حية لفراسة فيلبى، ونفاذ بصيرة بريطانيا فى مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد، من ناحية ثانية، قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبى إلماماً وثيقاً ودقيقاً بالشئون العربية،

(*) ترجم هذا الكتاب د. صبرى محمد حسن، دار الهلال، كتاب الهلال، مصر .

كما توضح من ناحية ثالثة، رأيه الشخصى والصريح فى أولئك الناس الذين تعرفهم تعرفًا جيداً ووثيقًا، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبى فى استكشاف المناطق المجهولة، وإبراز مشاعر الود والاحترام والولاء التى كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية فى بداية تأسيسها .

ترى ما سر اهتمام فيلبى بالجزيرة العربية ؟ ألأن الجزيرة العربية تقع فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب من العالم المأهول بالبشر؟ وتراقب دومًا باهتمام "وتجرد كوميدى" الصراع الإنسانى المستمر؟ أم أن الجزيرة العربية هى "أرض البحر" Sealand على حد قول البابليين القدامى؟ أم لأن الناس ما يزالون يطلقون عليها اسم "الجزيرة" Island بل يضيفون إلى الجزيرة كلمة "العرب" ليصبح الاسم الكلى "جزيرة العرب"؟ وهى جزيرة صحراوية. أم لأن لغة هذه الجزيرة النقية هى التى أعطت الإنجليز كلمة "طور" Ror التى نجدها عند أهل مقاطعة كورنول؟ أو لأنها أعطت الإنجليز أيضاً كلمة Aber فى لهجة أهل ويلز؟ أم لأن الكلمة الرومية Ides تعيد إلى الأذهان الكلمة الوثنية "عيد" Id وهى الكلمة التى يطلقها المسلمون على عطلاتهم الإسلامية؟ أم أن ذلك يرجع إلى أن اسم بلاد البرازيل يذكرنا بكلمة "برازين" Brazin العربية التى تطلق على نوع من القلاع والحصون؟ أو لأن الجزيرة العربية، فى زمن فيلبى كانت لا تزال غير معروفة لقسم كبير من عالم ذلك الزمن، الأمر الذى يزيد من جمال الأعمال التى تصدر عن أصحاب العقول المفكرة؟ هذه الجزيرة العربية هى موضوع الكتب التى وضعها فيلبى وبخاصة كتاب "الربع الخالى".

الربع الخالى

كتاب نشرته دار كونستيبل Constable وشركاه فى العام ١٩٣٣ ، أى منذ أكثر من سبعين عامًا. هل كتب فيلبى هذا الكتاب لإماطة اللثام عن الألوان الجذابة التى أضفاها على الربع الخالى بعض الرحالة الأوروبيين والعرب المستقرين الذين لم يدخلوا الربع الخالى مطلقًا حتى يروا ما بداخله ؟ أم لأن عبور الربع الخالى بحد ذاته يعد مغامرة يجب ألا يستخف بها أولئك الذين ليست لديهم بسائط الخبرة والتجربة ؟

هل صحيح أن الكتاب كان حلم حياة الرجل "طوال خمسة عشر عامًا، إذ كان لا يسيطر على حياته طوال هذه المدة سوى طموح واحد وفكرة واحدة، أو إن شئت فقل هاجس واحد لا ثاني له ؟ وهل قام الرجل، طوال هذه السنوات بملاحقة هذه الطريدة، التي ترقد أمام القارئ، في شكل هذه الصفحات، بعد أن قام فيلبي بتشريحها، وعنونتها ووصفها"؟

استيحاء فكرة الكتاب

" لقد جاءني الوحي والإلهام من واحد من أصحاب الخبرة العربية الكبيرة. جاءني ذلك الإلهام في اليوم السادس من شهر يناير من العام ١٩١٨، بعد أول عبور قمت به للجزيرة العربية من الخليج الفارسي إلى خليج البحر الأحمر. في ذلك الوقت التقيت ولأول مرة المرحوم الدكتور ديفيد جورج هوجارث. كان هوجارث متنكراً في زي قائد البحرية الملكية، في الوقت الذي كنت أنا فيه أرتدي الثياب الفضفاضة لشيخ عربي. التقينا سويا في الميس (قاعة الطعام) الواسع التابع للبعثة البريطانية السياسية العسكرية في مدينة جدة، التي جرى فيها توحيد أو دمج القنصلية البريطانية مع الوكالة التي كان مقرراً لها أن تتحول في الوقت المناسب، ولأسباب لم نعرفها أو تخطر ببالنا في تلك اللحظة، إلى مفوضية. كنت في ذلك الوقت غريبًا عن الجميع، مبعوث معسكر "معاد"، كنت مجرد صوت يصيح في أرض قفر، مجرد متحد جديد مطمور، في مباراة التسابق على استكشاف الجزيرة العربية. ومع ذلك لم يكن أحد قد عبر الجزيرة العربية قبل قبلي سوى رجل واحد، هو النقيب جي. أف. سادلير Sadlier ، ذلك الذي سبقني بمائة عام إلى عبور الجزيرة العربية".

هوجارث ساعد الحكومة الأيمن

على الجانب الآخر، نجد أن الدكتور ديفيد جورج هوجارث، كان بمثابة الساعد الأيمن للحكومة البريطانية في كل الأمور ذات المضمون والمغزى في الجزيرة العربية.

ولما كان الدكتور هوجارث هو مدير المكتب العربى فى زمن الحرب فى القاهرة، فقد أصبح الرجل بمثابة أعلى سلطة رسمية فيما يتعلق بالشئون العربية. كان الدكتور هوجارث قد نشر فى العام ١٩٠٤ الميلادى، تحت عنوان اختراق الجزيرة العربية، كتاباً يعد موجزاً جامعاً مانعاً لكل الجهود التى بذلت فى استكشاف الجزيرة العربية منذ أيام نارخيوس Nearchus وعويس Aeius وجاليوس Gallius إلى بدايات القرن العشرين. كانت الفجوة التى لاحظها الدكتور هوجارث، فى معرفة الباحثين والمستكشفين للجزيرة العربية، لا تزال فى معظمها هى الفجوات نفسها بعد مضى أربعة عشر عاماً. وأن أكبر تلك الفجوات كانت تتمثل فى ذلك الفراغ على خريطة العالم خارج المناطق القطبية. كان الدكتور هوجارث مكتفياً بتأمل هذه الفجوة دون أن يشجع المغامرين المتهورين على الإقدام على قدرهم المشئوم. كان الرجل على يقين من أن أهداف العلم يمكن خدمتها بطريق أخرى. لو يتمكن الأكسجين من صعود قمة إفرست Everest فإن الطائرة والسيارة يمكن وبكل تأكيد أن تكشفا عن فراغ الربع الخالى فى الوقت المناسب. لكن الرجل لم يكن يحبذ تكهناً مفاده أنه خلال أربعة عشر عاماً أخرى يمكن أن يفضى الربع الخالى بأسراره كلها – ليس مرة واحدة، وإنما مرتين – للرحالة العاديين غير المزودين بوسائل التنقل، التى لم تكن فى خدمة المستكشفين منذ بداية الخليقة. ومع ذلك لم يكن هناك أحد يرغب بحق فى معرفة الطابع الدقيق لذلك الفراغ الكبير، ولمحة التهكم الكتيمة الحريصة، أكثر من إنسان لديه بحق مسحة من الوحى والإلهام. والذى يؤسفنى أكثر أن الدكتور هوجارث مات والقناع لم يرفع بعد عن سر أرضىٍ، ربما كان الدكتور هوجارث هو الأقدر والأجدر بتفسير عظمة هذا السر .

فيلبى فى الجنوب :

وبعد الأسابيع الجميلة التى أمضاها فيلبى فى اتصالات وثيقة مع الدكتور ديفيد جورج هورجارث فى كل من مكة وجدة، أمضى الرجل بقية ذلك العام فى السفر عائداً إلى الجزيرة العربية، وقصد أعماقها من ناحية الجنوب فى المنطقة المحيطة بوادى الدواسر، الذى عاد منه آسفاً فى اليوم السادس من شهر يونيو من العام ١٩١٨، وكان

لابد من "اقتناعى ورضاى بما استطعت إنجازه، ومتطلعًا إلى أن أتمكن فى يوم من الأيام من تحقيق تلك الرغبة الجامحة التى تعتمل داخلى، وتتمثل فى إمكانية اختراقى فجوات ذلك الربع الخالى، الذى تمكنت من الدوران حول حدوده الخارجية كلها من الشرق إلى الغرب، أو بالأحرى من الإحساء إلى الوادى"[١] .

كان فيلبى، فى ذلك الوقت، قد استكشف جزءاً من الجنوب المجهول، لكن هذا الجزء فتح شهيته لاستكشاف المزيد. كان الرجل قد سمع من رفاقه وبخاصة من رجل يدعى جابر بن فرج، أحد أفراد قبيلة مرة العظيمة ، عن أنقاض خطيرة ومهمة فى قلب الرمال البعيدة، كما سمع أيضًا عن كتلة كبيرة من الحديد فى حجم الجمل. كما استطاع فيلبى من خلال عيونهم تشكيل فكرة أو إلقاء نظرة خاطفة على الربع الخالى. كان ذلك هو كل ما يعرفه فيلبى، وكان يعرف أيضًا أن مسألة الحصول على الفرصة التى تمكنه من تحرى هذه الأسرار، قد لا تتوفر له قريبًا إن لم يكن مطلقًا. كتب يقول: "أتمنى أن يتمكن رجل آخر، يكون أوفر منى حظا، من القيام بتحرى صدق ما قاله لى الرواة"[٢]. وقد تحقق شىء من هذا الأمل على يدى السيد الرائد شيزمان Cheesman (فى العام ١٩٢٤ الميلادى)، وفى الاستكشافات الـتى قام بها السيد برترام توماس Tomas (فى العام ١٩٣١ الميلادى)، وقد ظن فيلبى أنهما لم يتركا له شيئًا يقوم به عندما تتهيأ له الفرصة فى الوقت المناسب .

عودة فيلبى فى العام ١٩٢٤ إلى الجزيرة العربية

" فى ذات الوقت ، وعلى الرغم من فشلى، لم أكن عاطلا عن العمل، إذ راحت صروف الحياة وظروف العمل تتقاذفنى من هنا إلى هناك، الأمر الذى انتهى بى إلى

(١) قلب الجزيرة العربية، ترجمة صبرى محمد حسن، المشروع القومي للترجمة المجلس الأعلى للثقافة، ٢١٦:٢ .

(٢) المرجع نفسه ٢ : ٢٢٢ .

الجـزيرة العـربيـة فى نهـاية المطاف، لكن المغناطيس كـان يجـذب الإبرة، وعـدت إلى الجزيرة العربية في خريف العام ١٩٢٤ الميلادى فى محـاولة منى لمعرفة نصيبى مع القدر. ضـحيت بكل شيء من أجل هذا النصيب والنتائج المترتبة عليه، ضـحيت بأمن وسـلامة حياتى العملية القديمة ، بل ما تبقى من تلك الحياة، ولكنى أقبلت على ذلك بلا أسف ولا ندم" .

فى صيف ذلك العام جرى انتخاب الدكتور ديفيد جورج هوجارث رئيسًا للجمعية الجغرافية الملكية، وأصبح فيلبى عضواً من أعضائها، أو بالأحرى عضواً فى مجلس الجمعية. مسألة مصادفة تجمع الرجلين فى عمل مشترك، كانت تبدو لفيلبى فألاً حسنًا على المشروع الذى سيطر على أحلامه منذ زمن طويل. وبذلك أصبحت مسألة استكشاف الربع الخالى، فى العام الأول من ترأسه للجمعية، وبواسطة شخص كان قد سبق هو نفسه بالإيحاء إليه بهذا العمل، يمكن أن يكون بمثابة علامة فارقة، تحسب لصالح رئيس الجمعية فى مجال استكشاف الجزيرة العربية. وفيلبى بدوره كان قد كرس اهتماماته كلها لهذا الأمر .

فيلبى وروزيتا فوربس

"لكن هذا العمل لا يمكننى القيام به بمفردى. لم يكن بوسعى القيام بهذا العمل لوحدى بسبب الضعف أو الافتقار إلى المال المطلوب لمثل هذه المهمة. حدث فى ذلك الوقت، أن كانت صديقتى السيدة روزيتا فوربس Rosita Forbes، بطلة الرحلة الشاقة التى قامت بها إلى الصحراء الليبية، لتصل إلى واحة الكفرة، التى كانت شبه مجهولة(*) فى ذلك الحين، والتى تعد حاليًا سيئة السمعة، كانت صديقتى روزيتا فوربس نفسها مشغولة هى أيضًا بالبحث فى مسألة الربع الخالى، من بين الآفاق

(*) كانت واحة الكفرة قد سبق أن زارها جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs فى العام ١٨٧٠ .

الجديدة التى كانت تتطلع إلى استكشافها. وهنا قمنا بتوحيد قوانا وتنسيق خططنا معًا، فى حين كانت روزيتا فوربس هى التى وفرت وأمنت لنا المساندة والدعم الماليين اللازمين للقيام بهذا المشروع المشترك" .

الجزيرة العربية ترقص على موسيقى الثورة

بحلول فصل الخريف كان كل شىء جاهزًا فيما عدا الجزيرة العربية نفسها، التى كانت ترقص على موسيقى الثورة. كانت ألسنة اللهب الوهابية النجدية، قد انطلقت بلا سابق إنذار، على شكل ثورة بركانية عارمة على طول حدود المملكة الشريفية. وكانت مذبحة الطائف قد هزت العالم فى شهر سبتمبر، وبعد هذه المذبحة بشهر واحد، كان ملك مكة قد تخلى عنها، واستسلم لأولئك المتشددين. وأصبحت مسألة سقوط كل من جدة والمدينة (المنورة) أمرًا قد يحدث بعد أيام قلائل، فى حين كانت مسألة سيطرة ابن سعود وهيمنته على المناطق المهمة فى الجزيرة العربية تبشر بالخير فيما يتعلق بمضينا قدمًا فيما خططنا له. لم يكن الأمر يتطلب منا سوى المحافظة على السرية التى تتطلبها مثل هذه الظروف، مخافة وقوف المسئولين البريطانيين على هذه الخطط وإحباطها عن حسن نية ومن باب التعاطف معنا والخوف علينا.

كنا قد اتفقنا على أن تكون البحرين مكانًا للقائنا، وبدأت رحلتى وحدى فى منتصف شهر أكتوبر. وفى القطار الذى أقلنى عبر فرنسا التقيت الدكتور هوجارث، الذى ربما يكون قد وقف على الهدف من رحلتى، لكنه لم يتطرق إلى هذا الموضوع. لم أر الرجل بعد ذلك مطلقًا، إذ سقط صريع مرض أودى به إلى لقاء ربه. ولم يحدث قط أن عرفت رأى هذا الرجل فى محاولتى عديمة الجدوى، لو قدر له أن يعرف

هدفها. فى ذات الوقت، وعندما كنت فى مرسيليا، وفى ضوء التذكرة والكابينة اللتين سبق أن حجزتهما عندما كنت فى لندن، ركبت على ظهر الباخرة إس. إس. ريجيتان Registan (أرض الرمل) المتجهة إلى بندر عباس .

فيلبى فى السويس وجدة

فى السويس ، وبعد اطلاع فيلبى على آخر أخبار الجزيرة العربية، غير خططه ورأيه ونزل بعد ذلك بأيام قلائل فى مدينة جدة، بصفته ضيفًا على صاحب الجلالة الملك على، الذى تولى مقاليد بقايا عرش والده، بعد استسلامه ورحيله على وجه السرعة. وفى لحظة من اللحظات ظهر أن السلام يمكن استعادته بشروط معقولة. لكن سبق السيف العذل من جانب المدافعين الحمقى، وجاء وصول ابن سعود بنفسه إلى مكة فى مطلع شهر ديسمبر علامة وإشارة على تطويق وحصار مدينة جدة. وبدا واضحًا أن المكان لا يمكن أن يصمد مدة تزيد على أسبوعين فى ظل القيادة السيئة، والتغذية السيئة، والجيش سيِّئ التسليح، الذى كان عبارة عن مجموعة من المرتزقة الذين جرى جلبهم من الرعاع فى كل من سوريا وفلسطين تحت وهم دفع الأجور المطلوبة لهم .

"كنت أرى أن الوقت ثمين، على الرغم من أنى كان بوسعى الانتظار بضعة أسابيع أملاً فى أن تساعد التطورات على دفع هدفى ومبتغاى إلى الأمام. لكن القدر شاء أن تصيبنى جدة بمرض الدوسنتاريا اللعين الذى يتوطن فيها. وما إن قويت على الحركة هربت مسرعًا للقاء زميلتى فى عدن ولم تتأثر روزيتا فوربس بانهيار خططنا، وشرعت فى الذهاب إلى الحبشة فى حين عدت، أنا إلى الوطن مريضًا ومحبطًا؛ فقد باءت بالفشل أولى محاولاتى لاستكشاف الربع الخالى.

اعتناق الإسلام والسنوات العجاف

"طوال سبع سنوات رحت أعمل عمل (سيدنا) يعقوب مع راشيل Rachel. وبدلاً من الربع الخالى وجدت موطنًا لى بالقرب من مياه البحر الأحمر الخضراء، رحت أعمل خلاله من أجل الفوز بعروس رغبتى المتقدة، وهنا هبط علىَّ سلام الإسلام العظيم هبوطًا هينًا لينًا وأكيدًا، واحتوانى، أنا يا من لم أعرف السلام من قبل، احتوانى الإسلام بعباءة الفلسفة الوهابية، التى تحارب الآثام غير الإلهية، والتى استطاعت أن تفرض سلمًا يتجاوز كل الأفهام، على بلد لم يعرف السلم منذ بداية الخليقة اللهم إلا الموت والخراب.

فيلبى يصادق ابن سعود

"وأصبحت مكة وطنًا لى، سأقيم فيه بمشيئة الله إلى نهاية أيامى. وهنا سمح لى بامتياز الحظوة بحميمية الملك الكبير يوميًا، هذا الملك كان قد أصبح عندى بمثابة البطل منذ الأيام الأولى لصداقتنا، وأنا لا أعرف إنسانًا آخر يمكن أن أصفه بالعظمة غير هذا الرجل. هذا الرجل استطاع خلال ثلاثين عامًا، أن يحقق للجزيرة العربية ما لم يستطعه غيره على امتداد ثلاثين قرنًا من الزمان، لكن ليس هذا هو المجال الذى يمكن الكلام فيه عن ابن سعود" .

"لقد بايعت هذا الرجل وأوليته ولائى وإخلاصى جراء إعجابى به. لكنى فى هذه المرة أجلس عند قدميه شاكرًا وممتنا؛ ففى شهر ديسمبر من العام ١٩٣٠ رافقت موكب الفرسان الملكى فى الجزيرة العربية، بل حتى فى الرياض، وكان الملك يعرف طول الوقت ذلك الحنين الحبيس داخل روحى، وكان يرفع روحى المعنوية إلى عنان

السماء عندما كان يتحدث عن الرحلة إلى الربع الخالى. كان ابن سعود مصراً على السيطرة على القصية من إمبراطوريته مترامية الأطراف؛ وقد وجد الرجل فيَّ الأداة المناسبة للقيام بعمل الخرائط اللازمة والتحرى العلمى المطلوب لتبرير مطالبة ذلك الرجل بحكم هذه الرمال المضطربة. كنت قد عرفت أن برترام توماس Bertram Tomas قد غادر مسقط وسافر إلى ظفار فى محاولة للوصول إلى الأرض اليباب البكر. ولم يكن يخامرنى شك فى نجاح هذا الرجل؛ الأمر الذى جعلنى أتعجل أنا الآخر القيام برحلتى" .

تجهيزات الرحلة الفاشلة

بدأت التحضيرات والتجهيزات الرئيسية للرحلة بالتشاور مع عبد الله ابن جلوى، محافظ الأحساء. وفى مطلع شهر يناير من العام ١٩٣١ الميلادى، تبددت آمال فيلبى بناء على النصيحة التى تقدم بها عبد الله بن جلوى إلى مليكه؛ ذلك أن عبد الله بن جلوى كان مشغولاً فى ذلك الوقت ببعض المشروعات التى ترمى إلى مد نفوذه الإدارى على طول الحدود الجنوبية، الأمر الذى جعله لا يود تقييد نفسه بمهمة تختلف تمامًا عن المهمة التى هو مضطلع بها فى ذلك الوقت، وأن مسألة تأخير الرحلة عامًا لن يكون عملاً خطيراً أو ضاراً . وعلى ذلك اتفق الجميع وأجمعوا عليه فيما عدا فيلبى. كان برترام توماس قد وصل بالفعل إلى شنَّاء، وفى اليوم السادس عشر من شهر يناير، عندما غادر فيلبى الرياض فى رحلة العودة إلى مكة، كان برترام توماس فى منتصف الطريق عبر الرمال. وبعد ذلك بشهر كان توماس قد أنهى عبور تلك الرمال، على الرغم من أن فيلبى لم يقف على المرارة الكاملة لخيبة أمله إلا بعد اليوم السادس من شهر مارس. لقد فاز برترام توماس بالسباق، ولم يعد أمام فيلبى سوى تكملة مسافة السباق .

المفاجأة والنجاح

" بقيت خططي بلا تغيير طوال فصل الشتاء التالي. كان وعد الملك لا يزال قائمًا، وفي شهر نوفمبر عدت مرة ثانية إلى الرياض، ولكن مرت الأسابيع ولم أحظ ولو بكلمة واحدة من الملك تفيد بأنه كان يفكر في الربع الخالي. كنت أقوم كل يوم، وأنا بصحبة الحاشية الملكية، بصيد الحباري والغزال في الصحارى المحيطة بالعاصمة الوهابية، في حين كان كوكب عطارد يلتقي كل ليلة مع كوكب الأسد، ويروحان يسخران من قلقي وتعجلي. أكون أو لا أكون؟ كان ذلك هو السؤال اليومي الذي يلح عليَّ، عندما أصحو كل صباح على صوت المؤذن الذي ينادي لصلاة الفجر".

" مسألة صبري وتماسك نفسي إلى أن تجيء اللحظة الكاملة الفاصلة، أصبحت أمرًا لا يطاق، وحدث ذات مساء عندما كنا في منتصف شهر ديسمبر، أن كنا جالسين في بهو القصر. وكان حديث غامض يدور عن رحلة سيقوم بها الأمير فيصل إلى أوروبا. وهنا تساءل أحد كبار رجال البلاط الملكي، أليس من الأصوب أن ترافق صاحب السمو إلى هناك، وربما تزور أهلك مرة ثانية ؟ واقع الأمر أنك لم تر بلدك منذ فترة طويلة. رددت قائلاً: إن أوروبا ليست هي التي تشغل بالي في الوقت الحاضر، أو بالأحرى هذه الأيام. قال الملك: "لا" ، وهنا ملكت كلمات الملك عليَّ أنفاسي، "لكننا سوف نرسل فيلبي إلى الربع الخالي. هل تود الذهاب إلى هناك ؟" هل سأذهب إلى هناك بالفعل؟" وهنا واصل الملك كلامه، بأنه ليس هناك ضرر من ذهابك إلى هناك. رددت قائلاً: حماك الله، وأطال عمرك، ورعاك ! لم أسمع كلامًا أجمل من هذا الكلام طوال هذه الأشهر الكثيرة الطويلة" .

" وبذلك ينتهي التوتر الذي دام وقتًا طويلاً. تكلمنا طوال يومين عن الأمور الضرورية الخاصة بالرحلة المفتوحة، وبعد ذلك حان موعد اليوم الذي كنت أنتظره منذ زمن طويل. قال الملك: أنا عاقد العزم على السفر إلى الأحساء في غضون فترة قصيرة، ربما لا تزيد عن أسبوعين أو أزيد من ذلك قليلاً. بوسعك أن تذهب معي إلى الأحساء وتبدأ رحلتك من هناك، لكن إذا أردت الذهاب قبل ذلك الموعد فليس هناك ما يمنع من

سفرك غداً. سوف أتجه مباشرة إلى الخفس من أجل القنص، وبوسعك أن تمضى معنا الليلة الأولى فى المخيم، ثم تستقل سيارتك من الخفس إلى الأحساء. وسوف أعطيك رسائل لابن جلوى، وسوف يقوم بترتيب كل شيء حسبما تريد أنت. هل تود الذهاب غداً أو أنك ستنتظر إلى أن تذهب معى؟ أجبت، إذا لم يكن هناك مانع، فأنا أود الذهاب غداً. قال الملك: حسناً، إذن ستذهب غداً".

فيلبى فى الهفوف

"وصلت الهفوف مساء عيد الميلاد، لأنى سوف أمضى حسب الاتفاق أسبوعين فى الأحساء، وقام ابن جلوى بإرسال رسائله ومراسليه شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً لاستدعاء عدد كبير من الجنود، فى حين تحمل ولده سعود مسئولية الميرة، أو بالأحرى منظومة الإمداد بالطعام والمؤن. فى حين قمت أنا فى ذات الوقت بزيارة الواحة الكبيرة من أقصاها إلى أقصاها، حيث زرت بيارات النخيل الشمالية فى عيون، وعملت خارطة للمنطقة كلها، التى فتشت حدائقها بحثًا عن الفراشات الجميلة وأنواع أخرى من الحشرات".

انقضى العام وبدأ العام الجديد. وبدأ تعجل فيلبى يتزايد يومًا بعد يوم دون حدوث أية علامة من علامات التقدم الخارجية أو المرئية فى التجهيزات الضرورية التى تجرى على قدم وساق. يبدو أنه كان هناك صمت غريب يخيم على الأعمال التى كان ابن جلوى يقوم بها، وكان أصدقاء فيلبى ينظرون إليه كما لو كان أحمق يبحث عن الهلاك. زاده التشويق رعباً على رعبه، الأمر الذى جعل الرجل يتطلع إلى إراحة أعصابه بالقيام بزيارة إلى بلدة العقير على شاطئ البحر. وعليه، وفى اليوم الرابع من شهر يناير، وبعد الرحلة المضنية التى قام بها فيلبى بالسيارة عبر الكثبان الرملية الكثيفة التى فى حزام الكثبان الرملية الساحلى، كان الرجل قد أصبح راضيًا عن إكمال العبور الثانى للجزيرة العربية. وعند عودته إلى الهفوف فى اليوم التالى وجد نفسه على أعتاب الأرض الموعودة !

ترى ، كيف جاءت محتويات الكتاب بعد هذا التفكر والتدبر؟ قسم فيلبى كتابه "الربع الخالى" إلى ثلاثة أقسام، أولها بعنوان : جافورة وجابرين وقسمه إلى خمسة فصول. الفصل الأول بعنوان : رفع الستار، واختار للفصل الثانى عنوانًا هو : شمالى الجافورة، أما الفصل الثالث فيحمل عنوان : مصبات الجيبان، والفصل الرابع بعنوان: جنوب الجافورة، والفصل الخامس بعنوان :جابرين.

واختار فيلبى للقسم الثانى عنوانًا هو "الرمال" وقسمه إلى خمسة فصول أولها عنوانه "مقينمة" وثانيها " أنهار منسية"، وثالثها "وبار"، ورابعها "المياه المرة، وعنوان الفصل الخامس "شنًّاء" .

"الربع الخالى" هو عنوان القسم الثالث، وقد قسمه المؤلف إلى خمسة فصول، أولها "الصحراء الحقيقية"، وثانيها "التراجع"، وثالثها "التعافى"، أما الفصل الرابع فقد اختار له فيلبى عنوانًا وهو "الأرض الخراب الخالية من الماء"، والفصل الخامس "الخاتمة" .

زود فيلبى الكتاب بثمانية ملاحق أولها "الأحجار النيزكية والومضات"، وثانيها "النتائج الجيولوجية"، وثالثها عن "بيوض النعام" ورابعها عن "الرمال المغنية"، وخامسها عن "الثدييات"، والملحق السادس عن "الطيور"، أما الملحق السابع، عن "الزواحف"، والملحق الأخير عن "الحشرات" .

وضع فيلبى هذه الملاحق فى نهاية الكتاب على شكل سلسلة من التقارير، أو بالأحرى النتائج التى جرى استخلاصها من المادة التى جلبها معه، بواسطة خبراء متعددين في الفروع المختلفة، وقام الرجل بالإشارة إلى عمل كل خبير من هؤلاء الخبراء فى كل من متن الكتاب وملاحقه. لكنى أدعو القارئ إلى دراسة هذه الملاحق دراسة دقيقة إذا ما أراد تفهم الربع الخالى تفهماً كلياً .

وقد زود فيلبى كتابه بسبع وأربعين صورة زادت الكتاب حسنًا على حسنه، بل إن هذه الصور تفسر كثيراً من الأجزاء المهمة فى متن الكتاب، فضلاً عن مخطط واحد لمنطقة الحديدة فى أوبار، وخارطة للربع الخالى، وأخرى تقريبية للجزيرة العربية، وهى من إعداد الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية .

الإهداء

إلى زوجتي وأمي

اللتين تحملتا متاعب وآلام أسفاري الطويلة

على امتداد سنوات من الخوف والقلق

إليهما أهدي هذا السجل الخاص بتجوالي

في الربع الخالي

"الحريم الطيب هو ما عندنا"

من أقوال فلاح أبو جعشة

تصدير

قسم كبير من هذا الكتاب بحالته الأولى، نظراً لأنى كنت أتجول من يوم إلى آخر بين رمال الصحراء الكبرى. لكن الفحص الدقيق للمادة متباينة الأنواع التى جلبتها معى من الربع الخالى هو الذى حتم علىَّ إعادة صياغة الكتاب كله، ليصبح بالشكل الذى هو عليه حاليًا - فى ضوء ضغوط ظروف الطباعة الحديثة - عبارة عن نتائج كاملة "لعطلة" استمرت أشهراً عدة أمضيتها فى ويلز Wales. وأنا أرجو القارئ أن يسامحنى ويغفر لى الأخطاء والتكرارات التى قد يعثر عليها، على الرغم من فحصى الدقيق للبروفات. وأنا لا يسعنى إلا أن أشكر هؤلاء الذين قدموا لى يد العون فى إعداد هذا السجل والوصف الذى وضعته لأرض كنت أعدها منذ سنوات طويلة هدفًا لطامحى وآمالى، وأشكرهم شكراً عظيماً .

وإذا ما نحينا جانبًا نجاح هذا العمل الذى جرى التفكير فيه وتدبره وتنفيذه، وهو ما يعد مكافأة فى حد ذاته، نجد أن المستكشف الحديث أوفر حظًا من سابقيه، إذ يجد عند عودته جمعًا من العقول والأذهان الخبيرة والمتشوقة، ومستعدة للانقضاض على ما قام هذا المستكشف بجمعه لتعمل فيه عملها وتفصل الغث عن السمين من خلال "منخل وغربال" معارف هذه العقول وخبرات تلك الأذهان. التقييم النقدى الذى تأتى به هذه العقول والأذهان، حماس هذه الأذهان لحشرة من الحشرات أو حيوان من الحيوانات ، ناهيك عن فوهات البراكين الحجرية!، أحلى وأشهى عندى من امتداح وثناء الدهماء على مثل هذا الكتاب. يزاد على ذلك أن الجزيرة العربية لا تزال غير معروفة لقسم كبير من هذا العالم الذى نعيش فيه، الأمر الذى يزيد من جمال الأعمال التى تصدر عن أصحاب العقول المفكرة .

وضعت فى نهاية الكتاب، وعلى شكل سلسلة من الملاحق ، التقارير ، أو بالأحرى النتائج، التى جرى استخلاصها من المادة التى جلبتها معى بواسطة خبراء متعددين فى الفروع المختلفة، وقد تمت الإشارة إلى عمل كل خبير من هؤلاء الخبراء فى كل من المتن والملاحق، وأنا لن أثقل على القارئ منذ البداية بقائمة الأسماء الواردة فى هذا الكتاب، لكنى أدعو القارئ (أو القارئة) إلى دراسة الملاحق دراسة دقيقة، إذا ما أراد هو (أو هى) تفهم الربع الخالى تفهمًا تامًا وكليًا إذا ما أراد القارئ ذلك .

وأنا أتقدم بخالص شكرى وعظيم امتنانى لكل من الدكتور إل. جى. سبينسر Spencer وزملائه من أعضاء المتحف البريطانى، الذين قاموا بعمل بعض من هذه الملاحق، وأشكر أولئك أيضًا الذين وضعوا تحت تصرفى ويسروا لى الاطلاع على المادة المستخدمة فى كل من الملاحق والمتن، وأخص بالشكر الدكتور سى. تيت ريجان Tate Regan ومسئولى المتحف البريطانى بشكل عام. ويسعدنى القول هنا إن المادة التى جرى جمعها خلال هذه المهمة التى قمت بها أهداها جلالة الملك عبد العزيز ابن سعود، ملك المملكة العربية السعودية، إلى المتحف البريطانى، وأنا بدورى قمت بإهداء هذه المادة إلى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود فور عودتى من الصحراء، وأشكر لجلالته رعايته لى وعونه لى فى كل ما استطعت الوصول إليه من مهمتى إلى الربع الخالى .

وأوجه شكرى بصفة خاصة إلى الجمعية الجغرافية الملكية فيما يتعلق بالخارطة المرفقة بهذا الكتاب، كما أشكر الجمعية أيضًا على الإحصاءات التى نجمت عن المعلومات التى سجلتها الآلات، ولا يسعنى إلا أن أكرر شكرى للجمعية على المساعدات الأخرى، وعلى تشجيعها لى، وتقديرها لكل ما قمت به ، على نحو لم يحظ به أى مستكشف آخر من الرائحين أو الغادين. وأنا أخص بالشكر أيضًا كلاً من الأدميرال السير وليام جودنوف Goodenough، والسيد إيه. آر. هنكس، كما أشكر أيضًا

السيد إيه.آر. ريفز Reeves والسيد هـ. ف. ملن Milne الذى قدم لى خدمات بلغت من الأهمية حدًا يصعب معه نسيانها .

وأشكر أيضًا أولئك الذين وردت أسماؤهم فى مواضع بعينها، والذين تقدموا باقتراحات حول موضوعات بعينها، كان لا يمكن لى مناقشتها إلا بفضل عونهم ومساعدتهم لى. وعدم إدراج أسماء هؤلاء الناس فى هذا التصدير لا يمكن أن يكون نكرانًا للجميل، وإنما أرجأت ذكر أسمائهم لترد ضمن صفحات محددة من هذا الكتاب، فى حين أوجه لهم جميعًا خالص شكرى وامتنانى فى شخص اللواء السير بيرسى زد. كوكس Percy Z. Cox الذى شرفنى بتصفح البروفات الخاصة بالكتاب، وتقديم بعض المقترحات التى ترمى إلى زيادة الكتاب حسنا على حسنه .

وأخيرًا أتقدم بخالص شكرى وعظيم امتنانى لزوجتي، التى ساعدتنى على إكمال نص هذا الكتاب أو متنه، بفضل توليها مسألة طباعة الكتاب على الآلة الكاتبة من واقع أوراقى المحفوظة .

هارى سينت فيلبى

ميودا، نوفمبر ١٩٣٢

مقدمة

بعد أن قلنا كل شيء وقمنا بكل شيء، يمكن القول إن الربع الخالى لا يعد مبرراً للألوان الجذابة التى أضفاها عليه بعض الرحالة الأوروبيين من ناحية، والتى يضفيها عليه أيضاً العرب المستقرون الذين لم يدخلوا الربع الخالى مطلقًا حتى يروا ما بداخله، كل ذلك على الرغم من أن عبور الربع الخالى بحد ذاته يعد مغامرة يجب ألا يستخف بها أولئك الذين ليست لديهم بسائط الخبرة والتجربة(*) .

بقيت حياتى طوال خمسة عشر عاماً لا يسيطر عليها سوى طموح واحد وفكرة واحـدة، أو إن شئت فـقل هاجس واحـد لا ثانى له، وأنا طوال هذه السنوات كنت بصدق، وأمانة وتشدد وبلا هوادة أطارد هذه الطريدة، التى ترقد أمام القارئ حاليًا، فى شكل هذه الصفحات بعد أن قمت بتشريحها، وعنونتها ووصفها. قد لا أكون حققت كل ما أبتغيه، أو انتويت عمله، لكنى أنجزت ذلك الذى يريح نفسى، ويحررها من إسار قيودها. وقد لا أكون أيضاً أنا الوحيد الذى قام بهذا العمل، أو أول من دخل فى هذا السباق، هذا الرجل هو برترام توماس Bertram Tomas الذى يستحق عن جدارة مجد الريادة. وأنا لم أفعل شيئًا سوى التقاط فضلات حصاد ذلك الرجل، على الرغم مـن أن المسـألة لم تكـن مجـرد مصـادفـة أن نكون قد عملنا سويا وفى اتجاه واحد، فى بستان عمُّون(**) قبل سفره إلى عمان Omman، وبذلك ينطبق علينا قول الشاعر العربى القديم :

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رمانى

(*) قلب الجزيرة العربية، الجزء الثانى، ترجمة د. صبرى محمد حسن المجلس الأعلى للثقافة، مصر. (المترجم)

(**) عمُّون: بفتح العين وتشديد الميم وضمها، هو شعب سامى كان يسكن شرق الأردن. (المترجم)

القسم الأول

جافورة وجابرين

الفصل الأول

رفع الستار

كانت أعصابي مشدودة منذ فترة طويلة، وكانت على وشك أن تفلت مني وتصيبني بخيبة الأمل والإحباط، إلى حد أن مخي لم يتفاعل إلا تفاعلاً بطيئًا مع الصدمة التي كانت تنتظرني حين عودتي من العقير. جاءني مراسل من عند بن جلوي. قال المراسل: الأمير يحييك، وهاهي الإبل والرجال مستعدون، وبوسعك أن تبدأ رحلتك وقتما شئت. واقع الأمر أن ذلك كان خبراً طيباً، لكني لم أكن مستعداً بعد لبدء الرحلة. كنت قد أصبحت معتاداً على التأخير، ولكن لم يخطر ببالي مطلقًا أني كنت مسئولاً عن ذلك التأخير في أية مرة من المرات. لم يكن بوسعي إضاعة أية دقيقة، نظراً لرواج شائعة مفادها أن الملك أوشك على الوصول إلى الهفوف. وصول الملك ووجوده سوف يصرفان الانتباه عن مسألة البدء في الرحلة التي أزمع القيام بها. ومع ذلك كانت هناك الحقيقة التي مفادها أني لست مستعداً بعد. واقع الأمر أن بعض الأفراد المهمين، كانوا قد تخلفوا مع سيارتي في الرمال العميقة الناعمة في منطقة الكثبان الرملية الكثيفة على بعد ميل من العقير. كنت قد ذهبت إلى هناك بصحبة واحد من أشقاء القصيبي للقاء شقيق آخر كان يتوقع وصوله قادماً من البحرين، وبذلك أكون قد أكملت عبوري الثاني لشبه الجزيرة العربية - كان العبور في هذه المرة بواسطة السيارة - من البحر إلى البحر، كنت سعيدا بالفرصة التي تهيأت لي ومكنتني من فحص وقياس ودراسة منطقة الحطام، التي لم يخامرني شك في أنها موقع ميناء جرها البحري القديم. وقد سررت أيضًا للخبرة الطيبة التي اكتسبتها من رحلتي القصيرة التي التقيت فيها محافظ العقير، عبد الرحمن بن خير الله، الذي

سبق أن نزلت عليه ضيفا فى العام ١٩١٧ الميلادى، قال لى عبد الرحمن بن خير الله: لقد أصبحت نحيفًا، لكن الحمد لله الذى هداك إلى الطريق القويم. لقد كبر سن الرجل، واشتعل رأسه شيبًا، وأصبح لين العريكة. تحدثنا معًا، عن الأيام الخوالى، ونحن نرشف الشاى والقهوة. ترى، وماذا عن ابن سويلم، الذى كان محافظًا للقطيف فى تلك الأيام؟ لقد توفى ابن سويلم منذ سنوات قلائل، يرحمه الله! وقد خلفه ولده محمد، لكنه نقل إلى مكان آخر، حدث ذلك منذ حوالى عامين من الآن، وجرى إرسال ابن ثنيان إلى القطيف بدلاً من محمد بن سويلم. والله أنا أتمنى أن أنقل من هنا، لكن خدمة الملك هى رغبتى الوحيدة. الله كريم. عزف كلام الرجل على وتر غريب فى ذاكرتى، قبل خمسة عشر عامًا، وفى هذا البهو على وجه التحديد، كان الرجل قد قال لى هذا الكلام نفسه. ذكَّرت الرجل بتلك المصادفة. ورد على قائلاً: نعم أنا ما زلت هنا بعد كل هذه السنوات الطوال، التى لم أغادر المكان طوالها مطلقًا إلا لزيارة الأحساء بين الحين والآخر، وفى العام الماضى أيضًا عندما أذن لى بالذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج – الحمد لله. لماذا لم أذهب طوال هذه السنوات مطلقًا إلى البحرين؟ قلت فى نفسى، يا له من تناقض، بين حياته الهادئة فى كنف وظيفته العاطلة والسنوات العاصفة التى قدر لى أن تكون من مصيرى منذ لقائنا الأخير!

فى اليوم التالى كانت سيارتى قد غرست منى فى صدع أرضى رملى طبيعى، الأمر الذى اضطرنى إلى ترك متاعى لإحضاره فيما بعد، فى حين قمت أنا برحلة عبر كثبان رملية منتفخة فى هذا المحيط من الرمال، راكبًا على رفرف إحدى السيارات التى كانت تحمل الأدوات المنزلية لطبيب الهفوف، ومعها أيضًا عدد من الأطفال والخادمات.

كان ذلك فى اليوم الخامس من شهر يناير. كان ضروريًا أن أستعيد آلة التصوير هى وبعض الأشياء الأخرى من السيارة المغروزة، لكن لم تكن هناك سيارة ذاهبة إلى ذلك المكان. ولم يكن أمامى من حل سوى إرسال خادمى، ذلك الشاب الأعمى جزئيًا من أهل الرياض ويدعى عبد اللطيف، وكنت قد قررت الاستغناء عن خدمات هذا الشاب الذى سيكون عديم النفع لى فى رحلة جادة من هذا القبيل على ظهر جمل، لكى يحضر العدة إلى مكان مناسب حددناه، على أن يكون لنا ملتقى فى الصحراء. وكان ذلك أفضل من تأخير بداية الرحلة، يزاد على ذلك أن سعود الابن الأكبر لابن

جلوى، والذى أوكلت إليه مهمة الشئون الإدارية والتموينية الخاصة بالرحلة، أثبت أنه قادر على تقديم يد العون والمساعدة بلا حدود. حددنا مكانا للقاء وذهب عبد اللطيف - الــذى أعطيته مستحقاته كلها وزدت عليها - بصحبة مرشد من المرشدين لإحضار عدتى إلى بير النابت ؛ وبئر النابت هذا عبارة عن بئر صحراوية يتعين علينا زيارتها.

ومن باب التحوط للأحداث وعى المرشد مكان اللقاء وعيًا جيداً - وهذا من باب جر الخير على نفسه - وحافظ على مقتنياتى القيمة بأن وضعها فى خرج الجمل، لكنه عاد لوحده ولم يكن معه عبد اللطيف. كان عبد اللطيف قد استهوته فكرة مشاهدة شىء من العالم الكبير، وعليه ركب الرجل على ظهر واحدة من البواخر من العقير لكى يلقى نظرة على العجائب وعلى نساء البحرين، مستخدماً فى ذلك عائداته نظير خدماته لى طوال هذه المدة. ولم أر عبد اللطيف بعد ذلك. وعلى أن يستأنف الرجال والإبل المخصصة للمغامرة الكبيرة مسيرهم فى اليوم التالى (الموافق السادس من شهر يناير)، إلى أن يصلوا إلى أبيار الدليقية، وينتظرون وصولى بسيارتى فى صباح اليوم التالى. وسارت الأمور على ما يرام. وتركونى لحال سبيلى أنفذ برنامجًا شديد الدقة، وكنت محظوظًا فيما قمت به - ويرجع الفضل فى ذلك إلى إبراهيم بن معمر، ذلك الصديق القديم منذ الأيام الجميلة فى العام ١٩١٨- وبخاصة فى العثور على بديل للخادم عبد اللطيف، وقد تمكنت من الحصول على ذلك البديل، وهو سعد بن عثمان ، ذلك المواطن الحضرى العنيد من مدينة المجمعة فى سدير ، هذا السعد كان شابًا فقيراً يرجع أصله إلى العبيد - من منطلق أن أمه كانت عبدة عند والده - كما أن لديه شيئًا من الخبرة فى السفر إلى المناطق الأجنبية. كان سعد هذا قد سبق له السفر إلى كل من بومباى فى الهند، والبصرة فى العراق، عندما كان يخدم إبراهيم، كما شارك سعد أيضًا فى الحملة التى جرى شنها على فيصل الدويش، كما شارك أيضًا فى المشاهد التاريخية التى صاحبت اللقاء الذى تم بين الملك بن سعود والملك فيصل على ظهر سفن صاحب الجلالة البريطانى فى الخليج الفارسى فى شهر فبراير من العام ١٩٣٠ الميلادى، كان سعد هذا، فى ذلك الوقت، ليس مجرد خادم عادى. فقد كان صاحب عقل نشط ومتفتح، كما كانت له مطامحه أيضًا. كان سعد هذا ينظر إلى وكأن الله ساقنى

إليه لتحقيق بعض هذه المطامح، وبشكل عام كان سعد ينظر إلى الثروة وتعدد الزوجات على أنهما منتهى السعادة، وأنا بدورى بادلته التملق والنفاق عندما راح يطرى ويثنى على إمكانياتى، ورحت أنا بدورى أطريه على أنه رجل غير عادى.

سعدان - إن صح لى استعمال اسم التدليل الذى كانوا يطلقونه عليه - بذل قصارى جهده لخلق انطباع طيب. وبالاشتراك مع صاحب العمل قام سعدان بسرقة المخزونات الحكومية التى يمكن أن تسهم فى راحتى وراحته أيضًا. سرق النقود، والملابس، والصابون، والبسكويت، والمُسكَّرات، والعطر، وكل ما يمكن أن يخطر على البال، وبحلول مساء اليوم السادس من شهر يناير كانت صناديق الكيروسين الخشبية الثمانية، المزودة بأغطية لها مفصلات وموضوع عليها أقفال، والتى قررت أن أضع فيها أشيائى كلها، قد امتلأت عن آخرها بتشكيلة كبيرة من الأشياء الضرورية وغير الضرورية، أما مسألة تعبئة هذه الصناديق وحزمها وتجهيزها فقد قام سعدان نفسه بالجزء الأكبر منها. كان سعدان على درجة عالية من الكفاءة، وكان مدركًا لأهمية دوره الجديد، لكنه عندما كان يتكلم عن الربع الخالى، كانت تعترى صوته رعشة، وتتدنى روحه وتكاد تسقط إلى قدميه. كان سعدان قد مرت عليه فترة طويلة لم ير خلالها زوجته، التى تركها مع ابنهما الصغير فى مكة، عندما رافق إبراهيم فى أمر مهم يتعلق بمسألة أراضى التاج فى منطقة الأحساء. ترى هل سيتمكن من رؤية زوجته مرة ثانية؟ كانت شجاعة الرجل تزيد وتنقص تباعًا؛ لكن سبق السيف العذل.

فى ذات الوقت الذى كان يجرى فيه حزم الأشياء والصناديق وتجهيزها، قمت بزيارة إلى المحطة اللاسلكية الجوالة فى قلعة إبراهيم باشا لضبط ساعاتى شبه الكرونومترية chronometer على الإشارة الزمنية القادمة من مدينة مقديشيو[١] Magadicio البعيدة؛ وزرت أيضًا عبد الله بن جلوى لوداعه والاستئذان منه. ووجدت مع عبد الله بن جلوى كلاً من رئيس ونائب رئيس الحملة (الرحلة)، وفى وجود ثلاثتنا كتب محافظ الأحساء مسودات لرسالة بعينها يمكن أن تفيدنا فى الصحراء. وبينما قام

(١) الأرجح أن هذه المدينة هى مدينة Makadishu فى الصومال الإيطالى.

السكرتير بتبييض الرسائل على الآلة الكاتبة تمهيداً لتوقيعها منه، تحول عبد الله بن جلوى إلى أولئك الذين سوف يعهد بى إليهم فى السراء والضراء إلى أن تكتب لنا العودة من جديد إلى الحضر. كان عبد الله بن جلوى قد ناقش بالفعل الأمور كلها مع هذين الرجلين مناقشة مفصلة. ولم يكن حديث الرجل فى وجودى سوى نوع من التأكيد الرسمى على مصلحتى، ومع ذلك جاء كلام عبد الله بن جلوى مؤثراً وله مغزاه. قال عبد الله بن جلوى مخاطبًا زايد المنخس، وهو رجل من قبيلة بنى هجر أكثر تحضراً وتابعًا وفيًا، يعمل فى خدمة المحافظ منذ زمن بعيد: "انتبه يا زايد، هذا الرجل عزيز على الملك، وعزيز علينا جميعًا، انتبه ودر بالك على هذا الرجل. وفر له كل ما يطلبه منك. سوف ترافقه إلى جافورة، بل وحتى إلى سلوة" وسكاك وإلى أنباك إلى أن تعود إلى جابرين. ويجب أن تكون خدمتك له مثل خدمتك لى فى الأمور كلها. ومن جابرين سوف تذهبون إلى مقينمة، وما يلى مقينمه لا يدخل ضمن حدودى، والرجل يتكلم أيضاً عن وبار وسوف تأخذه أيضًا إلى هناك – وأنت معك مرشدين يعرفون الصحراء فى هذه الأماكن – سوف تصحب الرجل أيضًا إلى حضرموت إذا ما وفقت فى العثور على أولئك الذين عنونت لهم رسائلى – وهما بالتحديد سيف بن طَّناف ، وابن كالوت، لقد نسيت اسمه، وأسماء أناس آخرين، انتبه وحاول تجنب الخطر، لكن أوصله إلى الأماكن التى يريدها. حياتك مرهونة بحياة ذلك الرجل. يجب ألا يغيب ذلك عن بالك مطلقًا. وأنت عندما تصل إلى هناك، يجب أن تكون عودتك من خلال (عبر) الصحراء، بما فى ذلك الربع الخالى، إلى أن تصل إلى وادى الدواسر. لقد سافر رفاقك فعلاً إلى الدليقية. وأنتما ستركبان مع هذا الرجل فى السيارات غداً. وعليه سيروا فى رعاية الله، لكن يجب أن تنفذ أوامرى وما هو أكثر منها أيضًا". بعد أن انتهى عبد الله بن جلوى من كلامه، دخل رجلان غرفة المجلس، وكانا مبعوثين من قبل الملك. ابتسم هذان الرجلان لى ابتسامة تنم عن المعرفة والتعاطف معى. هذان الرجلان هما: إبراهيم بن جميعة وسعد اليمينى، الذى أوصلنى إلى وادى الدواسر فى العام ١٩١٨ الميلادى. هذا فأل حسن! خطر ذلك ببالى عندما وقفت لتوديع المحافظ، بأن قبَّلتُ جبهته، ورحت أشد على تلك اليد التى دشنت قيامنا بتلك المغامرة العظيمة التى كانت محطًا لأحلامى.

خرجنا من المجلس، وحددنا موعداً للقاء الغد، ثم افترقنا. كــان كـل شيء على ما يرام. قبل الدخول إلى فراشي للنوم قمت بسلخ عضل[1] كنت قد اصطدته من العقير. كـانت تلك آخـر ليلة لي في المنزل، فـضـلاً عن أن نومي كـان عـامـرًا برؤى الكوابيس الغـامـضـة، والتي كانت تدور حـول الفـئـران المسلوخـة سلخًـا غـيـر جـيـد، وأجـهـزة النيوريليت[2] الانعكاسية.

صحوت في ساعات الفجر الباردة. لم يكن أحد قد صحا بعد، لكن سرعان ما بدأ المراسلون يستحثوني كل عشر دقائق، ويطلبون مني التعجيل بناء على أمر المحافظ، كانت السيارات المخصصة لي ولرفاقي وأمتعتي، مطلوبة على وجه السرعة لنقل أناس آخرين إلى مخيم الملك في وادي فاروق، لم تستغرق تفاصيل حزم أشيائي وقتًا طويلاً، وبعد ذلك كان يتعين علينا تناول طعام الإفطار، وكان لابد أيضًـا من توزيع المكافآت على أولئك الذين خدموني في الرحلة التي قمت بها إلى الهفوف، في الوقت الذي كان يجري فيه نقل صناديقي إلى السيارة النقل، عند الساعة التاسعة مساء كانت مجموعة صــغيرة من الأصدقاء قد تجمعت حول السيارات لتكون في وداعنا، وهم مكـلومــون. لم يكن هؤلاء الأصدقاء يتوقعون لقاءنا مرة ثانية، لكن هذا الأمر لم يكن يعنيهم من قريب أو بعيد. وسرعان ما اختفت هذه المجموعة عن أنظارنا عندما انعطفنا عند ركن من أركان شارع الكوت الرئيسي الضيق.

كان صباحًا باردًا وفجًا، وكان الضباب الكثيف يخيم على بيارات النخيل، عندما كنا نجتاز العقد المظلم لبوابة النصر، التي دخل منها ابن سعود إلى الهفوف منتصرًا، بعد استسلام الحامية التركية في العام ١٩١٣ الميلادي. درنا حول أسوار المدينة، ثم انحرفنا بعد ذلك في اتجاه الصحراء وسط الضباب الذي حد من مجال رؤيتنا وجعلها في حدود مائتي ياردة، كما حجب الضباب عنا أيضًا منظر العلامات الأرضية ومعالم الأرض، ونحــن نسيــر خــلال الضباب نحو المجهول. كان الإحساس الذي يراودني،

---

(١) العضل بفتح العين والضاد، حيوان من فصيلة الفأر على قدر الجرذ. (المترجم)

(٢) النيوريليت، يمكن تعريبه على أنه المزولة، لأنه عبارة عن آلة تستخدم في قياس الزوايا . (المترجم)

هو إحساس ذلك الطائر عندما يتحرر من قفصه، كنت خائفًا ومرتاعًا إلى حد ما، ولكنى كنت سعيداً. لقد انزاحت أغلال السنوات الثقال عن روحى. هذا الشبح المخيف الذى كان يتملكنى منذ زمن طويل، بدأ الآن يدعونى إلى الأرض الموعودة. لقد بدأت المغامرة الكبيرة بالفعل.

كنت بطبيعة الحالة ألاحظ العلامات الكيلومترية القليلة الموضوعة فى بضع نقاط معروفة على الطريق – التى من قبيل علامة قلعة الخيزام العظيمة، وعلامة حديقة الثُّليثية التى ركَّبت فيها عائلة القصيبى مضخة دون أن تصيب شيئًا من النجاح، وكانت هناك أيضًا بعض الآبار المهجورة، التى كانت تركيباتها العلوية العارية تبرز من وسط الكآبة المحيطة بها وكأنها العفاريت أو الأشباح. من خلفنا فى المدينة رحت ألتقط صور السوق الخميسى العامرة بالبشر، هذه السوق كنت قد حضرت انعقادها فى الخميس الماضى، وكنت أعجب من طول المدة التى يتحتم على بقائها وسط هذه المباهج غير الضرورية من حاضرة الأحساء. أما سعدان الذى كان يرتعش من البرد والخوف، فقد انكمش فى الكرسى الخلفى فيما بين زايد وعبد الله بن معادى، فى حين كنت أنا أجلس فى مقعد السيارة الأمامى بجوار السائق وراحت السيارة تشق طريقها عبر السهل الجيرى، المتموج، والمغطى بغطاء رقيق من الرمل، إلى أن تجاوزنا منطقة حدبة التلاعية، ثم دخلنا بعد ذلك إلى الرقعة الصحراوية التى يسمونها الغويبة، وهى عبارة عن منطقة رملية كبيرة تتخللها، حبيبات رملية خشنة وتنتشر فيها أدغال أشجار الشينان[1]، التى تستأثر كل واحدة منها برابية من الرمال. وهنا أشار السائق إلى أثر عجلات سيارة ينحرف عن مسار سيارتنا، متجهًا صوب تلال جبل أربع، التى تعد ملحمًا واضحًا من ملامح المشهد، لكنها ليست ظاهرة الآن بفعل كثافة الضباب. توجد فى أعالى تلال جبل أربع، التى تأثرت تأثرًا كبيراً بعوامل التعرية، كهوف متعددة يتردد عليها، محافظ الأحساء هو وأصدقاؤه عندما يقومون بصيد الغزال والحبارى، وآثار عجلات السيارات هذه تنبئ عن كثير من الرحلات التى قام بها الناس فى هذه

---

(١) يرجى الرجوع إلى الملحق فيما يتعلق بالنباتات الواردة فى المتن.

الأرض الرملية الجرداء، التي تصبح غير صالحة لسير السيارات فيما وراء قناة خط السَّبخة[1] الذي يتعين علينا تجاوزه في فترة ما بعد الظهر.

برز لنا فجأة من خلال الضباب جدار من اللَّبن، لنجده أمامنا وفيه قلة قليلة من أشجار النخيل. كنا قد قطعنا الأميال العشرة التي نصل بعدها إلى الدليقية، وهذا يعني أن أحداً منا لن يركب في أي سيارة من السيارات إلا بعد وقت طويل. وصلنا إلى محطة من محطات الوقوف ونزلنا من السيارات. وبرزت لنا من بين الضباب حوالي عشر شخصيات، جاءوا لتحيتنا والترحيب بنا وتفريغ اللوري من حمولته. كان هؤلاء الرجال يتحلقون حول نار المخيم طلباً للدفء أمام واحدة من الخيام مزدوجة الأعمدة. وكانت هناك خيمة أخرى، ذات عمود واحد، ودائرية وواسعة – ناهيك عن الديكورات الداخلية الجميلة – منصوبة على بعد مسافة قليلة من الخيمة ذات العمودين، ومخصصة لاستعمالي الشخصي. وكان هناك قِدْر موضوع على نار أخرى لكي يكون جاهزاً عند تقديم الوجبة الأولى المكونة من مجرد أرز مسلوق مخلوط بالسمن[2]. وفي الوقت ذاته قمت بعملية تقديم نفسي لرفاقي في التجوال – كنت قد تعرفت سعدان منذ أكثر من أسبوع. أما زايد وابن معدي، الذي كان مطوِّعاً للجماعة (مرشداً دينياً) بالإضافة إلى كونه نائباً لرئيس الجماعة، فكنت قد التقيته عصر اليوم السابق. أما بقية أفراد الجماعة فلم أسمع عنهم أو رأيتهم مطلقاً من قبل. وربما كان ذلك أفضل. بدأنا ترحالنا بدون إساءات أو أفكار مسبقة. بعض منهم كانوا يصافحونني بحرارة شديدة، وبعض آخر كانوا يحيوني بقبلة السلام. كانت تبدو عليهم الغلظة والشدة، لكنهم في اللحظة الراهنة يقاسون من البرد الشديد. كانت درجة الحرارة في الخلاء عند الظهيرة، أو بالأحرى عندما كانت الشمس تكشف عن نفسها في ضعف من خلال الضباب، حوالي ٥٠° فهرنهيتية.

(١) مسطح مِلْحي أدواري.

(٢) هذا السمن هو ما يطلق عليه الهنود اسم "الغي" chi، لكنه في الجزيرة العربية يصنع من حليب الأغنام.

جلسنا نحن، الثلاثة عشر فرداً حول طبق الأرز الكبير لكى نوطد أواصر صداقتنا وزمالتنا، وأنا أرى أن هذه المناسبة كانت كافية حتى أتمكن من معرفة رفاقى، الذين ستثير أسماؤهم فى ذاكرتى الكثير من الذكريات عن الآلام والملذات، لذلك الذى أصفه بأنه أعظم وأبهج خبرات حياتى كلها.

كان زيدان بن مُنخَّس، كما سبق أن قلت رئيساً للجماعة. أما عبد الله بن معدى، فكان نائبًا لرئيس الجماعة ومطوعًا لها. عبد الله بن معدى هذا كان من بنى عمر أحد أفخاذ السبيع، لكنه كان حضريا مثل زايد وموطنه واحة رانية.

كانت قبيلة مرة العظيمة، التى تقيم فى الصحراء الكبرى الجنوبية، ممثلة تمثيلاً قويًا بواسطة أربعة من أعضائها هم:

علي بن صالح بن جهمان من فخذ غفران، مرشداً رئيسياً.

محمد بن حميد من الفخذ نفسه، مرشداً.

سالم بن سويليم، من فخذ دمنان، مرشداً.

سويد بن حادى آل عزمه، من الفخذ نفسه، مرشداً.

وكان لقبيلة العجمان ثلاثة ممثلين:

حسن خر الذيب، من فخذا بن جمعة.

فالح أبو جعشة، من فخذ عرقة.

فراج، وَلَدْ عم فالح من الفخذ نفسه أيضاً.

كانت العناصر غير القبلية ممثلة على النحو التالي:

سعد بن إبراهيم الوشمى الضرمى، المسئول الخاص عن جملى وعن السرَاجة(*).

عبد الرحمن بن خريبيش، الضرمى أيضًا، مسئولاً عن القهوة وتصليحها.

(*) السراجة: بتشديد السين وكسرها وفتح الراء، هى حرفة السراج. (المترجم)

زايد بن حبيش، طباخ.

عبد العزيز بن مسينيد، مسئول عن دواب النقل، وسعدان خادمي الخاص، وقد سبق أن تحدثت عنه بما فيه الكفاية.

كان ذلك تشكيل الجماعة التي انضمَّت إليها في مكان اللقاء، جماعة مكونة من خمسة عشر فرداً أنا من بينهم، كان اثنان من أفراد هذه الجماعة مشغولين عندما جرى تقديم الإفطار للثلاثة عشرة الآخرين، في الوقت الذي تأكدت فيه من أننا سنصحب أربعة آخرين أثناء عبورنا صحراء الجافورة، وبذلك يصل عدد أفراد الجماعة التي تسعة عشر شخصا. وختاماً لهذه القائمة سوف أضع وأدون أسماءهم هنا على وجه التحديد:

حميد بن أمهج، من قبيلة المناصير (جماعة أبو رحمة).

صالح بن عزيز من قبيلة المناصير أيضاً (من جماعة آل بو منظر).

على بن صالح من فخذ البوهية، من قبيلة مرة.

ومحمد بن رشيد، وهو من فخذ البوهية أيضاً.

بذلك تكون جماعتنا ممثلة تمثيلاً جيداً للقبائل الصحراوية الثلاثة المهمة: قبيلة مرة (لها ما لا يقل عن ستة ممثلين)، وقبيلة المناصير (ممثلان)، وقبيلة العجمان (ثلاثة ممثلين)، لكن لا يسعنى إلا أن أعرب عن خيبة أملى لخلو الجماعة من ممثلين من القبائل الجنوبية، التى من قبيل السعار، والمناهيل، ورشيد والأفخاذ الأخرى من أهل كثير، لم يكن أحد من تلك القبائل أو الأفخاذ موجوداً فى الأحساء فى ذلك الوقت، وكنا نتطلع إلى استئجار البعض منهم فى الرمال الجنوبية بفضل الرسائل التى نحملها معنا من ابن جلوى، كان كل من زايد وابن معدِّى يمثلان العنصر الحضرى الذى من أصول قبلية، فى حين كان باقى أفراد الجماعة من سكان المدن الخُلَّص النقيين البسطاء الذين كانت توكل إليهم أعمال محددة.

أكتفى بهذا القدر عن العنصر البشرى فى هذه المهمة.. كان معنا اثنان وثلاثون جملاً، كلها من النياق باستثناء جمل واحد ذكر، وكانت هذه الإبل كلها من سلالات

عمانية مختلفة، والتى تعد من أحسن السلاسلات الإبلية، شأنها فى ذلك شأن الحصان النجدى بين الخيول الأخرى. كانت إبلنا كلها من سلالة الرمال، أو بالأحرى من النوع الذى يعــرف باسـم الرمليــات، وذلك على العكس من الإبل التى تعـرف باسم إبل التحدرات أو المنحدرات، التى تجرى تربيتها للعمل فى الرمال السحيقة، كانت ثلاث من بين هذه النياق، من إبل الحليب[1] وقد جرى تخصيص واحدة من تلك النياق بناء على أوامر من ابن جلوى، لاستعمالى الشخصى، كان ثمن تلك النياق يتردد ما بين ٥٠٠ دولار (أى حوالى ٢٥ جنيه إنجليزى) إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ دولار. والأسعار التى من هذا القبيل تعد أسعاراً عالية فى الجزيرة العربية فى الوقت الحالى، على الرغم من أن أسعار هذه الإبل ترتفع إلى ما هو أكبر من ذلك فى زمن الحرب. والذى لا شك فيه أن أسعار إبل الركوب من الدرجة الأولى فى كل من مصر والسودان أقل بكثير من هذه الأسعار.

كان واضحًا أن لدينا كمية كبيرة من المؤن والتموينات، نظراً لأن التموين جرى حسابه على اعتبار أن المهمة سوف تستغرق ثلاثة أشهر، وواقع الأمر أننا عندما عدنا إلى العالم المتحضر بعد شهرين ونصف الشهر أمضيناها فى الصحراء، لم يكن معنا من المؤن والتموينات سوف القليل جداً منها، كان التمر والأرز يشكلان القسم الأكبر من تلك المؤن والتموينات (وكان هناك زمبيلان خاصان من تمر الخلاص الأحسائى، أمـر المحـــافظ (ابــن جلوى) بتخصيصهما لاستعمالى الشخصى، فى حين كان البن، والشـاى، والسكر، وكذلك الزبد، بالإضـافة إلى المكملات مثل الهيل، والقرفة، والبصل، والملح، والفلفل.. إلخ، كل ذلك جرى أخذه بعين الاعتبار ووضعه فى الحسبان. وواقع الأمر، أن النقص الخطير الوحيد، الـذى أدركته مؤخراً، كان يتمثل فى الدقيق، لم يكن معنا من الدقيق شىء طوال شهرين ونصف الشهر – وطالما اشتقنا لذلك الدقيق. ليس هناك ما هو أجمل وأكثر إشباعاً من كتلة من الخبز البرى المخبوز على رماد النار الحار، ذلك النوع من الخبـز الذى يكون معجـوناً مع التمـر أو السكر والزبد يسبب

---

(١) ناقة الحليب يسمونها ميش (والجمع مشوش) – وهذه النياق غالباً لا تصحبها صغارها، والعرب يطلقون على صغير الناقة اسم خلفة.

التخمة، وبخاصة عندما يجرى تقديمه في وجبة السحور في رمضان. صحيح أنه بفضل سعدان، استطعت الحصول على عشر علب من علب البسكويت لاستعمالي الشخصي، لكن البسكويت حلو المذاق لا يحل محل الخبز العادي، يضاف إلى ذلك أنني تعجلت إفراغ علب البسكويت على وجه السرعة، لكي أستعملها أوعية لحفظ الحشرات، والحفريات، والأشياء الأخرى التي جُمِعَتْ أثناء مضينا قدماً في رحلتنا.

كان أحد المتفائلين قد جاءني بصحبة رفاقي في اليوم السابق، على أمل أن يعرض علي، وبسعر مغر يعود عليه هو نفسه بربح وفير، صقراً أعطاه له مالكه بعد أن استاء منه وأصبح غير راض عنه. تصورت في بداية الأمر أن هذا الرجل من أفراد الجماعة، وكنت على استعداد لمصالحة نفسي مع الظروف، ولكن سعدان سرعان ما اكتشف سوابق ذلك الطائر، ونظراً لأن زايد رفض تأكيد قدرة ذلك الصقر على الوفاء بما يطلب منه، فقد اعتذرت في الوقت المناسب عن شراء ذلك الصقر، الأمر الذي جعل البائع يعود خائب الأمل إلى الهفوف في سيارة النقل التالية المتجهة إلى الهفوف. لاحظت بالقرب من نار المخيم نوعيه بسيطة من فخاخ الطيور، لكنه كان فخًا عبقريًا، والواضح أن هذا الفخ كنا قد نسيناه بفعل واحد من أفراد الجماعة، الأمر الذي حال بيننا وبين اصطياد طيور الصحراء الصغيرة. واستطعت بعد ذلك تأمين نوع من هذا الفخ من بلدة بيشة، لكن كان أوان الاستفادة من ذلك الفخ قد فات وانتهى، وذلك على الرغم من انتهازي فرصة وجودي في الدليقية للتحدث إلى رفاقي عن رغبتي في جمع الطيور، والفقاريات، والمخلوقات الأخرى، كما أعربت لهم عن استعدادي لمكافأة أي واحد منهم يقدم لي عونًا أو مساعدة في هذا الاتجاه.

وفي وجبة طعامنا الأولى، ومع القهوة التي أعقبتها، استطعنا إيجاد جو من الصداقة والود، وقد أحسست بالرضا عندما وجدت رفاقي لم يتأففوا أو يعارضوا رفضي لاقتراحهم، الذي مفاده أن من الأفضل لنا في ظل الظروف القائمة تأخير موعد بداية الرحلة إلى اليوم التالي، كان بودهم لو أنهم أمضوا فترة العصر في التدفئة حول نار المخيم، لكنني لم أتحمل ضياع الوقت هباء. يضاف إلى ذلك، أن وصول الملك ووجوده في الهفوف في الوقت الراهن، كان مبرراً كافياً لي كي أمشي أنا وبقية الجماعة بعيداً عن متناول الوصول إلينا. وعليه شرعنا في تقويض الخيام، ووضع

حقائبى فى جوالات داخل خرج[1] الإبل المصنوعة فى الأحساء، كما قمنا أيضاً بترتيب الأحمال وتنظيمها.

بينما كان رفاقى مشغولين بتحميل أمتعتنا ومؤننا، قمت بجولة صغيرة تفحصت خلالها المزرعة الصغيرة - وهى عبارة عن تحويطة مسورة من اللِّبِن داخل بيارة من بيارات النخيل، وتصل مساحة هذه البيارة إلى حوالى نصف فدان وفيها بئر، كانت هناك قطعة صغيرة من أرض هذه المزرعة مزروعة بالدخن (الذرة العويجة)، فى حين كانت هناك حقول صغيرة مزروعة بالقمح تحيط بهذه المزرعة من الخارج. هذه المزرعة كانت غير مؤجرة فى ذلك الوقت، وصاحب هذه المزرعة رجل يدعى ابن وتيد وهو أصلاً من وادى الدواسر. وباعتبار هذه المزرعة الصغيرة هى آخر اتصال لنا بالحضارة، فقد بدأنا مغادرتها فى ظروف مناخية سيئة للغاية، فقد بدأت تهب علينا ريح كئيبة باردة معتدلة القوة، وغطت المشهد كله وكانت تهب من الاتجاه الشمالى الغربى، يضاف إلى ذلك أن الأفق كان عبارة عن جدار رمادى اللون، وضباب مشبَّع بالرطوبة، كانت تنبعث من خلاله بين الحين والآخر إشارة خافتة تفيد أن الشمس فى مكان ما خلف هذا الجدار، وبذلك أصبح من الصعب علينا تحقيق المزيد من التقدم فى الفترة المتبقية من فترة العصر، لكن بوسعنا أن نبدأ وهذه البداية يمكن أن تحوِّل سيرنا إلى عملية روتينية فى أضعف الأحوال. كنت أحس أيضاً، وعن قناعة، أن تحركنا ولو لمسافة قصيرة يمكن أن يكون بداية طيبة وحكيمة لعضلات لم تتعود ركوب الإبل منذ زمن طويل، كنت لم أركب جملاً منذ موسم الحج السابق فى شهر أبريل، الذى جرى خلاله اختبارى اختبار يسيراً، فى حين أنى قبل هذا الموعد لم أقم مطلقًا بركوب الإبل وذلك اعتباراً من رحلتى التى قمت بها من رابغ إلى وادى فاطمة، ثم العودة فى العام ١٩٢٥ الميلادى.

---

(١) هم يسمون هذه الخروج (واحدها خرج) محاسين (واحدها محسن)، أو قد يقولون لها خسايف (واحدها خسيفة)، وهى تصنع من ليف النخيل الذى ينسج حول هيكل من الحبال، وبذلك تصبح هذه الخسايف متينة تماماً.

بدأنا تحركنا عند الساعة الواحدة والنصف مساء، وسرعان ما اختفى من أمامنا نخيل الدليقية المعتم الشبيه بالأشباح فى الضباب الذى تركناه وراءنا. ثم تجاوزنا بعد ذلك مباشرة سور قصر القرّاضي المصنوع من اللَّبن الموجود وسط أرض رملية جرداء ينتشر فيها هنا وهناك الحصى والزلط، الذى لاحظت خلاله كمية كبيرة من المرويت الذى يميل لونه إلى الابيضاض. وقد أدى هروب واحد من الإبل إلى توقفنا فترة قصيرة لاستعادة ذلك الجمل وتعديل حمولته، وقد تبدى لنا أن كثيراً من الإبل كانت تحمل أحمالاً ثقيلة، على الرغم من أن الإبل التى كانت تحمل أغراضى الشخصية كانت تمضى مسرعة بالمقارنة بالإبل التى كانت تحمل أدوات المطبخ والتموينات والمؤن، أما ركوبتى الخاصة فكانت عبارة عن حيوان (جمل) ضخم له سنام شبيه بالجبل، الأمر الذى كان يجعلنى فى مستوى أعلى من مستويات رفاقى الذين كانوا يركبون إبلاً أصغر منه. يضاف إلى ذلك أنى لم أعثر على البحرانية، لأن ذلك كان الاسم الذى تحمله ناقتى باعتبار أنها جاءت من البحرين، على سبيل الهدية من الشيخ حمد إلى ابن جلوى – التى هى مريحة فى الركوب. وعلى الرغم من كبر خطو تلك الناقة فإنها كانت تمشى متكاسلة وتغرس أرجلها فى الرمل.

نحن الآن فى منطقة من السلاسل الرملية المنخفضة التى تنتشر فيها وتغطيها أعشاب الشينان، الذى ينتج الناس من رماده بعد حرقه نوعًا من الصابون يذاع أنه ممتاز فى أغراض الغسيل. هناك نبات آخر يسمونه نبات الحرم، وهو نبات كثير العصارة، يستخدم هو الآخر فى إنتاج الصابون، على الرغم من أنه متدنى الجودة عن النوع الأول من الصابون، فضلاً عن إضراراه بالملابس. وسط هذه المتطقة من الرمال المتموجة وصلنا إلى قصر الضُّويبان وتوقفنا عنده؛ وقصر الضويبان هذا عبارة عن مبنى مهجور شبيه بالقلعة يوحى بأنه كانت تعيش فيه جماعة من الناس فى الماضى البعيد عندما كانت هناك أبيار عامرة بالماء تكفى أغراض الزراعة.

انتشار أشجار الأثل (الطرفاء) وأدغاله فى المنطقة المجاورة لنا، يجعلنا لا نشك مطلقًا أننا كنا فى وادى طمرته الرمال، ويعد فرعًا من أفرع الصرف القديمة، يزاد على ذلك أن اكتشافنا لتلك البئر الجافة إنما يؤكد هذا الانطباع ويدعمه. المبنى الذى على شكل أنقاض فى الوقت الراهن، يبدو أنه كان مكونًا من قلعة عبارة عن طابقين فى

مربع طول ضلعه أربعون خطوة، ولها فناء مفتوح على شكل مربع طول ضلعه خمس وعشرون خطوة؛ وهذا الفناء يجاور القلعة من ناحية الشرق، ومحور هذين المنشأين يمتد من الشرق إلى الغرب. عثرنا بين أنقاض هذه البناية على قطع صغيرة من الفخار العادى، وسوارات من الزجاج وما إلى ذلك، وهذه الأشياء شبيهة بالأشياء التى عثرنا عليها فيما بعد فى جابرين، وشبيهة أيضاً بما عثر عليه الرائد آر. أى. شيزمان فى منطقة سلوة فى العام ١٩٢١ الميلادى، ومسألة تحديد العصر الذى تنتمى إليه هذه التذكارات أمر يصعب القطع به، وسوف تتهيأ لى فرصة مناقشة هذا الأمر مناقشة مستفيضة عندما أتناول مسألة جابرين، لكن ما أهمنى أكثر من ذلك هو تلك البلاطات، هى وبقايا ذلك النوع من الصخر الهش الذى يحتوى على بقايا حفرية كثيرة، ويبدو أن بناة هذه القلعة استخدموا هذا النوع من الصخر الحفرى فى تقوية الطوب الذى كانوا يصنعونه من الطين، وعلى حد معرفتى، فإن هذه النوعية من الصخور لم يجر العثور عليها فى منطقة الأحساء، كما يبدو أيضاً أن هذه النوعية من الصخور جرى جلبها من القمم الصخرية التى تمتد على طول الساحل وإلى مسافة كبيرة فى هذه المنطقة. لابد من العثور على مادة شبيهة فى القلعة الموجودة فى سلوة، لكن هذه المادة ليست موجودة فى جابرين، ويبدو أن هذه المادة من العصر الميوسينى. إذا كانت الصوبيان تذكاراً من تذكارات الاحتلال القرموطى فى القرن العاشر الميلادى، على وجه التقريب، وهى الآن وكما تتراءى لنا، ليست سوى مأوى للذئاب والبوم والضباع، وهذا يعنى أن الإنسان فى هذه المنطقة تخلى عن الصراع غير المتكافئ مع رمال الصحراء.

بعد استئناف مسيرنا مباشرة دخلنا مجرى السبخة الواسع، وهو عبارة عن حزام من الطين المشبَّع بالملح يصل عرضه إلى حوالى ٥٠٠ ياردة، وهذا الحزام يفصل سهل الغويبة عن المنخفضات الرملية فى منطقة المطيوى. يقال إن رأس هذه القناة المالحة موجودة عند أبيار الخويرة، التى تبدأ منها، متجهة شمالاً، على شكل مجرى متعرج إلى أن تقترب من كل من بيشة، وطراف على الحدود الشرقية لواحة الأحساء الكبيرة، وأنا عندما مررت خلال هذه الأجزاء وأنا فى طريقى من وإلى العقير كان هناك مستنقع أو بحيرة كبيرة فى الناحية الجنوبية من الطريق.

وهنا لاحظت زايد، الذى قال بأنه يعرف هذا الجزء من البلاد حق المعرفة، ووجدته ينحرف عن المسار المباشر متجهًا نحو أبيار المطيوى، التى سبق أن أعربت عن رغبتى فى زيارتها. هذا يعنى أن زايد قد غير رأيه مستهدفا الوصول إلى منطقة مناسبة للتخييم على وجه السرعة، وهنا خطر ببالى أن أراجعه على وجه السرعة، وأن نتفق على ألا يقوم بأى تغيير فى الخطط الموضوعة إلا بعد أن نتشاور معًا. قال زايد إنه لم يكن يعرف أننى أرغب فى زيارة تلك الأبيار غير السارة بالمرة، لكنه غير المسار، دون أن ينطق بكلمة واحدة، واتجه صوب تلك الأبيار. وفى ذات الوقت أرسل زايد إبل حمل الأمتعة إلى مكان التخييم الذى سبق الاتفاق عليه، فى حين سرنا نحن الاثنين على الضفة اليمنى لمجرى السبخة مدة نصف ساعة إلى أن وصلنا إلى أبيار المطيوى، هذه الأبيار عبارة عن حفرتين صغيرتين من حفر الماء، يصل قطرهما من أعلى إلى حوالى قدمين ويصل عمقهما إلى حوالى عشرة أقدام عند مستوى سطح الماء. كانت فوهة كل فتحة من هاتين الفتحتين محمية بتركيبة خشبية ووتل[1]، وحول البئرين توجد دائرة واسعة من الأرض يغطيها زبل الغنم وفضلاتها. تبعد الخويرة عن المطيوى مسير نصف ساعة على ظهر الدواب، والخويرة أيضًا فيها بئران مماثلتان لهاتين البئرين.

كانت فترة العصر قد أوشكت على الانتهاء، وجلبنا شيئًا من الماء – والجميل أن الماء كان حارًا مقارنةً ببرودة الجو – لأغراض الوضوء، واصطففنا فى مكان نظيف بعيداً عن الأبيار لكى نؤدى أول صلاة لنا خلال هذه الرحلة. أثناء السفر يجرى اختصار الصلوات الخمس إلى ثلاث فقط. صلاة الفجر تصلى منفردة وتؤدى كاملة كالعادة، فى حين تكون صلاة الظهر وصلاة العصر على شكل ركعتين لكل صلاة ويجرى الجمع بينهما – على أن يسبق كل صلاة منهما أذان – وصلاة المغرب تؤدى كاملة، وتليها مباشرة صلاة العشاء بأذان مستقل وتصلى ركعتان. وهذه عملية بسيطة جداً وعملية جداً، وتعكس سعة أفق مؤسس الأسلام، وتقديره للمصاعب التى تواجه أية جماعة من الجماعات التى تمضى القسم الأكبر من وقتها فى عملية السفر والانتقال.

---

(١) الـوتل. بفتح الواو والتاء، عبارة عن قضبان تضفر مع الأغصان والقصب (تستخدم فى إنشاء الأسيجة أو الجدران أو السقوف. (المترجم).

خرجنا من دائرة الروث المحيطة بالآبار لندخل في مجموعة من الحفر الرملية المنخفضة ذات الرمال الثابتة في اتجاه الشرق، وكانت عن يميننا وعلى بعد مسافة حوالى ميل تقريبًا سلسلة من الصخر المنخفض. لاحظت أن نسبة كبيرة من الزلط الأسود اللون موجودة بين الزلط المنشور فى هذه المنطقة، التى كانت توجد فيها أيضًا بعض أدغال أشجار الحرم، وكان لكل شجرة من أشجار الحرم هذه ذيل من الرمل شبيه بذيل الطائرة النفاثة، ويمتد إلى مسافة حوالى أربعة أو خمسة أقدام فى اتجاه هبوب الريح - هذا يعنى أن هذا الذيل يتجه ناحية أقصى الجنوب الشرقى، وكانت الريح فى تلك الأيام تأتى من المنطقة المقابلة. فى حوالى الساعة الرابعة والنصف صباحًا دخلنا إلى منطقة من الرمال المتدحرجة التى أسماها زايد حمارير[١] الثوير، من الواضح أن زايد كان يود إدخال السرور إلى نفسى، وأن يبدو وديًا ومحبًا للحوار والسمر، لكن صوت الرجل كان شيئًا ما بين النباح والصِّياء[٢]، وكان شديد النفاق فى تصرفاته. يضاف إلى ذلك أن هذا الزايد كانت فيه عادة سيئة إذ كان يحاول الاستحواذ على انتباهى، إذ كان يتدخل ويحشر نفسه فى تفسيرات، فى اللحظات التى أكاد أن أكون قد وصلت فيها إلى اتفاق مع بدو الجماعة شديدى المراس وأصحاب الرؤوس اليابسة. ومع ذلك، كنت أرى، أن الوقت ما يزال كافيًا ومتسعًا لتغيير العادات التى من هذا القبيل، يزاد على ذلك أنى لم أكن أفضل الإسراع فى الأمور فى الوقت الراهن، على الرغم من أنى تأكدت لنفسى أن زيدا لم يكن على مستوى بعض المرشدين الذين سبق أن عرفتهم. وعليه، ومن سوء الطالع أن يظهر ذلك الزايد على أنه المرشد الوحيد المتيسر على امتداد الأيام القلائل الأولى.

سمعنا صوتًا يحيينا من فوق موجات الرمال المتدحرجة الموجودة على الجهة اليسرى، وسرعان ما وجدنا أنفسنا فى المخيم، فى رقعة من الكثبان الرملية يسمونها المترب، ووجدنا الخيام منصوبة والشاى جاهزًا، كان البرد شديدًا وكانت أطرافى تبدو

(١) جمع حمرور، وهو اسم يطلق على الرمال التى لونهـا وردى مـثل لون رمال النفود. وكلمة نفود لا يشيع استعمالها هنا فى هذا الجزء الجنوبى من البلاد.

(٢) الصياء بتشديد الصاد وكسرها، هو إطلاق الصوت القصير الحاد. (المترجم)

كما لو كانت مشدودة على الرغم من أننا لم نقطع مسافة تزيد على عشرة أميال. كانت نار المخيم توحي بالترحيب في واقع الأمر واقتربت من النار طلبًا لشيء من الدفء قبل أن أقوم بزيارة خيمتي. وبلا تعقل، وإلى أن ابتعدت عن النار بسبب عينيّ اللتين بدأتا تدمعان، آثرت الجانب الأدفأ والأكثر دخانًا، تلك النار التي كان وقودها عبارة عن أغصان أشجار الشينان. ولما كنت أحس البرد وأشعر كما لو كانت أطرافي قد تجمدت، كان من الأفضل لي الوقوف والتمشي بعض الشيء لتنشيط دورتي الدموية. ولكني آثرت النار على ذلك التمشي وراح أصدقائي ينهالون علي بأكواب من حليب النياق الحار المحلَّى بالسكر، بعد أن أتيت على البقية الباقية من الشاي الذي كان في البراد. وفجأة انتابني شعور بالغثيان اتكأت في الخلف على سرج من سروج أحد الأصدقاء علني أتقيأ ذلك البرد – لكن لم يجد ذلك نفعًا. نهضت واقفًا على أمل الذهاب إلى خيمتي، وساعدني رفاقي في نزول المنحدر إلى أن وصلت إلى باب الخيمة، كل ذلك وأنا أحس أني لست على ما يرام، وهناك دخلت في إغماءة أفقت منها بعد أربع دقائق بلا حياة. واستنادًا إلى ما قاله سعدان، فإن وجهي اصفر لونه، وظنوا أني قد وافتني المنية، لكني عندما أفقت أعطوني فكرة كاملة عما حدث، وعلى إثر ذلك دثرت نفسي في فراشي على الفور، ورحت أضع فوقي كل اللحف والبطانيات، بل وحتى السجاد والكليم، ثم أخذت قرصين من الأسبرين كيما أسهل عملية التعرق. وعلى الرغم من الصوف الخشن الذي كنت أرتديه، وعلى الرغم أيضًا من الحذاء الجلدي ذي العنق فإنني كنت أحس إحساسًا شديدًا بالبرد في قدميّ، لكن هذا الإحساس بالبرد زال عني عندما خلعت الحذاء وبدأت أستشعر الدفء الصادر عن البطانيات واللحف في الخيمة التي كانت تعزلني عن الريح الباردة. وسرعان ما بدأت أتحسن، ورحت أتعجب لحدث من هذا القبيل يقع في مستهل رحلة تتطلب لياقة كاملة حتى يمكن القيام بمغامرة من هذا القبيل. وازداد تعجبي، وهنا تذكرت ذلك الذي حدث لي قبل ثمانية عشر شهرًا، عندما كنت في جدة، وألمت بي في عصر يوم من أيام شهر يوليو شديد الحرارة مَلَمَّةٌ، ذكرتني تمامًا بمدى هشاشة الحياة البشرية وضعفها. ترى، هل هذه المَلَمَّةُ التي نزلت بي هنا بمثابة إنذار آخر لي بالتعجيل بإنهاء أعمالي الدنيوية؟! تملكني العجب والدهشة وطوقني النوم بذراعيه. وكان الصباح والمساء هما اليوم الأول من هذه الرحلة.

الفصل الثانى

شمالى الجافورة

أيقظنى صوت على الجهمان عند الساعة السادسة صباحًا عندما كان يؤذن لصلاة الفجر. لم يكن هناك أى أثر للوعكة التى أصابتنى مساء الأمس، ونهضت من سريرى منتعشاً كما لو كنت ماردًا على استعداد للجرى فى ميدانه. كان يومًا ميمونًا، ويبشر بالنجاح، إذ كان يصادف اليوم الثامن من شهر يناير، الذكرى السنوية لإعلان ابن سعود نفسه ملكًا على الحجاز فى المسجد المكى فى العام ١٩٢٦ الميلادى - هذا يوم من الأيام الجميلة فى تقويمى، كما كان يومًا مواتيًا ومناسبًا لأول أيام مسيرنا فى مغامرتنا الكبيرة. وكان ذلك اليوم يصادف أيضًا اليوم الأخير من شهر شعبان والقمر الجديد، إذا ما أمكن رؤيته فى تلك الليلة، فإن ذلك سيكون إيذانًا ببدء صوم رمضان اعتبارًا من صباح الغد. لم تكن هناك أية إشارة إلى أية بقية باقية من القمر السابق فى السماء المظلمة للفجر الكاذب، لكن كان هناك ضباب أرضى كثيف يغطى الصحراء، كما كانت الرؤية ضعيفة أيضًا.

هرولت خارجًا من الخيمة، حافى القدمين، لكى أصطف مع بقية الجماعة خلف ابن معدى الذى كان يؤم الصلاة. كان الرمل شديد البرودة من تحت أقدامنا، ولاحظت أن معظم المصلين كانوا يرتدون أحذية الثلج. المذهب الوهابى يتفهم هذه الأمور تفهمًا تامًا، كما شاهدت بعض المصلين مرتدين نعالهم، وهم واقفون على الأرض التى يغطيها الزلط المؤلم فى مساجد الرياض، وفى مصليات المنحدرات الصحراوية. المرء يصلى حافى القدمين ما لم يكن هناك سبب معقول للقيام بغير ذلك، وكل إنسان يتصرف حسبما يمليه عليه ضميره فى هذا الأمر. والذى لا شك فيه، هو

أنه يكون هناك شيء من التساهل فى الأماكن التى تكون من هذا القبيل، لكن الهدف الرئيسي للمذهب الوهابى هو تأمين وفرض المداومة على الصلاة عن طريق إزالة العقبات التي تحول دون ذلك.

كان البرد شديداً على نحو حال بيننا وبين استئناف المسير فترة من الوقت، تجمعنا خلالها حول نار المخيم لكى نستشعر الدفء من خلال الشاى والقهوة والحليب الحار. سيكون أمامنا متسع من الوقت عندما تشرق الشمس وينتشر دفؤها فى هذا العالم البارد من حولنا. اتكأت على جلد كان يحتوى - على حد علمى - ملحاً أو سكراً! كان ذلك الجلد عبارة عن قربة مليئة بالماء الذى تجمد بفعل البرودة الشديدة، وسبب ذلك أن الرجال كانوا قد وضعوا قراب الماء بالقرب من النار على أمل أن ينصهر الثلج! كان جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) الموضوع خارج الخيمة قد سجل ٢٧ْ فهرنيتيه - أى ما يعادل خمس درجات تحت الصفر. ولا يمكن أن يخطر ببال أى أحد من الناس حدوث مثل هذه الأشياء فى الجزيرة العربية التى تعد درجة حرارتها فى الصيف مضربًا للأمثال! وعلى الرغم من ذلك كان هناك طوال الشهر الماضى أو نحو ذلك صقيع وثلج فى معظم الأحيان فى كل من الرياض، وفى الصحراء، وفى الهفوف أيضاً. والأحياء يذكرون أن هذا واحد من أبرد فصول الشتاء على الإطلاق، وكانت تلك أول معرفة لى بدرجات الحرارة التى تصل إلى ما دون نقطة التجمد فى نجد. وليس هناك مدعاة للعجب فى أن يبدو الرمل مثل الثلج من تحت أقدامنا، وكان يحرق كعباى كما لو كان إبراً جرى تسخينها إلى درجة الاحمرار!

كان المخيم مقامًا فى تجويف تحيط به الكثبان الرملية، والضباب، الأخف كثيراً عن ضباب اليوم السابق، الأمر الذى كان يسمح بمدى رؤية أكبر يمتد إلى أميال عدة فى جميع الاتجاهات. لكن المشهد كان عديم الملامح، اللهم باستثناء تلة ثوير المنخفضة، التى سنصلها مع مطلع شهر مارس. يقال إن البحر كان يقع فى اتجاه الشرق على بعد مسافة تقدر بمسير يوم كامل باستخدام الإبل السريعة.

بعد أن سبقتنا دواب الحمل بحوالى عشر دقائق، بدأنا تحركنا عند الساعة التاسعة صباحاً بعد إفطار حار طيب من الأرز المسلوق. وفى أقل من ساعة من الزمن،

مشيناها فى منخفضات رملية، وفى سهل مستو شاسع منبسط من الزلط والحصى، وصلنا إلى مجموعة من السلاسل الصخرية المتوازية التى تشكل منطقة الثوير. هاتان تلتان تفصل بينهما مسافة قصيرة ترتفعان بعدها إلى مستوى أعلى بكثير عن المستوى العام للسلاسل الصخرية المحيطة بها، وعندما أرسلنا دواب الحمل إلى الأمام، قامت جماعة صغيرة منا بتسلق واحدة من هاتين التلتين؛ لكى نتمتع بالمنظر الذى تتيحه تلك التلة لمن يقف على قمتها. واستناداً إلى ما يقوله رفاقى فإن بيارات نخيل الأحساء يمكن رؤيتها من هذا المكان فى أيام الصحو، لكننا لم نر شيئًا نظراً لأن الضباب كان مخيماً على المكان. منطقة الثوير تمتد حوالى ثلاثة أميال فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الغرب أيضاً ويتسود الرمل القسم الأكبر منها، يضاف إلى ذلك أن السلاسل الصخرية القصيرة موجودة على شكل نسق فى هذه المنطقة بحيث تجىء الواحدة منها بعد الأخرى، سطح منطقة الثوير، تغطيه الرمال فى الجزء الأكبر منه، وتتخلله بعض البقايا البيضاء المتخلفة عن تحلل الصخرة الرئيسية، هذه البقايا التى يميل لونها إلى الابيضاض هى من الحجر الجيرى الذى بهت لونه وتحول إلى اللون الوردى الشاحب. أما مسألة إن كان هذا الحجر الجيرى[١] عبارة عن تكوين رسوبى بحرى عادى أو من أصل من أصول صخور الريح، فلا يمكن القطع بها أو البت فيها بصورة نهائية، لكن خلو هذه المنطقة كلها من الحفريات، بما فى ذلك الصمان ومنطقة الأحساء، تعد أمراً بارزاً ولافتاً للنظر. الصحراء الشرقية من الناحية الجيولوجية يمكن القول: إنها تعلو النتوء الطباشيرى لمرتفعات عارمة، وكذلك المنخفضات المجاورة لها فى جيبان ، والتى تنتمى إلى العصرين الأيوسينى والميوسينى.

عكرت تلك الريح الباردة صفو رحلتنا القصيرة التى قمنا بها إلى هضبة الثوير، التى يزيد ارتفاعها عن المستوى العام للصحراء بحوالى مائة قدم، وكنا سعداء تماماً عندما نزلنا من فوق هذا المكان المرتفع وواصلنا سيرنا. كان رفاقى يتعجبون من نوعية ذلك الرجل الذى كان يسعى إلى مواطن الإزعاج والقلق لإشباع فضوله الذى لا ينتهى.

---

(١) للمزيد من التفاصيل الجيولوجية والبترولية يرجى مراجعة الملحق المرفق.

أولا وقبل كل شيء لم يكن فوق تلك الهضبة شيء يمكن رؤيته أو التفـرج عليه، إذن فما هو السبب الذى يجعلنا نحيد عن طريقنا ونصعد فوق تلك الربوة؟ يزاد على ذلك، أن هـذه المنطقة كلها، التى تمتد فى واقع الأمر إلى أنباك "فى الجنوب لم يسقط عليها أى مطر هذا العام، الأمر الذى جعل الصحراء تكتسى منظراً شديد الجفاف تتخلله بعض أدغال أشجار العرفج والثمام التى يعرفها الناس جميعًا، فضلاً عن حشائش البوص الجديد على، والتى يطلق الناس هنا عليها اسم الأنداب. كان واحد من رفاقى قد أحضر إلى، أثناء مسيرنا عصر اليوم السابق، غصنًا عليه زهور بعض الطحالب الصحراوية التى يسميها الناس هنا الضانون. هذه الطحالب، قام أحد الثعالب بأكل نصفها، لكنها لا تصلح طعامًا للإنسان. ابن عم هذا الطحلب، وهو أقبح منظراً لأنه أكثر عريا، هو ما يسميه الناس هنا الطرثوث أو إن شئت فقل: مرود الأرض، وقد جلب لى رفاقى عينه من ذلك الطحلب بعد أن غادرنا الثوير، هذا الطرثوث، يصلح طعامًا للبشر، وهو مطهر يعرفه الجميع.

أما فيما يتعلق بالبرد، وبالخطو البطىء الذى تخطوه ناقتى الضخمة – وليس هناك ما هو أضنى من الحض المستمر لجمل بطىء، عن طريق عقبى الإنسان المتدليين فوق قاعدة عنق الجمل وكتفه – فقد اكتشفت أن التيبس المبدئى الناتج عن ركوب الجمل لمسافة قصيرة فى اليوم الأول، بدأ يزداد سوءا مع استمرار المشى. وكان لابد من تعديل سرج ناقتى مرة أو مرتين، نظراً لأن سنام ناقتى البحرانية الكبير كان يتحدى كل الجهود التى يبذلها سعد – الغلام المسئول عن ناقتى – فى سبيل تسريج الناقة تسريجًا مناسبًا وفعالاً. وعلى الرغم من ذلك قطعنا مسيرة طيبة فى ذلك اليوم، على الرغم من محاولات زايد الدائبة والفاشلة لتقصير مسافة تلك المسيرة، قبل دخولنا إلى منطقة الكثبان الرملية الكبيرة فى المغمضة، التى كانت خالية تمامًا من الحياة النباتية، ونحن إذا ما وصلنا هذه المنطقة ودخلناها فلن يكون هناك أى توقف إلا بعد أن نكون قد عبرناها وخرجنا منها إلى الجانب الآخر. ورحت أتولى بالتدريج لكن بصورة أكيدة زمام رفاقى، كما بدوا هم أيضًا يتملكون زمامى. كان زايد يحاول دومًا تسليط الأضواء على نفسه، أما بقية الأفراد فكانوا متحفظين بعض

الشيء وبشكل واضح، وبخاصة العناصر البدوية بيننا، والذين كان من بينهم على الجهمان الذى كان هو بحد ذاته يمثل طبقة مستقلة من البدو - هذا العلى الجهمان عبارة عن رجل غريب، وغامض، وبطيء التفكير، وصاحب نية طيبة، ووسيم بصورة واضحة وملامحه سامية. والتعرف هذا الرجل عن قرب أمر يستحق العناء، وقد شدنى إلى ذلك الرجل تحفظه الواضح. كنت أعرف بطبيعة الحال أن على الجهمان سيكون مرشدنا الرئيس عندما نصل إلى المرحلة الجادة والخطرة من الرحلة. يزاد على ذلك أن على الجهمان هذا هو ابن عم حمد بن سلطان بن هادى الذى أدى خدمة مماثلة لبرترام توماس Bertram Thomas فى العام السابق. أضف إلى ذلك أن على الجهمان هذا فى مستهل حياته كان يعمل صبيًا من صبية حركة الإخوان، على الرغم من اعتياده على الحياة فى الصحراء إلى الحد الذى يصعب عليه عنده العيش فى أية مستوطنة من مستوطنات الإخوان. اكتسب على الجهمان قدراً من الكفاية والإتقان فى الكتاب المقدس (الإنجيل)، فى حين كان صوته الذى كانت له جاذبية غير عادية يضمن له دوراً ناجحًا يقوم به قَسٌ فى أبرشيه من الأبرشيات، لكن جاذبية الرمل والرمال أبعدته عن مثل هذا الدور، وجعلته يتحرر من قيود عمل من هذا القبيل. وقد عرفت فيما بعد أن على الجهمان يعانى من البخل والجشع السامى على نحو غير عادى، وهذا البخل يعتمل فى داخله بلا هوداه.

بعد منطقة الثوير بدأت الأرض تتخذ شكل الأرض القفر المنبسطة الرملية الجرداء، والتى فيها بعض التموجات الطفيفة، وبعض البقع الزلطية الصغيرة التى تنتشر هنا وهناك. تبدّى لنا من بعد فى الناحية اليسرى خط طويل من التموجات الرملية العالية. كان الجو بارداً على نحو أدى إلى تعطيل الحياة الحيوانية تعطيلاً كاملاً، وكان الكائن الوحيد الذى رأيناه خلال الفترة الصباحية عبارة عن غراب ليس إلا. كان الرمل فى المنخفضات، وعلى المنحدرات المكشوفة أكثر تموجًا، وتسلسلاً بفعل الريح، فى حين بدت خطوط الكثبان الرملية موحدة الاتجاه، بفضل محورها الطويل الذى يتجه ناحية الشرق والغرب. كانت الجوانب الناعمة المستديرة من الكثبان الرملية تتجه صوب الشمال، فى حين كانت الحروف الحادة عند أعالى أطراف تلك الكثبان الرملية تشرف مطلة على الناحية الجنوبية، من فوق تجويف شبه دائرى، أو إن شئت فقل على شكل

حدوة فرس. داخل هذه التجاويف، وعند قاعدة الكثبان الرملية، ينتشر غطاء خفيف من الزلط، أو بالأحرى يوجد انكشاف لصخور القاع التى تشكل أساسًا لهذه المنطقة بكاملها. وعندما بدأنا نتحرك فى اتجاه الشرق وفى اتجاه الجنوب الشرقى بدأ تشكيل حدوة الفرس في الاختفاء، وظهرت بدلاً منه سلاسل صخرية يتوزع الرمل من حولها بطريقة منتظمة. كانت وضعية الرمال تبين أن الريح السائدة فى هذا المكان هى ريح الشمال، وتأكد لنا أن هذه الريح كانت ريحًا شمالية باردة وعاتية، تهب علينا أثناء مسيرنا.

قبل دخول وقت الظهيرة، كنا قد دخلنا المنطقة التى يسمونها عريف، بعد أن مررنا على سلسلة من السلاسل الصخرية المنخفضة. هذه المنطقة عبارة عن سهل رملى شاسع لا يتميز بأى ملمح من الملامح، لكن جرى تخطيطها بواسطة الريح، وكانت مغطاه تمامًا بحياة نباتية جافة. وقبل الوصول إلى المنطقة التى سبق أن حددناها لوقفة الظهيرة القصيرة لاحظنا أننا كان يطاردنا رجلان، وسقط قلبى بين قدمىّ عندما خطر ببالى أنهما ربما كانا مرسلين من قبل الملك، جاءا يطلبان منا العودة. وثبت أن هذين الرجلين هما فهد بن عيسى وجابر، وهما من خدم بن جلوى، الذى كان قد أوفدهما لتتبعنا ومعهما بعض الأوراق المصلحية من وزير المالية، والتى كان يجب التعامل معها قبل رحيلى، لكن جرى إهمالها فى الزحمة التى سبقت وصول الملك. قالا لنا: "إن صاحب الجلالة وصل بعد حوالى ساعة أو ساعتين فقط من رحيلنا، وإن جلالته ينوى قضاء قسم كبير من شهر رمضان فى منطقة الهفوف". وعلى أى حال كان الملك قد أرسل هذين المرسالين بحثًا عن ابنة نقيدان، أحد كبار شيوخ قبيلة مرة، لكى يتزوجها ويريح نفسه خلال رحلته، ولما كانت تلك الأوراق تحتاج منى مزيداً من الاهتمام عن مجرد النظر إليها أثناء توقفنا؛ فقد اصطحبنا معنا كلا من فهد بن عيسى ورفيقه جابر إلى مخيم المساء.

يمكن لنا أن نعد منطقة سلاسل الثوير الصخرية، هى الحد الشمالى من ناحية الأحساء لصحراء الجافورة الكبرى، التى هى بحد ذاتها جزء بارز من الربع الخالى فى اتجاه الشمال. وبذلك يمكن القول إن منطقة عريف تقع فى وسط حدود الجافورة، وإن اتجاهنا خلال فترة العصر، إلى ناحية الجنوب الشرقى جعلنا نعبر أرضًا

رملية جرداء، فيهـا سلسـلة صخرية منخفضة سماها زايد لى باسم عـرق العضير، وقد سماها زايد بذلك الاسم نظراً لوفرة نبات العضير الأخضر فى هذه المنطقة، هذا النبات الذى فى شمالى نجد، تعافة الإبل، ويعد من النباتات السامة إذا ما أكلته الإبل، ولكنى اندهشت عندما وجدت ناقتى تمد عنقها الطويل ناحية هذا النبات، وتأخذ منه قضمات كبيرة وهى فرحانة وسعيدة. يبدو أن الإبل العمانية تُربى على أكل هذا النبات ولا تصاب بأية أضرار. وهناك نبات آخر بدأ يصبح معلماً رئيسياً من معالـم المشهـد – والذى سيستمر معنا إلى نهاية تجوالنا – هو نبات الآبال، الذى ينمو إلى ارتفاع يطاول ارتفاع شجرة، مقداره خمسة أو ستة أقدام، هذا النبات له سيقان سميكة، تعد وقوداً جيداً، يصل طول جذور هذا النبات إلى حوالى عشرين قدماً أو ما يزيد على ذلك، وهى تنتشر انتشاراً أفقياً فوق الرمال.

فى منتصف الطريق أثناء فترة العصر دخلنا منطقة الكثبان الرملية الجرداء فى المُغَمَّدة، التى من الواضح أنها تشكل جزءاً من حزام كبير له الطبيعة نفسها، هذا الحزام كان يطبق على طريقنا من الناحية اليسرى، كما يمتد شرقاً بطول ساحل البحر ومحاذياً له، اسم هذه المنطقة يوحى بوجود قيد على نظرة الرحالة إليها، ورحنا نتخبط بين الكثبان الرملية، التى يغلب عليها شكل حدوة الفرس، محاولين العثور على طريق خلال هذه المتاهة. ومع مواصلة المسير بدأت تتبدى لنا هذه التموجات بصورة أكثر وضـوحـاً، وكـان الذى يحـدد طريقنا هو كنتـورات الروابى التى كـانت على شكل مجموعات متوازية، فى بعض الأحيان كان يتعين علينا النزول من منحدرات شديدة التحدر، وكانت إبلنا تنزل متثاقلة، الأمر الذى كان يقلقنى ويزيد من تيبس أطرافى، كانت عينا علىٍّ الحادتان قد لمحتا أثر جماعة مكونة مـن خمـسة جمـال، كانت قد مرت من هذا الطريق من فترة قريبة، لا تتجاوز مساء اليوم السابق، والمؤكد أن هذه الجماعة من قبيلة مرة وهم عائدون إلى ماشيتهـم، التى يدعونها فى الرمال البعيدة. كان رُكَّاب الأبل قد قطعوا مـسيرات طـويـلة أملاً فى التخـفيـف على إبلهم، هؤلاء الركاب كان من بينهم فتاة – قال علي: إي، عذراء، وقد تكون جميلة، كما هو حال السـواد الأعظم من بنات أهلنا، وتحتم علينا رؤية هذا الأثر نفسه مرات ومرات فى صبيحة اليوم التالى، على الرغم من أننا لم نر أصحاب هذا الأثر مطلقاً، إلى أن ابتعد

عن طريقنا، وندمنا لأننا لم نقتفِ أثر تلك الجميلة، خفيفة الخطو ورشيقته، الأمر الذى كان يميزها عن سيدة متزوجة، قال علي: لِمَ لا، ونحن بنى مرة، إذا ما عرفنا جملاً من الجمال، يمكن لنا قص أثر أى فرد من أفراد سلالته بدقة ويقين كاملين، على الرغم من عدم رؤيتنا لمثل هذا الجمل على الإطلاق.

هذا الحزام العريض من روث الإبل كروى الشكل، والموجود بين أجيال كثيرة من آثار الإبل المنسية، هو الذى حدد لنا الطريق المؤدية إلى مسقى بير النابت، الذى يتحدد موقعه الدقيق، فى ذلك المحيط القفر، الخالى من المعالم، والمكون من كثبان رملية متدحرجة، بواسطة هرمين رمليين منخفضين. هذان الهرمان بديا لنا على هذا النحو ونحن فى الناحية العربية، لكنهما اتحدا اتحاداً غريبًا مع الكتلة العامة المختلطة المحيطة بهما، التى تحولت إلى تموجات لا يمكن تمييزها عن بعضها عندما اقتربنا منها . هاتان القمتان تعرفان باسم نقيان البير. وصلنا إلى البئر نفسها عند الساعة الرابعة مساء تقريبًا، وهى تقع عند سفح منحدر رملى يهدد بانقراض هذه البئر. واقع الأمر، أنه كانت هناك بئر ثانية لا تبعد كثيراً عن الشمال، وهذه البئر مدفونة حاليًا تحت كثيب رملى هائل. هاتان البئران حفرهما فخذ النابت، من قبيلة بنى مرَّة، وهما يعدان محور ارتكاز فخذ النابت فى تجوالهم وترحالهم خلال الربع الخالى. المسافة الحالية إلى الماء فى هذين البئرين تقدر بحوالى تسع قامات من حيث العمق، أما القسم العلوى فيصل عمقه إلى حوالى عشرة أقدام جرى حفرها خلال الرمل السائب، وهو مبطن بالخشب وأغصان الشجر لمنعه من الانهيار، لكن بقية عمود الماء محفور فى حجر رملى يميل لونه إلى الاحمرار، وماء البئر مالح المذاق. وفوهة البئر شبه مرتفعة مربعة، ويصل طول ضلع هذه الفوهة إلى ثلاثة أقدام.

انسحب غرابان حذران إلى قمة آمنة فى كثيب رملى مجاور لنا، فى حين بقيت قُبَّرة كانت أكثر شجاعة وأقل ذكاءً من هذين الغرابين، الأمر الذى جعلها هدفا ثمينا لبندقيتى، وقد اندهش رفاقى من قدرتى على الرماية، وبخاصة أننى أصبت تلك القبرة فى جناحهما، هؤلاء الرفاق يفضلون الطلقات جيدة التصويب؛ لأن ذلك يؤدى إلى الاقتصاد فى الذخيرة.

كانت حيوانات النقل على بعد مسافة كبيرة منا فى الخلف، ولم نفلح فى جلب الماء من البئر، واكتفينا بالبديل، إذ استعملنا الرمل فى الوضوء عوضًا عن الماء، وذلك من باب الاستعداد لأداء صلاة العصر. واصلنا مسيرنا خلال المتاهة نفسها التى هى عبارة عن كثبان وتجاويف رملية، محاولين بذلك المرور خلال هذه المنطقة مرورًا سهلاً فى ظل الظروف المحيطة بنا. وفى نهاية المطاف وصلنا إلى منطقة الكثبان الرملية ونصبنا خيامنا فى سهل رملى متموج تموجًا هينا لينا فى اتجاه سلسلة صخور خرزة المكشوفة، التى توقفنا عندها لنصب خيامنا لتمضية الليل. كانت هناك سلسلة صخرية أخرى، تسمى منيفة، تقع على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الشمال، أما كل ما عدا ذلك من حولنا، فكان عبارة عن رمال رتيبة خالية من التضاريس.

كنت سعيدًا تمامًا بنزولى عن الناقة، ورحت اتمشى هنا وهناك لتليين عضلاتى المتوترة، والعجيب بحق أن ركوب الإبل يشغل بعض الأعصاب والعضلات التى لا يكون لها عمل فى سائر الأعمال الأخرى التى يأتيها الإنسان. كنت سعيدًا من الناحية الذهنية والبدنية، على الرغم من تصرفى مثل رجل فى العقد التاسع من عمره، فى مسألة الوقوف من الجلوس على الأرض. لكن خطر ببالى أن ذلك من باب التدريب الجيد، الذى يفيدنى فى التجوال الذى سيستمر شهورًا فى الصحراء، ورحت أهنئ نفسى على استبدائى الهجوم على الربع الخالى، ورغبة أولية وأساسية فى استكشاف صحراء الجافورة، وعندما نصل إلى جابرين، سأكون قد تعودت أو تأقلمت على ما أنا فيه، فى حين لو تأكد انعدام لياقتى، فإن ذلك سيجعلنا قريبين من الحضارة على نحو يغرينا بالعودة والرجوع. وعليه قررت فى الوضع الحالى التركيز على وضع الجلوس وكنت لا أرى غضاضة فى الاستعانة بأكتاف رفاقى وأذرعهم عند الوقوف على قدمىّ. أما فيما يتعلق بركوب الناقة البحرانية طوال هذه المرحلة الأولى من تيبس عضلاتى. فكنت أستعين على ذلك بجيش من المساعدين.

سلسلة صخور الخرزة، التى يتردد ارتفاعها بين ٤٠ و٥٠ قدمًا عن مستوى السهل المحيط بها، ليست سوى مجرد انكشاف لصخر القاع المتموج الذى تتكون منه أرضية الصحراء التى تحت الرمال. سلسلة صخور الخرزة هذه كان يصل طولها إلى نصف ميل فى اتجاه الشمال الشرقى والشمال الغربى، وهى مكونة من

الحجر الرملي المكون من لونين: الوردى المشوب بالتراب وطبقة أخرى عند السطح يميل لونها إلى الابيضاض، وتتخللها فقاقيع غريبة الشكل ناتجة عن الصخور دائمة التحلل. والأكثر ذيوعًا ووفرة هنا هى تلك الأقراص النحاسية الحمراء مسطحة الشكل التى تشبه النبات، ومبعثرة على الأرض، والسهل في هذه المنطقة، وعلى العكس من المُغَمَّضة الموجودة خلفنا، تغطيه بعض النباتات الجافة، وقد عثرت الإبل فى هذا السهل على كميات كبيرة من العلف، في حين كنا نحن نستعمل أدغال الأبال فى الحصول على الحطب الذى نبتغيه أو نحتاجه.

قبل وصولنا إلى الكثبان الرملية المحيطة ببئر النابت، كنا قد التقينا رجلاً آخراً من رجال بن جلوى، الذى سبق أن ذهب بصحبة عبد اللطيف لإنقاذ وجلب متعلقاتى من السيارة المغروزة، والتى جرى سحبها بسلام إلى العقيركان خادمى قد قرر الذهاب إلى البحرين، فى حين شق نصير طريقه وحيداً إلى بئر النابت، وعندما لم يعثر على ما يفيد مرورنا على تلك المنطقة، راح الرجل يتجول ويتسكع وحيداً فى اتجاه الأحساء على أمل الالتقاء بنا. كنت سعيداً باسترداد متعلقاتى مرة ثانية، كما سعدت أيضًا بانضمام ثلاثة رجال آخرين إلى وجبتنا المسائية. وصلنا أيضًا بعض الزوار الذين جاءوا لزيارة على الجهمان والسلام عليه، وكان على الجهمان قد سبقنا قبل توقفنا فى خرزة، ليبحث عن مخيمات بدوية فى المنطقة المحيطة بنا مستهدفًا بذلك شراء خروف لوجبة الغداء، كان على الجهمان قد التقى أسرة واحدة فقط من فخذ بنى شيبة من قبيلة الغفران، ولكن الرجل لم يجد عندهم غنما تصلح للشراء، والمعروف أن على الجهمان هو من فخذ بنى شيبة. كان هؤلاء الزوار قد اشتموا رائحة الغداء، وفى المساء جاء رجل متقدم فى السن ومعه صبيّان ليتناولوا معنا أرز المساء. وكانوا يأكلون متمتعين كما لو كانوا لم يتناولوا وجبة مشبعة منذ زمن طويل.

عند غروب الشمس تركزت الأعين كلها على السماء الغريبة التى بدأ الظلام يكسوها، وراحت الأعين تبحث عن الهلال الصغير، لكن هذا البحث كان بلا جدوى وعدنا إلى غدائنا بعد أن عرفنا أننا لا يزال أمامنا يوم آخر قبل الصيام. كان التقويم الرسمي الذى لعبت فيه دوراً متواضعًا عن طريق التقويم البحرى، قد أعطى شهر

شعبان تسعا وعشرين يوماً، لكن بدء الصوم وانتهاءه يقومان على ترائى القمر، وإذا لم يمكن ترائى الهلال، فلابد من إكمال عدة الشهر إلى ثلاثين يومًا، وعليه أصبح شعبان ثلاثين يومًا، وعليه يجب أن نتوقع حسب قانون التعويض أن يكون رمضان تسعة وعشرين يوما.

عموماً، انتهى اليوم بأمان وقطعنا خلاله عشرين ميلا، ولم يطرأ على أحداث اليوم سوى تغيير طفيف نتج عن تعديل عشوائى فى عملية التحميل. كنت قد أصررت منذ البداية على أن يجرى تحميل صناديقى المليئة بالأدوات، والزجاجات، والأشياء الأخرى القابلة للكسر، فى وضع رأسى، لكنى اكتشفت أثناء السير تكديس هذه الصناديق وتكويمها وتحميلها بواقع ثلاثة صناديق لكل جمل بدلاً من صندوقين، وذلك من باب تسهيل إعادة تحميل الإبل التى تحمل المؤن والتموينات. هذا الهدف كان مشكوراً بطبيعة الحال، لكن كان من الضرورى أن يفهم كل واحد من أفراد الجماعة أن متعلقاتى وأشيائى يجب أن لا تتعرض للتلف، وتقبل الرجال اعتراضى بتفهم وتعقل، على الرغم من اكتشافى لتيار غامض من الاستياء بدأ يسرى بين الرجال عقب ذلك الحادث. كان فهد قد جرى تحريضه ليعطينى محاضرة عن تخفيف أحمال الإبل قدر المستطاع، وقد فوجئ فهد عندما قلت له: إن الطريقة المناسبة فى مثل هذه الظروف لا تكون بتعريض أشيائى الدقيقة للتلف، وإنما باستئجار المزيد من الإبل من البدو لتخفيف أحمال الحيوانات الأخرى المستعملة فى النقل. تنجم المتاعب مع مثل هذا الحال من الحقيقة التى مفادها أن العربى لا يمكن أن يصالح نفسه إلا بصورة بطيئة جداً مع التعديلات التى يتحتم إدخالها على المسائل الروتينية التى يحملها ويقرها منذ أجيال. العربى لا يفهم الحقيقة التى مفادها أن الحمل ليس مجرد حمل فقط. يزاد على ذلك أن وجهة نظر الغريب، يمكن أن تكون غير منطقية عند هؤلاء الناس، وبالتالى لم يحدث أى تنازل فى هذا الأمر وواجه رفاقى اقتراحى بقولهم: إذا كان لابد من تخفيف الأحمال فإن الأصوب، هو إعادة الخيام مع الرجال الثلاثة الذين سيعودون إلى الهفوف فى صبيحة اليوم التالى.

وصلت درجة الحرارة الكبرى اليوم إلى حوالى ٥٩ درجة، وفى صبيحة اليوم التالى ونظراً لأن درجة الحرارة الصغرى كانت سالب واحد، أى ناقص درجة واحدة

بعد درجة التجمد، فإن قراب الماء تجمدت من جديد. وكان هواء الصحراء مثل سكين حاد، وتحلقنا حول النار إلى أن خففت الشمس من حدة البرودة إلى حد ما، كان الرجال الثلاثة العائدون إلى الهفوف هم أول من غادر المخيم، وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة صباحًا عندما ودعنا صديقنا المريّ العجوز هو وولديه، وبعدها بدأنا مسيرنا من جديد فوق الرمال المتدحرجة في المنطقة الواقعة خلف سلسلة خرزة الصخرية. كنا نرى على يميننا عن بعد، الساحل المنخفض الطويل لسلسلة صخرية أخرى، يطلق الناس عليها اسم الخرطام، لكن سطح أرض هذه السلسلة كان خاليًا من التضاريس والملامح المميزة، هذا يعني أن هذه الأرض كانت جرداء وتتخللها بين الحين والآخر رقع جرداء من صخر القاعدة الذي يميل لونه إلى اللون الوردي، إلى أن وصلنا في الوقت المناسب إلى خط من الكثبان الرملية المرتفعة المكونة من الرمل الناعم.

مررنا في طريقنا من بين مجموعات مبعثرة من إبل فخذ بوحيح، التي كانت ترعى العشب الجاف[١]، وأدغال الأبال الموجودة في السهل. تبادلنا التحية مع بنت من فخذ زقيبة، كانت المسئولة الوحيدة عن قطعان الإبل التي ترعى تلك الأعشاب الجافة سالفة الذكر، على الرغم من أن خيمة والدها كانت في تجويف من التجاويف المحمية، والتي لا تبعد كثيرًا عن مكان الرعي، صحيح أن حياة البدو الذين يرعون القطعان تعد حياة موحشة، لكنها لم تعد بعد حياة خوف مستمر في سائر ممتلكات بن سعود مثلما كان الحال من قبل – ومع ذلك فإن الجوع هو ديدن الصحراء اللهم باستثناء شيء من الزبد والحليب الذي يحفظ على هؤلاء الناس حياتهم. والشتاء هنا قارس البرودة. كانت البنت ترتعش تحت ثنيات عباءتها المهلهلة، وهي تحكي لنا ما تعرفه عن ميول مختلف العائلات والأفخاذ المنتمية إلى جماعتها.

تسللت الشمس نافذة من خلال الضباب، وشاع الدفء في الصباح بفعل تأثير نسيم جنوبي معتدل حل محل ريح الشمال شديدة البرودة. ولأول مرة منذ مغادرتنا

---

(١) عشب الثمام وعشب السبات.

الأحساء بدأنا نحس بالحيوية ونحن نتهادى عبر ذلك المشهد الذى لا يتغير. كان على الجهمان يركب ناقة ضخمة يميل لونها إلى الابيضاض، كانت هى الأفضل من بين نياق الجماعة كلها، كان الرجل على الجهمان يتقدم الجماعة بمسافة كبيرة بصحبة زايد الذى كان هو الآخر يركب جملا دروعيا(١). وكان الاثنان يتحاوران حول خبرة على وتجربته الأخيرة التى اكتسبها من الحملة التى قام بها مؤخراً لتحصيل الزكاة من المناطق الجنوبية على طول الحدود العمانية، وأنه لم يعد من تلك المهمة إلا مع بداية شهر شعبان. أعلن على الجهمان أنه شاهد الحمار الوحشى مرارا فى تلك الأجزاء الجنوبية، بل إنه رمى ذلك الحمار بالرصاص، والذى يتردد على منطقة وادى أشعب الغاف أسفل جبل حافيت. وقال أيضًا: إن نساء المناصير جميلات، وقال أيضًا: إنه سيذهب بمشيئة الله إلى تلك المنطقة فى العام القادم، وقد يذهب معنا الشيخ عبد الله(*) لرؤية تلك المنطقة، التى هى أفضل من هذه المنطقة الصحراوية. سوف ترى هناك بيارات النخيل والقرى والمراعى الوفيرة فى سائر الأنحاء. إنها أرض خير وأهلها كرماء، وهناك فتاة بينهم سوف أتزوجها. وسعدت جداً عندما سمعته يقول: إن نفوذ ابن سعود يعم منطقة الضاهرة بأكملها. والسعوديون يطلقون اسم الضاهرة على المنطقة الواقعة غربى المسيف(**) العمانى، بما فى ذلك واحة البوريمى، بطبيعة الحال، التى تعد مركزاً وهابيًا منذ زمن بعيد، وربما علبرى أيضًا. مهمات تحصيل الزكاة هذه يندر أن تحقق شيئًا غير مصروفات إعدادها وتجهيز هذه المهمات، لكن يغلب على هذه البعثات أو المهمات قيامها بنشر المذهب الوهابى وتوحيد الجزيرة العربية. هذه هى موجات الحكومة المستقرة تنتقل ببطء لكن بيقين، من المركز متجهة إلى الخارج، ولذلك يمكن اليوم اعتبار المناصير من أتباع ابن سعود ورعاياه، وابن سعود لا يطلب منهم شيئًا سوى قبول تسوده عليهم والمحافظة على السلم العام، من الواضح أن زايد

(١) سمى بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة الدروع التى تعيش على حدود عمان .

(*)المقصود هنا هو فيلبى، لأنه أطلق على نفسه بعد إسلامه اسم عبد الله فيلبى. (المترجم)

(**) المسيف: هو الجزء الرئيسى أو المركزى من جبل أو سلسلة جبال. (المترجم)

يعاني من نقائص كثيرة في عملية الإرشاد، كما أنه فيه أيضاً الكثير من السلوكيات المقلقة وغير المريحة، لكن يبدو أنه ولد قصّاصا، وهو صاحب أسلوب غريب وجاف، ولا يحمل مطلقاً مسألة فرض نفسه على عضو من أعضاء الجماعة. قدرته على الحوار لا تنضب ولا تنفد، وكان يكشف عن استياء عجيب، عندما كنت أحاول الحصول على مساعدات الآخرين.

كان زايد وعلي الجهمان يركبان جمليهما على الطريقة العمانية، تراهما يجثمان تارة وينحنيان تارة أخرى، على السرج الخفيف الأنيق المعروف باسم الحولاني، والذي يركَّب في الخلف في اتجاه كفل الجمل، بحيث يمسك ذراعي الإطار الخشبيتين الصغيرين بسنام الجمل من الأمام ومن الخلف. كان ركوب كل من زايد وعلي الجهمان يعتمد على التوازن، وقد هيئ لي أن السرج الجنوبي قد طرأ عليه تحسن كبير مما يجعله أفضل بكثير من السرج النجدي. كان السرج الجنوبي أعلى وأكثر إحكاماً، لكنه قلل من سعة الخرج التخزينية التي توضع فوق السرج الذي من هذا القبيل، ومعروف أن الخُرُجْ العَمانية تُصْنَعُ أصغر من الخُرُجْ النجدية حتى تناسب كفل الجمل، وهو ما يوفر مكاناً للراكب على الجناحين أو بينهما. أما البندقية فيجري تعليقها في ذيل السرج تحت فتحة من فتحتي الخرج، بدلاً من وضعها متدلية – كما هو الحال في نجد من مؤخرة عمود إطار السرج، كانت خرج نجد بحكم كبرها واتساعها تناسب أغراضي، لكني عند هذه المرحلة من الرحلة كنت أعاني معاناة شديدة من خطو الناقة البحرانية الخشن والبطيء. وبدأت مفاصلي تؤلمني مرة أخرى، وتيبست عضلاتي إلى أبعد حد ممكن. ومع ذلك كان ابن جلوي هو الذي انتقى هذه الناقة البحرانية لكي أركبها أنا، وابن جلوي خبير في كل ما يتصل بالإبل. تتمثل المشكلة في أن هذه الناقة البحرانية كانت في المرعى منذ زمن بعيد، وأصبح لها سنام جميل المنظر على العكس مما هو مطلوب. لوكانت هذه الناقة في أيدي أناس آخرين لاختلف أداؤها تماماً، وكان الرأي الذي وافق عليه رفاقي، هو أن أتحول مؤقتًا إلى جمل آخر أركبه عوضاً عن هذه الناقة. وهكذا رحت أتبادل الركوب مع سعدان (خادمي) إلى اليوم الخامس من مسيرنا، الأمر الذي ترتب عليه بعض من النتائج الطيبة، التي من بينها شفائي من الشد العضلي الذي أصابني بعد ذلك، وعندما استأنفت ركوب الناقة البحرانية، لم أعد استشعر القلق والمتاعب التي كانت تصيبني، على الرغم من أن خطو الناقة كان بطيئاً.

م يحدث بعد ذلك أن استبدلت بالناقة البحرانية غيرها إلا مرة واحدة فقط، عندما
ـدنا أننا يتحتم علينا إسراع الخطى، وذلك عندما وصلنا إلى المرحلة النهائية من
بور الصحراء، والتى أخذ زايد عندها الناقة البحرانية وأعطانى الناقة النعرية
Na'ri، ذلك الجمل الأبيض الضخم الذى يركبه حاليًا على الجهمان. وقد كشفت الناقة
بحرانية عن مزاياها عندما بدأت عملية الخبب إذ أصبح خطوها كاملاً، على الرغم من
ن السفر خلال الصحراء، كما هو الحال بالنسبة لنا الآن، يكون خاليًا من أى نوع من
واع الخبب. ركبت هذه الناقة أثناء موسم الحج، واكتشفت أنه ليس هناك ما هو
ضل منها بين الإبل.

سألت على الجهمان هو وزايد، ما الذى تتكلمان عنه؛ سألتهما هذا السؤال عندما
نتربت منهما بناقتى مرة من المرات، وكررت سؤالى: ما هذا الذى تتكلمان عنه
جعلكما تسبقان الجماعة بهذه المسافة، وتناسيتمونا جميعًا - ربما تكونا تتكلمان عن
سرار لا تودون لى أن أسمعها؟ ضحك على قائلاً: لا، إنها ثرثرة ليس إلا، نتكلم عن
رحلات، وعن الغزو، وعن النساء. هذه هى طريقتنا نحن البدو، نحن نستهلك الوقت
نقصر المسافة عن طريق الكلام. كنت قد لاحظت قلة قليلة من الجراد الشارد أثناء
سيرنا، وسألتهما إن كانا قد شاهدا أسرابا من الجراد. كان على الجهمان قد شاهد
سراب الجراد على امتداد ثلاثة أيام اعتباراً من أوائل شهر شعبان، فى منطقة الجبل
حول بلدة عريرة، التى كان قد سافر إليها بصحبة محافظ الأحساء فى رحلة لصيد
لحبارى. كنت أنا قد شاهدت بنفسى سربا ضخما من تلك الحشرات فى مرتفعات
عارمة، فى ذات الوقت تقريبًا أثناء انشغالى مع الملك، عندما اندفعت السيارات خلال
سراب الجراد لمطاردة الحبارى، الأمر الذى ربما أدى إلى قتل عشرات الآلاف من
فراد هذه الأسراب. كانت جثث الجراد المكوية تزين سخانات السيارات، فى حين كان
الجراد الطائر يصطدم برؤوسنا ووجوهنا مثل طلقات البنادق. كان زايد هو الآخر قد
شاهد جحافل من الجراد فى سكاك، أثناء عودته من المهمة التى قام بها إلى عمان
اتضح أن السرب الذى شاهدته كان يتجه جنوبيًا، لكنه أخطأ منطقة الأحساء بفعل
التدبير الإلهى، ويبدو أن هذا السرب لم يحدث أى تلف أو أضرار فى المحاصيل داخل
حدود الجزيرة العربية.

توقفنا مدة ساعة قبيل الظهر في مريخ الصاعقة[1] لتناول القهوة، وأفدْتُ قدر المستطاع من أشعة الشمس المتسللة من خلال الضباب، في التجوال في المنطقة المحيطة بنا بحثًا عن الحشرات بين البقع شبه الخالية من الزلط وسط الرمال، ولم تصطد شبكتي سوى حشرة واحدة من حشرات الصحراء، هي المانتيد. وفيما عدا هذه الحشرة لم تكن هناك أية علامة من العلامات الدالة على الحياة في أي مكان آخر، على الرغم من ملاحظتي لأسراب القبرات وهي تتجول داخله وخارجة بين الأدغال بحثًا عن الطعام. كانت هناك تلال رملية صغيرة على الجانب الجنوبي الشرقي من الأدغال، في حين كانت تظهر في الأرض المفتوحة قمم رملية شبيهة بالقمم المكسرة، التي كانت تمتد في الاتجاه نفسه فارعة التموجات الناعمة، مثل الطويلة الموجودة خلف هذه القمم. كانت هناك أيضًا كثبان رملية أعلى من هذه الكثبان، في أقصى الشمال الشرقي في المنطقة التي يسمونها عطشان، في حين كانت هناك، في جنوب هذه الكثبان، مجموعة أخرى هي مجموعة هداب، مع آبار بحاث، التي تبعد مسافة تقدر بحوالي ميل أو أكثر تقريبًا من تلك الكثبان، في الأرض الزلطية الواسعة التي بدأت تعترض طريقنا بعد وقت قصير، مشكلة بذلك انكسارا في امتداد رمال الجافورة. هذه المنطقة الزلطية تعرف باسم الغافة، وتمتد جنوبًا إلى خط من السلاسل الرملية، الذي شاهدنا بعد أن قطعنا مسافة فيه، جماعةً من الرعاة ومعهم إبلهم، وعلى الفور علا الصياح والتنادي: "يا بشر، المنطقة عامرة بالحطب، والأدغال والمرعى في سائر الأنحاء!"، كانت تلك إشارة لنا بالتوقف، والنزول عن راحلاتنا والتخييم لتمضية الليل، في منطقة لا تبعد كثيرًا عن رابية رملية كبيرة يطلقون عليها اسم زبارة محميد، وهذه هي السلاسل الرملية القريبة منا ليست سوى إشارة على استمرارية الجافورة بعد ذلك الشريط الزلطي. المنطقة هنا فيها الحياة النباتية أفضل من المناطق الأخرى، التي شاهدناها بالفعل، لكن حظنا لم يكن وفيرًا فيما يتعلق بمسألة اللحم. لاحظنا مجيء رعاة البحيح إلى مخيمنا، ومعهم زوج من الغنم شديدة النحافة، وطلبوا منا عشرة دولارات ثمنًا للخروفين. والذي

(١) هذا المصطلح، يطلقه الناس على أرض المراعي الصحراوية المنبسطة أو المتموجة تموجًا قليلاً.

أدهشني هو أن زايد، الذى كان يرى أن هذين الخروفين لا يساويان أكثر من خمسة دولارات، أصر وصمم على ألا يزيد الثمن على سبعة دولارات، جرى تقديم الثمن وتوقفت المكاسرة (المساومة). لاحظنا فى ذات الوقت ظهور هلال القمر الجديد فى كبد السماء - كان واضحًا أن عمر ذلك الهلال كان يومين، وبالتالى رحبنا بمقدم شهر رمضان. المسافر بطبيعة الحال لا يكون مجبرا على الصوم، لكننا اتفقنا جميعًا على الصيام طوال الرحلة، مثلما يفعل البدو فى تجوالهم. هذا هو مطبخنا، بعد أن تخلصنا من وجبة الأرز المعتادة مع زوارنا، أصبح يعج بالفوضى والضوضاء طوال الليل لضبط نفسه على الموقف الجديد، الذى تطلب وجبة كبيرة - أو إن شئت فقل العشاء الصباحى - فيما بين الساعتين الرابعة والخامسة صباحًا، أى قبل أذان صلاة الفجر، الذى يتوقف بعده الأكل والشرب إلى أن يحين موعد الإفطار بعد غروب الشمس. ويحرم أثناء الصيام التدخين والجماع أثناء النهار، لكن هذه المصاعب كانت فى ظل الظروف المحيطة بنا أكثر من كونها مجرد رسميات، كانت جماعتنا فى ذلك الوقت ليس فيها سوى مدخن واحد هو فراج العرقانى، نظرًا لأنى كنت قد امتنعت عن التدخين بصورة مؤقتة منذ مغادرتى لمنزلى فى مكة قبل شهرين تقريبًا، وحافظت على ذلك الامتناع عن التدخين إلى أن عدت إلى مكة فى شهر أبريل. كان سعدان هو الآخر قد أعلن امتناعه التدخين بأن ترك وراءه أدوات التدخين الخاصة به فى الهفوف.

تصرف زايد هو وابن مسينيد تصرفا نبيلا - بل أقول شديد النبالة فى واقع الأمر - يرقى إلى مستوى الحدث إذ كانت الساعة الرابعة صباحًا عندما أيقظانى من نومى لتناول وجبة السحور، التى كانت عبارة عن طبق كبير من الأرز المسلوق ليس إلا، والذى لم تكن شهيتى مفتوحة لتناوله. أسفر التغيير الذى طرأ على القمر عن تغير واضح فى الطقس. وعوضًا عن صقيع الأيام السابقة طلع الفجر علينا كئيبا وملبدا بالغيوم مع شيء من الحرارة والرطوبة فى الهواء، لكن الشمس فشلت فى مهمتها، وازداد الجو برودة مع دخول وقت الظهيرة، بل أصبح أبرد مما كان عليه عند الفجر، إذ بدأت تهب علينا ريح جنوبية غربية راحت تثير الرمال من حولنا. بعد تناول العشاء استعد المخيم للنوم الذى انقطع فى الوقت المناسب بالتأذين للصلاة - ثم

معاودة النوم من جديد. وسواء أكانت هذه الاضطرابات التى ألمت بنظامنا المعتاد، أم التغير المرضى الذى طرأ على درجة الحرارة، أو أى سبب آخر هو الذى أيقظ الناس جميعًا عند الساعة السابعة صباحا، فإني كنت السبب وراء تأخير تحركنا، وذلك إصراراً منى على حزم عينات الصخور، والحشرات التى كنت قد جمعتها خلالها مسير اليوم السابق، أحسست أنه يتعين على ابتكار نظام يناسب الظروف الجديدة، واحتفلت بدخول رمضان بأن نسيت ملء ساعاتى، التى كانت قد فرغت، بطبيعة الحال، عندما نظرت إليها فى مخيم المساء. كانت تلك نكسة كبيرة، لم أسامح نفسى عليها مطلقًا على الرغم من أنها لم يثبت أنها غير قابلة للعلاج كما سأوضح فيما بعد.

كانت الساعة الثامنة صباحًا عندما تحركنا فيما يمكن أن أعده مسير يوم طيب حقق لى فوائد ومصلحة غير عادية. كنت أحس - مع شىء من الرضا والارتياح - أن نهار رمضان سوف يحتم القيام بوقفات لا لزوم لها على الطريق، لكننا كنا قد سرنا أكثر من ساعتين عندما نادى رفاقى البردانين بوقفة يحصلون خلالها على شىء من الدفء من نار يشبونها. قلت لهم: إن من حقهم أن يشرحوا صدورهم ويمتعوا أنفسهم، لكنى لن أكون من بين المتحلقين حول النار فى حال توقفنا. وعليه واصلنا مسيرنا مدة ساعة أخرى قبل التوقف لكى نسمح لحيوانات النقل بالتقدم وسبقنا بمسافة معقولة.

عندما بدأنا السير فى خط كثبان ماشوره الرملية العالية، بدأنا نتراءى رعن[1] الجافورة الشرقى من بعد عبر مسارنا، فيما وراء الأرض الجرداء لطيفة التموجات، التى كانت تستقر فيها مجموعات كثيرة من البدو الرعاة لكى يتمتعون بمرعاها الطيب. أمضينا القسم الأكبر من فترة الصباح بين جماعات الإبل والبشر، وفى هذه المنطقة افتقدنا أثر الفتاة الجميلة والجماعة المرافقة لها، التى سبق أن التقيناها عند بير الثابت. هذه الجماعة ومعهم البنت الجميلة انحرفوا ناحية اليسار بلا أدنى شك، متجهين صوب خيامهم وماشيتهم. عن يميننا كان هناك مخيم لجماعة صغيرة من المناصير، وشاهدنا فى الاتجاه نفسه أيضا، على بعد مسافة

(١) الرعن: بتشديد الراء وفتحها، هو قُنَّةُ الجبل الخارجة منه والداخلة فى البحر. (المترجم)

كبيرة، خيام الناس الذين زارونا أثناء الليل، كانت هناك جماعة مكونة من سبع خيام، وجماعة أخرى مكونة من ثلاث أو أربع خيام على بعد مسافة قليلة من الجماعة الأولى. وبعد ذلك بمسافة قصيرة شاهدنا جماعة صغيرة من فخذ راشد (من البحيح)، جاءوا إلينا متعجلين عبر الرمال، قادمين من خيامهم ومعهم كلب سلوقى أبيض جميل. قالوا: إن قبيلة المرة والمناصير، دون سائر قبائل الجزيرة العربية كلها، هما اللتان تربيان أفضل كلاب الصيد، واتفقنا فيما بيننا أن نُلحق علينا واحداً من تلك الكلاب، إن أردنا أن نبقى على استمرار نشاطنا في صيد الأرانب البرية، وذلك بالتعاون مع بندقيتى عيار ١٢، وبنادق رفاقى الآخرين.

مسألة التقاء العرب بعضهم بعضا فى الصحراء، مسألة فى غاية الجمال، وبخاصة تحيتهم بعضهم بعضا - تحية رسمية للغاية، تحية طويلة ومتكررة، ذلك أن كل عضو من أعضاء الجماعة يتبادل الكلمات والتمنيات الودية نفسها مع كل عضو من الجماعة الأخرى، إلى أن ينتهى الجميع من عملية السلام والتحية هذه، ثم ينصرفون بعد ذلك لأداء المهام الأخرى. السلام عليكم، وعليك السلام، كيف الحال، يا شيخ؟ بخير، كيف حالك، يا على؟ بخير، الله يعطيك الصحة، الله يحسن حالك، كيفك؟ بخير، ثم يجرى الانتقال بعد ذلك مباشرة إلى العمل: إيه أخبارك؟ فى معظم الأحوال يغلب على الجماعات التى تلتقى التقاء عشوائياً فى الصحراء، أن تُدخل التعارف المتبادل ضمن عملية التحية، فى حين أن رجلاً مثل على الجهمان يكون معروفا وذائع الصيت عند الجميع. وعلى الجهمان نفسه يقول إنه يعرف أرباب العائلات فى قبيلة مرة، وأن له معارف كثيرة جداً بين العائلات الأخرى، وبخاصة فى عشيرته هو، عشيرة غفران. يبدو أن زايد هو الآخر معروف تماماً لدى الجماعات التى التقيناها، وأنه شخصٌ ذو حيثية أو شأن. وبدأت أكتشف أن زايد بدأ يُحَسِّن معرفته لى، وأنه بدأ يحمل لى نوايا طيبة، لكنى لم تطاوعنى نفسى على تملق سياسته المكشوفة التى ترمى إلى الاستحواذ على انتباهى وأفضالى، كما بدأ يتشكك فى على الجهمان ويغار منه، نظراً لأنى حدث لدى الآن تقدم مُرضى، مفاده أن حرص على الجهمان القطرى نتيجة تربيته فى الصحراء، بدأ يذوب فى مسألة الأخذ والعطاء فيما بينى وبينه.

قال الميجور شيزمان[1]: إن قبيلة مرة تتحاور مع بعضها بعضًا مستخدمة لغة غير مفهومة للقبائل الأخرى، لكنى من خلال استنتاجاتى وما توصلت إليه لا أجد سندًا لهذا الكلام. وعلى العكس من ذلك فإن كلام مرَّة، ليس عربيًا أصيلاً وحسب، وإنما هى لغة لها جمالها الخاص، إنها لغة عربية فصيحة. لغة قبيلة مرة هذه ذكرتنى من نواحى كثيرة بلغة مناطق جبل الحجاز المحيطة بالطائف، أو بالأحرى لغة قريش وبنى سفيان، الذين يشتركون مع مرة فى ترقيق صوت "الجيم" وتحويله إلى ياء، كما يحولون صوت "الضاد" الذى ندونه فى الإنجليزية بالحرفين (DH)، إلى صوت شفوى. لقد سمعت بنى سفيان وهم يشيرون إلى عاصمة نجد باسم "ريال" بدلاً من "رياض"، فى حين نجد المُرَّة يقولون "حرل" بدلاً من "حرض"، لكنى يتعين علىَّ التطرق إلى هذا الأمر عندما أتكلم عن المناصير الذين كان يتحتم علىَّ التعرف إليهم. واستنادًا إلى كلام على الجهمان، ومن منطلق التوقع أيضًا، فإن كل قبيلة لها لغتها، أو إن شئت فقل سلوكياتها اللهجية الخاصة بها، لكن اللغة التى تتكلمها القبائل كلها - المرة، والمناصير، والعوامير، وبنى كثير، وسعار.. إلخ - هى لغة عربية، ويبدو أن هذه القبائل ليس لدى أى منها ما يمكن أن نسميه اللهجة أو الرَّطنة. يقول الرائد شيزمان Chesman: الحراسيس أيضًا يتكلمون اللغة العربية العادية ويفهمونها أيضًا، لكن المهرة لهم لهجة لا يفهمها العرب الآخرون. وأنا لا يمكننى سوى الحديث عن القبائل العربية الأصيلة، دون التطرق إلى المواضع أو النقاط المثيرة للجدل والخلاف، وبذلك يمكننى المخاطرة بالنتيجة التى مفادها أن لهجات الجنوب، التى تعرضت لمؤثرات الفساد القادمة من الخارج ومن الحضارات القديمة المجاورة مثل الحضارة اليمنية، وحضارة حضرموت، تمثل خليطًا لغويًا ذا طابع سامى عام، وذلك على العكس من البقية الباقية من الألسنة (اللهجات) الأصيلة، التى من أصول غير سامية. لكن الأمر يستحق المزيد من الدراسات المتأنية، ومن المهم أن نعرف أيضًا أن السيد برترام توماس مهتم بدراسة من هذا القبيل، يجريها عن الجانب

(١) فى كتابه، المجهول من الجزيرة العربية، صفحة ٢٢٥ .

اللغوى والمواد الأخرى، الأمر الذى جعله يتبنى آراءً تتعارض مع النتيجة التى توصلت أنا إليها هنا، وتكلمت عنها بطريقة مقتضبة. فيما يتعلق بالمرّة، يبدو لى أن الرأى الذى جاء به الرائد شيزمان Chesman يتعين عدم التسليم به لعدم صحته. يزاد على ذلك أن شيزمان نفسه لم يقل إنه متخصص وباحث فى الشئون العربية أو بالأحرى اللغة العربية، يزاد على ذلك أننا بوسعنا أن نعزو المصاعب التى واجهها الرائد شيزمان فى تفهم معارفه من المرة، إلى الحقيقة التى مفادها أن بدو الجزيرة العربية يضبطوا أفكارهم الحوارية على معايير النُّظْم العالمية الحديثة. هذا يعنى أن هؤلاء البدو مايزالون يفكرون ويتكلمون بلغة الشعر ومصطلحاته وتعبيراته، التى يمكننى التدليل عليها باقتباس جملة من محادثة المرِّى، المدعو محمد بن حُمَيِّد، عن المسيرة التى أنا معنىٌّ بتسجيل أحداثها، يقول الرجل: "جاءت الحياة (يقصد المطر) فى الخريف لكن البرد أحرقها (الضمير هنا عائد على الأعشاب)". فى مجال الفكر نجد أنْ بدوى الجزيرة العربية المترحِّل - والحضرى العربى إلى حد ما - بعيدٌ تمامًا عن المنتج المتقدم لمنظومات التعليم العربى، وبعيد أيضًا عن تأثير الدين على مسألة الحوار، وهذا أمر ملحوظ حاليًا فى الجزيرة العربية، فى هذه الأيام، مثلما كان الحال فى إنجلترا فى زمن البيوريتانيين(*)، أو إن شئت فقل المتطهرين.

حدث عند هذه المرحلة من رحلتنا، أن أضفنا إلى أفراد الجماعة فردين، من مخيم فخذ راشد، الذى اتجه إليه كل من زايد وعلى الجهمان لطلب الاستعانة بهذين الرجلين، هذان الرجلان الجديدان: محمد بن راشد، وعلى البحيحى زادا القوة المرية إلى ستة أفراد فى جماعتنا، وجرى استخدامهما بصفة أساسية راعيين يقومان على أمر الحيوانات والمرعى. وكان مسموحًا لهما ركوب ما تيسر لهما من الإبل، شريطة أن يكون ذلك الركوب فوق الأمتعة، ولم نحدد لهما أجرًا معينًا - كل ما فى الأمر أنهما سيكونان من بين أولئك الذين ينتظرون عطيتى إليهم، وبذلك يكونان بتصرفهما على

(*) البيوريتانيون: جماعة بروتستانتية فى إنجلترا ونيو إنجلاند (فى القرنين ١٦ و ١٧)، طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة. (المترجم)

هذا النحو قد أحسنا صنعًا عن بعض رفاقهم الكبار المميزين. راح الرجلان يعملان بجد، وأثبت الشاب محمد، على وجه الخصوص أنه كان عونًا كبيرًا لنا فى هذه الرحلة.

كان طريقنا يمر عبر منطقة هى صورة طبق الأصل من منطقة المريخ - فهى رقعة مسطحة من الأرض الرملية، تنتشر فيها الحشائش الجافة، كما تنتشر فيها أيضًا بعض الأدغال. حدث شىء من التحول على إثر ظهور نسرين، صوَّب ابن حميد إليهما طلقة غير ناجحة من بندقيته، بعد أن أجرى شيئًا من المناورة الدقيقة، فى حين رفض على الجهمان ولد عم بن حميد، رفضًا قاطعًا الكشف عن مهارته فى الرماية على مخلوقات من هذا القبيل. قال على الجهمان، من باب التفسير والتوضيح: "صياد الوعل الأبيض لا يجرى وراء الجيف التى من هذا القبيل". لكن اتضح لى بعد ذلك، أن على الجهمان يوم أن كان يدرس الدين دراسة جادة، لم يشجعه أستاذه على اصطياد الطير غير النظيف، أو بالأحرى الطير النجس. كان على الجهمان قد تقدم فى دراسته إلى الحد الذى أصبح عنده قادرًا على القراءة، لكنه لم يحدث مطلقًا أن وصل إلى مرحلة الكتابة، بل إنه حاليًا نسى أيضًا فن القراءة، إذ لم يعد يتوفر له الوقت اللازم للدراسة. ومع ذلك كان الرجل يتمتع بفضول فكرى كبير - وهذا أمر غير عادى بين البدو بل وحتى بين سكان الواحات فى الجزيرة العربية - وكان الرجل مبهورًا بمتابعتى النشطة لما تخيله هو على أنه العلم والعلوم. كان لدى على الجهمان إحساس فطرى بأنى لا يمكن أن أُضيع وقتى فى جمع الحشرات والحصى دون أن أجنى فائدة من وراء ذلك. كان الرجل يتعجب مما يجرى ولا شىء غير ذلك.

فى الوقت المناسب تحولت تلك المنطقة الرملية إلى رقعة شاسعة من الزلط الخفيف الذى تتخلله أدغال الرمض وأدغال العرَّاض، كان خط جافوره الكثبانى الرملى يمتد عن يميننا على شكل دائرة، على بعد مسافة تقدر بحوالى ميل أو ميلين، لتعود إلى التقاطع مع المسار الذى نمشى فيه، عند رَعَنْ(*) ماشورة، وكنا نشاهد هنا وهناك شرائط عريضة من

(*) الرَّعن: بتشديد الرَّاء وفتحها هو، قُنَّة الجبل الخارجة منه والداخلة فى البحر، ويمكن تجاوزا تسميته "بروز" (المترجم).

لرمل الخفيف تنتشر فى السهل الزلطى. مررنا على مخيم آخر من مخيمات البدو لمترحلين واندهشت عندما رأيت فراشة ملونة وهى تطير مرفرفة بجناحيها أمامنا فى لهواء، قادمة من كومة من أكوام روث الإبل فى جانب مهجور من جوانب المخيم، كانت لك أول فراشة ألاحظها بعد مغادرتنا الأحساء، وهذه الفراشة تعد واحدة من عدد صغير جدًا من الفراش الذى شاهدناه خلال تجوالنا الذى استمر ثلاثة أشهر. وقد لاحظنا الكثير من آثار الحُبَارى فى كثير من الأحيان، لكن لم يحدث سوى مرة واحدة فقط، على امتداد الأيام الأولى من الرحلة، أن رأينا هذا الطائر رأى العين، هذا الطائر أصبح يتخوف حاليًا من الإنسان ومن وجوده بالقرب منه، مما دفعه إلى الابتعاد عن البشر والدخول إلى المناطق الصحراوية التى يصعب الوصول إليها، وقد حدث ذلك على إثر استخدام السيارات فى صيد هذا النوع من الطير. وابن جلوى، شأنه شأن الملك، يقتل يوميًا ما يتردد بين ٥٠ أو ٦٠ من هذه الطيور فى رحلات الصيد التى يقوم بها، وأنا أتعجب لهذا الطائر، الذى هو زائر مهاجر إلى الجزيرة العربية، التى يتكاثر فيها، أعجب له فى طريق تحاشيه لتلك الأجزاء من البلاد، التى يمكن للسيارات فيها أن تتغلب على سرعة هذا الطائر. هناك مهاجر موسمى آخر، من جنس الزقزاق الشهير معروف بسرعة عدوه، هذا الطائر له لون شبيه بلون القشدة[1]. وقد شاهدنا هذا الطائر فى أحيان كثيرة لكنه لا يوجد بأعداد وفيرة كما هو الحال فى أجزاء أخرى من البلاد. ولم يحدث أن رأينا الغزال مطلقًا فى رمال الصحراء الكبرى بين الهفوف والسليل، لكن الغائب المدهش عن هذا المكان، ربما يكون القطا، الذى هو نوع من من الطيور، والذى يوجد بأعداد كبيرة فى الأحساء، ولكننا لم نره بعد ذلك إلا فى السليل.

أثناء مسيرنا عبر ذلك السهل من الرمال المتباينة والزلط كان أفراد الجماعة فى اتجاه آبار القرين ، التى تبعد مسير حوالى ساعتين فى وسط كثبان جافورة الرملية – حيث توجد حفرتان ميتتان من حفر الماء، مدفونتان حاليًا بفعل الرمل، إضافة إلى بئر

---

(١) هذا الطائر هو طائر الدراجة أو الدرجلان كما يسميه الناس هنا.

واحد ماؤه مالح المذاق، على عمق حوالى ثمانى قامات(١). هذا زوج من طيور الدرجلان هرب من دغل اخترناه ليكون مكانًا لوقفة الظهيرة القصيرة. رحت أتجول حولنا بحثا عن فراش المنتيد، فى حين جلس باقى أفراد الجماعة حول نار شبوها طلبًا للدفء. كل بقعة من بقاع الزلط كانت عبارة عن مستعمرة من المخلوقات العجيبة، وكنت أتعجب ما إذا كانت تلك المخلوقات تزور بعضها بعضًا عبر الحواجز الرملية التى تفصل المستعمرات بعضها عن بعض. يندر أن يرى الإنسان هذه المخلوقات على الرمل، الذى يمكن أن يظهرها بشكل واضح، لكن أدهشنى إن كانت تلك المخلوقات تُعرِّض وجودها للخطر، فى كثير من الأحيان، عندما تتحرك فى الوقت الذى كان يمكن أن تكون غير مرئية أو واضحة تمامًا لو أنها بقيت ساكنة فى مكانها فى تلك المناطق الزلطية. وقد استحوذت تلك المخلوقات على انتباهى فى أحيان كثيرة، أثناء ركوبى على ظهر الجمل، وهى تتحرك مسرعة بين الزلط، ثم تقف تمامًا بعد ذلك بلا حراك، الأمر الذى يهيئ لى فرصة الإمساك بها ووضعها داخل صندوق. هذا يصبح أمرًا سهلاً إذا ما ركز الإنسان عينيه على الأماكن التى توجد فيها تلك المخلوقات - وإلا أصبح الإنسان مثل من يبحث عن إبرة فى كومة من القش. ولكننى لا أعرف ذلك الذى تقتات به تلك المخلوقات أو تعيش عليه، لكن الذى لاشك فيه هو أن الوظيفة الرئيسية لهذه المخلوقات فى الحياة هى أن تكون هى نفسها غذاء للقبرات والطيور الأخرى، التى توجد آثار أقدامها فى كل مكان من أماكن الرمل الذى نتحدث عنه.

كانت الريح قد تزايدت إلى حد ما عندما استأنفنا مسيرنا، وراحت تنشر قناعًا مقلقًا على سطح الأرض، لكن من يمن الطالع، أن هذه الظروف كانت مؤقتة، وكانت بقية فترة العصر، على الرغم من عدم صفاء الجو، غير مناسبة أو مواتية فى كل الأحوال. مررنا وسط هذه المنطقة الجرداء على رجل طاعن فى السن يتكئ على الرمل بجوار خيال من خيالات المآتة، أو إن شئت فقل: الدُّمية التى يستخدمها الرعاة النائمون لمنع أغنامهم من الشرود. لكننا لم نر أثرًا أو علامة تدل على قطيع ذلك الرجل

(١) يقدر طول القامة البدوية بما يصل إلى حوالى خمسة أقدام وست بوصات، وقد توصلت إلى ذلك عن طريق اختبار هذا الطول، والتأكد منه فى مناسبات عدة.

العجوز فى أى مكان من الأماكن المجاورة لنا أو حولنا، على الرغم من مشاهدتى عن بعد ما يشبه الأشكال المعتمة، التى ربما كانت أدغالاً أو أغناماً. لقد أثبتت الأيام الخوالى ذيوع صيت محمد بن لحُيم، فى منطقته الحالية، هذا الرجل يشتهر أيضاً، بين رجال قبيلة مرة المحبين للحرب، بأنه صاحب شجاعة فى القتال وفى المعارك. هذا الرجل لم يعد له اعتبار فى خَرَفه الذى هو عليه الآن، ولم يعد له من شىء يفعله سوى رعى الغنم نظير أجر زهيد، وفى يوم من الأيام، وقد لا يكون ذلك بعيداً، سوف يرقد ذلك الرجل على الأرض انتظاراً لسكرات الموت. وبذلك، تقوم الصحراء التى وَسِعته وهو على قيد الحياة، بستره بعباءتها بعد وفاته. عرفنا من ذلك الرجل أماكن وجود عناصر المناصير، الذين سينضم شيوخهم إلينا إذا ما استطعنا الاهتداء إليهم. قال لنا محمد بن لحُيم، إن شيوخ المناصير موجودون فى مكان ما بين سلسلة تلال رمال الخيالة، وعلى الفور أرسلنا كلاً من فرَّاج هو وابن حميد بتعليمات، تقضى بانضمامهم إلينا صباح الغد فى مخيم المساء.

دخلنا بعد مسافة قصيرة منطقة كثبان ماشورة الرملية، التى عبرناها من خلال طريق أو ممر متعرج وطويل من الزلط على جانبيه أمواج رملية عالية، هى صورة طبق الأصل من موجات النفود الرملية. كانت حبات الرمال تتقاطر مثل الرايات مع الرياح قادمة إلينا من قمم وأعراف الكثبان الرملية، فى حين كانت الأدغال الوفيرة، عند المستويات الأدنى، تأوى مستعمرة كبيرة من الجراد، وردى اللون فى معظمه، اللهم باستثناء بعض الأفراد صُفْر اللون. كان مهما بحق العثور على هذه المستعمرة المعزولة من مستعمرات الجراد، نظراً لأن الصحراء كلها لم تعطنا سوى بعض الأنواع القليلة جداً، وأنا على حد معلوماتى أستطيع التأكيد أن الجراد لم يكن يتكاثر، كما أن على الجهمان كان يرى أن الجراد لا يبدأ فى التكاثر إلا بعد أن يسمن فى فصل الربيع، الذى سيدخل علينا فى غضون شهر من الآن، أو ما يزيد قليلاً على ذلك. والبدو لديهم كمية كبية من الموروث غير العلمى عن موضوع الجراد، الذى يقولون إنه يجىء إلى الحياة عن طريق خياشيم الأسماك وأنوفها. والبدو يطلقون على الجراد اسم التهامى تيمنا بساحل البحر الأحمر، الذى يجىء الجراد إليه عبر الماء. على الساحل وأيضاً فى المناطق الداخلية التى يهبط الجراد فيها بعد رحلة الطيران

الطويلة، يبدأ الجراد فى التكاثر لإنتاج تلك الأسراب المخيفة التى تضر وتتلف المحاصيل الصغيرة طوال مسيرتها المنظمة. وهكذا نجد أن الجراد يطير على شكل أسراب متتالية مكونة من حشرات كاملة النمو، تحدث دماراً وخراباً فى الأماكن التى تهبط عليها، وتهيئ للعربى مصدراً إضافياً ومقبولاً من مصادر الطعام، بعد أن تسمن على التهام محاصيله ومراعيه. أما البقية الباقية من ذلك الجراد فتختفى على نحو لا يعرفه الإنسان، وفى أماكن لا يعرفها الإنسان أيضاً. والعرب يصدقون أن الجراد لا يتكاثر بعد ذلك.. هذا الموروث ينطوى على الكثير من الخيال أكثر من الحقيقة، ذلك أن هذا الموروث هو الذى يساعد على مجرد تسجيل الحقائق المجردة المترتبة على زيارة الجراد للجزيرة العربية.

لم يشكل عبور رمال الماشورة أمامنا أية عقبة من العقبات، وخرجنا من تلك الرمال، لندخل فى سهل زلطى آخر، يتجه صوب فجوة بين مجموعتين أخريين من الكثبان الرملية تعرفان باسم "طيِّب" "اسم"و "قلاليت،" ويبدو أن خط كثبان ماشورة الرملية الخارجي يمتد فى اتجاه الجنوب على مدى رؤيتنا، كما يبدو أيضاً أن الكثبان الرملية المنعزلة تتجه هى الأخرى ناحية الشرق بتجاويفها التى على شكل حدوة فرس. قيل إن مسقى خريقات العشاير يقع على بعد مسافة كبيرة من هنا فى اتجاه الشمال، وكنت قد لاحظت أن التلال الرملية تقع شمال وجنوب الأدغال الصغيرة التى تنتشر فى السهل. وأنا لا أستطيع القطع ما إذا كان ذلك يدل على التوازن الدائم بين الرياح السائدة، أو يرجح له أن يكون مجرد انتقال من الريح الشمالية السابقة إلى الريح الجنوبية التى تهب علينا الآن. مررنا من بين مجموعتى الكثبان الرملية سالفتىْ الذكر، لنصل بعد ذلك إلى سهل كبير منبسط من الزلط، جعلنى أستعيد ذكرى سهل الركبة الكبير، الذى يمتد بطول الجناح الشرقى من جبال الحجاز.

بدا لى كل من زايد وعلى الجهمان غامضان فيما يتعلق بمسميات هذه الأجزاء، ولكنى استطعت من خلال عملية مستفزة، وعن طريق الاستمرار فى التساؤل، وعن طريق غربلة وفرز الإجابات المتضاربة وغير المتماسكة، استطعت فى نهاية المطاف رسم صورة لطبوغرافية المنطقة. وقد بدا لى أن رمال هذه الكثبان الرملية الخارجية هى بمثابة حد لصحراء الجافورة من هذا الجانب، فى حين كان السهل الزلطى يعد مجرد

منطقة انتقالية، إلى الإقليم الساحلى، الذى لا يمكن أن يكون بعيداً عنا الآن، على الرغم من أن خط الأفق الذى أمامنا بعيد تماماً عن الإشارة إلى أى تغيير درامى فى المشهد أو فى المنطقة المجاورة لأبيار باعيج، التى جرى اختيارها باعتبارها المكان المناسب لمخيم المساء. لم نعد بعد بأية حاجة إلى أى شكل من أشكال الإرشاد، نظراً لأن الصحراء أصبحت عامرة بالكثير من تعاريج مسارات الإبل التى أخذتنا إلى الاتجاه الشمالى الشرقى، والمفترض أن يوصلنا إلى مكان الأبيار. وعلى الرغم من افتقار زايد الشديد إلى المعلومات الطبوغرافية فإنه أرشدنا إلى المسار الصحيح؛ عبر منطقة شاسعة تكاد تكون بلا معالم تماماً، وهنا أحسست بأن هذا الرجل يستحق، فى أضعف الأحوال، مكافأة على هذا الإنجاز. وقد استطعت فى ظل إرشاد زايد من استكشاف حوالى سبعين ميلاً من أرض جرداء لم يجر من قبل توقيعها على أية خارطة من الخرائط، ولم يكن الخطأ خطأ زايد عندما جاءت الخارطة الناتجة عن هذه الرحلة خالية وعارية على هذا النحو. الجافورة عبارة عن قطعة من الأرض الجرداء القاحلة، الكريهة الطاردة، التى دار الرائد شيزمان حول حافتها الغربية، عندما كان فى طريقه قادماً من الهفوف إلى جابرين فى العام ١٩٢٤ الميلادى، فى حين أقوم أنا حالياً باختراق ذراعها الشرقية مستهدفاً الخروج منها إلى حدود الجافورة من الناحية الشرقية. وفى مرحلة لاحقة سوف يتعين علىَّ عبور الجافورة فى القسم الجنوبى منها، ومنه أتجه ناحية الجنوب الغربى وصولاً إلى جابرين، ويتعين علىّ أن تكون لدى فكرة طيبة عن الطابع العام لمنطقة الجافورة.

وفجأة بدا السهل الزلطى المنبسط يتمايل وينحدر إلى تحوُّر مفاجئ من المنخفضات الصخرية التى تحدها السلاسل الصخرية والأراضى الرأسية. كنا قد تركنا الجافورة وراءنا وأصبحنا على حافة جيبان. ومن خلفهما وبعيداً عن مرمى بصرنا توجد مياه الخليج الفارسى.

الفصل الثالث

مصبات الجيبان

يمتد السهل الصحراوى منبسطًا وبلا عقبات، إلى أن يصل حافة صدع تكونت حدوده الصخرية الخارجية الدقيقة بفعل البحر فى الأزمان القديمة. توقفنا لحظة على حافة ذلك الصدع لكى ندرس المشهد، الذى هو عبارة عن وادى عريض أو خليج يتجه شرقًا فيما بين المنحدرات الصخرية، التى تنحدر انحدارًا هينا لينًا، نازلة إلى مستوى المنخفض على شكل سلسلة من الدرجات المنخفضة. بدا لنا المشهد كما لو أن الطبيعة قد فتحت ذراعيها لتضم ذلك المنخفض، فى حين ترتفع من سطح كل ذراع من هاتين الذراعين صخور كبيرة، يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من مائتى قدم أو أكثر. مصب هذا المنخفض ينغمس فى ساحل خليج البحرين، لكن البحر كان مخبأً عنا بفعل الأراضى الرأسية الموجودة فى الطرف البعيد، والجزء المشهود من هذه المنطقة يطلق الناس عليه هنا اسم ريع الحمدة[1]. ويقال إن ريع الحمدة، أو مهدر الحمدة هذا يمثل النقطة التى يعبر الوادي عندها كل من طريق الإحساء – قطر الرئيسى، ودرب الساعي ، أو طريق البريد كما يسمونه، لكى يسيرا بعد ذلك بحذاء ساحل البحر.

سألت على الجهمان، ما اسم هذا الوادى؟ أجابنى: "إن هذا الوادى ليس له اسم، إنه أحد وديان الجيبان، لكنه ليس له اسم، والله أعلم". جاء هذا الرد طيبًا جدًا فى ظل

(١) أو قد يقولون له: مهدر الحمدة.

الصحراء عديمة الملامح والتضاريس، والموجودة خلفنا؛ لكن لم تطاوعنى نفسى على تصديق أن سمة بارزة مثل هذا الخليج الذى تحيط به الصخور يمكن أن تكون بلا اسم. في واقع الأمر، قد يكون على الجهمان جاهلاً بمثل هذا الاسم، لكنى أعربت عن نفسى بشدة في موضوع إهمال زايد في عدم تمكنه من الحصول لى على مرشد كفء من بين البدو الذين التقيناهم فى الجافورة. كان ذلك صعبا على الصبى فى ظل هذه المعاناة وفى ظل هذه الاستثارة والاستفزاز، ومن ثم جرى تبادل كلمات الغضب، القصيرة والحادة، وتلى ذلك استئناف المسير فى اتجاه الجنوب على طول حافة الصخور، وكنا جميعًا يلفنا صمت مطبق. أثناء مسيرنا قام وفد منتقى من رفاقى بالتوسط لدى طلباً للسلم والمهادنة. قال الوفد: اسمع يا أنت، على الجهمان لا يلام على ما حدث، كل ما فى الأمر أنه شعر بالحياء والخجل، أن ينطق بالاسم الحقيقى لهذا المكان فى حضرتك، وكان ذلك من باب الاحترام والتوقير، نحن جميعًا نعرف اسم هذا المكان – وهو اسم سيئ؛ لأن الناس يسمون هذا المكان جوب الحر[١]. وقد درج البدو، على إطلاق أسماء وقحة على كل شيء، نظراً لأنهم لا يخجلون أو يستحون. ووجدت من الصعب على التعبير عن صدمتى أو التظاهر بأنى صدمت. وضحكت بصوت عالٍ من رقة البدو هذه. الواقع أن هذه خصلة جميلة فى منطقة لا ينتظر منها ذلك.

فى الوقت الذى انتهينا فيه من تجنب القمم الصخرية التى فى الناحية الغربية من الوادى مخفى الاسم وخرجنا منه إلى رُعْن صحراوى زلطى هو الذى يفصل هذا الوادى، مخفى الاسم، عن منخفض جوب البعيج، كان الحادث المؤلم قد أصبح فى طى النسيان. حتى ذلك الوقت كان حوار رفاقى خاليًا من صور الفحش كلها، وذلك من باب النزول عند رغبتى، لكن سرعان ما كان يجرى الإطاحة بالقيود التى من هذا القبيل فى الوقت المناسب، ويصبح الكلام حراً طليقًا بلا قيود بين هؤلاء الرفاق عن الأشياء كلها حلوها ومرها. وعندما يتطرق الحديث إلى الجنس ترى العرب يتكلمون كلاماً جارحًا بل كلاماً غير مهذب، فى حين يكون الموضوع الأكثر شيوعاً بين البدو، فى حدود علمى وخبرتى، هو الطعام وليس الجنس. وهذا أمر طبيعى فى أرض

(١) الحر هو ما يسميه الإنجليز Pudenda mulieris، أى: فرج المرأة.

يسودهـا الجـوع، إذ يصبح الجنس أمراً بسيطاً وبلا مضاعفات، على الرغم من أنه يكون شرهاً أو نهماً.

بعد أن توقفنا فى الوادى الزلطى لأداء صلاة العصر، وصلنا بعد ذلك مباشرة إلى حافة الصخرة التى تحد الجانب الأيسر من منخفض جوب البعيج الشبيه بالمصب الكبير. وهنا طلبت من الجماعة التوقف طلباً لشيء من الوقت لدراسة المشـهد، لكننا طلبنا إلى القسم الأكبر من الجماعة المضى قدماً ومعهم أمتعتنا لاختيار مكان مناسب للتخييم، ثم نصب الخيام بعد ذلك، وإعداد طعام الغداء. كان ارتفاع الصخور التى وقفنا فوقها يتردد بين ٣٠ و٤٠ قدماً، وكانت تنحدر فجأة نحو قاع الوادى، الذى تقع فيه على بعد حوالى نصف ميل، مجموعتا الآبار اللتان تعرفان باسم الآبار بعيج. هذا الوادى يرتفع فى اتجـاه الجنوب ثم ينحـدر بعـد ذلك انحـداراً هيناً ليناً، نازلاً إلى منخفضات رملية تمتد ناحية الصخرة البعيدة، التى يتميز حدها الشمالى الشرقى بالأرض الرأسية التى يطلقون عليها اسم خشم البعيج. هذه السِّمة أو المقوِّم يقع فى الناحية الجنوبية الشرقية من المكان الذى نحن فيه، وفيما بين هاتين النقطتين تمتد الصخور فى اتجاه الجنوب الغربى؛ لكى تتجدد على مسافة غير بعيدة، فى خليج ضيق مُشكِّلة بذلك رأس المنخفض الأرضية المتجهة نحو اليابسة. واعتباراً من هذا الرأس يبدأ المصب – وهذا هو أنسب المصطلحات التى يمكن استعمالها مع منخفضات جيبان – فى الانبساط على شكل دلتا متجهاً صوب البحر فى الاتجاه الشمالى الشرقى، وبذلك تشكل الأرض الرأسـية فى ربع الحمـدة الطرف المتجـه نحـو البـحـر من الصـخـور الشمالية، وهذا هو ما يحدث عند الحافة الجنوبية من جوب الحر[1]. تمتد قناة المصب الرئيسية من الشمـال إلى الغرب محـاذية للصخـور الشمـالية إلى أن تصل إلى المسطحات الملحية الشاسعة التى تمتد إلى مياه خليج البحرين، فى حين نجد على الجانب الأيسر من الوادى أن سلسلة المدرجات الصخرية العريضة التى تغطيها الكثبان الرملية وسلاسل الرمال، تنحدر نحو المسطحات الملحية فى أرض بعيج الرأسية. منطقة سلوة تقع فى أقصى الشمال الشـرقى مـن نقـطة المـلاحظة التى

(١) جوب الحر (وجمعه جيبان) معناها مُنْخَفَض.

نقف فيها حاليًا، على الرغم من عدم ظهور تخيلها لنا هـو والبحر؛ بسبب الرؤية غير الواضحة فى فترة العصر. ويقف هنا وهناك على جانبى القناة ركام[1] الصخور العارية، شاهدة على تآكل هذه الصخور بفعل عوامل الطقس، وأنها كانت بلا أدنى شك جزءًا من تلك الصخور. هناك صخرة من هذه الصخور المنعزلة تسمى نسلة الطراد أو بالأحرى "صخرة المعركة"، والتى تعد واحدة من ذكريات المواجهة القبلية الشهيرة التى دارت فى هذا المكان قبل حوالى ٣٠ أو ٣٥ عامًا مضت، عندما كان على الجهمان طفلاً. دارت هذه المعركة بين قبيلة المرَّة التى كانت تمتلك الأبيار، والعجمان الذين دخلوا المنخفض من ناحية هذه الصخرة، كما شنوا هجومهم على المُرَّة منها أيضًا. ودامت المعركة اليوم بكامله، وفى النهاية كان النصر من نصيب القبيلة صاحبة الأرض، قبيلة مُرَّة، التى وصل عدد المصابين والخسائر فيها إلى حوالى خمسين فردًا، فى حين كانت خسائر العجمان المنهزمين أثقل وأكثر. حدث ذلك فى الأيام الخوالى، عندما كان للفرسان وزنهم في القتال عند العرب، لكن البندقية الحديثة أخرجت الحصان من المعارك التى من هذا القبيل، يزاد على ذلك أن الأعوام الثلاثين من حكم ابن سعود كانت عامرة بالسلم والهدوء، الأمر الذى استأصل شأفة الحرب من برنامج القبائل المعتاد. لقد ولَّت أيام تربية الخيول عند قبيلة المرة المحبة للحرب، يزاد على ذلك، أن من لديه فرسًا يستحق الاقتناء يعرف تمامًا أنها سوف تؤل إلى اسطبلات ابن جلوى باعتباره خبيرًا تمامًا فى الخيول ولحم الإبل فى الجزيرة العربية، كما يعدونه نمرًا من نمور العذارى، على الرغم من عمره الذى يناهز الستين عامًا. محافظ الأحساء تحول إبان حياته فى واقع الأمر إلى أسطورة فى الجزيرة العربية – والناس يروون عنه قصصًا وحكايات كثيرة سواء أكانت حقيقية أم غير حقيقية، وشبيهة بالحكايات التى كانت تروى عن الخلفاء فى بغداد.

نزلت مع على الجهمان على أقدامنا إلى مجموعة الأبيار الغربية التى نجت منها بئر واحدة من غوائل الزمن، هذه البئر هى ما يسميه الناس هنا البئر الطويل

(١) هذا الركام عبارة عن صخور منعزلة يسميها الناس هنا نُسلة.

أو بالأحرى "البئر العميقة". يصل عمق الماء فى الحجر الرملى إلى حوالى قامتين فقط، والحفرة مبطنة ببطانة خشبية؛ لمنع انهيار التربة الطميية الناعمة المحفور فيها العين، وتفوح من البئر رائحة بول الإبل، التى جعلت رائحة الهواء كريهة. توجد أبيار أخرى بالقرب من هذه البئر، وقد حدد لى على الجهمان مواقع تلك الأبيار من بين أبيار هذه "المجموعة العميقة"، لكنها جميعها كانت ميتة؛ أى خالية من الماء.

المجموعة الثانية من حفر الماء التى كانت الإبل تنتظرنا عندها، كانت تبعد عن هنا مسافة نصف ميل فقط، وكانت تختلف عن المجموعة الأولى من حيث أنها اقل عمقًا، وهذا هو الذى يقف وراء تسمية هذه الأبيار باسم البئر القصير، أو بالأحرى "البئر غير العميقة". فى الحفرتين اللتين فى هذه المجموعة نجد أن عمق الماء كان أو هو بالفعل قامة واحدة قياسًا من السطح، لكن الحفرتين كانتا مدفونتين تمامًا فى الرمل، إلى الحد الذى يحول بينهما وبين تعرّف الناس لهما باعتبارهما حفرتين من حفر الماء، لولا دائرة روث الإبل الذى لوثهما برائحته الكريهة المعهودة.

بينما كنا راكبين دوابنا عائدين إلى خيامنا شاهدت كروانًا بين الأدغال التى فى الرمل، وقام على الجهمان بمحاولة فاشلة لمطاردة هذا الطائر حسن الصوت واصطياده. كانت الشمس قد أشرفت على المغيب، عندما وصلنا إلى المخيم، وهنا أدركت مع شىء من الاندهاش أننى طوال اليوم الأول من الصيام، والذى قطعنا فيه أربعة وعشرين ميلا، لم أشعر بأى شىء من الضيق أو القلق. ولم أشعر حتى ولو للحظة واحدة بالجوع أو العطش، أما على الجهمان فقد اعترف لى بأنه يحس بشىء من الصداع، نتيجة الابتعاد فترة طويلة عن القهوة، وكان هناك بعض آخرون من أفراد الجماعة يشكون بطريقة واضحة من بعض المتاعب الطفيفة. كان رفع أذان الصلاة إيذانًا لنا بالتجمع حول نار المخيم، حيث كان هناك طبق من التمر فى انتظارنا كى نجرح به صيامنا. جرى بعد ذلك شرب القهوة ثم اصطففنا لأداء صلاة المغرب، بعد حوالى ربع ساعة من غروب الشمس. بعد ذلك بحوالى ساعة قدموا لنا غداءنا المعتاد المكون من الأرز، وفى الوقت نفسه بدأت أعى المأساة التى حدثت لساعاتى، من يمن الطالع أننا كنا على مقربة من سلوة، التى جرى تحديد موقعها الفلكى بواسطة الرائد شيزمان فى العام ١٩٢١ الميلادى، إضافة إلى أننا سنقوم بزيارة جابرين،

التى سوف أحظى فيها بمزايا العمل الذى قام به الرائد شيزمان فى العام ١٩٢٤ . كانت خططنا ترمى إلى التقدم من مخيمنا الحالى، مباشرة إلى سلوة؛ كيما أفيق من هفوتى التعيسة، يضاف إلى ذلك أن رفاقى لم يمانعوا فى أن يكون يوم الغد يومًا سهلاً. وعليه اتفقنا على أن تقوم القوة الرئيسية من جماعتنا بمسيرة قصيرة إلى "أبو أرزيلة" عن طريق أنقاض سكاك ذائعة الصيت، وتأكد أن الحادث المشئوم كان بركة أخفتها لنا الأقدار. ولولا ذلك الحادث المشئوم لما تمكنت من استكشاف واحدة من المناطق المهمة التى كانت لى بمثابة مفتاح مهم فى حل مشكلة مصبات جيبان.

عند هذا الحد، وبعد أربعة أيام من الركوب كنت قد وصلت إلى قمة التيبس وقمة المتاعب البدنية، على الرغم من أنى كنت – فى كل ما عدا ذلك – فى قمة لياقتى، وذلك على الرغم من الصيام وكمية النوم المحدودة التى تسمح بها الأعمال المتباينة – التى من قبيل تدوين الملاحظات يوميًا، بل وكل ليلة، وحزم أو لصق بطاقات بيانات على الأجناس والأنواع التى جمعتها وما إلى ذلك. كنت أتضايق وأحس بالضعف أمام هذا العجز، عدم قدرتى على الوقوف إلا بمساعدة واحد من البشر، واتفق الجميع على أنى يجب أن آخذ فترة راحة من الناقة البحرانية. وتنفيذاً لهذا القرار ركبت أنا جمل سعدان فى اليوم التالى، وبعد أن وصلنا إلى المخيم بعد خرجة طويلة ورحلة ذهاب وعودة قطعنا خلالها ستة وعشرين ميلاً، سعدت عندما وجدت أن التيبس والأوجاع التى كانت تنتابنى قد اختفت إلى غير رجعة. هذا يعنى أن مسألة تأقلمى على ركوب الإبل قد استغرقت منى خمسة أيام، وأن ركوب الإبل أصبح يشكل عندى نوعًا من المتعة بعد ذلك. ربما لو كنت ركبت دابة أخرى غير البحرانية، لجاءت مسألة التأقلم هذه أسرع مما حدث لى، وسبب ذلك أن دابتى الجديدة، كانت أصغر وأخف وأكثر اكتنازًا، ولم تسبب لى ولو لحظة واحدة من الاستياء أو التعب أو المضايقة، على الرغم من أنى كنت أكثر تيبساً وتورماً عندما ساعدنى رفاقى على ركوب هذه الدابة الصغيرة، أو بالأحرى، جمل سعدان، فى صبيحة هذا اليوم.

كانت قمم المصب الكبير ترتفع شامخة من خلال الضباب المنخفض مع خيوط الفجر الأولى، عندما كان أفراد الجماعة يسوقون الإبل لتشرب شربتها الأولى بعد

مغادرتنا للدليقية. لم يكن قد مر علينا سوى أربعة أيام فقط - فضلاً عن أنها كانت أياماً باردة أيضاً - ولكن الأعظم أن الإبل رفضت الماء الذى أوردناها إليه. بقاء الإبل بلا ماء يشكل عقبة للإبل فى الظروف التى تكون من هذا القبيل، وبوسع الإبل البقاء بلا ماء طيلة عشرة أيام، شريطة أن يكون هنا مرعى مناسب على طريقها. فى الحال الذى كنا نحن عليه، كانت المراعى فقيرة، يزاد على ذلك أن أشجار الغاضَة[1] فى الرمال التى تحيط بمخيمنا كانت بائسة الحال، إذ كان يغلب عليها اللون البنى، فضلاً عن جفافها بسبب الجفاف الذى كان يطوق المنطقة كلها. أمطار أواخر فصل الصيف قد سقطت مؤخراً على هذا الجزء من البلاد جنوبى الأحساء، لكن يبدو أن مسألة تكثيف البخار وتحويله إلى ندى أو مطر لم تكن كافية، مما أدى إلى عدم نمو النباتات الصحراوية. ولم نتمكن إلا بعد يومين، من رؤية تلك العلامات والدلائل النادرة على الأعشاب الجديدة فى الأراضى المرتفعة الواقعة خلف الجديدات، التى التقينا فيها تلك الموجه الخضراء التى تسبق فرد بساط فصل الربيع على الصحراء الظامئة.

عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، بدأت السير ومعى جماعة صغيرة، واتجهنا صوب الشمال الشرقى، وتتبعنا الكنتورات الأرضية، وذلك من باب تحاشينا لسلاسل التلال الرملية الأعلى من التلال التى نسير عليها. وعندما بدأنا نرى منظر البحر، بعد أن صعدنا الارتفاع الأول، ومن نقطة الارتفاع هذه هبطنا هبوطاً هيناً ليناً من مصطبة إلى التى تليها من مصاطب الأرض المرتفعة على الضفة الجنوبية لذلك المصب. كان سطح أرض هذه المنطقة من الحجر الرملى الذى يسهل تفتيته إلى غرود، الأمر الذى تسبب فى أن يكون ذلك الصخر، فى بعض الأحيان، على شكل عيش الغراب، أو قد يأخذ أشكالاً أخرى غريبة. وها هو نخيل سلوة الذى كان بعيداً عنا أصبح قريباً منا، وها هو منظر البحر الأزرق على الجوانب، فى حين نرى تلة قرن أبو وعيل منبسطة القمة خلف منطقة سكاك على الجانب الآخر. كان المنظر الطبيعى جذاباً ومؤثراً، بعد القفر الموحش الممل الذى عشناه فى الجافورة. ومع ذلك كان الأمر لايزال، نظراً لأنى لم أكن قادراً بعد على تمثل واستيعاب المغزى الحقيقى لتكوين جيبان. وأخذت بعد ذلك

(١) الغاضة نبات برى تأكله الإبل. (المترجم)

أتنور ببطء، وعندما نظرت إلى قمم الوادى الصخرية، وعندما نظرت أيضًا إلى المساحة الواسعة من الأراضى المالحة المنبسطة التى كانت تمتد من أمامنا. ومن خلفنا، لم أستطع تحاشى النتيجة التى وصلت إليها، والتى مفادها أن خط قمم الوادى الصخرية المتعرج كان يطوّق واحداً من المصبات القديمة، فى حين كانت الأراضى المالحة المنبسطة مجرد قاع قديم من قيعان البحر، التى انحسر عنها الماء إلى خطه الحالى على جانبى رُعن(*) قَطَر. واقع الأمر أن هذا القاع كان فى يوم من الأيام جزيرة كما هو الحال فى البحرين هذه الأيام، والسبب فى ذلك أن السهل المالح (الذى ينخفض فى بعض أجزائه عن سطح البحر) يمتد عبر قاعدة هذا القاع من البحر إلى البحر. نزلنا بعد ذلك من الرف الصخرى الثالث إلى شريط مالح مستواه أعلى من مستويات المسطحات الرئيسية الموجودة فى الأسفل، ومن ثم يكشف عن جزء عن قاع المصب القديم. مررنا بعد ذلك عبر حاجز صخرى آخر نزلنا بعده إلى المسطح المالح الرئيسى، الذى هو عبارة عن سهل شاسع كان يبدو هشًا وخاوياً من تحت أقدام الإبل. وهنا أجد أن جهاز قياس الضغط الجوى، أو إن شئت فقل: البارومتر، يسجل القراءة نفسها، التى سجلها بعد ذلك عند سلوة، على حافة البحر، على بعد خمسة أميال من هنا. هذا السهل الواسع بكامله يبدو أن مستواه يتساوى تقريباً مع مستوى سطح البحر - ولذلك فهو إما أن يكون جزءاً من قاع البحر نفسه، أو مجرد بحيرة ضحلة صغيرة انفصلت عن البحر بفعل حاجز رملى مثل حاجز خيسات السلوة الذى وصلنا إليه حاليًا.

هنا وفى هذه المنطقة وجدنا أن جانبى المصب بدءا فى الاتجاه شمالاً ويمينًا إلى مسافة بعيدة حوالى اثنى عشر دهوا(**)، يواجه بيارات نخيل سلوة المهجورة الموجودة عبر القناة والتى يصل عرضها إلى حوالى ميل تقريبًا. كان طريقنا يمتد بين النخيل عبر المسطح الذى بدأ يتحول إلى مسطح ملحى لامع مع اقترابنا من البحر. هذا المسطح تنتشر فيه القواقع والأصداف الصغيرة حلزونية الشكل(١)، وهذا النوع

(*) الرُّعن: هو قنة الجبل الخارجة منه والداخلة فى البحر. (المترجم)

(**) الدهو: مركب شراعى مألوف فى شواطئ الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. (المترجم)

(١) للمزيد عن الأصداف راجع الملحق.

من القواقع والأصداف يشيع وجوده فى الأحساء، كما أمكننا العثور على تلك القواقع فى أماكن كثيرة، فى الربع الخالى وفى المنطقة الواقعة خلف الربع الخالى، كانت تلك القواقع تتكسر برفق تحت أقدام إبلنا، التى كانت تحدث أصواتًا عصبية عندما اقتربنا من القناة التى ضاق اتساعها، ليصل إلى حوالى ٥٠ ياردة، وأصبحت تتقاطع مع طريقنا مسافةً كبيرةً بعد ذلك. فى بعض الأحيان يكون الماء فى هذه المخاضة عميقًا على نحو يحتم سيرنا على شكل دائرة فى اتجاه الجنوب، لكننا وجدناه ضحلاً فى هذه المرة، إذ لم يزد عمق الماء فيه عن مستوى ركبة القدم. ومع ذلك، كان لابد من إغواء الإبل، أو إجبارها أو اقتيادها إلى الماء، ولكن عناد هذه الإبل كان يجعلها عندما تصل إلى منتصف المجرى المائى، تبذل جهداً كبيراً فى السباحة، فى حين يروح بعض آخر من هذه الإبل، وبخاصة تلك الجمال التى رفضت شرب الماء العذب فى بعيج، تمد أعناقها الطويلة لتعب شيئًا من الماء المالح. شرب الماء المالح هذا ليس فى صالح الإبل، فضلاً عن أن العرب لا يرضون عن مثل هذا الانحراف.

فى غضون عشر دقائق، وبعد أن تجاوزنا المجموعة أو البيارة الأولى من بيارات النخيل الساحلية، توقفنا عند بيارة النخيل الأولى – وهى عبارة عن بيارة بائسة مهملة عبارة عن سيقان نخيل، ويفصلها عن البحر حزام من الغاب والقصب غير الصحى، كما يفصل هذه البيارة عن البحر أيضًا مجموعة من الركام والأشياء التافهة عديمة القيمة، وهذه الأشياء التافهة من مؤشرات المد والجزر فى هذه المنطقة. وحاول على الجهمان اصطياد كروان باستعمال بندقيتى، فى الوقت الذى كنت أبذل قصارى جهدى من أجل تشغيل التيودوليت(*). أما الآخرون فلم يكن لديهم ما يفعلونه سوى الصيام، والنوم إلى أن أنتهى من الأعمال التى أقوم بها.. وهذا سرب مستمر من الجراد يواصل السطو على جريد النخل الصغير والتهامه، وهنا أضفت شيئًا من هذا الجراد إلى مجموعتى قبل استئناف مسيرنا عند الظهر.

واحة سلوة الرئيسية عبارة عن مساحة كبيرة من البيارات المبعثرة غير الزاهرة، وهى تقع على بعد حوالى ميل من الساحل – والملمح الرئيسى فى واحة سلوة هو تلك

(*) التيودوليت: جهاز قياس الزوايا.

القلعة المدمرة، التي تقع في منتصف بيارة من البيارات كثيفة النخل، في حين يعتمد النخيل على المياه المالحة التي تأتي من بعض العيون، التي تكاد مياهها تصل إلى مستوى سطح الأرض. كانت هناك جماعة كبيرة من إبل المناصير، تُسْقى في ذلك الوقت، أي في ساعة وصولنا إلى بئر من هذه الآبار التي في فناء القلعة. وكان بعض آخر قد انصرفوا ليتحدثوا بلا كلفة إلى بعضهم بعضا، مع العبد رشيد بن منيع، ذلك الشاب الصغير آخر أبناء شيخ القبيلة الذي كان مسافراً من الدوحة إلى الأحساء. في هذا الوقت نفسه، أمضيت أنا نصف ساعة هينة في فحص أنقاض الواحة.

القلعة عبارة عن مسوَّر مربع الشكل طول ضلعه ٧٣ خطوة شرق شمال شرق، غرب جنوب غرب، مكون من غرفة سكن في الركن الجنوب الغربي وفناء مفتوح، يشغل بقية المسور، ومخصص لإعاشة إبل الساكن، أو مالك القلعة، في وقت الخطر. حوائط القلعة المهدمة مبنية من الحجر الحبيبي الذي سبق أن رأيناه في الضوبيان، يزاد على ذلك أن مخطط المكانين يوضح أنهما ينتميان إلى حقبة واحدة. لم أشغل نفسي بمسألة جمع الفخار أو البقايا الأخرى مثلما فعل الرائد شيزمان عندما درس هذه البقايا دراسة مستفضية في العام ١٩٢١ الميلادي. أضف إلى ذلك أني لم أزر أي أثر آخر شبيه بهذا الأثر أو أصغر منه، أو حتى قريب من الساحل، الذي تقع مياه الخليج الفارسي خلفه مباشرة، ماء الخليج الفارسي متألق، ويجمع بين ظلال اللونين الأزرق والأخضر كلها.. نخيل سلوة بلا مالك ولا يرعاه أحد، لكنه ينتج محصولاً سنوياً من التمر يجنيه أي عابرٍ من عابري هذا المكان. يالها من فرصة مواتية، وياليت جماعة من فقراء البدو وجوعاهم، تقوم باستيطان هذه المنطقة بصفة دائمة وينعمون ويحسنون ذلك الذي أفاءت الطبيعة به عليهم! ومع ذلك دلائل المكان تقول إن هذا المكان كان محتلاً منذ قرون مضت. يضاف إلى ذلك أنه لابد من وجود سبب لذلك الهجر الذي يعاني منه المكان في الوضع الراهن، قال زايد: إن سبب ذلك الهجر هو الحمى، التي تحول بين الناس وبين استيطان هذا المكان أو الأماكن المثيلة له. في كل مكان هنا، وكما هو الحال في كل من سكاك وأنباك وجابرين ترى الإخوان يقومون بمحاولات من هذا القبيل، لكن الحمى هي التي تردهم من جديد إلى الصحراء. والعرب لا يقوون

على مقاومة تلك الحمى، وسرعان ما يموتون، وعليه يبقى النخل بلا رعاية أو رعاة، وبذلك يتولى الله سبحانه وتعالى أمر تخصيب هذا النخيل وإثماره.

هذه الحمى الربيعية في الواحات الصحراوية يمكن أن تكون موضوعًا مهمًا من موضوعات الدراسة. العرب لم يتعلموا من الخبرة والتجربة، ولم يتعلموا من الوعظ أيضًا، أن العلم الحديث يمكن أن يشفي من الحمى ويخفف من آلامها، بل ويستأصلها من أماكن وجودها.

لم أر للبعوض أثرًا في هذه المنطقة أو في أي مكان آخر، وحتى في الأحساء ليس للبعوض ضرر مثل أضراره في كل مكة وجدة. والغريب حقًا أن المدينة (المنورة) وكذلك الرياض خلو من هذه الحشرة. والأرجح أن الحمَّى في الواحات الشرقية يرجع مصدرها إلى شيء غير البعوض، وربما جرى علاج هذه المشكلة على أمل زيادة الأرض الزراعية في الجزيرة العربية.

استأنفنا جولتنا التفتيشية بأن جعلنا الخيل تخب في اتجاه قرن أبو وعيل، تلك العلامة الأرضية المميزة، هذه العلامة الأرضية عبارة عن تلة رملية منبسطة السطح عند قمتها، في اتجاه الجنوب الشرقي، وهذه التلة منعزلة عن جوف قليل، الذي يمثل الوجه الغربي لهضبة قطر. سرنا براحلاتنا عبر الأرض المالحة المنبسطة، التي كان يتخلل سطحها قواقع حلزونية صغيرة، وتنتشر فيها أيضًا شتلات أو بالأحرى أدغال نباتات السوَّاد والقطاف، التي بدأت تتلاشى مع طول المسافة، وتظهر بدلاً منها نباتات الشينان والثُّليث. عبرنا بعد ذلك مدقات الإبل المؤدية إلى مسقى السكاك وواصلنا سيرنا في خط مستقيم عبر شريط واسع من الأرض المكونة من رمل على شكل موجات رملية، فيها حياة نباتية داكنة إلى أن وصلنا إلى سفح التل، الذي يبعد خمسة أميال فقط عن أنقاض قلعة سلوة.

تركنا على الجهمان للاهتمام بالإبل عند سفح التل - ونام في نهاية المطاف - ورحت مع زايد نحاول الصعود إلى القمة التي ترتفع مائتي قدم عن مستوى سطح السهل، قال لي زايد، إن أبا وعيل، الذي أطلق اسمه على هذا التل، كان واحدًا من عظماء الجزيرة العربية القدامى. كان أبو وعيل هذا نزَّاعًا إلى وضع فرسه في إسطبل

على هذه القمة (التى يكاد يصعب الوصول إليها) هذا الإسطبل وإلى يومنا هذا - نظراً لأن أبا وائل هذا كان قد شاهد تلك القمة ورآها بعينيه من بضع سنوات - يمكن العثور عليه، مدفوناً فى الصخر، وبخاصة الرُّزة(*) الحديدية التى اعتاد أن يربط فيها فرسه. من خلال هذا الوصف تخيلت أن تكون تلك الرزة الحديدية يمكن أن تكون مرساة (هلب) من مراسى السفن، وجرى حلها من حطام إحدى السفن على الشاطئ، أو أن الأرجح هو أن تكون تلك الرزّة تذكاراً من تذكارات واحدة من السفن التى استولى عليها القراصنة فى الماضى. لم يكن المطلع سهلاً بأى حال من الأحوال، وبالقرب من القمة كانت الصخور المنحدرة المتآكلة بفعل الطقس والعوامل الجوية، لا تسمح سوى بفتحات صغيرة جداً ترتكز عليها أقدامنا أثناء عملية الصعود، وكانت تلك الفتحات تنخلع فى أيدينا أثناء الصعود، الأمر الذى كان يفقدنا توازننا بصورة مؤقتة فى بعض الأحيان ونحن على شفا جروف كبيرة. لكن المنحدرات السفلى عن التل كانت عامرة بالمتعة. وأنا بدورى كنت قد جمعت من منطقة قاعدة التل بعضاً من الحفريات، التى ربما تساقطت من الطبقة السميكة الحالية للأحافير - ربما يصل سمكها إلى حوالى ١٠٠ قدم - التى تقع أسفل طبقة من الحجر الرملى، سمكها حوالى خمسين قدماً وغير صالحة للإنتاج عند القمة. وسرعان ما ملأنا كيسين بتلك التذكارات الدالة على حوض قديم من أحواض المحار، ينتمى إلى العصر الميوسينى[1]، وسعدت جداً عندما عثرت على زناد وحيد من الصوان. باءت بعد ذلك بالفشل المحاولات كلها التى أنفقتها فى البحث عن العلامات والمؤشرات الدالة على الإنسان القديم، والأرجح أن ذلك الزناد الذى عثرت عليه هنا، ربما يكون قد نسيه أحد البشر هنا مؤخراً، وسبق ذلك أن البدو المحدثين مايزالون يوقدون النار باستخدام هذه الزُّند التى يصنعونها من حجر الصوان، يزاد على ذلك أن هؤلاء البدو ينتقون نوعيات ممتازة من الصوان، مثل تلك التى كان أسلافهم يستعملونها فى شب النار. فى ذات الوقت نفسه كان زايد يفحص

(*) الرزّة: بتشديد الراء وضمها وتشديد الزاى وفتحها: هى مسمار مزدوج السن على شكل حرف U الإنجليزى، يغرز فى جدار أو باب أو حتى فى الأرض ليربط فيه شىء ما. (المترجم)

(١) راجع الملحق.

آثار أقدام ضبع من الضباع، والتى أكدت أن الضبع مايزال قابعًا فى جحره، لأن آثار الأقدام لا تدل على أن الضبع غادر ذلك الجحر. وجرى استدعاء الرجلين النائمين لمساعدة زايد، ولكنهما اكتشفا أن الضبع غادر وكره من خلال باب خلفى لم يلاحظه زايد أو يكتشفه.

تحركنا كلنا بعد ذلك إلى قمة التل، ورحت أجمع الحفريات من الطريق. وفوق هذه القمة المنبسطة، التى يصل طولها إلى ١٨٠خطوة وعرضها إلى ٥٠ خطوة، لم نعثر على شيء سوى كومة من الركام الصخرى، وفتحه فى الصخر عمقها حوالى قدم واحدة وتتسع لوضع سارية سميكة فيها. هنا فى هذا المكان، على حد قول زايد، شاهد الرجل (زايد) الرُّزَّة، والحال التى كانت عليه والمآل التى آلت إليه. كان الصوَّان هو والحفريات – ناهيك عن المنظر من فوق قمة هذا التل – تعويضًا كافيًا لنا عن المشاق التى عانيناها فى الوصول إلى تلك القمة. كان المشهد رائعًا بحق: امتداد كبير من الأرض الجرداء، كنا ننظر إليه ونشاهده من تلك القمة الباردة التى تأثرت بفعل الرياح. تركت رفاقى عند فجوة الحديقة المفقودة، وقصدت الجانب الآخر من التل الذى يطل على واحة سكاك، لكى أتمشى فى المنطقة المحيطة بنا، وفجأة ظهر أمامى، وفى صمت وبلا إنذار رجل مسلح على بعد ياردات قليلة منى. السلام عليكم! ألقيت السلام وأنا أتقدم بدلاً من التأخر. ورد علىَّ الرجل قائلاً: وعليكم السلام.. أنا لم أرك، قلت ذلك من باب التوضيح الذى لا لزوم له، وحاولت إخفاء البوصلة المنشوريَّة التى لابد وأن يكون هذا الرجل قد لاحظها بالفعل، كيف قطعت هذه المسافة إلى القمة؟ – كان المكان الذى صعد منه الرجل عبارة عن جرف شديد الانحدار، ومن أين أنت؟ مرِّى أم منصورى؟ خاطرت بذلك السؤال وأنا أعلم أن البدو الرُّحل فى المنطقة المجاورة لابد وأن يكونوا من واحدة من هاتين القبليتين. أدهشنى الرجل. أنا من الإخوان. وخطر ببالى أنه قيل لى ذات مرة إن هناك مستوطنة من المتشددين فى سكاك، وإن تلك المستوطنة تقع على السهل الموجود فى الأسفل، ويمكن رؤيتها من المكان الذى أقف فيه، على الرغم من عدم ملاحظتى لها. صوّر لى خيالى، تصويراً سريعًا، ذلك الجزء المتبقى من قرية المحاربين المتمركزين حول التل على شكل كردون لا يمكن الهرب أو الفكاك منه. المرجح أن إبلنا كانت فى أيديهم بالفعل وفى متناولهم. وعلى الرغم من ذلك كان الرجل تبدو عليه

البشاشة والود إلى حد بعيد. ماذا تفعل هنا؟ واستطرد فى تساؤله، هل تقوم بالصيد؟ ومن هم أولئك الذين يرافقوك؟ هل بينهم أحد من المرَّة؟ رددت عليه مستخدمًا اللقب الذى يطلقه الإخوان على الملك الوهابى وقلت: نحن من قبل الإمام، ومعنا أيضًا على الجهمان. ويبدو أن ما قلته أقنع الرجل، ورحنا نتحرك معًا فى اتجاه رفاقى، الذين تركت الرجل معهم، وعدت لدراسة المشهد وتفحّصه. قيل لى بعد ذلك، إن هذا الرجل لاحظ فىّ شيئًا من الفضول، وهذا شىء غير عادى فى زائر يقوم بزيارة إلى هذه المنطقة، وأقنع رفاقى الرجل بأنى مهندس مكلف بمهمة تفتيشية من قبل الملك شخصياً، وأنى أقوم بدراسة مشكلة الماء فى هذه المناطق. بعد ذلك بأسابيع عدة، وفى ظل ظروف أخرى مشابهة لهذا الظرف، جرى تمريرى فى منطقة الصخور البركانية فى "بقوم" على أنى طبيب. الناس فى الجزيرة العربية يشيع بينهم أن الرجل الأبيض مستودع للعلم والعلوم – ومنذ سنوات مضت، جرى تمريرى على أنى خبير فى المدفعية!

لم يكن نزولنا من طريق آخر أسهل من عملية الصعود، لكننا فى ذات الوقت، كنا محملين بالحفريات، إلى أن وصلنا سفح التل، وركبنا دوابنا واتجهنا لزيارة سكاك، التى كنت قد شاهدت، من قمة التل، نخيلها المبعثر فوق تلال من الرمال البيضاء المتدحرجة. وفى غضون أقل من نصف الساعة كنا قد وصلنا وتوقفنا عند أول عين مائية من عيون الواحة الكثيرة، هذه العين كانت عبارة عن بركة معقولة الحجم عند مستوى سطح الأرض، وكانت نباتات القصب[(١)] المزهرة تغطى أكثر من نصف مساحة هذه البركة. كان هناك بعض النخيل الهزيل على جانب من جانبى البركة، كما كنا نشاهد أيضًا حول البركة تجمعات أخرى من الغاب والنخيل. وعلى بعد مسافة قريبة منا، وفوق أرض أعلى من مستوى الأرض التى نقف عليها، والتى تختلف قليلاً عن أراضى المستنقعات، كانت هناك هجرة[(٢)] صغيرة، مكونة من حوالى عشرين كوخ من اللبن، ولا تضم أكثر من مائة نسمة بأى حال من الأحوال، وقد تأسست تلك الهجرة فى

(١) يطلق العرب على نبات القصب هذا اسم "الغاف"، وهذا هو النبات نفسه الذى يطلق عليه المصريون اسم "الغاب"، ومسألة قلب الفاء إلى باء أمر مألوف فى بعض مناطق الجزيرة العربية. (المترجم)

(٢) الإخوان يطلقون على مستعمراتهم أو مستوطناتهم اسم "هجرة".

مطلع حركة إحياء الإخوان بواسطة حمد بن برجس بن حنزب، شيخ أحد الأفخاذ من عشيرة عضبة من المرّة. وعلى العكس من المستوطنات القبلية الأخرى الشبيهة بهذه الهجرة، نجد أن هذا المكان يعج بالحركة والنشاط بفضل سكانه، الذين يمضون قسماً كبيراً من وقتهم في مراعي صحراوية بعيدة. كانت واحة سكاك عبارة عن عينة سيئة من الجهود الطبيعية التي لا تحصل على أي شكل من أشكال العون والمساعدة - وسبب ذلك أن مُلاَّك النخيل يتركون عملية تخصيبه وتلقيحه للطبيعة نفسها - التي تسهم في توفير مخزونات الطعام للبشر، الذين ينعمون بثمار البيارات الناضجة دون جهد أو تعب، والذين لم يفهموا أو يدركوا بعد أن بوسعهم الحصول على نتائج أفضل لو أنهم بذلوا قليلاً من الجهد والعمل في الأمور التي يتركونها لله سبحانه وتعالى عن طيب خاطر ورضا.

إلى جانب الغاب والنخيل الموجود في الواحة، التي تقع على مستوى ينخفض عن مستوى سطح البحر بحوالي خمسة وعشرين قدماً، هناك أيضاً عدد كبير من أدغال أشجار الأثل (الطرفاء)، لكن أهل الواحة لم يهتموا كثيراً بمسألة استبقائنا فترة أطول، وعليه استأنفنا مسيرنا عقب أداء صلاة العصر. هذه الأنقاض القديمة ذائعة الصيت والتي دارت من حولها الشائعات التي كان يمكن أن تكون خرافة ما لم تكن مدفونة تحت الكثبان الرملية التي تحيط بالواحة من كل جانب. وعندما وجدنا أن التربة المالحة هنا زلقة إلى حد ما بفعل الرطوبة الموجودة أسفلها، آثرنا السير عبر الرمال ودرنا حول سلسلة صخرية منخفضة تقع على الجانب البعيد من السطح المالح الكبير. وعدنا من جديد إلى عبور المسار الذي سارت فيه السيارة سالفة الذكر، ورحنا نواصل سيرنا خببًا عبر الحقل المالح الشاسع، متجهين صوب أقصى الجنوب الغربي، حيث يوجد مدخل مصب أبو أرذيلة. عن بعد وفي اتجاه الجنوب الشرقي تبدت لنا سلسلة جبال مشيخيلة المنعزلة، هي وسلسلة من المخروطات الشبيهة بالخيام فيما بين هذه السلسلة من الصخور والجزء الرئيسي من الأرض. كان لا يزال أمامنا شوط كبير يتحتم علينا القيام به، وكانت الشمس قد بدأت تغرب من أمامنا، عندما وصلنا إلى سلسلة التلال الرملية التي طمست حوض أو مجرى ذلك المصب. وتعين علينا العودة إلى

سرعتنا المعتادة فى المسير فوق ذلك الطريق المتعرج، وأدركنا أننا مازلنا نمضى قدمًا، دون أن تكون لدينا فكرة واضحة عن موقع أو مكان مخيمنا، فضلاً عن أن خُرُجُنا كانت خاوية، وليس لدينا ما يمكن أن نستعمله فى جرح صيامنا عند دخول موعد الإفطار. أخيراً تراءت لنا عن بعد نار مخيمنا، وكان ذلك عند الساعة السابعة مساء عندما وصلنا إلى الخيام، لنرى أن العشاء كان فى انتظارنا. كنا قد تجولنا إلى مسافة بعيدة، ولمدة تقدر بإحدى عشرة ساعة، ولكنى لم أحس بالإرهاق أو التعب، وأمضيت جزءًا من الليل أناقش سعدان فى تأثير التصبير (تحنيط الحيوانات) على أجسام الفراش الذى أحضرناه معنا من سلوة.

مع استقرار نظام ترحالنا استقراراً تامًا، بدأت أحس بعدم كفاية الوقت المتاح للمهام المتباينة التى ألزمت نفسى بها منذ البداية. تحتم علىّ أن أعمل كل شىء بنفسى، واكتشفت بعد ذلك أن كل شىء كان يتأخر عن موعده. يزاد على ذلك أن مذكراتى اليومية تأخرت هى الأخرى عن مواعيدها، ومن واقع خبرتى السابقة عرفت أن الأعمال التى يتأخر تنفيذها تتراكم ويصعب القيام بها فى نهاية المطاف. وقد انطبق ذلك بصفة خاصة على مجموعة الطيور والفقاريات، التى كان يتعين علىّ سلخها وهى ما زالت بلا تحلل أو التخلص منها عندما تتحلل وتتعفن. على كل، نحن لم نصادف من هذه الطيور والفقاريات سوى أعداد قليلة جداً، وبخاصة الطيور، لكن السواد الأعظم من هذه الطيور كان لابد من التخلص منها بسبب تحللها وتعفنها، والمؤسف أنى توصلت إلى نتيجة مفادها، أننى إذا أردت إيجاد الوقت الذى يسمح بالقيام بأشياء أخرى، فإن ذلك يعنى وضع خطة للأنشطة المتعلقة بجمع الأشياء التى تحتاج إلى السلخ والتصبير. وقبل وضع هذه الخطة، رحت على سبيل الأمل الضائع، أعلّم سعدان ذلك القليل الذى أعرفه عن السلخ والتصبير. وعليه أمضينا الليلة كلها فى تصبير البلبل، وكنا نحن الاثنين بمثابة أعمى يقود ضريراً آخر، وبعد يوم أو يومين من القيام بأعمال مثيلة للسلخ والتصبير أصبح سعدان مسئولاً مسئولية كاملة عن تجهيز الأنواع التى جمعناها أثناء تجوالنا. وفى نهاية المطاف عدت إلى وطنى ومعى حوالى سبعين أو ثمانين ما بين طائر وفقارى من الربع الخالى، ويمكن القول: إن هذه المجموعة كانت

مفيدة إلى حد ما - لا للعرض وإنما لتسهيل التعرف[1] على الحياة الحيوانية الصحراوية. أما بقية الحشرات، والحفريات، والصخور، هى وأشياء أخرى فقد كانت من اختصاصى أنا شخصياً، لكنى شعرت بالارتياح عندما عرفت أن مجموعة الطيور والحشرات ستكون ملبية للغرض المطلوب.

وقد صُدمت عندما سمعت بعد ذلك فى فترة المساء، أن جثة البلبل التى تخلصنا منها جرى شواؤها على نار المخيم، ثم أكلها رفاقى. والمحتمل فى داخلى أمل صامت مفعم بالتقوى مفاده ألا يكون الصابونْ الزرنيخى الذى علق بالجثة عند سلخها، ضاراً بالبشر، لكنه أصبح مفهوماً من الآن فصاعداً أن اللحم، مهما كانت طريقة الحصول عليه، ينبغى أن يرسل إلى المطبخ. لم أستطع جعل نفسى تقبل المشاركة فى الوجبات الناتجة عن العمليات التى تكون من هذا القبيل، على الرغم من انتصار الجوع فى الأسابيع التى تلت ذلك مما اضطرنى إلى المشاركة فى تلك الوجبات، شأنى شأن رفاقى، فى كل ما كان يدور بيننا.

كان مصب جوب أبو آرذيلة مختلفاً عن كل من منخفض الحر ومنخفض البعيج، فى أن كلاً منهما مملوء تماماً بالكثبان الرملية، وركام التراب والحجارة الذى تجرفه الأنهار الجليدية moraine، هذا الركام وهذه الكثبان الرملية تغطيها أدغال الغاضة وبعض النباتات الأخرى. مسألة أن هذا المصب كان وادياً أو منخفضاً لا تتضح إلا من خلال السلاسل الصخرية المنخفضة الموجودة على جانبى هذا الوادى، والتى تنتهى من ناحية الشرق عند الأراضى الرأسية فى كل من خشم أبو آرذيلة وخشم أنباك فى اتجاهى الشمال والجنوب. الطابع الحقيقى لهذا المصب، لا يظهر إلا عند مدخل المصب الواقع بين أرضين رأسيتين، تبعدان عن بعضهما أميالاً عدة، حيث يتضح ذلك الطابع فى ذلك اللسان الضيق من السهل المالح، والذى يمتد غرباً إلى مسافة كبيرة داخلاً إلى الرمال التى لا تملأ الوادى بغير هذه

---

(١) راجع الملحق للمزيد عن هذا الموضوع.

الطريقة. كان مخيمنا وسط مصب جوب أبو آرنديلة يقع على ارتفاع حوالى ٢٠٠ قدم فوق مستوى المسطحات المالحة، ومن ثم كان على مستوى واحد تقريباً مع آبار بعيج.

لقد طرأ على الظروف المناخية تغيير كامل، هذا البرد القارس والصقيع اللذان كانا يسودان هذه المنطقة فى الأزمان السابقة تحولا إلى ما هو أحسن حاليًا، إذ وجدت من غير الضرورى أن ارتدى "حذاء الجليد"، اللهم باستثناء فترة الليل وفترة الصباح الباكر عندما يكون الرمل ما يزال بارداً تحت الأقدام. كان جميلاً بحق أن أعيش هذه الأيام، بعد أن غاب عنى ذلك التيبس القديم، وبعد أن زاد إحساسى بزيادة لياقتى البدنية. كان هواء الصحراء رائعًا، مشوبًا بالدفء أثناء النهار مع نسمة جنوبية خفيفة تجلب معها كتلة من السحب الهزيلة غير الكثيفة تلطف من أشعة الشمس، كان الهواء معتدلاً أثناء الليل مشوبًا بضباب كثيف وندى كثيف أيضًا عند الفجر. وفى صبيحة اليوم التالى كان الضباب كثيفًا فوق منخفضات أبو آرنديلة، الأمر الذى أدى إلى انتكاس نظامنا الرمضانى. كان يجرى إيقاظنا لتناول وجبة السحور، وكنا نبدأ فى تناول وجبة السحور، عندما يتسلل إلينا من خلال الضباب الكثيف ضوء غريب، يحذرنا من دخول وقت الصلاة علينا فجأة، وبالتالى يتعين التوقف عن الطعام والشراب. ويقطع سويد علينا وجبة السحور فجأة عندما راح يؤذن لصلاة الفجر. هذا يعنى بدء صيام اليوم، ومع بداية يوم الصوم يبدأ ارتداد رفاقى عن الطريق القويم، هؤلاء الرفاق الذين لم يتناولوا القهوة بعد وتراجعوا عن هذه المصيبة الطويلة فى غياب ذلك الحافز. قال بعضهم: أولاً وقبل كل شىء، لقد اسأنا دون قصد، وبالتالى فسد صيامنا، وعليه يجوز لنا أن نكون مسافرين اليوم[1]، كانوا يعنون بذلك أيضًا أنهم يودون خروفًا أو طليًا! ورد الأكثر تدينًا وورعًا قائلين: الأمر ليس كذلك "فليسافر" أولئك الذين يودون السفر لأن الله غفور رحيم، أما أولئك الذين نووا الصيام - وهذا التعريف والتحديد ينطبق علينا جميعًا - فإن الأوان لم يفت. إنما الأعمال بالنيات. هيا بنا نصلى ونتخلى عن القهوة. اتكل على الله. لكن المتقيدين كان عددهم خمسة - على الجهمان، وأبوجعشه وابن معدى، وسويد، وأنا معهم - مقابل عدد كبير من المرتدين عن الطريق

(١) مسافرين بمعنى أناس يتحللون من الصيام بسبب السفر.

القويم، الذين تجمعوا حول نار القهوة وراحوا يستنكرون بشدة بصوت عال أولئك الذين يجعلون التقوى حكراً عليهم. وبناء على اقتراح منهم – لأنى كنت قد انسحبت إلى خيمتى – جاءنى سعدان ومعه كوب الشاى الخاص بى، وقلت له: اذهب بذلك الكوب إلى الشيطان، وطلبت إليه أن يكف عن الكلام، وإنه يعرف كتابه المقدس معرفة جيدة تمكنه من استغلال الثغرات التى تناسبه، وإنه كان يكشف عن علمه أمام رفاقه "المسافرين" المعجبين به. الأفضل أن "يسافر" عندما يكون لدينا يوم كامل نستريح طواله فى المخيم، وأن يكون لدينا لحم نأكله. من حسن حظنا أن المدفعية الثقيلة كانت تقف إلى جانبنا، علاوة على إمام الجماعة، ومن بين الخمسة كان على الجهمان هو الشخص الوحيد الذى أخفق فى صيام أيام رمضان الثلاثين كاملة متتالية، فى حين واصل سويد وصام الستة البيض، بدءاً من اليوم الثانى من أيام عيد الفطر، الذى يهل عقب انتهاء صوم رمضان. وبذلك يصبح "يوم الضباب" علامة مميزة من علامات تجوالنا.

بعد أن عدنا إلى المخيم قادمين من واحة سلوة اكتشفت أن جماعتنا جرى دعمها بوصول صالح بن عزيز، أحد مشايخ الـ بومنظر، إحدى الجماعات الثلاثة الكبيرة فى قبيلة المناصير – كما قد رأينا إبل هذه الجماعة عندما كانوا يسقونها من أبيار سلوة، عندما كانت تلك الإبل عائدة، عن طريق الدوحة، من مراتعها الصيفية وبيارات النخيل فى منطقة الضافرة المواجهة لعمان. وجرى توضيح مستوطنتهم الواحية الرئيسية على الخارطة تحت اسم الليوه بناء على نطق المناصير أنفسهم لهذا الاسم، هؤلاء المناصير يقلبون "الجيم" J إلى "ياء" y، ويحولون "الضاد" DH إلى صوت شفوى هو وبعض الحروف الأبجدية الأخرى. وبذلك يصبح الاسم الصحيح، حسب اتفاق الجميع هو "الجيوة"(١).

---

(١) يصح فيه أيضاً "الجوه" بمعنى "الداخل"، راجع أيضاً "الباطنة" بمعنى "داخلى" والظاهرة بمعنى "خارجى" وهما منطقتان فى الشرق والغرب من سلسلة جبال عمان. وهناك أيضاً الخارجة والداخلة وهما واحتان ليبيتان.

كان شقيق صالح الذى جاء هو الآخر لوداعه فى رحلته الطويلة، قد عاد إلى خيام جماعته وناسه فى الصباح، بعد أن بدأت الإبل التى تحمل متاعنا، تحركها صوب أنباك، شرعنا فى زيارة آبار أبو آرذيلة، التى هى عبارة عن بئرين، أو حفرتى ماء، يصل عمق الواحدة منهما إلى قامة واحدة، داخل منخفض رملى دائرى وسط منطقة المنخفضات. وجدنا فى منطقته آبار أبو آرذيلة حوالى ١٠٠ جمل من جمال جماعة أخرى من المناصير، هذه الجماعة يطلق عليها اسم البو رحمة[١]، وشيخهم الكبير هو سعيد بن سويت، وجدنا هذه الإبل تُسقى من الآبار بواسطة قلة قليلة من الرعاة. قبل الوصول إلى الآبار، أى على بعد حوالى ميلين من المخيم، انضم إلينا رجلان، اتضح أنهما الشيخان الفرعيان اللذان التقيناهما يوم أمس فى سلوة، ومعهما خادم. بعد أن غادرنا ذلك المكان كان الشيخان قد مارسا هواية الصيد باستخدام صقريهما، وكان الشاب الصغير، قد قطع تلك المسافة، بحثًا عنا فى الصحراء، ومعه كيس فيه ثلاثة من الحبارى كى يقدمها هدية لنا. كان شكل ذلك الشاب الصغير يبدو رائعًا فى ذلك الثوب الأحمر القانى الذى كان يرتديه، هذا اللون الأحمر القانى كان ينعكس على الوجه الداكن والأنف المعقوف الذى يشبه أنف النسر، والذى ورثه هذا الشاب عن والده، الذى كلفه مولده من امرأة عبدة، أن يطلق الناس عليه اسم "العبد" فى هذه الدنيا. كان رشيد بن منيع، الذى ذاع صيته على أنه أكثر رجال المناصير شهرة. أصررت على أن يركب الشاب رشيد معنا إلى أنباك، التى أمضى فيها الليل معنا فى مخيمنا، وكان مهما أيضًا أن ألاحظ احترام كل من صالح وحميد لذلك الشاب، على الرغم من أن الرجلين كانا يكبرانه سنًا، لكنهما كانا يوفّيان بالاحترام الواجب لنبالة المولد والأصل، التى تحظى باهتمام كبير فى الذهن السامى. تمنيت لو أن رشيد كان واحدًا من أفراد جماعتنا، لكن الشاب رفض دعوتى بابتسامة لها مغزاها، واستأذن منا، وهو سعيد ببعض قطع النقود الفضية التى أردت أن تكون شيئًا من الرد على أدب وكياسة ذلك الشاب.

---

(١) الجماعة الثالثة التى لم نلقها مطلقًا هم أهل شعر وشيخهم غانم بن جريب.

سرنا من منطقة الأبيار متجهين صوب الجنوب الشرقى عبر الوادى في اتجاه الأرض المرتفعة من الوادى على ضفته الجنوبية، التي كانت تمتد أمامنا آخذة في الارتفاع على شكل سلسلة من الرفوف العريضة، التي تنتهي بهضبة ضيقة يغطيها الحصى والزلط، وتفصل منخفض أبو أرذيلة عن مصب أنباك البارز. أثناء سيرنا على الطريق، شاهدنا رجلين يتجهان نحونا. كان أحدهما ماشيًا، أما الثانى فكان راكبًا. تأكد أن الرجل الثانى كان هو فراًج، الذي ترك رفيقه لوحده، وراح يجرى نحونا ليبلغنا بنجاح المهمة التي أوكلها إليه زايد فى اليوم السابق. لقد عثر فراج على الرجل الذي كان يريده، والذي بدأ يهل علينا من خلال الرمال التي تغطيها الشجيرات والأدغال الصغيرة – هذا الرجل بدوى مترحل مهلهل الثياب، على الرغم من أن قامته توحي بأنه رجل رياضي. هذا الرجل هو حميد بن أمهج، شيخ صغير من مشايخ البو رحمة، وبذلك تكتمل الجماعة التي سترافقني في تجوالي. كان يبرز من مقدمة فم حميد بن أمهج هذا سنًان، بروزًا خطيرًا، نتيجة إصابته منذ زمن بعيد بطلقة نارية من طلقات العدو. وفيما عدا هذه الإصابة كان وجه الرجل جذابًا تمامًا، ومستطيلاً، وكان غائر الخدين، وذكيًا في ذات الوقت. شاع عن حميد هذا أنه كان شاعرًا على الرغم من أنى اكتشتف أن إنتاجه الشعرى مخيب للآمال، وقد أثبت هذا الرجل أنه فرد قوى وكتوم من أفراد الجماعة. ربما كان حميد هو وحسن خُرّ الديب هما أقل أفراد الجماعة حذرًا، لكنهما كانا يمكن الاعتماد عليهما إلى أبعد حد ممكن، وكانا يعانيان ويتحملان اندفاعي في صمت ويحاولان دائمًا المحافظة على الهدوء إذا ما نشب خلاف أو نزاع. كان صالح على النقيض تمامًا من قريبه وسوف يلعب دورًا مهمًا وبارزًا في قصتي. بعد السلام والتحية، تخلى زايد في أدب واحترام، عن راحلته لحميد الذي أُرْسِلَ جمله إلى أنباك وعلى ظهره الأمتعة والعفش، ورضى زايد بالركوب على السرج، أو أن شئت فقل المقعد الخلفي وراء صالح. ركب القادم الجديد على ركبته على الطريقة العمانية داعمًا مؤخرته بعقبيه – هذه جلسة غريبة على سرج مسطح أو مستوٍ، لكنها مريحة تمامًا من الناحية الشكلية، وتعتمد على التوازن في المقام الأول. لكن هذا الصنف من الناس الذين يولدون على ظهور الإبل بوسعهم ركوب الإبل بطريقة رشيقة تمامًا - ونساء هؤلاء الرجال يفعلون الشيء نفسه – على كفل الجمل الذي يجرى وبلا سرج.

فى بعض الأحيان يغير هؤلاء الناس الوضع إلى وضع آخر يسمونه وضع جانب السرج، وفى هذا الوضع يدلى الراكب إحدى رجليه، ويبقى على الرجل الأخرى تحته على السرج. وفى بعض الأحيان – وهذا هو ما يفضله كل من زايد وعلى الجهمان – يركب الجمل منفرج الساقين، وذلك بالجلوس على مؤخرة ردف الجمل. يدّعى على الجهمان بأن لديه قطيعين قوام كل قطيع منهما حوالى ثمانين جملاً، وأن القيمة الإجمالية لهذين القطيعين تقدر بحوالى ٢٠٠ دولار، وأن ذلك يعادل ١٥٠٠ جنيه إنجليزى، وهذا رأس مال كبير قياساً على معايير الجزيرة العربية. وقال أيضًا إن نياق الحليب الثلاثة جرى جلبها من إبله. وقد أسَّر لى على الجهمان، أنه لو كانت لديه ثروة كبيرة فإنه سوف يتزوج ويعدد، لكنى ليس لدى سوى زوجة واحدة، وهى الزوجة الثانية. أنجبت لى زوجتى الأولى طفلاً ذكراً، يبلغ من العمر حاليًا سبعة عشر عامًا، وعندما طلقتها اتخذها أخى زوجة له. لم يكن على الجهمان شيخا من شيوخ القبائل، لكنه كان من أقارب شيخ كبير من شيوخ الغفران، هو صالح بن على أبو ليلى من فخذ زايد.

هلَّ علينا قطيع من إبل غفران نازلة المنحدر وقادمة من أقصى الأنباك، عندما كنا فى الجانب المقابل من ذلك الاتجاه. ورأينا امرأة تعدو مع تلك الإبل، كانت تلبس رداءً أحمراً، وكانت عيناها براقتان، وتلبس قناعًا غريبًا من أقنعة نساء البدو الرحل. أطالت هذه المرأة النظر إلىّ، وأنا لست نادمًا على اهتمامى بها. فى حين راح كل من على وحميد، يتلكآن فى المؤخرة لكى يتسامرا مع أهليهم الذين كانوا يهلون علينا من الرمال الكبيرة، أما بقية الجماعة فقد مروا إلى أن وصلنا إلى حافة صخرة الوادى. فى ذات الوقت كان فراج قد طارد نسرين[1]، كانا قد وقفا على صخرة مرتفعة ولم يفلح فى اصطيادها.

كان المصب محدداً من ثلاثة جوانب بقمم صخرية متباينة الصور بفضل عوامل التعرية، وهذه القمم الصخرية منفصلة انفصالاً تامًا فى بعض الأجزاء، مكونة بذلك

(١) العرب يقولون للنسر: "عقاب".

سلسلة من الصخور المنعزلة في وسط الوادي. واحدة من هذه السلاسل الصخرية تقع على بعد مسافة معقولة في اتجاه الجنوب الشرقي، ويعرفها الناس باسم مقر الصقور[1]، بمعنى عش الصقور، حيث إن هذا المكان شهير بتكاثر الصقور فيه، كما يحاول البدو الحصول على صغار هذه الصقور من الأذرع التي يصعب الوصول إليها في هذه الصخور، ثم يقومون ببيع هذه الصقور لابن جلوي وآخرين من محبي هذه الرياضة، أو بالأحرى محبي التصقر، أو إن شئت فقل: الصيد باستعمال الصقور. بالقرب من سطح الصخرة التي كنا نقف عليها، كانت هناك مجموعة كبيرة من الصخور المتآكلة بفعل عوامل التعرية، التي جعلت منها أشكالاً عجيبة، هذه الصخور كانت تشبه أنقاض بلدة يقال لها سودوم أو جمورَّة – التي يرجع أنها أساس للقصة التي يرويها البدو عن أنقاض قديمة لا وجود لها في أنباك. في حوض أو مجرى ذلك المصب – حيث توجد رقع من التربة المالحة البيضاء التي تتبادل المواقع مع تلال أو سلاسل رملية – توجد واحة أنباك الصغيرة ضئيلة القيمة، والتي توجد بالقرب منها قرية الإخوان المهجورة في الجنوب العربي. أخيراً وفي أقصى الشرق تبدَّت لنا أرض المصب البيضاء المالحة المنبسطة، التي يتدفق فيها مصب أنباك ومصب الجديرات، اللذان يفصلهما عن بعضهما شريط واسع من الرمال المتموجة، على الرغم من أنها تشكل وبلا أدنى شك خليجًا واحداً داخل هذا الخط الدائري من الصخور. على بعد مسافة بعيدة في اتجاه الجنوب، نجد أن الصفة الأخرى لذلك المصب المزدوج تنتهي عند هضبة العبد الصغيرة المدوَّرة، التي تمثل الجانب البعيد من مصب يطلق الناس عليه اسم خور العبد.

إلى هنا أكون قد شاهدت ورأيت من تلك المصبات ما يمكنني من تشكيل فكرة ذهنية، مفادها: أن الخط المتعرج للجدران الهاوية لتلك المصبات – بدءًا من منخفض

---

(١) كان الرائد شيزمان قد لاحظ بالقرب من سلوة أرضًا رأسيه أسماها خشم سكلول، ولكن رفاقي أعربوا عن جهلهم المطبق بمثل هذا المكان. والأرجح أن يكون مرشدو الرجل قد سمعوا عن هذا المكان الشهير بالقرب من أنباك، وأطلقوا الاسم (سكلول ليست سوى تحوير لكلمة "صقور") بصورة عشوائية على ملمح من ملامح ساحل خليج سلوة .

جوب العُرَيِّض فى أقصى الشمال إلى الجوب العظيم الأوحد فى الجنوب، والذى دخله برترام توماس بعد أن غادر بئر بنيان عند الحد الشمالى للرمال الحقيقية لبحر الرمال - يمثل الحدود الصخرية الخارجية لبحر قديم. ويمكن الوقوف على الرسوب الحفرية لعصر الميوسين[1] فى الطبقات السفلى من قمم الأنباك والجديرات الصخرية، وفى بعض الأماكن الأخرى، فى ظل سمك الحجر الرملى الخالى من الحفريات، والذى يبدو أنه يمتد راجعًا إلى الصحراء الشرقية، على الرغم من عدم القطع بتحديد عصر وطبيعة هذه الرسوبيات تحديداً قاطعًا فى ظل المعرفة المتاحة فى الوقت الراهن. يزاد على ذلك أن المسطح المالح الممتد من شمال سلوة إلى أن يصل إلى أقصى طرف سبخة متِّى، يحتل وبلا أدنى شك مجرى بحر مفتوح فى الزمن الذى كان ذلك البحر يخترق فيه المنطقة الداخلية عند أعالى تلك المصبات. وسوف تتهيأ لى الفرصة فى فصل من فصول هذا الكتاب لأوضح أن هذا البحر نفسه كان يمتد على شكل خليج هائل يصل إلى منطقة الخيران المقابلة لشنَّة، التى يفيض عندها ذلك الخليج على أجناب جبال الأيوسين فى الجنوب وفى الشرق. كانت واحة جابرين فى تلك الأيام تشكل الجزء العلوى من مصب سوف نناقش تشكيله فى موضع آخر من هذا الكتاب. ليس هناك ما هو أهم من محاولة كشف القناع الذى نسجته مئات بل وعشرات الألوف من السنين على الأرض، بالشكل الذى كانت عليه عندما عرفها أسلافنا القدماء، أو بالشكل الذى كانت عليه حتى قبل عظمة الخلق. ربما كانت تلك مهمة جريئة يحاول رجل عادى القيام بها، لكن يكفى مثل هـذا الرجل أن يجلب معه ما يضعه أمام الأساتذة المتخصصين، أو بالأحرى تلك المادة اللازمة لاختبار شطحات هذا الرجل الخيالية.

مع مثل هذا الحال، وعند هذه المرحلة من رحلتى، أجد أن هذه المادة موضوعة حاليًا تحت قدمىّ، وسبب ذلك أننا عندما نزلنا المنحدر إلى الأنباك كنا نمشى فوق سطح تتخلله الحفريات المحارية، التى هى من قبيل تلك الحفريات التى عثرنا عليها فى صخور قرن أبو وائل. وعارض رفاقى رغبتى فى التوقف؛ لأن ذلك سيؤخر موعد شرب

---

(١) للمزيد عن هذا الموضوع، راجع الملحق.

القهوة. لكن لابد من التوقف، ورجوتهم أن يتركونى فى عملى ويسبقونى لنصب الخيام والمخيم. وتقرر عندئذ أن يبقى معى الصائمون، وبالتالى لن يشربوا القهوة، فى حين واصلت البقية سيرها طلبًا لمتعة شرب القهوة. رحنا نعمل طوال أربع ساعات فى فترة العصر، أمضيناها فى جمع وتصنيف الحفريات المحيطة بنا، ورحنا ندرس طبقات الحجر الجيرى التى جاءت منها تلك الحفريات، ونعد الخرائط والمخططات وما إلى ذلك. انضم كل من على الجهمان هو وابن معدّى إلى عملية الصيد بحسن نية، وبدأنا بمطاردة أرنب برى شاهدناه يجرى متسلقًا مطلع جانب من جوانب التل طلبًا للسلامة والنجاة. فى النهاية نزلنا نحن أيضًا إلى الوادى، ومشينا متجهين إلى مخيمنا فى الواحة. سألنى على الجهمان الذى سارع إلى تعرف الأصل البحرى للأصداف التى جمعناها ما فائدة هذه الأصداف؟ وما الذى سنفعله بها؟ لقد قدم طوفان (سيدنا) نوح تفسيرا مقنعًا لوجود الأصداف البحرية فى المناطق الداخلية من الأرض؟ قال على الجهمان: إى، والله ! هذا كلام صادق بحق. الأصداف لا فائدة منها ولكنى أطلب المعرفة التى هى أعلى من الثروة. سآخذ هذه الأصداف معى إلى بلدى، وسوف يضعونها فى متاحف لكى يشاهدها الناس ويدرسونها. ها أنا، أعمل مثلك قصاصًا للأثر. أنت عندما تركب وتسير فوق الرمال تستطيع أن تقص أثر الرجال والنساء الذين مشوا فوق هذه الرمال قبل شهر أو أكثر. لكنى عندما أرى هذه الأصداف أعرف ذلك الذى كان يحدث منذ ألف عام أو أكثر - لم يكن هناك داع للحديث عن ملايين السنين - إلى بداية الخلق. أنت تقص أثر الحيوانات وتعرف أن هذا أثر ثعلب وذلك أثر ضبع، وتقول أيضًا إن كان ذلك الحيوان قد مر بالأمس أو قبل الأمس، أما أنا فأرى، وأنا أمشى بدابتى فوق الرمل أو الزلط، أصغر الحشرات التى لا تستطيع أنت تمييزها، حتى وإن أشرت لك عليها. عيناك مدربتان على اتجاه واحد فقط، أما أنا فعيناى شيء آخر، يضاف إلى ذلك أنك تهتم بأشياء لا تدخل فى نطاق اهتمامى. كنت فى كثير من الأحيان أتمتع وأندهش عندما تحيط بى حلقة من المتفرجين، عندما يروننى عدت فجأة إلى الوراء، لأنى شاهدت حشرة صغيرة بين الحصى والزلط. كانت عيناى تتركزان على ذلك المخلوق الذى لا يتحرك، ثم أقوم بتبريك جملى، وأنزل من فوقه لأخذ ذلك المخلوق، أمام أولئك الذين فغروا أفواههم عجبًا ودهشة، من جنونى

الواضح، دون أن يروا شيئًا، إلى أن أقوم أنا بعرض ذلك الأسير الصغير عليهم داخل العلبة الزجاجية التى وضعته فيها. لكنهم بدءوا بصورة متدرجة يستخدمون أعينهم، بأن راحوا يحضرون إلىَّ خنافس وسحالى وأشياء أخرى.

وعليه وصلنا إلى المخيم فى أنباك فى ساعة متأخرة من فترة العصر، وفرحوا جميعًا عندما سمعوا عن نجاح عملية الصيد فى ضوء الشمس، عندما كانوا يشربون القهوة ويلتهمون واحدة من الحبارى التى جاء بها رشيد. كانت بيارات النخيل الستة التى فى الواحة تحصل على غذائها من كثير من العيون، التى كانت تتفجر داخل برك الغاب، ويطفح ماؤها إلى أن يصل إلى مستوى سطح الأرض، كما كانت هناك بئر أو اثنتان ضحلتان مركب عليهما الأدوات التقليدية اللازمة لرفع الماء. كان الغاب كثيفًا وينمو إلى ارتفاعات كبيرة تتردد بين ١٢ و١٥ قدمًا، يضاف إلى ذلك أن رؤوس هذا الغاب المزهرة ومن ورائها أرض النخيل المعتمة كانت تشكل منظرًا رائعًا، وبخاصة فى الأماكن التى لم تصل إليها الإبل لتتلف عيدان الغاب وتجعلها فى حجم أطوال عيدان نباتات الدُّخن(*). كانت نباتات الطرفاء (الأثل) هى الأخرى تتصارع على الحياة مع كل من الغاب والنخيل. كان هناك زوج من طيور الباشق(**). كان هذان الباشقان يحظيان بصيد ثمين بين طيور الدُّخنة(***) كثيرة العدد فى هذه البركة من ناحية، وبين المخلوقات الصغيرة الأخرى من ناحية ثانية، إلى أن حدد صالح مكان واحد من هذين الباشقين، وفتح عليه نيران بندقيتى من مكان قريب فأرداه قتيلاً، بل إن رأسه طار فى الهواء منفصلاً عن جسمه.

انتهزت فرصة وفرة الماء - ونوعيته الممتازة - فى الاغتسال لأول مرة فى هذه الرحلة، فى هذه البركة التى تعد أكبر البرك المائية، التى سقينا إبلنا منها، وملأنا قرابنا من مائها، ووضعناها على شكل صفوف استعدادا لمسيرة الغد. كان الماء فاترًا تمامًا مع غروب الشمس، ولكن رفاقى وجدوه باردًا فى ساعات الصباح الأولى. عندما

(*) الدُّخن: هو ما يعرفه الفلاح المصرى باسم الذرة العويجة. (المترجم)

(**) الباشق: طائر من الجوارح، والبدو يطلقون عليه اسم الشُّبُّون. (المترجم)

(***) الدُّخنة: طائر مغرد يسمونه أيضًا المغنى، أو الشادى، أو قد يقولون له: الهازجة. (المترجم)

انتهيت من عملي، جرى تقديم العشاء، كان العشاء طيباً تماماً مع لحم طائر الحبارى، الذى شكل نوعًا من التغيير عن وجبات الأرز المملة التي تناولناها طوال الأسبوع الفائت. كنت قد لاحظت بالقرب من البرك عدداً لا بأس به من الغنم التي يمتلكها ابن نُقَيدان، الذى كانت خيامه منتشرة على الرمال حول الواحة، وكنت قد اقترحت على الجماعة شراء بعض الخراف؛ حتى يمكن لنا توفير شيء من اللحم لطعامنا على امتداد يومين، الأمر الذى يمكن أن يبعث فينا شيئًا من الحيوية والنشاط. ومع ذلك، قال زايد: إن الغنم كانت ضعيفة الحال، ولا تستحق أن يدفع شاريها ثمنًا لها، بعض آخر من أفراد الجماعة لمحَّوا إلى أن هناك بعيراً صغيراً يمكن شراؤه من هؤلاء الأعراب. أوضحت أن كلامنا عن اللحم سوف يحرِّض الجميع على عملية الصيد والمطاردة - وأسفر ذلك بالفعل عن اصطياد أرنبين بريين وكروانين(*) التي راحوا يتباهون بها. قالوا: آه ! انتظر حتى نصل إلى الرمال، وهناك سترى الأرانب البرية بأعداد كبيرة مثل الجراد، وسوف نأكل أيضًا لحم الوعل الأبيض حتى الشبع. كنا قد شاهدنا آثار أقدام الثعالب، والأرانب البرية، والذئاب والضباع، والحبارى، أو إن شئت فقل: دجاج البر، ومع ذلك لم يكن هناك طائل من وراء ذلك كله .

أحسست بشيء من خيبة الأمل لأننا لم نعثر في أنباك[1] على آثار أو بقايا للإنسان الأول، على الرغم من الإشارة بصورة غامضة في كثير من الأحيان إلى أن هذا المكان له أهمية قديمة. وجاءت الحفريات بمثابة تعويض عن هذا الفشل، كما عثرنا على الأصداف الحلزونية من جديد، وبأعداد كبيرة في المنطقة المحيطة بالمزرعة، وفيما عدا ذلك لم تكن للمكان أهمية، اللهم باستثناء أنه ينخفض بضعة أقدام عن مستوى سطح البحر. يندر أن يظل مكان من هذا القبيل بمنأى عن عيش الإنسان فيه في الزمن الماضي، ومع ذلك لم يكن هناك أي أثر من الآثار القديمة، سوى الأثر المتبقي عن هجرة الإخوان، التي أنشأها وأسسها شخص يدعى سالم بن نُقيدان قبل اثنى

(*) الكروان: طائر مائي طويل المنقار والقائمين. (المترجم)

(١) كانت خرائطنا تورد اسم "أنباك"، على أنه "مباك" Mabaq.

عشر عاماً. أكواخ هذه الهجرة التى تركها أهلها موجودة على شكل دائرة حول مبنى أكبر منها له الطراز نفسه، وله حوش وسيع، كان أهل الهجرة يستخدمونه مسجداً لهم.

عند فجر اليوم التالى كان هناك ندى خفيف على الأرض وسحب فى السماء، فى حين كان الضباب الأبيض الكثيف يغطى الوادى وينحدر انحداراً بطيئًا ناحية البحر، كانت قمم الجبال والأراضى الراسية ترتفع فوق ذلك الضباب الكثيف، لكى تبدو كما لو كانت معلقة في وسط الهواء. كان الجو معتدلاً على النحو الذى نبتغيه، وكانت قافلة الأمتعة والتموينات قد قطعت مسافة لا بأس بها. وعندما كنت أوشك على ركوب جملى، اندهشت عندما استوقفنى مبعوثان من المُرَّة، عبارة عن امرأتان من خيام المرِّى المجاورة – هاتان المرأتان هما زوجة وواحدة من أقارب شيخ من الشيوخ الفرعيين، يدعى ابن عفير – كان معهما مجموعة من الأطفال الذين كانوا يتعلقون بأطراف ثياب المرأتين. قالت المرأة الأكبر سنًا، فى حين راحت تساندها الفتاة براقة العينين هى والأطفال: يا شيخ عبد الله ! لقد أخذوا منا كلبتنا، ونحن ليس لدينا من يأتينا باللحم من الصحراء سواها، نظراً لأن رجالنا ليسوا معنا، وأنت تعلم ذلك، ونحن النساء نعيش وحدنا هنا مع هؤلاء الأطفال. كل ما نتمناه أن يكون لدينا كلب سلوقى كي يقوم باصطياد اللحم لنا – وللمتحف أيضًا – وكنا قد سبق لنا فى مناسبة أو اثنتين أن شاهدنا بعض الكلاب التى رفضناها لأنها لم تكن تصلح لذلك الغرض. كان الناس قد عرضوا علينا فى مساء الأمس كلبًا ولكننا رفضناه وشكرناهم، فى حين عثرنا بعد ذلك على كلبة لطيفة المنظر فاتحة اللون وأعربنا عن رغبتنا فى شرائها. فى البداية خطر ببالى أن شكوى هاتين السيدتين كانت مجرد إشارة غير مباشرة إلى لفت انتباهى إلى حقيقة أنهما لم يحصلا بعد على الهدية، التى جرى العرف على تقديمها فى مثل هذه المناسبة، وقد أكد زايد ذلك التحزير من منطلق قول المرأتين: إن الكلبة غادرت مع قافلة الأمتعة والمؤن. وعلى الفور عدت إلى المرأتين وعددت لهما الدولارات التى يمكن أن تكون هدية مقابلة، لكنهما أصرتا على مطالبتهما واحتجاجهما، وأن الكلبة جرى أخذها دون موافقة منهما وأنهما، تريدان استعادة الكلبة – ولا تريدان ثمناً لها[1].

---

(١) العرب لا يتجرون فى الكلاب نظراً لأن أثمانها ليست شرعية.

الواقع أن زايد، عندما عرف أني لا أود مطلقًا تصعيد الأمور، راح يواجهني بالأمر الواقع. وهنا أصررت على حتمية إعادة الحيوان إلى أصحابه، ورفضت ركوب جملي إلى أن تعود الكلبة إلى أصحابها. وبينما كنت جالسًا راحت المرأتان تغمرانني بالشكر والامتنان، في حين راح الأطفال يصرخون ودموع الفرح تنساب من أعينهم. الله يبارك فيك ! صاحت السيدة الأكبر سنًا قائلة: يا شيخ عبد الله، نحن نرحب بك في أي ظرف من الظروف ونعطيك الكلبة، لولا هؤلاء الأطفال، ربنا يتولاهم ! لقد حزنوا حزنًا شديداً على فراق الكلبة ولم يسكتوا مطلقًا عن البكاء. أطال الله عمرك وأحسن آخرتك ! وعليه جرى تسوية الأمر بما يرضيني ويرضي هاتين المرأتين هما والأطفال. وانتهى الحادث نهاية طيبة تعلمت منها الكثير، كما أعجبتني أيضًا لغة هاتين المرأتين، التي كانت لغة سليمة وفصيحة يفرح الإنسان لسماعها. وركبت جملي وانصرفت، ولم يخامرني شك في أن اللغة العربية هي اللغة الرئيسية عند بني مرة. وتمتم زايد وغمغم بسبب هذه التصرفات، لكن على الجهمان حياني، فيما بيني وبينه، على بطولتي في هذه القضية العادلة. هذا يعني أن اليد الحاسمة أمر ضروري في معالجة البدو القساة، لكن الطغيان والاستبداد أمر لا لزوم له.

سرنا في اتجاه الجنوب الغربي نحو أعالي الوادي، فوق رمال متغيرة وصلصال مالح تشقق بفعل تأثير الشمس، إلى أن وصلنا إلى "عش الصقور"، الذي اكتشفت بجانبه رسوبًا غنيًا آخر من رسوبيات الحفريات، في صخرة منعزلة يطلقون عليها اسم المُلَيْحة. بدأ الوادي يزدحم بالرمال طوال تقدمنا جنوب القمم الصخرية وتتبعنا لها، وبخاصة في الأماكن التي تنحني عندها تلك القمم الصخرية لتكون رُعْنًا(*) من الصخر المتآكل في المنطقة التي يتصل عندها جوب أنباك مع مصب جوب الجديرات. توقفنا في هذه المنطقة لجمع بعض الحفريات من طبقة سميكة تمامًا من الحجر الجيري البرَّاق، ومحفورة بين حزام من الصلصال الذي يميل لونه إلى الاحمرار وطبقة عليا من الحجر الرملي وردي اللون الخالي من الحفريات، الذي يشكل الأرضية الصحراوية في المنطقة

(*) الرَّعن: هو قنَّة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر. (المترجم)

الواقعة شرقى خط المصبّات هذا. كان هناك غرابان يسكنان هذه القمم الصخرية عندما اقتربنا منها، لكنهما لم يبقيا من باب التحوط واليقظة، وفرّاج الذى ذهب لاصطيادهما لم يفلح فى الوصول إلى المدى المؤثر عليهما.

اتجهنا عندئذ إلى الناحية الشمالية الغربية قاصدين رأس مصب الجديرات، الذى تنتشر فيه بطول الصخرة كلها وعلى الجانب الأيمن الرفوف الصخرية المنعزلة، المتأثرة بفعل العوامل الجوية، هذه الرفوف الصخرية يحصر فيما بينها من ناحية، وبين السلسلة الجبلية المقابلة لها، وادي يصل اتساعه إلى حوالى ميل واحد يمتد فى اتجاه الشرق إلى أن يصل إلى المسطح المالح الكبير. كنا نستهدف الوصول إلى بئرى الجديرات، اللتين لم يكن لدى على الجهمان سوى فكرة شاحبة عن موقفهما، إذ زار الرجل هاتين البئرين قبل عشرة أو خمسة عشر عاماً. كان هناك غشاء رقيق أخضر اللون يغطى بعض أجزاء الوادى بسبب الأمطار التى سقطت فى أواخر فصل الصيف[١]، التى كانت شحيحة جداً، فى حين لم تسقط أمطار الخريف بالمرة. وجرى فى هذه المنطقة اصطياد أرنب برى احتفاء بمقدم الربيع، ورحنا نتجول على طول الطريق بحثًا عن أماكن الآبار، وشاهدنا عن بعد، ونحن نصعد المطلع الغربى، الإبل التى تحمل أمتعتنا وتمويناتنا، وهى تمشى متثاقلة متجهة نحو الهضبة. وهذا يعنى أننا سوف نخرج على وجه السرعة من مصبات جيبان، لنعود من جديد إلى صحراء الجافورة.

قال على الجهمان فجأة: اسمع يا انت، أنا تائه - كنت أحسب أن الآبار هنا بالقرب من هذه الصخور، لكنى لا أرى هذه الصخور - الأرجح أننا كان يجب أن نبحث عن الآبار فى مكان الأدغال التى مررنا عليها منذ قليل، هل لنا أن نرجع إلى الوراء ونبحث عن تلك الآبار؟ وبينما كان يلفظ الرجل تلك الكلمات الأخيرة استدار فجأة إلى جهة اليمين وأشار فرحا إلى طبق ضحل فى الرمل. خطر ببالى أن الرجل

---

(١) العرب هنا يقولون لهذه الأمطار "سفيرى" أو "السفيرى" أو "سفارى"، وهم يقولون لأمطار الخريف "وسمى"، ومن ثم جاءت كلمة "موسم"، ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية mosoon بمعنى "موسمى".

كان يستغلنى. وكان من الصعوبة بمكان تصديق أن تلك الحفرة كانت بئراً فى يوم من الأيام. ومع ذلك كان هناك شيء من روث الإبل حول هذه الحفرة، على الرغم من أن فتحة تلك الحفرة كانت مغطاة تماماً بالرمل. واصل على كلامه قائلاً: نعم، هذا هو مكان البئر، وأنا واثق من ذلك، لكن البئر مدفونة، أما البئر الثانية فلابد أن تكون خلف تلك الصخرة. وخلف الصخرة عثرنا على حفرة بائسة فى الرمل فيها شيء من الماء على عمق يصل إلى حوالى خمسة أقدام. قال على الجهمان: ماء هذه البئر مالح مثل ماء البحر. البشر لا يمكن لهم أن يشربوه أما الإبل فتقوى على شربه. فى تلك اللحظة كان هناك طابور من الإبل عند خط أفق السلسلة الجبلية التى عند رأس الوادى على بعد ميل تقريباً من هذا المكان. كان ذلك الطابور عبارة عن جماعة من قبيلة المرَّة، تنتقل إلى مراعٍ جديدة، وهذا يكاد يكون آخر اتصال لنا بالبشر.

توجهنا من منطقة الأبيار إلى الجنوب الغربى من جديد لنعبر الوادى مرة ثانية، وبينما كنا نتسلق السلسلة الصخرية البعيدة، شاهدنا منظراً رائعاً لسبخه جليدية عند نهاية المصب. قال صالح: سيبقى الحال على ما هو عليه، إلى نهاية سبخه متِّى، وهذه السبخة يقدر طولها بمسير ثلاثة أيام من أقصاها إلى أقصاها على طريق العودة إلى بلادنا. هذه السبخه الثلجية ليس فيها أدغال أو وقود أو حتى أحجار للتطهر. ونحن يتعين علينا حمل الحطب وأحجار التطهر معنا إذا ما عزمنا على السفر إلى هذه المنطقة. وإذا ما أخطأ الإنسان اقتفاء الأثر، فإن فى هذه السبخة أماكن تتسع لابتلاع جمل ومن فوقه راكبه، بحيث لا يظهر منهما أى أثر بعد ذلك، وهذا هو ما حدث لرجل يدعى متِّى، حدث له الشيء نفسه فى هذا المكان. ولهذا، فنحن نسمى هذه السبخة باسم ذلك الرجل. ويوجد بالقرب من هذه السبخة بعض أنقاض القدماء فى منطقة ماجان، التى سأريك إياها فى يوم من الأيام، بمشيئة الله.

هناك منطقة رملية مشوبة بالحصى تنحدر نحو الأعلى من أمامنا، قادمة من عرف واحدة من السلاسل الجبلية ومتجهة صوب هضبة زلطية شاسعة من الصحراء شبيهة بالهضبة الواقعة بين كثبان ماشورة الرملية وشمالى جيبان. فى كل أنحاء هذه الأرض الجرداء المملة، والتى يعرفها الناس باسم هضبة الحفاير، لا يوجد سوى سلسلتين

جبليتين منخفضتين تبرزان متناقضتين ومتقابلتين مع الأرض المنبسطة المحيطة بالمكان، فى حين تظهر عن يسارنا بعض الدلائل التى تشير إلى حافة قمة صخرية تحيط بمنخفض خور العبد[1] غير المرئى. وهذه قلة قليلة من إدغال نباتات المرخ وبعض شجيرات الشينان تؤكد الجدب المخيف لسطح الأرض فى هذه المنطقة. واصلنا مسيرنا إلى الساعة الرابعة مساء، وعندها نصبنا خيامنا لقضاء الليل فى حزام ضعيف من أدغال الشينان، وكان السهل الزلطى هنا مختلطاً بقليل من الرمال. دفعنا إبلنا وتركناها ترعى، وكان هناك غرابان يحلقان حول الإبل، وينقضّان على ظهورها بين الحين والآخر بحثاً عن القراد(*). حاولت اصطياد واحد من هذين الغرابين بمساعدة على الذى اقتادنى من طريق بعيد إلى الاقتراب من الغراب، لكن معروف أن طيور الصحراء لا تثق بالبشر، وكان لابد أن أرمى ذلك الطائر من مسافة بعيدة، وأطلقت من بندقيتى طلقة غير موفقة لم أر بعدها هذين المخلوقين مرة ثانية.

بقيت الإبل فى المرعى طوال فترة طلوع القمر، وعندما عادت الإبل اكتشف على الجهمان ضياع مقود جمله، وبلا أى اهتمام أخذ على الجهمان فانوساً وراح يقتفى أثر الجمل فى الظلام، فى الأماكن التى كان الجمل يرعى فيها، مع عشرين جمل آخر، وعاد على الجهمان منتصراً ومعه مقود الجمل. هذا العمل يبدو بسيطاً للغاية، ولكن هذه البساطة ترتكز على أجيال طويلة من الخبرة والتجربة.

---

(١) يوجد بئر مالح ماؤه فى هذا المنخفض.

(*) حشرات تمتص دم الحيوانات. (المترجم)

الفصل الرابع

جنوبي الجافورة

كنا في ذلك الوقت على ارتفاع يتردد بين ٢٠٠ قدم و ٣٠٠ فوق مستوى سطح البحر، ومع ذلك كنا ما نزال في متناول الرطوبة الشاطئية، عندما أيقظونا عند الساعة الخامسة صباحا لتناول وجبة السحور، كان الظلام حالكا وكانت السماء صافية، لكن الأرض كانت مبللة بالندى، وكان الضباب الكثيف يطوق المنطقة كلها. ومع ذلك، كان الهواء عليلاً، وكانت درجة الحرارة الصغرى قد وصلت إلى ٥٠ درجة فهرنهيتية أثناء الليل، عند هذه المرحلة كنا قد خلفنا وراءنا مجموعة المشاهد المتباينة المهمة المتمثلة في مصبات جيبان، وطوال الأيام القليلة القادمة سيكون أفقنا محدوداً بكثبان الجافورة الرملية المتدحرجة، لكني كنت أود قبل دخولنا إلى منطقة تلك الكثبان مشاهدة بئر من حفاير ابن الأدهم، التي سبق أن حدثني عنها علي الجهمان. وبناء على ذلك، جعلنا إبل الحمل تسبقنا في خط مباشر يتجه جنوب جنوب غرب، أو بالأحرى أقصى الجنوب الغربي، في حين قام ثلاثة منا – علي، وابن حميد، وأنا – بالاتجاه يمينا عبر السهل الرزلطي المنتفخ انتفاخًا هينا، والذي تتخلله وتنتشر فيه هنا وهناك أدغال نبات الحمض .

أدى براد الصباح ونسيمه العليل إلى جعل السير في هذا المكان شيئًا جميلاً ومقبولاً، ورحنا نتحدث أثناء المسير عن وبار وعن الربع الخالي، الذي كنا نقترب من حافته، ومع ذلك، لم يكن علي الجهمان متمثلا تماما لموقع البئر التي كنا نبحث عنها، وهيئ لي أن نجاحنا في العثور على موقع البئر يعد ضربا من ضروب

المستحيل فى مثل الظروف التى نحن فيها، كل ما فى الأمر أن على الجهمان زار ذلك المسقى مرة واحدة فى حياته كلها، وأن تلك الزيارة حدثت "فى زمن السريف أى قبل حوالى ثلاثين عاما، عندما جاء على إلى هنا بصحبة والده لسقيا ماشية العائلة. وإذا ما نحينا جانبا حد الجافورة الكئيب، الذى تبدى لنا عن يسارنا ممتدا على شكل قوس ضحل عريض فى اتجاه الشمال، وإذا ما نحينا جانبا أيضًا سلسلة الصخور الجبلية التى لاحظناها بالفعل، والتى نرى أنها تتجه صوب نهايتها عند حافة الرمال، لم تكن هناك أية علامة أرضية تهدى المسافر أو الرحَّال إلى مكان الماء، قال على الجهمان مقتبسا كلام قصيدة منسوبة إلى ملك خرافى من ملوك وبار: "يتردد المرشد فى ذلك المكان، ولا لوم عليه فى ذلك التردد". ومع ذلك واصلنا مسيرنا وسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط مؤشرات أكيدة على وجود مسقى فى ذلك المكان - مسارات وآثار أقدام إبل عفى عليها الزمن وتنتمى إلى ماض سحيق، هو حاليا طى النسيان، هذه المسارات وآثار الأقدام تتجه بصورة واضحة وبلا هدف عبر السهل. وعلى الفور لاحظَت عينُ على الجهمان اللمَّاحة روث الإبل والماشية الذى كان يحدد معالم البئر، وإن هى إلا لحظات وصلنا بعدها إلى المكان الذى كنا نبتغيه ونبحث عنه. كانت البئر فى حالة موات كامل ومردومة تمامًا، وتصعب ملاحظتها اللهم باستثناء حفرة ضحلة فى الأرض المسطحة التى تحيط بالبئر. هذا المكان المهمل والمهجور والمنسى منذ زمن بعيد، بقى بمثابة ذكرى مؤثرة وتذكارا مؤثرا لمشروع وَجِد منشئ هذه البئر، ألا وهو ابن الأدهم الذى ينتسب إلى بحيح المرة، والذى تحمل البئر اسمه. كان ابن الأدهم قد حفر هذه البئر إلى عمق ثمانى قامات، وظلت إبل قبيلة مرة تسقى من هذه البئر طوال سنوات عدة، إلى أن حدث الإهمال والنسيان - وحدثت بلا أدنى شك أيضًا فترة من فترات الجفاف هى التى باعدت بين القطعان وبين هذه البئر - وعملا عملهما الحتمى الذى أسفر عن الدمار والتخريب. واعتبارا من ذلك التاريخ لم يقو أحد على إعادة فتح هذه البئر وتطهيرها.

وبما أننا نصعد حاليا متجهين نحو كثبان جافورة الرملية التى على شكل خط بنى شديد الوضوح، فقد بدأت الرمال تتزايد فى السهل، مع ظهور بقع طويلة من

الأرض فى الجنوب الشرقى، وتتناثر أعشاب العرأض فى هذه البقع، دخلنا منطقة الجافورة من النقطة التى تلتقى عندها سلسلة الصخور الجبلية المخفضة التى سبق الإشارة إليها مع الرمال، وعندما وقفنا على عرف أول كثيب من الكثبان نتأمل المنظر، تبدى لنا أن الصحراء الزلطية على الجانبين كانت تتداخل، على بعد مسافات، مع الرمال أو تحتها على شكل سلسلة من الحنايا[1]. هذه الأضلع يراها الرائى هنا وهناك مكشوفة وسط الرمال، ويغطيها غطاء خفيف من الحصى، كما لو كانت ساحلاً قديمًا. كانت الأماكن الأخرى كلها عامرة بالرمل، على شكل موجات طويلة مملة، أو على شكل كثبان رملية متداعية، أو ضحلة أو على شكل سهول متموجة. والمدهش بحق أن هذه الأماكن كانت كلها قاحلة جرداء – هذا يعنى أن الحياة النباتية هنا فى التجاويف أو الأماكن الزلطية أو الصخرية المكشوفة عند سفوح الكثبان الرملية كانت إمًا ميتة أو محتضرة. يزاد على ذلك أن الحياة الحيوانية كانت غائبة تماما وبشكل واضح عن هذا المكان، باستثناء مستعمرة صغيرة من القبرات، وباستثناء نسر واحد شاهدته وهو يحوِّم فوق هذه الأرض القاحلة الجرداء بحثا عن صيد أو طريدة، وباستثناء يعسوب واحد وبعض حشرات المنتيد (الزواحف) القليلة جدا التى تعيش فى الزلط والحصى. كنا نشاهد بين الحين والآخر آثار الأرانب البرية، والثعالب، والحيوانات الأخرى، لكننا لم تتهيأ لنا فرصة الاقتراب تماما من تلك الحيوانات كى نتعرف عليها، وكنت أتعجب أيضا ما إذا كان النسر قد كوفئ على ذلك التحويم الطويل الصبور.

دام ذلك المشهد طوال الأيام الثلاثة التى تلت ذلك. وعلى بعد حوالى ثمانية أميال من الحافة الشرقية للرمال، وصلنا فى منتصف تلك الرمال، إلى بئر قاضة، التى كانت بمثابة وقفة رحَّب بها الجميع باعتبارها متنفسا لنا من مسيراتنا السيئة والمملة. ولكنى عجزت عن تفسير مسألة عثور على الجهمان على هذه البئر بلا عون من

(١) الحنايا: واحدة حنية، بفتح الحاء وكسر النون، وتشديد الباء وفتحها، وهى عبارة عن عقدين متقاطعين فى فن العمارة. (المترجم)

خارطة أو بوصلة، اللهم باستثناء ذكرى شاحبة لزيارة وحيده قام بها الرجل إلى هذه البئر قبل سنوات عدة، لكن هذا الرجل اقتادنا إلى مكان هذه البئر على شكل خط مباشر، وعندما وصلنا إلى البئر لم يكن أمامنا ما نراه سوى بقايا قليلة من دوث الإبل مدفونة في الرمل؛ لتوضح حفرة نشرت الصحراء فوقها غطاء يصعب اختراقه. تقع هذه البئر في تجويف أحد الكثبان الرملية الشبيهة بحدوة الفرس، وكان الناس يستعملون هذه البئر قبل خمس سنوات مضت، وجرى إهمالها بعد ذلك، وسمح الناس لها بالاختفاء. ويصل عمق تلك البئر إلى حوالى خمسة قامات.

توجد فى هذا الجزء من جافورة أبيار أخرى شبيهة بهذه البئر، ويجرى استعمالها إلى يومنا هذا، وهاتان البئران هما: بئر زيدة (التى تبعد مسير يومين في اتجاه الغرب والجنوب الغربي، وإلى الشمال قليلا من خط وادى سحبة)، فى حين يرى المسافر طريق الأحساء - جابرين الذى تسلكه الإبل وتقطعه فى يومين. وبعد مسير نصف يوم فى الاتجاه نفسه، يصل المسافر على حد قول على نفسه، إلى أبيار حرض ، التى تشكك الرائد شيزمان Cheesman لسبب أو آخر فى وجودها، إلى الحد الذى جعله يحذفها من الخارطة التى أدرجت ضمنها، معتمدا فى ذلك على ملاحظاتى وما سمعته من الرواه - بناء على ترحالى الذى قمت به فى العام ١٩١٧ - ١٩١٨ . صحيح أنى أخطأت، عندما سلمت بوجود هذا المسقى هو وخن (التى سأفيض فى الحديث عنها فيما بعد) فى مجرى قناة سحبة وعلى أو بالقرب من طريق الأحساء- جابرين الرئيسى، لكن ليس هناك من شك مطلقا فى مسألة وجود حرض فى هذا الموقع بالذات - والأرجح أن يكون ذلك على بعد يتراوح بين عشرة وخمسة عشر ميلا شمال غربى الموقع الذى اقترحته أنا - وسبب ذلك أن حرض تقع على طريق السيارات الوحيد الذى يربط الأحساء بجابرين، ومن ثم تكون حرض واقعة على طريق من طرق الإبل البدوية والطويلة والتى تتميز بوجود الماء فى منتصف المسافة. هذا المكان زاره كثير من رفاقى باستعمال السيارات أو عن طريق ركوب الإبل. يزاد على ذلك أن ابن سعود اتخذ من هذا المسقى، فى العام ١٩٠٠ الميلادى، قاعدة له فى العمليات التى قام

بها للاستيلاء على الرياض من أسرة ابن الرشيد الغاصبة، وكان ذلك فى فصل الربيع. لم تكن أية سيارة قد زارت جابرين فى زمن قيام الرائد شيزمان برحلته، ويبدو أنه مع وصول السيارات إلى حرض بصورة غير متكررة أثناء طلعات القنص، فإن رحلة عبور المنطقة إلى جابرين نفسها لم تحدث سوى مرة واحدة باعتبارها تجربة رائدة؛ ومع ذلك، يقال: إن الرحلة بين حرض وجابرين(١) ممتازة، باستثناء وجود بعض المناطق غزيرة الرمال، مما يجعل القسم الشمالى من الرحلة صعباً.

كنا قد انحرفنا انحرافًا كبيراً طلبا لتوقيع المسقيين فى كل من الحفاير وقاضة، على الخارطة، هذان المسقيان كان قد جرى إهمالهما وتركهما لرحمة الرمال. كان هدفنا الثانى هو العودة من جديد إلى الهدف الرئيسى، أى الانضمام إلى بقية الجماعة، وهنا تجولنا جنوبا إلى أن شاهدنا من فوق قمة سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية، القافلة التى تحمل مؤنًا وتموينات، وهى تمشى متباطئة عند مرمى أبصارنا - شاهدنا القافلة على شكل خط معتم على خلفية من الأرض الجرداء المتدحرجة التى يميل لونها إلى الاصفرار. مررنا على آثار أقدام ذئب من الذئاب، كما كنا نشاهد آثار أقدام الحَبَارى، بين الحين والآخر، لكن الخبرة المهمة التى جنيناها من يوم مسيرنا الأول فى الرمال، كانت تتمثل فى الدرس الذى تعلمناه فى مسألة قص الأثر، الخاص بالإبل التى كانت متجهة شمالاً، والذى كان ينتشر على مساحة كبيرة أمامنا. قال على الجهمان لابن حُمَيْد: انتبه.. هذا أثر ناس صالح بن على (شيخ صغير من شيوخ فخذ العوير من قبيلة الغفران، وهاهم قادمون من الناحية الجنوبية. راح على الجهمان وابن حميد يتكلمان عن مجيئ صالح ابن على، لكنى كنت أظن أننا سنلقى ناس صالح بن على فى مكان ما فى هذه المنطقة الرملية. مرورهم من

---

(١) على بعد مسير يوم ونصف اليوم من حرض يوجد مسقى غير مهم يسمونه وقار، فى الوقت الذى توجد فيه مجموعة من الصخور والكهوف التى يطلقون عليها اسم قصور ابن عجلان على مقربة من حرض، وتبعد مسير يوم واحد فقط عن طريق الأحساء - الرياض. وقد أخطأ الرائد شيزمان عندما قال بعدم وجود الماء بين زاموقا، والأحساء، وجابرين .. راجع كتاب المجهول من الجزيرة العربية ص ١٦ .

هنا كان فى غضون يوم أو يومين. والذى لا شك فيه أنهم سقوا إبلهـم من بئـر زبدة. انتبه أيضًا، وانظر إلى هذا وذاك – كانت هناك أيضًا آثار أقدام بشرية وهؤلاء البشر كانوا من أقارب صـالح بن على المقربين – انظر، هذا هو أثر أقدام صـالح نفـسـه، أطال الله عمـره! وعليـه سـار الرجـلان فى اتجـاه مـعـاكس لآثار الأقـدام، وراحـا يـتـفـاهـمـان مع بعضـهما بصوت عال، ويتبادلان الملاحظات حول تلك الآثار المطبوعة على صفحة رمال الصـحراء. كانت أشهر طويلة قد مضت على على الجهمان لم يشاهد الرجل خـلالها أى شىء من آثار آله وناسه، وهنا راح الرجل يتـأمل بحب علامـات ودلائل هؤلاء الناس ويطيل النظر إليـهـا. ترى ما هـى الأخبار والعلوم التى لديهم عن تلك المناطق النائية من الرمـال التـى نبـتـغى نحن الوصـول إليـهـا. وعن الأعداء والمراعى، وعن صـيـد الوعـول البيـضـاء والأشـيـاء الأخـرى؟ هـؤلاء الأهــل سـيـمـضــون فصــل الشـتـاء فـى الشـمـال، ولن يراهم الرجل قبل عودته من الربع الخالى، كان على الجهمان يتلهف على ذلك الأمل المرتقب، كان الرجل كليم الفؤاد أيضًا، إذ لم يكن بيننا أحد لا يشـتـاق إلى العودة إلى الجلوس حـول نار المخيـم مع رفـاقـه فى مناطق المرعى – عند هذا الحـد كـان الجـمـيع يعرفـون بشكل عام الأهداف الرئيسية لرحلتنا، ولذلك راح الجميع يتـأوهون – منهم من كان يتـأوه بصـوت عـال، ومنـهم من كـان يتـأوه فى صـمت وبصـوت خـفـيض – من تلك الفكرة المجنونة التى تقـوم عليـهـا هذه الرحلة. كـان الحنين إلى الموطن وراء الإحـسـاس بالحزن الذى كان يخيم على عدد كبير من أفراد الجمـاعة فى مطلع أيام رحلتنا، لكن الخوف كان يتملكهم كلما تطرق الأمر إلى ذكر حضرموت[1] والربع الخالى. حدث ذات مرة، أثناء المراحل الأولى من الرحلة، أن سـألت على الجهمان على مسمع ومـرأى من الآخرين، سـؤالا بسـيطا عن موقع كل من القاعميات والشويكيلة، فحملق الرجل فى

(١) يشـيع بين الناس هنا وبلا أى سبب أو مبرر أن "حضرمـوت" هـى "أرض الموت". وحضرمـوت هذه ورد ذكرها على أنها فى سفر التكوين، وأهل حضرموت (المفرد حضرمى، والجمع حضارم) ربما يكونون هم "الجادورام" الذين ورد ذكرهم عند بطليموس.

وأطـــال النظـــر إليَّ كمـا لـــو كان يقول: هذا الرجل ممسوس، أو بالأحرى به مس من الشيطان! أيود لنا المخاطرة بأرواحنا وحيواتنا بالذهاب إليَّ الأماكن التى لا يذهب إليها سوى أولئك الذين يودون صيد الوعل الأبيض. ومع ذلك، كيف علم ذلك الرجل عن هذا الأشياء؟ ومن باب تنوير فضول على الجهمان أريته خارطة "المسيحى"[١] ، الذى جاء - وعلى الجهمان يعرف ذلك حق المعرفة - من خلال الصحراء ومر خلالها، بفضل مرشد، هو ابن عم على الجهمان، واسمه حمد بن سلطان. ولكنى أضفت من باب المزيد من التنوير لعلى، أن الخارطة التى سوف أرسمها أنا وأنت يا على، ستكون خارطة جيدة. رد علىَّ قائلاً: أنا لن أحذف شيئًا مما ستوقعه على خارطتك. وسوف نصل إلى حمد نفسه علّه يصحح الأخطاء التى ربمـا أكـون قد وقعت فيها. لم يحدث مطلقا - وهذه شهادة لصالح على الجهمان - أن كشف ذلك الرجل عن أى دليل أو إشارة من دلائل أو إشارات الغيرة من منافسه، الذى راح يتعاطف معه ويشفق عليه على الرغم من اعتراضى عليه. وفى مجال اقتفاء الأثر الذى كان هو أستاذا فيه، اعترف وأقر أن خبراء هذا الفن هم من جماعة الديمان، الذين قاموا مؤخراً بغارة أو غزوة على بعض من ماشية الدواسر داخل حدود الأحساء، ويقال إنهم سقوا إبلهم وماشيتهم من جابرين - الأمر الذى جعلنا نمشى حذرين ومتيقظين. كان الغزاة من ذلك القسم من الجماعة التى اتخذت من نجران[٢] مركزا لها عندما انسحب سويد وجماعته قبل بضع سنوات ليعيشوا فى الأحساء. المنطقة الصحراوية الخالية من الماء مقصورة على ديمان، وتبدأ من مقينمه وتتجه غربا، فى حين نجد أن مصب الغفران الجنوبى، ومصب الجابر الجبرينى يتوهان بصورة متقطعة داخل هذه الصحراء الخالية من المياه.

---

(١) كان رفاقى يشيرون دوما إلى السيد / بـرتـرام تـوماس باسم "المسيحى". كان الرائد شيزمان صديقا أو رفيقا لصالح بن على. وكان العرب البدو يشيرون إلى النقيب جلوب Glubb صاحب كتاب حدود العراق، باسم أبو حنيك - بمعنى "أبو فك" - فى حين كانوا يشيرون إلى العقيد H.R.B الذى كان فى الكويت، باسم "دوكسون" .

(٢) فى ذلك التاريخ كانت هناك حملة وهابية بقيادة كل من خالد بن لؤى الخرمى (نسبة إلى بلدة الخرمة) وابن شفلوت شيخ القحطان، متجهة إلى نجران لتصفية الحسابات مع عناصر الشغب.

استطعنا فـى الوقت المناسب فحص المنطقة الرئيسية من المصب، وعثرنا بعد ذلك بساعة واحدة على منخفض ضحل نصبنا فيه خيامنا، هذا المنخفض كانت تنمو فيه بعض النباتات الهزيلة المتفرقة – التي من قبيل الحمض والأبال – التى يمكن أن تقتات بها الإبل. فى وسط هذا المنخفض وبالقرب من مخيمنا كانت هناك منطقة زلطية، تنبثق منها تلة رملية مخروطية الشكل[1]، من الصخر الموجود فى الأسفل. كنا ما نزال فى بداية فترة العصر عندما نصبنا مخيمنا، وأمضيت أنا بدورى شيئًا من الوقت الذى ضـاع منى سدى فى بحثى عن الحشرات، وعندما عدت إلى الخيام، وجدت من بين أعضاء الجماعة سعد الوشمى، طريح الأرض تماما ويعانى من حمى شديدة. كان لدى أشياء بسيطة من الأدوية، لمثل هذه الطوارئ وعالجته بالأسبرين الذى أصاب نجاحًا كبيرًا، لكن مرت أيام قبل أن يشفى تمامًا من هذه الوعكة، وأفلح سعد الوشمى فى إقناع نفسه – إن لم يكن الآخرين أيضًا – بأنه لن يعود إلى أسـرته المكلـومـة؛ إذا ما توغلنا بعد ذلك فى الصحراء. كان سعد الوشمى دون سائر أفراد الجماعة، هو الذى يتملكه موقف انهزامى من الحياه. وحتى عندما يكون حاله على مايرام، كان يذهب لإنجاز العمل المطلوب منه، وهو يتمتم ويغمغم داعيا الله العلى العظيم، أن يعيدنا سالمين ومعافين من الأخطار إلى مواطننا. كان أبو جعشة قد بدأ معنا الرحلة وعيناه متورمتان إلى حد أنه كان شبه أعمى، ويعانى من آلام شديدة، كان يتحملها فى صبر وأناة، على الرغم من تحاشيه للاختلاط مع رفاقه بشكل عام.

جاءنى سعد الوشمى يطلب منى مساعدته فى وعكته، ولم يكن لدى ما أعطيه إياه سوى شىء من محلول اليوريك الذى طلبت منه أن يستعمله فى غسيل عينيه، ومع تغير الظروف المناخية بدأ الرجل يتحسن كثيراً، على الرغم من أنه كان بحاجة ماسة إلى خبرة طبية تخصصية، إن أُريدَ له الشفاء الكامل من ذلك المرض المعدى الذى أصاب عينيه. تزايدت آلام وأوجاع سعد الوشمى بسبب برودة الجو الشديدة، وبسبب

(١) الملامح التى من هذا القبيل يطلق الناس عليها اسم "قويد" أو قرن.

محافظته على تدفئة عينيه عن طريق الجلوس على مقربة من اللهب، أو بتعريض عينيه للدخان الصادر عن النار، أو عن طريق دفن نفسه تحت اللحف أو البطاطين أو لبس الملابس التى تحفظ الدفء لجسمه أثناء النوم. مسألة النوم مع تغطية الرأس بكامله تغطية كاملة أمر طبيعي ومعتاد فى الجزيرة العربية، وكان الناس يتعجبون مندهشين منى عندما أنام ورأسى مكشوف لبرودة الليل. وأنا أقول: إن هذه عادة صحية تماما. رد على أبو جعشة قائلاً: لا، والله! لأننا فى منازلنا فى الليالى الباردة، لا يكون هناك ما هو أفضل من الدخول تحت اللحف المدفئة مع الزوجة، التى يضمها الرجل إليه وذراعاه مـن حولها، ويمضى الليل بطوله على هذه الوتيرة. سألته: وهل يطاوعك النوم وأنت فى هذا الوضع؟ رد على قائلاً: أى، والله! أستطيع ذلك؛ أنا أفعل ذلك بصورة مستمرة.

كان على الجهمان يتعاطى شيئًا طفيفًا من المخدرات المعتدلة التى من قبيل الأملاح (مثل أملاح الأينو وأملاح الأبسوم[1]) ، ومرطبات الحلق، والكنين والأسبرين وما إلى ذلك، وكان يبيح لنفسه الأخذ من مخزوناتى من هذه الأشياء؛ كان على الجهمان يشكو من ألم وتقيحات فى اللثة، التى لم يكن لدى فكرةٌ عنها سوى محلول مخفف من اليود والماء، أو مرهم الزنك. وأخذ شيئًا من هذا الدواء، واستعمله، لكنى عندما لاحظت أنه لم يطلب المزيد على الرغم من استمرار شكواه، أدركت أنه لم يكن يثق بطبابتى. قال: لا، ليس هذا هو العلاج، لكننا نحن البدو، لنا أيضًا طبابتنا الخاصة بنا، وقد قمت اليوم قبل بدء الصيام بالتمضمض ببول ناقتى تخفيفا لآلامى ومع ذلك، ما زال فمى يؤلمنى. واستمرت معاناة الرجل أياما عده، وأنا لا أدعى أن علاجى هو الذى ساعد على شفائه، نظرا لأن الأمر لم يكن يتطلب سوى الوقت فقط.

---

(١) أملاح الأبسوم: عبارة عن ملح شفاف أو بللورات بيضاء اللون مرة المذاق، وهى عبارة عن سلفات مغنسيوم لها بعض الخواص المُلَيِّنة. (المترجم)

استقر معنا النظام الرمضاني، وكنا قد قطعنا ربع المسافة ونحن صائمين. كانت ظروف الطقس باردة بما فيه الكفاية الأمر الذى خفف علينا متاعب العطش والرتابة الناتجة على امتناعنا عن الطعام والجوع. الشيء الوحيد الذى كان يتعب رفاقى هو عدم شرب القهوة – كان شيئًا غريبًا تمامًا أن أراهم وهم يتحرقون شوقًا إلى تلك الجرعات القليلة من ذلك المشروب الضعيف، وكيف كان حالهم يزداد سوءاً عندما تتلاعب حرارة الشمس باهتياج أعصابهم – فى حين لقى اثنان آخران من أفراد الجماعة نوبة من الآلام غير الحادة. كان فرأّج، مثلما قلت، واحداً من مدمنى تدخين التبغ (الدخان)، وكان صالح العوض الذى انضم إلى الجماعة مؤخراً، يدمن هو الآخر تدخين التبغ، لو تدلنى على علاج للدخان، فسوف أشكرك من أعماقى، قالها وهو يتنهد، عندما كنا نتحدث عن تقيحات اللثة، عند على الجهمان، وعن مزايا كل من اليود والبول. وجاء العلاج الممكن الوحيد، فى الوقت المناسب، عندما نفد ما معهم من تبغ. لكن لم يكن من بينهم من يتحرق شوقا لغروب الشمس سوى هذين الرجلين اللذين جاء جرحهما لصيامهما طقسا بارزا ومشهوداً، لم يكن معهما سوى غليون واحد من الفخار، كانا يتقاسمانه؛ لكن عبقرية هذين الرجلين ارتفعت إلى مستوى الموقف، فقد استعملا ظرفًا فارغا (خرطوشة) بديلا عن رأس الغليون وكان المدخن يستنشق الدخان من خلال الفتحة الضيقة التى يضعها بين شفتيه. فى الصباح، أو بالأحرى قبل ساعة أو بعض ساعة من صلاة الفجر، أيقظونا لتناول طعام السحور، الذى راحوا بعده يعبون القهوة طوال الفترة المتبقية على رفع الآذان، فى الوقت الذى أويت فيه إلى خيمتى، وإلى جوارى كوب من الشاى، ورحت أدون يومياتى أو أغلف الحشرات والأنواع الأخرى التى تحتاج منى إلى عناية خاصة، كان رفع آذان الفجر إشارة إلى بداية الصوم، وبعد أداء الصلاة، أعد رفاقى أنفسهم للنوم من جديد، فى حين رحت أنا أواصل أعمالى التى توقفت، والتى رحت أتمم عليها مرة ثانية، عقب شروق الشمس، عندما كنا نستعد لمواصلة السير. كنت طوال أيام الصوم لا أنام سوى أربعة أو خمس ساعات، نظراً لانشغالى بكتابة مذكراتى، والقيام بأشياء أخرى، الأمر الذى كان يبقينى مستيقظًا إلى منتصف الليل، لكن هذه الساعات القليلة من النوم لم تكن تنطوى على أية مصاعب فى

ظل وجودنا في ظروف صحية في الخلاء، وفي مناخ شبه مكتمل إلى حد بعيد، كنت أستشعر أثناء مسيرنا في الصحراء حالتي البدنية الطيبة ورضاى النفسي، بل أنني كنت أفكر في الصحارى الكبرى التي تقع خلف هذه الصحراء، تلك الأرض الموعودة التي أوشكت على الدخول إليها.

في صبيحة اليوم التالي (المصادف لليوم الخامس عشر من شهر يناير) طالعتني سماء صافية عندما كنت أخرج من خيمتي لتناول طعام السحور. كان صليب الجنوب Southern Cross مستقيمًا، في حين كان نجم السنبلة Spica يسطع عند دائرة خط الزوال Meridian، أما قلب العقرب Antares فكان يتلألأ خافتا من رأس العقرب المرتفعة في الجنوب الشرقي. وكان هناك ضباب خفيف يطوق المخيم، كما كان هناك ندى على الأرض، على الرغم من كونه أقل من الندى الذي يتراكم على المنطقة الساحلية. استأنفنا مسيرنا عند الساعة الثامنة صباحًا وركبت دابتي بصحبة كل من علي الجهمان وصالح.. سألتهما، ما رأيكما، ما هو طول المسافة من هنا إلى جابرين؟ أجاب علي قائلاً: ثلاثة أيام، نعم، ثلاثة أيام أو يومين والله يعلم. وهنا راح صالح يسليني ببعض المعلومات المهمة عن قبيلته وموطنه، أصلنا، والله هو الأعلم، يعود إلى القحطان، على حد قول الناس، وسبب ذلك أننا نقر ونعترف أن غوينيم الزّهري سلف للمناصير، وهذا الرجل كان من القحطان، لكننا من نصارى الماضي البعيد، الذين أخذنا عنهم اسمنا. والمؤكد أن هناك شيئًا مدونا عند الفرنجة حول هذا الأمر، وافقت على ما قاله الرجل لأن التشابه في الأسماء يدعم الموروث. واصل صالح كلامه قائلاً: سافرت إلى مسقط والتقيت القنصل مرات عدة، وسبب ذلك أننا كانت تصرف لنا من قبلُ إعانة من خزانة السلطان، ولكن ملاذنا الآن عند ابن سعود. واحة البوريمي من أملاك المناصير، والبوريمي عامرة بمنازل شيوخنا الذين عاشوا واستقروا فيها في ظل الحكم الوهابي. نحن لا نعتنق المذهب الوهابي أو الحنبلي، وإنما نحن نعتنق المذهب المالكي. ومع ذلك، هناك اختلاف طفيف بيننا وبين الوهابيين؛ فنحن نقصر الصلاة أثناء السفر دون الجمع بينها كما يفعل الوهابيون، والله أعلم. نحن نصلي الصلوات الخمس اليومية متضررين، ونحن نقف للصلاة وأيدينا مفرودة

على اجنابنا، ولا نعقد أيدينا على بطوننا. وهذا هو الفارق بيننا وبين الوهابيين. ومع ذلك لاحظت أيضًا أن حميد كان يصلى مثلما نصلى، كما لاحظت أيضًا أن صلاة صالح لا تختلف عن صلاتنا، ربما كان صالح لا يعبأ بتلك الفروق الطفيفة لأنه فيلسوف. كان كل من حميد وصالح، عندما يتيمَّمان قبل الصلاة، يتناول كل واحد منهما حفنة من الرمل كى يطبع عليها قبلة. واصل صالح كلامه قائلاً: يتعين عليك زيارة مستوطناتنا فى ظافرة، التى يمكن أن نسير فيها طيلة أيام ثلاثة بين بيارات النخيل والقرى، ومن أمام هذه البيارات وتلك القرى، يمتد السهل الزلطى بلا انقطاع متجها صوب البحر، ومن خلفنا توجد الرمال - أمواج وتموجات كما هو الحال فى جافورة، لكن المراعى هنا أفضل وأحسن من مراعى الجافورة. لقد سبق لى عبور تلك الأمواج والتموجات إلى مُقْشِن، أثناء قيامنا بغزو العوامير. هذه المسافة تقدر بمسيرة عشرة أيام نقطعها على ظهور إبلنا. وأحسن سلالات إبل المناصير هى تلك السلالة التى يقولون لها العصيفير وهى إبل شقراء جيدة مثل سائر الإبل الأخرى، لكن أفضل سلالات الإبل هى السلالة التى يقولون لها: العمانية والتى تأتى من قبل الدروع ومن البو شميس. أما رُكُوِيَة على النعرية، التى تجىء فى المرحلة الأولى من راحلاتنا كلها، فهى من سلالة الدراعية. وناس البوسميس ليسوا من المسلمين، لكنهم من أتباع مذهب العبادية وهم يصلون بطريقة غريبة.

بعد أن بعدنا مسافة خمسة أميال عن نقطة البداية، وصلنا إلى أدغال نباتات الحض[1]، الذى يعد واحداً من أشهر النباتات التى يتميز بها الجنوب، وهذه هى المرة الأولى التى أشاهد فيها هذا النبات أثناء تجوالى فى هذه المنطقة. نبات الحض هذا ينتمى بالقطع إلى عائلة الحمض[2]، ومذاقهما مالح، لكنهما يشكلان الطعام الدائم لإبل

(١) كنت قد جمعت فى العام ١٩١٨ الميلادى بعض الأنواع التى تعرفونها على أنها من نوع Salsola، ولكن جى. روهلفز Rohlfs يصنفها تحت اسم كورنولاكا Cornulaca مونوكانثا monocantha، يرجى مراجعة الملحق للمزيد عن هذا الموضوع.

(٢) الحض والحمض اسمهما العلمى Chenopodiacece.

الرمال، كنا نمر بين الحين والآخر عبر أراضى زلطية، واسعة مثل البحيرات الرملية فى بعض الأحيان. لكن الحياة الحيوانية كانت نادرة فى هذا المكان إلى حد أنى لم أر سوى أرنبين بريين فقط. قال صالح: الأمر فى بلادنا مختلف عن هنا، إذ يتوفر الصيد والطرائد - عندنا الوعول البيضاء والغزال والحمار الوحشى، والثعالب التى نأكلها نحن المناصير على الرغم من أن المُرَّة يُحَرِّمون أكلها. لدينا أيضًا القطاط البرية التى يطلقون عليها اسم الهرة، أما نحن فنقول عليها الأطفع"، ولدينا أيضًا الغرير[1]. أدت النسمة الجنوبية الغربية الخفيفة إلى تلطيف الجو فى بداية فترة العصر، لكن بعد أن أمضينا حوالى ست ساعات راكبين على ظهور راحلاتنا، راح الرجال ينادون بالتوقف، لكنى عارضت ضغوطهم، كيما أضمن الوصول إلى قناة وادى سحبة، الذى يقع أمامنا فى مكان ما، والذى كنت أتشوق إلى الوقوف فيه لقضاء الليل هناك، حتى أتمكن من تحديد موقعه عن طريق الملاحظات الفلكية. كان أفراد الجماعة لا يعرفون على وجه الدقة واليقين المسافة التى تفصلنا عن ذلك الوادى، وكنت أخشى أن تحول الوقفة بينى وبين تحقيق هذا الهدف المهم. وثبت أن قلقى لا لزوم له مثل استيائهم تماما، ذلك أننا بعد مسير ساعة واحدة بدأت تتبدى لنا فجأة حياه نباتية أغنى وأغزر، وبدون أن ندرى وجدنا أنفسنا فى منتصف الطريق عبر القناة، قال على: هذا هو وادى سحبة ! انظر، الشمال بعد هذه المنطقة، لكنه يعد أفضل أعشاب مراعى الجنوب.

عم الفرح الجميع بعد أن وصلنا إلى المكان الذى يمكن أن يخيموا فيه فى أمان إلى صبيحة اليوم التالى، فى حين راحت الإبل ترعى نباتات البركان وتملأ بطونها منه. كنت أنا بدورى مسرور أيضًا لأنى سوف يتيسر لى الوقت المطلوب لدراسة مشكلة وادى سبحة، على الرغم من أن هذا الأمر كان يتطلب شيئا من البحث لتحديد ضفتى القناة، التى هى فى هذه المنطقة تكاد تكون منجرفة فى الرمال، وادى سبحة يعد واحداً

(١) حيوان ثديى قصير القوام يحتفر فى الأرض حفرة يسكن فيها، هذا الحيوان ربما يكون الظريبان Dhariban أو قد يكون هو الراتل الذى يقولون له أيضًا: آكل العسل. (المترجم)

من أكبر وأطول أنهار الجزيرة العربية القديمة، إذ يزيد طوله على الخمسمائة ميل، اعتبار من أعالى هذا الوادى فى أجناب وادى العلام فى أراضى نجد الوسطى العالية (خط طول ٤٤ شرقا وخط عرض ٢٥ شمالا) إلى مصبه فى الخليج الفارسى. أعالى وادى السحبة هذا تعرف باسم وادى السرة، وقد عبرت ذلك الوادى فى الرحلة التى قمت بها فى العام ١٩١٧ الميلادى، فى حين رأيت فى العام التالى جزءاً من قسمين آخرين فى الناحية الشرقية يعرفان باسم شعب البرك وشعب العجيمى. وشعب العجيمى يمتد إلى أن يصل إلى اليمامة فى منطقة الخرج، التى شاهدت فيها فى ذلك الوقت الرأس الذى تكسوه وتسده الرمال، والذى يطلق الناس عليه اسم سحبة فقط. كان الرائد شيزمان قد عبر ذلك الجزء من الوادى إلى منتصف الطريق بين اليمامة والبحر ،أثناء الرحلة التى قام بها إلى جابرين[١]، والتى اكتشف خلالها أن القناة واضحة المعالم تماما فيما بين الضفتين المنخفضتين، لكن الرجل لم يتمكن من تحديد مصيرها النهائى تحديدا قاطعا. لم يكن واضحاً عندئذ ما إذا كان الوادى ينتهى تائها فى رمال الجافورة، أو أنه نجح فى شق طريقه إلى البحر، فى حين نجد أن السيد برترام توماس Bertram Thomas لم يلاحظ أو يأتى على ذكر تلك القناة فى رحلته التى قام بها فى العام الماضى، والمفترض أن يكون برترام توماس قد عبر هذه القناة قبل وصوله إلى منطقة نخيل نخالة، على الرغم من ضيق القناة فى تلك المنطقة، إلى الحد الذى يصعب عنده ملاحظة هذه القناة فى حال غياب المعلومات والمعارف الضرورية التى ينبغى أن تتوفر فى المرشدين. أما أنا، فقد كنت محظوظاً لوجود صالح وحميد معى، فقد تمكنت بفضلهما من العثور على مواطنين من أبناء هذه المنطقة، كانوا يعرفون قناة سحبة حق المعرفة فى الأجزاء السفلى منها، والتى تجرى القناة خلالها فى سهل ماجان الزلطى لتصل إلى البحر فى المنطقة ما بين لسانى سيلة وبعجة. وفى مجرى هذه القناة، على حد قول الناس، وعلى مقربة من نخالة توجد بئر يطلق

(١) راجع كتاب المجهول من الجزيرة العربية، ص ٢٢٧ وما بعدها.

الناس عليها اسم البطحة. وبذلك نكون قد أصبحت لدينا فكرة طيبة عن مجرى النهر بكامله من المنبع إلى المصب.

كان في المنطقة التي أقمنا فيها مخيمنا، كما قلت، رمال كثيرة فوق كل من مجرى الوادي وعلى ضفتيه، لكن جزءاً كبيراً من الوادي كان مكشوفا، على نحو يبين أن عرض القناة كان يصل إلى حوالي ميل. أما ضفتي القناة فلم يكن يزيد ارتفاع الواحدة منهما على عشرين قدمًا، في حين كانت هناك أقسام كبيرة من الأرض المكشوفة على الجانب الأيسر، حيث كانت توجد بعض المناطق الزلطية، التي يتخللها بعض المناطق الحصوية على بعد مسافات، وتتخللها برازخ صغيرة من الرمل أو الكثبان الرملية. اتجاه الوادي في تلك النقطة كان ناحية الغرب والشرق، لكننا في صباح اليوم التالي وبعد أن سرنا حوالي خمسة أميال في اتجاه الجنوب الغربي، صادفنا القناة مرة ثانية ضمن شريط زلطي على مقربة منا في الناحية اليمني، وتتجه مرة أخرى صوب الجنوب الغربي، والشمال الشرقي، والأرجح عندئذ، هو أن مجرى "النهر" يتعرج إلى حد ما في مكان لابد أنه كان أرضا منبسطة في الأيام الخوالي.

هنا كان الصباح مشوباً بقليل من الندى، كما كان هناك أيضًا غرابان، ربما كانا هما أيضًا يودعاننا قبل أن يقوما بتفتيش مكان المخيم بحثًا عن بقايا الطعام في مكان المخيم، والتي ربما تكون قد تبقت من مائدتنا الهزيلة. بدأ سطح الأرض ينبسط هنا متحولا إلى سهل رملي واسع، متموج تموجًا خفيفًا، ويتخلله بصورة متكررة مناطق زلطية واسعة. واقع الأمر أن جافورة بدت لي وكأنها تتلاشى، وخيِّل إلى أننا ربما كنا ندخل سهل سراميد الزلطي الكبير، الذي أتى على ذكره الرائد شيزمان. ومع ذلك اتضح أن رفاقي لا يعرفون المسارات والطرق المعتادة بين الأحساء وجابرين. تعجبت من ذلك، ولكني أبعدت هذه الفكرة عن ذهني، وعندما وضح لنا منظر الكثبان الرملية العالية الموجودة خلف الرقعة الزلطية الكبيرة المعتادة التي كانت محورا لنقاشنا، تأكدنا أن جافورة ماتزال حية وأننا خبرناها ووصلنا إليها.

سرنا في أرض زلطية ورحنا نتحدث عن أشياء كثيرة من باب تمضية الوقت. سألتهم عن خرافة "الأحجار السيارة"[1]، التي كنت قد سمعت عنها الكثير، وأنها تقع على بعد مسافة معقولة من الجافورة، والتي ثبت أنها لا وجود لها الآن بعد أن دخلنا بالفعل إلى المنطقة التي يذيع فيها صيت تلك الأحجار. وراح حميد يتحرى صدق هذه الفكرة وهذه الأشياء، ولكنه لم يعول كثيراً على الحكايا التي تروى عن تلك الأحجار من قبل من يسمون بشهود العيان، لكن صالح جاء وأنقذ الموقف بتأكيدات مفادها أنه شاهد تلك الأحجار السيارة في تلك الرمال البعيدة الموجودة حول منزله العجيب، الذي توجد حوله، على حد قول صالح شخصياً، أنقاض من فترة ما قبل التاريخ، وأنا إذا كنت لا أمانع في زيارة المكان تحت إشرافه هو، فسوف أرى البنادق التي كانت تستخدم أيام "الجاهلية"! والذي لاشك فيه أن صالح ربما يكون قد شاهد بعض قطع المدفعية التي تنتمي إلى أيام البرتغاليين، لكني بدأت أفهم أن صالح كان يفضل اللون[2] على الحقيقة، وتحفظت في الحكم على "الأحجار السيارة" إلى ما بعد إحضارها ورؤيتي إياها وهي تقوم بما تقوم به. والعينات الوحيدة التي رأيتها من تلك الأحجار كانت عبارة عن قطعتين من خبث البراكين البازلتي، من منطقة حرة الكشب البركانية في غربي نجد، لكن هاتين القطعتين جرى فحصهما بواسطة المصادر المتخصصة في المتحف البريطاني، وجرى تعريتهما من كل المزاعم السحرية التي يعزوها العرب إليهما.

كان أبو جعشة قد شفي تقريباً من آلام عينيه، وبدأ يلعب دورا بارزا في المحادثات والحوارات العابرة التي كانت تصاحب عملية السير. كان بين مقتنيات أبو جعشة القيمة، بوصلة جيب، تسببت قوتها في جعل الرجل يتباهى بنظرة علمية تجاه الحياة، وقد انشرح صدر أبو جعشة ذات يوم، كما لوكان طفلا، وأمام جمهور من المعجبين، عندما وجد إبرة البوصلة تشير إلى الإتجاه الذي يشير إليه المنشور الثلاثي. لكن الموضوع القوي عند أبو جعشة هو الجنس، وكان الرجل يحلو له أن ينكت على

(١) راجع الملحق.

(٢) يقصد باللون. الوهم. (المترجم)

صالح، عندما كان يسهب ويطيل فى مسألة ختان المناصير للإناث، قال: صدقنى، إنهم يتركون نسائهم بلا مساس بهن إلى أن يبلغن، وعندما يحين موعد زواج بنت من البنات، يقيمون وليمة بمناسبة الختان قبل شهر أو شهرين من الزواج، وفى هذا الوقت بالذات يختن المناصير بناتهن، وليس عند مولدهن مثلما تفعل القبائل الأخرى - القحطان، وبنو مرة، وبنو هجر، والآى، والعجمان. وبذلك تكون نساؤهم أكثر شبقًا من النساء الأخريات، وهن بذلك يكن نساء طيبات وساخنات إلى حد بعيد! لكنهم يزيلون كل شىء بعد ذلك، ويجعلونهن ناعمات، بل شديدات النعومة، وشديدات البرودة أيضًا ويقللون من سخونتهن عن طريق القضاء على الرغبة فيهن. وهنا احمر وجه زايد خجلاً لصراحة صالح التى لا تعرف المواربة، قال زايد: لا تغضب من هذا الرجل، فهذه هى طريقته وأسلوبه فى الحياة، ولسانه هو الذى يتحكم فيه لكنه طيب القلب، وسألته: هل يقومون بعملية الختان أثناء الوليمة مثلما يفعلون مع الأولاد الذكور؟ الله يحفظك! رد على قائلاً: لا، لكن البنات يجرى ختانهن بواسطة النساء فى الخيام، والنساء يعرفن ماذا يفعلن، وتحصل الواحدة منهن على دولار نظير عملية الختان. هؤلاء النساء خبيرات فى استعمال المقص والموس والإبرة التى يجرى استعمالها كلها فى هذه العملية. الدواسر لا يختنون بناتهم، وكذلك أهل الحضر فى نجد لا يفعلون هذا الشىء، وبعض قبائل الشمال يفعل هذا الشىء، والبعض الآخر لا يفعلونه.

كنا قد بدأنا السير فى سهل زلطى آخذ فى الاتساع، بدا لنا وكأنه يتموج تموجا خفيفًا، فى حين راح أفراد الجماعة، فيما وراء هذا السهل، يشيرون إلى الكثبان الرملية التى يسمونها القسام، التى بدأ سطح الصحراء ينخفض قبلها متحولا إلى منخفض ضحل واضح المعالم - شبيه بالوادى بدرجة كبيرة، وذلك على العكس من الشكل الذى رأينا وادى السحبة عليه عندما كنا نعبره، وذلك على الرغم من أن أكثر أجزاء هذا المنخفض عمقا، لم يكن يزيد بأى حال من الأحوال عن عشرين قدمًا على أى جانب من جانبى ذلك المنخفض - وربما كان عرض المسافة بين الضفتين حوالى نصف ميل. تدخل سويد قائلاً: هل ترى ذلك الغدير، إنه فرع من أفرع وادى السحبة، والذى يتفرع منه عند منطقة الصُّمَّان التى تقع عند المستوى نفسه

أو فى منطقة أبعد من حرض ونحن نطلق على هذا المنخفض اسم سر المعيد - منخفض الجمل الطيب - لأن الناس هنا يقولون: حدث فى أحد الأيام أن كانت جماعة تعبر هذه الصحراء بصحبة ماشيتهم الجيدة، ونفق جمل من الإبل فى هذه القناة، فى المنطقة التى تتفرع القناة عندها مبتعدة عن السحبة. ومن هنا أطلقوا على المكان اسم سر المعيد. وهنا قفز ذهنى إلى نتيجة أو استخلاص واضح، لأن هذا الاسم فسر أو حل لغز "السراميد" الذى ورد عند الرائد شيزمان. بدت القناة وكأنها مسدودة تماما بخط من الرمال يصل طوله إلى حوالى ثلاثة أميال فى اتجاه الغرب، فى حين كانت القناة تمتد من ناحية الشرق، إلى مسافة ثلاثة أميال إلى الرمال التى على ذلك الجانب. كان سطح مجرى القناة مكونًا من الزلط الخفيف المغطى بقشرة رقيقة من الرمل، فى حين كان المنحدر العلوى المتجه إلى الجنوب هينا لينا.

نحن ندخل الآن إلى حزام من الكثبان الرملية، التى يطاول ارتفاعها ارتفاعات الكثبان الرملية التى صادفناها فى طول الجافورة وعرضها، التى تقع خلفنا فى الوقت الحالى، وقد أعجبتنى سرعة العرب فى الكشف عن المناطق التى يكون الرمل فيها عميقًا وناعمًا ويتحاشونها. لم يكن هناك، بين الحين والآخر، بديل عن عبور تلك الشرائط الأرضية الضيقة، عميقة الرمال، وكنت أتمتع وأنا أرى الجمال وهى تسير على شكل صف واحد حتى تتمكن الإبل التى فى الخلف من السير على أثر أقدام الإبل التى فى الأمام، مستفيدة بذلك من المدق المعبد. هذا الحزام من الكثبان الرملية، الذى تتخلله بين الحين والآخر بقع صغيرة من الزلط، وأحزمه نباتية، يعرفه الناس باسم القسام، بمعنى "التقسيم أو الانقسام" بين الجافورة الأم، وامتدادها ناحية الغرب، هذا الامتداد له طابع أشد قحولة، ويسمونه الحمل. وبذلك يمكن القول بشكل أو بآخر، إن الجافورة تنتهى فى هذا المكان عند قناة سر المعيد، على الرغم من أن خط سيرنا فى اتجاه الجنوب يعبر المنخفض ويبدو أنه يتحول ناحية حافة الجوب.

خلف القسام، دخلنا سهل هضبة البدوع الزلطى، الـذى يـصل عـرضـه إلى حوالى عشرة أميال لكنه تتخلله فى اتجاه حافته البعيدة مناطق زلطية شاسعة، كان طريقنا فى اتجاه الجنوب الغربى بين خط الجافورة المتجه جنوبا عن يسارنا والقرن الغربى من هذا الطريق (الحمل) عن يميننا. انفراج هذين الخطين الرمليين هو الذى يسمح باتساع السهل، الذى كنا نسير فيه فى يأس على أمل الوصول إلى الحوض الرئيسى لجابرين قبل غروب الشمس، أو العثور فى تموجات السهل نفسها على خط من الأعشاب والنباتات؛ يسهل علينا التخييم لقضاء فترة الليل. وقد انخدعنا بفعل هذين الأمرين، وكانت الساعة قد وصلت الخامسة مساء، وعندها قررنا اختصار جهودنا، ورحنا ننصب خيامنا فى خط ضحل من خطوط الصرف، الذى كانت فيه نباتات ميتة كثيرة يمكن استعمالها وقودا، لكن ذلك الخط كان خلواً من أى شكل من أشكال العلف الذى تأكله الإبل. ونشب على إثر ذلك شجار عنيف بين رفاقى، حول مسألة ما إذا كان ينبغى علينا التوقف أو المواصلة حتى النهاية، ولكنى لم أكن طرفا فى ذلك الشجار. وكان طبيعى أن يتناول المتيمون بالقهوة بغيتهم منها، لأننا ما تزال أمامنا مسافة كبيرة يتعين قطعها فى اليوم التالى، إضافة إلى أن نوعية الصحـراء لم تتحسن تحسنا كبيراً.

كنا قد قطعنا حوالى ٢٥ ميلا بلا توقف، وكان الجزء الأخير من المسيرة مقلقا بسبب الريح المعتدلة التى كانت تداوم الهبوب على وجوهنا. وإذا ما نحينا جانبا تلك القلَّة القليلة من السحالى التى عثرت عليها فى الزلط، نجد أن عملية جمعى للحشرات لم تتحسن، فضلا عن عدم مشاهدتنا للأرانب البرية أو أنواع الصيد الأخرى طوال النهار، ومع ذلك، كنت قد لاحظت جرادة وحيدة فى رمال الجافورة، وقدر لنا أن نرى جرادة أخرى فى السهل الزلطى فى اليوم التالى، فى حين استطعت الحصول على بعض الخنافس بهيجة الألوان، من وادى سحبة عندما كنا محتمين فيه آخر مرة، يا له من مكان قاحل، خال من الحياة - وهذا السهل الشاسع كان سيئًا فى أجزائه كلها، ويمتد إلى مسافة عشرة أميال كلها رمال. قيل إن طريق الأحساء - جابرين يقع على بعد مسافة مسير يوم واحد، فى اتجاه الغرب من هذه المرحلة التى

نحن فيها حاليا، وقيل أيضـا إن أول بئر من آبار حوض جابرين يقع على بعد ٢٥ ميلا، وقيل أيضـا أن مسقى بئر عزيز' المهم فى حوض الجوب نفسه، يبعد مسـير حوالى يومين في اتجاه الجنوب الشرقى من المخيم الذى نحن فيه حاليا. كنا نرى هناك وهنا كثيبا رمليا يبرز من بين الزلط، الذى تمتد خلاله مدقات الإبل مُبَيِّنَة بذلك الطريق القادم من منطقة مراعى الجافورة إلى مسقى البركان، الذى ينبغى أن نصل إليه غداً.

استأنفنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من الصباح على غير المعتاد بغية الوصول إلى الماء بأسرع ما يمكن، وكنا نتأمل الوصول إلي جابرين نفسها قبل دخول الليل. مشينا حوالي ربع سـاعة تقريبًا وأشرقت الشمس علينا بعد ذلك على شكل بركة صـغيرة من الضوء على أفق شبيه بالبحر. ومع طلوع الشمس كانت هـناك غمامة كثيفة فوق الرمال البعيـدة الموجودة على يسارنـا، لكن الهواء كان صـافيا وجافا فى السـهل. فى بعض الأحيان كنا نلقى نظرات خـاطفة على الرمـال البعيدة فى اتجاه الشمـال الغربى، ومن أمـامنا كـان خط تلك الرمال ينحنى حول الرُّعْن الذى يطلقون عليه اسم سُلاع الحمل، لكننا فى معظم الأحيان نسير فوق أرض جرداء متراميـة، تنحسر فى بعض أجزائها على الجانبين.

وهذا نسيم بليل يهب علينا من الجنوب الغربى محـافظا على برادنا، وراح صـالح من جديد يمتدح جمـال بلاده وسحرها. قـال صـالح: لو تشـاهد موطنـى سوف تعـجب وتندهش. مـوطنى كـان من قـبل مـوطنا لبنى هلال، وأنا كنت أتحـدث عن مـدافعـهم بالأمس. الناس يسمـون ذلك المكان السرّة، وسـوف أصـحبك إلى هنـاك فى العام القادم بمشيـئة الله، لكن يتـعين عليك إحضـار مـهندس معك كى يرى هذه البـلاد. ربما يكون هناك ذهب لأن التـلال كلها حمراء اللون. وفـى ظافرة هناك أيضـا عظام وبقايا أخـرى، على حد قول الناس، فإن هذه البقايا والعظام من مخلفات معركة كبيرة دارت منذ زمن بعيد بين الفرس وبنى هـلال. وسـوف تبـقى مع أهـلى وناسى مـثلمـا تشـاء، إى، وسـوف أعثر لك على فتاة تتزوجها، وأجلب بنتًا أخرى ليتزوجها زايد. وفتر الحوار إلى حد ما بعد ذلك، فقد بدأنا كلنا نسأم هذه المرحلة من الرحلة.

مع ذلك، وعقب صلاة الظهر مباشرة بدأت الأرض من أمامنا تكشف عن دلائل وعلامات انقسامها إلى ما يشبه الأطباق الضحلة التى فيها بعض النباتات الصغيرة التى من بينها الضمران. بعد أن قطعنا مسافة أبعد قليلاً، بدأت التموجات الرملية تتضح بشكل أكبر، وبعد ذلك ببرهة قصيرة أخذ سطح الأرض ينخفض فجأة، لكن بصورة هينه، متحولا إلى حوض ضحل، كانت حافته البعيدة محمية بخط من سلاسل التلال الرملية العامرة بالأدغال الكثيفة. توقفنا فوق ربوة صغيرة فى السهل الزلطي، ورحت أمسح المشهد الموجود أمامي، الذى هو عبارة عن أرض منخفضة غير واضحة المعالم تحيط بها سلسلة من الصخور عديمة القيمة تنتهى على شكل رؤوس أرضية بالقرب من مسقى بركّان. فى الناحية اليمنى، تبدت لى مجموعة صغيرة من النخيل الطويل، فى سلسلة من الكثبان الرملية تتوسط المكان. وخلف المنخفض كانت الصحراء تمتد امتدادا متكسرا وغير واضح ناحية الجنوب فى اتجاه مقينمة.

سارعنا أملا فى الوصول إلى بئر البركّان عند حافة جوب البدوع، وبذلك وجدنا أنفسنا، بعد مسير دام ثلاثة أيام فى رمال الصحراء قد عدنا من جديد إلى مصبات البحر القديم.

الفصل الخامس

جابرين

"هذه رقعة مترامية من النخيل، تنتشر فيها الملاريا على نحو تصعب معه السكنى فى هذا المكان، الذى يزوره بدو المُرّة فى موسم جنى التمر، وأهل المرة يقولون إنهم شاهدوا أنقاضًا لمنازل، كما شاهدوا بعد المطر عملات معدنية على سطح التربة".

ديفيد جورج هوجارث[١]

تفصل واحتى الأحساء وجابرين عن بعضهما مسافة تقدر بحوالى ١٥٠ ميلا، وهما تقعان على قاعدة سهب، أو إن شئت فقل: سهل واسع خالٍ من الشجر، يطلق الناس على انقساماته الصغرى والكبرى أسماءً محلية، ويمكن النظر إليها باعتبارها وحدة جغرافية متجانسة ضمن الإطار العام لمنطقة الصمان. هذا السهب يقع فوق رسوب من العصر الطباشيرى، ومن العصر الأيوسينى[٢] Eocene، ومن العصر المايوسينى Miocene، وطبقًا لهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق، ويفصل هذا السهب عن كل من هضبة الطويق الوسطى والبحر، ذراعان رمليتان طويلتان تمتدان ناحية الشمال عن طريق الصحراء الجنوبية الكبرى، الذراع الغربية من هاتين الذراعين

(١) اختراق الجزيرة العربية، المنشور فى العام ١٩٠٥ صفحة ٢٣٣.

(٢) للمزيد عن التفاصيل الجيولوجية، يرجى الرجوع إلى الملحق.

تشكل ما يعرف باسم الدهناء، التى تمتد جنوبا خلال حزام الرميلة إلى أن تصل إلى الرمال الكبيرة المتموجة فى الربع الخالى، بدءا ببنى معاريض، التى يصل سهب الصمان نفسه إلى حدودها الشمالية، إلى أن يصل إلى خط طول ١٩ شمالا، تحت اسم أبو بحر. وأبعد حزام رملى فى الناحية الشرقية يتمثل فى الجافورة، التى استكشفناها استكشافًا كاملاً، والتى تفصلها عن البحر سلسلة من التثليمات الساحلية الشبيهة بالمصبات. الحافة الجنوبية لذلك السهب معزولة عن المنطقة الرئيسية من الرمال الجنوبية الهائلة، بواسطة مصب طويل ومهم يمتد امتدادا عشوائيا ناحية الغرب قادما من البحر ومتجها إلى حوض جابرين عند سفح تلال الصمان. هذا المصب هو ما يسمى بالجوب الكبير، الذى ينقسم حسب التسميات المحلية إلى أقسام عدة، وأبعد هذه الأقسام الغربية هو حوض جابرين الذى يعرفه الناس باسم الجوبة.

واصلنا مسيرنا فى اتجاه الشرق لنصل إلى القسم الذى يطلق الناس عليه اسم جوب البدوع الذى يقع حده الشرقى فى المنطقة المجاورة لبركّان، التى نحن فيها فى الوقت الحالى، ويتواصل المنخفض من هنا متجها صوب الجنوب الشرقى تحت اسم الجوب – الذى يوجد به سلسلة كبيرة من الآبار التى يدخل ضمنها المسقى المهم الذى يسمونه بئر عزيز – إلى أن يصل خط طول بُنَيَّان أو على مقربة منه، وعند هذه المنطقة يمتد المصب داخلا إلى خليج غير منتظم الحدود، تتجمع تثليماته الفردية فى الناحيتين الشمالية والشرقية لتكون فيما بينها ما يسمى بالجيبان، فى حين يحمل كل تثليم من تلك التثليمات اسما مستقلا به. كنا قد زرنا بالفعل أصغر هذه المصبات الموجود فى مكان قصى من الناحية الشمالية، فى حين قام السيد / برترام توماس، عندما كان يتنقل من بنيان قاصدا شبه الجزيرة القطرية، بعبور الوديان، أو تجاوز مصبات تلك الوديان التى فى أقصى الجنوب. وإذا ما أخضعنا الحد الخارجى لمنخفضات جيبان للمزيد من الاستكشاف والمزيد من البحث المفصل، ستتوفر لنا المزيد من الأسباب التى تجعلنا نربط حوض جابرين بمنظومة المصب العامة، الأمر الذى سيوفر لنا المزيد من التفسير لمسألة وجود هذه المنظومة والمكان المحدد لها وطبيعتها الخاصة.

فيما يتعلق بالجوب نفسه، ليس هناك مبرر للكلام الكثير عن هذا فإن مجرى الجوب يبدأ من الجنوب الشرقى، ثم يتحول بعد ذلك إلى ما بعد بنيان، لينساب داخلا بعد ذلك فى الجيبان الأصغر منه. يوجد فى حوض هذا الجوب آبار عدة على بعد مسافات واسعة، وهذه الأبيار تبدأ بمسقى القصاب المهم الذى يصل عمقه إلى حوالى ٥٠ قدمًا ويبعد مسير يوم واحد فى اتجاه الجنوب الشرقى، عن قليبة، التى تقرر لنا زيارتها فى الوقت المناسب. توجد فيما بين القصاب وبئر عزيز الذى لا يقل عنه أهمية، والذى يبعد عن القصاب مسير حوالى يومين أو أقل من ذلك فى اتجاه جنوب غرب بنيان، ما لا يقل عن ثمانى مساقى[١]. من هنا يتضح أن هذا القسم من المصب العظيم له أهمية كبيرة عند رعاة المُرَّة الذين يرعون الإبل فى الرمال التى على جانبى المصب، الأمر الذى يجعل من هذه المنطقة مكانا مفضلا للتجمع القبلى فى المواسم التى يتوفر فيها سقوط الأمطار، ويبدو أن أعماق الآبار فى هذه المنطقة تتناقص كلما اتجهنا شرقا، وأعمق الآبار التى فى هذه المنطقة هى بئر قصاب نفسها.

بدا لنا منخفض جوب البدوع بالشكل الذى رأيناه عليه من الأرض المرتفعة فى السهل الزلطى الذى يقع إلى الشمال من ذلك المنخفض، كما لو كان أرضا مالحة طويلة وواسعة تمتد فى اتجاه الغرب فيما بين سلسلة التلال الرملية التى تشكل حاجزا بين الأرض المنخفضة والجرف الذى يحيط بها. تقع البئر المعروفة باسم بئر بركان عند الطرف أو الحد الشرقى لمنخفض جوب البدوع، وقد نصبنا مخيمنا بالقرب من تلك البئر فى منطقة رملية مجوفة عامرة بالحشائش. كانت الساعة حوالى الخامسة مساء، وانصرف أصحاب الأعمال إلى أعمالهم مثل تصليح القهوة وإعداد العشاء قبل غروب الشمس – الذى يعد ساعة الصفر فى اليوم العربى، وهذا يصادف الساعة السادسة

---

(١) من الغرب إلى الشرق: ضميدان (عمقه سبع قامات)، المليحات القبلية، والمليحات الحضرية، ولتيت، وأسال، وحقشه، وحدبة، وعتسة (تقع على بعد مسير يوم واحد فى جنوب غرب بئر عزيز).

مساء عند السكان الأوروبيين المقيمين في جدة. ذهبت إلى البئر كي أرى الإبل وهى تسقى من ذلك الماء الوفير الممتاز – إذ كانت الحفره عينا أو ينبوعا وليست بئرا – الذى يوجد على عمق أربعة أقدام فقط. وبعد أن أنهيت هذه المهمة، رحت أتجول بين أدغال أشجار الطرفاء والغاضة، والتقيت سويد أثناء عودته من المهمة التفتيشية. سألته: "حسن، ماذا فعلت؟ هل هناك أعراب فى المنطقة المحيطة بنا؟" أجابنى: "لا، لقد تجولت فى المنطقة المحيطة بنا ولم أر عربيا أو إبلا، لكنى شاهدت حجرا سيارا – وإذا ما ذهبت أنت إلى هناك، عند الدغل الموجود في الخلف سترى ذلك الحجر بنفسك. لقد شاهدت أثر ذلك الحجر فى الرمل، واقتفيت ذلك الأثر إلى أن وصلت للحجر". ومشيت فى الاتجاه الذى حدده سويد، ورأيت فعلا أثر الحجر على مَنْزَل رملى منحدر، ووجدت أن الأثر ناتج فعلا عن قطعة غشيمة من حجر الصوان. فيما عدا ذلك لم تكن هذه الظاهرة ذات أهمية تذكر نظرا لأن حركة الحجر كانت ناتجة عن انجراف الرمل من تحت الحجر فى منطقة هذا المنزل المنحدر. وعن بعد شاهدنا أرض فردة الخين الرأسية داكنة اللون، التى تدل إلى حد ما على موقع هجرة الخين التابعة للإخوان، كما تحدد لنا أيضا الاتجاه العام لسيرنا فى الغد (والذى سيكون فى الاتجاه غرب – شمال غرب على وجه التقريب)، ولكنى خاب أملى لأنى لم أر شيئا من واحة جابرين الكبيرة، التى يجب أن تكون فى شمالى هجرة الخين الإخوانية، على حد ما هو مدون فى الخارطة التى أعدها الرائد شيزمان. والأرجح، على حد معرفتى، أن المرشدين ربما يكونون قد جاءوا بنا إلى الجزء الجنوبى القصى من هذا الحوض؛ ومع ذلك حرت عندما سمعت أننا يتعين علينا أن نسير في اتجاه الغرب بدلا من اتجاه الشمال، بغية الوصول إلى المكان الذى نريده. وهنا أصر سويد، مرشدنا ودليلنا فى هذه المنطقة، على الاتجاه غربا ضاربا عرض الحائط بأفكارى عن موقع الأرض. قال سويد: من ذا الذى يعرف جابرين أكثر منى؟ لقد أقمت فى هذه المنطقة مع حمد بن المرظّف هو وجماعة الإخوان التابعين له بضع سنين، وتجولت فى سائر أنحاء المكان بحثا عن عيون جديدة نستعمل ماءها فى زراعة النخيل. وقد انفصلت عن هذه الحياه بعد وفاة حمد، وبعد أن أجبرت الحمى رجاله على مغادرة المنازل التى بنوها. ومات الكثير من هؤلاء

الإخوان، واضطرت البقية البـاقية منهم إلى التفرق فى الصحراء، وهم إلى يومنا هذا لا يعيشون في القرى.

هذه النسمة الشرقية الخفيفة هى التى جعلتنا نُسَرِّع فى اليوم التالى مسيرنا عبر الأرض المالحة المنبسطة التى يصل عرضها إلى حوالى الميل تقريبا. كنا قد بدأنا مسيرنا عند الساعة الثامنة صباحًا. كان الوحل المالح فى المنخفض كثيفًا جدًا وقذرا جدا، وتتخلله بين الحين والآخر نباتات الطرفاء والنخيل القزم. وبعد مسير متعب دام نصف ساعة وصلنا إلى النخيل الذى سبق أن رأيناه فى الليلة السابقة – مجرد أربعة جذوع غير مقضبة، يحيط بها سياج كثيف من سعف النخيل، ويجرى ريها من بئر واحدة يصل عمقها إلى عمق البئر السابقة التى أمضينا الليلة السابقة بجوارها. كنا قد أرسلنا إبل الأمتعة والتموينات والمؤن من الطريق المباشر الواقع فوق المخفض، إلى مكان تجمع معروف فى واحة جابرين نفسها، حتى نتمكن من إتاحة الوقت اللازم لرؤية كل ذلك الذى نود رؤيته فى جوب البدوع. كان الطريق الذى سلكته إبل الحمل والأمتعة، يتجه غربا عبر أبيار وأدغال أشجار الطرفاء فى أم أثيلة[١]، فى حين اتجهنا نحن، من منطقة النخيل التى نحن فيها حاليا، نحو الشمال الغربى عبر الأرض المسطحة المالحة، لندخل من جديد إلى سلاسل الكثبان الرملية الحدودية، التى سرنا فيها فى طريق متعرج إلى أعلى التلال ثم نزلنا إلى الوادى، وكنا نتمتع بالمناظر المحيطة بنا من فوق القمم التى كنا نصل إليها الواحدة بعد الأخرى.

وبينما كنا نسير فى أدغال الشينان والغاضة الكثيفة، انطلق من تحت أرجلنا أرنب برى ليفر هاربا. وهنا أصبحت الأرض المالحة موازية لطريقنا على مقربة منا فى الناحية اليسرى، وكنا نشاهد بين الحين والآخر بعض الخلجان الممتدة داخل الرمال إلى مسافة بعيدة. وكنا نعبر هذه الخلجان أو ندور حولها حسب مقتضيات الأمر، وقد عثرنا فى تلك الخلجان على حطام نخيل صغير ميت كان يحيا فى يوم من الأيام على

(١) هـذا هـو الاسم الصحـيح لهذا المكـان، وليس أم مثـيلة كمـا هـو وارد فـى خارطة برترام توماس Thomas.

الماء المالح القريب من السطح. وفى تجويف رملى قريب منا، عثرنا على جذع نخلة واحدة كانت تنمو بجوار بئر ضحلة، يصل عمقها إلى حوالى قدمين، ثم مررنا بعد ذلك على خليج أكثر اتساعا عبارة عن سبخة، فيه كتل من عشب الحلفاء، الذى تستمد منه البئر ومجموعة النخيل اسمها، إذ إن الناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم بدع الحلفاء.

فى هذه المنطقة تنتهى سلاسل الكثبان الرملية إلى سهل رملى يمتد فيما بين السطح المالح الواسع الموجود على يسارنا (إذ انحرف مسارنا بعض الشىء إلى ناحية الشمال الغربى) وحافة السَّهب الصحراوى، الذى يمتد متجها صوب حافة المنخفض على شكل سلسلة بارزة من الصخور والرمال التى تتخللها نتوءات، أو إن شئت فقل أكتاف جبلية، شبيهه بالأراضى الرأسية. عند نتوء من هذه النتوءات، أو بالأحرى عند كتف من هذه الأكتاف الجبلية، والذى يطلقون عليه اسم خشم الخين، توقفنا برهة كيما أتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الأرض المحيطة بنا، من ارتفاع يقدر بحوالى ٥٠ قدما فوق مستوى السهل، من هذه المنطقة، أو بالأحرى، من هذا الارتفاع يمكن تتبع حافة السهب على شكل ارتفاعات من قبيل اليسبع (تلك الإبرة الصخرية الدقيقة الموجودة عند نهاية إحدى السلاسل الصخرية على الجانب الأيسر من حوض جوبة) التى تقع فى اتجاه الغرب، وهناك مجموعة من الصخور المتآكلة فى الشمال الغربى يسمونها غار الجول، أما توأم الأرضين الرأسيتين فى فرضة الخين فيقع فى الشمال الشرقى. وكانت تنبثق هنا وهناك صخور صغيرة منعزلة من خلال المسطح المالح الموجود فى الناحية الجنوبية، والناحية الجنوبية الغربية، فى حين كنا نرى نخيل بركَّان فى الاتجاه الجنوبى الشرقى، نخيل البركَّان هذا، أبرز أمامنا مجموعة أخرى من النخيل البائس، كانت تحدد لنا الموقع الذى يسميه الناس هنا بدع النخلة، الذى يقع فى الجنوب الغربى تقريبا من نخيل الخين نفسه الذى يقع فى اتجاه الغرب.

وجهنا مسيرنا، بطبيعة الحال، ليكون فى اتجاه نخيل الخين عبر سهل تتخلله بقع رملية وزلطية، وبقع من الصخور الرملية بيضاء اللون أو التى يميل لونها إلى اللون

الوردى، وبينما كنا نسير فى الطريق، ومع انشغال كل أفراد الجماعة، ووسط الهرج والمرج الذى تملك أفراد الجماعة، بعد أن استطاعوا اصطياد جربوع صغير من جحره فى الرمل، كنت أنا بدورى قد استطعت الإمساك بواحدة من الفراش، يسمونها الفراشة الفهد، عندما كانت تقف على أحد أغصان شجرة من أشجار الغاضة، وقد اتضح فيما بعد أن هذه الفراشة هى النوع الوحيد من هذا الفراش الذى اكتشفه الرائد شيزمان وسمى باسمه. وقف رفاقى حولى، وحسبونى فقدت صوابى عندما نزلت من فوق دابتى لكى أمسك بطريدتى، التى لم يروها إلا بعد أن سقطت نائمة فى سلام فى المصيدة التى على شكل زجاجة، وراح الجميع يتعجبون من هذا العمل ويندهشون له.

وصلنا إلى خين، تلك الهجرة (الكفر) الصغيرة البائسة المكونة من ستة منازل مبنية من اللبن، كانت تلك المنازل عبارة عن أكواخ، واحد فيها هو المسجد، أما الكوخ الأكبر من بين هذه الأكواخ فكان منزلا لرئيس هذه المستوطنة الصغيرة من مستوطنات الإخوان، المقامة على طول القاعدة الغربية لواحدة من السلاسل الرملية المنخفضة. كانت أكواخ المستوطنة على شكل شبه دائرة وفيها أربعة أبيار فى الأرض الفضاء الواقعة فيما بين الأكواخ وسلسلة الكثبان الرملية. كانت الرمال قد سدت تماما واحداً من تلك الأبيار، فى حين كانت هناك بئر أخرى محاطة بسور ويخنقها جذع نخلة من النخيل. كانت البئران الأخريان المحفورتان فى صخر الحجر الرملي وفيرتى الماء وعذبتاين أيضا، ويمكن الحصول على مائهما من عمق أربعة أقدام فقط. فى المنزل الكبير، المملوك لرشيد بن آنديلة[1] الذى ينتمى إلى فخذ الحسانة من قبيلة البحيح، والذى أسس مستوطنة الخين الإخوانية عقب إنشاء مستوطنة جابرين نفسها، عثرنا فى مستوطنة الخين هذه على الهيكل الخشبى لسرج من سروج الإبل، لكن ذلك الهيكل

---

(١) التقاه الرائد شيزمان فى العام ١٩٢٤ . وحصل منه على هدية عبارة عن كلب سلوقى حصل على جائزة فى أحد المعارض اللندنية. والرائد شيزمان يسمى هذا الرجل رشيد بن دالج، لكن الاسم الحقيقى هو ما أوردته أو قد يكون تديلة بدلا من آنديلة.

الخشبى كان بمثابة الإشارة الوحيدة إلى وجود البشر فى هذه المنطقة، والمسجد نفسه هو الذى حكى لنا حكاية الجدب الذى لحق بهذه الهجرة، نظرا لأن المسجد كان مردوما إلى منتصفه، نتيجة بالغة المصداقية عند أى مهندس معمارى مطمور يعمل بلا بوصلة على بعد يقدر بحوالى ٦٠٠ ميل عن هدفه[١]، هذا الوعى بالاتجاه الصحيح أمر يكاد لا يصدق فى أناس لم يسبق لهم أن رأوا خارطة من الخرائط.

مع ذلك، دخلت هنا، فى نقاش عنيف مع مرشدىَّ (المحترفين) حول اتجاه، أو بالأحرى موقع منطقة شديدة القرب منا، خارطة الرائد شيزمان تحدد موقع البئر هى ومستوطنة الإخوان فى جابرين، إنهما ينحرفان قليلا إلى الناحية الجنوبية الغربية. وعليه صعدنا إلى نقطة أفضلية فوق سلسلة الكثبان الرملية لمناقشة هذا الموضوع واتخاذ قرار بشأنه. سألت سويدا قائلا: ما هذا النخيل الذى يقع إلى الخلف قليلا من المنازل؟ رد على سويد، هذا النخيل ليس له اسم، والناس يسمونه نخيل الخين – وليس لهذا النخيل اسم آخر غير هذا الاسم. حرضته قائلاً: إذن لابد أن تكون هذه الأرض التى على يسارنا هى أم النوسى، والأرض التى على يمينها هى أم العضوة، وأن الأرض الثالثة لابد أن تكون هى الخين. وهنا ظهر بريق غريب فى عينى الرجل. سألنى، من قال لك هذا؟ أجبته، كتابى وخارطتى هما اللذان قالا لى ذلك – كتاب ذلك الرجل الإنجليزى الذى وصل إلى جابرين بصحبة صالح فى العام الذى مرض فيه ابن سعود – وصالح هذا كان من أهل الجابر، ومن هنا لابد أن يعرف هذه الأماكن معرفة دقيقة، ربما يكون يعرف هذه الأماكن، لكنه كذب. وأنا أشهد أمام الله أن هذا الصالح كذب على الإنجليزى إذا كان قد قال له إن هذه هى أم النوسى وأن تلك هى أم العضوة. أنا أعرف هذين المكانين حق المعرفة، لأنهما لا يبعدان كثيراً عن نخيلى فى غبية، ذلك النخيل الذى زرعته أنا بيدى هاتين. وبمشيئة الله سوف أريك هذا النخيل بنفسى كى تتأكد من أن صالح قد كذب بالفعل. النخل يوجد هناك (وأشار بيده إلى

---

(١) المقصود هنا مكة.

اتجاه الجنوب الغربي) بعيدا عن هذا المكان. أنت لا يمكنك رؤية هذا النخيل من هذا المكان، أما النخيل الذي يوجد في الخلف فهو كله نخيل الخين. ترى، هل أنا كذاب الآن حتى لا تصدقني؟ وفيما يتعلق بصالح، الله يعزل بينه! فلابد أن يكون حاليا في عداد الأموات، لأننا عندما غادرنا الأحساء كان الرجل طريح فراش الموت في خيمته. قالوا: إن حياته لا يمكن أن تطول أكثر من ذلك - لقد كان الرجل يموت جراء إصابته بالدرن الرئوي، لكن الله أكبر من كل شيء - كان واضحا أن سويدا كان متشككا في كلامي، ولذلك بذلت قصارى جهدي لتهدئة مشاعره الجريحة، ذلك أن حقيقة الموقف سوف تتجلى أمامي خلال الأيام القلائل القادمة. وانصافا لذلك الرجل، دعني أقول: إنه كان على صواب تماما فيما قال، ومن باب إنصاف صالح أيضا لا يسعني إلا أن أورد هنا الكلام الذي قاله للرائد شيزمان: "الخين بئر قريبة من جابرين، على بعد مسافة مسير نصف يوم بالجمل في اتجاه الشرق من منطقة النخيل، وفي الخين نفسها توجد قلة قليلة من أشجار النخيل"[1]. هذا وصف رائع غاية في الدقة، واتضح لي فيما بعد أن الخطأ الذي وقع في خارطة الرائد شيزمان يعزى إليه هو شخصيا وليس إلى مرشده. بعد أن أوردت الاقتباس السابق أردف سويد قائلاً: تمكنت من رؤية الخين في فترة لاحقة، وبذلك أيدت ما قاله الرجل، في حين يكتب الرجل بعد ذلك بصفحتين[2]: "وصلنا إلى نهاية رقعة كبيرة من النخيل طولها حوالي ستة أميال وتقع إلى الجنوب من الحد الشمالي. لم يكن هناك شيء بعد ذلك سوى بقع أرضية صغيرة منعزلة، تقدر المسافة الفاصلة بين الواحدة والأخرى بحوالي ميل واحد أو ميلين، وإحدى هذه البقع الأرضية هي عبارة عن منطقة الخين نفسها التي أتينا على ذكرها". واقع الأمر أن هذه البقع الأرضية كانت تشمل كلا من أم النوسي وأم العضوة وليس الخين كما هو مبين في خارطة الرائد شيز مان، مثلما روى له صالح ومثلما رأيت أنا بعينيّ، وأنها تقع على بعد مسافة مسير نصف يوم إلى الشرق من جابرين، ولا تبعد عن جنوب الجابرين

(١) في المجهول من الجزيرة العربية، ص ٢٥٩ .

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٥٠ و ٢٠١ .

سوى سبعة أو ثمانية أميال. من هنا يمكن القول: إن الرائد شيزمان لم يرى الخين، وإن الملاحظات التى أوردها عنها مبنية على شيء من سوء الفهم.

شاهدت من سلسلة الكثبان الرملية فى الخين مزرعة أم أثيلة على امتداد البصر فى الأرض المالحة المنبسطة، وفى اتجاه الجنوب الشرقى تقريبا، لكن المنظر الطبيعى لباقى الأرض كان واحداً تقريبًا، بالشكل الذى رأيناه عليه من فوق المنطقة المرتفعة التى سبق الإشارة إليها، اللهم باستثناء أننا الآن نرى عن بعد أراضى برق السمر المرتفعة التى فى جنوبى حوض جابرين. وعليه وفى ضوء الحكم المعلق إلى الآن بين سويد والرائد شيزمان سرنا غربا، ثم اتجهنا صوب الجنوب الغربى على الخط أو المسار الذى وضحه لنا سويد. وكشف رفاقى عن استيائهم من مبالغاتى النقدية، التى قللت من شأن معارفهم الجغرافية، لكن سرعان ما ظهر جربوع آخر غيرّ مسار تفكيرهم، وبدأت مطاردة ساخنة عامرة بالضحك، لذلك الجربوع، وانتهت باصطياد هذه الطريدة.

سرنا فى البداية فى أرض مالحة منبسطة ووعرة ووسخة أيضًا، أسلمتنا إلى منطقة هينه لينه من الرمال المتموجة والزلط، التى يتجه نحوها السهب الصحراوى نازلا إليها على شكل سلسلة من الألسنة النقية المنخفضة، تجاوزنا نهاية سلسلة الحجر الرملى الطباشيرى فى اليسبع، هى والتلة التى يسمونها الثنية التى على بعد مسافة كبيرة عن يميننا، كما تجاوزنا أيضا الأرض الرأسية فى خشم نعيم على اليمين من أمامنا، وواصلنا مسيرنا عبر رمال أكثر تموجا، وعامرة أيضا بالزلط إلى أن وصلنا إلى سهل تنتشر فيها قطع صغيرة من الصوان، لم أجد فيها أى أثر للحفريات القديمة.

من فوق تلة منخلضة فى هذه المنطقة أشار المرشدون إلى سلسلتى الجوامير الصخريتين اللتين يمر طريق الأحساء بينهما مخترقا حوض جابرين، الذى نرى حياته النباتية الفقيرة من أمامنا، والشمس الغاربة تواجه وجوهنا. هناك، فى منطقة هاتين الصخرتين، على حد قول علىّ، توجد المبرزات (تلك السلسلة من الروابى الصخرية

المنخفضة) التى يقصدها عرب الجابرين للتخييم فيها، هربا من الحمى. هذا يعنى أن هؤلاء العرب لا يستطيعون العيش وسط النخيل، الذى تصيبهم الملاريا بسببه وتودى بحياتهم. كان ذلك هو الحال هنا منذ زمن بعيد، لكن حمد بن مرظّف[1] أسس مستوطنة عند حافة بيارة النخيل فى ريعان الدين الجديد. لقد رحل الرجل عنا، يرحمه الله، كما رحل عنا أيضا كثير من أولئك الذين كانوا فى المستوطنة. أما من بقى منهم على قيد الحياة فقد هربوا، تاركين أكواخهم وراءهم، طلبا للعيش فى الصحراء، ولا يعودون إلى هذه المنطقة إلا فى موسم التمر لكى يجنونه، لكنهم لا يخدمون النخيل مطلقا. هذا يعنى أن هؤلاء الناس يتجنبون الحمى كما يتجنبون الشيطان.

بعد أن طلبنا إلى بقية الجماعة المضى قدما، نزلت مع على الجهمان، ونحن ندرس المشهد الذى أمامنا، إلى الأرض المالحة المنبسطة الواسعة التى هى بمثابة بداية منخفض جوية. تولى علىّ مسألة القيادة وتبعته، لكن سرعان ما راح جمله يتقدم متعثرا؛ إذ غاصت أقدامه إلى ركبه فى مستنقع حقيقى. وعندما وقفت على هذه الحقيقة قفزت نازلا إلى الأرض من فوق سرج الجمل - مستمدا فى ذلك بعض الشهرة من رفاقى، الذين شهدوا على مهارتى وخفة حركتى وأطرونى عليها. ولما كنت أقف على أرض ثابتة، فقد أصبح بوسعى الإمساك بلجام جمل على الجهمان، وقدت الجمل إلى الخلف، إلى مكان آمن دون أن ينزل الرجل من فوق الجمل، وسط وحل ذلك المستنقع. قال على الجهمان اسمع يا فلان، هذه هى الشمس تغرب. هيا بنا إلى الصلاة - مازال أمامنا وقت طويل قبل تناول الإفطار. وعليه صلينا نحن الاثنين عند حافة المستنقع، وراح هو يؤم الصلاة، فى حين وقفت أنا على جانبه الأيمن - عندما لا يزيد عدد المصلين على ثلاثة أفراد، يقوم أحدهم بدور الإمام فى حين يقف الاثنان الآخران على جانبيه، وليس خلفه. وبعد انتهاء الصلاة، جعل على الجهمان من يده كأسا تلقى فيه بول الجمل وجرح صيامه بذلك البول عن طريق مضمضة فمه بالطريقة

(١) كان حمد بن مرظف، مضيفا للرائد شيزمان فى العام ١٩٢٤ الميلادى. وقد رد الضيف ذلك الكرم فى كتابه المعنون، المجهول من الجزيرة العربية، ص ٢٤٧ .

المعتادة والمتفق عليها. ثم أخرج علي من ثنية في قميصه حبتين من حبوب الكراميل المضاد للسعال كان قد أخذهما مني منذ أيام. قال: خذ واحدة وسوف آكل أنا الأخرى. وبذلك نكون قد جرحنا صيامنا وواصلنا المسير بعد ذلك، مؤثرين المشي في بعض الأحيان حتى نتحسس طريقنا بحذر عبر هذا المستنقع الملحي وصولا إلى التلال الرملية الموجودة في الخلف. ركبنا إبلنا بعد ذلك ورحنا نعدو بها إلى أن تبدت لنا من بعد نيران مخيمنا، على شكل منارة كانت تهدينا إلى الوصول إلى المخيم في الظلام. وصلنا المخيم بعد الساعة السابعة مساء، وكان رفاقنا قد نصبوا الخيام بالطريقة التي اتفقنا عليها، وبالقرب من آبار المشمَّرة عذبة الماء، والتي يقال إن ماءها هو أفضل مياه الآبار قاطبة التي في هذا الحوض. كانت إحدى هاتين البئرين مدفونة، أما الأخرى فكان الماء فيها على عمق ستة أقدام فقط. كانت آبار المبرَّز تقع على مقربة منا في الناحية الشمالية الغربية، وفي الناحية الشمالية على شكل شبه دائرة على أرض مرتفعة جرداء، في حين كانت مجموعات النخيل في كل من غرابة ومعجبة أكثر قربا منا في الناحيتين الشرقية والجنوبية. وعلى بعد حوالي ميل واحد في اتجاه الجنوب الغربي كانت توجد مزرعة نخيل عليّ بن نجران، هي ورقعة أخرى من النخيل، الطويل والقصير، كانت تمتد إلى مسافة بعيدة في اتجاه الشمال والجنوب، لكن واحة جابرين لم يكن فيها شيء مميز، عندما ألقيت عليها نظرة بعد طلوع النهار. لم أر عن بعد سوى تلال ضاربون ومتُرب، التي كانت تبدو مثل أبراج المراقبة في الجنوب الشرقي، في حين كانت الجوامير تقف حزينة وهي تحرس المدخل المؤدي إلى الأحساء، بينما كانت أرض الصُّمَّان المرتفعة تطبق على الأفق الغربي مثل الجدار.

زار ثعلب وذئب مخيمنا أثناء الليل، ورجعا بخفي حنين مخلفين وراءهما آثار أقدامهما. هب علينا نسيم عليل عند الفجر، لكن النهار كان صحوا ومشمسا، في الوقت الذي رحنا نحتفي فيه بإكمال الرحلة الأولى من رحلتنا - استكشاف كل من الجافورة والمناطق التابعة لها. هذا يعني أننا سوف نخصص الأيام الثلاثة (من ١٩ يناير إلى ٢١ من يناير) لدراسة آخر المواقع الخارجية الحضارية في اتجاه الصحراء الكبرى الجنوبية والربع الخالي، اللتين أوشكنا على الدخول إليهما. في

ذات الوقت كنا نستشعر الفرح ونحن نتطلع إلى أيام الراحة والمرعى الطيب للإبل، والماء والطعام لأنفسنا، وربما شاهدنا أيضا مجتمعا بشريا، على الرغم من أننا إلى يومنا هذا لم نشاهد أو نعثر على ما يدل على وجود البشر. ومع ذلك، كان هنا منذ قرون كثيرة، ما يشبه الحضارة والمجتمع المنظم، على الرغم من أن ذاكرة الإنسان لا تعى أكثر من مجرد الحقيقة الرومانسية التى مفادها أن الشاعر الفرزدق ولد وعاش فى جابرين ليتغنى بالفروسية التى دخل أبطالها عالم النسيان، أو الأساطير.

مع ذلك، هذه هى أعمال هؤلاء السكان بقيت بعدهم متمثلة في أنقاض حوالى عشرة منازل، بنيت بطريقة متينة وبسيطة من الطين بطريقة بدائية تصلح لحماية هذه المنازل وتناسبها من حيث المظهر والشكل، وهذه المنازل موزعة فى أنحاء الواحات لتذكرنا بماض أعظم من الحاضر، ترى متى كان ذلك؟ هل حدث ذلك فى القرن العاشر من زماننا، أم منذ حوالى ٦٠٠ عام على حد قول الرائد شيزمان؟ أم أن ذلك حدث فى زمن الجاهلية قبل الإسلام؟ نحن لا نعرف ذلك ولا يمكننا القطع به، على الرغم من تأكدنا من أن تاريخ جابرين باعتبارها مركزا من مراكز النشاط البشرى يرجع إلى فترة سحيقة من الحوليات البشرية، إذا ما استطعنا الكشف عن المادة اللازمة لإعادة بناء ذلك الماضى. ربما استطعنا الحصول على بعض الإسهامات فى الأسطورة المحلية الغامضة التى تبدو عديمة القيمة، والتى مفادها أن سكان جابرين الأصليين جرى طردهم فى الصحراء بواسطة عاد بن كنعاد نفسه، وعاد بن كنعاد هذا هو ملك وبار العظيم. هذا المنزل على وجه التحديد – والأرجح أنه أكبر المنازل – والذى جرى تدميره بواسطة النار بشكل أو آخر، يعد حقيقة مؤكده بفعل رماد الحريق الذى اشتق منه الاسم أم الرماد[1]، ومع ذلك يجب ألا ننساق وراء رواة القصص المحدثين فى شطحاتهم الخيالية التى تعزو استعمال البارود فى تدمير معقل العدو إلى عاد بن كنعاد!.

---

(١) هذا الاسم هو ما أسماه الرائد شيزمان جام رماد، بمعنى "أم الرماد".

أمضينا أيام رحلتنا فى جابرين فى استكشاف الواحة بكاملها على أفضل نحو ممكن من خلال أنقاض أم الرماد نفسها، الموجودة وسط منخفضات الرمال المتدحرجة عند الحافة أو الحدود الشمالية للواحة، التى اتخذنا منها قاعدة لعملياتنا. كان رفاقى يحبذون البقاء بالقرب من الماء فى المُشمَّرة، لكنى حرصت على اختيار مكان لملاحظاتى الفلكية يكون قريبا قدر المستطاع من المخيم الذى أقامه الرائد شيزمان فى العام ١٩٢٤. لقد فشلت فى تحديد المكان الذى كان الرائد شيزمان يعمل منه، كما باءت بالفشل أيضا الجهود التى بذلناها، والبحث والتنقيب الذى قمنا به، للكشف عن البئر التى قال شيزمان أن عمقها يصل إلى أربعين قدما[١]، على الرغم من أن المسكن الوحيد المبنى من الطين منذ حوالى ثمانى سنوات انتفخ وتوسع إلى أن أصبح فى الوقت الحالى هجرة مكونة من ست منازل، أكبرها هو المسكن الذى يقيم فيه حمد بن مُرَظِّف، كما أن هناك بيتا آخر من هذه البيوت يستخدمه الناس مسجداً. فى هذه القرية عثرنا على بئرين، الماء فيهما على عمق ثلاث قامات، ولكل منهما إطار من خشب النخيل عند فتحتيهما. هذه المستوطنة مهجورة تماماً فى الوقت الراهن، بعد المعركة الشجاعة التى خاضتها المستوطنة ضد الحمى. هذه المستوطنة تقع على بعد مسير حوالى ربع الساعة فى جنوب شرقى أم الرماد، فى ثنيه من ثنيات المنخفضات الرملية، على بعد مسافة تقل عن ميل من طلائع نخيل الواحة - هذه البيارة مملوكة لشخص يدعى صالح بن منية، وفيها بئر يضارع ماؤها ماء أبيار المشمرة من حيث الحلاوة. كان عمق هذه البئر لا يزيد على عشرة أقدام.

قضينا اليوم الأول فى استكشاف الواحة الواقعة إلى الجنوب من أبيار المشمرة، الأمر الذى ترتب عليه عدم وصولنا إلى قصر أم الرماد إلا بعد دخول الظلام. فى صبيحة اليوم التالى وجدت على الأرض ندى كثيف، كما كان هناك ندى كثيف أيضا على الحياة النباتية الوفيرة فى المنخفضات، فى حين كان هناك ضباب كثيف حجب عنا منظر الأرض الطبيعى بعد شروق الشمس. أمضيت فترة الصباح كلها إلى ما بعد

---

(١) راجع كتاب المجهول من الجزيرة العربية ص ٢٦٠ .

الظهر فى استكشاف الأنقاض المترامية الأطراف، وعمل مخطط لهذه الأنقاض. وجدنا بين هذه الأنقاض أشياء تمثل الماضى بكل جوانبه - وجدنا أساور مكسرة، وخرز مبعثر وبقايا فخارية، وعثرنا أيضا على إناء مصنوع من الطين، تَكَسَّر من سوء حظنا عندما كنا ننقله من مكانه بين الرمال والرماد، يبدو أن الرائد شيزمان لم يزر هذه الأنقاض، لكن المادة التى جمعت من هذه الأنقاض هى التى جعلت الآنسة جرترود كاتون طومسون Gertrude Caton Thomson - التى تعد حجة فى مثل هذه الأمور - تقول أن هذه الأنقاض والأشياء ربما ترجع إلى القرن الثانى عشر أو إلى فترة أبعد من ذلك. هذا التاريخ قد يشير إلى وجود علاقة لهذه الأنقاض والأشياء بالاحتلال القرمطى للأحساء والمنطقة الساحلية من الخليج الفارسى، ومع ذلك فإن هذه الأنقاض تبلغ من الصغر وعدم الوضوح حداً يصعب معه وضع تاريخ محدد لها.

على بعد حوالى ميلين فى الناحية الجنوبية الشرقية من هذه الأنقاض يوجد مبنى مربع الشكل بسيط لكن بحالة جيدة، يسمونه قصر طويريف[1]، الذى جرى بناؤه بكامله من الصلصال المشبع بالملح الذى يقاوم التآكل، على الرغم من مظهره الذى يوحى بالتصدع والتداعى. هذا المبنى المربع يصل طول ضلعه إلى حوالى ٢٥ ياردة، وليس له أهمية سوى أنه يعد مجرد علامة أرضية خارج الحدود الشمالية الشرقية للواحة.

تمتد أغزر مناطق نخيل الواحة من نخيل صالح بن منية فى الجنوب إلى عين ابن مَرْشَد، ويصل عرضها إلى ما يقرب من ثلاثة أميال بين الشرق والغرب. الأبيار الضحلة التى يتغذى منها النخيل الذى لا يرعاه البشر - نظرا لأن هجرة البشر من المكان، على حد قول الرائد شيزمان، هى التى أسفرت عن التخلى عن تجربة التلقيح الصناعى للنخيل التى أدخلت لأول مرة فى العام ١٩٢٤ الميلادى - كثيرة العدد ويصعب حصرها. بعض هذه الأبيار، أو بالأحرى العيون، ميتة، والبعض الآخر منها

(١) أورد الرائد شيزمان رسمين تفصيليين لذلك القصر، المرجع السابق صفحة ٢٧١.

مسدودة بفعل الغاب والنخيل الذى يتزاحم على استغلال فتحات هذه العيون. النخل فى هذه المنطقة بشكل عام ليس جيدا، لكن تنتشر هنا وهناك تجمعات من الأشجار الشهيرة غزيرة الإنتاج، فى حين إن أجمل أجزاء هذه المنطقة يتمثل - من وجهة نظرى - فى هذه الغابة الواسعة من أشجار السنط التى يسمونها العاقول، والذى يشكل لونُ مجموعه الخضرى الخمرى والبنى وثمارِه تقابلاً جميلاً مع لون النخيل الأخضر الداكن ولون الغاب الطويل بظلاله الخضراء الفاتحة. عثرت فى المنطقة المجاورة لهذه المنطقة على أنقاض منزلين آخرين، أحدهما ملك لصالح الذى عمل مع الرائد شيزمان، ويقع وسط بيارة ونخيل جميلة، ومع ذلك لم يكن شكله يوحى بأى شىء من الأهمية. والمنزل الثانى[1]، والذى يعرف باسم قصر عويضة بن أضيمان، يقع عند ملتقى حزامى النخيل الرئيسيين فى القسم الشمالى من الواحة. والغيْضة الموجودة ناحية الشرق من ممتلكات رجلين بارزين من رجال المرة هما حمد بن نوثان وسعود بن قريع. ولكن أمهات الفصام بن المرضَّف وعايض بن عُذرة وهما من عشيرة الجابر ويبدو أن أمهات الفصام تشكل جزءا من مسور أكبر، أساساته واضحة المعالم، على الرغم من استوائها على سطح الأرض. هذا المسور المتبقى على شكل جدار مكون من فناء مفتوح فيه بركة ميتة يخنقها الغاب عند منتصفها، يضاف إلى ذلك أن ربع مساحة هذا المكان على وجه التقريب عبارة عن حصن مربع الشكل، مازال بحال طيب إلى يومنا هذا.

القسم الجنوبى من الواحة، الذى يصل إجمالى طوله بدءا بقصر أم الرماد فى الشمال، إلى أقصى أجزائه فى الجنوب عند بئر الحفاير، بما يقدر بحوالى ١٢ ميلا على شكل خط مستقيم، هذا القسم تتخلله بيارات النخيل، على الرغم من أن بعض هذه البيارات - مثل بيارة حريقة المملوكة لشخص يدعى ابن جهيم وهو من الجابر - زاهرة ومثمرة مثل أية بيارة من بيارات الشمال، التربة المالحة فى هذا القسم الجنوبى معرضة للهبوط الذى يسميه الناس هنا "الساروت" (والجمع سواريت)، والذى شاهدت له هنا نوعين جيدين. كان قطر كل نوع من هذين النوعين يقدر بأقدام قليلة، ولا يزيد

(١) أسماه الرائد شيزمان "قصر الخِربة"، فى كتابه "المجهول من الجزيرة العربية".

عمق الهبوط عن عمق البرك الضحلة التي تنتشر في سائر أنحاء الواحات، عمقٌ يتردد بين قــدمين أو ثلاثة أقــدام. واقع الأمــر أن هـذه الســواريت، أو إن شـئت فــقل الانخفاضات، بدت لي وكأنها راجعة إلى انهيار السطح الذي يغطيها، بفعل تبخر الماء الموجود تحت هذا الغطاء، مما يؤدي إلى جفاف التربة المشبعة بالملح.

واقع الأمر، أني صادفت على الحافة الغربية للواحة، ثلاث مجموعات عريضة من التلال المالحة الجافة العجيبة، التي يعرفها الناس باسم الجفدارة (الجمع جفادير) والتي تخيلتها في ذلك الوقت على أنها ناتجة عن شيء شبيه بالعملية نفسها التي مازالت تحدث إلى يومنا هذا في عملية تكوين الهبوطات، أو إن شئت فقل: السراويت، خطر ببالي أن هذه الجفادير قد تكون تذكارات لبيارات نخيل قديمة ماتت بفعل الجفاف الذي أصاب البرك التحتية، الأمر الذي جعلها تتحول إلى رماد بفعل مرور قرون طويلة على ذلك الملح. كانت الآنسة كاتون طومسون، قد أبلغتني عندما عـدت إلى إنجلتـرا، عــن اكتشافها المهم لبعض العيون المتحفرة Fossilised في الواحات الموجودة على طول الصحراء الليبية[1]، وسرعان ما عدت بذهني إلى هضاب أو روابي الجفادير التي في جـابرين، ووجـدتني أقـول: نظرا لأهمـيـة هـذه الموضـوع، وعلى أمل أن يقـوم زائر أفضل مني تأهيلاً في هذا الجانب بتحري الأمر ودراسته دراسة دقيقة - إن هذه الهضاب أو الروابي يمكن أن تكون مثالا آخر على ظاهرة التَّحفُّر هذه.

هناك أمر آخر مهم بشأن هذه الهضاب أو الروابي، هو أنه في اثنتين من بين هذه الهضاب الثلاثة، توجد آثار واضحة تماما لمجاري مائية تحت سطح الأرض، وهذه المجاري المائية التحتية من النوع الذي يسمونه الكاريز Kariz، والتي لكل منها فتحة دخول[2]، وهذه الفتحات موجودة على بعد مسافات على طول هذه المجاري المائية،

(١) للمزيد عن هذه العيون المتحفرة، يرجى مراجعة البحث الذي نشرته الآنسة إي و جاردنر E.W Gardner، في المجلة الجيولوجية، المجلد التاسع والستين، العدد ٨١٩ . في شهر سبتمبر من العام ١٩٣٢.

(٢) فتحة يستطيع الرجل أن ينفذ من خلالها إلى مجرور أو بالوعة لتنظيفها أو إصلاحها. (المترجم)

كما هو حال العيون فى أماكن أخرى من الجزيرة العربية، على الرغم من آن هذا الجزء من جابرين، ليس فيه على حد علمي، عيون واضحة تبرر وجود مثل هذه المجارى المائية. ومع ذلك، فإنا أرى أن هذه الشريحة الجرداء الغربية المهجورة من الواحة، ربما كانت مهمة، بل أهم منطقة زراعية، وبالخصوص فى زراعة النخيل، فى الواحة كلها. فى هذه المنطقة توجد أنقاض منزل آخر، يعرفه الناس حاليا باسم قصر سليم بن جابر، هذا المنزل مكون من حصن مساحته ٣٠ قدمًا مربعًا يبرز من الناحية الشمالية الغربية لذلك الحوش، ومستطيل الشكل. جدران هذه الأنقاض ماتزال موجودة فى بعض أجزائها، على الرغم من اندفان البعض منها فى الرمل، إلى ارتفاع يقدر بحوالى عشرة أقدام. وعلى بعد مسافة قصيرة خلف هذا المنزل، وفى اتجاه الجنوب الشرقى، صادفت هضبة منخفضة، رأيت فوق قمتها بعض كتل كبيرة من الأحجار المحلية، التى يوحى شكلها بأنها شبيهة بهياكل الأضرحة القديمة، التى يطلقون عليها اسم الدلمن[١]. بالقرب من هذا الدلمن كان هناك هضبة أخرى أو سلسلة من الصخور ربما تكون قد تكونت بفعل الطبيعة، لكنى كنت أرى أنها شبيهة بحطام أعمال يدوية من صنع البشر.

أعود من جديد إلى القسم الجنوبى من الواحة، وأقول: إنى شاهدت فى حريقة، التى يتخلل الغاب والإبل المسافات التى بين نخيلها، فراشة ملونة[٢]، كما شاهدت أيضًا أنقاض قلعة أخرى، مساحتها حوالى ٢٥ قدمًا مربعًا فقط، وفى منتصفها كتلة من الركام، الذى ربما كان برجا أو غرفة من غرف السكن. رأيت أيضا حطاما ثانيا شبيها بتلك الأنقاض، رأيته بالقرب من أنقاض المنزل سالف الذكر، فوق أرض مرتفعة، فى حين كانت هناك فى اتجاه الجنوب مجموعة من المزارع المهمة كلها كانت فى حالة من التداعى الشديد – تشمل كلا من أم العضوة وأم النوسى، ويوجد فيما بين الاثنين سنام من تحته قناة مائية تمتد تحت سطح التربة. مزرعة أم العضوة هذه

(١) الدلمن . بتشديد الدال وضمها ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ، قوامه حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة. (المترجم)

(٢) لم أر من هذا الفراش الملون سوى ثلاث فراشات، خلال الرحلة التى قمت بها إلى جابرين.

ربما كانت تغطي مساحة تقدر بحوالي نصف ميل مربع، وقد بنيت هذا الحكم على جذوع النخيل المتبقية، وعلى عدد العيون التي ماتت جميعها فيما عدا عين واحدة، هذه المساحة ربما أطبق عليها الرمل المتنقل، الذي تمكنت من فوقه، من القاء نظرة فاحصة على الأرض المحيطة بهذه المنطقة، وبخاصة في المنطقة الواقعة فيما بين قمم الجوامير الصخرية وتل ظهر القنفذ في ضاربون، في السهب الموجود في الناحية اليمني. هناك تلة مهمة أخرى في الناحية الجنوبية الشرقية يراها الرائي من أماكن مختلفة في الواحة، والناس هنا يطلقون على هذه التلة اسم المترب. والأفق الغربي كله تحتله منحدرات الصمان التي يطلق الناس عليها اسم المهادير[1]. هذه المهادير، أو إن شئت فقل منحدرات الصمان، تظهر من بعد كما لوكانت قمة صخرية تتخللها بين الحين والآخر، بعض المناطق المرتفعة، الناس هنا يطلقون على مجموعة من هذه المرتفعات اسم اليوثيثيات، إذ إن العرب يشبهونها بالأحجار التي يضعونها فوق بعضها ليصنعوا منها حاملاً ثلاثيا يستعملونه في الطهي، الأرض المرتفعة تدور حول رُعْن برق السمر لتعزل حوض الجابرين في الجنوب مكونة بذلك الضفة الجنوبية من جوب البدوع. الثنيات القاحلة من هذا البروز تتخللها أشجار السنط[2]، التي تعد بمثابة علف لإبل البدو، في حال عدم وجود المراعي المعتادة، ورأيت من فوق الأرض المرتفعة واديين بارزين ينزلان متجهين نحو منطقة جوبا. الوادي الجنوبي من هذين الواديين هو وادي العفجة، وهو عبارة عن مجرى سيل رملي واسع تنتشر فيه أدغال السواد والشينان. في حوض هذا الوادي توجد أقصى عين من عيون الماء في جنوبي جابرين. والناس هنا يطلقون على هذه العين اسم عين "النفل، التي تغص فتحتها بالنخيل والغاب، وبالقرب من هذه العين توجد أبيار الحفاير عند حافة السهب الذي تنتشر فيه أحجار الصوان. ليست هناك من بين هذه الأبيار كلها سوى بئر واحدة هي التي ما تزال تدب فيها

(١) أسماها الرائد شيزمان أم هادية .

(٢) على الرغم من أن المنطقة تحمل اسم السمر (الذي هو نوع من أشجار السنط)، فإن نباتات السنط في هذا المكان عبارة عن تشكيلة باسم "السلام".

الحياة، ولكن ماءها مالح إلى حد ما، والماء فيها على عمق حوالى قامتين فى تربة من الحجر الرملى الأبيض الشبيه بالطباشير، لكن هذا هو المكان الذى يخيم فيه البدو طلبا لمراعى آفجة الجيدة، عندما يصلون إلى جابرين أو يرحلون عنها. ونحن بدورنا كنا قد خيمنا فى هذا المكان فى الليلة الحادية والعشرين من شهر يناير استعداد لرحيلنا فى صبيحة اليوم التالى إلى الجنوب المجهول، فتشت السهل الذى تنتشر فيه أحجار الصوان بحثا عن أشياء من صنع الإنسان، لكنى لم أوفق إلى شيء منها، على الرغم من وجود منجم من المواد التى كانت فى متناول أيدى القدماء. ويبدو أن القطع الصغيرة التى رأيتها، هى بقايا مكسرة من مجرى الصوان، الذى يمتد فوق الحجر الرملى، الذى شاهدناه فيما بعد فى أحد المهاد على قمة ضربون.

يبدو أن الوادى الشمالى بلا اسم، ويمتد نازلا إلى مجموعة من أربعة أبيار على شكل طبق اتساعه حوالى نصف ميل يسمونه الخروق، ويقع إلى الشمال قليلا من أنقاض قصر ساليم بن جابر، وإلى ناحية الشرق من قصر ساليم بن جابر يوجد خط شهير من العيون المائية – ثلاث منها على شكل خط مستقيم، والمسافة بين كل عين والأخرى تقدر بحوالى مائة خطوة – التى يطلقون عليها اسم القباليات، وهى مملوكة لشخص يدعى هادى بن شادوك. أبيار الخروق، شأنها شأن أبيار الحفاير، عبارة عن منتجع يفضله البدو الذين يزورون جابرين، الذين تجد إبلهم عشبا وفيرا من الشينان الذى ينمو فى الوادى الرملى. يوجد فى أعالى هذا الوادى الرملى مبنيان مهدمان شبيهان بالقلاع تفصل بينهما مسافة تقدر بحوالى ربع ميل، ويطلق على هذين المبنيين اسم قصر على بن دهباش، الذى يمثل أقصى مواقع جابرين القديمة من ناحية الغرب.

السيد الذى سمى باسمه هذين المنزلين، اللذين قمنا بزيارتهما، ينتمى إلى عشيرة الجابر التى هى من قبيلة المرة، التى تتخذ من جابرين مركزا أساسيا لها، عثرنا بين الأنقاض على قطع كثيرة من الفخار والأساور المكسرة، من النوع الذى يكثر وجوده فى قصر أم الرماد، فى حين كانت البئر الحدودية الوحيدة مردومة بفعل الرمال التى تنجرف إلى هذا المكان على شكل موجات كبيرة، تهب على جانبى الوادى، كانت للمنزل

الأول أهمية كبيرة نظرا لأن ترتيب الغرف التى تشغل الجزء الداخلى من المنزل يسهل التعرف عليها، كما يبدو أيضا أن هذا الترتيب كان أدق من الترتيب المعتاد لمثل هذه الأحواش والأفنية. لم يكن لهذين المنزلين أسقف، إضافة إلى أن قسما من الجدار الخارجى المقابل للمدخل كانت فيه ثغرة أو خرق، يصل عرضه إلى بضعة أقدام - علما بأن المبنى كله كان طوله حوالى ٢٥ خطوة وعرضه حوالى عشرين خطوة، كان فى الجدار الشمالى للمنزل صف من الثقوب الشبيهة بثقوب الحمام وعلى ارتفاع يطاول قامة الإنسان - وربما كان ذلك بمثابة سنادة لدعم عوارض من أسقف الغرف السفلى فى حال وجود طابقين - مع وجود فجوتين كبيرتين فى الجدار نفسه، أسفل هذه الثقوب، وقريبتين من مستوى سطح الأرض. شاهدت على الجانبين الشمالى والشرقى آثارا لجدران خمس غرف صغيرة. كانت أربع غرف من بين الخمسة، مساحة كل منها عبارة عن خمسة أقدام مربعة، أما الحجرة الخامسة فكان طولها حوالى خمس عشرة خطوة وعرضها خمس خطوات. البيت أو المنزل الذى من هذا القبيل لا يمكن أن يكون سوى موقع حراسة متقدم، فى حين كانت الأنقاض الأخرى تدل بشكل واضح على هدف مماثل لهذا الهدف. كان المنزل الثانى أكبر قليلا من المنزل الأول، ومكونا من فناء يشغل المسور كله، وحصن مكون من طابقين مقابل للجدار الغربى. الطابق العلوى، الذى يوفر منظرا جميلا للأراضى المحيطة بالمنزل، وجدنا فيه غرفة صغيرة تنتشر فيها بقايا رزق أجيال من البوم، وعظام فقاريات صغيرة، وطيور أخرى، كما عثرنا أيضا على الأغصان التى تبنى منها هذه الطيور أعشاشها، وشاهدنا أيضا زغب وريش صغار هذه الطيور. البوم والسحالى التى تسكن الأماكن التى يأوى إليها البشر، الذين لم يستنكفوا تقاسم حياتهم الرومانسية على حافة الصحراء مع زوجاتهم.

يقع على بعد حوالى ميل تقريبا من أم العضوة، وفى اتجاه الشرق، أهم معلم من معالم جابرين وأكثرها جاذبية، هذا المعلم هو المنزل والمزرعة المخربة التى يسمونها أم النوسى. فى وسط المزرعة، وفيما بين مستنقع كبير شبه جاف تكسوه غابة كثيفة من القصب، وبيارة نخيل مهملة تنمو فيها بعض أشجار الأثل، توجد بركة على شكل عين فى أرض مفتوحة تنتشر فيها نباتات الغاب والأعشاب المهروسة - شاهدنا خارج هذا

المشهد الفوضوى من الترف المتحلل أنقاضا قد لا تكون مترامية أو واسعة مثل الأنقاض التى شاهدناها فى أم الرماد، لكنها كانت أدق من المساكن الأخرى التى رأيناها فى جابرين، وكان فيها أيضا أبراج للمراقبة على بعد مسافات متساوية وتتحكم فى الأسوار بكاملها، وكان من بين هذه الأنقاض أيضا قلعة داخلية تواجه السور الشمالى، فضلا عن وجود ربوة فى منتصف الفناء الكبير، تلك الربوة ربما كانت مسكنا للحريم، فى ضوء ما عثرنا عليه من الأساور المكسرة وحبات الخرز التى عثرنا عليها فى هذا المكان. يوجد هناك فى هذا الفناء بئر لم يعد يتبقى منها شىء سوى موقعها الذى تغطيه وتكسوه الرمال.

مع وجود أم الرماد فى اتجاه الشمال، ووجود قصر ابن دهباش وقصر ساليم بن جابر على الجانب الغربى، ومع وجود أم النوسى فى الجنوب، نرى شبه دائرة من القلاع المطلة على السهب الداخلى، ولا وجود لهذه القلاع فى اتجاه البحر. وربما كان السبب فى ذلك هو أن سكان جابرين القدماء - أيا كانوا - لم يكن لديهم ما يخيفهم من البحر، الذى حصنوا ساحله ضد العدو عن طريق القلاع التى من قبيل قلاع سلوة والضويبان وربما أيضا قلعة ماجان، التى تحدث عنها صالح بن عزيز بإعجاب شديد؛ نظرا لموقعها بالقرب من مصب وادى سحبة .

من هنا، ومثلما حدث فى أواخر الحكم التركى، نجد أن أهل جابرين كانوا يتحوطون دائما من القبائل الكبيرة فى وسط الجزيرة العربية، فى حين أرى أنا - على الرغم من عدم أهمية هذه الفرضية حاليا - أن الجانب الجنوبى المتمثل فى أم النوسى كان بمثابة مكمن الخطر، فيما يعرف حاليا باسم الصحراء الجنوبية الكبرى. خطر ببالى فى ضوء الأسطورة سالفة الذكر أن وبار ربما كانت عاصمة لبلدية أو مملكة جنوبية منافسة، وأن مقينمة كانت موقعها الدفاعى المتقدم فى الناحية الشمالية. لكننا كان يتعين علينا الآن المضى قدما فى ذلك الاتجاه لإثبات عدم صحة هذه النظرية.

نكتفى هنا بما قلنا عن طبوغرافية جابرين، وأنا كما أسلفت لم أصل إلى مخيمنا عبر أم الرماد، إلا بعد دخول الظلام فى اليوم التالى لوصولنا إلى حوض الجوبة. وقد

اندهشت عندما بلغني أن بيننا زائر سبق لي التعرف عليه. هذا الزائر هو جابر بن فصل، أحد أبناء ساليم من عشيرة الجرابة، وأنه جاء إلينا من الجنوب، حيث كان يُؤَمِّنُ مرعى الصيف مع مختلف عناصر الغفران، بعد أن بلغته أخبار طيبة عن سقوط أمطار غزيرة على الأحساء في فصل الخريف. وقد تصادف دخول جابر بن فصل إلى منطقة جوية مع دخولنا إليها، وأنه عثر على آثار أقدام إبل الحمل التابعة لنا في المنطقة المجاورة لأم أثيلة. كانت نظرة الرجل الفاحصة قد دلته على أننا لم نكن مجرد جماعة عادية من الجماعات البدوية، أو زوارا عاديين. لاحظ جابر بن فصل أيضا أن إبلنا كلها كانت من إبل الرمال، كما استخلص الرجل أيضا من أعدادنا، ومن الحقيقة التي مفادها أننا ننتقل بمعدات وأشياء غير عادية، أننا لا بد وأن نكون قوة حكومية متجهة صوب الجنوب لتحقيق هدف أو مهمة محددة. لم يخطر ببال الرجل أي هدف أو مهمة سوى جمع الضرائب أو الحرب، وأنه سبق له أن سمع من سيف بن طنَّاف، شيخ المناهيل، أنه عندما غادر الأحساء قبل أيام قلائل، كان ابن جلوي مشغولا بجمع الأفراد والإشراف على بعض الترتيبات الضرورية اللازمة لهذه المهمة.

كان سيف قد عاد في شهر ديسمبر قادما من حدود حضرموت لهدف محدد هو مسالمة ابن جلوي، الذي سبق أن أساء إليه وأغضبه في فصل الربيع الماضي، عندما ابتعد عن طريق بعثة تحصيل الضرائب بقيادة زايد، الذي سبق أن أوفد لتحصيل الضرائب المستحقة من القبائل المحيطة بشناء. تهدئة شخص قادر على إرسال حملة ثانية لتعويض فشل الحملة الأولى، هي التي جعلت سيف بن طنَّاف يحضر معه، على سبيل الهدية، ناقة من سلالة ممتازة، لكي يقدمها لابن جلوي، لكن حاكم الأحساء، لم يكن لسبب أو آخر، من أولئك الذين يمكن تهدئتهم عن طريق الهدايا أو التملق، ولذلك رفض ابن جلوي قبول الناقة. وعلى الرغم من ذلك بقي سيف في الأحساء على أمل حدوث شيء من التحسن في الموقف، في هذه الفترة بالذات كنت قد وصلت إلى الهفوف وبصحبتي رسائل الملك إلى ابن جلوي، والتي يطلب منه فيها أن يرسل معي مرافقا مناسبا إلى الربع الخالي. وانزعج سيف من تحريات وبحث ابن جلوي عن الأشخاص اللازمين للقيام بمثل هذا العمل، وعليه قفز سيف إلى استنتاج مفاده أن

هناك حملة يجرى تجهيزها لمعاقبة قبيلته على تمردها السابق، ومن هنا رحل الرجل بلا استئذان ليحذِّر الصحراء مما سيحدث لها.

تأكد جابر من صدق كلام سيف عندما شاهد آثار أقدامنا وآثار أقدام الإبل. كان الرجل قادما من منطقة تقع إلى الخلف من شناء، وعلى حد علمى، كان جابر قد التقى سيف فى نيفة أو زقيرط – ولم يكن معه سوى زوجته وولديه، وكانت ماشيته عبارة عن أربعين جملا. وفى ظل هذه الظروف لم يكن لدى الرجل ما يخيفه منا، لكن العربى المترحل يتصرف دوما بحذر وتشكك. وعليه قام الرجل بإخفاء أسرته وممتلكاته فى مكان بعيد آمن، وجاءنا وحده مقتفيا أثرنا ومعه كلبه سلوقية، كى يقف على مزاجنا ونوايانا، وأثناء سيره طاردت الكلبة أرنبًا بريًا وأمسكت به، وشواه الرجل على نار الصحراء وأكله كى يتشجع على لقائنا.

جلس الرجل معنا لتناول العشاء – كان شابا صغير السن يوحى محياه بالصراحة، ويبدو عليه أدب الصحراء الجم – وكان قليل الكلام، وكوَّن الرجل رأيا عنا أثناء تناوله العشاء معنا، وعندما كنا نشرب القهوة تحرر الرجل من حذره بعض الشىء، ورحنا نتحدث عن الصيد واحتمالاته فى الصحراء التى أمامنا. كان الجفاف يعم الأرض كلها. ولم يشاهد الرجل الوعول البيضاء أو الغزال طيلة أسابيع أو أشهر – صحيح أن الأرانب البرية كانت موجودة، لكنها كانت قليلة العدد، ورحبنا بالكلبة، ذلك الحيوان الرشيق، المرتعد، اللطيف والمخلص، الذى بدأ يظهر أمامنا، والذى سيبقى معنا إلى النهاية. شاركتنا الكلبة عشاءنا البسيط، وخرجت فى الظلام مع صاحبها الذى راح يبحث عن مخيمه.

فى عصر اليوم التالى، وأثناء عودتى من جولتنا التفتيشية، وجدت جابر هو وعائلته متجمعين فى خيمة واحدة من أفقر أنواع الخيام، وعلى مرمى حجر من مخيمنا. جاء إلينا جابر تتبعه كلبته – التى اسمها الأقفة – وطفلان واسعا الأعين، وعاريان تمامًا، وشعرهما الطويل أشعث ويميل لونه إلى اللون البنى، جاء وهو يحمل فى يده أرنبا بريا – حصيلة صيده اليومى – وكان يقتاد معه بعيرا صغيرا . تمتم جابر، وهو يقرؤنا السلام، عندما أحضره على الجهمان إلى خيمتى، ورحب به! اسمع

يا رجل، الأقفة جلبت لك أرنبا بريا، أرجو أن تجلب لك الكثير من الأرانب البرية بعد ذلك! لكن اعذرنا نحن أهل الصحراء على هزال كرمنا وضيافتنا - كنا نتمنى أن يكون لدينا الكثير الذى يمكن أن نقدمه لك، لكن ها أنت ترى الحال الذى نحن عليه. وبنظرة توحى بالفهم ألقاها جابر على عليّ الجهمان، خرج الرجل من الخيمة على وجه السرعة متجها صوب البعير الصغير، وقبل أن أفهم طبيعة ما يدور، كان البعير طريحا على جانبه على الأرض يحاول الفكاك من قبضة الخبير. وإن هى إلا لحظة حتى راح دم الحياه يندفع فوق الرمل من فتحة واسعة فى أعلى حلق البعير.

تناولنا العشاء فى فترة متأخرة من الليل، لكن لحم البعير كان طريا وله نكهة طيبة، بعد أن أضفنا إليه لحم الأرنب البرى. وآمل ألا يكونوا قد نسوا فى غمرة الفرح بالوليمة الأسرة الصغيرة الجالسة بعيدا عنا فى خيمة مظلمة. وفى اليوم التالى سمحوا لى بتصوير من فيها وهم جالسون أمامها، لكن الصباح لم يكن صافيا، بحكم الضباب الكثيف، ولذلك لم تكن الصور ناجحة بدرجة كبيرة. كنت قد جهزت مبلغ عشرين دولارا أى ما يعادل جنيهًا إنجليزيًا واحدًا) ووضعتها فى طيات عباءتى، وعندما استأذنت طلبا للانصراف، وضعت المبلغ فى يد الابن الأكبر من الولدين العاريين، وجرى الصبى بالمبلغ إلى أمه، التى راحت تدعو لنا بالخير والبركة. وبذلك نكون قد انفصلنا عن آخر اتصال لنا بعالم البشر، الذين لم نر أحدا منهم طوال الأيام الثلاثة والخمسين التى تلت ذلك، إلى أن خرجنا من الربع الخالى إلى منطقة السليل التى يسكنها البشر.

قلت لجابر ونحن نفارقه: فى أمان الله! لكن لا تنس الصندوق. سلم الصندوق لابن جلوى عندما تصل إلى الأحساء - الصندوق ليس فيه من شىء سوى بعض القواقع، لكن هذه القواقع لها قيمتها عندى. رد على وهو يضحك قائلا: سأسلمه له بمشيئة الله. فى أمان الله!.

ذهبنا لحال سبيلنا - ومعنا الكلبة التى كانت تصطاد له، وأصبحت الآن تصطاد لنا، وذهب هو لحال سبيله ومعه صندوقى الملىء بالأحجار والقواقع والحفريات، وسوف نتيقن جميعًا من حماية الله (سبحانه وتعالى) لنا فى الأيام المقبلة، بعد أن أعطينا ظهرنا لقلعة الرماد، ومضينا قدما فى أرض الجنوب الجرداء الواسعة.

القسم الثانى

الرمل

الفصل الأول

مقينمة

"أرض جوبا هذه كلها ماء،

لكن فيما وراءها يقع الربع الخالى"

هذا هو ما قاله سويد. كانت جابرين خلفنا أثناء سيرنا عبر السهب الذى ينتشر فيه الصوان، ونحن متجهون إلى الجنوب. كان الصباح صحوا، ومنعشا، والسماء عامرة بالسحب الخفيفة، وكنا قد اتخذنا قرارا لا رجعة فيه[١]. هذا يعنى أننا لن ننظر إلى الوراء اعتبارا من الآن، هذا يعنى أيضا أنه لن يكون بيننا وبين العالم من وراءنا نوع من أنواع التواصل. وسعدت بالفكرة التى مفادها أننا دخلنا الربع الخالى فعلا. هذه الفكرة نفسها كان لها تأثير محزن ومثير للاكتئاب عند رفاقى، وسبب ذلك أنهم عندما رأوا جابر متجها إلى الأحساء ازداد حنينهم إلى موطنهم. لكن الأرجح هو أن يعاهم هى التى كانت تعانى وليست قلوبهم. فى اليومين السابقين، وبينما كنت أتجول بصحبة قلة قليلة من أفراد الجماعة، فى سائر أنحاء جابرين، قامت بقية الجماعة، أو بالأحرى السواد الأعظم منها، باستغلال الموقف، وأتوا على محتويات وعاء من أوعية حفظ اللحم، لحم البعير اللذيذ. هذا يعنى أن هؤلاء الأفراد ارتدّوا عن

(١) استخدم المؤلف للتعبير عن هذا المعنى التعبير الإنجليزى Cross the Rubicon، والروبيكون: نهير فى شمال إيطاليا كان يشكل جزءا من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها، وقد اجتازه يوليوس قيصر عام ٤٩ ق.م، مشعلا بذلك نار الحرب الأهلية التى جعلته سيد روما. وأصبح هذا التعبير واحداً من التعبيرات المسكوكة فى اللغة الإنجليزية، ومعناه اتخاذ قرار لا رجعة فيه. (المترجم)

الصوم، الذي استؤنف من جديد مع بداية السير وجر عليهم متاعب اليوم الأول أما فيما يتعلق بي أنا وتلك القلة القليلة التي كانت معي، وحفاظنا جميعًا على صومنا - باستثناء يوم "الضباب" - فقد واصلنا صيامنا إلى اليوم الثالث عشر من الشهر دون شعور بالتعب أو المشقة.

كان مقصدنا هو مقينمة، وكنا نسير عبر سهب، أطلق عليه سالم اسما غامضا هو خشوم الصمان، بعد أن تولى مشعل القيادة من سويد. الاسم "خشوم الصمان" معناه "أنوف الصمان"، وهو اسم على مسمى بحق وحقيقة، لأن السهب كان يمتد على طول خط سيرنا من أرض الصمان المرتفعة الرئيسية، متجها شرقا على شكل شرائح طويلة وعريضة، تفصلها عن بعضها وديان رملية واسعة، هي التي تنقل صرف المنطقة كلها إلى مصبات جوب البدوع، الذي كان يظهر بين الحين والآخر في بعض نقاط الأفضلية التي من قبيل ضريون، التي يظهر الوادي عندها على شكل نهر واسع ومعتم وعامر بالحياة النباتية، ويمتد إلى بضعة أميال داخل الصحراء.

كان سالم قد أوفد لسبب أو آخر، مع قافلة العفش والأمتعة، التي بدأت مسيرها قبلنا بفترة وجيزة، وهنا ثبت أن كلا من علي الجهمان وسويد غير قادرين على تسمية النقاط المهمة التي مررنا بها. وكان لابد من احتجاجي لدى زايد على هذه المعاملة، ومن باب زيادة مغزى احتجاجي بركّت (أنختُ) جملي على ربوة رملية مناسبة، وأعلنت عن انتوائي البقاء في مكاني إلى أن يجرى إحضار مرشد آخر. وسرعان ما أُحضر سالم، وأعطيت له أوامر صارمة بالبقاء إلى جانبي طول الوقت. وعليه استأنفنا مسيرنا، ووجدت في بساطة هذا الرجل وروحه البدائية رفيقا طيبا يشبع فضولي. كان سالم الشخصية الرئيسية في الجماعة على امتداد سنوات عدة، ولديه خبرة كبيرة بالصحراء الموجودة خلفه، لكن أحزان الرجل وآلامه كانت كثيرة، لقد فقد الرجل حدة بصر الشباب، ولم يعد بعد قادر على تحديد موقع الغزال المراوغ في مواطنه الجافة. فضلا عن أنه لم يعد بعد مثلما كان بالنسبة النساء. إي، يا الله! قالها

فالــح العــرقانى الذى ركب مـعنا وراح هو ونفر قليل من أفراد الجماعة يناقشــون هذه الأمور المهمة، قالوا: إنه من النوع الذى نسـميه نحــن تاربيل[١]، وأن عضــوه لا يقف للنهوض بالعمل المطلوب منه. سـألت سـالم قائلا: أهذا صـحيح يا سـالم؟ رد على ردًا جادًا قائلا: جعشة (فالح) يقول كلاما فى الهواء، وعقله فى معدته أو أسفل معدته. ومع ذلك، لست أنا مـثلمـا كنت، لكن الله كريم. كان سـالم أكولا مثل سـائر أفراد الجمـاعة، وكان ذلك هو عزاء سنة الكبيرة.

بعد أن مررنا من خلال الفجوات المنخفضة فى اثنتين من السلاسل الصـخرية التى تشكل جسرا بين متحدرات الصمان ورعن برق السمر المرتفع نسبيا، وصلنا إلى سفح تلال ضربون، وتوقفنا كيما نستكشف قمة ذلك التل سيرا على أقدامنا. ارتفاع هذه السلسلة لا يزيد بحال من الأحوال على مائة قدم، لكن ظهور هذه القمة متميزة عن سطح الأرض من مسافة بعيدة، هو الذى أكد لنا طبيعة الأرض المنخفضة التى تحيط بهذه السلسلة الجبلية، هذه القمة كانت تبرز من وسط السهل بشكل واضح، على شكل قـمـة صـخـرية نـحـاسـيـة اللون ومن الحـجـر الرملى، الذى حـملتـه رياح الصـحـراء إلى الكهوف العميقة التى تحمى الصخور المتساقطة الجزء الأمامى منها. وهنا طارت بومة خـارجة من الكهف، كمـا لو كانت تحتج على تعدى واحد من رجالنا عليهـا، وراح على الجهمان يطارد تلك البومة، على الرغم من فشله فى إطلاق طلقة من بندقيته. كانت تعلو الحجر الرملى طبقة كثيفة من الحجر الجيرى المائل إلى الابيضاض المعلقة على قراميد وقطع مكسرة من الصوان – ومن الواضح أن هذه الطبقة جزء من مجرى أكثر اتساعا وامتدادًا ظلت بقـاياه مـبعثرة فوق هذا الجزء من السـهب. لـم نعثر على أية أدوات من الصوان، على الرغم من أن كثيرًا من الأجزاء الصـغيرة من الصــوان كـان لها حد، مما يدل على استخدام الإنسان الحديث لها فى إشعال النار.

---

(١) أعتقد أن الكلمة مشتقة من كلمة "طوربيد" Torpedo، التى هى كلمة معروفة للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى.

كان المنظر متـرامى الأطراف لكنه كان مملا بشكل يدعو إلى الدهشة والعـجب، فقد تحولت الملامح الطفيفة المميزة للسلسلة الصخرية، هى والتموجات الظاهرة، إلى أرض منبسطة خالية من الملامح والسمات، وبنية اللون، فى حين بدت الدواب التى تحمل أمتعتنا سوداء اللون، كما لو كانت تحبو على بعد مسافة كبيرة منا، وكانت هناك أيضا بعض التلال الصغيرة المعتمة التى تحدد موقع بئر القليبة، التى هى بمثابة المقصد أو الهدف المباشر لنا. وعلى بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الشمال شاهدنا حوض جابرين للمرة الأخيرة، بدا لنا هذا الحوض وكأنه غشاء نباتى، لم نميز فيه سوى سلسلتى جوامير الصخريتين التوأم، هما ونخيل أم النوسى. وأشار سالم فى اتجاه الجنوب الشرقى، إلى صف من التلال المنخفضة التى تحدد موقع مسقى القصاب، آخر مساقى الجوب فى أقصى الشرق، كما تحدد أيضا ساحلا طويلا من الصخور يسمونه غزالة وهو مواجه لبركان .

لم يكن فى هذا المكان ما يعطلنا أو يؤخرنا؛ ولذلك سارعنا بنزول المنحدر من جديد لتركب إبلنا، التى كانت تتمتع بالحياة النباتية المتنوعة فى المناطق الرملية من هذا السهب. هذا الجزء من الصحراء لم يشهد سقوط المطر اعتبارا من شهر أبريل من العام ١٩٣١ الميلادى، لكن نباتات الغاضة بدأت تكتسى ثياب الربيع خضراء اللون، وكانت أعشاب الضمران غزيرة ومتوفرة. قال أبو جعشة – حاضر البديهة – هذا من حسن حظ الإبل، لأن الضمران عند الإبل يشبه النساء عند العرب، الواقع أن النساء هن أحلى ما نملك. هذا الفالح لديه الكثير من الفضائل فى روح أتعبتها الحياة الشاقة التى يحياها أمثال هذا الرجل، وتلك ملاحظة بارزة أدركتها أنا فى تكوين هذا الرجل، كلام هذا الرجل كان يصدر من قلبه. وهو يحب عائلته حبا جما، وكانت هناك ابنة صغيرة اسمها جعشة كانت عنده بمثابة بؤبؤ عينه. ومن يريد استرحامه تعين عليه اللعب على هذا الوتر.

وصلنا عند الظهر، وبعد أن مشينا حوالى اثنى عشر ميلا من الحفائر، إلى بئر قليبة، وهى بئر وحيدة عمقها حوالى عشر قامات، فى منخفض قاحل وسط

المنخفضات الرملية. وشاهدنا ونحن فى طريقنا سطح الصحراء وعليه المسارات المكونة من آثار أقدام الإبل المتجهة إلى مكان الماء، وفى جانب آخر من أجناب الحوض شاهدنا سلسلة عجيبة من التلال الداكنة المكونة من الحجر الجيرى الصلد الذى يميل لونه إلى الزرقة، والذى تحولت نتف منه إلى اللون الأسود، وقد تبعثرت فى سائر أنحاء المنخفض. بئر قليبة هذه جرى حفرها فى تكوين مماثل لهذا التكوين، الأمر الذى يحتم أن يكون عمق هذه البئر كبيرا. هذا المنظر يتعارض تعارضا غريبا مع منظر ذلك السهب الجيرى الممل، والذى يمتد خلاله فى هذه المنطقة واد واضح المعالم، يصل إلى هذه البئر وإلى ما بعدها أيضا.

كان لون السماء مشوبا بالزرقة الناصعة التى تستثير الدهشة والعجب، وتتخللها هنا وهناك حبات السحاب الأبيض، عندما استأنفنا مسيرنا فى سهل الصوان والزلط بتموجاته الخفيفة. وهب علينا نسيم جنوبى عليل راح يداعب وجوهنا، عندما كانت الشمس فى وجوهنا مباشرة، الأمر الذى أصابنا بنوع من الخدر، كان يمكن أن يتسبب فى توقفنا، لولا الظرف السعيد الذى كانت فيه إبل الحمل قد سبقتنا بمسافة كبيرة. فحصنا البئر فحصا دقيقا، وأطبقنا عليها، ولكن فترة العصر كانت متأخرة تماماً، عندما اقتربنا من القسم الرئيسى من جماعتنا ووجدنا أنهم يودون التوقف فى منطقة البئر فى منحدر رملى تغطيه نباتات الغاضة.

قبل ذلك بوقت قصير، كنا قد مررنا على آثار أقدام جمل كان يحمل راكبين، وتحاور خبراؤنا فيما بينهم، فى مسألة زمن مرور ذلك الجمل، الذى ثبت أنه قديم جداً وليس له سوى أهمية علمية أو بحثية فقط. كان الصيادون الذين رافقوا إبل الحمل، قد راحوا يتجولون على جانبى الطريق الصحراوى، وعادوا إلينا بثلاثة أرانب برية، أحدهما صغير أمكن الإمساك به حيا. وربطت ذلك الأرنب الصغير بخيط فى صندوق من صناديقى، لأجد فى الصباح أن الكلبة الأقفة قد تمتعت بوجبة غير متوقعة، ولم تكن فى الحسبان، لكن الآثار المترتبة على الذنب الذى اقترفته الكلبة كانت واضحة وليست بحاجة إلى شاهد عيان. حزنت لهذه الخسارة، ولكنى كنت أمنى نفسى

بالمزيد مع استمرار نجاحنا فى الإمساك بتلك الحيوانات، وبخاصة أننا مازال لدينا جالب الحظ - وجالب الحظ هذا عبارة عن غراب جريح، أمسكنا به حيا فى منطقة غبايه، التى هى عبارة عن مزرعة صغيرة فى واحة جابرين. كان سويد قد راح يستعرض ذلك الغراب أمامنا متفاخرا بأنه من عمل يديه هو. كان سويد قد زرع النخيل في بركة مملوكة لابن عمه، ودار بينهما نقاش بعد ذلك حول حقوق الحصول على المحصول الناتج من هذا النخيل. كان الغراب هو الساكن الوحيد فى هذه الحديقة عندما وصلنا إليها، وكان على الجهمان قد أمسك بذلك الغراب، فى الوقت الذى أطلقت عليه أنا اسم سوييد، الذى هو تصغير لاسم سويد الذى معناه "أسود"، ومن سوء الطالع أن ذلك الغراب لم يعش سوى يوم أو اثنين، ليصبح بعد ذلك عينة، أو نوعا من الأنواع.

جاءت الحياة الحيوانية مخيبة للآمال فى جابرين. وهنا يجب أن أضيف إلى الفراش الملون سابق الذكر مجموعة صغيرة جداً من الفراش، أمسكت بها أثناء الليل، ومعها أيضا مجموعة صغيرة جداً من أفراد الجراد. اندهشت تماما عندما لم أجد دلائل على القطاة[1]، فى هذا المكان الذى يناسب هذه الحيوانات، لكننا لم نشاهد أيا من تلك القطاة إلى أن وصلنا إلى السليل. لم يكن هناك سوى عدد صغير جداً من الطيور وبعض الغربان وأرنب برى أو اثنين، وقلة قليلة من الجرابيع، ولم نشاهد غير ذلك سوى آثار لأقدام الحيوانات. وبعد أن غادرنا جابرين، تزايدت آثار أقدام الحيوانات، وجاء عثورنا على ثلاثة من الأرانب البرية أمرا مثيرا فى هذه الصحراء الجافة - كان الثعلب، والضبع، والحبارى من بين المخلوقات التى خلفت وراءها آثارا تدل على مرورها على هذا المكان، لكننا لم نر أيًا من هذه الطيور أو الحيوانات، وأقرب الأيام التى اقتربنا فيها من تلك الحيوانات كان ذلك اليوم التالى لوصولنا إلى بئر ابن جهيم، التى شاهدنا عندها آثار أقدام ضبع على الرمل. كان

(١) واحده "قطا". (المترجم)

ذلك الضبع قد زار البئر على أمل العثور على شيء من الماء المسكوب على جانب البئر، وعاد الضبع بخفي حنين نظرا لأن فم البئر كان مغلقا.

جاءتنا أحسن مفاجآت ذلك اليوم الأول من عند حميد الذى عثر على بقايا بيضة كاملة من بيوض النعام فى الرمل، اتفقوا جميعا على أن هذه البيضة وضعت وفقست منذ زمن بعيد، نظرا لأن هناك فكرة عامة مفادها أن النعام انقرض فى هذه المناطق من البلاد. قال على الجهمان: أنا لم أر نعامة واحدة من ذلك النعام، أما والدى المسن حاليا، ولكنه قادر على حمل البندقية واستعمالها، فقد سبق له اصطياد النعام من الصحراء، ربما كان ذلك قبل أربعين عاما، أو قبل ذلك بزمن طويل أيضا. وجدنا فى أماكن كثيرة من الصحراء التى أمامنا نتف وأجزاء صغيرة من قشر بيوض النعام التى فقست مؤخراً، كما عثرنا أيضًا على بعض قطع من قشر البيض التى كانت تلمع بفعل الرمل والريح، كل ذلك كان تذكارات يحتمل أن ترجع إلى ما قبل التاريخ، نظرا لأن الدكتور لوى Lowe، وهو من علماء المتحف البريطانى، قد اكتشف بين المجموعة بعض العلامات التى لا تتصل بالنعام العادى، وإنما بسلفه الذى يطلق العلماء عليه اسم[1] Psammornis – وربما يكون ذلك هو طائر الرخ نفسه الذى ورد ذكره فى ساغة[2] الجزيرة العربية! عثرنا على قشرة بيض أخرى، مكسرة لكن كاملة، وسط الصحراء الخالية من الماء، وهذه القشرة سوف تقطع على وجه اليقين، بأن ذلك الطائر الضخم لا يعيش فى هذه الأصقاع النائية من هذه الأرض القاحلة؟ الدليل الذى عثرنا عليه يُفَنِّدُ هذه المصادفة، وأن هذا الجنس من الحيوانات مازال موجوداً فقط فى شمالى الجزيرة العربية، ولا يزال يقاوم الطبيعة هى والإنسان، مقاومةً محفوفة بالمخاطر.

أحدثت الأرانب البرية إضافة طيبة فى قائمة طعام المساء، إذ جرى طهيها لوجبة الإفطار فى شيء من المرق، الذى راح رفاقى يغمسون فيه التمر. لا شيء يضيع من

---

(١) يرجى مراجعة الملحق فى حال طلب المزيد.

(٢) الساغة: هى قصة الجزيرة العربية الزاخرة بالأعمال البطولية. (المترجم)

هذه الطيور أو الحيوانات، بل إن الطعام غير المهضوم يجرى إخراجه من أمعاء الأرنب البرى، قبل أن يلقى بالبقية الباقية من الأمعاء بعد ذلك، فى الإناء مع اللحم. كانت جلود الأرانب بطبيعة الحال يجرى ضمها إلى مجموعتى، لكن رفاقى كانوا يناقشون فيما بينهم شيئًا كان يثير فى داخلى شيئا من الغثيان غير المبرر. وأنا لم ألمس اللحم أو حتى فضلات الذبيحة. قال أحدهم: قد يكون الأرنب البرى محرما - على حد قول بعض القبائل العربية - قال آخر: لا، سوف يترك لنا اللحم لأنه موقن أننا جوعى. لكن سعدان الذى أبلغنى بذلك الحوار، احتفظ بالسر لنفسه، وفى الأسابيع التى تلت ذلك تغلبت على ترفى هذا أمام شدة الجوع.

حالت السحب بينى وبين القيام بأى عمل فلكى فى ذلك المساء، وفى ضوء صيام الناس جميعهم، وفى ضوء عدم وجود مسقى للإبل، بدأنا بداية جيدة بعد الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالى، كان للهواء مذاق هواء أواخر فصل الخريف فى إنجلترا، يزاد على ذلك أن الريح كانت تهب من ناحية الشمال، الأمر الذى زاد من بهجة الحياه. جو الصحراء الخالى من التلوث فيه شيء يجعل الإنسان دائمًا حريصًا على صحته، ربما كان ذلك الشيء هو الأوزون الذى كتب عنه الرحالة جيرهارد روهلفس Gerhard Rohlfs فى السبعينيات: "كان معدل الأوزون فى الصحراء المفتوحة يقدر بحوالى ٧,٣ فى شهرى يناير وفبراير، فى حين كان معدل الأوزون فى الواحات المحيطة يقدر فى ذلك الوقت بحوالى ٤,٩ . الصحراء ليست منفصلة فقط عن الواحات ووادى النيل بثراء الأوزون وغزارته فى الهواء، لكنها تتساوى أيضا (فى فصل الشتاء) مع أشهر محطات الأوزون فى أوروبا ربما كان ذلك، يفسر "سحر الصحراء وجاذبيتها" التى يصعب على من تصيبه الشفاء منها.

سرعان ما انتهت الأرض الرملية فى هذا المكان بأخرى زلطية، وجرى بعد ذلك إرسال إبل الحمل لتمضى قدما فى طريقها، فى حين تحولت مجموعتى لزيارة بئر عوجى[1]، التى وجدناها على بعد مسافة تقدر بخمسة أميال من مخيمنا، وفى

(١) راجع بيرتون Burtron فى كتابه "الليالى العربية"، الذى أشار فيه فى حكاية عبد الله بن فضيل إلى وجود مدينة تدعى عوجى.

وادى من الوديان النازلة من أراضى الصمان المرتفعة. وصلنا فجأة بعد ذلك إلى حوض وسخ من الجبس، يصل عرضه إلى حوالى نصف ميل تقريبا، ذكرنى بحفاير جابرين وكان يشبه إلى حد كبير البقايا اللامعة من واحدة من المستوطنات القديمة، على الرغم من عدم عثورنا على بقايا أو أنقاض للمبانى الحقيقية. هذا الانطباع جرى تدعيمه، باكتشاف الكثير من التذكارات البشرية، الشبيهة بتلك التذكارات التى جرى العثور عليها فى جابرين - بقايا أوانى فخارية منزلية، وأساور وقطع من الصوان الغشيم التى تستخدم فى إشعال النار. ربما جاء أمراء جابرين إلى هذا المكان بصحبة عوائلهم للتمتع بصيد وفير فى تلك الأيام، وربما يكونون قد نصبوا خيامهم حول البئر الوحيدة هنا والمدفونة حاليا تحت الرمال. لم يسمع سالم استعمال البدو واستغلالهم لتلك البئر طوال سنوات عدة، لكنه شخصيا خيم عند هذه البئر منذ زمن مضى، على حد علمه، أو بقدر ما تسعفه به الذاكرة، وهو يذكر أن الماء كان يمكن الحصول عليه من تلك البئر على عمق يتردد بين ١٥ و ١٦ قامة. يزاد على ذلك أن ماء البئر كان متقطعًا ويعتمد على الأمطار الموسمية، فضلا عن أن البدو المحدثين ليست لديهم الطاقة التى تمكنهم من الحفر إلى مثل هذه الأعماق، معتمدين فى ذلك على المصادفة. هذا يعنى أن الجفاف الذى أصاب المنطقة مؤخرا قلل من حماسهم وأحبط تفاؤلهم.

كان هناك سهل شاسع غير واضح المعالم وممل يحيط بتلك الدائرة الجبسية، وينتهى ذلك السهل برقعة طينية من المنخفضات الرملية التى يكسوها غطاء كثيف من نباتات الغاضة، التى استطاع على الجهمان أن يصطاد منها أرنبا بريا. استرعى انتباهى لون الأرنب الكستنائى الفاتح، وجعلنى أحسبه نوعا مختلفا عن الأنواع الأخرى التى جمعتها بالفعل، وأصررت على نقل الأرنب البرى فى دلو من دلاء الماء تحاشيا لتعليقه بالطريقة العادية من قدميه الخلفيتين، بحيث يتدلى رأسه نحو الأسفل. ومن سوء الطالع أن قلقى المفرط هو الذى أتلف هذا النوع، الذى وجدته بعد أن وصلنا إلى المخيم غارقا فى بركة من الدم، الأمر الذى جعل مسألة الاحتفاظ بالجلد أمرا لا لزوم له.

انتهت الرمال بسهل شاسع من الحصى فيه بعض من الأشجار الخفيفة شديدة الجفاف. وشاهدت فيه مدقات الإبل المؤدية إلى المسقى، فى حين شاهدنا عن بعد على الجانب الأيمن خطا طويلا من الكثبان الرملية البرتقالية العالية - وهذه الكثبان تمثل مطلع الرمال الشاسعة فى الصحراء الكبرى! فى حوالى منتصف فترة العصر وصلنا إلى رمال الصحراء السحيقة أو بالأحرى إلى سهل رملى متموج ثابت يبرز من تلك الرمال ومتجها صوب الصمان، ومن هذا السهل واصلنا مسيرنا إلى مقينمة نفسها، تارة فى هذا الجانب وتارة أخرى فى ذاك الجانب، من الحدود المتعرجة فيما بين الرمال والسهب. كنا نمر هنا وهناك بمناطق الجبس المكشوفة الأمر الذى كان يوحى لنا بأن أرض الصحراء - التى كانت بلا أدنى شك حوضا أو مجرى لبحر من البحار - قريبة أسفل سطح هذه الرمال. صوب صالح طلقة إلى أحد الغربان، ولم يصبه، فى حين كان حظى أوفر فى صيد بعض الخنافس زاهية الألوان التى كانت تنتقل بين الأدغال أو تحط وتستقر عليها. وعند قاعدة دغل من تلك الأدغال لاحظت تدفق سائل قرمزى اللون. قال صالح: هذا ماء، ماء الندى المتخلف عن غسيل لحاء أشجار الدغل. وقد بدا لى ذلك السائل على أنه مادة قلفونية شبيهة بالمادة، على حد قول الدكتور يهودا، التى سمَّاها بنو إسرائيل المن[1] أثناء خروجهم من مصر لأنهم لم يكونوا يعرفون لها اسماً. ونحن بدورنا نسمى هذه المادة منا، أما صالح فيطلق عليها "معن"، بمعنى "الماء".

إلى هنا نكون قد قمنا بعمل مرض طوال اليوم، وتركزت الأفكار كلها فى فكرة التخييم إلى أن صادفنا فجأة أربعة أو خمسة مناطق من الجبس المكشوف، كانت فى وسطها البئر التى يسمونها بئر ابن جهيم. وكل ما شاهدته فى هذه المنطقة كان عبارة عن وتد أو خازوق من الخشب يبرز من الطبق الرملى الضحل. لكن ما أن نزلنا من فوق دوابنا، وبدأ الطباخون عملهم قبيل غروب الشمس، حتى راح على هو وآخرون

---

(١) يفسر الدكتور يهودا هذه الكلمة على أنها كلمة مصرية تعنى "لا نعرف"، والتى درج استعمالها فى كلام العبرانيين.

يعرفونني بالعادات التي تشيع في مناطق الرمال الكبيرة. عرفوني أن البئر التي شاهدتها لم تكن مدفونة، وإنما هي محمية بغطاء من أغصان الشجر والجلود التي جرى وضعها فوق فتحة البئر. كان سمك الرمال كبيرا فوق الغطاء مما يوضح لنا ذلك الذي كان يمكن أن يحدث لتلك البئر لو تركها الناس لحال سبيلها. كان عمق تلك البئر حسب قياسي لها، يقدر بحوالي ثمانين قدما - أي ما يعادل ١٦ أو ١٧ قامة طبقا لقياس العرب. ومن باب الفضول قمت بقياس المسافة بين أطراف أصابع ذراعي أبي جعشة المفرودتين، باعتبار ذلك مقياسا أساسيا في جماعتنا. ووجدت أن هذه المسافة على وجه الدقة حوالي خمسة أقدام وست بوصات، ومن هنا عرفت أن القامة العربية[١] يمكن اعتبارها مساوية لخمسة أقدام على وجه التقريب. والذي أدهشتني تماما أن الإبل، التي توجهت للرعي، قصدت البئر وتجمعت حولها وراحت تصطبر على الرجال وهم يرفعون الغطاء عن البئر. وعندما بدأ الدلو يتحرك نازلا إلى الأسفل وصاعدا إلى الأعلى لكي يصب الماء في الطبق المعدني الذي كنا نستخدمه طبقا في تقديم العشاء، راحت الإبل تتزاحم على الماء، وتعبه عبا على الرغم من أننا كنا قد سقيناها حتى الشبع، قبل ست وثلاثين ساعة من منطقة الحفاير. هذا العطش المدهش ناتج عن ملوحة الأعشاب المرة التي رعتها هذه الإبل على الطريق، وقد علقت على هذه الظاهرة بما يوحي بأن المسيرات الطويلة التي تنتظرنا على طرق خالية من الماء ستولد لنا بعض المتاعب مع الإبل أثناء سيرها على الطريق. رد عليٌّ على الجهمان قائلاً: إلى أن تصل الإبل إلى الآبال وإلى حصن الرمال - سوف يتحسن الحال هناك وسوف تمشي الإبل أياما طوال دونما حاجة للماء، لكن المعروف أن هذا العشب المر يجعل الإبل تحس بالعطش.

كان رفاقي يريدون التوقف قبل البئر بمسافة قصيرة، وكان الجميع يتمتمون أمام إصراري على التخييم بجوار البئر مباشرة، وكان سبب إصراري يتمثل في القيام

(١) القامة أو الباع، كانت قامة حميد حوالي ستة أقدام، وقامة عبد الرحمن حوالي خمسة أقدام وثماني بوصات ونصف البوصة.

بملاحظاتى الفلكية من المكان المناسب. وأنا أقر وأعترف أن المـرعى بالقرب من البئر لم يكن بجودة المرعى قبل البئر بمسافة معقولة، لكن الإبل كانت تقطف الضمران[1]، طوال اليوم، أثناء سيرها، فى حين سيكون مسيرنا إلى مقينمة فى صباح الغد مسيرا طيبا، وبذلك يمكن لنا فى اليوم التالى التوقف، نظرا لأنى سأكون بحاجة إلى المزيد من الوقت للتوقف كى أدرس جيولوجيا المكان وأثرياته. وبذلك يمكن لنا أن نجنى هنا ما خسرناه هناك. لكن رفاقى كانوا غضبانين ومتذمرين؛ نظرا لأن مسألة الصوم والسير ستطولان معهم.

تقع البئر فى جزء قصير من الوادى، يكاد يستره تماماً مرفق من الرمال العظيمة يكاد ينغرز فى جنب رمال الصمان القريبة منه. فى صبيحة اليوم التالى انهالت الرمال نازلة حول كتف من أكتاف السهب التى تتخللها هضاب وسلاسل من الحجر الرملى الطباشيرى، الذى ينساب على هذه الهضاب من الأراضى المرتفعة. بدأنا سيرنا عبر ذلك الكتف قبل الساعة الثامنة صباحاً إلى أن وصلنا إلى تل عند الحافة الجنوبية لذلك الكتف، ومن فوق هذا التل ألقينا نظرة على سهل من الحصى شبيه بالأسفين، فيه الرمال على الجانب الأيسر والأرض الصخرية على الجانب الأيمن وتكاد تتصل عن بعد، بقمة عالية يدخل عندها الرمل مع السهب فى صراع على السيادة فى المنطقة المحيطة ببئر مقينمة ذاتها. كان الممر الزلطى أطول من شكله الظاهرى، وكان عامرا أيضا بمدقات (طرق) الإبل المؤدية إلى البئر، لكنه فيما عدا ذلك كان شبيها تماما من حيث الطابع بالبقع والأماكن الزلطية التى فى الجافورة والأماكن الأخرى. وسرح منى خيالى ليذهب بعيدا عنى، عندما اقتربنا من الهدف الذى أبتغيه أو أبحث عنه، وبدأت أعصاب رفاقى تهتز لمنظر بعض الأدغال والنباتات التى كانت تتراقص عن بعد بفعل السراب – بدا ذلك المنظر وكأن بعض الرجال يتجهون نحونا وهم ركوب فوق دوابهم. بدأ السهل الزلطى يضيق إلى ما يشبه الخصر الزنبورى، أو إن شئت فقد: الخصر

(١) هذه الأعشاب تعرف كلها باسم الحموض، وتشمل كلا من الغاضة والضمران، والعراض، والشينان والسواد .

الرقيق جداً، ويبدأ السهل في الانتفاخ والبروز من جديد بعد ذلك الضيق، على شكل شريط بيضوى من الزلط والرمل، مع وجود كثبان رملية عل هذا الجانب وذاك الجانب، كانت الكثبان الرملية التى على الجانب الأيمن هى والكثبان الأمامية تمس مساً دقيقاً، وتدفن إلى حد ما الحد الخارجي لهضبة الصمان. داخل هذه الحلقة كانت هناك سلسلة صخرية خفيفة ترتفع إلى ما يتراوح بين ١٠ أو ٢٠ قدما من داخل السهل، ولها قمة مسطحة. راح كل من على الجهمان وصالح يعدوان من جانبى متجهين إلى الأمام، ونزلا من فوق جمليهما عند سفح من الركام والحجارة. لقد وصلنا إلى مقينمة!

لكن ما هذا الذى ذهبنا لرؤيته؟ أهى بئر مدفونة فى الرمل! أهى بئر، بئر بحق وحقيقة! مر كل ذلك على بالى، وأنا أتذكر ألغاز الأطفال. منذ ثمانى سنوات وبالى مشغول باسم ومشكلة. وهل هذا الذى أراه هو الذى كان يشدنى ويشغل بالى؟ قال على الجهمان: انتبه، لقد وصلنا إلى مقينمة، قال على كلامه هذا كما لو كان يتوقع منى مكافأة عاجلة. تساءلت: أهذه هى مقينمة كلها؟ رد على على قائلا: لا شىء غير هذا الذى تراه بعينيك. كان الرمل من حول مقينمة هو وحبيبات الرمل الخشنة مختلطا بأجيال لا تحصى ولا تعد من روث الإبل وفشلها، مكوناً بذلك طبقة عليا من الأرض الخالية من الأعشاب والحشائش، بل وخالية تماما من الحياة النباتية اللهم باستثناء قلة قليلة من نباتات الشينان. وهنا وجدنا الرمال الجرداء والسهب القاحل يحيطان بنا، واتضح أننا سوف نخيم فى أرض قاحلة جرداء عامرة بنوى البلح الذى ينتشر فى كل مكان بدءا من جابرين، هذا النوى يشكل فضلات وبقايا الوجبات البدوية.

واقع الأمر أن رفاقى لم يتحدثوا عن مقينمة إلا لماما، ولم يكونوا مسئولين مطلقا عن تبديد أحلامى ورؤاى الواهمة. قبل ثمانية أيام لم يكن بئر مقينمة معروفاً خارج نطاق قبيلة المرة. كان الرائد شيزمان Cheesman قد عاد إلينا فى إثر الرحلة التى قام بها إلى جابرين بشائعة وجود تلك البئر، وأنا بدورى كنت متشككاً فى الاسم نفسه، الذى بدا غريباً على الجزيرة العربية، ولكنى لم أكن مخطئا فقط فيما ذهبت إليه،

وأن الاسم أو الكلمة التى استعملها الرائد شيزمان[1] كانت صحيحة، وإنما كنت قد اكتشفت أيضا بئرا أخرى تحمل الاسم نفسه فى منطقة الصمان فى الشمال الشرقى من الأحساء. ومع ذلك، بنى الرائد شيزمان أسطورة حول ذلك المسقى العجيب فى الصحراء الكبرى، لكن هذه الأسطورة بلغت من الإتقان حداً يصعب معه تصديقها، ولذلك علقت آمالا كبيرة على مسألة سبر أغوار تلك الأسطورة. كان الرائد شيزمان قد عثر بالقرب من بئر جافة (الأرجح أن تكون بئر أم الرماد نفسها) على قطعة من الجرانيت، وكان قد عرف من صالح وجود بئر مقينمة على بعد مسير "ستة أيام من جنوبى جابرين"، هى "وبعض الأبيار العميقة" زارتها قبيلة المرة فى السنوات التى يندر فيها المطر. يقال إن الذين حفروا تلك الأبيار هم بنو هلال، أما فيما يتعلق بقطعة الجرانيت فقد وجد شبها كبيرا بينها وبين جرانيت أسوان. وبذلك أمكن الربط بين النوعين من الجرانيت عن طريق الموروث السومرى، الأمر الذى جعل شيزمان يستعمل الاسم ماجان فى تفسير مقينمة (أو "مجينمة" بالطريقة التى دون بها هذا الاسم). يضاف إلى ذلك أن ماجان كانت مصدرا للديوريت[2] الذى استخدمه السومريون فى صناعة تماثيلهم - وهذا سبب كاف لإقناع الأفهام بأن ماجان كانت تنتج الجرانيت أيضا، والذى تنتمى إليه القطعة التى عثر عليها الرائد شيزمان، وأن هذه القطعة ربما تكون قد انكسرت من كتلة كبيرة أثناء عملية النقل عن طريق جابرين إلى لجاش عاصمة جوديا. نقطة الضعف فى سلسلة التفسير هذه تتمثل فى حقيقة أن الاسم ماجان (أو بالأحرى ماجانا حسبما دونها شيزمان فى ضوء اسمها الحقيقى - وهو الأقرب إلى الاسم الغريب "مجينمة") جرى تفسيره على أنه يعنى "المكان الذى تقصده القوارب". وقد أدى ذلك إلى زعزعة ثقة الرائد شيزمان فى تحديد موقع هذه البئر على أنه مكان بعيد فى وسط الصحراء، لكن كلاً

---

(١) راجع كتاب "المجهول من الجزيرة العربية" صفحة ٢٠٦- ٢٠٧- ٢٩٧- ٣٠٨ - ٣٤٢ - ٣٤٥ .

(٢) الديوريت: صخر بركانى متبلر. (المترجم)

من الرائد شيزمان والسيد برترام توماس لم يفهما طبيعة مصب جابرين ومصب جيبان، وأنا الوحيد الذى اكتشف أن مقينمة نفسها، فى زمن أو آخر، لابد وأن تكون على البحر أو قريبة منه جداً.

تلك باختصار كانت المشكلة كما عرضها الرائد شيزمان كيما يجرى تحريها ودراستها فى المستقبل. تبقى لى الكشف عن الأنقاض والمحاجر فى ماجان القديمة، وها أنا أقف حاليا فى البقعة نفسها التى أتطلع إلى وجود هذه الأنقاض والمحاجر فيها. فى طريقى إلى هناك، كنت قد اكتشفت للمرة الثانية، الاكتشاف المهم الذى مفاده أن هناك فى مكان ما بالقرب من ساحل البحر، وعند مصب وادى سحبة، توجد منطقة اسمها ماجان (واسمها بالكامل ماجانو، وتنطق ماجان أو مايان، وتظهر فى خريطة الرائد شيزمان تحت اسم ميجان)، وهى المنطقة التى أبلغ كل من صالح وحميد عن وجود أنقاض كبيرة مترامية الأطراف. وقد ألمح الرائد شيزمان أن هذا الاسم نفسه ربما يكون القدماء قد استخدموه ليدل على كل من الميناء من ناحية والعاصمة الداخلية التى اعتمد عليها ذلك الميناء. ومع ذلك، لم يربط الرائد شيزمان بين ميجان ومقينمة، وهذا هو ما كنا نتوقعه منه، ولكن نظرية الرائد شيزمان صمدت أمام الضوء الجديد الذى ألقيته على المشكلة، فى الوقت الذى تصورت فيه وجود ذراع بحرية أو إن شئت فقل: مصب يربط بين المكانين، أو إن شئت فقل: بين ميجان ومقينمة.

الاكتشاف الثانى الذى قمت به أنا أثناء مسيرنا فى الجافورة وجابرين، ونحن فى طريقنا إلى هذه النقطة، كان أكثر إرباكا، ذلك أن قطع الجرانيت كانت نادرة بكل المعايير. كانت البقع والمناطق الزلطية التى لقيناها فى كثير من الأحيان، عامرة بقطع الجرانيت، سواء أكانت متآكلة أم مصقولة بفعل الريح أو الماء، ولا يمكن للخيال أيا كان أن يسلم بالفرضية التى مفادها أن تلك القطع إنما تخلقت أو تجمعت عن طريق الكسر، أثناء نقل قطع الجرانيت من المحاجر إلى أماكن الاستعمال. وسواء أكان وجود قطع الجرانيت هذه ناتجاً عن عمل الأنهار أو الفيضانات التى اجتاحت الجزيرة العربية،

أو عن طريق التخلص بطريقة التعرية، من طبقة تحتية مكونة من أشياء مختلفة على حد قول السيد وكامبل[1] W Kampel Smith سميث ، أحد علماء المتحف البريطاني - وهذان الخياران يصلان إلى الشيء نفسه - فقد كنت واعيا بالفعل بالحقيقة التي مفادها أن القسم الأكبر من غربي الجزيرة العربية، إنما يمثل كتلة من الجرانيت والصخور النارية، التي ينبغي أن تكون المصدر الذي جاءت منه القطع الجرانيتية التي يدور حولها الحديث هنا.

من هنا تكون قطعة الجرانيت التي جاء بها الرائد شيزمان قد فقدت قيمتها ومغزاها، ومع ذلك ليس هناك من الأسباب ما يدعونا إلى القول: إن مقينمة خالية من محاجر الجرانيت أو الديوريت، هذا إذا ما كانت هذه البقعة من الأرض مساوية تماماً، لما كان يسمى ماجانا في الزمن القديم. وعليه، لقد أحبطت آمالي عندما لم أر للوهلة الأولى شيئا يوحي بوجود أي مصدر من مصادر الصخور التي تسترعي انتباه المثّالين والنحاتين، وعلى الرغم من أني لم تزعجني منذ البداية أية فكرة معاكسة لهذه الفكرة، فقد أمضيت الفترة التي بقيناها إلى جوار البئر في الطواف في أراضي الصمان المرتفعة إلى أميال عدة عمقا وعرضا بحثا عن التنوير والاستثارة. الصمان في المنطقة المجاورة لنا هنا، وفي نقاط أخرى كثيرة من مناطق ترحالي في اتجاه الشمال، عبارة عن تكوين من الحجر الجيري الرملي الذي يميل لونه إلى الابيضاض من فوق طبقة من الحجر الرملي، وعليه يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة احتمال احتواء هذا التكوين على أي شيء له طبيعة الجرانيت.

في واحد من منخفضات الضمان العامرة بالشجيرات والجنبات، وببعد مسافة قصيرة عن مدقات (طرق) الإبل الواسعة - ويعد بلا أدنى شك جزءا من طريق القوافل بين مقينمة ومنطقة الأفلاج، ويعد أيضا جزءا من المسارات التي تسلكها الإبل إلى المسقى، أثناء رعي الإبل - اكتشفت رأس سهم جميلة مصنوعة من البرونز خاصة

---

(١) راجع كتاب "المجهول من الجزيرة العربية" صفحة ٤٣٢ - ٤٢٤ .

بالإنسـان القديم. لكنى لم أر بعد ذلك من أى نوع كـان، أو فى أى مكان، من الأعـمـال البدوية القديمة - لم أر حتى كسراً فخارية أو أساور من النوع الذى شاهدته فى كل من جابرين وعوج - التى تعيد الفرضية التى مفادها: أن مقينمة ربما كانت من قبل موقعا لبلدة أو مدينة أو حتى قرية قديمة. وهنا وصلت إلى نتيجة مفادها: أن مقينمة يستحيل أن تكون شيئا غير التى هى عليه الآن - مجرد بئر صحراوية.

عمـق البـئر الكبير - من فتحة البئر إلى مستوى الماء لا يقل بحال من الأحوال عن ١٧١ قدما (أى حوالى ٣٣ قامة بالمقياس المحلى) - استبعد فكرة أن تكون البئر من عـمل البدو المحـدثين أو البـدو منذ وقت قـريب. من الواضح أن هذه البـئر جـرى حـفرها بواسطة أناس من حضـارة أكثر تقدما. يزاد على ذلك أن رأس السـهم التى جرى قذفها بواسطة أحد الأقواس على غزالة من الغزلان، توضح أن الإنسان القديم كـان يرتاد هــذه الأمــاكن. هــذا فضـــلا عن أن طرق القوافل المؤدية إلى الأفـلاج كــانت هــى الأخرى جزءا من طريق قديم كان متصـلا فى ذات الوقت ببئر فضـيل الموجـــودة فى النـــاحية الشـرقيـة، الأمر الذى جعلنى أتصور وجود طريق تجارى قديم يمتد من الشرق إلى الغرب، مـارا بجـرها أو مـاجـان على الخليج الفـارسى إلى السوق المهمة فى مكة.

بذلك أكون قد أرضيت نفسى عندما وضعت مشكلة مقينمة فيما يشبه الإطار المحدد. كان صالح قد أبلغ الرائد شيزمان أن كمية الماء هنا متقطعة وتعتمد على الأمطار الموسمية، لكن هذا الكلام غير صحيح. ماء هذه البئر الوحيدة - إذ لا يوجد سوى بئر واحدة وليس أبياراً عدة - لا ينضب، كما أن تخييم البـدو حـول هــذه البئر لا على الماء نفسه، وإنما على حالة المراعى المجاورة لتلك البـئر، وسبب ذلك أن البدو الرحل لا يتجمعون إلا حول المراعى، وهم لا يعولون كثيرا عــلى مسـألة وجـود المـاء أو عدم وجوده،، ذلك أن العرب فى حال وجود المرعى الوفير الغزير، يستطيعون هم وإبلهم الاستغناء عن الماء شهورا. ومع ذلك، عانت منطقة مقينمة، أو بالأحرى المنطقة المحيطة

بها، من الجفاف المستمر، واقتصر استعمال البئر على الـزائـرين المتنقلين أمثالنا، أو جماعات الغزو، أو البدو الذين يتنقلون مع عائلاتهم وإبلهم فيما بين المراعى الجنوبية والمراعى الشمالية. اتفق رفاقى كلهم مع راوى الرائد شيزمان على نقطة واحدة. ماء بئر مقينمة، شأنه شأن ماء بئر الفضيل، يعد ماء ممتازا وصالحًا مثل أى ماء آخر فى الصحراء - الماء حلو المذاق ومفيد لأمعاء البشر، وذلك على النقيض تماما من ماء الرمال الجنوبية الكريه غير المستساغ. أنا لم أتذوق ذلك الماء إلا فى الشاى، والقهوة والطعام المطبوخ، لكن ذيوع صيت ماء بئر مقينمة هو الذى دفعنى إلى إحضار عينة منه لتحليلها.

بعد أن وصلنا إلى المخيم واستقر حالنا، عاد رفاقى إلى فتحة البئر وراحوا يعملون فيها بأقصى سرعة، إلى أن استطاعوا بعد حوالى ١٥ أو ٢٠ دقيقة رفع طبقة الرمل الأولى، ومن بعدها الغطاء[1] المكون من جلود الحيوانات، ومعه العوارض، التى تستخدم، كما هو الحال فى بير بن جهيم والأبيار الأخرى، لحماية البئر من الاختناق. وهنا جرى ربط الدلو المثبت في حبل، والذى يحمله دوما البدو الرحل والمسافرون تحسبا للآبار العميقة، إلى واحد من الإبل، وإنزال الدلو بعد ذلك إلى الماء. وبشىء من الخبرة القليلة امتلأ الدلو، وركب أحد الرجال الجمل وراح ينزل به من فوق تلة البئر، ويسحب الدلو فوق بكرة مثبتة على كتيفة من الخشب. وبعد أن وصل الماء إلى السطح جرى صبه فى طبق كبير لكى تشرب منه الإبل المنتظرة. وجرى بعد ذلك ملء قراب الماء، واستمرت عملية جلب الماء والشرب طوال الساعات الثمانى والأربعين التى أمضيناها فى هذا المكان، وبعد ذلك جرى إعادة غطاء البئر إلى ما كان عليه من قبل، قدر المستطاع، حفاظًا على البئر من الأضرار، كى يستخدمها من يجيئون بعدنا. جماعة الغزو المعادى قد تترك الأبيار التى من هذا القبيل مفتوحة نكاية فى القبيلة التى يجرى غزوها، أو تملأ البئر بالرمال، أصحاب الأبيار (مثل حمد ابن نوتان من فخذ المقلن من قبيلة الجابر، قد يفعلون الشىء نفسه لحرمان العدو

(١) الأبيار التى تجرى تغطيتها بهذه الطريقة يسمونها "المطبق" Mutabbaq.

من مـاء البئـر. وفيـمـا عـدا ذلك فـإن قـواعـد الصـحـراء وقـوانينهـا تـحـتـم إعـادة الغطـاء والشيء إلى أصله.

وتجنبا لأخذ العينة من ماء راكد عند سطح الماء، أخرت أخذ العينة إلى صباح اليوم الذى رحلنا فيه عن البئر. كان ماء البئر يجرى تحريكه بصورة مستمرة بفعل جلب الماء بصورة مستمرة من البئر للوفاء باحتياجاتنا، بما فى ذلك الاستحمام، على الرغم من أنى شخصيا لم استحم من ماء هذه البئر. جرى إنزال الدلو فى البئر، إلى أن امتلأ بالماء ثم جرى رفعه بعد ذلك إلى السطح. وصل الماء إلى السطح فاترا تماما، لكن من سوء الطالع أنى لم أقس درجة حرارة الماء، وملأت زجاجة (قارورة) بذلك الماء. وأحكمت إغلاق الفلينه بالشمع، وألصقت عليها بطاقة المعلومات، وبذلك أكون قد حصلت على عينة نقية قدر المستطاع من ماء مقينمة العذب الممتاز.

وجرى تحليل ذلك الماء فى معامل أبحاث الشركة البريطانية - الفارسية المحدودة للزيت، فى مدينة سانبرى وجاء التقرير الرسمى عن تحليل هذه العينة من الماء على النحو التالى:

"العينة المسماة المقينمة"

هذه العينة ملوثة تلوثًا كبيرا بمياه المجارى والصرف الصحى.

سلفات الأيدروجين، عشرة أجزاء فى كل ١٠٠٠٠٠ .

النشادر، الحرة والمالحة: أربعة عشر جزءا فى ١٠٠٠٠٠ .

النشادر، شبه الزلالية: خمسة أجزاء فى ١٠٠٠٠٠ .

إجمالى المواد الصلبة (بعد التجفيف عند درجة الاحمرار) عشرة أجزاء فى ١٠٠٠٠٠ .

وأنكلين لا يقر شرب الماء الذى يحتوى على أكثر من ٠,٠٠٨٢ جزء من النشادر شبه الزلالية، فى كل ١٠٠٠٠٠ .

علق صديقى الدكتور جى. إم. ليز Lees على هذا التقرير المهم قائلاً: "وجود النشادر شبه الزلالية، والنوشادر الحر، وكذلك النشادر المالحة يبين ويدل على اختلاط الماء ببول الإبل بلا أدنى شك. هل تأكدت من نظافة العينة وأنها مأخوذة من البئر وليست من غدير من غدران الشرب أو أى وسيط آخر بين البئر والقارورة؟" وسبق أن أشرت إلى الاحتياطات اللازمة التى اتخذتها عند أخذ العينة من ذلك الماء الذى يعدونه ممتازا. والمدهش أن نعرف أن نسبة النشادر شبه الزلالية فى ماء مقينمة تزيد حوالى ٦٠٠ مرة عن النسبة المسموح بها فى ماء الشرب. من هنا يتضح الصراع القائم بين العلم الأوروبى والممارسة السارية فى الجزيرة العربية، لكن هذا هو واقع الحال! ونحن لا ننتظر من الغرب الترحيب بفضائل بول الإبل الذى تسرب إلى ذلك الماء من خلال صخور الحجر الرملى. شهدت وقفة مقينمة ارتدادا كبيرا عن قيود الصيام، وتصادف ذلك الارتداد مع اكتشاف مهم مفاده أن واحداً من الإبل كان قد أشرف على نهاية حياته العملية. ترى؟ ماذا حدث لذلك الجمل؟ هذا ما لم أستطع معرفته قط، لكن أفراد الجماعة كانوا يطلبون موافقتى على ذبح الجمل. ورددت عليهم، إن الذى يقرر ذلك هو الأمير. يزاد على ذلك أن زايد كان مهموما بعملية الصوم. وعليه جرى تبريك الجمل وذبحه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير، وكان ذلك أول حادث يقع لنا أثناء الرحلة. ذبح الجمل يعنى توفر اللحم فى المخيم طوال أيام عدة، إذ جرى تقديد وتمليح اللحم المتبقى بواسطة زايد الطاهى، الذى كان يطبخ لنا كل يوم جزءا من هذا اللحم إلى أن جرى وضع ما تبقى من لحم الجمل فى بطون البشر على امتداد الأسابيع الثلاثة التى تلت ذلك. وانتهزنا فرصة وقوفنا يوما كاملا فى مقينمة وأرسلنا الإبل إلى مراعي الصمان تحت حراسة مصغرة، جرى تعزيزها بإضافة جماعتى الصغيرة إليها، عندما ركبت دابتى ورحت أستكشف الأرض الواقعة على جانبى طريق الأفلاج. وبقى أولئك الذين لم يكونوا صائمين للقيام على أمور المخيم. كانت أرض المنطقة أرضا جرداء مرتفعة ومكسرة، وتمتد جنوبا موازية لمقينمه، إلى مسافة تقدر بحوالى ثلاثين ميلا أو أكثر، لتصل إلى حدود سهل أبو بحر الزلطى الكبير، هذا السهل هو الذى يجعل السهب المركزى يمتد إلى منطقة الرمال فى أقصى الجنوب. القحولة

التى تنتشر هنا وهناك فى هضبة الصمان، تتكسر بين الحين والآخر، عن طريق بعض المنخفضات الضحلة التى تكسوها النباتات، وقد أحصيت فى تلك المنخفضات ما لا يقل عن عشرة أنواع من النباتات الصحراوية[١]. عثرنا على دغل من أدغال أشجار السنط على عش قديم للغربان، وفى واحد من المنخفضات تمكنا من إخراج جربوع من جحره، كما شاهدنا أيضا بعض الطيور الصغيرة. فيما عدا ذلك، وباستثناء رأس السهم[٢]، وقلة قليلة من السحالى لم تكن هناك أشياء أخرى مهمة.

الرحلة من مقينمة إلى الأفلاج تستغرق مسير أربعة أيام، يُنْفَقُ فيها اليومان الأولان فى الصمان واليوم الثالث فى رمال الدهناء، التى يعبر المسافر سهل الحريسان الزلطى الموجود خلفها. سهل الحريسان هذا يحتوى على المسقى الوحيد الموجود على هذه الطريق، والناس يطلقون على هذا المسقى اسم جبالية، ويصل عمق هذه البئر إلى أربع قامات، عندما تكون عامرة بالماء، نظرا لأن هذا المسقى عبارة عن مشاش، أو إن شئت فقل حفرة من حفر الماء التى تعتمد على ماء المطر. والناس يعرفون أن هذه البئر ميتة منذ بضع سنين. والمسافة من مقينمة إلى السليل من الطريق الصحراوى المباشر الذى لا يمر على الأفلاج، تقدر بحوالى اثنى عشر يوما، لكن معروف أن الإبل السريعة تستطيع قطع هذه المسافة فى ثمانية أيام. هذا الطريق خالٍ تماما من الماء ويقع القسم الأكبر منه فى الرمال إلى مسافة قريبة من السليل. فى بعض الأحيان يمكن العثور على الماء فى برك المكينية الصخرية، فى حين نجد أن واحة حمام القريبة من نهاية الرحلة لا تبعد كثيرا عن ذلك الخط المباشر. يزعم صالح أنه قطع المسافة (حوالى ٤٠٠ ميل) من أبو ظبى إلى الأحساء، فى ستة أيام لكن هذا الرقم القياسى لا يمكن أن يكون حقيقيًا. ولا يستبعد أن يكون الرجل قد بالغ فيما قال

(١) السلام، والحض، والنوسى، والغانى، والهلحرة، والرمرام، والقريش، والدريمة، والقرنوع راجع الملحق.

(٢) أطلقت على المنخفض الذى عثرت فيه على رأس السهم، اسم الرمح.

ليضيف المزيد من الضوء على منجزاته. الطريق المباشر من جابرين إلى الأفلاج يعرف باسم درب الفلاجي، وهو يعبر كلا من الصمان والدهناء في يومين إلى أن يصل إلى مسقى أبو حميض، الذي يوجد خلف الدهناء، ومن هذا المسقى يصل المسافر إلى طريق مقينمة عند جبالية خلال يوم واحد.

في طريق عودتنا من الرحلة التي قمنا بها إلى صمان ساليم، وقع لي حادث نزيف أنفي، لكنه لم يصل إلى حد السوء. في نهاية المطاف عادت الإبل من المراعي وحدها دون أن نكون معها، وعندما استدعوني لتناول الغداء، دهشت عندما وجدت رفاقي جميعهم مسلحين تسليحا كاملا. كان المنظر مشهوداً في ضوء البدر في تلك الليلة، تجمع حول صينية الأرز واللحم حوالي عشرين من محاربي الصحراء، بعضهم شبه جاث على ركبه، والبعض الآخر شبه قاعد، والكل يمسكون ببنادقهم في أيديهم والجبخانات[١] يلفها الرجال حول وسطهم. كان الرجال يتناولون الطعام بأيديهم اليمنى ويضعونه في أفواههم، في حين كانت حواسهم مشدودة ومتوترة. سألت، ما الخبر؟ هل شاهدتم آثار أقدام؟ أجابوا، لا، لكننا أثناء عودتنا إلى المخيم عند غروب الشمس، وعندما توقفنا لأداء صلاة المغرب، تشمم علي الجهمان رائحة دخان صادر عن أحد المخيمات. يحتمل أن يكونوا بدوا يرعون، أو قد يكونون غزاة يبحثون عن الماء. وهذا لا يقلقنا اللهم إلا إذا كانوا أكبر منا عددا - لكن الحذر مطلوب.

وأنا إلى هذه اللحظة لم أدرك أن حاسة الشم المرهفة تعد من بين فضائل الصحراء، وأدركت فعلا أن علي هو الوحيد الذي استشعر رائحة الدخان. ومع ذلك لم يخامرني شك أن الرجل فعل ذلك فعلا، وفي الوقت المناسب عرفنا أننا لم نكن وحدنا في الصحراء في تلك الليلة، لقد لاحظ الزوار احتلالنا لمنطقة المسقى، ولم يبلغوا من القوة الحد الذي يمكنهم من المطالبة بدورهم في السقيا، وعليه فضلوا إعطاءنا فسحة

---

(١) الكلمة تركية الأصل، والجبخانه: عبارة عن حزام عريض يلف حول الوسط، وفيه جيوب يوضع فيها الرصاص عادة.(المترجم)

من الوقت إلى أن نواصل مسيرنا، إلى أن وضع القدر إبل صديقنا، جابر بن فصل، تحت رحمة هؤلاء الزوار.

هؤلاء الزوار كانوا عبارة عن مجموعة صغيرة من قُطَّاع الطرق الذين جاءوا من نجران بحثا عن فريسة يلتهمونها، هذه الجماعة القلقة المتحفزة تجمعت حول نار مخيمنا لتناول العشاء معنا قبل طلوع الفجر، وساعة الفجر هذه هى الساعة التقليدية فى الجزيرة العربية التى تبدأ عندها العمليات العسكرية، وشعر الجميع بالفرح عندما أشرقت الشمس وراحت تدفئ الأقدام الباردة. حملنا متاعنا، وابتعدنا عن مقينمة غير آسفين، لكن بعد أن أنهينا وحققنا الفقرة الأولى، أو بالأحرى البند الأول من برنامجنا. والبند الثانى من هذا البرنامج هو وبار .

الفصل الثانى

أنهار منسية

"بدءا من مقينمة فصاعدا لا يوجد شيء سوى الربع الخالى، إلى أن يصل المسافر إلى المستوطنات. الماء موجود على يمين الربع الخالى، والماء على يساره أيضًا، لكن هذا هو الربع الخالى".

كنا على حد معرفتي قد دخلنا الصحراء الجنوبية الكبرى، عندما خرجنا من منطقة جويا عند نقطة الحفاير، والآن وبعد أن جددنا مسارنا بشكل عام ليكون من مقينمة فى اتجاه الشرق إلى بئر الفضيل، نكون قد دخلنا إلى منطقة الرمال. وحرك سويد ذراعه فى اتجاه الجنوب والغرب، وهو يدلى لى بالمعلومات المتمثلة فى ذلك الاقتباس الذى صدَّرت به هذا الفصل.

لا يخامرنى أى نوع من الشكوك، فى أن العرب يعرفون مصطلح "الربع الخالى" معرفة عامة، ويستعملونه للدلالة على تلك الأرض الجرداء الشاسعة والغامضة والمجهولة من الصحراء الجنوبية الكبرى، التى تمتد ما بين جابرين وحضرموت فى اتجاه من الاتجاهات، وبين عُمَان ونجران، فى اتجاه آخر، لا يخامرنى شك فى أن السكان المقيمين الفعليين فى هذه المنطقة – القبائل البدوية – يعرفون هذا المصطلح حق المعرفة ويستعملونه بمعنيين مختلفين، أولهما معنى أكثر شمولاً وأكثر غموضًا عن المعنى الثانى، لكن المعنيين جغرافيان تماما من حيث المغزى، ويتناقضان مع

المصطلحات الوصفية التى من قبيل المظمي[1] (بمعنى أرض العطش)، والمحمل (بمعنى الإقليم القاحل).

وإذا ما نحينا جانبا الحقيقة التى مفادها أن البدو يستعملون المصطلح بدلالة محددة - ربما لم يكن ذلك معمولاً به من قبل - فضلا أيضا عن المضمون الأوسع والأعم لهذا المصطلح، أجد أن رأيي بالشكل الذى أوردته هنا، يتفق مع الدلالة التقليدية التى للإسم "الربع الخالى " فى كل من الجزيرة العربية وفيما وراء حدودها، وأن هذه الدلالة ظلت سائدة لفترة تقل عن عقد من الزمان. ولو قدر للمرحوم الدكتور هوجارث، وهو واحد من الحجج الأوروبية العظيمة فى مسألة استكشاف الجزيرة العربية وجغرافيتها، لأبدى اندهاشاته من أى تفسير من التفسيرات، أو تأويل من التأويلات. وهذا هو السير بيرسى كوكس Percy Cox، الذى أمضى أكثر من جيل فى خدمة مميزة فى كل من مسقط والأماكن الأخرى فى الخليج الفارسى، والذى درس موضوع اختراقه هو نفسه للصحراء الكبرى، يقول لى: (إن مصطلح الربع الخالى كان مفهوماً تماما من العرب الذين شاركوه حيرته، وأن هذا المصطلح ينطبق على الصحراء الجنوبية الكبرى كلها.

فى ظل هذا التأييد الذى يقف خلف موروث طويل يرتكز على استعمال أدبى وكلاسيكى على امتداد قرون طويلة، قد لا يكون من الضرورى الذهاب بالأمر إلى أبعد مما هو عليه ولكن كلا من الرائد شيزمان والسيد برترام توماس نوّها خلال السنوات القليلة الماضية إلى أن المصطلح الموقر "الربع الخالى"، الذى يترجمه الإنجليزى على أنه Empty Quarter، والذى اتخذته عنوانا للكتاب، ليس سوى مجرد خرافة من

---

(١) المصطلحات التى من قبيل المصطلحات التى تطلق على الربع الخالى والأراضى القاحلة المماثلة له، يجرى دوما استعمالها فى صيغة الجمع مثل "المظامى" التى هى جمع "مظمى"، و "المحامل" التى هى جمع "محمل"، لكن يكثر استعمال الاستثناءات، وكلمة "محمل" تستخدم أيضًا جغرافيا للدلالة على (منطقة فى وسط نجد)، و"الحمل" (جزء من الجافورة)، و"المحامل" (صحراء بين وادى الدواسر وبيشة).

خرافات الكتّاب القدامى و "الكتب المدرسية" الجغرافية"، ورأيا هذين الرجلين جديران بالدراسة، من هنا جعلت عملى ينصب طوال أشهر التجوال هذه على التأكد مما يقوله أهل الصحراء عن هذا المصطلح، وتجميع وتطبيق ما يرد ضمن حوارات رفاقى هم وآخرون على ما أقوم به من نشاطات ومجهودات.

الرائد شيز مان يتناول المصطلح تناولا موجزا وعرفيًا إلى حد ما . وهو فى مقطوعة من مقطوعاته يشير إلى الصحراء الكبرى فى جنوب الجزيرة العربية، والتى يجرى توقيعها على الخرائط تحت اسم الربع الخالى، أو بالأحرى يشير إلى القسم الجنوبى من هذه الصحراء باسم "الأحقاف"، أما القسم الشمالى فيشير إليه باسم "الرمال"، ونرى الرجل يشير فى مواضع أخرى إلى "الصحراء الجنوبية الكبرى"، والرمال أو الربع الخالى على حد قول الكتّاب القدماء، ونرى الرائد شيزمان يشير فى إحدى حواشيه إلى أن: "الناس يتحدثون فى الأحساء عن الصحراء الشمالية الكبرى باعتبارها الرمال، ويتحدثون على الصحراء الجنوبية الكبرى باعتبارها "الأحقاف"، ولا يفهمون مصطلح الربع الخالى.

السيد برترام توماس Bertram Thomas يقول فى فصل من فصول كتابه بعنوان "ملاحظة جغرافية عن الربع الخالى": منطقة جنوب الجزيرة العربية بكاملها موقعه على الخرائط باسم الربع الخالى وهذا المعنى حرفى على نحو يصعب معه تطبيقه، وهذا المصطلح مألوف عند العرب المتعلمين فى الأماكن الأخرى، وبخاصة أولئك الذين يتعلمون الجغرافيا من الكتب المدرسية، ولكن القبائل التى تعيش فى الربع الخالى لا تستعمل هذا المصطلح أو تفهمه بمعناه الجغرافى. وبرترام توماس لا يأتى على ذكر "الأحقاف"، فضلا عن عدم مناقشته لمضمون مصطلح "الرمال"، على الرغم من استعماله لهذا المصطلح، ليدل به على الرمال الكبيرة التى سار خلالها، وهو فى طريقه إلى بنيّان، والصحراء الجرداء الخالية من الماء الموجودة فى الناحية الغربية من هذا الطريق. والسيد برترام توماس شأنه شأن الرائد شيزمان يستبدل هذا المصطلح بمصطلح "الربع الخالى"، الذى جرى حذفه أو شطبه من خارطة

الجزيرة العربية بطريقة جريئة تماما. ومع ذلك نجد السيد توماس يستخدم مصطلح "الربع الخالى" عنوانا لخارطته.

هذه هى دلائل الادعاء، يجب ألا ننتظر الحصول على تسمية جغرافية دقيقة من البدو، ومع ذلك يظل البدو عارفين ذلك الذى يتحدثون عنه، يزاد على ذلك أن البدو لا يهتمون كثيراً، ما إذا كان أى مصطلح عندما يكتب على الورق، يتعدى إلى مصطلح آخر عندما يجرى استعمال المصطلحين استعمالات لا لزوم لها، فى حين يعرف البدو أن السمات التى لهذه المصطلحات إنما تتعدى فى حقيقة الأمر وتختلط ببعضها البعض، الاسم "سواهيب"، على سبيل المثال، وكذلك سلسلة الكثبان الرملية المتوازية التى يطلق عليها هذا الاسم، يشمل بطريقة حتمية الربع الخالى (بالمعنى الضيق الذى سوف أناقشه هنا) كما ينطبق أيضاً على الجزء الجنوبى من الرمال، كما يدخل ضمن هذا الاسم أيضاً منطقة الخيران كلها. يزاد على ذلك أن الطوال أو بالأحرى منطقة البئر العميقة فى الناحية الشمالية، تضم أيضاً جزءاً من الرمال وجزءا من الصُّمَّان، فى حين أن الصُّمَّان نفسها تعد فى جزء منها قسما من الربع الخالى، أما الجزء الآخر فلا يدخل ضمن الربع الخالى.

عندما نزلت إلى وادى الدواسر فى العام ١٩١٨، ودرت حول الحافة الشمالية للربع الخالى، ورحت أناقش مكونات هذه الحافة وطبيعتها، كان رفاقى الذين كان من بينهم ممثل شهير لقبيلة المرة(١)، يستخدمون مصطلح الربع الخالى استعمالًا حراً وذكيًا. والآن، وعندما كان يجرى وضع الخطط اللازمة لرحلتى، كان مصطلح "الربع الخالى" هوالمستعمل من قبل الملك والوزراء والشخصيات الأخرى المعنية بالأمر. ابن جلوى نفسه استخدم هذا المصطلح. سعدان نفسه كان يرتعد لسماع الصوت الناتج عن استعمال هذا المصطلح، وإخوان القصيبى هم وأصدقاء آخرون من أصدقائى فى منطقة الأحساء، ظنوا أنى جننت عندما قررت المغامرة، والدخول إلى ذلك

(١) جابر بن فرج البليحى، توفى منذ مدة.

المكان مخفى الاسم. إلى هنا يمكن القول: إن الربع الخالى كان هو الاسم الشائع على ألسنة الناس، فى حين كان أهل الأحساء، وبخاصة النجباء منهم يعرفون مصطلح "الرمال" الذى يستخدمه البدو الذين يتجولون فى الصحراء الكبرى مع ماشيتهم. من هنا يمكن القول، إنى فى البداية كان لدى انطباع مفاده أن عامة الناس فى الأحساء كانوا يستعملون مصطلحىْ "الرمال" و "الربع الخالى" كمرادفين لبعضهما، فى حين كان الناس فى الأماكن الأخرى لا يستعملون سوى مصطلح "الربع الخالى"، للدلالة على هذه المنطقة كلها.

وعلى الرغم من ذلك جعلت ذهنى منفتحًا على الموضوع، وركزت المزيد من الاهتمام على معرفة تسمية البدو للمكان الذى ننتوى بحثه والتحرى عنه. وأنا بالقطع كان معى نخبة جيدة من الرجال الذين يمكنهم إلقاء المزيد من الأضواء على هذا الموضوع – كان معى ستة رجال من قبيلة المرة من ثلاثة أفخاذ مختلفة، وكان معى رجلان أيضاً يمثلان مختلف عشائر المناصير، وكان معى ثلاثة رجال آخرون من فخذين مختلفين من قبيلة العجمان، ناهيك عن كل من زايد وابن معدى، وكلاهما لديه خبرة بالصحراء الكبرى، علماً بأن خبرة زايد أكبر بكثير من خبرة ابن معدى.

حاولت قدر المستطاع عند هذا الحد، وإلى أن تكونت لدى فكرة معقولة عن استعمال البدو لمختلف المصطلحات الطبوغرافية الصحراوية، تحاشى مسألة طرح الأسئلة والتساؤلات، واكتفيت بأن رحت أدون فى كراسة الملاحظات فى ذلك الوقت، الجمل التى ترد فى حوارات زملائى، والتى كانت تبدو لى مهمة فى أى موضوع من الموضوعات. ونظراً لأنى كنت أستخدم كراسة ملاحظاتى بصورة مستمرة طول الوقت سواء أكنت راكباً دابتى أم أثناء الوقفات، فإن رفاقى لم يعرفوا أنى كنت أدون وأسجل ملاحظاتهم العابرة، وبالتالى لم يتحوطوا وينتقوا لغتهم. مصطلح الرمل، ومصطلح الرملة (بمعنى المنطقة الرملية)، وكذلك مصطلح الرمال، كل هذه المصطلحات وردت فى حوارات رفاقى مرات كثيرة، وقد لاحظت أن البشر أمثال على الجهمان، وسالم وصالح، كانوا يستخدمون هذه المصطلحات عن منطقة

لا يحسون إزاءها بالخوف أو الفزع. ومع ذلك، كان من نافلة القول، أن يشتمل برنامجنا في فترة مبكرة من تحركاتنا على مسيرة من شنًّاء أو إن شئت فقل: حضرموت إلى السليل، وبذلك كان مصطلح "الربع الخالي" شائعًا على ألسنتهم ليعنوا به "الرملة"، وكان ذلك ينطبق على منطقة الرمال بصورة عامة على حد فهمهم للمصطلح، أو كانوا يضيفون إلى المصطلح اسما محليا لتحديد مكان بعينه، كأن يقولوا مثلًا: رملة مقينمة، ورملة شناء... إلخ.

ترى ما الفارق الذى يود البدو أن يظهرونه بين مصطلح "الرمال" ومصطلح "الربع الخالى"، فى ضوء رؤيتهم على حد علمي للمنطقة قيد البحث على أنها محيط من الرمال، هذه المفارقة تنطوى على جانبين محددين - مسألة المراعى من ناحية، ومسألة الماء من الناحية الأخرى. وسرعان ما اتضح لى أن مناطق المراعى على اختلاف أنواعها، إنما تحمل فى الحقيقة أسماء الآبار التى يخيم البدو عندها، كأن يقولوا مثلاً هذه هى الرملة كيت، وتلك هى الرملة كيت. الاسم سنام كان استثناء من هذه القاعدة، ومع ذلك لم يكن اسما لمنطقة من مناطق الرعى التى فيها آبار، وهناك أيضا بعض الاستثناءات الأخرى، لكن القاعدة كانت عامة بشكل عام، إذ كان لكل بئر حزامها الخاص بها من نبات الحض أو حزامها من نبات الخلة، أو حزام من نبات آخر. ومع ذلك بقيت القعاميات كما هى، وبقيت الحواية كما هى، وبقيت الشويكيلة كما هى (هذا يعنى أن كل منطقة من هذه المناطق كانت خاصة بنبات بعينه)، وكان الناس يشيرون إلى هذه المناطق هى وبعض المناطق الأخرى على أنها من مناطق الربع الخالى.

فى المواسم التى تغزر فيها الأمطار، قد يأخذ البدو ماشيتهم لترعى فى المناطق الخالية من الماء، لكن جرت العادة أن يتردد البدو على المناطق العامرة بالماء، الذى يعتمدون عليه، فى حين تبحث إبلهم عن العشب الذى ترعاه فى المناطق المجاورة للبئر. والمناطق التى من هذا القبيل يجرى عادة تجميعها تحت اسم "الرملة" أو "الرمال".

المنطقة الخالية من الماء هى الربع الخالى فى أحسن الأحوال، وأنا بدورى وضعت فى مقدمة هذا الفصل وبعض الفصول الأخرى بعض الأقوال العابرة الصادرة عن سويد وآخرين، وهـذه الأقوال العارضة تؤكد المفارقة التى استحوذت على ذهنى وأتعبتهم هم أيضًا.

على الجهمان أصيب بصدمة عندما سألته عن شويكيلة، قال لى على: لقد زرت القعاميات، وذهبت أيضًا إلى الحواية لصيد الوعل الأبيض، لكن كل هذه الأماكن هى وشويكيلة وما بعدها من الربع الخالى. ولك أن تسأل سالم أو سويد عن هذه الأماكن، لأن سويد وسالم من الدمنان. أما نحن، فنذهب إلى هذه المناطق لصيد الوعل الأبيض. وبعد ذلك، وبعد أن ابتعدنا عن شناء مسير ثلاثة أو أربعة أيام، فى الأرض الخراب الخالية من الماء قال فراج : هذا هو ما يسمونه الربع الخالى – أرض الوعل الأبيض. يزاد على ذلك أن سالم عندما رافقنى راكبًا فى المرحلة الأخيرة من رحلتنا قال: هذا هو الربع الخالى، لم يجئ إلى هذا المكان أى أحد من البشر. وربما كان كلام سويد حول هذا الموضوع هو أبلغ الكلام، وهذا هو ما دفعنى إلى وضع العبارة "أرض خراب بلا ماء" فى صدر الفصل.

مسألة استعمال بدو الصحراء الكبرى ومعرفتهم – إذ يتقاسم المناصير والمُرّة فيما بينهم هذه الأرض الشاسعة، التى تمتد من حدود عُمَان إلى نجران – لمصطلح "الربع الخالى" تقضى على مسألة الشكوك المحيطة بهذا المصطلح. بعض القبائل الحدودية التى أتى السيد برترام توماس على ذكرها، قد لا تستعمل المصطلح استعمالا صريحا، والسبب فى ذلك هـو معرفة هذه القبائل معرفة جيدة لذلك القسم الذى يسمونه "الرملة"، ومع ذلك أنا لا يسعنى إلا أن أشك فى مسألة جهلهم المطبق بالاسم ودلالته الخاصة. لكن الله أعلم، على حد قول العرب، ولذلك فأنا لا أتردد مطلقًا فى أن أعيد إلى الصحراء الجنوبية الكبرى ذلك الاسم الذى عرفت به عند العرب، قبل ومنذ حكت شهرزاد للملك شهريار حكاية معروف الإسكافى، الذى حملته

قـوة خـارقـة الطبيـعة إلــى وسـط الـربـع الخـراب[1]، والذى توقع اكتشافى لمنطقة وبار.

وسوف أورد هنا نتيجة الأبحاث التي قمت بها، فى صورة التركيبة التالية: الصحراء الجنوبية الكبرى بكاملها هى من الربع الخالى، وذلك على العكس من الجزء المأهول بالسكان. قسم كبير من هذه الصحراء الجنوبية الكبرى يتردد عليه البدو الرعاة الرحل، ويحتوى على عدد لا يحصى ولا يعد من الأبيار، معروف لهؤلاء البدو، ولجيرانهم القريبين منهم باسم الرملة أو الرمال، فى حين أن هناك قسمًا من هذه الرملة أو الرمال لا يحتوى إلا على آبار مالغة الماء، وينفصل عن الرملة تحت اسم الخسيران، وهناك قسم آخر ماؤه مستساغ، ويسمى سنام، وقسم آخر يسمى الطوال. والذى يتبقى بعد حذف المنطقة العامرة بالماء، هو الربع الخالى فى أفضل الأحوال، أى الصحراء الخالية من الماء، أو إن شئت فقل الربع الخالى – وهو خالٍ فعلا على حد قول البدو. أما الاسم "أحقاف"، الذى يشيع فى الأدبيات، فأنا لم أسمع عنه مطلقًا، لكنه مطروق ووارد على ألسنة بعض المتحذلقين. وقد يكون هذا الاسم دارجا ومستعملا بين عرب حضرموت الذين لم أخبُرْهم.

لقد تناولت باستفاضة جانبا مهما من جوانب مشكلة كبيرة، ولذا يتعين على العودة إلى مسيرنا عبر المنخفضات الرملية فى رملة مقينمة. هبت علينا من الجنوب ريح طيبة وأخذت المسافة تتسع فيها بيننا وخط الصمان الطويل المظلم، إلى أن اختفت تلك الفجوة عن أنظارنا تاركة إيانا منحرفين فى محيط الرمال، كانت الأرض فى هذه المنطقة هينة ولينة كما هو الحال فى الجافورة، إذ كانت الأرض تبدو جرداء فى المناطق وكثيفة الغطاء النباتى فى بعض المناطق الأخرى، هذا الغطاء النباتى كان فى معظمه من الغاضة، لكن كانت هناك بعض البقع التى تنمو فيها

(١) يساوى بيرتون Burton بحق بين هذا الاسم والاسم الشائع "الربع الخالى".

أشجار الحض وبعض الأعشاب الأخرى. أحس رفاقى بالخمول بعد الوليمة الطيبة، وتأخرت إبل الحمل وأصبحت تمشى خلفنا بدلا من أن تسبقنا. وبعد أن سرنا مدة تزيد على الساعتين عثرنا على مرعى جيد، وتوقفنا قرابة الساعة كى تلحق بنا إبل الحمل، عثرت على كثير من الأشياء التى تهمنى - نباتات، حشرات وما إلى ذلك - لكنى تضايقت لبطء مسيرنا، وعندما استأنفنا السير من جديد أصررت على المشى بدلا من الركوب. ولم أجد صعوبة فى مسايرة إبل الحمل، ورحت أسلى نفسى بشىء قليل من حساب الزمن، الذى أثبت لى أنى كنت أمشى بمعدل يصل إلى حوالى ٥٠ بوصة فى الثانية - أى بمعدل يقل عن ثلاثة أميال فى الساعة. كان المشى على الرمل جميلاً جداً، لكننا وصلنا بعد ذلك إلى سهل زلطى يصل عرضه إلى حوالى ميلين، وشبيه بشريط عريض يمتد عبر الرمال من الجنوب إلى الشمال. وبدأت قدماى تحسان الفرق على الفور، بل إن الإبل هى الأخرى راحت تتوعك بعض الشىء فى مشيتها، لم يكن رفاقى راضين عن سيرى، الذى اعتبروه إهانة وسبة لهم، وعند منتصف الطريق استسلمت لتوسلاتهم، ولقدمىّ العاريتين اللتين حثتانى على الركوب. حافظت برهة قصيرة على معدل سير إبل الحمل، إلى أن بدأت سرعة الركب تتزايد، وهنا ذهبت إلى المقدمة بصحبة بعض الرفاق.

عن بعد أشار رفاقى إلى مجموعة كثيفة تقدر بحوالى اثنتى عشرة شجرة من أشجار الغاضة على أنها غضاوات بن حوقاى، التى سميت بهذا الاسم تيمنا باسم رجل من قبيلة المرِّى، الذى ربما نام أو حارب أو فقد جمله فى هذه المنطقة، توقفنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر لصلاة العصر، وعند الساعة الخامسة خيمنا لقضاء الليل بالقرب من الحافة الشرقية لرملة مقينمة التى تشرف على شريط زلطى واسع آخر - يسمونه هضبة بريكة .

الحادث الوحيد الذى وقع أثناء السير، يتمثل فى رؤيتى لواحدة من الحبارى التى جرى اصطيادها بطلق نارى، ولكنها ضاعت ولم يُعْثَرْ عليها، جمعت بعض الفراش

وكان هناك بعض من الفراشات[1] الأخرى التي تجمعت حول الضوء في المساء. هبت علنيا في الساعات الأولى من الصباح ريح غير مواتية محملة بالتراب، وغطت كل شيء بالغبار والرمل. وجاء أبو جعشة وشد حبال خيمتي تحسبا للحوادث، لكني نمت في أمان تام، ولكني رأيت في الحلم أني في وادي الدواسر وأعبر سهلا زلطيا شاسعا، تتخلله تذكارات حضارة قديمة.

في صباح اليوم التالي كانت السماء ملبدة بالغيوم والهواء بارداً ورطباً. كل شيء كان مغطى بالرمل وكانت الشمس تتراءى لنا ضعيفة من بعد. قطعنا مسافة تقدر بحوالي خمسة وعشرين ميلا في اليوم الأول، واليوم قطعنا مسافة مساوية لتلك المسافة تقريباً، فقد عبرنا كلا من بريكة (من منطقة الزلط والرمل)، والحوية (من منطقة رملية فيها الكثير من شجيرات الغاضة إلى المنطقة الزلطية) لندخل في آخر الأمر، إلى مراعي مدارة التي خيمنا فيها قبل الساعة الرابعة مساء، نظرا لأن الجو بحكم دفئه وهدوء الريح فرض علينا شيئًا من النعاس. كان سالم قد طارد خلسة أحد الأرانب البرية، ولم ينجح في تلك المطاردة، في حين توقفنا نحن لنرى ما يدور بينه وبين ذلك الأرنب، وهيأت لنا شجيرات الغاضة النامية في الرمال، عددا كبيراً من الخنافس سوداء اللون، والتي لها أحزمة ذهبية على الأكتاف. فشلت الكلبة السلوقية في مطاردة أحد الثعالب عبر ذلك الشريط الزلطي، الذي يعد مهبطًا أرضيًا مثاليًا للطائرات. شاهدت روث وعل صغير أبيض، لكن لم تكن هناك آثار أقدام تدل على مرور هذا الحيوان مؤخراً من هذا المكان.

أوضح رفاقي أن مدقات (طرق) الإبل الممتدة شمالا وجنوبا في زلط البريكة إنما كانت تتجه صوب مسقى قصاب، لكن على الجهمان أوضح أن هذه المنطقة لم تسقط الأمطار عليها منذ حوالي سبع أو ثماني سنوات، ومع ذلك، كان هناك علف

---

(١) كان من بين الأربع والعشرين فراشة التي جمعتها من الربع الخالي، ما لا يقل عن ست عشرة منها من الأنواع الجديدة على العلم، راجع الملحق.

كثير يصلح للإبل، نظراً لأنه كان جافًا ولم يكن ميتًا. تبدت لنا في أقصى الجنوب الشرقي سلسلة الكثبان الرملية. التي يسمونها "عرق الغنم"، التي قالوا: إن خلفها سلاسل أخرى[1] من الكثبان الرملية، على بعد مسافة تقدر بمسير يوم أو أكثر من يوم. وقبل وصولنا إلى المخيم مررنا على عش غراب قديم مهجور، بناه الغراب في تشعب شجيرة من شجيرات الغاضة.

في اليوم الثالث المصادف لليوم الثامن والعشرين من شهر يناير، وعندما كنا خارج مقينمة وصلنا إلى بئر فضيل بعد مسير قصير نسبياً، كانت المسافة كلها تقدر بحوالي ٥٥ ميلا، أي قبل حوالي ميلين فقط من الآبار، وعند هذا الحد دخلنا منطقة من مناطق الكثبان الرملية بحق وحقيقة - هذه المنطقة عبارة عن بحر عاصف من الكثبان الرملية المنتشرة انتشاراً فوضوياً هنا وهناك، لكنها كلها تواجه الناحية الشمالية وتتخللها أعراف متدحرجة، أو تجاويف على شكل حدوة الفرس. وتعيَّن علينا ذات مرة نزول منحدر شديد مكون من الرمل الناعم، في الوقت الذي هبت فيه ريح جنوبية عاتية من كل جانب، واستمرت حتى الساعة الخامسة مساء، لتتوقف بعد ذلك وتتركنا ننعم بليلة صافية هنيئة ودافئة.

على الرغم من قصر المسافة فقد كانت موحشة واضطر موكبنا الحزين إلى السير على شكل صف واحد، وكان زايد هو وحميد وصالح في مقدمة الصف، وراح الرجل يتكلم بحيويته المعتادة إلى جمهور محترم من الناس. كان ابن معدي يمشي وحده خلفنا، يتلو آيات من القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب - خَتْم القرآن مرات عدة في رمضان يعد فضيلة من الفضائل، وفي نهاية الصف كنت أنا وسعدان راكبين ونتحاور معاً، وفي المؤخرة كانت تسير بقية الجماعة وهم يتغنون بنشيد ممل.

في منطقة بئر الفضيل التي حفرها شيخ سابق من شيوخ العضبة، الذين يشكلون الفخذ الأول من قبيلة المرة، وعلى الرغم من اعتبار المسقى ملكًا لبقيح

---

(١) هذه السلاسل الأخرى هي: عروق الآبال وعروق الخلة .

الغفـران، فإننا عثـرنا عـلى أربع آبار منتشـرة فى ميـل واحد فى منخفض كبير من الرمال. كانت البئر الأصلية[١] عاطلة عن العمل وشبه مردومة بالرمل نتيجة الزيارة التى قامت بها في شهر أبريل الفائت إحدى جماعات الغزو من قبيلة سعر . ملأت جماعة الغزو هذه قرابها لكنها لم تكلف نفسها مغبة إعادة الغطاء إلى حاله السابق. ألقيـت بحجـر فى تلـك البئر، لكن صدى صوت المـاء لم يصل إلىّ، على الرغم من أن الناس تعرف أن مسألة تطهير بئر من الرمل أسهل من حفر بئر جـديدة. لكـن الأمـر لم يكن كذلك، إذ أن الغفران كانوا قد شرعوا فى الصيف فى حفر البئر التى نخيم حولها حاليًا، فى منطقة زلطية صغيرة تكاد تخفيها الرمال التى تحيط بها . ترى كيف عرف على الجهمان هذا المكان، الذى سمع عنه من أولئك الذين قاموا بحفر البئر - علمًا بأنه لم ير البئر مطلقًا - هذا سر غامض، ومع ذلك اتجه على الجهمان إلى البئر مباشرة ونزل عن راحلته عند مكان شبيه بتل صغير من الرمال. وقام على الجهمان هو وآخرون بإزالة ذلك التل وكشفوا عن غطاء العوارض والجلود من فوق فتحة البئر. واكتشف الرجال أن ذلك الغطاء انهار جزء منه إلى داخل البئر الأمر والذى نجم عنه سقوط كمية لا بأس بها من الرمل داخل البئر. وترتب على ذلك عدم التمكن من السقيا، إلا بعد أن شمَّر زايد عن وسطه ونزل إلى البئر، لرفع المخلفات المتراكمة، التى جرى رفعها بواسطة الآخـرين عن طريق الدلو المصنوع من الجلد، الذى كـان زايد يملؤه بقطع الحجر الرملى، وقطع الخشب، وكمية كبيرة من الرمل. وبعد الانتهاء من تطهير البئر جرى ربط جمل فى الحبل الطويل لتبدأ بعد ذلك عمـلـية السقـيـا . قـسـت عـمـق البئر مستخدمًا فى ذلك شريط، ووجدت أن عمق البئر لا يقل عـن مـائة وستة وعشرين قدمًا، فى حين كان ميل السحب فى البئر الرئيسية يصل إلى حوالى ٥٨ خطوة، أى حوالى مائة وثلاثة وأربعين قدما . ومع ذلك، كانت فتحة البئر الأم فى تل

(١) هذه البئر الأصلية يسمـونـهـا "أم"، فـى حين يطلقون على الآبار الأخرى اسم "جاهليات" بمعنى "أبناء أو بنات"، على الرغم من أن الكلمة يمكن أن تشير إلى الحقيقة التى مفادها أن تلك كانت آبارًا قديمة منسية أعيد اكتشافها وتطهيرها .

مـرتفع، يصـل ارتفـاعـه إلى حـوالى عـشـرة أقـدام، وتمثل خليطًا مـتـراكمًا من الرمل، والـــرطـــوبة، روث الإبل منذ أجيال أو قرون، فى حين كانت فتحة البئر التى نستعملها مسـتوية مع سطح الأرض. هذا يعنى أن العمق الإضـافى للبئـر القديمة يمثل إضـافة للبئـر طلبًا لتقـويتـهـا، وقد رأيت بعـينىَّ الأخـاديد الناتجة عن حـبـال الأبيـار فى قطع الصخر المستخدمة فى تبطين البئر فى منطقة فتحتها الأصلية. أما البئران الأخريان (التى حفرت إحداهما فى العام ١٩٣٠، ثم جرى التخلى عنها فى العام نفسه) فكانتا مدفونتـين تمامًا، لكنى كنت أسـتـغـرب قيام البدو بـأعمـال من هذا القـبـيل. وعن طريق المزيد من التحرى والاستفسار توصلت إلى حقيقة مفادها أن الآبار الحقيقية موجودة منذ قديم الأزل، فى حين كان "حفر" بئرنا بواسطة الغـفـران لا يعدو أن يكون مـجرد إعادة اكتشاف وتطهير لتلك البئر. ويبدو أن الآبار جرى حفرها فى حجر رملى ضارب إلى الحمرة.

صـادفت فى منطقة الآبار هذه مقبرة صغيرة، وكانت تلك أول مقبرة أشاهدها فى منطقة المُرَّة، وكانت تضم حـوالى عشرة قبور، على شكل دائرة غير منتظمة حول قبر كبير الأبعـاد، يحتمل أن يكون قبر شيخ من الشيوخ، كان كل قبر من هذه القبور مُعلَّم عند الرأس بقطعة من الحجر الأبيض. والغريب حقًا أن الإنسـان لا يرى فى هـــذه البـــقـــع أو المناطق الصحراوية الكثير مما يذكِّره بمتاع الغـرور فى هـــذه الحـــياة، لكن تفسير ذلك أمر يسير تمامًا، فى جابرين نجد أن الجثث التى يجرى دفنها فى التربة المالحة سرعان ما تفنى، فى حين نجد فى الصحراء أن الرمال تستر رفات الإنسان تمامًا، تناولت قطعة صغيرة من البازلت، أكد لى حسن أنها من "الحجر السيار" الذى يعرفه، وقيل أيضًا أنها ربما جاءت إلى هنا ليجرى سحقها إلى مسحوق ناعم يستعملونه فى علاج الأعين. وقـال بعض آخر، أن هذه القطعـة من الصـوان ربما كانت تسـتـعـمل يدًا لهـون من أهـــوان الطحـن[١]. كـانت أرض المنخفض مـثل أرض مقـينمـة، مـغطاة فى

---

(١) يطلقون على هذه اليد اسم يد الرواح. ولا أحد يمكن أن يقول لنا من أين جاءت هذه القطع الصوانية. راجع الملحق.

بعض أجزائها بنوى البلح، وقطع من الجلد، وبعض الأشياء التافهة الأخرى التى توضح احتلال الإنسان لذلك المكان، أبلغنى على الجهمان أنه على بعد مسير حوالى يومين فى اتجاه الشمال توجد بئر اسمها بئر جويفة، كما توجد بئر أخرى اسمها بئر عوية، التى توجد فى الناحية الشرقية على بعد مسافة مماثلة من بئر الفضيل، والتى توجد بئر الفضيلة، على بعد مسير يومين منها فى اتجاه الشرق، وبئر الفضيلة هذه عميقة نسبيًا . هذا القسم الشمالى كله تنتشر فيه المساقى والآبار، يضاف إلى ذلك أن خارطة برترام توماس التى كنت قد استلمت صورة منها قبل القيام برحلتى، أوضحت أن هناك سلسلة مستمرة من الآبار على طول الطريق التى سلكها الرجل، ومع ذلك عرفت من هذه الخارطة أن المنطقة الموجودة فى الناحية الغربية من الطريق الذى سلكه كانت خالية من الماء، وكتاب الرجل يؤكد تماما هذا الانطباع[(١)]، كان من الطبيعى أن أبتعد قدر المستطاع عن المسار الذى سلكه برترام توماس، فى حين كان من رأى على الجهمان أن نتجه صوب الجنوب الشرقى من بئر الفضيل إلى بئر أخرى يسمونها أم الحديد، التى لم يوقعها برترام على خارطته، والتى بدأت أتشكك بسبب كلام على فى أن تكون أم الحديد هذه هى منطقة وبار أو منطقة شديدة القرب منها، كانت الدلائل تثبت أن هذه المنطقة لم تكن بعيدة جداً عن فراجة التى تقع على الطريق التى سلكها برترام توماس، ولكنى حاولت جاهداً ألا يفوتنى أى مسقى من المساقى التى فى أقصى الغرب، وكنت قد أكدت من خلال الحوار طوال هذه الأسابيع على الحقيقة التى مفادها : أن على كان يعرف على وجه اليقين آباراً قديمة على حافة هذه الصحراء الخالية من الماء، وكان من الأهمية بمكان توقيع تلك الآبار على الخارطة، وعليه أصررت على المضى قدما فى اتجاه الغرب، بدلاً من السير فى الاتجاه الذى ارتآه مرشدى.

---

(١) راجع كتاب "اليمن السعيد" صفحة ٢٦٦، وراجع أيضًا الملحق رقم ٣ .

كان ذلك بطبيعة الحال الاتجاه الذى سرنا فيه فى صباح اليوم التالى بعد أن سقينا إبلنا، وملأنا قرابنا الاثنتين والثلاثين من الماء العذب الذى لن نراه طوال فترة من الزمن – ماء بئر الفضيل، الذى له مرتبة عالية عند البدو، على الرغم من تشابهه مع ماء مقينمة – وبعد أن أعدنا الغطاء إلى فتحة البئر من جديد. عند الساعة العاشرة صباحًا هبت علينا ريح جنوبية منعشة، عندما كنا نسير فى موازاة سلسلة[1] من الكثبان الرملية، كان نصفها يشكل منخفضات وتجويفات على شكل حدوة الفرس تواجه الشمال الغربى، أسفل قممها الشبيهة بالجدران المقصوصة. قال على الجهمان: هذه الأرض كلها جافة. ومع ذلك كانت هناك كمية معقولة من الغاضة الجافة فى الرمال المنخفضة، فى حين كنا نرى أمامنا مساحة واسعة من سهل زلطى عامر بالأدغال، ومن خلفه عن بعد، تظهر سلسلة كثبان التُّمَيْلة الرملية. مضيت قدمًا مع سالم، الذى أصبح مرشداً لنا من جديد، ورحت أراقب نشاط القنبرة ذات الوجهين، فى حين راح صالح وبلا جدوى يطارد نسرا اندفع طائراً أمامنا قادمًا من قمة كثيب من الكثبان الرملية.

عندما عاد إلينا صالح نزلنا منحدراً سهلًا إلى سهل شقات[2] الخلفات، فى الوقت الذى كان رفاقنا متخلفين وراءنا كالعادة. وفجأة لاحظت شيئًا أبيضا على الأرض، وقبل أن أقف على حقيقة هذا الشيء، كنا بالفعل نمشى على كتل من ذلك الشيء الأبيض. قلت لسالم: انتبه، هذه أصداف بحرية! لابد أن أنزل عن راحلتى هنا، كان سالم قد نزل بالفعل من فوق جمله فى نوبة انفعالية، وراح يرقص رقصة من رقصات الحرب، وهو يطيل النظر إلى مجموعة من الحيوانات ذوات الصدفتين، وبقينا قرابة ساعتين مع آخرين من جماعتنا فى تلك البقعة، كما لو كنا

---

(١) عرق الغاضة.

(٢) شقة (والجمع شقاق). عادة ما تسير إلى وادى زلطى أو سهل زلطى فيه نباتات أو خال من النباتات، لكنه ليس عريضًا تمامًا، الرقة تستخدم فى الدلالة على السهل الصلب، أو السهل الزلطى أو الصخرى.

قد تسمرنا في المكان، في حين مضت إبل الحمل والأمتعة في طريقها. وإذا ما نحينا وبار جانبا، نجد أن هذه الأصداف كانت أهم الاكتشافات وأكثرها إثارة في الرحلة كلها، كانت الأصداف تنتشر في سائر أنحاء المكان، ومن بين هذه الأصداف جمعنا مجموعة كبيرة من الأدوات الصوانية القديمة البديعة، وكانت أولى هذه الأدوات قد أمسك بها فراج وأحضرها إلي، في حين عاد إلى زايد بعد أن قام بالحفر أسفل الزلط - بقبضة من الطين الذي حسبه طينًا متحللا من جدران صنعها الإنسان! كان واضحًا أن تلك كانت تربة غرينية من نهر أو بحيرة قديمة، وظهرت على شكل أحزمة خلقت نوعًا من الوهم بأنها قد تكون أساسات لبعض الجدران.

قبل سنوات عدة وأنا في طريقي إلى وادي الدواسر، عبرت بعض مجاري السيول الواسعة، التي قلنا عنها أنها تجري وتنتهي في الشرق في الصحراء المقابلة لحاجز الدهناء الرملي، كنت قد افترضت أن مدينة وبار القديمة لابد وأن تكون على ضفتي مجرى من تلك المجاري، يوم أن كان الماء ينساب فيها، كنت دومًا أتطلع إلى أن استكشاف رمال الصحراء الكبرى يمكن أن يكشف عن آثار حضارة عظيمة في أرض خصبة، مثل تلك الحضارة التي اكتشفها السير أورال ستاين Aural Stein في أحواض الأنهار الجافة في صحراء وسط آسيا. الواضح أن السير برترام توماس لم يعثر على أثر لتلك القنوات أو بالأحرى المجاري الخاصة بمثل هذه الحضارات، لكن الرجل عثر على مساحة هائلة من الرمال التي تجعل الاكتشافات التي من هذا القبيل أمرًا مستحيلاً.

كان علي الجهمان قد حكى لي عندما اكتشفنا الحفريات في كل من قرن أبو وائل والأنباك، عن رسوب آخر من الأصداف يعرف هو مكانه في الصحراء، لكن موقع ذلك الرسوب كان في غربي الشتاء، وكانت مفاجأة سعيدة أن نكتشف هذا الرسوب الصدفي أيضًا في هذا المكان. كانت الرمال فيما بين مقينمة وبئر فضيل تتخللها فُرُج عريضة من الزلط والحصى، لكنها لم تنتج شيئًا ذا بال، ولم أر فيها سوى مجرد الأجزاء الأخيرة من الصمان؛ نظرًا لتلاشي السُّهْب

تحت الرمال. كنت قد سلمت أنه اعتبارا من بئر فضيل فصاعدا، ستكون المنطقة كلها رمالا ولا شيء غير الرمال. لكن الحال لم يكن على هذا المنوال. ففيما بين بئر فضيل والطويرفة كانت هناك بقع صغيرة وأخرى كبيرة من الزلط، في حين كان هناك في أقصى الغرب سهل زلطي كبير يسمونه رعلة، ومن خلفه كل من ساحمة وأبو بحر من ناحيتي الجنوب والغرب. من الواضح إذن أن القسم الغربي (الخالي من الماء) من الربع الخالي كان الرمل فيه أقل من القسم الشرقي، في حين لدينا هنا في شقة الخلفات سهل من الزلط يصل طوله إلى حوالي عشرة أميال، على حد علمي، وعرضه حوالي ثلاثة أميال، يزاد على ذلك أن الغطاء الكثيف من الأدغال والشجيرات يضفي على هذا السهل جواً من الخصوبة غير المنتظرة، في حين أكدت الأصداف وجود الماء في هذا المكان في زمن من الأزمان الماضية. مسألة عدم وجود حفريات توحي بتاريخ قريب جداً، في حين جعلني اكتشاف الأدوات الصوانية أشطح بخيالي وأتصور وجود إنسان قديم كان يحتل ضفاف هذا النهر أو تلك البركة، أو أنه كان يزور تلك الضفاف ليستخدم رماحه وسهامه في صيد الحيوانات، التي كانت تتردد على ذلك المجرى المائي طلبا للشرب.

بدت الحافة الشمالية للسهل وكأنها تغوص نحو الأسفل في اتجاه سفح الكثبان الرملية، التي سبق أن عبرناها وصولا إلى المكان الذي نحن فيه، وهنا خطر ببالي فكرة مفادها أني صادفت على الأرجح جزءا من مجرى نهر قديم، يمكننا البحث عن أعاليه في منطقة مجاري وادي الأفلاج وإلى الجنوب منها، وهذا هو ما سبق أن أتيت على ذكره.

لم يعد يتبقى سوى عامل واحد – وهذا عامل مهم جداً – ينبغي تحديده. هل كانت الأصداف ناتجة عن مياه عذبة أم مياه مالحة؟ ليس لدي من الوسائل ما يجعلني أقطع بتلك المسألة أو حتى السبب فيها، وكنت أعلم أني يتعين على الانتظار إلى أن أعود إلى إنجلترا، وعندها يمكن البت في هذا الأمر. وقمت في الوقت ذاته بتسجيل

الفكرة التى أوردتها على أمل أن تثبت صحتها. وفى ضوء هذا الأمل رحت أرسم بعض الخطوط على خرائطى، وأربط بين أصداف شقات الخلفات ووجود منظومة نهرية كبيرة تعبر الصحراء من ناحية الأفلاج. وبدا لى أن وادى مقران، باعتباره أكبر المجارى المائية القريبة المعروفة، هو أنسب الأسماء التى يمكن إطلاقها على هذه المنطقة كلها.

صفق رفاقى لذلك الخيال الذى استطاع الربط بين مائتين وخمسين ميلا من الصحراء اليائسة ونهر من الأنهار، جمعنا كل ما نريده من الأصداف ذوات النصفين، وفى الوقت المناسب صنَّف الخبراء فى المتحف البريطانى تلك الأصداف على أنها من أصداف المياه العذبة(١). ومن سوء الطالع أن الخبراء أثبتوا أن هذه الأصداف من الأنواع التى تعيش وتوجد لفترات طويلة وما تزال موجودة إلى يومنا هذا. من هنا يستحيل تحديد عمر هذه الأصداف أو التاريخ التقريبى الذى وجدت فيه فى الجزيرة العربية. وجرى أيضًا تصنيف(٢) الأدوات الصوانية التى جرى العثور عليها مع الأصداف على أنها تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث وإلى أنواع العصر البرونزى، لكن تاريخ ظهور مثل هذه الأنواع فى أى بلد من البلدان يمكن تحديده بصورة مؤكدة عن طريق العلاقات والارتباطات الجيولوجية. على أى حال، فإن أنهار الصحراء الكبيرة تبدو منسابة إلى ما بعد فجر التاريخ إن لم تدخل أيضًا ضمن الأزمنة التاريخية. وإذا كان الحجر الحديث فى الجزيرة العربية، وذلك قياسا على الصحراء الليبية، على حد قول الآنسة كاتون طومسون Caton Thompson، فذلك يعنى أن بداية التصحر فى الربع الخالى لابد أن تكون قد بدأت متزامنة مع بدايات حضارات جادة، مثل الحضارة التى كانت فى مصر وفى بلاد الرافدين. والحضارة التى تكون من هذا القبيل ربما تكون قد بدأت فى تلك البلاد لكى يخنقها وينهيها عداء الطبيعة، ولم يكن هناك ما يمنع من احتمال اكتشاف أنقاض قديمة فى الربع الخالى على أى حال، كانت

(١) راجع الملحق.

(٢) بواسطة كل من السيد ريجنالد سميث من المتحف البريطانى، والسيدة جى كاتون طومسون.

معرفتنا في ذلك الوقت محدودة على نحو لا يمكن الاستفادة منه، اللهم باستثناء التشجع على القيام بالعمل. لقد عثرنا بالفعل على بعض الدلائل على وجود النشاط البشرى فى أزمنة قديمة وسط التذكارات الواضحة التى حصلنا عليها من الأنهار، وواصلنا عملنا على أمل أن نضيف إلى حكاية اكتشافاتنا تلك المدينة، التى قالت الأساطير عنها إنها تحتل أعظم إنجازات سكان الجزيرة العربية القدماء. ومن الغريب حقًا أننا إذا ما حددنا تاريخا حديثا نسبيا لبداية التجفيف فى الجزيرة العربية، فإننا لم نعثر على أى أثر لحضارة العصر الحجرى القديم أو العصر الحجرى الأوسط فى قطع الصوان التى جمعناها أثناء الرحلة، وهنا يجوز لنا أن نفترض أن التذكارات من هذه الحضارات الباكرة (التى يتحتم أن تكون قد تطورت فى ظل ظروف مواتية) يمكن العثور عليها إذا ما استعملت المعاول فى الكشف عن المستويات السفلى من الغرين، الذى اكتشفنا على سطحه الأصداف والصوان.

كان على الجهمان قد تركنا نجمع الأصداف والتحف بإبل الحمل، كان أرنب برى قد شده وراح يطارده حتى يمسك به، إلى أن وصل إلى المكان الذى نحن فيه حاليا والتقانا عندما كنا نخرج من المنطقة الزلطية إلى رمال عرق نميلة، وأسفرت المطاردة التى قام بها على الجهمان عن أرنب برى، وقنبرة فلسطينية قصيرة الأصابع[١]، وعائلة كاملة من الغربان، كان على الجهمان قد اصطاد ببندقيته غرابًا ذكرًا، وأصاب الأنثى وأمسك بها حية، وضم إليهما ثلاثة غربان صغيرة عمياء وعارية، وواسعة الأفواه، بذلت كل ما فى وسعى للمحافظة على الأحياء من هذه الطيور لكنها ماتت على فترات خلال الأيام التى تلت ذلك. فيما يتصل بالغربان الصغيرة قام زايد الطباخ بإعداد محلول ملحى وضعت فيه هؤلاء الصغار، ناسيا بذلك أن علبة التبغ كانت هى الأفضل، وبعد ذلك ببضعة أيام خطر ببالى أن أقف على ما جرى للصغار، لكن ما أن فتحت غطاء العلبة حتى انفجر المحلول كله فى وجهى، كما لو كان

(١) انظر الملحق.

طلقة من طلقات أحد المسدسات مع رائحة كريهة لم يسبق أن عرفت لها مثيلا. وسرعان ما هربت من ذلك كله، وتخليت عن هذه الطيور الميتة الفاسدة في الصحراء، تاركا إياها لرحمة زوج من أقاربها (الغربان)، كانا ينتظران رحيلنا ليجيئا ويلتقطا مخلفاتنا.

واصلنا سيرنا على رمال النميلة، التي كانت تتخللها بين الحين والآخر بقع من الزلط التي عثرنا في واحدة منها على بعض الأصداف وبعض قطع الصوان، في حين لم نجد شيئا في البقع الأخرى، ونظرا لبداية تحركنا في ساعة متأخرة، ونظرا أيضا لتأخرنا في منطقة رسوبيات الأصداف، ولقربنا من بئر نميلة، اضطررنا إلى التخييم عند الساعة الثانية مساء، بعد مسير لم يزد على عشرة أميال. وهنا سألت رفاقي: أين البئر؟ رد على الجهمان قائلاً: إنها هناك، قالها وهو يشير إلى تل رملي يمكن تمييزه عن التلال المحيطة به عن طريق روث الإبل الذي ينتشر هنا وهناك. أما البئر نفسها فكانت مدفونة تحت طبقة ناعمة من الرمل، ولم يكن هناك أي أثر يدل عليها مطلقا، وكنت أتعجب كيف استطاع المرشدون التعرف على مكان هذه البئر. كان يمكن أن أتشكك في مكان البئر لولا وجود حادث واحد. قال لي المرشدون: الماء كان موجوداً هنا على عمق ثلاث وعشرين قامة، لكن هذه البئر لم يزرها أي قطيع من قطعان العرب اعتباراً من تاريخ حدوث الجفاف الذي حل بهذه المنطقة قبل ثمانية أو عشرة أعوام خلت. كان على الجهمان هو وسالم قد زارا هذه البئر قبل ذلك، لكن ابن حميد، الذي عاش طفولته في هذا المكان، تذكَّر لعبه التي كان يخفيها في مكان ما في هذه المنطقة. ذهب ابن حميد إلى ذلك المكان وحفر الأرض، وأخرج منها حوالي عشرين قرصًا من الطين، كل منها مثقوب في مركزه، أطفال البدو يستعملون هذه الأقراص في لعبة يسمونها الدراج(١)، أما طريقة ممارسة تلك اللعبة فهذا ما لم أتأكد منه، لكن محاولات رفاقي لتفهيمي تركت لدي انطباعا عن خليط

---

(١) الدَّراج: بتشديد الدال وفتحها هي "الحجل" أو "البكر".

من لعبة الداما، ولعبة الحلما، ولعبة الأقراص والكأس(*). وأضفت هذه إلى مجموعة أشيائي، وصورت مجموعة من مرشدينا وهم واقفون على أطلال البئر.

شطحات الفكر الصحراوى تحلق فى آفاق بعيدة مثل تحليقات العقول التى من قبيل عقل آينشتين. هذا يعنى أن الرجل العادى هنا فى الصحراء لا يمكنه سبر أغوار الفكر التى تفضى إلى فهم مريح أو محسوس. ونحن مثلما نعجب ونندهش لتناول الذَّرة وتفتيتها، ندهش أيضا للتعرف على عذراء من مجرد آثار أقدامها. فى الحالين نجد أن العامل المسئول فى ذلك ليس هو الغريزة - كما هو الحال فى الحيوانات التى تبحث عن الطعام أو الماء أو الإناث - وإنما هو العلم والمعرفة. العادة المكتسبة من أجيال طويلة من الخبرة، ومن مراقبة الحقائق المادية وتطبيق سلسلة من التفكير المنطقى على الحقائق التى يلاحظها البشر، هى التفسير الوحيد للمعجزات التى يأتيها هؤلاء الخبراء. يزاد على ذلك أن وعى هذه الخبرة وحفظها عن ظهر قلب يعد عاملا مهما فى اكتساب مثل هذه العادة. وعليه فإن المرشد الجيد فى الصحراء العربية هو ذلك الشخص دقيق الملاحظة، دقيق الاستخلاص، ودقيق التذكر. رجل الصحراء يعرف كل كثيب وكل سلسلة من الكثبان، وكل ثنيه من ثنايا الرمال مثلما يعرف الراعى غنمه واحدة واحدة. رجل الصحراء يرشدك من كثيب إلى آخر بلا خطأ إلى أن تصل إلى هدفك المبتغى، لكن عن بعد قد يخدعك ويخدع نفسه إذا ما سألته عن تحديد الاتجاه. هذا يعنى أن رجل الصحراء إنما يسير فى الخط الذى تمليه عليه ذاكرته وخبرته، فى حين يستطيع المرشدون الممتازون القيام بذلك، بناء على وصف يقدمه لهم رفيق خبير، وسبب ذلك أن رجال الصحراء يستخدمون فى علمهم مصطلحات واحدة ورموزاً واحدة، مثلما يفعل أهل العلم فى سائر أنحاء الدنيا. لكن خارج نطاق مجالهم - ذلك الإحساس القريب برمال الصحراء الكبرى - نجد أن رجال المرّة ليست لديهم هذه الموهبة العقلية أو سرعة البديهة. صحيح أن على يتمتع ببعض ومضات الذكاء وبعض ومضات الفضول فيما يتعلق بالأشياء الخارجة عن نطاق معرفته، لكن ابن حميد،

(*) لعبة الأقراص والكأس: لعبة قوامها قذف أقراص صغيرة ملونة بحيث تستقر فى كأس.

وسويد، وسالم، وكل واحد منهم خبير فى مجال معرفته، كانوا بعيدين تمامًا عن الفهم والاستيعاب. صحيح أن سالم كان فى بعض الأحيان يبذل جهوداً كبيرة فى عدم فهم شيء يشغل حواسه من زاوية غير معتادة، وأنا بنفسى كنت أحاول دفعه إلى ذلك، وكنت أحقق فى ذلك نجاحاً كبيراً كلما استطعت الانفراد به وإبعاده عن الاتصال بزايد أو الآخرين، الذين كانوا على استعداد تام للقيام بدور الشارحين أو المفسرين. كانت متعة حقيقية لى أن أسمع هذا الرجل وهو يضحك بينه وبين نفسه عندما تتسلط عليه الأضواء.. كان سالم يقول لى: أنت ذكى، أذكى منى، هل تفهمنى؟

هذه الريح الشمالية المتربة المحملة بالرمال، التى هبت علينا فى منطقة بئر الفضيل والتى توقفت أثناء النهار، بدأت تهب علينا هنا من جديد أثناء الليل، وكادت تقتلع خيمتى وغطت كل شيء بالرمل، كان متوسط درجة الحرارة خلال الليالى القليلة الفائتة حوالى ٥٠° درجة – انخفضت درجة الحرارة فى مقينمة إلى ٤١ درجة فى الليلة الفائتة – وتوقفت الريح عند الفجر، وأصبح الجو بارداً والسماء صافية.

بدأنا تحركنا عند الساعة الثامنة صباحاً فى أرض "صحراوية" تماما، عبارة عن مخدات متدحرجة ومتكسرة هنا وهناك، وتنتشر فيها سلاسل الكثبان الرملية العالية، كما لو كانت حواجز على صدر هذا المحيط الهائل من الرمال. هذه رقع نباتية ماتت نباتاتها طوال سنوات الجفاف الثمانى، لكنها تحدث تباينا فى تلك الرتابة صفراء اللون، وكنا بين الحين والآخر نلتقى خطا رفيعا من حشائش الأنداب، التى كانت إبلنا تدوسها بأقدامها. هذه الحشائش هى وبعض شجيرات الحض توحى بأنه كان هناك سقوط خفيف للمطر منذ عهد قريب، ومع ذلك كان الجفاف مهيمنا، وكانت الأرض الجرداء خالية من الحياة.

كانت هناك فيما بين سلاسل الكثبان الرملية[1] المتوازية، وديان رملية ضحلة تتخللها رقع متكررة من صخر الأديم[*] المكشوف الذى يتخلله الزلط. وقد شجعتنى الخبرة التى اكتسبتها من اليوم السابق، على زيارة أكبر عدد ممكن من تلك الوديان،

---

(١) عرق السبات، وعرق أبو عفينة وعروق أخرى .

(*) صخر الأديم: هو الصخر الصلد الواقع تحت التربة. (المترجم).

واندهشت أيما دهشة لعدم تسمية تلك السمات والملامح البارزة. والذى لا شك فيه هو أن هذه الوديان معرضة للمحو بفعل حركة الرمال، وهذه الوديان ليست لها أهمية كبيرة عند المجتمع الرعوى، واقع الأمر أن رفاقى استاءوا من تحولاتى الكثيرة طلبا لزيارة تلك الوديان، وذلك على الرغم من كشفهم عن رضاهم وسرورهم عندما كانوا يجدون أن واحدا من تلك الوديان أعطى حصية من الصوان، الموجود ضمن الزلط الذى يعلو طبقة من التربة غرينية الطابع. واحتفلنا بهذه المناسبة بأن أطلقنا الاسم رقة الشلفة[1] على هذه المنطقة.

هبت علينا بعد الظهر تلك الريح المحملة بالتراب، من وراء ظهورنا، لكنها كانت بمثابة المهماز الذى سرّع من حركة الإبل. سرنا فرحين فى موازاة مع المنخفضات الرملية المتدحرجة، الموجودة خلف رقة الشلفة إلى أن ظهر لنا فجأة وسط هذا العالم الميت طائر من طيور الخطاف وهو يقاوم الريح متجهاً شمالاً، يبدو أن طائر الخطاف هذا كان مسرورا من اللقاء على حد فهمي، إذ راح يرفرف بجناحيه حول وبين الإبل بطيئة الخطى، وفهم أن الوقت قصير والطريق طويلة عليه، ومن ثم لف حولنا دورة واحدة اختفى بعدها إلى الأبد. يبدو أن ذلك الطائر كان فى حال طيب، لأن ريشه الأزرق الداكن كان لامعا ومصقولا، فضلا عن أنه لم تبدو عليه أية علامة من علامات الضيق أو القلق. من حسن الحظ أن بندقيتى كانت مع على الجهمان، الذى كان بعيداً عنا يصطاد الأرانب البرية. وهنا خطر ببالى أن نجاتي من أخطار هذه اللقاءات الصحراوية، سيكون لها مغزاها فى إنجلترا، وعقب ذلك مباشرة عثرنا على سحلية وأمسكنا بها، واكتملت حقيبة المساء بأن أضفت إليها جرادتين وبعض الخنافس.

كانت الإبل تستاء من الأماكن الزلطية كما كان رفاقى يستاءون منها أيضاً، وفى معظم الأيام كنا عندما نصل إلى المخيم نجد أن حيوانا أو أكثر من حيوان بحاجة إلى الرعاية الصحية. كانت الأحجار الحادة، التى كان الرجال يمشون ويجرون عليها،

---

(١) معنى هذه التسمية "ساحل سن الرمح".

تتسبب في تمزق راحة أقدام الإبل المعتادة على السير على الرمال، الأمر الذى كان يجعل هذه الإبل تسير فى الصحراء بعد ذلك بأيام والدم يقطر من أرجلها. وعلاج العرب لهذه الإصابات يتمثل فى الترقيع ليس إلا، يجرى قطع شريط أو دائرة من الجلد، على نحو يجعلها تفى بالمطلوب - فى الجزيرة العربية الحديثة يستخدم الناس أنابيب المطاط الداخلية فى إطارات السيارات، لهذا الغرض، ونحن معنا أيضا بعض من تلك القطاعات المطاطية - ويجرى دهان هذه القطع المطاطية بالزبد الذى يجرى وضعه أيضا على قدم الجمل على سبيل الطبابة. وتروح مجموعة من الرجال الأقوياء تمسك بالجمل الذى يقاوم ما يجرى، ويقلبونه على جنبه فى حين يقوم الإسكافى - وهو أبو جعشة فى جماعتنا - عن طريق مخرز متين وشريط جلدى رفيع بتمرير ذلك الخيط خلال الرقعة والقدم، ويكرر هذه العمليات مرات عدة إلى أن تصبح الرقعة جزءًا من القدم. ويجرى بعد ذلك تسوية البروزات أو تنعيمها، ويهب الجمل واقفا كأن العملية شيئًا لم يكن، ليواجه بعد ذلك عالما جديدا من الزلط والحصى. كانت قدماى الرقيقتان تتعاطفان مع أقدام الجمل وهى تدوس على الأرض، لكن العرب بغض النظر عن السن أو الجنس ورثوا أقدامًا لا يحسدون عليها.

كنا بين الحين والآخر طوال مسيرنا فى محيط الرمال نشاهد عن قرب وعن بعد مناظر سلاسل االكثبان الرملية، وبعد برهة من الوقت دخلنا سهلا، عرضه حوالى ثلاثة أميال مكونًا من شرائط طويلة ومتبادلة من الرمال المنخفضة والزلط المنخفض أيضا، وفيه قلة قليلة من الأعشاب وأطلقنا عليها شقة أبو نهار، لسبب بسيط هو أن هذه الشرائط الرملية والزلطية المنخفضة كانت بمثابة العتبة من رقعة مترامية الأطراف، كانت فى يوم من الأيام مرعى يعرف باسم مربخ أبو ليلة. مربخ أبو ليلة هذا يشكل فى واقع الأمر حزاما معتما أمام الأفق. قال سالم: فى الزمن القديم يوم أن كانت هنا حياة فى هذا المكان أو بالأحرى فى هذه الأجزاء، كان المنظر معتما على النحو الذى جعل الناس يطلقون عليه هذا الاسم. أعتقد أن هذا الاسم ليس مشتقا من أبو ليلة، الذى هو لقب أو اسم عائلة شيوخ فرع زايد من الغفران.

السهل الذى كنا فيه كان سهلاً رمليًا متموجًا، أكثر ابيضاضا أو رمادى اللون وليس لونا أسودًا داكنا، لأن المراعى القديمة لم يتبق منها سوى سيقان الأدغال التى دفنت الرمال نصفها. كنا فى منتصف فترة العصر وكانت إبل الأمتعة التى سبقتنا قد بدأت تتكاسل. كانت وقفتنا المعتادة لصلاة العصر طويلة علينا، وعلى الرغم من أننا ركبنا راحلاتنا بعد صلاة العصر كى نواصل مسيرنا، إلا أننا سرنا مدة ربع ساعة، وبعدها توقـفنا عن السير باعتبار ذلك عملا سيئا. كان يستحيل علينا الوصول إلى طويريقة قبل غروب الشمس، إذا ما استمرينا فى مسيرنا بالسرعة التى نحن عليها، وكنا قد عقدنا العزم على تمضية ليلة فى طويريقة تحت أى ظرف من الظروف، وكان لابد من وجود شيء نقبله فى الغد (طوال المسافة التى تقدر بحوالى سبعة أميال فقط). مسيرات فترة العصر فى الصحراء تكون مرهقة دوما، وجالبة للنعاس، وبخاصة إذا ما هبت الريح من ناحية الجنوب. لم يكن ذلك هو حالنا، لكن الرمل الذى كان يندفع أمام الريح الشمالية كان له التأثير نفسه، فضلا عن كوننا صائمين. كنا عند هذه المرحلة قد أمضينا ثلاثة أسابيع من الشهر، وكان هناك إحساس بالتحفظ بدأت أشعر معه بالقلق، ومع تناول ثلاثة برادات من الشاى وسلطانية من حليب النياق كل يوم فى الفترة ما بين المغرب والفجر، لم أكن أحس بالعطش مطلقا، على الرغم من مرور لحظات علىَّ، كنت أحسب خلالها أن شربة من الماء المثلج يمكن أن تكون أفضل شيء فى هذه الدنيا كلها.

أما بقية الجماعة فكانوا جميعًا معنيين بالقهوة، ويبدو أنهم كانوا يجدون شيئًا من التعويض والارتياح من حنينهم هذا إذا ما جلسوا مرتاحين وهم يعدون ويجهزون القهوة لتلك اللحظة المهمة، وهم يراقبون الشمس وهى تزحف نازلة إلى الأفق، ربما كان من الحكمة قطع مسافة أكبر قدر المستطاع ما دامت مسألة التمتع بالمنعشات محرمة أو ممنوعة، لكن هنا إحساس ضئيل بين الرجال الذين يواصلون السير وهم نادمين على كل خطوة تبعدهم عن مواطنهم. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هناك حتى ولو شيء قليل من الرياضة كى يجعل أمثال هؤلاء الناس يُغَيِّرون تفكيرهم.

خيَّمنا بجانب سلسلة من الكثبان الرملية الخفيضة فى رقعة من الأرض الجرداء، الحياة النباتية فيها موات، وازدادت برودة الليل بعد أن هدأت الريح وتوقفت بعد غروب الشمس، كانت درجة الحرارة الصغرى على جهاز قياس الحرارة ٣٧ درجة، واقشعر بدنى من البرد عندما خرجت من خيمتى لتناول وجبة الإفطار فى العراء كما هى العادة. لكن كانت هناك بقية باقية من لحم الجمل الذى ذبحناه فى مقينمة. قال صالح وهو يمسك بقطعة من كرش الجمل: ذق هذه، إنها قطعة طيبة. كانت القطعة غير طرية ومازالت نيئة فضلا عن مذاقها الغريب - إنها جيدة حقًّا.

فى اليوم التالى مررنا على مناطق زلطية كثيرة بين الرمال الضحلة، ثم صادفنا بعد ذلك منطقتين من صخر الأديم يغطيهما الحصى، الأمر الذى يوحى بأن هاتين المنطقتين كانتا حداً لوادى من الوديان. كان زايد وسالم قد نزلا من فوق جمليهما ليساعدانى على تبين معالم الأرض بحثا عن الصوان، وكان زايد قد عثر على رأس سهم لطيفة جداً. قال زايد: انظر ها هو الرمل قد حفر بئرا ! هل تعرف هذه البئر يا سالم؟ رد الآخر: لا، ليست هناك آبار أخرى غير آبار الطويريفية. لكنها بئر، وربما كانت بئر من آبار الأقدمين[1]. أنا لم أسمع قط عن آبار هنا فى هذا المكان وجرى استشارة كل من على الجهمان وابن حميد فأيدا عدم وجود بئر فى هذا المكان. لم يجئ أحد إلى هذا المكان منذ سنوات طوال، وعملت الريح عملها دون أن يراها أحد فى اكتشاف بئر من آبار الماضى. ومع ذلك لم تغب عن أنظار الجميع تلك الحلقة المرتفعة المألوفة التى تنحدر على شكل تجويف شبه مسدود بالرمال، واتفقنا فيما بيننا على تسمية ذلك التجويف باسم بير مرقان وذلك من باب تأبين نظريتى الخاصة بمسألة الدلائل التى لا يمكن إنكارها بشأن الأنهار المنسية. واصلنا مسيرنا فيما بين ما يشبه ضفتى وادى من الوديان إلى أن وصلنا بعد مسير ميلين إلى نتوء أو إن شئت فقل: انتفاخ يحتوى على آبار طويريفه الخمسة.

(١) استخدم زيد كلمة "الجاهليات".

صادفنا هنا بعض القطع الصغيرة من تكوينات بعض الوديان القديمة، فى منطقة يصل طولها إلى حوالى أربعين ميلاً تقريبًا من الشمال إلى الجنوب. يقال إن آبار طويريفه شأنها شأن آبار كل من النميلة وبئر الفضيل، يصل عمقها إلى حوالى ٢٢ قامة، وبدا واضحا أن المنطقة كلها تقع فوق منخفض عميق من الماء العذب. هناك فى ذات الوقت الوديان الكبيرة التى فى منطقة الأفلاج (بدءا من شعب العرس إلى وادى مرقان) على بعد حوالى مائتى ميل. من واقع الطبيعة المجزأة للدلائل المتيسرة يستحيل علينا أن نقطع ما إذا كانت تلك الوديان قد توحدت فى الصحراء مكونة نهراً واحداً ينزل إلى طويريفة، ثم ينحنى ناحية الشمال صوب النُّميلة وبئر الفضيل، ومنها إلى البحر، أو أن هذه الوديان انحدرت مستقلة مكونة دلتا كبيرة على شكل سهل فى هذه الرقعة من الأبيار العميقة. على أى حال، لا يمكن أن يكون البحر على بعد مسافة كبيرة فى اتجاه الشرق من هذه المنطقة فى تلكم الأيام، وسبب ذلك أن آبار مالغة الماء التى كانت فى طريق السيد برترام توماس يبدو أنها تقود إلى مثل هذه النتيجة. من هنا، أرى أننا يتعين علينا تناول فكرة النهر القديم المنسى أو الأنهار القديمة المنسية، أو دلتا تجرى متجهة صوب البحر أو حتى خليج فى هذه المنطقة. لدينا هنا آبار عميقة، وأصداف مياه عذبة وتذكارات لا حصر لها عن زيارة الإنسان لهذه المنطقة، وذلك كله يؤيد هذه النظرية ويدعمها، فى حين نجد أن وجود خليج بحرى شاسع فى الرقعة الشرقية من الربع الخالى، يمكن أن يكون ناتجا عن الطبقة المالحة من الماء الموجود أسفل الرقعة التى تعرف باسم الخيران، والتى سنأتى على ذكرها فى الوقت المناسب.

ظهور ارتفاعات فوق مستوى سطح البحر لا يعنى وجود وادى واحد يمتد من طويريفة فى اتجاه الشمال، باعتبار أن نميلة وبئر الفضيل[1] كلاهما يقعان فوق

---

(١) تقع بئر فضيل على ارتفاع ٧٧٥ قدماً فوق مستوى سطح البحر، ونميلة تقع على ارتفاع ٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. هذه الارتفاعات تقريبية، وهى ناتجة عن حسابات جهاز قياس الضغط الجوى ونقطة غليان الماء على الترمومتر.

مستوى سطح البحر. سطح الأرض ينخفض ناحية الشرق، في المنطقة من مقينمة إلى بئر فضيل، ومنطقة نميلة، التي تبدو مستوية تقريباً عند خط الطول هذا، وتحتوي على رسوبيات أصداف شقات الخلفات، في حين في جنوب النميلة نجد أن الأرض تنحدر جنوبا إلى رقعة وادي طويريفة. هذا الانخفاض في الارتفاع يقابله انخفاض مماثل من الجزء الشمالي من الأفلاج إلى المنطقة المجاورة للمقرن، وهنا قد يبدو لنا أننا نتعامل مع منظومتين بدلا من منظومة واحدة - وادي الأفلاج الذي يمتد شرقا إلى بئر فضيل والنميلة، ومنظومة المقرن التي تنساب إلى طويريفة موازية لهذين الواديين لكن إلى الجنوب منهما. وهذه هي أكثر النتائج ترجيحا عند هذه المرحلة.

عندما اقتربنا من طويريفة عند أعلى الوادي زاد عدد الأماكن الزلطية بفعل زيادة عدد مدقات (طرق) الإبل المعتادة القادمة من البئر الصحراوية، لكني لاحظت من بين هذه المدقات ثلاثة مدقات كانت متوازية بشكل ملحوظ، وهي عبارة عن آثار أقدام مستمرة وعميقة وتمتد قريبة جداً من بعضها البعض. وبعد برهة قصيرة غطى الرمل آثار الأقدام هذه لكنها عادت إلى الظهور بعد ذلك في الزلط الموجود في الخلف. اتفق رفاقي على أن تلك الآثار كانت واضحة لكنهم عجزوا عن تفسيرها، وتركوني لتحزيري وتخميني الذي رجَّح أن تكون آثار الأقدام هذه عبارة عن أجزاء من طريق قديم للقوافل الذي كان يمر بهذه المنطقة. يزاد على ذلك أن الخطوط التي رأيتها في اتجاه الجنوب الغربي والشمال الشرقي، يحتمل أن تكون مؤدية إلى مقينمة أو إلى الأفلاج مباشرة.

أبيار طويريفة الخمسة تقع في تجويف رملي في سلسلة من الكثبان الرملية، يتردد ارتفاعها بين ٤٠ و ٥٠ قدماً تمتد في موازاة مع الجانب الأيسر من الوادي. ونظرا لأن البدو الرعاة هجروا تلك الأبيار الخمسة منذ حوالي ثماني سنوات عندما بدأ الجفاف، فقد انسدت تلك الأبيار بفعل الرمال. البئر الرئيسية يمكن التعرف عليها بسهولة، أما الآبار الأخرى لم يكن الحفر من الصعب التعرف عليها عن طريق الأجزاء المرتفعة منها، وعن طريق ناتج الحفر من هذه الآبار - في قاع واحد من تلك الآبار،

على حد قول رفاقي، اندفن جثمان أحد الرجال قبل سنوات عدة، بفعل انهيار الرمل داخل البئر عندما كان ذلك الرجل يقوم بتطهيرها. يقال إن الماء موجود في طبقة صخرية - غالبا من الحجر الجيرى - لكن الحفر يجرى تنفيذها إلى أعماق كبيرة فى التربة الغرينية، التى يحتمل أن تسقط داخل الحفرة، مثلما حدث فى تلك المناسبة. كان من بين الأشياء التى جمعناها من أكوام القمامة. أحجار للسن، وقطع صغيرة من أصداف بحرية جلبها الإنسان إلى هذه المنطقة.

كان على وفراج قد ذهبا إلى مسافة بعيدة فى الصباح ومعهما بندقيتى وكمية من الذخيرة على أمل اصطياد طريدة من الطرائد، كنت قد أخبرتهما بعدم اصطياد الطيور الصغيرة التى قد تعترض طريقهما، وها هما يعودان إلينا بحصيلة طيبة عبارة عن أربعة أرانب برية، وقنبرتين مزدوجتا الوجه، وطائرين من طيور أبو بليق[1]. قبل غروب الشمس اصطحبنى علىّ إلى قمة كثيب رملى يطل على المنطقة المحيطة. كان القلق يبدو على علىّ، وهذا القلق يتملك العرب عندما يخيمون بالقرب من بئر من الآبار، مخافة أن تمر جماعة من جماعات الغزو على مسقى بعيد مثل هذا المسقى، على أمل أن تكون هذه البئر مفتوحة. على كل حال، فقد تأكد علىّ بفضل نظارتى المكبرة من أننا كنا وحدنا ولا أحد يراقبنا. ياله من مشهد من مشاهد الفراغ! كانت الآبار ميتة، وكانت المنطقة المحيطة بنا تعانى من الجفاف. ردّ علىّ على قائلاً: ياله من بلد فى تلك الأيام! منذ حوالى عشر سنوات، أو حوالى اثنى عشر عاما شاهدت الوعل الأبيض فى هذه المنطقة. نعم، وبمشيئة الله، سوف نصطاد الوعول البيضاء خلال فترة قصيرة عندما ننزل إلى المراعى الأفضل والأوفر - وبأعداد وفيرة أيضا - وسوف نمسك بأطفال الوعول البيضاء وهم أحياء، حتى يمكنك أن تأخذها معك إلى بلدك، مثلما فعل واحد من النصارى فى العام الماضى - وقد أبلغنى ذلك النصرانى أن السيد برترام توماس قد حصل على بعض العينات الحية؛ لكى يأخذها معه إلى بلاده، كما أخبرته أيضا عن

---

(١) أنا مدين فى مسألة البت فى أنواع الطيور للسيد ن.ب.كينيار Kinnear من المتحف البريطانى. راجع الملحق.

الهدية المكونة من وعلين أبيضين، أرسلهما ابن سعود إلى الملك جورج. وسوف أرشدك بين الكثبان الرملية إلى المكان الذى يمكنك منه اصطياد هذه الـوعول البيضـاء. نعم، لا تخف، سترى هذه الوعول البيضاء بأعداد كبيرة - بمشيئة الله. هذه الوعول تتبع المراعى - علف الإبل هو علف الوعول البيضاء - سواء أكانت تلك الوعول فى الـرمل أو السهوب، على الرغم من أنها تُفَضِّل السهب إذا كان المرعى فيه طيبا. ومع ذلك فإن الرمال هى ملاذ ومأوى تلك الوعول البيضاء عندما تخاف الإنسان أو تستشعر الخطر. هذا المكان يغص بالوعول البيضاء هى والقطط البرية، كما تتوفر فيه أيضا الثعالب، لولا هذه السنين الثمانى من الجفاف!

نزلنا من المنحدر عندما كانت الشمس توشك على الغروب؛ لننضم إلى رفاقنا فى تناول إفطار رمضان، وفى ضوء مسيرنا طوال الأيام الثلاثة الماضية بلا مـاء، وفى ضوء الرحلة المقبلة التى ستستغرق ثلاثة أيام أخرى بلا ماء أيضا، دار الحديث بين أفراد الجماعة عن المسيرة التى ستبدأ صباح الغد، لكننا سبق أن تحدثنا كثيرا عن مثل هذه الأمور، إما للتوقف فى حال ما إذا كنا سنبدأ السير فى ساعة مبكرة من صباح الغد، أو إذا كنا سنواصل مسيرنا فى فترة العصر، ولذلك لم أكن أعير اهتمامى الكلام الذى من هذا القبيل، فى هذه المرة، كان رفاقى يعنون ما يقولون، فقد أيقظونى عند الساعة الثالثة والنصف صباحًا على ندائهم بأن طعام السحور أصبح جاهزًا. بعد تناول السحور مباشرة رحت أدون مذكراتى وأرتب الأشياء التى جمعتها، لكنهم طلبوا منى خيمتى، التى جرى سحبها من فوق رأسى وأنا جالس أكتب وأرتب أشيائى. عند الساعة الرابعة والنصف صباحا كانت إبل الحمل والأمتعة قد بدأت السير بالفعل بقيادة سالم، الذى كان يتقاسم مع على الجهمان أسرار الصحراء والرمال. كان الجو ما يزال مظلما، بطبيعة الحال، والهواء باردًا لكن بلا رياح. واقع الأمر أن الأحوال الجوية كانت شتوية وسجَّل مقياس الحرارة (الترمومتر) درجة تقل عن ٣٤ درجة، واصلت عملى مع براد من الشاى طلبًا للدفء، فى حين ترك رفاقى دلة (وعاء) القهوة على النار إلى ما بعد صلاة الفجر، التى ألقوا أنفسهم بعدها فى عباءاتهم وراحوا ينامون انتظارا لشروق الشمس. كانت الساعة حوالى الثامنة صباحًا قبل أن نبدأ

تحركنا، وظل النهار لطيفا إذ لم تتجاوز درجة الحرارة الثامنة والستين درجة. وبدأت ريح شمالية خفيفة تهب علينا مع طلوع الشمس، وتزايدت قوة هذه الريح واشتدت إلى أن خمدت تماما عند غروب الشمس.

كنا نرى أمامنا الأرض الشاسعة التى يسكنها بنو مُكَسَّر، هذه الرقعة من الأرض فيها العديد من سلاسل الكثبان الرملية المتوازية. اتضح أننا كنا بالفعل فى وسط الصحراء الجنوبية الكبرى، وأخذت المسافة القصيرة من الكثبان الرملية التى رأيناها وسط الرمال المنخفضة تتحول فجأة إلى حواجز رملية جبلية. فيما بين السلسلتين الأوليين، كان هناك وادى واسع من الرمال المتدحرجة فيه بعض الرقع الزلطية المكشوفة مكونة بذلك أديما لهذه الرقع. عندما وصلنا إلى السلسلة الأولى من هاتين السلسلتين درنا حولها متبعين فى ذلك آثار أقدام إبل الحمل، إلى أن وصلنا إلى أعلى نقطة فى كثيب من الكثبان الرملية، وهنا طلبت من رفاقى أن نتوقف لكى أتمثل المنظر وأبحثه من فوق هذه القمة. وراحت الريح تكتسح الرمل من فوق قمة الكثيب على شكل ملاءة مستمرة، كل ذلك ونحن جالسين على تلك القمة ننظر إلى الوادى الزلطى، والعامرة بالكثير من الكثبان الرملية الشبيهة بالكثيب الذى نجلس عليه.

نزلت بصحبة كل من زايد وعلى الجهمان ذلك المنحدر الرملى الهيِّن – الذى قد يتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠ و ٢٥٠ قدم – وذهبنا إلى الجانب البعيد بحثا عن الأصداف أو قطع الصوان فى الأرض الصخرية. وراحت الإبل تحتج وتتمرد على النزول، وأجبرناها على النزول، وكانت أقدامها تغرس إلى ركبها فى الرمل مع كل خطوة تخطوها. هذه السلسلة من الكثبان الرملية كانت تمتد إلى ما يقرب من حوالى خمسة أميال بحذاء الوادى، وتمتد فى اتجاه الشمال الشرقى والجنوب الغربى. وما أن وصلنا إلى القاع حتى بدأنا العثور على الصوَّان، وعلى بعد مسافة قصيرة عثرنا على دلائل بئر أخرى غير معروفة – واتفق سالم معى بعد ذلك على أن الناس لا يعرفون أى شىء عن هذه البئر – عمَّدناها وأطلقنا عليها اسم بئر مكسر. هذه البئر تقع على بعد حوالى خمسة أميال فى اتجاه أقصى الجنوب الشرقى من الطويريفة، وثبت أن

هذه البئر كانت آخر الدلائل على وجود النشاط البشرى فى هذه المنطقة، التى كانت محطا لفيضانات قديمة.

كانت رمال الصحراء تمتد متواصلة خلف تلك البئر. وكانت بقية الجماعة قد سارت مقتفية آثار إبل الجمل، وشاهدناهم وهم يهلون علينا نازلين من منحدر الكثبان الرملية البعيد، فى حين رحنا نحن نختصر الطريق سعيا إلى لقائهم. هذا المنحدر الرملى أوصلنا إلى سلسلة الكثبان الرملية الثانية، وفى السلسلة الكثبانية الرملية الثالثة عثرنا على ممر سهل، وخلف هذه السلسلة الثالثة عبرنا منخفضا من الرمال المتدحرجة لنصل بعد ذلك إلى الجانب البعيد من منطقة بنى مُكَسَّر. هذا الجانب البعيد يقدر عرضه بحوالى خمسة أميال، ومن خلفه توجد المنطقة التى يسمونها السعافى، والتى أمضينا فيها بقية اليوم والقسم الأكبر من اليوم التالى.

هذه الرقعة من الأرض تختلف عن الرقعة السابقة، من منظور أنها عبارة عن محيط من المخدات الرملية، التى تتخللها سلاسل قصيرة من الكثبان الرملية العالية، التى تشبه القواطع التى توجد بين نباتات الغاب فى بحر من البحار. كانت سلاسل الكثبان الرملية طويلة لكن مكسرة إلى أنساق طولية قصيرة بدلًا من أن تكون طويلة ومستمرة، كان طريقنا الذى يدخل المنطقة من خلال فجوة بين سلسلتين من هذه السلاسل الرملية، ومن خلفهما وادى شقات البركان ملتف الأشجار فى الناحية اليمنى – يقال إن هذا الوادى يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى إلى مسافة بعيدة – يمتد من فجوة إلى أخرى خلال ما لا يقل عن عشر سلاسل من هذه السلاسل الكثبانية الرملية المتقطعة، إلى أن وصلنا إلى أرض مرتفعة من المنخفضات الرملية، دون وجود أية ملامح كثبانية رملية تعترض انسياب تلك السلاسل الشبيهة بالمحيط. لم نكن نعلق على هذه المنطقة اهتمامًا كبيراً، اللهم باستثناء أدغال نباتات الآبال، التى بدأت تظهر من جديد فى المنخفضات الرملية بعد غياب طويل عن المشهد – كان ذلك مثيرا للحقد والضغينة، ومع ذلك رحبت به الإبل، التى بدأت تكشف عن دلائل عطشها الناجم عن اقتصار غذاء هذه الإبل على عشب الحض الجاف. عثرنا فى دغل من أدغال الآبال القريبة من

مسارنا على عش غراب مهجور، وفي اليوم التالي لاحظنا زوجين من الغربان، من الواضح أنهما كانا يتأملان مسألة التزاوج وبناء الأعشاش، كما شاهدنا أيضا بين الحين والآخر بعضا آخر من الغربان. كانت أعداد الطيور الصغيرة كبيرة هي الأخرى - شاهدنا نوعين من القنبر وطائر واحد من أبو بليق - في حين اصطاد رجالنا عدداً كبيراً من الأرانب البرية.

كان رجالنا صادقين في كلامهم، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء قبل أن نلحق بإبل الحمل وجماعته التي اختارت مكانا للتخييم في المساء بعد اثنتا عشرة ساعة من السير المثمر. كنا قد قطعنا قرابة ثلاثين ميلا، وبذلك نكون قد حققنا أفضل إنجاز لنا من حيث المشي منذ بداية الرحلة. أثناء انشغال الجماعة بنصب الخيام صعدت فوق ربوة منخفضة مستديرة الشكل؛ لاستطلاع المشهد بصحبة محمد الذي احتل مكانه هناك لمراقبة الإبل التي أرسلت للرعي، بعد وصولنا مباشرة إلى المخيم، وسرعان ما جاء إلينا علي الجهمان وانضم إلينا، وبينما كنا جالسين على الربوة نتجاذب أطراف الحديث، تملكتني الدهشة والعجب عن الأسباب التي أدت إلى نمو مدينة كبيرة وسط هذه الأرض الجرداء. هذا التساؤل والعجب سيجري الرد عليه في اليوم التالي، بلا أدنى شك. وراح علي يتكلم وهو مفعم بالأمل على الرغم من تعجب الرجل من مسألة إثارة أحلامي وآمالي على نحو أكثر من اللازم. يضاف إلى ذلك، أنه كان هناك سبب آخر أربك روح الجشع في ذلك الرجل، وجه عليّ الحديث والحوار وجهة سهلة، ورحنا نتحدث عن الغزو والأشياء التي من هذا القبيل. كان عليّ يشرح لي تقسيم الغنيمة التي يجري الحصول عليها عن طريق الغزو. يحصل زعيم الغزو بطبيعة الحال على نصيب إضافي، علاوة على حصته الأصلية كفرد من أفراد الغزو، كما يحصل أيضا على نصيب لجمله، والمطايا الأخرى التي يقدمها لأولئك الخدم الفقراء الذين ليس لديهم إبل، من هنا يحصل كل رجل على نصيب، ويحصل كل جمل على نصيب يدفع لمالكه وليس إلى راكبه. ويخصص خمس الغنيمة للقبيلة، أو إن شئت فقل الحكومة، حسب مقتضى الحال، وبالتالي تحصل الشخصيات الرئيسية على نصيب إضافي، في حين يحصل رئيس الغزو على نصيب إضافي أيضاً. يلي ذلك المرشد، تلك

الشخصية المهمة فى مثل هذه الظروف، الذى يحصل على نصيب، علاوة على ما يحصل عليه تحت مسميات مختلفة. قال عليّ: فى كثير من الأحيان كنت أقوم بدور المرشد فى الغزو، وبذلك كنت أحصل على نصيب إضافى من الغنيمة. لكن قل لى - وألقى على نظرة مفاجئة فيها الكثير من الرجاء والتشوق - هل أوضح لك بن جلوى أنى يجب أن أكون مرشد هذه الرحلة؟ رددت عليه، بأنه جرى التأكيد لى على أننا سيكون لدينا عدد كاف من المرشدين فى مراحل ترحالنا المختلفة، لكن لا تخف، سأكون طيبا معك إن خدمتنى بحق فيما أريده منك. انظر إلى هذه النظارة - سأعطيها لك هدية، هى وأشياء أخرى، عندما نصل إلى حضرموت. التمعت عيناه فرحا. رد على قائلا: بعيدا عن هذا الإيحاء بالمكافآت! أنا لا أرغب فى شيء سوى خدمتك أنت ومن أرسلنى معك، ولقد غضبت منذ أيام قلائل عندما سمعتك وأنت تعد كلا من سالم وسويد بمكافأة على قطعة حديد. يجب ألا يغيب عن بالك أنى أنا مرشدك فى هذه الصحراء، أو بالأحرى فى هذه الأماكن.

كان قد مضى على الحوار الذى أشار إليه حوالى ثلاثة أسابيع، ومع ذلك لم ينس عليّ ذلك الحوار، وكان ذهنه مشحونا بالغيرة والقلق. وفى صبيحة اليوم التالى بدأت إبل الحمل والأمتعة تحركها عند الساعة الخامسة والنصف صباحًا، تحت إشراف سالم، وعند الساعة الثامنة صباحًا بدأت البقية الباقية من الجماعة مسيرها بحثا عن مدينة وبار. كان على الجهمان مصغيا وقتها لى تماما، ركبت دابتى (ناقتى) فى حين راح يمشى هو بجانبى وهو يقتاد ناقته نعرية. أخيرًا وبطريقة هادئة وعادية تماما، افترقنا ولاحظته عن يمينى، وهو مايزال يقتاد جمله. وكالعادة، حسبت أن على الجهمان كان يقص أثر الطرائد، عندما دخلت فى حوار مع سعدان وابن معدى، انصرف ذهنى عن موضوع على الجهمان. كان المشهد أمامنا بلا معالم مميزة - محيط هادى ومنخفض من المخدات الرملية اللطيفة. المشهد هنا شبيه بالمشهد المحيط بفراجة، على حد قول ابن معدى، لقد ذهبت إلى فراجة فى العام الماضى فى أمر يخص ابن جلوى. سقينا من بدع الحلفاء ونزلنا إلى بئر فضيل عن طريق قصاب . وفى المسافة ما بين بين فضيل وفراجة سقينا من فضيلة. تعد فراجة مدفونة

حاليا نظرا لأننا تركناها بلا اكتشاف - لقد اضطررنا للخروج لمعاقبة بعض من أهل على الجهمان، أقصد الغفران، ولذلك تركنا بئرهم تحتضر. نحن يتعين علينا حاليا إرسال إبلنا لتشرب من إبراهيمة، التي يقولون: إن ماءها طيب لكنها تقع على بعد مسافة كبيرة. أنا أعلم أن جماعة السيد برترام توماس كانت قد سقت من فراجة، وأنه بعد مرور الرجل - بحوالي شهر بعد ذلك - كانت رحلته قد نزلت جنوبا إلى كل من بئر هادى والشناء. منطقة السعافيج، التي تبعد حوالي ٤٠ ميلا وعلى خط مواز لمسارنا الشرقي، تعد جزءا من منطقة السنام. خلف منطقة السعافيج وفي اتجاه الشرق توجد منطقة أخرى مماثلة يسمونها تراعين، ويتخلل انتفاخها اللطيف هنا وهناك بعض التلال الرملية المنعزلة. حرص على الجهمان على وصف هذا الشيء الغريب، وهنا فهمت النقطة التي كانت تميز مرورنا من منطقة إلى أخرى. كان هناك مخروط منعزل يرتفع حوالي ٥٠ قدماً عن المستوى العام، وفيه تجويف على شكل حدوة فرس يواجه الناحية الجنوبية لكنه ممتلئ إلى منتصفه بالرمل. ربما كان ذلك المنخفض في طور التكوين، أو قد يكون في مرحلة متقدمة من مراحل الدفق، نظرا لأن الرمل الموجود في المنخفض كان ناعماً جداً، فضلا عن أن آثار أقدام أرنب برى فوق هذا الرمل توحي بوجود حيوان ثقيل، هذه الآثار كانت كبيرة وعميقة. قلت متعجبا وأنا أنظر حولي بحثا عن علي عله يؤيد تخميني: قد يكون هذا المخروط هو أول مخاريط تراعين. وهنا أدركت أني لم أر عليّ منذ حوالي خمس ساعات، وبسرعة عرفت أن علي قد أفلت منا - لهدف محدد. كان علي الجهمان قد عقد العزم على تأمين المكافآت المنتظرة لصالحه هو. وقد أقلقني ذلك وأعربت عن استيائي لعدم وجود مرشد معي. في أرض قفر، لا يمكن لأي مرشد أن يضيف شيئًا أكثر من المعلومات الجغرافية التي كنت أبتغيها، هنا أحسست أن تشويق أو ترويج أي موقف من المواقف الدرامية أمر غير مطلوب. كنت قد صورت قافلتنا المهيبة وهي تظهر فجأة أمام بقايا مهجورة لعظمة قديمة. لقد بدأ علي يكشف الطلاء عن الحلية، وهذا أغضبني.

واصلنا مسيرنا واجمين إلى حد ما، وكنت أتطلع إلى أن نصل إلى مبتغانا في ذلك اليوم. هذه الرتابة الصحراوية لم توحِ لنا بما يمكن أن يغير ذلك الهدوء المميت.

أوشكت فترة العصر على الانتهاء وعند الساعة الثالثة والنصف رأينا عن بعد - على بعد أميال - قافلة الحمل التابعة لنا، على شكل خط، وهى ما تزال ماشية فى طريقها. وعندما لحقنا بالقافلة، كان الوقت قد حان للتفكير فى مسألة التخييم، ولكى أجعل مسألة التخييم أمرًا ممكنا، أصررت على التوقف لأداء الصلاة بعد الساعة الرابعة مباشرة. ومع ذلك، لم يكن لدى رفاقى رغبة فى التأخير، وأنا بدورى لم أطل الوقفة أكثر من عشر دقائق. وبعد الانتهاء من الصلاة، ركبوا دوابهم على الفور، وواصلنا سيرنا أملا فى اللحاق بإبل الحمل.

فجأة ظهر لنا من بعد راكب وحيد! بدا لى الراكب وكأنه يومئ إلى، لكنى واصلت السير ماضيا فى طريقى، قال زايد وهو يجرى كى يلحق بى: انظر إنه على، وهو يشير ويومئ إلينا بأن نتبعه فى اتجاهه. رددت عليه: انظر هذه هى أمتعتنا مع سالم هناك. سوف أسير مسار سالم، إنه مرشدنا، لقد هجرنا على الجهمان منذ مدة، بوسعه أن يتبعنا إن أراد، لكننا سوف نخيم مع إبل الحمل والأمتعة عندما نلحق بها. بوسعنا أن نبحث غدا عن الحديد. أنا تعبت ويكفينى ما أصابنى اليوم. واصلنا مسيرنا وجاء على يجرى فى أثرنا باهتياج شديد. الله يطول عمرك ويعطيك القوة! صاح بعض أفراد الجماعة عندما كان على يقترب منا - بمشيئة الله، أخبار طيبة! التزمت الصمت، وواصلت السير كأنى لم أسمع شيئا. قال على: تعالوا من هذا الطريق لقد أخطأ سالم المسار. المسار هنا خلفى! قال زايد مكررا كلام على الجهمان: إنه يقول إننا يتعين علينا التحول إلى اليمين، ثم إلى الجنوب إلى المكان الذى جاء منه. المسار هنا. أجبت قائلاً: أنا أعرف ذلك، ولكنى سوف أذهب إلى سالم.

واصلنا مسيرنا ونحن نتجادل، لكن سالم هو الذى حل المشكلة، لقد لاحظت جماعة سالم عودة على الجهمان إلينا، وعليه عدل الرجل مساره إلى زاوية قائمة. وأنا شخصيا كنت أود التخييم فى المكان الذى كنا فيه، مؤجلا الأنقاض إلى الغد، لكنى استسلمت لضغوطهم وسرنا فى الاتجاه الذى حدده المرشد الرئيسى الغاضب. سار على الجهمان إلى جوارى فترة صامتا وهو فوق ظهر راحلته، بعد أن تأكد فى البداية

من غضبى واستيائى. حاول على الجهمان تلطيف الجو بأن قال: أنا لم أكن متأكداً من الموقع، وبالتالى لم أود أن أقودكم إلى هنا وإلى هناك فى هذه الرمال. رددت عليه قائلًا: وعليه تركتنا بلا مرشد نتجول على هوانا! قال على الجهمان: لقد أخبرت زايد بالاتجاه الذى يتعين السير فيه، ولم يكن فى طريقى تلال أو وديان حتى يمكن أن أسميها لك، المكان كله كان سعافيج وتراعيز. كان ينبغى عليك ألا تتركنا دون أن تبلغنى بذلك، قلت هذا الكلام وأنا أفكر فيما هو قادم وليس فى سلوك على الجهمان أو تصرفاته.

انتبه يا شيخ عبدالله، واصل على الجهمان كلامه ظنا منه أنى رضيت عنه، لقد عثرنا على القلاع. القلاع موجودة هناك أمامنا، وسوف نراها بعد وقت قصير جداً، وأنا عندى لك خبر طيب - أنا لم أر من قبل مطلقًا قسمًا كبيراً من هذه القلاع مكشوفاً. الرمل يغطى هذه القلاع تماما فى معظم الأحيان، وأنا لم أدرك أننا يمكن أن نرى هذه القلاع إلا بعد أن رأيتها بنفسى. واصل على كلامه قائلًا: انتبه! لقد أحضرت معى حجرا من بناية من البنايات كى أريك إياه. وأخرج على من تحت عباءته، فى شىء من السحر والغموض، كتلة شبه مربعة من الخبث[1] الأزرق الداكن، كما لو كانت مأخوذة من فرن من الأفران اللافحة.

(١) الخبث: ما يتخلف عند صهر المعدن الخام. (المترجم)

الفصل الثالث

وبار

من القرية تنفذ الشمس إلى البلدة،

لا تلم المرشد الذى ينشدها الآن بلا طائل،

منذ أن خفّضتها القوة المدمّرة،

اسمع إذن كلام عاد، لكنعاد ولده:

انظر بلدتى المحصّنة، أوبار تصرخ!

احتفظت داخل إسطبلاتها بتسعين جواداً،

لصيد الطرائد، الصغيرة والكبيرة،

وتسعين خَصيّاً داخل الأسوار

يلبسون ثياباً من الشمال والشرق،

وتسعين محظيةً، جميلات الصدور

وأرداف مستديرة، كانت تسليني فى الصالات

لقد ولى ذلك كله، كل هذا وذاك، ولا يمكن

لأى شىء أن يصلح الخراب، لا أمل إلى الأبد

أدرج ابن جلوى شخصياً زيارة وبار ضمن برنامج رحلتنا بناء على طلبى - كانت لدى ابن جلوى فكرة غير واضحة عن أن وبار تقع فى مكان ما من الربع الخالى، لكن من بين رفاقى كلهم لم يكن هناك من يعرف أسطورة هذه المدينة سوى عدد قليل منهم - ولم يستطع سوى اثنين من هؤلاء الرفاق ربط هذه المدينة بما لديهم من معارف - هذان الاثنان هما على الجهمان وسالم بن سويلم، فى حين لم يكن لدى سويد هو وابن حُمَيِّد سوى معرفة طفيفة جداً بذلك المكان، كان حديثنا قد تطرق، فى الأسابيع السابقة، بطبيعة الحال، إلى هذا الموضوع، ولذلك وضعت على رأس هذا الفصل ترجمة لنص غير سليم لواحدة من الأغنيات الشعبية، انتزعتها من بين شفاه على الجهمان ونحن راكبان على ظهرى جملينا. أنا لا أعرف أصلاً لهذه الأغنية الشعبية - وهو أيضاً لا يعرف لها أصلاً - لكن تصادف أنه كان يقتبس البيت الثانى من هذه الأغنية، ونحن نبحث عن بئر حفاير بن الأدهم بالقرب من حافة الجافورة، وعن طريق الاستدراج والترغيب تمكنت من الحصول منه على بقية الأغنية، وجعلته يكررها مرات ومرات إلى أن تمكنت من الحصول على النص كاملاً بالشكل الذى يحتمل أن تكون عليه. يبدو أن على الجهمان لم يكن يعرف أية قصيدة أخرى ذات علاقة بتلك المدينة الأسطورية، وقد انشغل بالى بصفة خاصة باسم القصيدة - أوبار، أى جمع "وبر"(١) ، ونطق الرجل المقطع الأول من كلمة "أنبار" على أنه O كاملة الاستدارة (أوُ) وهذا الحرف لا يحدث فى الأبجدية العربية.

ياقوت هو المصدر الرئيسى لتلك الأسطورة (التى نقلها عن الحمدانى وآخرين)، يورد اسم هذه المنطقة على أنه وَبارالدواسر فى العام ١٩٨١ الميلادى. فى تلك المناسبة كان جابر بن فرج قد حكى لى عن كتلة عجيبة من الحديد "مثل الجمل" - وكان يقصد بذلك الحجم على العكس مما ذهبت إليه، إذ حسبته يتحدث عن تمثال - فى وسط

---

(١) الوبر: هو شعر الجمل. والتعبير "أهل وَبَر" بمعنى "أناس يسكنون بيوت شعر". (راجع كتاب بيرتون، الليالى العربية، ملاحظة عن الليلة ٩٧٧).

الرمال الجنوبية. صرَّح جابر أنه رأى هذه الكتلة بنفسه، وأعطانى مؤشراً - الاتجاه والمسافة من الأفلاج، التى كنا فيها فى ذلك الوقت - عن موقعها. وعندما كان جابر يتحدث عن هذه الكتلة من الحديد كان يستعمل مصطلح "حديدة"، كما ذكر أيضًا أن تلك الحديدة كانت فى وسط بعض الأنقاض التى يطلق عليها اسم جافورة ومن مصدر آخر - قد يكون واحداً من أفراد الجماعة أو من أهل الأفلاج - سمعت عن مجموعة أخرى من الأنقاض فى الرمال نفسها، التى وردت منها تقارير تفيد أن البدو كانوا يحضرون منها تذكارات تدل على أثريات إنسانية. هذا المكان حصلت له على اتجاه ومسافة من الأفلاج تحت الاسم وبار أيضًا، فضلاً عن تفاصيل أسطورتها، التى كانت ترتبط مدينة عاد بن شدَّاد (كنعاد) (ببعض الأنقاض (الحديثة نسبيًا)) التى تعرف باسم قصيرات عاد على حدود منطقة الأفلاج.

فى الظروف التى تكون من هذا القبيل يجرى استخلاص المعلومات بطريقة غامضة وعلى شكل قطرات، لكنى جمعت تلك النتف إلى بعضها قدر المستطاع، ونشرت نتائج تحرياتى ومعها حكاية تجوالاتى الأولى فى الجزيرة العربية[١]. حاولت أيضًا إن أوضح على الخارطة موقع هذين المكانين تحت اسمى جافورة ووُبار.

شكل الاسم الأول (جافورة) مصاعب جمة للرائد شيزمان، وربما أدى ذلك إلى شىء من خيبة الأمل، ذلك أن الرائد شيزمان أثناء رحلته إلى جابرين دار حول الحافة الغربية لجافورة بكاملها، وبذلك اكتشف أنها تقع على بعد مسافة كبيرة من الأنقاض التى أطلعنى رفاقى عليها. وهنا اتضح لى أن هناك خطأ فى الاسم، لكن الخطأ وأنا على يقين من ذلك، راجع إلى جابر وليس إلىَّ، على الرغم من أنى قد أعد مسئولاً عن إلحاحى عليه فى تسمية المكان، دون أن أعى أنه بالفعل أعطانى اسم المكان فى كلمة الحديدة، يزاد على ذلك أن ما قاله الرجل عن المرَّة والبحيح ينصب على رمال

---

(١) انظر كتاب "قلب الجزيرة العربية" (هذا الكتاب مترجم إلى اللغة العربية، وهو من منشورات المجلس الأعلى للثقافة بجمهورية مصر العربية، ومترجم الكتاب هو: الدكتور صبرى محمد حسن). (المترجم)

الجافورة، وفى ظل الظروف التى كنا فيها ربما يكون الرجل قد ظن أن الاسم الذى أعطانى إياه يعد كافياً.

على أى حال، تولد لدى فى ذلك الظرف انطباع عن موقعين قديمين مختلفين فى صحراء الجنوب الكبرى، وأن الموقعين يبعدان عن بعضهما مسافة كبيرة. وهنا تولد فى أمل اكتشاف هذين المكانين هما وأجزاء أخرى من الربع الخالى، إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وعلى قدر اهتمامى، ظل هذا الأمر مركوناً سنوات عدة ولم أسمع أى شىء عن تلك الأنقاض العجيبة التى لم تغادر مخيلتى. فى ذات الوقت كان السيد برترام توماس لديه فكرة غير واضحة عن هذه الأشياء نفسها، أثناء الرحلة التى قام بها إلى عُمان، كما أنه أثناء المرحلة الأولى من رحلته فى العام الماضى عبر الربع الخالى أطلعه مرشدوه على حزام كبير من آثار أقدام القوافل المتجهة صوب الشمال الغربى خارجة من السهب الموجود عند الحافة لتدخل إلى رملة الشعيث، وقيل لبرترام توماس: إن ذلك هو الطريق إلى أوبار.

هجاء برترام توماس للكلمة مهم، لأنه يوضح أنه دونها طبقًا لنطقها المحلى بواسطة المرشدين – وهم رجال من قرب، والعوامير، ومن قبيلة الكثير أيضًا، الذين أدت طبيعة حدودهم إلى تعرضهم لبعض المؤثرات اللغوية الأجنبية. كلمة أوبار نفسها هى شكل مستحيل أن يكون من أشكال النسيج العربى، ويبدو أن السيد برترام توماس لم يدرك علاقة هذه الكلمة بالشكل الكلاسيكى لكلمة (وبار) إلا بعد أن قمت أنا بتوضيح هذه الحقيقة[1]. ومع ذلك ليس هناك شك فى أن مدينة الرمال الأسطورية التى ورد ذكرها فى الكتب الكلاسيكية القديمة على أنها وَبار أو أوبار، وفى الاستعمال اللهجى على أنها أوبار أو هى هى الكلمة نفسها. هذه النقطة لا تسمح بأى نوع من الجدل، على الرغم من انفتاحها أمام أولئك الذين يودون البحث عن الأنقاض فى أماكن

(١) راجع كتاب "اليمن السعيد" صـ ١٦٨ .

أخرى غير المكان الذى وصلت إليه حاليًا، مستهدفًا بذلك الكشف عن هذه الأنقاض بصحبة مرشدين يقرون بأنهم قادرون على تحديد مواقعها.

فى ضوء قوة الأخبار التى تسقطها المرشد، اقترح برترام توماس على خارطته موقعًا "محتملاً لمدينة أوبار القديمة"، وحدده على وجه التقريب على أنه عند دائرة عرض ٥٠ درجة و٣٠ دقيقة شرقًا ودائرة عرض ١٩ درجة شمالاً. هذا الموقع الذى حدده برترام توماس يبعد مسافة تزيد على المائتى ميل جنوب شرق الموقع الذى حددته أنا، وقد تكون فيه أنقاض، على الرغم من أن كتالوج (سجل) التذكارات التى جرى العثور عليها بين ميتان وفساد بواسطة رفيق الراشدى الذى يدعى معيوف، الذى "نسى الموقع الدقيق منذ زمن طويل"، لم تكن له أهمية خاصة. يزاد على ذلك أن خبراتى الخاصة لم تسمح لى بتغيير تجوالى ليكون فى الاتجاه الذى حدده برترام توماس، فى الوقت الذى كان بوسعى فيه تحويل اتجاهى إلى ذلك المكان عندما كنت فى شناء. وعلى الرغم من ذلك فإن آثار أقدام الإبل – التى لا تعدو أن تكون مجرد مدقات الإبل متجهة من مراعى السهب إلى بعض المساقى الموجودة فى الرمال، والتى يتزايد عددها حول المنطقة موضوع الاهتمام – تحيرنى إلى حد بعيد وتستحق الدراسة وأخذها بعين الاعتبار. هذه المسارات إذا ما نظرنا إليها من حيث الاتجاه نجد أنها يمكن أن تؤدى إلى منطقة الأفلاج الزاهرة، التى ربما كانت مزاراً وهدفًا للمتكشفين لغابات اللُّبان الذكر والبخور فى قارة. فى مثل هذا الحال يمكن لمثل هؤلاء المستكشفين أن يكونوا قد مروا على مسقى طويريفة، الذى سبق أن شاهدت فيه، مثلما قلت من قبل، آثار أقدام تأخذ الاتجاه نفسه لكن على جبهة أضيق. وعليه فشلت هذه الآثار فى المرور أو الدخول إلى الموقع الذى حددته أنا لمدينة وُبار.

على كل حال، كان لدى السيد برترام توماس فى العام ١٩١٨، الانطباع الذى كان لدى عن وجود بعض الأنقاض فى مكان ما من الرمال، لكن مرشده المرّى أخبره فى مرحلة لاحقة من رحلته عن وجود هذه الأنقاض نفسها التى هى أمامى الآن،

كما أخبره أيضًا عن كتلة الحديد الكبيرة التى كان جابر قد حكى لى عنها. كان واحد من رجال برترام توماس قد جمع بعض قطع الخزف المكسرة، والزجاج المكسَّر من مكان مجاور للقاع الصحراوى المكشوف - ونحن أيضًا عثرنا على أشياء من هذا القبيل فى كثير من الأماكن التى كانت تقع على امتداد مسارنا - كما أخبروه أيضًا عن بئر يسمونها أم الحديد فيها بعض البقايا الأثرية - كتلتين كبيرتين مما يسمونه حجر الحديد - الذى اشتق منه الاسم. واقع الأمر أن مجموعة الأبيار الثلاثة التى تعرف باسم أم الحديد - التى جرى استكشاف واحدة منها بواسطة مرشدنا سالم منذ زمن بعيد - تقع على بعد ميلين فقط من منطقة فراجة. زرت هذه الأنقاض بعد مدة ولم أجد بينها أى أثر للحديدة، الذى هو موقع وبار. واقع الأمر أن حمد بن سلطان كان يشير إلى الأنقاض الموجودة هنا عندما كان يتحدث إلى السيد برترام توماس عن "أساس قلعة من القلاع كانت مكشوفة للناظرين فى يوم من الأيام لكن الرمال طمستها وغطتها". ومعروف أن الحديدة تبعد مسافة عشرة أميال فقط جنوب غرب فراجة وأم الحديد.

أكتفى بهذا القدر من تحرى تاريخ مشكلة وُبار الماضى. كنت فى مطلع رحلتى الحالية قد بدأت تتشكل عندى فكرة عن ذلك الذى أتوقع مشاهدته أو العثور عليه. لكن الانطباع الذى تكون لدى - بالشكل الذى كان عليه فى العام ١٩١٨ الميلادى وبالشكل الذى كان عليه انطباع السيد برترام توماس فى العام ١٩٣١ - هو أن وبار كانت بالقطع أحد موقعين متباعدين. كنت قد أصخت السمع، عندما أتى على الجهمان، أثناء حديثه عن المنطقة المجاورة لفراجة، على ذكر أبيار أم الحديد. هذا الكلام، أعاد إلى ذاكرتى ذلك الذى سبق أن قاله جابر عن الحديدة، وجرى استدعاء سالم الذى كشف عن بئر من تلك الآبار الثلاثة، لإلقاء المزيد من الضوء على فضولى. كان سالم قد قال لى: نعم، لقد ذهبت إلى هذه المناطق بصحبة إبل الرعى، وحفرنا هذه البئر نظرًا لأن البئرين الأخريين كانتا مردومتين، لكن الحديدة ليست فى هذا المكان. الحديدة تبعد عن هذا المكان مسير نصف يوم فى اتجاه الشــرق، قد تزيد هذه المسافة وقد تقصر، والله أعلم. لقد انقضى زمن طويل على رؤيتى لتلك الحديدة، لكنى أؤكد أنى رأيت هذه

الحديدة بعينيّ هاتين وبوسعى العثور عليها مرة ثانية. لقد اعتدنا على إرسال ماشيتنا للرعى فى المراعي الموجودة فى هذا المكان، لكن والعلم عند الله، قد تكون هذه الحديدة مدفونة فى الرمل. ولكنى بوسعى أصحبك إلى المكان وأدلك عليه، وقد نجد فيه الحديدة. لكن ما الذى سنفيده من تلك الحديدة؟ ولا يمكن لك أن تنقلها. إنها كبيرة الحجم سألته، ما حجمها؟ أجابنى، لقد انقضى زمن طويل على مشاهدتى لها أول مرة، لكن الصورة التى فى ذاكرتى عنها أنها كبيرة الحجم، كتلة ضخمة من الحديد، ربما يصل حجمها إلى حجم الجمل، أو قد تقل قليلاً عن ذلك، وقد تكون أكبر من ذلك. قلت: لعلنا نستطيع أن نقطع منها قطعة وآخذها معى ونترك الباقى. أجابنى وهو مسرور لذكائى – الذى هو موضوع مفضل لديه – تستطيع أن تفعل ذلك، لأن فلان وعلاّن أخذا قطعاً من هذه الحديدة وحولوها إلى سكين فى الأحساء. سألته: هل نستطيع العثور على ذلك السكين؟ إذا كان هذا الفلان وذلك العلاّن على استعداد لبيع ذلك السكين فسوف أشتريه. قال: الله أعلم، لكن هذا كان منذ زمن بعيد – قد يكون أو لا يكون ذلك السكين بحوزة هذا الفلان. لقد اشتقت أسماء الأبيار من هذه الحديدة، لأن سعيد، والد جابر [1] الذى التقيناه فى جابرين هو الذى حفر الأبيار الأصلية.

كان ذلك هو إسهام رفاقى فى هذه المشكلة. فى جابرين كان هناك موروث غامض عن هجوم قام به عاد وعن حلقة من القلاع حول الحدود توحى بدفاع محتمل ضد هجوم من عدو محتمل من الجنوب، على الرغم من أن الأنقاض ترجع إلى تاريخ حديث، الأمر الذى لا يسهم فى حل مشكلة وبار. فى مقينمة هناك بئر عميقة من الواضح أنها ليست من عمل البدو المحدثين، رأس رمح من البرونز، وآثار أقدام إبل عميقة على طريق من طرق القوافل، كل ذلك يوحى بالاقتراب من حل المشكلة. بئر فضيل لم يقدم أى شىء سوى أبيار عميقة، لكن اكتشاف مجارى نهرية قديمة فيما بين ذلك

(١) الأرجح أن يكون جده وليس والده.

المكان وطويريقة جاء أمراً مشجعًا تماماً، إذا ما سلمنا بأن نظرية التجفيف تعد أمراً مقبولاً. يزاد على ذلك أن هناك دلائل أخرى كثيرة على وجود الإنسان، تتمثل فى الأدوات المصنوعة من الصوَّان التى جرى العثور عليها مع أصداف الماء العذب، وفى مواقع الآبار القديمة المدفونة فى الرمال، هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه من الأسباب ما يدعو إلى القول أن الناس الذين استخدموا هذه الأدوات لم يكونوا ينتمون إلى السكان المحدثين نسبياً فى منطقة كانت مزدهرة فى يوم من الأيام. كان فى طويريقة هى الأخرى مجرى نهر فيه آبار عميقة، وفيه أيضًا آثار أقدام القافلة التى سبقت الإشارة إليها.

لكن إلى الخلف من هذه المنطقة نجد أن الرمال قد أطبقت بشكل مخيف على الدلائل الأخرى وحجبتها. ولم تكن هناك شماعات أخرى يمكن أن نعلق عليها النظريات، سوى الخرافات التى رواها ياقوت فى "عجائب الدنيا" الخيالية، وفى فنتازيا ليالى ألف ليلة وليلة الخاصة بزيارة معروف الإسكافى للربع الخراب (الخالى)[١] وفى الأصداء الغامضة لكل من عوج[٢] وكنعاد فى الأسماء التى من قبيل: عوج وجاليعاد [٣].

مع ذلك سبق لنا اكتشاف نهرين، وكان هناك نهر ثالث - أهمها جميعًا، هو وادى الدواسر - يتعين اكتشافه. ومسألة عدم اقتفائنا لآثار ذلك الوادى تعد أمراً محموداً. وما هو ذلك الشىء الطبيعى غير هذه العاصمة التى تعد واحدة من أعظم عواصم الجزيرة العربية فى فترة ما قبل التاريخ، والتى توجد على ضفاف أعظم أنهارها فى فترة ما قبل التاريخ؟ أنا لم أشجع نفسى على التفكير فى ضوء ما حدث

(١) طبعة برتون Burton الليلتان الثامنة والتاسعة بعد الثمانمائة، والتاسعة والتسعين بعد التسعمائة.

(٢) المرجع السابق الليلة التاسعة والثمانين بعد التسعمائة.

(٣) المرجع السابق: الليلة ٨٩٩ .

فى البترا،(*) أو "توت عنخ آمون"، لكن ذهنى تركز على مسألة الرمال المتنقلة - دائمة الحركة، اللطيفة والعنيفة، مثل البحر - وكانت أحلامى فى تلك الليالى عبارة عن كوابيس، على شكل ثكنات طويلة منخفضة تدوِّم من فوق صفوف من الزلط والصحراء الرملية، فى حين رحت أقيس بعض الزوايا لبعض الأشياء المتحركة مستخدماً فى ذلك جهاز التيودوليت، الموضوع فوق قاعدة دوَّارة، حتى أتمكن من قياس زوايا الأشياء المتحركة. كانت تلك أغرب التجارب التى مرت بى فى حياتى.

وأنا الآن أوشك على رفع القناع عن تلك الأسرار التى أطلت التفكير فيها وصبرت عليها صبر الحاج المسافر إلى المُشْترى العمونى(**). وبالتالى كنا على بعد حوالى ميل أو ميلين من واحدة من المكانين اللذين وقعتهما أنا على الخارطة قبل أربعة عشر عاماً، وذلك اعتماداً على الأبعاد والاتجاهات التى أخبرنى بها جابر. كنت قد وضعت لهذا المكان اسم جافورة، وأطلقت اسم وُبار بناء على قليل من المعلومات غير الدقيقة على المكان الثانى الذى يبعد عن المكان الأول مسافة قصيرة فى اتجاه الجنوب الغربى. وأنا إذا كنت قد اقتصرت على الاسم الأخير، وعلى المكان الذى حدده جابر، باعتباره هو مكان الأنقاض وكتلة الحديد، فذلك يعطينى الحق فى اقتسام ذلك الفضل، الذى يجب أن ينسب إلى ذاكرة هذا الرفيق الطيب. وإنه لأمر نادر تماماً أن نحصل على دقة من هذا القبيل من مرشد عربى يعيش على بعد مسافة كبيرة من هذا المشهد الذى أصنعه حالياً.

مشينا مدة نصف ساعة فى رمال جرداء، ونحن مرهقون لأن الريح بدأت تهب من الجنوب مرة ثانية، وكانت فترة العصر شديدة الحرارة. صاح علىَّ فجأة متعجباً، انظر !

(*) مدينة قديمة فى حوض وادى العرابة، فى الجنوب الغربى. البتراء هى عاصمة الأنباط وهى مركز مهم من مراكز تجارة القوافل. وقد ازدهرت بدءاً من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الثالث بعد الميلاد. وقد جرى ضمها إلى الامبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ بعد الميلاد. وقد انحدرت البتراء بعد قيام تدمر Palmyra، وأصبحت فى طى النسيان إلى أن اكتشف "بركخاردت" أنقاضها (فى العالم ١٨١٢). وتشتمل هذه الأنقاض على معابد، ومنازل، ومسرح كبير محفور فى صخرة كبيرة . (المترجم)

(**) نسبة إلى شعب عمون السامى الذى كان يسكن شرق الأردن. (المترجم)

وهنا وقعت عيناى لأول مرة على وبار – صف رفيع منخفض من الأنقاض مستقر فوق موجة من الرمال صفراء اللون. وقفت لالتقاط صورة لذلك المشهد الغريب المشهود، الذى اختفى عن أنظارنا عندما نزلنا إلى المنخفض الضحل. وفي غضون خمس دقائق أخرى. كنا قد نزلنا عن راحلاتنا فى تجويف ضحل ثان شبيه بالمنخفض الأول، وعلى حافة حقل من الأنقاض كان يختفى وراء سلسلة من الكثبان الرملية المتحركة. تركت رفاقى ينصبون الخيام ويجهزون الإفطار استعداداً لغروب الشمس، وصعدت إلى قمة تل منخفض من تلال الكثبان الرملية حتى أتمكن من النظر إلى المشهد العام قبل حلول الظلام. كنا قد قررنا تمضية أربعة أيام فى دراسة تلك الأنقاض وفحصها، وعليه آثرت الإبقاء على تفاصيل تلك الدراسة إلى الغد.

وصلت إلى قمة التل، وفى تلك اللحظة رحت أسبر أغوار أسطورة وُبَار. وأنا لم أنظر فى الأسفل إلى أنقاض مدينة قديمة، وإنما إلى فوهة بركان، امتلأت فتحتاه بالرمل المنجرف، وهاتان الفتحتان تقعان جنبًا إلى جنب، وتحيط بهما الصخور البركانية والحمم البركانية التى انصبت على المكان خارجة من بطن الأرض. كان ذلك هو الانطباع الذى ومض على ذهنى فى تلك اللحظة. لم أعرف إن كنت أود البكاء أم الضحك؟! لكنى كنت مسحوراً بفعل المشهد الذى بدد تلك الأحلام التى كانت تراودنى منذ سنوات. أخيراً هذه هى وبار! بركان فى الصحراء! وبنوا على هذا البركان قصة مدينة جرى تدميرها بنار حلت عليها من السماء بسبب خطايا ملكها (الذى لم يلقِ بالاً لتحذيرات النبى هود (ع) – الذى يعرف فى الإنجيل باسم هيبر Haber) ومارس الفسق مع خيوله وخصيبه ومحظياته فى جنة أرضية، إلى أن انصب عليه غضب الله بفعل الريح الغربية وحولت مشهد متعته إلى رماد وخراب!

لا يمكن لأحد أن يتصور حلاً مثيراً كهذا للغز الرمال العظيمة. وهنا يجب أن نعترف أن فوهتى البركان اللتين امتلأتا بالرمال، واللتين كان يحيط بهما جدران مرتفعة من الخبث، ليس بينهما وبين أنقاض القلاع التى من صنع الإنسان أى وجه من أوجه الشبه التى يقبلها العقل. كان الكثيرون من رفاقى يقفون بجانبى ليشاهدوا ذلك

المشهد، وراحو يحفرون فى الأنقاض بحثًا عن كنز من الكنوز. وعندما بدأت النزول من المنحدر متجهاً إلى فوهة البركان الأولى، جاءوا يجرون إلىّ ومعهم حفنات من الخبث، وقطع صغيرة من الحديد الذى علاه الصدأ، وبعض الحبات السوداء الصغيرة اللامعة، التى حسبوها لؤلؤ نساء عاد، وقد اسودت بفعل تأثير النار التى حصدتهن ومليكهن. راح على الجهمان يراقبنى باهتمام وقلق، وأنا أتناول قطعًا من الخبث المحيط بالفوهة. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، وكان لدى متسع من الوقت الذى يمكننى من القيام بجولة سريعة حول حواف الفوهة البركانية قبل العودة إلى المخيم لتناول طعام الإفطار.

يكفى أننا قمنا بذلك كله فى اليوم الأول، لكن رفاقى خاب أملهم فى قرارى. قلت لهم: قد تكون هذه هى وَبار، التى يتكلم عنها البدو، لكنها من صنع الله وليست من صنع البشر أو الإنسان. هذه ليست قلاعًا للقدماء لكنها شبيهة بالقمم البركانية التى فى الحرَّة، والتى شاهدتموها بلا أدنى شك وأنتم فى الطريق إلى مكة، على يمينكم وأنتم تصعدون المرتفعات. هذه الأفواه شبيهة بأفواه الحرَّة التى نتجت عن النار المنبعثة من جوف الأرض. رد على رداً غليظًا وهو يقول: لا، إنها قلاع عاد ولد كنعاد. إنها قصور عاد بكل تأكيد، ألا ترى كيف احترقت الصخور بالنار على حد قول الناس ! وماذا تكون هذه الحبَّات غير اللآلئ؟! كان كل واحد من أفراد الجماعة قد جمع مجموعة من الحبات السوداء المستديرة ليحملوها معهم فى خرج جمالهم لكى يبيعوها طلبًا للربح. رددت عليه، لا تخف، هذا بالتأكيد هو المكان الذى تحدثت أنت عنه، وقد أوصلتنى إليه يا على، حسبما وعدت أنت. وهذه هى قلاع وُبار مثلما تقول أنت. أنا مقتنع، لكن صدقنى أن هذه القلاع التى تحكى عنها لم يبنها البشر. وماذا عن سالم؟ هل عثر على الحديدة التى أخبرنى عنها – والكبيرة مثل حجم الجمل؟ لقد ذهبت إلى المكان نفسه، جاء رد سالم مشوباً بالحزن، لكن الحديدة مدفونة تحت الرمل. بمشيئة الله، سوف نعثر عليها غداً عن طريق الحفر. رددت عليه قائلاً: الله كريم، وبمشيئته سوف نعثر على الحديد، لكنى سوف أذهب غداً مع الإبل إلى الإبراهيمة ويمكننا أن نترك نصف الجماعة مع الخيام والأمتعة للبحث عن الحديدة. اصحبوا الإبل

غداً إلى السقيا فى ساعة مبكرة، وسوف أجىء لكن بعد ذلك عندما ألقى نظرة ثانية على القلاع، وأجمع عينات من الأحجار والأشياء التى من هذا القبيل.

صحوت مبكراً فى الصباح التالى لكى ألقى نظرة على المشهد وأنا سائر على قدمىّ لمسافة تقدر بحوالى ميل من فوهتى البركان. بعد أن ابتعدت عن المكان، على نحو أقنعنى بأنه لم يعد هناك فوهات أخرى أو دلائل على هذه الفوهات فى المنطقة الموجودة خلف المنطقة الرئيسية، مشيت عائداً عبر منخفضات الرمال المتدحرجة، ورحت أفتش كل ركن منعزل وكل شق وكل صدع إلى أن وصلت إلى رقعة من صخر الأديم. كان صخر الأديم هذا من اللون الأبيض البراق وغير المحروق، على الرغم من أن صخر الأديم هذا كان متكسراً ومتأثراً بفعل الحرارة المجاورة له.

صعدت بعد ذلك سلسلة من الكثبان الرملية كانت تفصل هذه الرقعة عن بدايات منطقة فوهات البراكين. ومن فوق هذه السلسلة شاهدت رقعة من الأرض متوسطة الحجم فيها خليط من شظايا صخرية شبيهة بالخبث، وصخر أديم مكسر على بعد حوالى ٢٠٠ خطوة فى اتجاه الجنوب من الطرف الشمالى الغربى من حافة فوهة البركان الكبيرة (الفوهة ب – انظر المخطط). وإلى الجنوب الغربى وإلى ناحية الغرب أيضاً من النقطة نفسها، توجد رقعة أخرى مماثلة، فى حين أن فوهة البركان نفسها، التى فى الجانبين الشمالى والغربى والجنوبى جدران أعلى من الجوانب الأخرى، يصل قطرها إلى حوالى ١٢٠ خطوة، أما محيطها فيقدر بحوالى ٤١٢ خطوة. وعلى الرغم من ذلك، كان هناك جزء مفقود من الحافة المستديرة – ويصل طول الفجوة الناتجة عن ذلك إلى حوالى ٥٢ خطوة – فى حين كانت هناك قطعتان صغيرتان من الأطلال تقعان فى الناحية الشمالية الغربية والناحية الشمالية الشرقية من هذه الفجوة على مسافة تقدر بحوالى ٦٥ خطوة بفاصل يقدر بحوالى ١١٠ خطوة بينهما. كانت فتحة تلك الفوهة تنحدر ناحية الأسفل من جميع الجوانب نازلة إلى منخفض مركزى، على الرغم من أن سمك الرمل الذى انجرف إلى داخل هذه الفتحة جعل مسألة التأكد من طبيعة الأرض الفعلية أمراً مستحيلاً.

كان مركز فوهة البركان الثانية وهى الأصغر، (أ- انظر المخطط) تقع فى الاتجاه ٣١٣ درجة (فى خط مستقيم مع خيامنا الموجودة خلفها) من الركن الشمالى الغربى من فوهة البركان (ب). سرت فى اتجاه هذه الفوهة وقطعت حوالى مائة وأربعين خطوة إلى الحافة الخارجية للخبث، هذه الحافة الخارجية وصل عرضها فى المنحدر الهين الواصل إلى شفة فوهة البركان، إلى حوالى ٥٠ خطوة. وعندما انحرفت قليلاً إلى اليمين حوالى ٣٤٥ درجة لكي أحدث قطاعًا على خط المركز لفوهة البركان، عثرت على حافة داخلية من الخبث عرضها حوالى ١٠ خطوات، والمسافة من هذه النقطة عبر فتحة البركان ووصولاً إلى الشفة البعيدة للبركان كانت تقدر بحوالى ٥٥ خطوة (بما فى ذلك حافة داخلية ضيقة من الخبث على الجانب الآخر)، ومن خلف هذه المسافة أحدور، أو إن شئت فقل منحدر خفيف، من الخبث يصل عرضه إلى حوالى ٤٣ خطوة. كانت حافة فوهة ذلك البركان تشكل دائرة شبة كاملة لها جدران مستديرة موحدة الارتفاع. بالقرب من هذه المنطقة وعلى بعد مسافة تتراوح بين ٢٠ و٥٠ خطوة، كانت هناك رقع صغيرة من الخبث وشظايا صخر الأديم فى الجنوب الغربى، وفى الغرب، فى حين كان هناك على بعد ١٩٠ خطوة فى اتجاه الشمال الغربى توجد رقعة مماثلة ولكنها أكبر من حيث المساحة. هذه الرقعة بدت وكأنها نشأت عن فوهة بركان ثالثة (د - راجع المخطط)، التى - إن قدر لها أن تكون موجودة على الإطلاق - كانت مطمورة تمامًا بفعل سلسلة رملية يصل ارتفاعها إلى حوالى عشرين قدمًا. وهناك فوهة بركان رابعة (هـ) تبدو كأنها تحت تلة كنت قد شاهدت المنظر من فوقها. وعلى كل حال كانت هنا رقع صغيرة من شظايا الخبث، التى تبرز من أجناب هذه الرقعة. كما كان هناك اقتراح بوجود فوهة أخرى (هـ) مدفونة هى أيضًا تحت جبل كبير من الرمل.

بهذه الطريقة أمكن لى تكوين انطباع كامل فى كل ما يمكن رؤيته فى وُبار، على الرغم من تركى لعمل مخطط المنطقة إلى مرحلة لاحقة. كنت قد جمعت أيضًا عينة كبيرة من الخبث ومن البقايا الأخرى، بدءًا من قطع تصل الواحدة منها إلى حجم رأس الرجل، وانتهاء بالشظايا الصغيرة، وما هو أصغر منها مثل "حبات اللؤلؤ" المزعومة. وهنا أكون قد أصبحت حرًا فى مواصلة رحلتى المحددة إلى إبراهيمة،

التى كنت أتطلع من ورائها إلى لمس أو بالأحرى عبور الطريق التى سلكها السيد برترام توماس فى العام السابق.

اتجهنا صوب الشمال الشرقى فى بداية الأمر - كان برفقتى كل من زايد، وعلى، صالح، وابن مسينيد، الذى كان برفقته الكلبة، التى ألفته بحكم اتصاله الوثيق بشئون المطبخ، واتخذت من الرجل مرشداً لها، وحكيمًا وجالبًا لطعامها - وسرنا بمحاذاة الحدود غير المرسَّمة، التى تفصل منخفضات تراعيز المنحدرة تحدراً هيناً من ناحية الغرب، عن منخفضات سنام المتحدرة تحدراً أيضاً فى الناحية الشرقية. بعد مسير حوالى نصف ساعة مررنا على تلة رملية مخروطية الشكل قوس الإشارة، التى هى دليل البدو إلى وبار - أو الحديدة كما يسمونها، نظراً لأن البدو لا يستعملون بطبيعة الحال الاسم القديم الشائع فى كلامهم العام. سنام تبدأ اعتباراً من هذه العلامة الأرضية - وهى أرض رملية جرداء تتخللها الأعشاب القليلة هنا أو هناك. وفى غضون ثلاث ساعات من تلك "الأنقاض" وصلنا إلى فراجة، وقد استدار طريقنا أكثر إلى ناحية الشرق نظراً لعثور على الجهمان على المفاتيح المطلوبة للتوجه إلى المسقى، فى ظل ظروف تصيب بالدهشة؛ وكل من يعثر على شىء فى هذا المكان لا يختلف عن الأشياء الأخرى التى فى هذه البيداء. كانت الإشارة الوحيدة إلى وجود حياة فى هذه الأرض القفر تتمثل فى قنبرة ذات وجهين، التى أنبأ صوتها عنها قبل أن أحدد موقعها على الأرض بعيداً عن الطريق الذى كنا نسير فيه. طيور الصحراء فى هذه البيداء لا تستعمل أجنحتها إلا نادراً، وهى تفضل الجرى على الأرض التى توفر لها الحماية الكاملة من الطيور المفترسة. والطائر عندما يطير قد يخدعه خياله على الأرض.

كانت بئر فراجة، التى تعد البئر الوحيدة هنا، والتى يصل عمق الماء فيها إلى عشر قامات، معطلة عن العمل. كانت البئر مملوءة تمامًا بالرمل، الذى أتم عملية تدمير هذه البئر فى فترة تقل عن عام واحد. هذا المنخفض الطفيف الموجود داخل حافة جدارية قليلة الارتفاع، هو الذى ينبئ عن مكان تلك البئر فى ذلك المنخفض

الصحراوى الذى ينتشر فيه روث الماشية وفشل الإبل، وتعوى فيه الريح. هذه البئر تعزى، فى ضوء اسمها، إلى رجل اسمه فرج من عوير الغفران، من شُعبة ابن جلاَّب، شيخ الغفران الكبير، الذى يقيم معظم الوقت فى رعن الجبل القطرى ضيفًا على الشيخ الذى يحكم ذلك الرعن وتحت حمايته، وشيخ الرعن القطرى هذا هو عبدالله بن ثانى. كان السيد برترام توماس قد خيم بالقرب من هذا المكان، كما جلب رجاله ماءً من هذه البئر، فى حين أفاد زايد هو وجماعته من تلك البئر بعد ذلك، لكن اعتبارًا من ذلك التاريخ لم يقم العرب الرعاة بزيارة ذلك المكان أو التردد عليه، بسب الجفاف الذى أصاب هذه المنطقة، التى لم نعثر على شىء قيم فيها اللهم باستثناء نوى البلح، وقطع صغيرة من الجلد وشظايا صغيرة من الصخر جرى إخراجها من البئر أثناء عمليات التطهير الدورية.

لم يكن هناك ما يعطلنا أو يجعلنا نتأخر فى هذه المنطقة، ومررنا عبر منخفضات قاحلة إلى أم الحديد التى تبعد عن هنا مسافة ميلين فى أقصى الشمال الغربى. تقع الآبار الثلاثة على شكل مثلث صغير متساوى الأضلاع فى منخفض واسع من الرمال يتخلله الزلط فى بعض أجزائه. ومثلما قلت: كان سالم قد حفر واحدة من تلك الأبيار منذ سنوات قبل هذه البئر، فى حين كانت البئران الأخريان من عمل سعيد ابن فصل قبل جيل من الزمان. كانت الآبار كلها قد ماتت على الرغم من عدم اندفانها فى الرمل تمامًا، إذ كانت أفواه تلك الآبار تبدو واضحة من بين الرمل، ومن حولها صخور وكميات كبيرة من روث وفشل الإبل التى تحجرت بفعل مرور الزمن. كان عمق البئر إلى سطح الماء يقدر بحوالى عشر قامات كما هو الحال فى بئر فراجة التى يلفظها العرب على أنها فريجة. كان صالح قد اصطاد قليلاً من الطيور الصغيرة من حول البئر، فى حين راح باقى أفراد الجماعة يقتفون أثر ثعلب إلى جحره فى تل من الطين، وفشلوا فى إخراجه من الجحر. شغلت أنا نفسى فى ذات الوقت بجمع بعض المناتيد(*) وعينات من

(*) المقصود بالمناتيد هنا هو الزواحف. (المترجم)

الصخور والزلط. عثرت أيضًا على بعض تذكارات من وجبات البدو فى أزمان بعيدة – عثرت على قرن غزال (ريم) وعثرت أيضًا على عظام وعل أبيض (وضيحى)[١].

واصلنا سيرنا فى اتجاه أقصى الشمال الشرقى، إلى أن وصلنا إلى رقعة مكشوفة من الصخور النحتية غريبة القوام إلى حد ما. كانت تلك الرقعة شبيهة بشظايا مختلفة الأحجام من الحجر الجيرى، الذى تأثر بالعوامل الجوية وتجوَّف بفعل ذوبان بعض مكوناته فى الشكل الخارجى للأصداف. وهنا بدأنا نسرِّع خطانا، تحت شمس الظهيرة الحارة، التى خفت حدتها بعض الشىء بفعل حبات الهواء الخفيفة التى كانت تهب علينا من الجنوب، فى حين كانت الكلبة الأقفة تسير بجوارنا، مستفيدة من ظل خيال جمل ابن مسينيد، وعندما وصلنا إلى المسقى بدأت تخف قحولة المنخفضات الرملية، وكانت بعض المناطق الرملية مغطاة بغطاء نباتى من الأدغال والشجيرات الصغيرة التى كانت فأل خير للإبل بعد أن شربت من ماء البئر. كان ذلك كله من قبيل الخير، نظرًا لأن على الجهمان قد تعرَّف مرحلة طويلة تخلو من الماء والمرعى وتنتظرنا عندما نبدأ المسير مغادرين وبار ومتجهين صوب الجنوب. هذا يعنى أننا لن نصل إلى مرعى جيد قبل أن نصل إلى عين سالة أو نايفة، التى سقط المطر على المنطقة المجاورة لها منذ عامين.

وصلنا بعد برهة وجيزة رقعة من الأرض الزلطية بيضاوية الشكل وواسعة تمامًا – شبيهة ببحيرة محاطة بمنخفضات رملية متحدرة تغطيها بعض الشجيرات والأدغال الصغيرة – توجد فيها آبار إبراهيمة، ومعنا إبلنا على شكل مجموعة تقف بجوار البئر الجنوبية، التى فتحها كل من سويد وراعيان آخران كيما ينتعش

---

(١) الوعل الأبيض العربى اسمه العلمى هو Leucoryz، (ويقولون له أيضًا Beatrix). والعرب يسمونه أيضًا بقر الوحش (بمعنى البقر البرى)، لكنى لا أعرف الاسم بقر بنصولة، الذى لفت انتباهى إليه السير بيرس كوكس Percy Cox الذى سمع هذا الاسم فى عُمان. والاسم "ريم" هو المعروف فى الجزيرة العربية كلها ويطلق على الغزال الأبيض – وليس على الوعل الأبيض. هناك أسماء محلية أخرى للغزال (داكن اللون)، وهى: الأدمى والعفرى. واسم الجنس للغزال كله هو "الظبى" (ويندر استعمال الاسم "غزال").

الجميع بمائها . كان سويد هو والراعيان قد انتهوا من عملية فتح البئر عندما وصلنا إليها، وراح سويد يجيء ويعود راكبًا جمله الذى علق فيه حبل الدلو، وراح يجلب الماء للإبل. كان ذلك اليوم السادس بعد أن سقينا تلك الحيوانات من بئر فضيل، وكان المرعى على طول هذه المسافة من النوع شديد الجفاف، وعليه جرت سقيا تلك الحيوانات حتى الشِّبع، قبل إرسالها إلى المنخفضات لتتغذى حتى الشِّبع على المراعى الممتازة التى فى هذه المنطقة.

جلست أرضًا كى أتمتع برحلة خلوية بلا خيام أو أية متعلقات خاصة بالترحال، كان صالح قد أحضر معه من تجواله بين المراعى، بعض غصينات الآبال الخضراء التى جرى طبخها مع الأرز ليصنع منها الطبق الذى يسمونه المكيكة[1] عند المناصير، وبذلك يمكن أن يكون ذلك الطبق بديلاً عن الخضراوات الطازجة – وهو عديم الطعم، لكنه ليس مكروهًا أو غير مستساغ. والعجيب فى الأمر أن المُرَّة لا يعرفون هذا الاستعمال من استعمالات الآبال.

كان الماء فى البئر التى استعملناها على عمق عشرة أقدام، وعندما قارن ماء هذه البئر بماء بئر البركان قال: إنها صالحة للاستعمال والشرب. أنا لم أتذوق هذا الماء لأنى كنت مازلت محافظا على حمية الماء، لكنى كنت أستعمل الماء فى الاغتسال، واتضح أن الماء كان له طعم بول الإبل.

كنت قد أحضرت التيودوليت Theodolite عند تناول طعام العشاء وعزفت عن مراقبة النجوم. وبغير ذلك كان يمكن أن أعتبر هذه الرحلة مجرد عطلة، واستطعت فى نهاية المطاف أن أحظى بقسط وافر من النوم العميق للمرة الأولى بعد مغادرتنا الهفوف. حومت فراشة – صقر Hawk-math (من نوعية الفراش المرقَّط) حول نار المخيم وحول مصباحى، ولكنى فشلت فى ضمها إلى مجموعة الحشرات، على الرغم من إمساكى ببعض الفراشات الأخرى عندما كنت أقرأ الصحف اللندنية التى تسلمتها

(١) ينطقونها "مشيشة" Machicha.

فى الهفوف وتركتها بلا قراءة إلى اليوم، وذلك بسبب ضغوط العمل الأخرى. كانت أحدث جريدة بتاريخ اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر، ورحت أتعجب وأنا أطفئ مصباحى استعداداً للنوم، كيف سأرى الدنيا عندما أعود إلى أخبارها من جديد؟! فى هذه اللحظة، كانت الدنيا تبدو لى بعيدة عنى تماماً - بعيدة جداً - وكنت متعباً، كنت قد بدأت أستشعر الملل بعد تجوالات دامت شهراً كاملاً دونما إفلات من حتمية تركيز الانتباه على ما أقوم به من أعمال - وبخاصة أثناء ساعات الليل التى هيأت لى خلال شهر رمضان كتابة الملاحظات وحزم ووضع بطاقات معلوماتية على الأشياء التى جمعتها.

بذلك، أكون قد عوضت متأخرات النوم، فقد نمت فى العراء من الساعة التاسعة والنصف مساءً إلى الساعة الرابعة والنصف صباحاً، عندما أيقظونى لتناول وجبة السحور. كان الليل بلا ندى وطلع النهار علينا معتدلاً وهادئاً. كنت أحس بالانتعاش وجاهزا تماماً للقيام بعملى اليومى، الذى بدأته بجولة مفعمة بالحيوية فى منطقة زلطية، لم يسبق أن رأيت لها مثيلاً فى أى مكان هنا. التقطت أيضاً حفرية بحرية متآكلة مستقرة داخل قطعة من الزلط، وفحصت أيضاً كثيراً من الآبار المدفونة. لم يكن على الجهمان يعرف عدد تلك الآبار، لكنى أحصيت ست آبار، اتضح أن ثلاث منها من الآبار التى فوهتها على شكل دائرة مرتفعة من فشل الإبل وروث الماشية الحديث نسبياً. كانت هناك آبار أخرى لم أراها، لكن البئر التى استعملناها كانت هى البئر النشطة الوحيدة.

قام رفاقى فى ذات الوقت بسقى الإبل بعد عودتها من المرعى الطيب الذى سيقت إليه فى الصباح. وعند الساعة الثامنة صباحاً غادرنا، ونحن أسفون، أجمل المواقع التى ضربنا فيها خيامنا حتى الآن. وارتفع صوت سويد بالثناء على ذلك المرعى ونحن نواصل مسيرنا خارجين من الحوض، وسائرين فى مسار حددته أنا فى اتجاه الجنوب. وبعد مسير دام ثلاث ساعات فى ذلك الاتجاه توجهت غرباً صوب وبار، وراح رفاقى يسلون أنفسهم بأن راحوا يختبرون إحساسى ووعى بالمكان. اجتزت تلك المحنة اجتيازاً طيباً، لكن الجميع أجمعوا على الإعجاب بى عندما رأينا فى النهاية، مخروط قواز الإشارة أمامنا مباشرة. وراح صالح يمتدح مزايا منطقة من المناطق، وتأثر باقى أفراد الجماعة، الذين تضايقوا لأنهم ساروا طبقاً لأوامرى

ولم يصلوا لشيء. كان هؤلاء الأفراد يفضلون السير في طريق بخط سير النحلة، إلى أن يصلوا إلى منطقة "الأنقاض" القديمة.

كنت قد تسببت لعلي الجهمان في مشكلة في الناحية الجنوبية. قلت للرجل: أنت تعلم أننا يتحتم علينا في هذا الاتجاه عبور المسارات التي سار فيها حمد بن سلطان في العام الماضي مع المسيحي. هل بوسعك العثور على تلك المسارات وأثر هذين الرجلين؟ أنت تعرف كلاً من طُريفة وفراجّ ويجب أن تبلغني عندما نعبر الطريق الذي سارا فيه. شاهدنا في ذات الوقت سلسلة من الكثيبات الرملية على شكل قبة، أسماها علي الجهمان القسيمة، لأنها تشكل حد المراعي فيما بين البئرين. قطعنا مسافة قصيرة توقف بعدها علي. قال علي: نحن الآن على الخط الفاصل بين البئرين، لكن الرمال غطت آثار الأقدام وطمستها. دار الرجل حول نفسه، ثم أشار فجأة إلى شيء موجود عن يميننا. تساءل علي: ألا ترى فِشْل وآثار روث إبلهم؟ تحولنا إلى الجانب الأيمن لتحري الأمر، وشاهدنا بعض آثار فِشْل الإبل شبه المدفون في الرمل. سألته: هل بوسعك التعرف على هذه المادة؟ قد تكون ناتجة عن جمل كان يرعى في هذه المنطقة. أجبته، لا، ليس الأمر كذلك. نحن نعرف الروث، مثلما نعرف الأثر هو والأشياء الأخرى. كان عليّ قد نزل من فوق جمله لفحص فشل الإبل، وناولني قبضة منه – هذا القشل صغير وجاف، وليس من نوعية روث الإبل الراعية الذي يكون كبيراً وسميكا. الجمل الذي نتج عنه هذا الروث لابد أن يكون قد قطع رحلة طويلة وعطشاناً في ذات الوقت. وهذا الروث عمره عام والله أعلم.

جاء الدليل مقنعاً تماماً وهنا أضفت شيئاً من روث وفشل الإبل إلى الأشياء التي كنت أجمعها. شاهدنا أيضاً آثار قط بري[1]، كان قد مر من ذلك الطريق في

---

(١) تعرف النقيب جي. جي دولمان Dollman وهو من رجال المتحف البريطاني على أنه الحيوان الذي يطلقون عليه اسم Felis occala، وقد تعرف الرجل على ذلك الحيوان من الجمجمة التي عثرت عليها في شمال شناء، والبدو يطلقون على هذا القط البري اسم هرة (وبخاصة المرّة)، (والمناصير) يسمونه ألفة، في حين يسمي أهل الصحراء بقلب الصحراء (Fenneo) باسم "ثال" أو "ثعلب" أو "حصيني" أو "أبو الحسين".

الليلة السابقة، كما عثرنا أيضًا على هدهد مهاجر استثارني كما لو كان مثل طائر الخطّاف Swallow، الذي سبق أن شاهدته في رمال النميلة. فتح صالح نيران بندقيتي على ذلك الهدهد بعد شيء من المطاردة الدقيقة طلبًا لتسريع مرور ذلك الطائر. شاهدنا في ذلك اليوم أيضًا عش واحد من الغربان وعثرنا أيضًا على عش صغير آخر. كان ذلك النهار متعبًا، ومضينا قدمًا متجاوزين منطقة المراعي الجيدة، إلى أن وصلنا إلى أرض جرداء كانت تعكس أشعة الشمس على نحو كان يجعلها تسقط على أعيننا مباشرة. وعلى مقربة من نهاية المسير عثرنا على بعض الآثار الحديثة لطائر من طيور الحُبَارى، وراح على الجهمان يطارد تلك الطيور مستخدمًا بندقيتي، ليعود إليّ بذلك النوع الوحيد من الطيور الذي حصلت عليه من هذه التجوالات الطويلة. عثرنا على آثار أقدام طيور الحبارى في أحيان كثيرة، لكن طائر الحُبَارى يصعب الاقتراب منه اللهم إلا إذا كان أمام الإنسان متسع من الوقت يُمَكِّن الإنسان من البحث عن الأماكن التي يختبئ فيها ذلك الطائر.

بدءًا من العلامة الأرضية مخروطية الشكل جعلت جملي يركض وسعدت بوصولي إلى خيمتي في الوقت المناسب لأخذ سنة من النوم في فترة العصر، نظرًا لأن الريح الجنوبية بنسيمها العليل جعلتني أستشعر النعاس والحاجة إلى النوم، ومع ذلك كان الجو حارًا على الرغم من أن درجة الحرارة كانت ٨٠ درجة فهرنهيتية فقط. صحت متسائلاً في إخواني الذين كانوا يرحبون بمقدمي: هل عثرتم على الحديدة؟ – الحديدة التي يصل حجمها إلى حجم الجمل؟ ردوا عليّ وهم يستشعرون الحزن والكآبة، لا، لم نجدها، نحن لم نعثر عليها على الرغم من أننا بحثنا عنها في كل مكان بعد أن تركتنا. لكن زايد (الطباخ) عثر على قطعة صغيرة من الحديد هناك تحت شجيرة من شجيرات الرمْض. يقول سالم: إن هذه ليست الحديدة التي تكلم عنها، وعليه تركنا هذه القطعة في مكانها. قطعة الحديد هذه ثقيلة. رددت عليه قائلاً: لابد من عثورنا على الحديدة الكبيرة، حتى وإن بقينا هنا مدة أربعة أيام. لكن ناولني قطعة الحديد الصغيرة.

أحضروا إلىّ، بعد برهة وجيزة، الحديدة الصغيرة، التى يصل حجمها إلى حجم أرنب صغير، وثقيلة جداً نسبة إلى حجمها، وسطحها يعلوه الصدأ وهشة عند السطح أيضًا. افترضت أن تكون هذه القطعة شهابية أو نيزكية، وخطر ببالى أنه ربما كانت تلك القطعة هى أولاً وقبل كل شىء هى تلك القطعة الشهيرة التى ضخَّمها بعد المسافة وضعف الذاكرة وجعل منها قطعة كبيرة مدفونة فى مكان ما تحت الرمال. إذا كان الأمر كذلك، فذلك يعنى أننا فشلنا فى اكتشاف هذه الحديدة، على الرغم من الجهد الكبير الذى بذلناه فى اليوم التالى، عندما اتجهت الجماعة كلها إلى المكان الذى حدده سالم - ذلك المنحدر الهيِّن من الرمال الموجودة إلى الجنوب من فوهة البركان الكبيرة - وواصلنا مسيرنا كما تسير الرمال، ورحنا نفتش فيها باستخدام عصينا، أو عن طريق الخبط على الأرض. ولم نوفق فى الكشف عن أى أثر لأى جسم مخبأ، وربما تطلب الأمر وجود بعض الأدوات المغناطيسية لاستخدامها فى ظل الظروف القائمة. وهنا وجدتنى أصل إلى قرار مفاده أنى يجب ألا أضيع المزيد من الوقت فى هذا الاتجاه، ولذلك قررنا المضى قدماً فى ترحالنا فى صبيحة اليوم التالى.

ومن باب المصادفة البحتة والغريبة، اتضح أن النسخة الوحيدة من مجلة الجمعية الجغرافية، والتى كانت بحوزتى، كانت تحتوى على نص المحاضرة التى ألقاها السيد برترام توماس ومعها خارطته، اتضح أن هذه النسخة كانت تحتوى أيضًا على مقال عن فوهة البركان النيزكية بوسنتوى Busuntwi فى أشانتى Ashanti. وقد حدا ذلك بى إلى التنويه فى مقالى عن أن الفوهات البركانية فى وبار ربما كانت منخفضات ناتجة عن سقوط شهب نيزكية. لم أكن أعرف فى ذلك الحين مدى ندرة أو قلة فوهات البراكين النيزكية فى سائر أنحاء العالم - وقد لا يزيد هذا العدد على أربع أو خمس فوهات على أكثر تقدير - ولم يخطر ببالى مدى الأهمية المترتبة على اكتشاف مثل هذه القمة فى صحراء الجزيرة العربية، وبخاصة عند أولئك الخبراء القليلين الذين يتعاملون مع الأمور التى من هذا القبيل. ولم يخطر ببالى أن ذلك العدد نفسه من مجلة الجمعية الجغرافية، كان يحتوى إضافة إلى المحاضرة التى ألقاها السيد برترام توماس، على ملاحظة أوردها السيد و. كامبل سميث Compell Smith، وذكر فيها شيئًا عن قطعة

تكاد تكون شقيقة لقطعة حديد وبّار النيزكية – ربما كانت، "الجمل" الأصلى – وأن هذه القطعة موجودة فى المتحف البريطانى منذ حوالى خمسين عامًا!

فيما يخصنى، أنهيت كل ما يتعلق بالبحث عن وبّار والحديدة العملاقة التى فيها، وأنا يشرفنى الآن تسليم المهمة لمن سيجىء بعدى – إلى الشباب أو الشابات اللائى لن يعيقهن بحثى غير الموفق عن الأنقاض، عن القيام برحلات مماثلة فى الرمال الشاسعة فى الجزيرة العربية. لقد أرضيت نفسى وأقنعتها أنه لا توجد ذرة من الآثار الإنسانية القديمة بين هذه "القلاع" التى أرشدنى إليها على الجهمان إرشادًا أمينًا وناجحًا، وإذا كان المكان الذى، قد يكون معروفًا لدى مرشدى، قد جاء محبطًا ومخيبًا للآمال، فقد توصلت فى ضوء ما وصل إليه بحثى فى الوقت الراهن من ناحية، وفى ضوء الخبرة التى اكتسبتها من الصحراء الكبيرة من الناحية الثانية، إلى أنه مايزال هناك، حتى ولو أمل صغير، فى العثور على أنقاض قديمة فى مكان ما من الربع الخالى. ومبلغ علمى أن هذه النتيجة لها ما يبررها، وهو أن الربع الخالى بمعناه الواسع لا يناسب إعاشة البشر فيه بأى حال من الأحوال – اللهم باستثناء البدو – وذلك اعتبارًا من زمن طويل سابق لبدايات الحضارات. مسألة التجفيف هذه، هى ومسألة الأنهار العظيمة لابد أن تكون قد توقفت، قبل فجر التاريخ – ربما كان ذلك عندما أدى الغطاء الثلجى المتراجع من عصر البليوستوسين Pleistocene إلى تغيير الحزام الأوسط فى الأرض، والذى يمتد من الصحراء الكبرى والصحراء الليبية عبر الجزيرة العربية، ممتدًا إلى صحارى وسط آسيا. فى صوّانات(1) وأصداف تلك الأيام لدينا ذكرى رجال سكنوا

(1) الآنسة جى. كاتون Caton – طومسون Thompson، التى تفضلت بفحص الأدوات الصوانية التى جمعتها أنا من أماكن مختلفة فى الربع الخالى، على قناعة من أن هذه الأدوات تنتمى كلها إلى العصر الحجرى الحديث. ومن باب الاسترشاد بسجل ما قبل التاريخ نجد أن الآنسة جى. كاتون طومسون تساوى بين العصر الحجرى الحديث وبين العام ٥٠٠٠ قبل الميلاد فى الصحراء الليبية. ونحن إذا ما سلمنا بوجود ظروف مماثلة في صحراء الجزيرة العربية، سنجد أن الأنهار المناسبة من الربع الخالى دامت واستمرت إلى بدايات أقدم حضارتين فى العالم (مصر وبلاد الرافدين).

أرضاً كانت طيبة بفعل انسياب الأنهار – لكن هؤلاء الرجال كانوا أسلافاً لأولئك الذين بنوا المنازل الأولى التى لدينا عنها شيء من المعرفة.

ماذا إذن عن الأسطورة؟ فيما يتعلق بالربع الخالى هى أسطورة ليس إلا. ونحن يتعين علينا البحث فى أماكن أخرى عن الموقع الذى أدى إلى نشوء هذه الأسطورة، وربما كان مفتاح تلك الأسطورة موجوداً فى البيت الأول من الأغنية الشعبية التى وضعتها فى صدر هذا الفصل. وأن مسالة وجود الملك العظيم عاد فى فترة أو زمن ما لا يمكن الشك فيها. المصير المشئوم والمريع لذلك الملك ورد ذكره فى القرآن أكثر من مرة. وأن ذكرى هذا الملك، ربما كانت حية فى القرن السابع الميلادى. الكارثة المماثلة التى وقعت لثمود مدين فى زمن (سيدنا) صالح لها أساس تاريخى فى انهيار قوة الأنباط، وليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أن قصة آل عاد كانت نوعاً من الخيال الباكر. ولا يمكن القطع بنوعية قوم عاد أو بالمكان الذى عاشوا فيه، على الرغم من أن هناك فرضية مؤداها أن قوم عاد هؤلاء كانوا ينتمون إلى قسم ما من جنوب الجزيرة العربية – اليمن أو حضرموت – اللذين لم يجر بعد البحث والتنقيب عن آثارهما(١)، قد تكشف المعاول شخصية وتاريخ آل عاد(٢)، ومن الطبيعى أن الدليل الذى يجرى البحث عنه يجب أن نبحث عنه فى مكان ما فيما بين شيحر (أى حضرموت) وصنعاء، عاصمة اليمن. يضع ياقوت وبار فى المنطقة المجاورة لهذه المنطقة، ومصادر ياقوت مستقاه من معلومات (قدر كبير منها خرافى ومناف للعقل) من ذكريات سابقة، ترجع وبلا أدنى شك إلى حقائق تاريخية.

---

(١) الدكتور كار راثجونز Rathjons فى هامبورج مشغول حالياً فى عمل أثرى عن اليمن، ونحن ننتظر النتائج التى سيتوصل إليها بفارغ الصبر.

(٢) يجب الإشارة هنا إلى البحث الذى قام به مؤخراً دى. فان. دير. ميولين Meulen وهـ. فون ويسمان Wissman، والمعنون "حضرموت" (ليدن ١٩٣٢). على الصفحة رقم ٥٠ وما بعدها، تجد رواية عن أنقاض معروفة محلياً باسم دار عاد، وربما يرجع تاريخها إلى عصور وأزمان السبئيين.

إذا قدر للقصيدة التي أوردتها في صدر هذا الفصل أن تكون هي مرشدنا، واليمن هو محط أبحاثنا، فإن ذلك يحتم علينا البحث عن مكان اسمه قارية التي يوجد إلى الغرب منها أرض فيها بعض الأنقاض. وأنا هنا أستطيع القول: إن مكانًا كهذا يمكن أن يكون أمامنا في منطقة لم نزرها بعد على الطريق ما بين السليل ونجران، اللتين ربما سقى نهراهما حابونا ونجران حواف الصحراء الواقعة شرقي الحدود الحالية لواحاتهما طوال الأزمان التاريخية. اسم المكان ينطوي على قدر كبير من الإيحاء – قرية الجاهليين، بمعنى قرية القدماء أو بطريقة أبسط "قرية القدامى". الاسم مثل القصيدة تمامًا، يوحي أن قارية هي وأنقاض وُبَار متجاورتان أو قريبتان من بعضهما البعض – في هذه الأيام نجد أن القرية تحولت إلى بئر صحراوية على الطريق المؤدية إلى نجران، ولم أستطع الحصول على معلومات بخصوص الأنقاض. ومع ذلك، فإن أبيات عويفرة' القريبة من الأنقاض يمكن أن تكون هي موقع وُبَار نفسها، التي لا يمكن أن تكون سوى تحوير كلاسيكي أو حرفي على حد قول برترام توماس[1] لكلمة عوفير أرض الذهب، وإنسان الغابة والطاووس! هذا الاسم في شكله العربي السليم لابد أن يكون عفار، كما أن عويفرة عبارة عن تصغير للاسم "عفار". والإغريق يكتبون هذا الاسم على أنه Oap، وهو ما ننطقه نحن الإنجليز على أنهOfar أو Ophir. يزاد على ذلك أننا في هذه المنطقة نقترب من البلاد التي ماتزال تتيح كلاً من الذهب، وإنسان الغابة (النسناس) ودجاج الغابات، إن لم يكن هو الطاووس – كتلة جبال الحجاز الجرانيتية، الواقعة ضمن حزام الأمطار الفصلية الخاص بالرياح الموسمية الهندية.

إذا لم يكن اليمن هو المكان أو المشهد الذي شهد عظمة عاد، فإن هناك مكانًا آخر يمكن اختباره، ويمكن أيضًا أن ترتب على ذلك الاختبار نتائج مهمة. شرقي

---

(١) راجع كتاب "اليمن السعيد" صفحة ١٦٣ .

الجزيرة العربية أقل شهرة من أقاليمها الجنوبية، ولم يشهد أو يكن مشهدا لحضارة قديمة. التموليين Tumuli الذين سكنوا البحرين ذائعوا الصيت، وجرى اكتشاف أثريات قديمة في جزيرة الدَّارين (ويصح فيه أيضًا الدَّارين بمعنى دار ودار أخرى)، كما نجد هناك أيضًا أنقاضًا أخرى عديدة - عيون وينابيع قديمة وقنوات رى قديمة إلخ - فى الأرض الأم فيما بين الأحساء والكويت، هذه الأرض حاليًا عبارة عن أرض قاحلة وجرداء تتخللها بعض الأبيار الصحراوية التى لا يتردد عليها سوى البدو الرعاة. إثنتان من تلك الأبيار تحملان اسمين يثيران الدهشة - قارية ووابرة إلى الغرب منها! من ذا الذى ينكر أنهما ليس لهما دور فى تاريخ قوم عاد؟

على الرغم من ذلك، تزاحمت على خيالى الأفكار والتأملات التى من هذا القبيل بعد أن خاب أملى فى الربع الخالى نفسه. وهنا يتعين علىَّ العودة إلى قطعة الحديد التى لدىَّ، والتى جرى تسليمها فى الوقت المناسب هى وبعض الأشياء الأخرى التى جمعتها من وُبَار، إلى الملك الوهابى، والذى أهداها إلى المتحف البريطانى. ولم يجد الدكتور ل. جى. سبنسر Spencer، راعى إدارة المعادن فى المتحف، أية مصاعب فى تحديد طبيعة هذه الأشياء التى جرى العثور عليها وجمعها.

هذا المعدن، على حد علمى، عبارة عن شظية من شظايا حديد النيازك، والمادة الشبيهة بالخبث هى عبارة عن زجاج رملى أو إن شئت فقل: هى رمل انصهر بفعل حرارة الشهاب الساقط، وأن القسم الكبير لابد وأن يكون قد تبخر بفعل الحرارة الهائلة المتولدة بفعل تأثير هذا النيزك على الأرض. ولم يتبق من ذلك النيزك سوى قلة قليلة من الشظايا التى بردت على نحو سريع لتكون شاهداً ودليلاً على الطريقة التى تكونت بها فوهات البراكين. وقد اتضح أن المادة التى قدمتها جاءت بمثابة إسهام طيب فى مسألة دراسة الظاهرات التى من هذا القبيل، لكن الجانب الفنى فى هذه المادة لابد أن يُعزَى بل ويُتْرك تمامًا للدكتور سبنسر Spencer[1]، وعن طريق دراسة قطعة الحديد

(١) راجع الملحق.

الشهابى سالفة الذكر، والتى بقيت فى المتحف البريطانى منذ أن اشتراها الدكتور سبنسر من أحد تجار الجملة فى العام ١٨٨٥ الميلادى، توصل الرجل إلى نتيجة مفادها أن الشظيتين من تركيب شديد النشابة والتماثل الأمر الذى يرجح أن هاتين الشظيتين كانتا تشكلان جزءاً من الكتلة الشهابية نفسها. يزاد على ذلك ترجيح احتمال مجىء العينة القديمة من المكان المدعو الربع الخالى يؤكد ويعزز التاريخ العجيب، والغامض إلى حد ما لهذه القطعة وكذلك الشكوك والتكهنات المحيطة بها.

فى العام ١٨٨٥ الميلادى، جرى عرض وشراء شهاب Meteorite نجْد، طبقًا لتسميته من قبل سلطات المتحف البريطانى. كان بائع هذه القطعة واحداً من التجار المقيمين فى بوشاير Bushire، والذى قدم معلومات مفادها: أن بعض العرب الذين كانوا يخيمون فى ربيع العام ١٨٦٣ الميلادى فى "وادى بنى خالد" رأوا بالفعل النيزك الشهابى وهو يسقط بالفعل، أثناء عاصفة رعدية، وأنهم التقطوا تلك الشظية أو حفروا عليها وأخرجوها من الأرض. كان البائع قد اشترى تلك الشظية، أو بالأحرى تلقاها أو تسلمها لدراستها، من رجل يدعى الشيخ خلف بن عيسى[1]، الذى شهد سقوط ذلك النيزك الشهابى. أدلى الرجل بالتفاصيل سالفة الذكر وكان مايزال على قيد الحياة فى الحُدَيِّدة، فى العام ١٨٨٤ الميلادى.

إذا ما نحينا جانبًا العاصفة الرعدية التى يحتمل أن تكون شيئًا عارضًا وقع أثناء سقوط ذلك النيزك الشهابى، نجد أن القصة التى رواها البائع لا تدور من حولها الشكوك. لكن هذه القصة أثارت الشك بالفعل حول الظروف العجيبة إلى حد ما، وكان ذلك بعد حوالى ست أو سبع سنوات. فى العام ١٨٩٢ الميلادى جرى عرض شظية أخرى من الشظايا الحديدية لذلك النيزك الشهابى، وكان وزنها مساويًا تقريبًا لوزن الشظية الأولى – إذ كانت الشظية الأولى تزن حوالى ١٣١ رطلاً أما الثانية فكانت تزن حوالى ١٣٧ رطلاً، وكانتا أكبر بكثير من الشظية التى كانت بحوزتى، – جرى عرضها

(١) يحتمل أن يكون أحد أفراد الأسرة الحاكمة فى البحرين.

على المتحف البريطاني مع شيء كبير من التفاصيل المتعلقة باكتشافها. ومن ...ر الطالع أن الترجمة الإنجليزية للخطاب المصاحب لهذه القطعة موجودة، ولابد من إجراء بعض التعديلات في نص الرسالة وأخذ هذه التعديلات بعين الاعتبار أثناء دراسة هذا الموضوع. وقيل أيضًا إن هذه الشظية جرت ملاحظتها أثناء سقوطها أثنا عاصفة رعدية في العام السابق (١٣٠٨ الهجرى المصادف للعام ١٨٩٠ - ٩١ الهجرى) فى "وادى خالد". وجرى بعد ذلك الحفر حول هذه الشظية وإخراجها من الأرض وتقديمها بواسطة رجل يدعى ابن ناخاد بن شيخ الهرّة إلى الشيخ نصير بن راشد، الذى قام بدوره بتقديمها عن طريق القطيف إلى الحاج أحمد خان الذى باعها بدوره إلى التاجر. رفض المتحف البريطاني شراء هذه العينة بسبب الشكوك الواضحة فى مسألة مصدرها، لتشق طريقها بعد ذلك إلى أمريكا[1]. ومع ذلك، كانت هناك أسباب جيدة تدعو للشك فى تفاصيل القصة التى رويت فى العام ١٨٦٣ الميلادى، لكن لم تكن لدينا الوسيلة التى تمكننا من سبر أغوار تلك التفاصيل إلى أساساتها، وبقى الحال على ما هو عليه إلى حين وصول الشظية التى كانت لدىّ هذا العام.

لقد درست بعناية تامة كل المعاملات والمراسلات الخاصة بالموضوع، وعجزت تمامًا عن تقديم أى توضيح لمسألة "وادى خالد" هذه. وأن هذه المسألة ربما كانت تعنى "فى منطقة قبيلة بنى خالد"، التى تعنى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وربما تعنى بشكل غامض منطقة الأحساء بالمعنى الواسع[2] لهذا المصطلح، والتى كانت فى العام ١٨٦٣ الميلادى تحت الحكم الوهابى، وفى العام ١٨٩١ الميلادى تحت الاحتلال التركى. وقد أدهشنى على الفور اسم مقدم الشظية فى العام ١٨٩١ الميلادى، الذى ساق بعض الاحتمالات المهمة. هذه الاحتمالات اشتملت على اسم عائلة الرجل، إضافة إلى أنه كان واحدًا من أبناء (أو ابن أخ، أو حفيد) شيخ القبيلة، أو مكان يدعى الحُرَّة.

---

(١) متحف فيلد للتاريخ الطبيعى فى شيكاجو.

(٢) بما فى ذلك الربع الخالى.

ولن يصعب على الفريق الذى لا يعرف قبائل الجزيرة العربية أن يلحن أو يخطئ فى نطق الميم العربية على أنها H أو بالأحرى "هاء". إن صح ذلك، هل يمكن لنا تحديد أو تعريف ابن نخاد على أنه واحد من شيوخ قبيلة المرّة؟ أعتقد أن ذلك أمر ممكن إذا ما سلمنا باحتمال الخطأ فى قراءة الحرف العربى أو نطقه من قبل إنسان غريب على اللغة العربية، وقد عثرت بين القائمة المفصلة التى لدىّ عن كل تجمعات، وأفخاذ وشيوخ المرّة، أن شيخ الجرّابة الذى ينتمى إليهم ذلك الرجل الذى حفر البئرين الأصليتين فى أم الحديد (!)، هو حمد بن نحاب. هذا يعنى أن اسمى العائلة[١] متقاربان جداً وأن الظروف بلغت من الشكوك حداً يمنعنى من الشك فى أن الرجل الذى أحضر النيزك الشهابى فى العام ١٨٩١ الميلادى، قد أحضر هذه القطع الحديدية النيزكية الشهابية من المكان نفسه الذى جرى منه إحضار القطع السابقة من فوهات براكين الحديدة، التى اشتق منها اسم أبيار، أم الحديد التى حفرها أحد أفراد الأسرة.

والذى لاشك فيه أن هذه المعاملة عادت على المرى بالربح، وقد لا يكون غريباً أن يقوم رفاقه من أفراد القبيلة بالمبالغة فى أبعاد ذلك المعدن الذهبى. لكن الجمل الآن قد مر من خلال سم الخياط، ووجدت بعض الشظايا من ذلك الجمل طريقها إلى كل من إنجلترا وأمريكا، قبل أن أكتشف أنا أسرار هذه الشظايا هى وأسرار بلدة وبُار.

(١) يصبح الاسمان باللغة العربية كالآتى: ابن نخاد ابن شيخ الهرّة، وابن نحاب ابن شيخ المرو.

الفصل الرابع

المياه المرّة

هذه هي الرملة، لكن الربع الخالي بعيد هناك إلى أن تصل إلى الجبال... الجبال السوداء!

تحتم علينا تمضية أيام كثيرة بين الآبار ومراعي الرمال الجافة، لكن الأهم من ذلك كان الوصف الذي جاء به علي الجهمان للموقف، ونحن نركب راحلاتنا مبتعدين عن وبار في صبيحة يوم الجمعة المصادف لليوم السادس من شهر فبراير. كنا قد أنهينا هدفين من أهداف الرحلة، وأصبح اهتمامنا منصبا على الهدف الثالث من تلك الرحلة – عبور الصحراء الخالية من الماء – لكننا يتعين علينا في البداية النزول إلى شناء، وبذلك يمكننا زيارة آبار الحدود الموجودة داخل مناطق المراعي.

كنت في صباح اليوم السابق قد عثرت في وبار، على ندى ثقيل على الأرض – أول ندى أسجله منذ بضعة أيام – أما اليوم فلا وجود لذلك الندى في صباح اليوم، وكان الطقس معتدلا، على الرغم من تلك الريح الشمالية القوية نسبيا التي هبت علينا ونحن في مستهل رحلتنا الطويلة الخالية من الماء إلى عين سالة.

الغريب حقًا أن رفاقي لم تكن لديهم فكرة عن القيمة المحتملة لتلك الحديدة الكبيرة التي لم نعثر عليها. والذي لا شك فيه هو أن القبيلة المحلية – قبيلة الجرابة – احتفظت لنفسها بتلك المعرفة، مخافة أن يقوم الآخرون بالتنقيب والتفتيش في المنطقة، وتُحرم من المكاسب المحتملة. يزاد على ذلك أن قطعة الحديد التي عثرنا عليها ربما

بقيت دون أن يراها أحد منذ أن كشفت الريح عنها، بسبب الجفاف الذى جعل البدو يبتعدون عن تلك الحديدة مسافة كبيرة وآمنة. لم تكن المكافآت التى وعدتهم بها أمرا مزعوما، وعلى الرغم من قناعتى وجدت أنه ليس من اللائق إعطائهم تلك المكافآت فى الوقت الراهن. كنت على يقين أنى ستتهيأ لى فيما بعد الفرصة التى أتمكن من خلالها من تقديم تلك المكافآت.

كانت الجماعة مكتئبة إلى حد ما بسبب فشل المرشدين فى تحسين مباهاتهم السابقة، ومن باب التخفيف عنهم، اقترحت على حميد، الذى كان يعوزه الإلهام الشعرى، أن يؤلف أغنية شعرية عن عجائب وبار وأكياس اللؤلؤ الأسود التى جاءت مكافأة لهم على بحثهم وتنقيبهم. بعد ذلك بأسابيع عدة بدأت تلك الأكياس دورتها على تجار مكة ومُنِىَ حاملوها هم وأفراد الجماعة بخيبة الأمل. وعندما خاب أمل رفاقى نتيجة إحباط آمالهم فى الثراء والثروة كان لابد لهم من الرضا بأقراطهم. على امتداد ثلاثة أسابيع من العمل الشاق المضنى كانوا يحصلون على متوسط يتردد بين ثمـانية أو عشرة جنيهات للقطعة الواحدة – وهذا المبلغ فى ظل ظروفهم المعيشية كاف لاقتناء زوجة، لكنه لا يكفى لشراء جمل من سلالة جيدة.

لم يكن أمامنا فى الوقت الراهن سوى تكريس جهودنا للعمل الذى يتعين علينا القيام به، وأن نحقق أكبر قدر من الإنجاز فى ظل الظروف والأشياء المحيطة بنا، والتى توحى بالوحشة والكآبة والملل. احتل غرابان مخيمنا المهجور – كنا قد خلفنا وراءنا فى ذلك المخيم بعض النفايات والفضلات الصغيرة، وهبت على سطح الأرض غشاوة خفيفة من الرمل كانت تصطدم بوجه الأرض من حولنا. كانت الصحراء المتموجة مثل لهيب من البخار الصادر عن غلاية كبيرة تفور من داخلها. وعندما هدأت الريح، بدأت حبات الرمل الطرية والناعمة تصطدم بأعيننا وتؤلمنا.

إذا ما نحينا جانبا بعض شجيرات الأبال المنتشرة هنا وهناك نجد أن سطح الأرض عار وقاحل تماما، اللهم باستثناء وجود تلة رملية صغيرة بين الحين والآخر كانت تكسر استواء صورة سطح الأرض. بينما كنت أقف على تلة من تلك التلال

الصغيرة من أجل الوقوف على المنظر العام، كنت أجد أن من المستحيل المحافظة على وضعى فى مواجهة الرمال، التى كانت تهب علىَّ وتطوقنى وتسبب لى المتاعب. واصلنا مسيرنا إلى منتصف فترة العصر فى سنام، ولم نرتح إلا لمدة ساعة واحدة طوال هذا السير الطويل.

حدث تغير مفاجئ فى المشهد عندما كنا نتجاوز منطقة مجارى تاسرات، التى سميت باسم بئر تاسرات التى تبعد مسير يوم واحد فى اتجاه الشرق، والتى يقال إنها تحتوى على ماء عذب على عمق ثمانى قامات. كانت سلسلة كثبان حباكة الرملية هى ووديان شقان البركان، التى لاحظناها بالفعل فى سعافيج، يمتدان موازيان للطريق الذى نسلكه فى الناحية اليمنى إلى ما وراء خط البصر، فى حين كانت رمال بنى زينان تقع فى ناحية الجنوب من وديان شُقَّان البركان. رقعة تاسرات نفسها عبارة عن حزام عريض من الصخور والوديان التبادلية التى تقع فى الناحيتين الشرقية والغربية. خيمنا فى واحد من تلك الوديان فى الليلة الأولى، لنواصل سيرنا عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالى فى ظل ظروف ضاغطة جالبة للاكتئاب، هبت علينا نسمة خفيفة لطيفة شمالية هادئة كانت تحمل ضبابا رطبا كثيفا، ظهرت من خلاله شمس شديدة الشحوب، وراحت تتسلق السماء بطريقة بطيئة. كانت الرؤية محدودة على منتصف النهار تقريبًا بفعل الغيم أو الضباب، لكن ذلك لم يكن له تأثير يذكر. لم يكن أمامنا شىء مختلف عما رأيناه من قبل – تزايد عمق الوديان بصورة متزايدة وتزايد ارتفاع السلاسل الجبلية طوال مسيرنا فى اتجاه الجنوب. كنا قد أرسلنا إبل النقل قبلنا بحوالى ساعتين، من الزمن، لكن أثر تلك الأبل كان قد اختفى بفعل الريح الكاسحة التى كانت تهب علينا. كانت تظهر هنا وهناك رقعة من شجيرات الآبال، التى كانت تبدو كما لو كانت سوراً فى الارتفاعات العالية، فى حين كنا نرى عند سفح سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية، خطا رفيعا من عشب الأنداب الأخضر الذى كان يولِّد فى داخلنا إحساسًا حقيقيًا. قال على الجهمان: لقد أبلغوا عن سقوط المطر على هذه المناطق منذ عامين، هذه هى الثمار الأولى لسقوط هذا المطر! قد تكون هناك حياة فى

الأمام. لم تتحقق آمال علي الجهمان كلها، وذلك من واقع خبرتنا، ومع ذلك ثبت بعد ذلك أن بعض الوديان كانت أفضل من سابقتها.

توقفنا في واحد من تلك الوديان برهة قصيرة عند فترة الظهيرة؛ لنترك الإبل ترعى وتتغذى على الآبال، الذى بدأ يتزين بالشراريب وردية اللون التى تضفى على عشب الأبال منظرًا جميلاً فى فصل الربيع، كان ذلك الوادى الأول من نوعه فى سلسلة من الوديان المشابهة لوديان تاسرات لكنها تسمى مجارى[1] معشية وذلك تيمنا باسم المسقى الذى يبعد مسير يوم أو أقل فى اتجاه الشرق، والذى يحتوى على مياه مالغة لكنها صالحة للشرب، وتوجد على عمق إحدى عشرة قامة. وخلف ذلك الوادى وفى ناحية الشرق يوجد مسقى منجورة الهادى[2] (ويصح فيه أيضًا "الحادى")، على مقربة من الطريق الذى سلكه السيد برترام توماس، والمسمى باسم الجد الأكبر أو السلف البعيد لمرشدى المرى. هناك نبات صحراوى آخر بدأ يظهر الآن ولأول مرة منذ خروجنا من جافورة، هو نبات الألقى، أخضر اللون الذى بدأت أزهاره الصفراء الصغيرة فى الظهور. شاهدنا قلة قليلة من طيور الشادى(*) فى هذه الأجزاء من البلاد، كما شاهدنا أيضا بعض أفراد قليلة جدًا من الجراد، لكنى لم أكن مستعدًا لمشاهدة الفراشات حتى ولو فراشة واحدة. فى البداية خلت إن الوميض بنى اللون المفاجئ كان من قبيل الوهم البصرى، لكنى سرعان ما اكتشفت أن الأمر غير ذلك. قد يكون ذلك المنظر عبارة عن عشرين فراشة، بعد شهر من التجوال فى هذه الرقعة الرملية، لكنى لم أمسك منها سوى الفراشة الأخيرة[3]، التى صادفتها عل حواف الصحراء الخالية من الماء فى بنى

---

(١) مجارى (جمع مجرى) وتعنى "قناة".

(٢) "منجورة" تعنى "محفورة" وهى مشتقة من الجذر "نقر". أما الاسم مينجور Minijur فقد أطلقه برترام توماس على مكان آخر، ويحتمل أن يكون "منجور" Manjur، أى بنطق الجيم مرققة إلى أبعد الحدود.

(*) طائر الشادى: طائر مغرد يسمونه أيضًا الدخلة، أو الهازجة. (المترجم)

(٣) شاهدت أيضا فراشة مرقطة بعد ذلك بأيام قلائل بالقرب من نايفة.

زينان. كنت أتطلع أن فراشة – أو بالأحرى الفراشة الوحيدة من بين فراش الربع الخالي، على الرغم من أني خلت أني شاهدت في أحيان أخرى فراشات متعددة، من نوع (إسكبر)(**) Skipper – في وجودها في هذا المكان يمكن أن تكون جديدة على العلم، ولذلك بذلت جهوداً مضنية في الإمساك بها، لكن ثبت بعد هذا الجهد كله أن ذلك النوع من الفراش كان معروفًا بالفعل[1].

كان اليوم يصادف التاسع والعشرين من شهر رمضان، آخر أيام الصيام طبقًا للتقويم، وكنا نتطلع ونحن نخيم بين سلسلة الكثبان الرملية ومنطقة الوادي الذي يسمونه خلة جدير، إلى أننا سنصحو في صبيحة اليوم التالي على وقع حياتنا العادية. كانت الريح الشمالية الغربية العاصفة التي رافقتنا طوال اليوم قد هدأت تماما عند غروب الشمس، عندما اتجهت الأعين كلها إلى السماء الغربية بشغف بحثا عن "الهلال" لترائيه. لكن الضباب هزمنا جميعا، على الرغم من زعم سعد الوشمي أنه رأى الهلال، وعلى الرغم أيضا من زعم واحد واثنين آخرين أنهما شاهدا الهلال. وليس هناك من شك في هذه الحالات كلها أن الرغبة تكون أم الفكر، ولم يأخذا أفراد الجماعة كلام سعدالوشمي مأخذ الجد. كان الرجل لا يستلطف الصوم تماما، الأمر الذي جعل شهادته محلا للشك وعدم اليقين. ومع ذلك دار جدل كبير حول مسألة إتمام رمضان ليكون ثلاثين يوما أو اعتبار الغد هو يوم العيد. أعلنت لهم عن عزمي إتمام اليوم الثلاثين، وعليه صمت أنا وابن معدي، مرشدنا الديني، ومعنا سويد وأبو جعشة اليوم الثلاثين[2] بلا انقطاع. حذا عدد كبير من أفراد الجماعة

(**) فراشة الإسكبر Skipper: فراشة صغيرة سريعة الانطلاق.(المترجم)

(١) تعرف السيد ن.د.رايلي، وهو من اختصاصي المتحف البريطاني على تلك الفراشة على أنها Qilletti Apharitis، وهو نوع يكثر وجوده في أرض الصومال، ولم يسبق العثور عليه في الجزيرة العربية، في أجزاء كثيرة منها من عدن إلى سوريا إلى العراق.

(٢) لم يفطر كل من سالم وابن حميد سوى "يوم الضباب"، في حين أفطر حسن ذلك اليوم، وتعلل "بالسفر" في اليوم الثلاثين.

حذونا، فى حين تعللت قلة قليلة من هؤلاء الأفراد بمسألة "السفر"، ولم يحتفل بالعيد سوى أولئك الثلاثة المستائين أو الناقمين.

فى ساعة متأخرة من الليل، وحينما كنت جالسا لوحدى أعمل فى خيمتى، تناهت إلى مسامعى نتفًا من نقاشهم الحاد، وكلامهم الجارح، المتصل بالاتهامات المتبادلة بانعدام الإخلاص وعدم التدين[1]، كلما زاد الإحساس بالذنب زاد الاحتجاج. وبذلك تكون الجماعة لم تتخذ موقفًا عامًا بشأن مسألة إتمام أو عدم إتمام الشهر. وإذا ما نحينا جانبا الأربعة ومعهم قلة قليلة من أفراد الجماعة الذين أفطروا "يوم الضباب"، نجد أن بقية الجماعة أنهت الشهر بشىء من الشك قل أم كثر، على أمل القضاء مع زايد الذى ضرب مثلا سيئا، ومعه سعدان اللذان كانا أردأ المقصرين. الإسلام فى كل جوانبه ييسر ولا يعسر، تاركا الحكم لضمير الشخص نفسه، والنتيجة أن أصحاب العقيدة أو الإيمان غير الجيد، يستغلون هذه الفرصة ويتغلبون على رفاقهم وإخوانهم – على الأقل فى هذه الدنيا.

جودير حفرة ماء مالح لا يزيد عمقها على قدمين أو ثلاثة أقدام تبعد مسير يوم واحد عن مخيمنا. هذا الماء لا يصلح للشرب، لكن يجرى صبه للإبل كى تشرب منه. بئر الخلة" بمعنى المنطقة الخالية"، سميت بهذا الاسم لأنها خالية من شجيرات الحض، ذلك العشب الذى تتميز به مراعى الجنوب. كانت تموجات الكثبان الرملية هى وتموجات الوديان فى هذه المنطقة أعمق بكثير من تموجات المناطق السابقة. كانت منحدرات الكثبان الرملية الطويلة يتزايد ارتفاعها تدريجيا من ناحية الشمال إلى أن تصل إلى القمة، التى يبدأ عندها انحدار شديد ناحية الوادى الموجود فى الخلف، وعادة ما يكون ذلك الوادى من الرمل الناعم، الذى يحتم على راكب الجمل أن يأخذ حذره، نظرا لأن الإبل تفشل على الرغم من خبرتها الكبيرة، فى النزول من تلة رملية مرتفعة، كما أن الإبل تفضل المنحدرات الطويلة التى على الفجوات التى تمشى

---

(١) الصوم طلبا للسلامة فى يوم العيد، أبشع من الاحتفال بالعيد فى يوم من أيام الصوم.

فيها بخطى قصيرة وحادة. فى منحدر من تلك المنحدرات سقط زايد مقذوفًا فوق السرج الحولاني الذى كان فوق جمله، وحدث لفراج شد عضلى فى ظهره جراء حادث مماثل. وقد أفلحت فى النجاة من تلك الأخطار عن طريق الحرص البالغ الذى اضطرنى دوما إلى الخوف دائمًا على أدواتى وآلاتى، التى لم تصب بسوء طوال تجوالنا الذى استمر مدة ثلاثة أشهر.

صعدنا من وبار (على ارتفاع ٧٦٧ قدمًا) بصورة متدرجة إلى مسار جنوبى على وجه التقريب، لكننا اعتبار من المنطقة التالية – حض فارس، التى سميت بهذا الاسم تيمنا باسم مسقى يقع ناحية الشرق، فى منتصف الطريق بين الطريق الذى نسلكه ومنطقة بواح – بدأنا ننحدر ثانية نازلين إلى مستوى ارتفاع وبار نفسه بالقرب من بني جلاب –٧٣٠ قدمًا)، ومنها نزلنا إلى عين سالة (٥٢٧ قدمًا)، ومن خلفها وصلنا إلى كل من نايفة وزقريط، وحافظنا على ذلك الارتفاع إلى أن صعدنا ثانية فى اتجاه شناء .

كانت الحياة النباتية متنوعة فى حض فارس، كما كانت المنطقة عامرة بحياة أفضل زوجين من الغربان، كان الزوج الثانى منهما فى عش جرى بناؤه حديثا، لكنه كان خاليا من البيوض، وعادت إليه الأنثى بعد طيران مبدئى عودا جسورا لا مبرر له لكى يفتح صالح عليها نيران بندقيتي. وهنا يتدخل الطباخ صائحا وغاضبا لحماية الطائر الجريح، وواصلت مسيرى تاركا صالح يتعامل مع الغرابين، أحضر صالح معه أنثى الغراب ميتة، تاركا الغراب الذكر الأرمل يبحث لنفسه عن زوجة أخرى، إذا ما استطاع العثور على زوجة غير مرتبطة فى هذا المكان القفر والأرض الجرداء. وهنا بدأت ألاحظ أن الغربان هى والقبّرات ذات الوجهين، وكذلك هازجات الصحراوات أصبحت بمثابة المخلوقات الأكثر شيوعًا فى هذه المناطق، لكن اليعسوب[1] كان مفاجأة لى فى هذا المكان – وأنا لم أر يعسوبًا واحدً وإنما ثلاثة

(١) الاسم العلمى لذلك اليعسوب هو Hemianax ephipper.

يعاسيب طوال مسيرنا هذا اليوم، كما رأيت أيضا بعض الأنواع الأخرى، التى جمعت بعضا منها، فى الأيام التالية. كانت هذه اليعاسيب كلها من نوع واحد - ذلك النوع الكبير الذى يميل لونه إلى الزرقة، الذى سبق أن شاهدناه فى جابرين وفى الأحساء - وكنت أتعجب ما إذا كانت تلك اليعاسيب من الأنواع التى تعيش فى الرمال أم لا؟ وإذا كانت تلك اليعاسيب من النوع الذى يعيش فى الرمال وتستغنى عن الماء فى مرحلة اليرقة، أم أنها تستفيد بالماء وتجلبه من برك الخيران الضحلة المالحة؟ بدأت تخف تموجات الكثبان الرملية مع اتجاهنا صوب الجنوب، لكنها كانت تزداد كثافة وحجما، فى حين غدت الوديان التى بين هذه الكثبان عامرة بحياة نباتية وفيرة وغضه. دخلنا بعد حوالى خمس ساعات من حض فارس إلى رقعة أو إن شئت فقل: منطقة بنى جلاب، التى تقع فى منتصف الطريق - عرض هذه المنطقة من الشمال إلى الجنوب يقدر بحوالى خمسة عشر ميلا - خيمنا لتمضية فترة الليل. تسببت وعورة طبيعة المنطقة هى ومرتفاعاتها ومنخفضاتها عبر السلاسل الكثبانية الصعبة فى تعطيل تقدمنا، فى حين أدى النسيم الجنوبى المعتدل، الذى كانت تتخلله فترات خالية من الريح فى بعض الأحيان، إلى خلق ظروف رطوبة شديدة أثناء السير، الأمر الذى أدى إلى تعكير صفو الأمزجة التى كانت على وشك الانفجار بسبب التغيرات التى حدثت أثناء الليل. وقرر زايد عدم صيام ذلك اليوم (الأخير)، ومن باب إجبار الآخرين على أن يحذوا حذوه، أمر الطباخ بأن يواصل نومه، الأمر الذى فعله الطباخ على أحسن ما يرام. وعليه لم يكن فى طعام السحور سوى الشاى والقهوة، وعليه بدأنا صيام اليوم الأخير، بما تيسر لنا من الطعام الجاف.

كانت مجريات أحداث اليوم مؤلة وحزينة فى ضوء هذه التطورات كلها، لكن كان هناك شىء من التعويض فى الدلائل المتزايدة التى تفيد أن هذه المراعى الجيدة لم تهملها حيوانات الصحراء. والتقطت من بين الرمال زوجا من قرون غزال الريم، هذا الزوج من القرون كانت عليه بعض الآثار الدالة على الوعل الأبيض، الذى ظهرت آثار روثه الحديث فى بعض الأماكن، وكانت تفوح منها رائحة شبيهة برائحة المسك. ابتعد صيادونا عن الطريق التى كنا نسير فيها، على أمل أن يعودوا لنا بشىء يعلى من

مناسبة العيد. لكنهم جميعا عادوا خاويي الوفاض، اللهم باستثناء بعض الأرانب البرية، وكانت الجماعة التى تحلَّقت حول نار المخيم انتظارا لإفطار اليوم الأخير من الشهر متبرمة ونكدة.

كان حسن خر الديب أول من تراءى الهلال الصغير فى السماء قبل دقائق عدة من غروب الشمس. لكنى رأيته بعد ذلك بحوالى عشر دقائق، كما استطاع واحد أو اثنان من الآخرين رؤية الهلال تحت إشراف حسن الذى أشار لهما عليه وهو واقف أمامى. وأعيد فتح حوار وجدل اليوم السابق، لكن انتقادى لما أحرزناه من تقدم فى فترة العصر - فقد أصررت على البقاء مع جماعة نقل الأمتعة ليكون ذلك بمثابة احتجاج واعتراض منى على معدل مسيرنا، وأعلنت عن اعتزامى السير مع جماعة الحمل طوال اليوم التالى كله - شغل الجميع إلى أن جرى توجيه الحديث وجهة أخرى أكثر أهمية.

كنا قد ملأنا قراب الماء من إبراهيمة فى اليوم الرابع من شهر فبراير لمسافة يقدر مسيرها بحوالى ستة أيام، لكن لم تكن هناك نية فى محاولة الاقتصاد فى الماء أو ترشيد الاستهلاك. كان الماء على وشك الانتهاء بعد مسير دام أربعة أيام فقط، وكان من رأى زايد إرسال جماعة إلى نايفة لجلب كمية من الماء حتى يمكن استخدامها فى المخيم القادم. واتضح أن الجماعة لم تكن متحمسة للعودة إلى عينْ سالة - التى ثبت أنها بتعد عنا مسافة ٤٠ ميلا تقريبا - فى صبيحة الغد، وقد عارضت أنا بدورى هذا الطلب معارضة قوية. لكن زايد قال: إننا ليس لدينا ماء، ظننت أن الرجل كان يبالغ أو يكذب وأجبته غاضباً: بوسعك الاستغناء عن الماء، مرة، يوم واحد، طالما استغنيت أنا عن الماء طوال شهر كامل أو أكثر. الأكثر من ذلك، أنه إذا لم يكن لدينا سوى القليل من الماء، فبوسعك أن تستعمله أنت وحدك. أنا لا أريد شيئًا من هذا الماء، ولا أريده حتى فى عمل الشاى المعتاد، وبوسعك أن تأخذ حليب ناقتى أيضا. ونحن لا يمكن لنا مطلقا الوصول إلى مكان من هذا القبيل، هذا الذى نفعله لا يعد سيرا أو مشيا على الإطلاق. نحن الآن نقطع ما يقل كثيراً عن خمسة وعشرين ميلا فى اليوم، وذلك اعتبارا من مغادرتنا وبار.

في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم، جاء زايد وحده إلى خيمتى لكى يدافع عن مصلحة عامة، لكنى لم أجبه إلى طلبه. سألته: لماذا لا يمكنك الاستغناء عن الماء؟ رد على زايد بلا خجل أو كسوف قائلاً: أنا أفهم ذلك. وسوف نصاب جميعا بالأذى إذا ما نفد الماء، يزاد على ذلك أن قراب الماء فارغة، عاد زايد بخفى حنين وخائبا بسبب عنادى، وبعد أن تشاور زايد مع بقية أفراد الجماعة، انسلخ عن الجماعة أثناء الليل مع على وحميد لكى يجلبوا لنا شيئا من الماء، على الرغم من استخفافى به، كما كانوا يتطلعون إلى العودة لنا ومعهم جثة وعل أبيض علامة على انتصارهم.

عدت إلى فراشى وأنا غير عارف بما يخططونه، وتركت سعدان يسلخ طيرين وأرنبًا بريًا على ضوء مصباحى، وخطر ببالى أن "العبد فى التفكير والرب فى التدبير". لكنى أنقذت الأرنب البرى فى آخر لحظة، إذ من يمن الطالع أنى كنت قد حزمت كل شىء أملاً فى الرحيل فى ساعة مبكرة. هبت علينا العاصفة سريعة وغاضبة وكانت مصحوبة بسحب كثيفة ورمال غزيرة. جلست فى العراء خلف صندوق من صناديقى لأجعل منه مأوى وملاذا، فى حين شكل أبو جعشة هو وآخرون حاجزا من حولى. وعوت الريح وهبَّت الرمال طوال القسم الأكبر من الليل، لكنى كنت أنام نوما متقطعاً.

كان النهار قد أوشك على الطلوع عندما أيقظونى لأداء صلاة الفجر. كانت العاصفة قد مرت لكن مخيمنا كان فى حال يرثى له؛ فقد أصبح الحاجز الذى كان يحمينى جزءا من حاجز منخفض، واختفت خيمتى، وتحتم علينا أن نحفر حولها لإخراجها من الرمال. كان الجو بارداً وقاسيًا وسيئًا. وسعدت عندما عرفت أنه لن يكون هناك إفطار. لم يكن معنا من الماء ما يكفينا اللهم باستثناء الماء المطلوب لعمل الشاى والقهوة. رفضت العرض الرسمى الذى قدم لى بشأن الشاى المعتاد، وكان إفطار يوم العيد عبارة عن حفنة من التمر والرمل مع بعض رشفات القهوة (وكان ذلك مع شروق الشمس). لاحظت تغيب كل من زيد وآخرين لكنى تمالكت نفسى.

بدأنا مسيرنا بعد الساعة السابعة صباحا بقليل. مشيت ومشى بعض آخر من أفراد الجماعة أيضًا مثلما اعتادوا أن يفعلوا مع بداية المسير. انضم إلى صالح

ومضينا فى طريق متعرج، مخلفين وراءنا الإبل لكى يتفاوض ركابها بشأن الكثبان الرملية التى تعترض طريقهم. تحدثنا عن الوعل الأبيض، وعن الغزال، وعن المنطقة التى تعيش فيها الناصير، لكن صالح كان يفكر فى شىء آخر، حين كان سعدان الذى كان يقتاد جملى، وبصحبته فراج الذى كان يقتاد جمل صالح، كانا على مسافة بعيدة. وأنا شخصيا تمتعت كثيراً بذلك السير فوق التلال وفى الوديان وفوق الرمال المتدحرجة، وكنت أحاول طوال الوقت الانزلاق فى المنازل المنحدرة والتسلق بحذر إلى القمم المرتفعة. وبعد حوالى ساعتين من مضينا قدمًا وصلنا إلى قمة سلسلة كثبان رملية مرتفعة وقفت فوقها كى ألقى نظرة على المشهد. وفجأة استرعى انتباهى شىء أسود كان على قمة كثيب من الكثبان الرملية. ترى ما هذا الذى استرعى انتباهى؟ سألت صالحا الذى كان ينظر بشغف فى اتجاه الإبل. ظننت أن ذلك الشىء الأسود قد يكون غرابا أو شجيرة، لكنه كان يبدو شيئًا غير مألوف. وقبل أن يتمكن صالح من النظر حوله كان ذلك الشىء قد انسحب متواريا خلف القمة. وعندما أوضحت لصالح ذلك الذى رأيته بالضبط بدت عليه اللهفة والشوق، وازداد انفعاله وعصبيته. قد يكون ذلك جاسوس من جواسيس جماعة غازية، واقترح علىَّ العودة إلى رفاقنا على وجه السرعة، وكان ذلك أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف، نظرا لأن قوتنا الرئيسية كانت على بعد حوالى نصف ميل منا على الجانب الأيسر. وحثنى صالح على أن أبلغه بكل ما أعرفه، وحاول جاهدا تحذير باقى الجماعة من أن هناك شيئا ما يسير على الأقدام.

وعلى الفور جرى عقد مجلس الحرب بعد أن التحقنا بباقى الجماعة، فى حين قام كل من فراج وصالح وآخرون بالجرى بإبلهم لاستكشاف الأرض، ووقف بعض آخر من أفراد الجماعة بجوار الإبل مستعدون للقتال. كان هناك كلام كثير حول الشجاعة، وكان سعدان أشجعهم إذا سلح نفسه ببندقية رش – وهو مثلى لم تكن معه بندقية. قال على: لا تخف، سوف أحميك. بقى على الراعى، هو ومحمد وأنا مع الإبل. كان مع كل واحد منهم بندقية أما أنا فلم يكن معى سوى المسدس عيار ٢٢.٠ الذى يحمل فى الجيب.

وفي غضون دقيقة أو اثنتين، عاد إلينا أفراد الجماعة بعد أن تركوا وراءهم بعض الأفراد على الجانب الأيمن. قالوا لنا: اركبوا على وجه السرعة وعجلوا بالسير في اتجاه الشمال. عندما فعلنا ذلك، شاهدنا كشافينا وهم قادمون للانضمام إلينا، ومعهم العدو - زايد والمتهربون الآخرون! لقد داهمتهم العاصفة قبل أن يقطعوا مسافة كبيرة وبالتالي عدلوا عن المهمة التي ألزموا بها أنفسهم. كانت الرمال قد محت آثارهم وبددت آمالهم في مطاردة أي وعل من الوعول البيضاء. وبذلك يكونون قد صالحوا أنفسهم على يوم آخر بلا ماء، وتأكدوا أن خدعتهم لم تنطل عليّ.

وعلى الرغم من ذلك ابتعدوا عني، في حين استأنفت أنا وصالح مسيرنا، ومن خلفنا نسيم شمالي شرقي. كنا نشاهد هنا وهناك روث الوعول البيضاء، ومن الواضح أن صالح كان يتحرق شوقا إلى البحث عن تلك الطريدة، لكنه من باب الولاء والإخلاص لي، بقي إلى جانبي أثناء تقدمنا أمام إبل الحمل ونقل الأمتعة. يبدو أن زايد هو وشركاه كانوا يبذلون جهداً كبيراً لكي يسجلوا تقدماً طيباً، لكننا بعد ذلك بساعة رأيناهم يسبقوننا بمسافة كبيرة، وعندما وصلنا إليهم وجدنا أنهم سندوا جثة وعل أبيض ذكر كبير على دغل من أدغال أشجار الآبال. لقد عثروا على ذلك الوعل الذكر ميتا وشبه مدفون في الرمل. وسواء أمات هذا الوعل بفعل الجراح أم الجفاف - كنا قد دخلنا الآن رقعة من الأرض الجرداء الموات، التي لم يصبها المطر منذ زمن بعيد، وكانت حياتها النباتية جافة - فهذا أمر لا يمكن القطع به؟ لكن جثة الوعل كانت بلا مساس. ولم ينفتح من الجسم سوى كرش أو بطن ذلك الوعل - التي تعفنت بفعل الأمعاء - وفيما عدا ذلك كان اللحم جافا بلا مساس على الهيكل العظمي لذلك الحيوان. التقطت صورة لذلك الحيوان وهو مسنود إلى الدغل الذي ظلل لحظات نفوقه الأخيرة، وقطعنا رأس ذلك الوعل كي نأخذها معنا. وعلى الرغم من نفوق ذلك الوعل، فقد كان أول وعل أشاهده في موطنه.

بعد ساعة أو أكثر من هذا الفاصل، دخلنا إلى منطقة حض عين سالة - التي هي عبارة عن سلاسل متتالية من الكثبان الرملية التي يميل لون رمالها

إلى الابيضاض، بدأ صالح يمل شيئا فشيئا مع مرور كل ساعة، لكنه كان يحاول الصمود والجلد، في الوقت الذى كنت أنا أتمتع فيه بذلك العمل. كنت أتعجب إذا ما كان قد خارت قواه، نظرا لأنى لم أستشعر أى شيء من التعب. أكدت لصالح أن بوسعه أن يركب جمله، إذا ما كان يرغب فى ذلك وأن ذلك لن يسبب لى أى نوع من الحرج. كان الأمر متروكا لهم فى مسألة تسريع الخطى على إذا ما كانوا غير راضين عن طريقة سيرى. أخيراً اعترف الرجل والدموع فى عينيه، بأنه لم يعد قادرا بعد على المشى، ورجانى أن أركب جملى حفاظا على ماء وجهه. كنا نسير منذ حوالى ثمانى ساعات، ووافقت على أن أركب الجمل، لكنى أصررت على أن أكون بصحبة إبل النقل والأمتعة. وبعد ذلك بحوالى ساعة إلا قليلا لاحظت حالة من الاستياء بين جماعة المقدمة. بعض أفراد هذه الجماعة كانوا يجرجرون معهم بنادقهم، ويحاولون طلوع أو صعود المنحدر بسرعة سيرا على الأقدام. خطر ببالى أنهم ربما لاحظوا عدوا أو رأوا أثره فى الرمال. لكن الأمر لم يكن كذلك. لقد عثروا على مكان أمضى فيه وعلان كبيران فترة الظهيرة فى ظل أشجار دغل من أدغال الآبال، فى عصر ذلك اليوم. نسيت كل شيء فى تلك اللحظة المثيرة – الجوع، العطش، والتعب والإرهاق – وجاءت تلك اللحظة بمثابة نهاية مسير اليوم. خيمنا فى تجويف مجاور لهذه المنطقة، ونصبوا خيمتى فى حفرة على شكل تجويف شبيه بحدوة الفرس فى كثيب رملى شامخ.

دخل الظلام علينا قبل مجيء الصيادين – فشلوا جميعا لكنهم كانوا مفعمين بأمل النجاح فى اليوم التالى. لم يكن هناك عشاء حتى يفتقدوه، وهنا وافقت على قيام مجموعة بالذهاب إلى نايفة كى يجلبوا لنا ماء فى اليوم التالى من عين سالة. وقد اندهشت عندما وجدت صالح الذى كان يشكو قبل ساعة من تورم قدميه، لم يتردد لحظة فى الانضمام إلى تلك المجموعة، وكان آخر من وصل إلى المخيم. تساءلت: حسن هل عدتم بوعل أبيض؟ رد على، لا لكنى شاهدت وعلا أبيضا، ذكر أبيض ضخم، شاهدته عن قرب تماما. صوبت إليه البندقية، وضغطت على الزناد، لكن الخرطوشة أخطأت وعندما سمع الوعل صوت الخرطوشة فر هاربا. لم أره بعد ذلك، وهذه هى الخرطوشة اللعينة. ألا ترى التثليم الذى فى رأسه، صحيح أن الرجل كان يكذب، وكان

يعلم أنى أعرف أنه كاذب. ابتسم الرجل ابتسامة صفراء لتشككى، لكنه لم يلح كثيرا فى هذا الأمر.

جاءنى زايد بعد ذلك بطلب غريب، إذ كان يود أن يأخذ فانوسى - وكان معى أيضا مصباح ضغط لجذب الحشرات، لكنى كنت أنانيا فى مسألة إعادة أى من هذين المصباحين؛ نظراً لمحدودية كمية البرافين التى معنا. سألته: فيم تود أخذ المصباح؟ رد على: أريده. أصررت على أن يقول لى السبب الذى من أجله يود الحصول على المصباح. قال: حسن سوف تعرف، لقد سمعنا جميعا ونحن جالسون تصفير خفيف، ونحن نظن أنه ربما كان هناك غزاة حولنا، وأن هذا الصفير مجرد إشارة من الكشافين. أعطيته الفانوس ولم أفكر فى الأمر بعد ذلك إلا فى صباح اليوم التالى قال زايد: لم يكن فى الأمر شىء، لقد تجولنا حولنا وحول المخيم ولم نجد أثرا لأحد. قال حسن: لقد كان جناً، قالها حسن باهتمام أدهشنى وسرنى فى ذات الوقت. كان حسن جادا تماماً ويبدو أنهم جميعاً كانوا متفقين معه بلا أى اعتراض. لم يخطر ببالهم أن ذلك الشىء يمكن أن يكون شيئا آخرا غير هذا الشىء الخارق للطبيعة، كنت قد سمعت قبل ذلك مرارا عن الربع الخالى على أنه مسكون من الجن، لكن هذه كانت أول مرة نلتقى فيها هؤلاء السكان.

طلع النهار علينا بارداً، ورمادى اللون، وكثيف الضباب وفيه نسيم شمالى لطيف ونحن نستأنف مسيرنا. ومن وقت لآخر كنا نرى علامات دالة على الوعل الأبيض، وكانت سلاسل الكثبان الرملية الممتدة من الشمال إلى الشرق ومن الجنوب إلى الغرب، تبدو وكأنها آخذة فى الارتفاع، ويتزايد أيضا انحدارها ونعومتها، وتأخذ فى التكسُّر فى اتجاه الجنوب كما لو كانت موجات متدحرجة من موجات المحيط. كانت المنطقة كئيبة، وموحشة، وجرداء، ويصل عرضها إلى حوالى ميل فيما بين الموجات التى عبارة عن وديان رملية تتخللها أعشاب قليلة جافة من أعشاب الأنداب والألقة والآبال والحض، كما تتخللها أيضا شجيرات البركان، وبخاصة عندما اقتربنا من عين سالة.

كانت المسيرة قصيرة جداً إذ بلغ طولها حوالى خمسة عشر ميلاً، لكننا كسرناها فى منتصفها بوقفة دامت ساعة واحدة. واستعملنا فى هذه الوقفة ما تبقى معنا من ماء فى عمل القهوة، كما قمنا بشىّ ما تبقى معنا من لحم جمل مقينمة على نار المخيم تعويضا عن يوم العيد الذى كان بلا إفطار أو غداء. وهنا بدأ يتضح استواء سطح الأرض للناظر إليه من الناحية الشمالية، كما بدت الكثبان الرملية أكثر انخفاضا، لكن تحدر هذه الكثبان ناحية الأسفل كان أكثر عمقا. ورحنا نقترب ببطء من قمة سلسلة طويلة ومتعرجة من الكثبان الرملية، وراح سالم يشير إلى الأسفل ناحية قدميه، وهو يتعجب قائلاً: انظر! هذه هى عين سالة! نظرت إلى الأسفل فى حفرة كبيرة توجد فى الأسفل على بعد حوالى ٢٠٠ قدم، ورأيت منطقة صخرية.

لم نر طوال خمسة أيام سوى الرمال وهى فى حالة من الدفق المستمر، كان هناك شيء فى منظر الصخر يشعر الناظر إليه بالرضا والقناعة. نزلت من فوق جملى كى ألقى نظرة على ذلك المشهد، فى حين قامت الإبل بدائرة واسعة لكى تصل إلى المدخل المؤدى إلى ذلك التجويف، الذى كان محاطا تماما بمنازل رملية عالية شديدة التحدر على شكل حدوة الفرس باستثناء الناحية الجنوبية - الغربية. وهناك نقطة عالية فى سلسلة الكثبان الرملية تقع مباشرة فوق تلك الحفرة، هذه النقطة لابد ألا يقل ارتفاعها عن ٣٠٠ قدم فوق مستوى الحفرة، لكن سلسلة الكثبان الرملية كانت تنخفض عن تلك النقطة بما يتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ قدم. شاهدت زوجا من الغربان يدوران حولنا ليشهدا وصولنا، وبقيا ملازمين لنا، على الرغم من بقائهما على بعد مسافة كبيرة منا، طوال رحلتنا التى استمرت خمسة أيام من اليوم العاشر من شهر فبراير إلى اليوم الخامس عشر. كان الغرابان يخاطران بالمجيء إلى مخيمنا فى لحظات النعاس، وربما كانا أجرأ من ذلك مع شيء من الحصافه، نظراً لأن بندقية الرش أصبحت غير صالحة للعمل وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلناها من أجل إصلاح هذه البندقية، جاء ذلك بمثابة مأساة، نظراً لعجزنا فى إثر ذلك، عن اصطياد الطيور الصغيرة، على الرغم من ملاحظتى لزيادة أعداد هذه الطيور الصغيرة، الأمر الذى دفعنى فى بعض الأحيان إلى رمى تلك الطيور باستعمال مسدسى.

بينما كنت جالسا فوق قمة كثيب من الكثبان الرملية مشرفة على التجويف سمعت دوى طلقة من طلقات البنادق، سمعتها وهى تدوى متنقلة من منحدر إلى منحدر، ورأيت ثعلبا واقفا فى حالة سكون على الصخرة الموجودة فى الأسفل. وقف الثعلب على تلك الصخرة مدة لحظة قبل أن يفر هاربا إلى الرمال الموجودة فى الخلف، ورحت أتتبعه مستعملا نظارتي المكبرة فى الوقت الذى راح فراج هو والأقفة يطاردان ذلك الثعلب - كان واضحا أن الثعلب كان جريحا - كانت الطلقة قد اخترقت بطنه وراحت الكلبة تطارده. وجاءت نهاية الثعلب بين الأدغال، وعاد فراج منتصرا ومعه الطريدة التى ثبت أنها كانت ثعلبا من نوع الفينيك Fennece، أو إن شئت فقل ثعلب الصحراء، وهو من الأنواع الفرعية أو الثانوية[(١)] التى جمعها السيد برترام توماس فى العام الماضى.

بعد أن تمعنت المشهد بما فيه الكفاية، نزلت المَنْزَل الناعم المتحدر متجها إلى الحفرة التى فحصت تركيبها الجيولوجى، فى الوقت الذى جرى فيه نصب الخيام وتسريح الإبل إلى المراعى. وعلى ارتفاع حوالى خمسين قدما فوق مستوى أرض المنخفض، ظهرت طبقة متقطعة من الحجر الرملى الهش الذى يضرب لونه إلى اللون الرمادى، من تحت الرمال المتراكمة. كانت تلك الطبقة بمثابة رف لأرضية صخرية من التكوين نفسه، يصل طولها إلى عدة[(*)] إيكارات، وينحنى حول منطقة الأبيار الفعلية على شكل قمة صخرية شبه دائرية يصل ارتفاعها إلى حوالى ١٠ أو ١٢ قدماً، وتخترق قرونها المنحدر المحيط بالمنحدرات الرملية وتذوب وتختفى فيه. فى هذه المنطقة عثرت على بعض شظايا قليلة من أصداف المياه العذبة[(٢)]، وفيما عدا ذلك لم أر شيئا سوى الأشياء الخاصة بمخيمات البدو والقدماء قرون غزال الريم، وخراطيش فارغة، وقطع

---

(١) اليمن السعيد، صفحة ٢٤٠ - أحضرت معى ثلاثة أنواع حددها الكابتن جى. جى. دولمان، وهو من اختصاصى المتحف البريطانى على أنها من النوع الذى يسمونه Cynalopex.

(*) الأيكر يعادل حوالى ربع فدان مصرى. (المترجم)

(٢) يسمونها علميا Melanoides tuberculata، راجع الملحق.

من الجلد وما إلى ذلك. ولكن ثلاث قطع من الأحجار التى أخذتها من هذه المنطقة ثبت أنها أجزاء من نيزك شهابى حجرى صغير ووحيد[١].

فى المنطقة الواقعة وراء الحجر الرملى، عثرت على رقعة كبيرة وفريدة من الأرض، هذه الرقعة معزولة عن الحجر الرملى بفعل الرمال، وعامرة بالتركيبات الجيرية، وقد عجزت تماما عن فهم طبيعة هذه الأرض. طبيعة هذه الأرض مكونة من أنابيب كبيرة وأنابيب صغيرة اسطوانية الشكل ثنائية وثلاثية، لكنها ناعمة ولامعة من الداخل، وقد أفاد السيد كامبيل Campbell سميث[٢] Smith، وهو من اختصاصى المتحف البريطانى، أن هذه الأنابيب الأسطوانية قد تكون تركيبات تشكلت "حول أغصان وغصينات نباتية ماتت فى داخلها منذ زمن بعيد" لكن الأمر ظل معلقا، إلى أن شاءت الصدفة البحتة، أن يتلقى المتحف البريطانى عينة من تركيب جيرى مماثل من مكان ما فى شرقى الأردن. اتضح فى هذه العينة الجديدة أن الغاب المتحجر الذى تكونت حوله المادة الجيرية كان مايزال بلا مساس. وهنا لم يعد هناك شك فى أن تركيبات عين سالة كانت من أصل مماثل، وهنا يمكننا القول: إنه كان هناك فى يوم من الأيام، مجرى من الغاب والبوص بالقرب من الماء، فى المكان الذى عثرت فيه على هذه العينة، وهنا يمكن القول أيضا أن منطقة عين سالة تصبح مرشحة لأن تكون تذكارا من تذكارات وادى الدواسر القديم، الذى لم نصل له إلى أثر حتى يومنا هذا. فى مثل هذا الحال يمكن لوادى شناء، الموجود فى أقصى الجنوب، والذى احتفظت له مؤقتا بهذا التشريف، أن يكون الذيل أو النهاية من منظومة وديان نجران، التى يتعين العثور على الطابع المميز لها فى يوم من الأيام. عين سالة هى وطويريفية، تبعدان عن بعضهما حوالى مائة ميل، ويبدو أنهما تقعان على ارتفاع واحد تقريبا فوق مستوى سطح البحر، وتفصلهما عن بعضهما أرض عالية. هذا يعنى أنهما تمثلان بقايا وديان قديمة، وهنا يمكننا أن نرجح أيضا أن المنطقة التى تضم كلا من أدراج، وعين

---

(١) راجع الملحق.

(٢) راجع الملحق.

سالة، وتايفة، وزقريط إما أن تشكل دلتا لوادى الدواسر أو مصبا لبحر من البحار. وفى ظل غياب أى أثر من آثار المياه العذبة تحت تربة المنطقة المجاور، أجدنى أفضل البديل الأخير، أى أن المنطقة كانت مصبا لبحر من البحار، وذلك على الرغم من عدم إلغاء خيار الدلتا إلغاء تاما.

يصل عمق البئر الوحيدة إلى ما يتردد بين سبع وعشر قامات، على حد قول أفراد الجماعة، والبئر محفورة خلال الصخر الرملى، وتبلغ فتحة تلك البئر حوالى قدمين، وهى مدعمة بإطار من الوتل[1]. والمرجح أن سجل انتقال هذه البئر بين الحياة والموت يرجع إلى الماضى السحيق، لكن التاريخ الحديث لهذه البئر - والذاكرة الصحراوية قصيرة جداً - يبدأ بالنفل، أحد مشايخ المُرَّة، الذى وفد على هذه الأجزاء، وهو يعانى من العطش الشديد فى طريقه إلى القيام بعملية من عمليات الغزو، ورأى ذلك النفل فى منامه من قال له: لا تخف فالماء تحت قدميك. وفى صبيحة اليوم التالى تتبع الرجل سلسلة الكثبان الرملية إلى الصخر المكشوف، وراح يحفر إلى أن وصل هو ورجاله إلى الماء، وبذلك تمكنوا من إنقاذ أنفسهم وإنقاذ ماشيتهم. كان ذلك منذ حوالى خمسين عاما مضت، ثم أدى الجفاف إلى دفن البئر إلى أن جاء "عام البرد" على حد قولهم (أى فى العام ١٩٢١ حسب تقديرى)، عندما أعاد على الجهمان اكتشاف تلك البئر وافتتاحها من جديد. عندما جرى ترك تلك البئر وهجرانها للرمال. ولذلك وجدناها ميتة ومدفونة. يقولون: إن ماء تلك البئر كان مالح الطعم، على الرغم من صلاحيته للشرب.

المدهش بحق أن رقعة من صخر الأديم ومحاطة بالرمال بقيت مكشوفة. وتفسير ذلك يمكن أن يكون بالفكرة التى مفادها أن الريح فى مثل هذه التجاويف العميقة تحدث دوامات رملية هى التى تؤدى إلى كنس أرضية هذه التجاويف، كان من الصعب

(١) الوتل: قضبان تضفر مع الأغصان والقصب، تستخدم فى إنشاء الأسيجة أو الجدران أو السقوف. (المترجم)

علينا تماما العثور على مكان يناسب خيامنا، نظرا لأن الدوامات المفاجئة التى كانت تحدث بين الحين والآخر، كانت تهبط علينا من الأعلى بلا سابق إنذار، وتقطع الخيام من أجزائها السفلى، كما أدت أيضا إلى اقتلاع خيمتى ثلاث مرات خلال الرحلة.

عندما وصلنا كنا قد استهلكنا ما تبقى معنا من ماء فى عمل القهوة للمرة الأخيرة، وكان يتعين علينا انتظار وصول الجماعة التى ذهبت إلى نايفة ومعها قراب الماء المملوءة، عند الساعة الخامسة مساء. واعتبارا من تلك اللحظة بدأت مسألة الأمعاء، التى تملكتنا باستثناء فترة وجيزة بعد شناء، إلى أن انتهى تجوالنا فى الصحراء، وجَعَلَتْ من نايفة مجرد كلمة عابرة بيننا، والعجيب حقا فيما نحن بصدده هنا أن المتاعب بدأت فور وصولنا إلى عين سالة، ولا يمكن عزو تلك المتاعب إلى هذا السبب، على الرغم من أن ماء نايفة ثبت أنه قوى جداً فى الشاى والقهوة، الأمر الذى فاقم متاعبنا وزادها. ومع ذلك، فأنا أعزو هذه المتاعب فى الأساس إلى عدم استمرار الصوم، ذلك أنى بعد رفع القيود كلها، قمت بناء على تحريض وحض كل من صالح وحميد، بالعيش على زهور الآبال البيضاء وأوراقه الغضة الطرية أثناء المسير وعند الوقفات، فى الوقت الذى بدأ يتكرر فيه ظهور المكيكه Makika على قائمة طعامنا، وأنا هنا أشهد على الخواص الطبية التى لذلك العشب.

جرى الاتفاق على أن عين سالة يجب أن تكون مركزا لعملياتنا، فى الوقت الذى تقدمت فيه مع كل من زايد وعلى الجهمان فى اتجاه شناء من أجل الحصول على مرشدين وكفلاء لنا فى سيرنا فى اتجاه الجنوب من العرب الذين قد نعثر عليهم أثناء سيرنا. كان محتم علينا أن نسمح لأولئك المرشدين والكفلاء بستة أيام نلقاهم بعدها فى منطقة زقريط - التى هى مرحلة من المراحل البعيدة فى الجنوب. كان جابر بن فصل قد حذرنا من أننا لن نجد أى أحد فى المراعى الجنوبية، نظرا لأن قبائل الرعى كانت تشد رحالها، عندما ترك المنطقة قادما إلى الشمال، من منطلق الحصول على حماية الجبال الجنوبية له ولرجاله قبل وصول حملة العقاب التى صورها الخيال للمنهلى الشيخ سيف بن طنَّاف، عندما شاهد

الاستعدادات والتجهيزات وهى تجرى على قدم وساق لرحلتنا. كان يتعين أيضا على مبعوثينا، البحث أيضا عن حمد بن سلطان علاوة على الشيخ سيف، والمعروف أن حمد بن سلطان كان يعمل مرشدا للسيد برترام توماس، وأنه كان يعيش مع زوجته بين أهله وناسه الكثيرين، من بنى الراشد - الذين يحتمل أن يكونوا بعيدين عن متناول جباة الضرائب الوهابيين. كان مطلوبًا أيضا إحضار حسن بن كالوت وهو من الراشدين، أو أى احد من أقاربه، فى الوقت الذى يتحتم فيه أن يكون لدينا مندوبون أو ممثلون لقبيلتى سعار وكارب. ظهر أن زياد هو وعلى الجهمان كانا يمضيان قدما عن طيب خاطر وحسن نية لخدمة أغراضنا بإخلاص، أما جابر فكان يتكلم بصراحة شديدة جداً. لم يريا أية علامات أو دلائل تشير إلى وجود العرب فى أى مكان، وهذه الحقيقة نفسها توحى بمدى الخوف والفزع الذى كان ينتاب الناس عندما يذكر اسم ابن سعود، جماعة مكونة من تسعة عشر فرداً لا يمكن أن تشكل تهديدا لقبائل الجنوب المحبة للحرب، والتى تستطيع خلال فترة وجيزة وضع ما يتردد بين ٢٠٠ و ٣٠٠ رجل من الرجال المسلحين فى ميدان القتال. لكن من الواضح أن الأمر يمكن أن يكون جد خطير بالنسبة لهم إذا ما تحدوا مندوبى وممثلى الملك العظيم، تحت أى ظرف من الظروف، ولذلك آثروا عدم مواجهة تلك المشكلة.

فى تلك الليلة دارت بينى وبين المبعوثين المنتقين مشاورات طويلة، وأعطيتهم الخيار من بين ثلاثة أمور أو أهداف. مراقبة نجم القطب Polaris تقول إننا نقع إلى اليمين قليلا من خط عرض ٢٠ درجة فى حين يكون خط الطول فى المنطقة المجاورة لخط طول ٥١ درجة شرقا. فى مثل هذه الظروف يبدو قبر هود[1] - أو بالأحرى القبر المزعوم

(١) هذا المكان زاره كل من دى.فان دير der ميودن Meuden، والدكتور ه.فون وسمان فى العام ١٩٣١، وقد نشرت روايتيهما فى مجلد صدر مؤخرا تحت عنوان حضرموت. راجع أيضا مجلة جى.آر.جى.إن، المجلد السابع والسبعين العدد رقم ٣ من العام ١٩٣١ . فى رحلة طيران فوق الموقع قام بها قائد السرب آر.إيه.كوشران Cochrane. الموقع الحقيقى، لهذين المصدرين هو على وجه التقريب خط طول ٥١٩ درجة، ٣٠ دقيقة شرقًا وخط عرض ١٦ درجة شمالاً.

بأنه قبر النبى هود – على أنه أفضل الأهداف على خط طول ٥٠ درجة شرقًا، وخط عرض ١٦ درجة شمالا، وذلك فى ضوء المعلومات المؤكدة التى حصلت عليها من الخرائط المتيسرة. كان ذلك هو الهدف الذى حددته لهم، واعتبار كل من شيبام (فى أقصى الغرب) وساحل البحر (فى أقصى الجنوب) بديلين معقولين. كان مطلوبا أيضا من هؤلاء المبعوثين استئجار إبل أخرى إن تيسر لهم ذلك – والتأكد من احتمالات وإمكانيات التزود بالطعام والمؤن، استعداداً لرحلتنا إلى السليل التى يخلو طريقها من الماء.

قال على الجهمان: يا أنت، أنت تعرف حال البدو. هؤلاء الناس سيطلبون مبلغًا كبيراً. ويجب أن تقول لنا الحد الذى يمكن أن نقف عنده – رددت عليه: هذا الأمر يرجع لكم أنتم، وسوف أوافق على ما تعدونه مناسبًا أو معقولاً، النقود التى أحضرتها معى هى للصرف منها على هذه الرحلة، لا تضعوا هذه النقود، تحسبا لما سيتم توزيعه عليكم. أصر علىّ متسائلاً: لكن كم سيطلبون فى ظنك؟ رددت عليه متهربا، ما الذى تنصحنى به؟ ظل على فترة طويلة غير راغب فى إلزام نفسه بأى شىء، وطلبت إليهم التشاور فيما بينهم وأن يخبرونى بالنتيجة التى يتوصلون إليها. عادوا إلى فى نهاية المطاف. قال على الجهمان: نحن نعتقد أنهم لن يطلبوا أقل من مائة دولار لكل واحد منهم. هم بدو وطماعون، وكان المسيحى سخيا معهم العام الماضى. تساءلت وأنا أنظر إلى زايد، ما رأيك؟ أجاب زايد: أنا أوافق على ذلك، وهذا سعر رخيص، إنهم شيوخ، وإذا ما أجزلت لهم العطاء سيخدمونك جيداً. رددت عليه قائلاً: بل جيداً جداً، نحن موافقون على ذلك. إنفاق مبلغ ٤٠٠ أو ٥٠٠ دولار أى ما يعادل ٢٠ أو ٢٥ جنيهاً إنجليزيًا لا يعد مبلغًا كبيراً فى مثل هذه الظروف.

فى صباح اليوم التالى جلسنا حول نار المخيم نحتسى القهوة ونأكل التمر، فى حين كان يجرى عمل الترتيبات اللازمة لإرسال الإبل للسقيا من نايفة. ونظرا لأننا كنا سنزور المكان فيما بعد، فقد قررت البقاء فى المكان الذى كنت فيه طلبا للراحة. سوف يقوم كل من زايد وعلى الجهمان بمرافقة جماعة السقيا، ومن هناك سيذهبون إلى شناء،

وبينما كنا جالسين مرت من فوق رؤسنا جماعة من البجع، كانت تطير على شكل حرف[1] V، وتتجه صوب الشمال. كان منظرا جميلا وسط الصحراء. قال علي الجهمان: إنها ذاهبة إلى قطر، هذا هو الاتجاه، ونحن نراها على الساحل هناك في أغلب الأحيان. كان زايد الطباخ قد أبلغ عن مشاهدته لآثار أقدام الكروان، ذلك الطائر حسن الصوت، عند حافة المخيم، وثبت أن ذلك الطائر كان يزور المخيم بصورة منتظمة كل مساء، على الرغم من عدم رؤيتنا له. ومع ذلك فإن إصرار ذلك الكروان على المجيء إلى هذا المكان كان يوحى بانجذاب ذلك الطائر إلى الماء أو إلى الرطوبة التى فى منطقة البئر، فى حين كانت مناطق الثعالب قريبة من البئر هنا وفى أم الجدير – وقد لاحظت هذه الحقيقة نفسها عند بعض الآبار الأخرى، وعند الآبار المشكوك فيها فى مراحل لاحقة من رحلتنا ومسيرنا فى منطقة الخيران – ترفض مسألة عدم تحاشى ثعلب الصحراء للماء وتردده على المناطق المجاورة له. اقترحت على عليّ، أن يحدد لنا مكانا نحفر فيه بغية الحصول على الماء من هذه الرمال، وسيبذل الرجل قصارى جهده فى اختيار الأماكن المناسبة فى الأرض الصلبة التى تحفر فيا الثعالب جحورها. كانت هنا وفى الأماكن المجاورة أيضا طيور الصحراء الصغيرة بأعداد كبيرة، وشاهدت مرتين أثناء النهار فراشة الصقر الطنانة صائدة الذباب.

بعد استكشاف عين سالة وما حولها استكشافًا تاما قررت القيام بجولة إلى مسقى أدراج الذى يبعد مسافة عشرة أميال فى الناحية الشمالية الغربية. وانتقلنا إلى ذلك المسقى فى اليوم الثانى عشر – جماعة مكونة من سبعة أفراد فقط بلا خيام أو أدوات أخرى – لتمضية الليل هناك والعودة فى اليوم التالى. كانت البلاد التى عبرناها، برفقة سالم بصفته مرشدا لنا، شبيهة بالمنطقة التى كنا قد شاهدناها بالفعل عند مجيئنا إلى عين سالة. ومع ذلك بدت المراعى لنا أنها أفضل من سابقتها، فى حين كان الملح المميز للمسيرة كلها عبارة عن سلسلة طويلة من الكثبان الرملية العالية إلى

(١) يطلق رفاقى على هذا البجع اسم "لاو" Lau.

حد ما، وهذه السلسلة يسمونها حَمْران أدراج، التى تقع فى الشمال الشرقى وفى الجنوب الغربى عبر المسار الذى كنا نسير فيه وعلى امتداد أميال عدة فى كل اتجاه من هذين الاتجاهين. عبرنا خلف هذه السلسلة سهلا متموجا تحده فى الطرف البعيد منه سلسلة كثبان أدراج الرملية العالية.

لم يكن سالم على يقين من الاتجاهات هنا، لكنه تحول إلى ناحية اليمين وراح يمشى محاذياً لسفح سلسلة الكثبان الرملية على أمل العثور على ممر سهل خلالها. وبينما كنا نسير انبهرت إبلنا - وانبهر جملى أيضاً - عندما شاهدت الإبل ولأول مرة أجمل أدغال وأشجار الصحراء. تلك الزهرة الصفراء التى تشبه الكأس هى وأوراق الزهر التى رسمت صورة ساحرة فى تلك المناطق، وعلى الرغم من رؤيتى لهذا النبات مرات كثيرة بعد ذلك، فإنى لم أنس مطلقًا ذلك الانطباع الأول بجماله وحلاوته. اندهشت عندما علمت أو سمعت أن ذلك النبات لا يحتل مرتبة عالية فى علف الإبل من وجهة نظر البدو، فى حين أن الروث الناتج عن استهلاك ذلك النبات يولد سعرات حرارية أقل من الروث الناتج عن التغذية على نبات الحض. على أيّة حال، لقد استفادت إبلنا بعض الشىء من النباتات القليلة التى عثرنا عليها، فى حين لاحظت أن طائر الصحراء المغرد (أو ربما طائر آخر، لأنى لم أحدد نوع ذلك الطائر) كان يوجد هنا بأعداد كبيرة، ويطير على شكل جماعات، بدلا من التنقل بين الأدغال وحيدا، أو على شكل أزواج.

وصلنا بعد ذلك مباشرة وبصورة مفاجئة إلى منخفض تجويف حدوة فرس أدراج، التى يقع خلفها كثيب رملى مرتفع يجعل من سلسلة الكثبان الرملية معلما واضحا من معالم سطح الأرض فى هذه المنطقة، فى هذه الرقعة الواسعة من صخر الأديم المكون من الحجر الرملى المكشوف، تقع الآبار الثلاثة "الميتة"، التى تُكَوِّنُ هذا المسقى. يقال إن الماء فى هذه الآبار على عمق تسع قامات وأن فوهات تلك الآبار يسهل تمييزها على الرغم من انهيار الرمل عند المستوى المنخفض من التجويف الذى تقع فيه هذه الآبار فيما بين المَنْزَلْ الرملى المنحدر والطاولة الصخرية المستوية، المقسمة

إلى أربعة أقسام غير متساوية، والتى ترتفع إلى مسافة حوالى ١٠ أو ١٢ قدماً فوق مستوى البئر. سطح هذه الطاولة من صخر جيرى غشيم وصلد، لكن لم أجد أثرا شبيها بأنابيب الغاب التى فى عين سالة، على الرغم من عثورى على قطعة صغيرة من الزجاج الشهابى الحجرى. وعثرنا أيضا على أنواع متعددة من الأنابيب الومضة[١]، أو إن شئت فقل الأنابيب المضيئة (التى تتشكل بفعل انصهار الرمل بتأثير البرق) على الرمال فى أنحاء هذا المكان، والعرب لديهم نظرية مفادها: أن الأنابيب الومضة التى من هذا القبيل تشير دوما إلى وجود الماء. وعلى كال حال فقد عثرنا بكل تأكيد على أنواع من هذا القبيل فى رمال الصحراء، الخالية من الماء ولا يمكن أن تكون هناك علاقة بين الاثنين - لكن اتضح لى أن انكشافات صخر الأديم عادة ما يكون بينها وبين وجود المياه علاقة أو صلة، وغالبا ما تحدث هذه الانكشافات فى مستويات الوديان القديمة المنخفضة التى قد يوجد الماء فيها على أعماق قريبة أو بعيدة. وقد لاحظ كل من ولفريد سكاون بلنت هو وحرمه آن Anne بلنت[٢] شيئا من هذا القبيل، فى انكشافات صخرية مماثلة فى صحراء النفود الشمالية الكبيرة.

وعلى الرغم من أن زيارتنا لأدراج جاءت مبهجة من جميع النواحى، فإن هذه البهجة تعكر صفوها نتيجة عمل مأساوى منزلى بسيط. كنت قد صعدت بصحبة سالم إلى قمة الكثيب الرملى، الذى كان قد تجول فى صحرائه بحثا عن شىء من اللحم. كان سالم قد عاد إلى المخيم ومعه أرنب برى لونه البنى الفاتح شيئا غير عادى. أعطيت سعدان ذلك الأرنب كى يسلخه، ورحت أدردش ونحن جلوس حول نار المخيم، وحذرت سعدان أن يحرص على سلخ الأرنب سلخاً جيداً لأنى كنت أعلق أهمية كبيرة على هذا النوع من الأرانب. ومع ذلك كان ذلك الشقى فى حالة نفسية عابثة، الأمر الذى جعلنى أكرر وأعيد له تحذيرى. نسيت الموضوع كله بعد ذلك تماما، تحلقنا

---

(١) انظر الملحق.

(٢) راجع كتاب "الحج إلى نجد"، الفصل الثامن ترجمة د. صبرى محمد حسن المركز القومى للترجمة. (المترجم)

حول طبق الأرز المعتاد، بعد أن التهم رفاقى لحم الأرنب البرى الذى شووه فى رماد نار المخيم، ليكون بمثابة مقبّلٍ. بعد ذلك، وبينما كنا جالسين نتمتع بجمال المساء، سحب فراج شيئا من جمر النار وسأل عن مصدر ذلك الشيء. كانت تلك جمجمة الأرنب البرى وقد تهشمت تمامًا، الأمر الذى عجزت معه عن كظم غيظى. وهنا سمح سعدان، الذى لم يهتز لكلامنا ولم يكن نادما على فعلته، للسانه البذىء السخيف أن ينشر سخافته وبذاءته، وهنا وجدتنى أقترح على الفور على الآخرين ألا يسمحوا بحدوث هذه السخافات والبذاءات. وعندما اكتشف ابن معدى استيائى من تلك السخافات اقترح علينا تقييد المذنب وضربه، وقد وافقت على ذلك فى ضوء استمرار سعدان فى سخافته وبذاءته. وعليه اجتمعوا كلهم على سعدان وأوسعوه ضربا، على حد فهمى، وهذا بحد ذاته كان كافيا للإضرار باحترامه لذاته، إن لم يكن لجسده. وانتابت الرجل حالات من التمرد وأجبروه على معاونتى فى استخدام التيودوليت Theodolte. وقد أنجزنا هذا العمل على ما يرام، على الرغم من التوتر القائم بيننا، لكن هذا العمل ترسخ فى قلب الرجل، الأمر الذى جعله يعلن أنه لن يعمل معى بعد الآن. فى اليوم التالى، وبعد أن تدبر الأمر فى ضوء مصالحه، أعلن الرجل استقالته وامتناعه عن خدمتى، وقد قبلت ذلك على الفور باقتراح مفاده أننى سوف أعطيه مستحقاته إلى اليوم. وهنا بدأت البحث عن متطوع آخر يحل محله وتلقيت عروضا كثيرة – لكنه كان هو الذى أحضر إلى وعاء الشاى الأمر الذى أسفر عن تصالحنا مع بعضنا. وهنا بدأ الرجل يتحفظ ولم يتشاجر معى مرة ثانية – صحيح أنى أصبحت لا أستغنى عن سعدان، وكان يخدمنى بصورة أكثر من جيدة، الأمر الذى أسفر نهاية الأمر عن أن حصيلته المالية منى كانت أكبر بكثير من حصيلة أى من الآخرين.

جرت رحلة العودة إلى عين سالة على أساس من اتجاه البوصلة الذى قمت أنا بتحديده فى البداية، سرنا فى اتجاه الجنوب مدة ساعتين تقريبا، ثم اتجهنا شرقا بعد ذلك، فى ضوء ما سمحت لنا به الكثبان الرملية التى فى هذه المنطقة، فى هذا السير الذى قمنا به جنوب سلسلة الكثبان الرملية التالية الواقعة خلف حمران أدراج، صادفتنا تلة صخرية لونها أزرق غامق، كانت فى تجويف صحراوى من الرمل

والزلط، يوحى بوجود بئر قديمة منسية فى هذا المكان. بقينا فى هذا المكان مدة ساعة، بحثنا طوالها دون جدوى عن أصداف أو حفريات، لكننا اتفقنا أنه لابد أن تكون هناك بئر مدفونة فى مكان ما من ذلك التجويف، وأطلقنا اسم البئر المخفى على ذلك الموقع الذى سيكون جديراً بالمزيد من البحث والتحرى، عندما يعود البدو إلى هذه المنطقة فى ظل ظروف رعوية أفضل.

هـــذه المنطقة الواقعة بين عين ساله وأدراج، يطلق عليها اسم حض عين سالة، فى حين نجد إلى الخلف من سلسلة أدراج الكثبانية الرملية، منطقة خالية من نبات الحض، ويطلقون عليها اسم خلات أدراج، التى قدر لنا عبورها بعد ذلك بأسابيع قلائل. المراعى التى فى هذه المنطقة، وعلى الرغم من أنها أفضل من المراعى التى مررنا بها حتى الآن، لم تكن جاذبة للقطعان الكبيرة التى يرعاها البدو.

عندما وصلنا إلى عين سالة وجدنا كل شىء مرتبا حسبما تركناه، فى حين عاد إلينا سالم بن حميد، الذى كان قد صحب كلا من على الجهمان وزايد فى القسم الأول من الطريق التى سارا فيها لاستكشاف نقط الاقتراب من زقريط، ولكى يسجل على الجهمان ذلك الموقع فى خارطته الذهنية، حتى يمكنه إرشادنا إليها فى الوقت المناسب. أمضينا اليوم التالى الذى كان دافئًا ومعتدلاً وخاليًا من الريح، اللهم باستثناء تلك النسمات الشمالية الخفيفة التى كانت تهب علينا بين الحين والآخر، فى الراحة وبلا عمل. فتشت المنطقة المحيطة بى بحثا عن فراشة من النوع الذى يسمونه Spindasis، والتى سبق الإشارة إليها، وسعدت لأنى استطعت الإمساك بزوج من اليعسوب. لكن، إذا ما استثنينا مسألة الراحة وسط المراعى الجيدة للإبل، نجد أن الميزة الرئيسية التى جنيناها من رحلتنا التى دامت وقتا طويلا فى عين سالة، تتمثل فى تلك الفرصة السانحة التى تهيأت لنا ومكنتنا من مراقبة الشمس وسلسلة من النجوم، طلبا لتحديد خط عرض عين سالة وأيضا خط طولها.

عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى قوضنا مخيمنا، ومشينا فى طريقنا إلى نايفة، كانت إبل الحمل تسير فى الطريق المباشرة، فى حين انحرفت أنا

وابن معدى وفراج إلى ناحية الجنوب قليلا؛ لاستطلاع صخرتين مكشوفتين، كان أفراد الجماعة قد لاحظاهما فى اليوم السابق، ساعة أن كانوا يبحثون عن طريدة يصطادونها. هذه الرقع الأرضية الصخرية الموجودة وسط رمال الصحراء كانت مهمة لى، شأنها فى ذلك شأن الجزر غير الموقعة على الخرائط، والتى توجد فى بحار مجهولة عند الملاح الحائر، وأنا بدورى كنت أرى العرب على استعداد دائم لتفحص المناطق التى يحتمل فيها وجود الماء.

وصلنا بعد حوالى نصف ساعة إلى الصخرة الأولى المكشوفة - رقعة من الصخر فى تجويف رملى، وعلى شكل حدوة حصان. عثرنا فى هذه الرقعة على بعض جحور الثعالب، وكانت الصخور الصغيرة المومضة تتخلل الرمال هنا وهناك. كانت الصورة بحاجة إلى فتحة بئر حتى تكتمل، لكننا لم نعثر على هذه الفتحة، وعليه أطلقنا على المنطقة اسم السيلان، وذلك فى ضوء قربها من عين' سالة، وواصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا بعد مسير دام حوالى عشرين دقيقة، إلى تلة أو ربوة دائمة يصل ارتفاعها إلى حوالى ٣٠ قدماً، وتقع داخل حفرة على شكل حدوة فرس، وتشكل جزءا من سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية المجاورة، كانت هناك انكشافات صخرية أصغر من الانكشافين السابقين، فى الطبقات الصخرية التى فى المنحدرات الرملية الميحطة بنا، فى حين تزايدت أعداد جحور الثعالب على جانبى المرتفع وعند قمته. ومع ذلك عدنا بخفى حنين فيما يتعلق بالبئر المزعومة ورضينا لأنفسنا بإضافة اسم جديد إلى الخارطة المحلية - أطلقنا على المكان اسم المنيفجة، بناء على كلام فراج، ومن منطلق ارتفاعها الكبير نسبيًا.

مررنا بعد ذلك بلحظات قلائل من حض عين' سالة إلى خلة نايفه، التى تحتوى على حوالى ست سلاسل من الكثبان الرملية الجرداء التى تتجه حاليًا من الشمال إلى الشرق - ومن الجنوب إلى الغرب، وهذه الكثبان يجرى تجميعها كلها تحت اسم بنى ريمان، بسبب شدة ابيضاض رمال هذه الكثبان، بالمقارنة مع اللون البنى أو النحاسى

للرمال التى خلفناها وراءنا. كثرت مشاهداتنا لآثار أقدام الحبارى، والأرانب البرية، والثعالب، لكننا لم يكن لدينا متسع من الوقت نضيعه فى البحث عن الطرائد، وسبب ذلك أن رفاقى بدأوا يتعصبون بعض الشىء من تزايد المسافة بيننا وبين القوة الرئيسية التى نراها عن بعد، هذا هو فراج الذى يغلب عليه التسرع فى بعض الأحيان، يقول إنه سمع فى ذلك الصباح صوت إحدى الطلقات قادما من مسافة بعيدة، بينما كان جالسا يستطلع سلسلة عين سالة الكثبانية الرملية. هذا يعنى وجود أناس آخرين غيرنا فى الصحراء، لكن يرجح أن تكون تلك الطلقة قد انطلقت من بندقية سالم أو من بندقية حسن، اللذين أوفدا بموافقة منى، للبحث عن الوعل الأبيض، ومن منطلق أنهما سوف ينضمان إلينا، وقد يكون ذلك جنًا يتسلى بإطلاق النار.

بدت الأرض لنا أكثر تكسيرا، بدت لنا مثل بحر متشقق، وبخاصة ونحن نسير فى اتجاه الغرب، فى حين كان الجناحان الشماليان لبنى ريمان منخفضين ومدورين، على الرغم من أن المنحدرات الجنوبية كانت ماتزال عميقة ومتحدرة. شاهدنا فى رقعة طيبة من الرقع النباتية قبرتين وطائرا مغرداً كما أمسكنا أيضا بيعسوب وفراشة مرقطة - الأولى منذ أن غادرنا جابرين، بل والوحيدة فى الربع الخالى كله.

تحت وإلى الجنوب من السلسلة الثالثة من الكثبان الرملية، كان يوجد مسقى نايفة، داخل تجويف بيضوى وغير عادى على شكل حدوة الفرس، وكان جانب من هذا التجويف مع الرأس يشكلان جزءا من السلسلة الرئيسية، فى حين كان الجانب الآخر يبرز مثل الضلع ممتدا إلى مسافة تقدر بحوالى نصف ميل أو أكثر. هذا التجويف كان يتجه صوب الشمال الشرقى والجنوب الغربى، متفقا فى ذلك مع محور سلسلة الكثبان الرملية نفسها، كما كان ذلك التجويف شبه مغلق بواسطة الرمل، عند منحنى داخلى من منحنيات قرونة البارزة. كان ممر الاقتراب الضيق الموصل إلى ذلك التجويف مغطى بنباتات وشجيرات الآبال، وكان يشبه المروحة عند طرفه الجنوبى الغربى الداخل من وادى واسع متدحرج.

كانت هناك بئر واحدة، ماؤها المالح على عمق يصل إلى حوالى ثماني أقدام، وهذه البئر تقع فى حجر رملى يميل لونه إلى اللون الرمادى عند الطرف الداخلى (فى الشمال الشرقى) من منطقة صغيرة من صخر الأديم، الذى ترتفع منه المنحدرات الرملية. مثل المدرجات المسرحية، على الأجناب الثلاثة، لتصل إلى ارتفاع يقدر بحوالى ٢٠٠ قدم، كنا نراقب الوقت فى هذه المنطقة؛ كيما نسمح لكل من زايد وعلى الجهمان بتحقيق المهمة الموكلة إليهما، وأنا بدورى كنت فى حالة نفسية تسمح لى بالتمتع بأكبر قسط من الراحة طوال هذه الأيام الخالية من العمل. كانت الساعة قد وصلت إلى الثانية مساء عندما عدنا إلى المخيم، وفور قيامهم بنصب خيمتى، آويت إليها لقضاء فترة القيلولة، لأستيقظ عند الساعة الثالثة والنصف، على الضجيج المعتاد الذى يسبق صلاة العصر. بعد أداء صلاة العصر بقيت خارج الخيمة أتمتع بذلك الجو الدافئ فى مساء خال من الريح، فى حين قام بعض رفاقى بالعمل أو الاغتسال عند البئر، بينما جلس سعدان كما لو كان فرداً على قمة من قمم فوهة البركان الشبيهة بالسكين، بعد أن تسلقها.

وفجأة بدأ ذلك المسرح المفتوح فى الاتساع وتتردد فيه أصداء صوت شبيه بصوت آلة التنبيه، أو الصوت الصادر عن محرك الطائرة - صوت موسيقى تماما، إيقاعى يسر الخاطر، وعميق على نحو مدهش. لم يسبق لى أن سمعت صوت "الرمال المغنية" سوى مرة واحدة فقط - كان ذلك بالقرب من كثبان بدر الرملية المتداعية فيما بين ينبع والمدينة (المنورة)، وكان ذلك فى شهر يوليو من العام ١٩٢٨ الميلادى، لكنى فى تلك المناسبة أو المرة كنت أستمع إلى هذه الرمال المغنية من مسافة بعيدة. لكن هنا فى نايفة كانت الظروف مناسبة لدراسة موسيقى الرمال، وكان البند الأول من هذه الدراسة طويلا إلى حد بعيد - فقد استمرت موسيقى الرمال هذه حوالى أربع دقائق - وهذا وقت كاف لأن أفيق فيه من دهشتى، وأبدأ فى استيعاب التفاصيل. وبدأ الرجال العاملون فى البئر لحنا منافسا لكنه أقل موسقة، إذ كان عبارة عن تعويذة موجهة إلى الجن، الذى يزعم الناس أنه مسئول عن ذلك الذى يحدث. قال أبو جعشة: اصبر، قالها وهو يلاحظ الاستياء الذى ظهر على وجهى نتيجة المقاطعة. اصبر إلى أن يدخل علينا

المساء وسوف تستمع إليهم وهم يطلقون مدافعهم الكبيرة، وهى أسوأ من هذا الذى تسمعه الآن. ومن سوء الطالع أن ذلك لم يحدث، لكنى اقتنعت لمدة لحظة، أن مفتاح الموقف كله يتمثل فى سعدان، الجالس على قمة المنحدر. كان واضحا أن الموسيقى إنما كانت تتولد بفعل الرمل الذى كان ينزلق من تحت سعدان نازلا إلى المنحدر.

هُيئ لى زيادة على ذلك – لكن ذلك كان مجرد وهم – أن الموسيقى توقفت عندما وقف سعدان فى مكانه وراح يمشى محاذيا لسلسلة الكثبان الرملية مسافة ٥٠ ياردة، كما هيئ لى أيضا أن تلك الموسيقى كانت تبدأ عندما يجلس، على الرغم من أن الدوىّ فى هذه المرة كان أخفت من ذى قبل، ولم يستمر سوى دقيقة واحدة. ويبدأ سعدان فى التحرك من جديد، متتبعا قمة المدرج. وهنا يختفى الصوت من جديد أثناء سير سعدان، وعندما يجلس تبدأ الموسيقى من جديد وبصوت عال مثل المرة الأولى لتستمر بعد ذلك حوالى ثلاث دقائق. وهنا ظهر واضحا وبلا أدنى شك، أن الموسيقى إنما كانت تنتج عن تحركات سعدان من منطقة مستقر إلى أخرى، وعندما نزل سعدان من فوق تلك القمة، بعد أن تمتع بما رأى، صعدت إلى المكان الذى كان يجلس فيه ومعى قارورة كى أضع فيها عينة (من ذلك الرمل)، كما كان معى أيضا كراسة ملاحظات وساعة.

اكتشفت فى ذلك المكان ريحًا شمالية خفيفة جدًا (أو بالأحرى ريح من أقصى الشمال الشرقى)، كانت تهب قادمة من خلف سلسلة الكثبان الرملية التى كانت تطوق التجويف. كانت القمة على ارتفاع حوالى مائتى قدم فوق مستوى البئر، وكان منحدر الرمل الذى يطبق على المنخفض على شكل قوس كامل يمثل حوالى ثلثى دائرة، كان شديد الانحدار وناعم، على الرغم من انحداره من جميع الأجناب، وهيئ لى أن الموسيقى كانت تظهر عند انزلاق الرمل إلى الأجزاء شديدة الانحدار، وأنا لا يمكن أن أخضع هذه الظاهرة لإرادتى تماما إلا إذا تصادف وكنت على حافة قسم من الأقسام التى تحدث فيها هذه الظاهرة، وفى ثلاث مرات منفصلة حدثت تلك الموسيقى عقب الاضطراب الذى أصاب الرمل السائب عند قمة الكثيب – طنين عال يشبه صوت الأرغن.

وقفت على حافة المسرح المكشوف ودفعت الرمل الكثيف الناعم من القمة نحو الأسفل بقدميّ. وعقب ذلك حدثت بعض التموجات الرملية، وراحت تتحرك تحركا منتظما نازلة إلى المنحدر، محدثة بذلك صوتا احتكاكيا مسموعًا - شبيها بالصوت الذى يتوقع الإنسان سماعه عندما يكون ناتجا عن انزلاق جسم غشيم على أرض رملية. هذا الصوت الذى هو موسيقى بلا شك والذى لا يمكن أن يكون مسموعًا على بعد مسافة محددة تزايد بطريقة مضطرده إلى أن وصل إلى مرحلة التصعيد، إلى أن وصلت الكتلة المتحركة إلى مسافة ٥٠ قدمًا فى اتجاه سفح المنحدر، وعندها تغير الصوت فجأة من الصرير إلى الطنين.

هيئ لى أن علو الصوت يعتمد على كمية الرمل المتحركة، لكن كان هناك تصعيد Crescendo فى كل الأحوال، هذا التصعيد كان يتناقص بصورة طفيفة قبل أن يتوقف كلية بصورة مفاجأة – توقفا مفاجئا مثل توقف محرك السيارة – وفى الوقت نفسه كما بدا لى، يتوقف التحرك كله على المنحدر توقفا مفاجئا. دام كل بند من بنود الطنين الحقيقى مدة تتراوح بين دقيقتين وثلاث دقائق فى المتوسط، فى الوقت الذى بلغت المسافة التى يقطعها الرمل أثناء الغناء ما يتردد بين ٥٠ و ٧٠ قدمًا.

بعد تجريبى لذلك العمل مرتين بنجاح كامل، بدأت فى عمل البروفة النهائية، وسرعان ما وجدت القمة الرملية تطن وتحدث صوتا فعالا ومؤثرا للغاية حملت القارورة بين يدى ونزلت إلى مسافة ٥٠ أو ٦٠ قدمًا من المنحدر، وألقيت بنفسى فى وضع السجود، وعند الكتلة المغنية، التى انغرست فيها ركبتاى إلى مسافة ١٢ بوصة أو نحو ذلك. وهنا غرست الزجاجة فى الرمل الناعم المتحرك المغنى، وعندما أخرجت القارورة لاحظت صوتا امتصاصيا يشبه صوت الترمبون(*). ونتج صوت شبيه بذلك الصوت عندما سحبت رجليّ من المنحدر، وعندما غرست يديّ فى الكتلة وسحبتها مرة ثانية. هيئ لى أيضا أن هناك تجويفًا عميقًا تحت السطح، لكن ربما يكون التأكد من ذلك

(*) الترمبون: آلة موسيقية. (المترجم)

أمرا صعبا. يزاد على ذلك أنى عندما انحنيت على الرمال المتحركة راودنى إحساس عجيب لا ينسى بوجود سطح تحتى ينبض ويخفق، كما لو كان هناك زلزال معتدل.

ظهر لى أن مسألة وجود الرمل المتحرك على الجانب الذى تشرق عليه الشمس، أو الجانب الظليل من المدرج، ليس مسألة مهمة، نظراً لأنى حصلت على نتيجة طيبة فى الحالين - كان الوقت بعد الساعة الرابعة مساءً، وعندها كان الجانب الشمالى من التجويف فى الظل. لكن باءت بالفشل الجهود كلها التى بذلت من أجل الحصول على تلك الموسيقى على المستوى المنخفض الذى يتردد بين ٦٠ أو ٧٠ قدمًا، من المنحدر. عند الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم - وبدون أية مساعدة من أى طرف أجنبى، على الرغم من مصادفة وجود إبلنا فى تلك اللحظة أثناء عودتها إلى المخيم عبر الممر المواجه لمركزالصخرة، أو إن شئت فقل: الكثيب المغنى - لاحظت حدوث الطنين من جديد، لكنه لم يكن بنفس القوة التى كان عليها فى فترة العصر، كما أن ذلك الطنين لم يدم أكثر من نصف دقيقة، توقفت بعدها الموسيقى توقفا تاما، وتركتنى أراقب نيزكا من أحلى النيازك التى شاهدتها فى حياتى.

عند الساعة الثامنة مساء كان الهلال يقع فيما بين كوكب الزهرة فى الشرق وكوكب المشترى فى الغرب - وكان هذان الكوكبان الكبيران فى أبهى حالات تألقهما - كان الليل مضاء مثل النهار، وكانت الرمال فضية اللون بفعل الإضاءات السماوية، الأمر الذى جعل تلك الرمال تبدو وكأنها جبل من الثلج. ثم حدث انفجار مفاجئ على شكل كرة هائلة من اللهب مرت عبر السماء من المنطقة المجاورة لكوكب سهيل متجها ناحية الشرق، ومتحركا ببطء ومحافظًا على لمعانه إلى أن يختفى مع ومضة أخرى، كانت تلك الليلة فى نايفة أحسن ليالينا، جاءت بمثابة ذروة النشوة التى توجت الخبرات الفريدة التى اكتسبناها فى ذلك اليوم.

عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالى - قبل أن نبدأ مسيرنا قاصدين زقريط فى درجة حرارة ٤٥ درجة مئوية على الترمومتر فى الظل - صعدت إلى قمة الكثيب الرملى لأفاجأ بعدم وجود الموسيقى فى الرمال. وعلى الرغم من المحاولات التى

بذلتها لم أحصل على أى صوت من هذه الرمال باستثناء الاحتكاك المبدئى. كان صوت انزلاق الرمل خشنا، وهيئ لى أنه توقف على مقربة من المنطقة الموسيقية. وفى عصر اليوم نفسه، فى زقريط – حيث مدرج كبير شبيه بالمدرجات الرملية السابقة، وله حافة شبيهة بحد السكين تحيط بتجويف صخرى عميق – حدث طنين من طنين موسيقى الرمال، عندما كان فراج يصعد إلى المنزل شديد التحدر؛ لكى يراقب عودة مبعوثينا، لكن الموسيقى فى هذه المرة كانت ضعيفة واستمرت لفترة قصيرة – ربما نصف دقيقة – وكانت عبارة عن أنين وليس طنيناً، وانتهت محاولاتنا وجهودنا التى كنا نبتغى بها الوصول إلى نتائج طيبة بالفشل.

تلك كانت تجربتى وخبرتى مع "الرمال المغنية" فى الربع الخالى. هذه الظاهرة مألوفة تماما عند البدو، وكان السيد برترام توماس قد استمع إليها فى منطقة الكثبان الرملية فى ياديله Yadila (قد تكون جديلة Jadila) فى العام السابق. والغريب بحق أن هذه الظاهرة لا يمكن مصادفتها فى معظم الأحيان[1]. لقد سجلت حقائق الملاحظات التى قمت بها تسجيلا كاملا؛ نظرا لأنى دونت هذه الملاحظات فى حينها على أمل أن يقوم من هم أفضل منى تأهيلا بتفسير الطرق والأسباب التى فى ظلها يصبح ذلك الغناء أمرا ممكنا بقدر المستطع. وقد يكون بوسع الإنسان العادى محاولة تفسير الأمر على أساس من الأفكار التى تزاحمت فى ذهنه أثناء ملاحظته لهذه الظاهرة.

أتيحت لى الفرصة عندما عدت إلى إنجلترا أن أتعرف تعرفا وثيقا وحميما مسألة ما يسمى "بالرمال الصافرة" Whistling Sands فى بورث أوير Porth Oer على ساحل "كايرونفونشاير" Caernarvonshire. وأنا أفضل وصف هذه الرمال "بالصارّة" بدلا من "الصافرة"، والمؤكد أن رمال بورث Porth هذه لا "تغنى" أو "تطن" أو "تدندن"، فى الوقت الذى يتعين فيه ضرب هذه الرمال أو ركلها فى "الصرير" الذى ينتج عن ذلك فى كل مرة. وأنا أجد صعوبة فى الاعتقاد أن المشكلة التى تمثلها رمال بورث هى من نفس

(١) قد تكون الإشارة هنا إلى الفصل الذى كتبه اللورد كيرزون تحت عنوان "الرمال المغنية"، فى كتابه المعنون "حكايات الأسفار".

نوعية المشكلة التى تمثلها الرمال الطنانة أو المغنية. ومع ذلك فإن السيد سى. كاروس. ولسون Carus - Wilson، الذى يعد خبيرا فى مثل هذه الأمور، فشل فى الحصول على أية استجابة من أى نوع كان، من عينة[1] "الرمال المغنية" التى جلبتها من نايفة باستخدام الطرق التى جعلت العينات المأخوذة من بروث Porth أوير Oer، ومن جزيرة إيج Eigg تصر مثل قطيع من صرارى الليل(*). أما مسألة أن رمال بورث يمكن إذا ما وضعت على منحدر شبيه بمنحدر نايفة ثم تحريكها يمكن أن تصر أو تطن تحت الأقدام، فهذا ما لا يمكننى القطع به أو البت فيه. أو أن رمالا بعينها قد تصر بمجرد لمسها، وأن رمالاً أخرى قد تطن هى الأخرى فى ظل ظروف مناسبة[2].

المسائل التى من هذا القبيل تكون من اختصاص الخبراء وحدهم. لكن هناك نقاطاً خاصة برمال الربع الخالى يجب أخذها بعين الاعتبار. رمال بورث أوير تُصِرُّ عندما يبتل سطحها، شريطة أن يكون سطحها الحقيقى جافا، لكن رمال نايفة لا تكون فيها موسيقى عند الساعة السابعة صباحا، أو على حد اكتشافى فيما بعد أو بعد أن تسقط عليها قطرات من المطر الخفيف. ومع ذلك كانت رمال نايفة تطن عند الساعة السابعة مساءً بعد أن تنتهى تماما من لحنها فى عصر اليوم نفسه. ويبدو أن الظروف المناخية : الرطوبة، ودرجة الحرارة، والرياح، إلخ – يبدو أن لها أثرها فى هذا الموضوع.

ثانيا رمال نايفة تُصِرُّ على نحو مختلف فى المناطق الموسيقية المختلفة على الكثيب الرملى. بدأت كتلة الرمال المتحركة بالاحتكاك عند القمة واستمرت فى الطنين عند المنتصف، فى حين توقفت عن إصدار أى صوت تماما عندما توقفت الحركة على المنحدر. هذا يعنى أن الحركة تعد سببًا أساسيًا فى كل من الاحتكاك والغناء. ومن الصعب القطع بأن حجم الكتلة المنزلقة يكون كبيرا فى البداية أو عندما يبدأ الغناء. صحيح أن الرمال، عندما تنزلف، تؤدى إلى تحريك الرمال التى أمامها، لكن الاحتكاك

(١) يجب التنويه هنا إلى أن كمية المياه، التى توفرت لعمل التجارب، لم تكن كافية للوفاء بهذا الغرض.

(*) صرار الليل: هو ما يسميه عامة الفلاحين بصرصار الغيط الذى لا يسمع صوته إلا أثناء الليل. (المترجم)

(٢) راجع الملاحظة التى أوردها الدكتور فوهان كورنش Vaughan Cornish فى الملحق.

يؤدى بالتأكيد إلى توقيف جزء من الكتلة الأصلية على الطريق، فى الوقت الذى يحدث فيه التوقف النهائى للحركة على المَنْزَل المنحدر. والفرضية التى يجوز طرحها هنا هى أن الكتلة عندما يزداد حجمها أثناء الحركة، تفقد أيضا شيئا منها فى العملية نفسها إلى نقطة محددة يصبح الحجم عندها غير كاف للمحافظة على استمرارية الحركة إلى الأمام. ومع ذلك يطن الرَّمْل - ليس بأعلى صوته - وهذا صحيح - وإنما يكون طنيناً محدداً - فى اللحظة نفسها التى ينتهى عندها كل من الصوت والحركة فى آن واحد.

إذا كان الشكل أو التكوين الحبيبى هو العامل المحدد فلماذا يبدأ الصوت على شكل احتكاك ثم يتحول بعد ذلك إلى طنين؟ رمال بورث أوير Porth Oer على سبيل المثال، ليس لها سوى نغمة واحدة، فى حين يعد الصمت هو البديل الوحيد. المؤكد عندئذ، هو أن هناك عوامل أخرى تعمل عملها بين رمال الصحراء. هل يكون الطنين صدى ممسوخاً للاحتكاك، عندما يصل إلى الزاوية الضرورية للمنحدرات المحيطة أو الدائرة المحيطة؟ أم أن هذا المسخ ناجم عن تكوين فراغ أو تجويف بين الكتلة المتحركة والسطح المستقر الذى تتحرك فوقه هذه الكتلة؟ التجويف الذى يكون من هذا القبيل يمكن أن يكون مثل صندوق الرنين، فى حين أن تخليق هذا الصندوق يمكن أن يتم بصورة متدرجة أثناء انزلاق الكتلة نازلة على المنحدر - قد يكون ذلك بفعل درجة حرارة الجو معززة باحتكاك الرمل المتحرك. وأنا أكرر هنا، أن هذه المسائل من اختصاص الخبراء، وأنا لا يمكننى فعل أى شىء سوى تسجيل انطباعى الذى مفادة أن تغيير الصوت من الاحتكاك إلى الطنين، هيئ لى أنه يتصادف مع تدخل شىء فى طبيعة صندوق الرنين.

نظرا لأن رفاقى كانوا يودون الرحيل عن نايفة[1]، أو الوصول على وجه السرعة إلى المكان المتفق عليه للقاء كل من على الجهمان وزايد، فقد حددوا المسافة إلى زقريط

---

(١) كان من بين الأشياء التى جمعناها من هذه المنطقة: قطعة صغيرة من الحديد النيزكى، شبيهة من حيث التركيب بتلك القطعة التى عثرنا عليها فى وبار (راجع الملحق). ربما يكون قد جرى إحضارها إلى هنا بواسطة واحد من الزائرين العرب.

على أنها تستغرق مسير يوم بهمة ونشاط. وعلى هذا الأساس وافقت على استئناف مسيرنا في وقت مبكر، وبناءً على ذلك خرجت قافلتنا من تجويف أو منخفض نايفة عند الساعة السابعة والنصف صباحا. ومع ذلك، لم نكن قد جعلنا قافلة الأمتعة تسبقنا، وسرعان ما اتضح لنا أن السير سيكون بطيئا وخاملاً، متساويا في ذلك مع السواد الأعظم من مسيراتنا السابقة. وبعد تشاورنا بشأن السلسلتين الرمليتين المتبقيتين من سلاسل كثبان بني ريمان الرملية، عبرنا سلسلتين أخريين من سلاسل الكثبان الرملية، اللتين ليس لهما اسم، لنصل بعد ذلك منطقة حمران زقيرط ، المكونة من أربعة سلاسل كثبانية رملية متوازية، التي يوجد خلف السلسلة الأخيرة منها سهل من الرمال المتدحرجة ينتهي إلى منخفض عميق من الأمواج المتكسرة، يؤدي إلى الوادي الذي يقع فيه مسقى زقيرط، مكونا بذلك تجويفا على شكل حدوة حصان مواجهًا للجانب العالي من الكثيب الرملي.

في مرحلة باكرة من تقدمنا كانت الكلبة الأقفة قد طاردت أرنبا بريا، وكان لابد من توقف المسيرة توقفا تاما حتي يمكن للجماعة أن تشارك كلها في مطاردة غير دموية – إذ راح الأرنب البرى يجرى في محنة متمثلة في خط طويل من الصيادين. بعد خيبة الأمل هذه كانت جماعة العفش والأمتعة خانتها شجاعتها وعبَّرت عن استيائها من تأخرها، وهنا طالبت الجميع بالتوقف، وانصرفت بعيدا ومعي شبكة صيد الفراش، ورحت أبحث عن الحشرات في وادي واسع عامر بنباتات الزهر والنباتات الأخرى. قلت لهم: إذا كانت الحيوانات متعبة، فبوسعنا البقاء هنا إلى ما تشاءون، لأن هذا الأمر لا يعنيني كثيراً.

أحدث ذلك التأثير المطلوب إذ مضت المقدمة ومعها ركوبتي، في حين نزلت أتمشى في الوادي، إلى أن ظهرت إبل الحمل، وعندها آثرت مواصلة السير على قدميّ. كانت الظروف مواتية تماما لبذل مثل هذا الجهد، وهنا انضم إليَّ في السير سعدان، الذي أصيب جمله بشيء من العرج. قال سعدان: اسمع يا أنت، كان أصدقاؤنا يتكلمون الآن. وهم يقولون: لا يوجد آبال أو حطب في المنطقة المحيطة بزقيرط.

وهذا هو السبب وراء سيرهم البطيء. قلت: هناك فراج ومعه جملي. سوف يطلب مني الركوب، لكنني سوف أمشي، اللهم إلا إذا كانوا على استعداد للسير على ما يرام. وعليه أركب جملي بدلا مني إلى أن نصل إلى فراج الذي يقتاد جملك. لقد توقف فراج فعلا انتظارا لمجيئنا، وعندما وصلنا إليه نادى قائلاً: يا أنت، لقد أحضرت جملك، اركبه الآن، لقد سبقنا الآخرون. رددت عليه قائلاً: سيركب سعدان جملي، لأن جمله يعرج، كما أنه متعب، أما أنا فأفضل البحث عن الأشياء الزاحفة. انتبه، إبل الأمتعة والتموينات خلفنا، ولذلك فالأمر لا يهم. لم يكن فراج يصدق مسألة تفضيلي للسير هذه، لو كانت ظروف السير على ما يرام، وهنا بدأ فراج يناقش معي مسألة استيائي التام من معدل السير البطيء، لكن اعتراضاته التافهة انقلبت عليه، عندما نظرنا من فوق سلسلة التلال الرملية إلى الأسفل لنرى جماعة المقدمة في منخفض من المنخفضات، وقد شبت نارا لتعدّ شيئا من القهوة، تركتهما معًا (سعدان وفراج) ورحت أبحث عن الحشرات، واحتفظت بخط السير حتى يمكنهم اللحاق بي عندما ينتهون من شرب القهوة.

كان واضحا أنهم ناقشوا الأمر فيما بينهم وتوصلوا أن الأفضل لهم أن يسيروا السير المعتاد بدلا من أن يتركوني أمشي على قدميّ. جاء ذلك فوق تحمل الكثيرين منهم. وعليه ركبت جملي عندما لحقوا بي، كما ركب فراج أيضا جمله، مع تصميم من جانبه على سبر أغوار الأمور. أكدت لهم: أني من محبي المشي، لكني أكره معدل ذلك المشي البطيء، والمؤكد أن من الأفضل لنا جميعا الوصول على وجه السرعة إلى البئر ونصب الخيام هناك. وعندها يمكنكم تناول القهوة، في حين أروح أنا أتجول بحثا عن الحشرات وقطع الصخر. رد علي فراج قائلاً: خبرني، نحن نلاحظ فيك أمرين. أولهما، أنك حاد الطبع وسريع الغضب عندما نتصرف على نحو لا يرضيك. وثانيهما أنك جاهز دوما للتشكيك فيما يقوله المرشدون. واصل فراج كلامه قائلاً: أخبرني، هل أنت على هذه الشاكلة منذ أن خلقك الله؟ أو ما سبب ذلك؟ المؤكد أنك تعرف أن المرشدين لا يكذبون عن قصد، وهذا أيضًا بلدهم ويعرفونه، بل يعرفون كل شجرة من شجيراته وكل ربوة من ربواته. وإذن ما سبب اتهامك لهم بالكذب؟ رددت عليه بنفس القدر من

الصراحة قائلاً: فيما يتعلق بالمرشدين، فأنا أعلم أنهم يعرفون هذا البلد وأنت أيضا تقول أنهم لا يكذبون عن عمد. ألا تذكر ذلك اليوم الذى مشينا فيه إلى عين سالة، وأردت الانحراف جانبا لزيارة أدراج على الطريق؟ ألا تذكر أيضا أن على الجهمان قال لنا أن المسافة تقدر بمسير يوم واحد؟ ومشينا بعد ذلك إلى أدراج، وأنت تعرف ذلك، وعندما أردت توقيع المكان على الخارطة اتضح أنه لم يكن يبعد سوى مسير ساعة واحدة عن المكان الذى كنا فيه. قل لى: أنت تتكلم كلاما هينا، لقد كذب على الجهمان لكنه كان يفكر فى مسألة احتياجنا إلى الماء. واصلت كلامي قائلاً: حسن، وأنت تعرف أيضا أن ابن حميد، الذى هو مرشدنا الآن، ذهب مع كل من على الجهمان وزايد لاستكشاف الطريق إلى زقيرط، طلب إلينا التعجيل فى المسير على حد علمك، من منطلق أننا لن نصل إلى زقيرط قبل غروب الشمس إذا ما سرَّعنا المسير. وأنت بنفسك شاهدت معدل سيرنا هذا الصباح. لقد توقفتم كلكم لاصطياد الأرنب البرى، وتوقفتم ثانية لتناول القهوة، وطوال ذلك كله وأنا أسير على قدماى. لقد رحنا نمشى ببطء، على الرغم من أن الوقت كان فى عز الظهر. خبرنى: كم تبعد زقيرط عنا؟ رد على فراج متعجبا، زقيرط! لماذا؟ إنها تبعد عن هنا مسافة كبيرة، مسافة كبيرة جداً. الله وحده يعلم إن كنا سنصل إليها مساء هذا اليوم. ابن حميد يقول: إنها تبعد عن هنا مسافة كبيرة. أجبته: اسمع يا أنت! هل ترى ذلك الكثيب الرملى الكبير الذى أمامنا، والذى يبعد عنا قليلا، ربما لا تزيد المسافة على مسير ساعة واحدة؟ تلك هى زقيرط! ما الذى تقوله عندئذ؟ تلك هى زقيرط! وهنا كاد يصيح فراج جراء خيبة أمله، وسألنى: من قال لك ذلك؟ هل معرفتك أفضل من معرفة المرشدين؟ رددت عليه بثقة قائلاً: لا، لكن ابن حميد قال لنا جميعا أن بنى ريمان يبعدون عن هنا مسافة خمس سلاسل من الكثبان الرملية، اثنان من الأمام واثنان من الخلف، أما السلسلة الوسطى ففيها نايفة، قال لنا ابن حميد: إنه يوجد خلف هذه السلاسل الرملية الكثبانية الخمسة سلسلتان أخريان بلا أسماء، وإن حَمْرَان زقيرط تقع خلفهما، هذا يعنى أن المسافة تقدر بحوالى خمس سلاسل من الكثبان الرملية، وإن المسقى يقع فى السلسلة الأخيرة

من هذه الكثبان، ونحن بدورنا عبرنا أربعة من هذه السلاسل ولم يتبق أمامنا سوى السلسلة الخامسة. لقد أحصيت هذه السلاسل بنفسي أما أنتم فلم تحصونها. هذا هو الفارق بيني وبينكم، كل ما في الأمر، زقيرط خلو من عشب الآبال الذى يستخدمه الناس حطبا للوقود، لكن الله كريم. لكن قل لى: هل ابن حميد الذى لم ينضم إلينا إلا أمس فقط مخطئ، أم أن الأمر غير ذلك؟ أما فيما يتعلق بحدة طبعى، فقد يكون ربى خلقنى على هذا النحو، لكنكم أنتم الذين تستثيرون تلك الحدة باعتراضاتكم.

وبذلك نكون قد حاولنا تفهم اختلافاتنا المتبادلة ونحن نركب جملينا متجهين صوب رفاقنا في المقدمة، والذين توقفوا عند حافة سهل من السهول المتدحرجة عند الجانب البعيد من سلسلة الكثبان الرملية الرابعة. صاح ابن حميد عندما لحقنا بهم قائلاً: يا شيخ عبد الله، انتبه، البئر ما تزال بيننا وبينها مسافة كبيرة وهذا المرعى هو آخر المراعى الجيدة التى على هذا الطريق. سوف نمضى الليل هنا، وبعد أن تشبع الإبل، سيكون سيرها أفضل في الصباح. رددت عليه: هذا كلام طيب، لكن الوقت ما يزال باكرا، ولعلَّنا نسير ولو لمدة ساعة لنصل إلى ما وراء السلسلة الكثبانية التى أمامنا، ونقوم بالتخييم خلفها. كانت اللعبة قد انتهت، وهم جميعهم على بينة من ذلك، وواصلنا السير مدة نصف ساعة أو أقل، عبر أرض متدرجة الارتفاع من الرمال المتموجة التى تضرب حمرة لونها إلى اللون البنى، والتى كانت ظلالها تبدو غير ملحوظة وسط كتل قمم الكثبان الرملية الأكثر ابيضاضا. ومن فوق قمة هذه السلسلة الكثبانية الرملية نظرنا في الأسفل إلى منخفض زقيرط الذى يشبه الكأس، والذى لا يبعد عن نايفة سوى خمسة عشر ميلا، وعلى بعد مسيرة صغيرة في اتجاه الشرق يقع مسقى بينهاء، ومعه مسقى داحبوية الذى يبعد مسافة ميل واحد عن المسقى الأخير في اتجاه الغرب.

كنت قد لاحظت أثناء السير، غرابين وبعض القنبرات وبعض طيور الدخنة، لكن بندقيتى كانت متعطلة وغير صالحة للعمل. نزلت فوق سلسلة الكثبان الرملية وقمت بزيارة القمة مخروطية الشكل التى سبق الإشارة إليها، ونزلت المَنْزَل شديد التحدر

المؤدى إلى التجويف، الذى وصلت إليه فى التوقيت نفسه مع إبلنا، التى دارت الدورة الضرورية حتى يمكنها الوصول إلى مدخل التجويف، الشبيه بعنق الزجاجة، لتدخل منه إلى ذلك المنخفض الذى توجد فيه البئر. المعْلم الرئيسى للمكان مهيب وجليل، ويتمثل فى انكشاف صخر الأديم الذى يبرز على شكل قمة صخرية منتظمة، يصل ارتفاعها إلى حوالى ٤٠ قدماً (مقاسه من قاع المنخفض)، وطولها إلى حوالى ٢٦٢ خطوة (حوالى ٦٥٠ قدماً)، بدءاً من النقطة التى يبدأ عندها بروز هذه القمة من المنْزل الرملى شديد التحدر حول رأس المدرج الكبير، إلى النقطة التى يختفى عندها صخر الأديم مرة ثانية، تحت رمال وادى الدخول. الاتجاه العام لمواجهة الصخرة، التى ينكشف سطحها إلى مسافة تقدر بحوالى ٢٠٠ قدم، هو من شرق شمال شرق إلى غرب جنوب غرب مع انحراف طفيف ناحية الجنوب الغربى عند منتصف الطريق. وعلى حد علمى، فإن هذه الصخرة (التى هى تكوين جيرى من تكوينات الحجر الجيرى الواقعة فوق أرضية الحجر الرملي، التى تُمَيِّز أرض هذه المنطقة هى وأرض الآبار) تنحدر انحداراً هيناً مقداره ٥ درجات من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى. وعلى مستوى أعلى من مستوى الحلبة ذاتها، وإلى الجنوب أيضاً من الحلبة، وأيضاً بالقرب من طرفها الغربى، اكتشفت بعض التلال الصغيرة العجيبة ذات الطابع الجبسى، فى حين يوجد أُحدور(*) من الرمل، بطول وجه الصخرة، فى المناطق التى تنزل فيها إلى مستوى الآبار، وهذا الأحدور كثيف الرمال وتتخلله بقايا كتل كبيرة من الصخر الجيرى، الذى له لون أزرق ضارب إلى اللون الرمادى. عثرت على قطعة صوان واحدة، كما عثرت على الكثير أيضاً من بقايا عظام الوعل الأبيض – وواضح أن تلك البقايا تخلفت عن ولائم كبيرة – وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يسترعى انتباهى طوال العطلة التى فرضت علينا، طوال انتظارنا عودة مبعوثينا.

وسواء أكانت هنا أو هناك، فى الأزمان السابقة، آبار؛ فإن تاريخ هذه المنطقة المعروف أو المحفوظ يمتد إلى أيام الحكم الوهابى فقط، أى إلى عهد عبدالله بن فيصل،

(*) الأحدور (لغوياً): هو المنحدر الخفيف. (المترجم)

عم الملك الحالى، الذى حكم البلاد من العام ١٨٦٧ الميلادى إلى العالم ١٨٩٠، مع فترة امتدت سنوات عدة، اغتصب أخوه المعادى له العرش منه خلالها. فى تلك الفترة، أو بالأحرى فى العام ١٨٧٠، سجل أحد شيوخ الغفران وهو محمد بن صويليح، من جماعة البنا، عندما كان شابًا صغيراً، نفسه فى جيش عبدالله بن فيصل، وأصبح واحداً ممن يواظبون على حضور مجلس مليكه فى الرياض. كان بصحبة محمد بن صويليح هذا جماعة من أفراد قبيلته ومعهم خيامهم وعائلاتهم، وكان بصحبة الرجل أيضًا عائلته المكونة من أمه وحدها فقط. وفى ضوء أعراف الكرم السائدة فى الجزيرة العربية فإن إعاشة الأسرة كلها تكون على حساب وزارة الخزانة أو بالأحرى خزانة الدولة، حدث ذات يوم أن أعاد المسئول عن توزيع الطعام والدة الشيخ محمد بن صويليح خاوية الوفاض. وأبلغت الأم ولدها بما حدث، فطلب على الفور الذهاب إلى صاحب الجلالة، مشتكيًا من المسئول عن توزيع الكرم الملكى، رد الأمير على محمد بن صويليح قائلاً: فلتذهب وتعمل من أجل أمك؛ وهنا رد محمد على أمر الملك قائلاً: على رأسى ! وبناء على ذلك انسحب محمد بن صويليح ومعه أتباعه إلى مراعى الربع الخالى، ومن مراعى الربع الخالى يتقدم محمد بن صويليح مع سبعة من أقاربه ليشنوا الحرب على العالم. وسرعان ما أطلق الناس على هذه الجماعة الصغيرة اسم الزقيرط[1] Al Ziqirt (بمعنى "رجال السلاح") على حد قولنا نحن - ولعل هذا راجع إلى تكوينهم كقوة عسكرية تعمل فى ظروف الخدمة العسكرية الدائمة، بمعنى أن هؤلاء الرجال يكونون بلا نساء أو أطفال. وهنا سارعت أنفس الرمال الجنوبية المتوحشة - من الراشد، ومن المناهيل، والقبائل الأخرى - إلى الانضمام إلى حملة الغزو هذه، هى وقطاع الطرق، التى ابتدأتها العصابة الأولى، التى تمثل عملها الأول فى مسألة إنشاء قاعدة عمليات فى مكان مجهول وغير مطروق من الناس. بعد أن اختار هؤلاء الناس المكان المطلوب لمثل هذه القاعدة مضوا فى حفر هذه الآبار،

(١) الاسم مشتق من خلال اللغة التركية من الكلمة الإيطالية Sacurta أو الفرنسية Securite، كما هو الحال فى الكلمة العامية التركية (والكلمة العربية) "بوليس" و"شرطة" Sharta المشتقة من كلمة Sureta.

التى نحن مخيمون حولها الآن، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبح المكان يعرف بذلك الاسم من باب تأبين الطلعات والحملات الشهيرة التى قام بها هؤلاء الناس. هناك منطقة أخرى بعيدة، فى أقصى الشمال، وتقع إلى الشمال الشرقى من حرض، اكتسبت من تلك الغزوات والحملات اسم هوير الزقيرط، وهو عبارة عن مرعى فيه منخفض يستطيع حفظ ماء المطر بعد سقوطه أسابيع عدة أو أشهراً عدة.

كان هناك من بين آبار زقيرط الثلاثة بئر واحدة كانت تبدو "ميتة" تماماً، على الرغم من وضوح الآثار الناجمة عن سحب حبال جلب الماء - إذ كانت تنحر نحراً عميقاً فى الجدار المحيط بفتحة البئر. كانت البئر الثانية شبه ميتة أيضاً، وكانت كلها شبه مخبأة تماماً بفعل الرمل الذى كان يغطيها، فى حين وجدنا البئر الثالثة - وكان ذلك من باب المفاجأة نظراً لقول على الجهمان: إن البئر كانت ميتة - مغطاة بالغطاء المعتاد. وعليه جرى فتح البئر حتى نسقى منها الإبل، ووجدنا أن عمقها يصل إلى حوالى عشرين قدماً. هى بئر مالغة الماء ويعتبر الناس ماءها صالحاً للشرب، على الرغم من أنه أكثر ملوغة من ماء بئر نايفة، الأمر الذى جعل رفاقى يتغاضون عن هذا الماء، نظراً لأن الماء المتبقى معنا كان يكفينا إلى أن نصل شناء.

من باب تخفيف حدة الخلافات التى دارت بيننا، وتشجيعاً للمراقبة والاستطلاع، عرضت مكافأة مقدارها عشرة دولارات لأول من يستطلع قدوم مبعوثينا أثناء عودتهم. لكن الليل دخل علينا دون أن نرى أية علامة أو دليل ينبئ بقدوم هؤلاء المبعوثين، وكان آخر أحداث الليلة الفائتة فى فترة متأخرة من فترة العصر، هو وصول كل من سالم وحسن جائعين عطشانين وغاضبين، بعد بحثهما عديم الجدوى عن الوعول البيضاء. فى اليوم التالى - آخر لقاء لنا مع زايد - كانت قمم الكثبان الرملية مأهولة بالباحثين الشغوفين، فى حين تسلل فراج بعيداً عن رفاقه، واستعار منى نظارتى المكبرة وذهب إلى مسافة بعيدة فى الحقل، طمعاً فى أن يكسب الدولارات العشرة. وانقضت فترة العصر بلا نتيجة، وبدأت أعوّد نفسى على احتمال ضياع يوم آخر، عندما جاء فرّاج يجرى نحونا داخلاً إلى المخيم قبيل غروب الشمل. صاح فراج قائلاً: لدى أخبار طيبة !

أنا أنبئك بالخبر الطيب عن عودة كل من زايد وعلى الجهمان. رأيتهما على بعد مسافة كبيرة وقد جئت مسرعاً لأبلغك هذا الخبر. سألته: هل يأتيان وحدهما؟ أم أن معهما أناس آخرون؟ أنا لم أر سوى راكبين فقط. وبعد ذلك بدقائق قلائل شاهدت زايد وعلى الجهمان وهما راكبان ويدخلان من مدخل المنخفض الضيق.

كان الرجلان قد ذهبا إلى بئر هادى (ويصح فيه "حادى") وشنَّاء، وطريوة واستكشفا المنطقة كلها، لكنهما لم يجدا فى أى مكان أثراً للعرب – وبذلك عادا إلينا صفرى الأيدى. قلت لهما: كان ينبغى عليكما الذهاب إلى أبعد من ذلك فى منطقة تلال القعاميات الكثبانية الرملية. ولربما وجدتم هناك القبائل التى تصطاد الوعل الأبيض ! قلت هذا الكلام على علاته، لكن نظرتهم المفاجئة والمندهشة كانت تفيد أن ما فات مات. لقد زارا الآبار، وهذا صحيح، الآبار قد نضبت، لكنهما أمضيا أياماً عدة فى البحث عن الوعل الأبيض وليس عن العرب. كل ما كان يخيفنى هو أن تقرير هذين الرجلين قد يعزز الرغبة العامة بين أفراد الجماعة فى العودة بأسرع ما يمكن إلى محل الإقامة، وترك هذه الأرض الجرداء المهجورة. لكنى كنت مصمماً على مقاومة أى ميل من هذا القبيل بكل ما أوتيت من قوة. وأنا منذ أيام كثيرة وإلى يومنا هذا مازلت أتحمل الاحتكاك الحتمى والمستمر، الناتج عن الصراع بين هدفى الثابت والملح، والذى لا يقبل التغيير أو التعديل، وبين الشعور الوطنى الداخلى والراجح الذى يتمثل فى تلك الهيئة الموحَّدة المشكَّلة من رفاقى. هذا يتطلب منى مقاومة السلبية مهما كان الثمن. الاستسلام لمقاومتهم السلبية يعنى الفشل، لكن النصر يجب أن يتحقق عن طريق عملية استئصال بسيطة، وهنا رحت أهدى نفسى بالفكرة التى مفادها أنهم خلال شهر من الزمان أو أكثر قليلاً من ذلك، سينسون جميعاً أوجاعهم الحالية عندما يحسبون عائداتهم من عملية السفر. وبدأنا نبتعد تدريجياً عن نيران مواطنهم، لكن كل خطوة كنا نخطوها كانت تعد تقدماً طفيفاً فى تحقيق هذا الهدف، نظراً لأن العقل كان ينتصر فى كل مرة على الكتلة الخاملة المستعدة للحركة نتيجة أى عمل من الأعمال الشاقة.

بعد تناول وجبة العشاء في ذلك المساء استدعيت فراًج لتسلم مكافأته وشجعته على التفكير فيما يمكن أن ينتظره من مكافآت، إذا ما أحسن القيام بعمله والخدمات التي توكل إليه. وأصبحت بعد ذلك على استعداد للاستماع إلى كل من زايد وعلى الجهمان اللذين جاءا إلى خيمتي ليناقشا معي خططنا المستقبلية. بدأت بداية طيبة بأن أعطيت كل واحد منهم ٣٠ قطعة فضية نظير الجهود التي بذلاها مؤخراً. قلت لهما: انتبها لقد مشينا خلال الأيام الأخيرة بمعدل بطيء، الأمر الذي جعلنا نقطع مسافة قصيرة، وهذه هي الإبل قد ارتاحت. وليس أمامنا متسع من الوقت وأنا أود الوصول إلى الجنوب على الفور، وبذلك يمكننا التحول إلى مناطق الوعل الأبيض، ومنها إلى وادي الدواسر، ومن وادي الدواسر إلى مكة، لأداء فريضة الحج، التي لم يتبق عليها سوى شهرين من الآن. وعليه دعونا نسير سيراً حسناً إلى شناء – والأرض مفتوحة أمامنا وليس لدينا ما يخيفنا – وعندها سنحدد اتجاه سيرنا. قد نضطر إلى ترك المخيم هناك ونتجه جنوباً بصحبة جماعة صغيرة منا. لكن دعونا نبدأ تحركنا غداً في ساعة مبكرة. كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على عدم تجاوز شنًاء بأي حال من الأحوال، لكنهما لم يحاولا مناقشة هذه النقطة معي. هذا يعني أن الهدف المباشر كان محدداً، على نحو يحتم الموافقة عليه بطريقة ودية للغاية.

بذلك أكون قد أرحت بالي من حمل كبير، من القلق، وهنا تركوني لحالي أتمتع بليلة جميلة أخرى مدهشة. نفذ إلى الأرض ضوء القمر هو والنجمان الكبيران، والمعزز بالبريق المتواضع لكل من كوكب الشِّعْرى اليمانية وكوكب سهيل، الذي نفذ من خلال قناع ضبابي، وبذلك تحول شكل القمم الرملية الصلبة المحيطة بالمخيم إلى ما يشبه ستارة من لعاب الشمس أو مخاط الشيطان(*)، جرى تعليقها أمام مسرح من مسارح الجن.

في صباح اليوم التالي (الموافق ١٨ من شهر فبراير) استأنفت إبل حمل الأمتعة والتعيينات مسيرها عند الساعة السادسة والنصف، وهي تحمل معها وجبتنا الصباحية

(*) لعاب الشمس أو مخاط الشيطان: غشاء كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء حين يصفو الجو. (المترجم)

المحددة من الأرز بعد أن جرى طهيها فى أوانيها. بعد ذلك بساعة بدأنا نخرج من التجويف ونمشى عبر السهل الذى يتوسط المنطقة إلى أن وصلنا إلى منطقة بنى خويران - هذه المنطقة عبارة عن حزام من السلاسل الرملية القصيرة المتداعية ومن المجموعات الكثبانية الرملية غير المنتظمة، التى تفسد التوازى المعتاد فى السلاسل الرملية الكثبانية فى منطقة سواهيب (يصح فيه أيضاً سواحيب). مشينا مسافة خمسة أميال فى هذه المتاهة، التى عاود نبات الآبال الظهور فيها مرة ثانية، بعد أن غاب عنا لفترة قصيرة فى كل من رقيرط، فى حين استمر ظهور عشب الزهر بلا انقطاع. سار كل شىء على ما يرام، كما لو كنا فى عرس زواج، إلى أن وصلنا إلى أول سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية المتوازية الواقعة فى الناحية الشمالية الشرقية والناحية الجنوبية الغربية، اللتين تكوّنان المنطقة المعروفة باسم بنى نصير ويميزانها عن ربوة حقنة نصير الموجودة فى المنتصف. هنا وفى هذه المنطقة، ومما خيَّب أملى وأحبطنى، لحقنا بإبل الأمتعة والتعيينات، على الرغم من بداية سيرها فى ساعة مبكرة، وهنا اقترحت على الجميع فى شىء من الحماقة والغباء، ووسط موافقة من الجميع، التخلص من وجبتنا بلا هرج أو مرج. كانت ورود نبات الزهر صفراء اللون، وفيرة فى هذا المكان، وبذلك كانت تشكل مشهداً جميلاً لرحلتنا الخلوية، ولذلك اهتممت بالبحث عن الحشرات فى الوقت الذى كان الباقون يتناولون فيه القهوة. من سوء الطالع أنى لم ألاحظ أن هذه المنطقة كانت خالية من عشب الآبال، وأصابنى الرعب جراء فكرة أو اقتراح مفاده أننا يتعين علينا الوقوف مرة ثانية لتناول القهوة، عندما نعثر على الحطب المناسب. وهنا خطر ببالى، أن كل آمالى فى حدوث شىء من التقدم، باءت بالفشل. ومن باب التنسيق بين عملى وفكرى، واصلت المسير سيراً على الأقدام بصحبة إبل الأمتعة والتعيينات، فى حين سارع باقى أفراد جماعتى يبحثون عن وجار(*) صحراوى

(*) الوجار، عند أهل نجد يعنى الموقد الذى يعدّون عليه القهوة. (المترجم)

يعدّون فيه القهوة. أما على الجهمان، الذى كان مشغولاً بشيكلات(*) الليلة الماضية وما سيتبعها، فقد راح يتبعنى ماشياً على قدميه إلى قمة حوقة المشعاب الرملية مخروطية الشكل، التى كنت فوقها، فى مقدمة إبل الأمتعة والتعيينات، أتمتع بالنظر. ولما كان على الجهمان منقسماً بين رغبته الداخلية فى تناول القهوة ورغبته الحقيقية فى مرافقتى، فقد راح يبذل قصارى جهده طمعاً فى أن أنحرف عن مسارى متجهاً ناحية الآخرين، لكنه عندما فشل فى تحقيق ذلك الهدف سارع مبتعداً عنى ليشارك الآخرين فى تناول القهوة المنشطة.

واصلت المشى، ولكن كان المشى أمتع فى هذه المنطقة الرملية الناعمة ذات السلاسل الكثبانية المتحدرة، عن الإبل التى كانت تنزلق أقدامها وتنغرس فى الرمل أثناء السير. ومع ذلك، وبعد أن مشيت مدة ثلاث ساعات وعندما وصل سعدان ومعه جملى ركبت بلا اعتراض أو احتجاج وواصلنا سيرنا عبر سلاسل الكثبان الرملية الكثيرة إلى نهاية فترة العصر، التى توقفنا عندها لأداء صلاة المغرب فى منطقة صغيرة من الأرض الجبسية مكشوفة السطح فى وسط الرمال، التى سبق أن مررنا عليها، قبل شهر من الزمان، وشاهدنا فيها آثار أقدام الإبل ومخلفاتها فى سائر أنحائها عندما كانت ترعى فى هذه المنطقة – ويعتقد أفراد الجماعة أن تلك الإبل كانت تنتمى إلى كل من جابر بن فصل وآخرين كانوا يرافقونه ويعيشون معه فى الشمال.

وصلنا بعد ذلك بساعة واحدة إلى منطقة بنى جفنان هى ومخروطها البارز (الذى يسمونه حقنة جفنان) التى تبعد قليلاً إلى الناحية الجنوبية الغربية. فى هذه الرقعة من الأرض نجد أن تكوين سواهيب المميز يستأنف ظهوره من جديد، لكن المَعْلَمْ الرئيسى لهذا التكوين فى هذه الرقعة يتمثل فى تكرار التجاويف التى

(**) الأصل فى هذه الكلمة هو Shekal، وتترجم "شاقل" وهو وزن قديم بابلى الأصلى. وقد تعنى عملة فضية عبرانية قديمة، وهذا هو المقصود هنا. (المترجم)

على شكل حدوة الفرس التى تحيط بها مجارى أو قنوات نهرية مائلة شبيهة بالأوتاد. فى تجويف من هذه التجاويف فى بداية الرقعة عثرنا على جزء مكشوف من حجر السديم تحت الرمال، وادى اكتشافنا لجحر ثعلب مع أشياء أخرى إلى اقتناعنا بأن فى هذه الرقعة بئر مدفونة. وهنا أطلقنا على هذه البئر اسم بئر جفنان، وانتقلنا بعد ذلك للتخييم وسط الحياة النباتية[1]، المتنوعة، فى سهل وسيع متدحرج يقع بين سلاسل كثبانية رملية منخفضة وجرداء.

كنا قد قطعنا مسافة تقدر بحوالى خمسة عشرة ميلا أثناء النهار، ومع ذلك كان القسم الأخير من الرحلة مصحوبا بموسيقى من الاحتجاجات عالية الصوت من أفراد المؤخرة. وراح كل من فراج، هو وعلى الجهمان اللذان كانا معى فى المقدمة يعملان كما لو كانا مكبرين من مكبرات الصوت لما كانا يسمعانه، وراحا يتكلمان معى عن العناية بالإبل والاهتمام بها. وهنا قلت لهما: إننا أمضينا قرابة أسبوعين فى قطع مسافة تقدر بحوالى مائة ميل، واقترحت عليهما أن الإبل يمكن تركها ترعى فى ضوء القمر. وهنا قال على الجهمان: أن هذا الأمر لا يمكن أخذه بعين الاعتبار، لكنه لم يتطرق بعد ذلك إلى الكلام فى هذا الأمر، عندما جرى تجميع الإبل وسوقها إلى المخيم، بعد أن تُرِكَتْ ترعى مدة ساعتين فى المراعى فى ضوء القمر. كان الليل مضيئا تماما مثل النهار، وكانت الأحوال المناخية جيدة على نحو جعلنى أستغنى عن خيمتى، مفضلا النوم فى العراء.

كان هناك شىء من التذمر غير المعلن بين صفوفنا طوال النهار لسبب عجيب. فى ساعة مبكرة من تحركاتنا كنت قد سألت أبو جعشة عن إحساسه الشخصى، واندهشت جراء إجابته الجافة، التى كانت تعرب وبلا أدنى شك عن مشاعر الجماعة كلها. أجاب أبو جعشة متسائلاً: هذا عض، ألم نعمل كلنا من أجلك على حد سواء؟ ولكنك اخترت اثنين من بيننا لكى تسعدهما بالعطايا والهدايا. نحن لا ننكر أن

(١) نباتات الآبال، والزهر، والأنداب، والآلقة، والبركان.

زايد هو وعلى الجهمان يستحقان ما حصلا عليه، لكننا جميعا نستحق هذا الشيء ونحن نعترض على حصولهم على شيء في حين نكون نحن خاوين الوفاض. أجبته: انتظر! لقد أخذا هذه المكافآت نظير القيام بعمل خاص، وأنتم ستحصلون على الهدايا والعطايا في الوقت المحدد - عندما نصل إلى حضرموت، وهذا هو السبب الذى يدفعنى إلى التسريع بطيء هذه المراحل، وعندها سأقوم بمكافأتكم جميعا.

لم يؤد ذلك إلى تهدئة أنفسهم الشريرة الحاقدة، وكان ثاني المجادلين فراج نفسه، الذى لم يبلغ الآخرين بالهدية التى حصل عليها منى، والذى لم أخيب ظنه. لكن هذه الملهاة تعمقت وكبرت عندما مثل زايد أمامى وصب أمامى الشيكلات الثلاثين، ليعلن لى أنه أنب نفسه على قبول هذا المبلغ منى. أخبرته أن ذلك التصرف يعد نوعا من الهجوم على، وطلبت إليه أن يعيد تفكيره في الأمر، أصر زايد على موقفه، وهنا أرسلت في طلب أبى جعشة. عندما جاء أبو جعشة قلت له: هذه هى ثلاثون دولارا لك! كان أبو جعشة قد أعلن من قبل أنه في مثل هذه الظروف لن يقبل هدية له وحده، لكنه الآن، بعد أن دس المبلغ في جيبه، لا يمكن أن أكون رقيقا معه أو حانيا عليه. قلت له: يا أبا جعشة أنت الذى أثرت هذا القلق والضيق حول موضوع الهدية التى أعطيتها لهذين الاثنين. وانظر كيف جازاك الله على فعلك! ودون أن ينطق أبو جعشة بكلمة واحدة أخرج المبلغ من جيبه، ووضعه على فراشي. وتناولت المبلغ على الفور ورميته بعيدا عنى على الرمل، وقلت له: على هواك: خذ المبلغ أو اتركه. هذا لا يهمنى، لكن أرجوك أود أن أنعم براحة البال، فأنا أمامى عمل لابد من إنجازه. وهنا التقط أبو جعشة المبلغ وعاد به إلى رفاقه، واستدعيته في صباح اليوم التالى ليأخذ شيكلا كان قد نسيه بالأمس. وعرفت فيما بعد أن المبلغ أعيد إلى زايد، الذى أحبطت محاولته التى كان يهدف بها إلى إجبارى على توزيع هبة أو عطية عامة في وقت غير مناسب.

وعلى الرغم من ذلك الحادث - وربما بسببه أيضا - بذل الجميع جهداً خاصاً في إنجاز تقدم قياسى لم يسبق أن وصلنا إليه من قبل، وبينما كنت نائما أحسست بنشاط غير مرغوب فيه في المخيم في ساعة مبكرة، وكانت إبل الحمل قد بدأت سيرها قبل أن

أصحو من نومي على أذان مبكر غير معتاد لصلاة الفجر، هذا يعنى إن إبل الحمل كانت قد سبقتنا فى المسير بحوالى ساعتين، فى حين رحت أتجول بعد صلاة الفجر، مطاردا نسرا كان قد وقف على قمة سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية المجاورة. أفلحت في الوصول إلى مدى معقول، لكن الطلقة التى أطلقتها مُن مسدسى الصغير أدت إلى اضطراب الرمل القريب من الطائر، الذى طار مبتعدا عن المكان ولم يظهر بعد ذلك، آثار أقدام الحبارى كانت كثيرة فى هذه الرقعة من الأرض، لكن معدل سيرنا السريع لم يسمح لنا بمطاردة أى منها، على الرغم من أن ثلاثة من طيور الحبارى فرت هاربة من أمام أقدامنا فى مرة من المرات. شاهدت أيضا طائر أبو بليق وطائر الدخلة المغرد بأعداد كبيرة، وبينما كنت أحزم أشيائى، أصبحت على علم بمأساة صغيرة، فى اليوم السابق كنا قد أمسكنا بأرنب برى، وكان سعدان بعد أن قام بسلخ الأرنب، قد وضع جلد الأرنب وجمجمته بعد أن غطاها بملح الزرنيخ يجفان بالقرب من فراشى، ولم أر فى الصباح أثرا لهما، وسرعان ما كشف الرمل عن آثار أقدام اللص، الذى لم يكن أحد سوى الكلبة السلوقى. لابد وأن تكون الكلبة قد ابتلعت كلا من الجلد والجمجمة، وكان واضحا أنها عندما كانت ترافقنا فى ذلك اليوم، بدأت تستشعر الآلام الحادة لعشائها السام. وعند كل دغل كانت الكلبة ترقد أرضا، وتأخذ فى البحث لنفسها عن ملاذ آمن من الشمس، بأن راحت تخمش الرمل أملا فى الوصول إلى الرطوبة الموجودة تحت سطح الرمل. لكن مع حلول المساء كانت الكلبة قد شفيت من عسر الهضم.

كنا قد حققنا تقدما ممتازا فى سلاسل وديان وسلاسل بنى جفنان الكثبانية الرملية – أرض واسعة من الرمال وغدران شبيهة بالبحار، كل غدير منها مصدر أمواج مستدير وعال فى الناحية الجنوبية. كان اللون السائد والغالب على هذه المنطقة هو اللون البنى الفاتح المائل إلى الاحمرار، كما كان يكسوها غطاء نباتى صحراوى كثيف، لاحظنا فى منتصفه، منتشرا هنا وهناك بعضا من روث الإبل التى كانت ترعى فى ذلك المكان فى الموسم السابق. مررنا مرتين على انكشافين من الانكشافات الصخرية فى تجاويف فى الكثبان الرملية التى على شكل حدوة الفرس، وعند الظهر، بعد أن خيمنا

مع إبل الحمل بعد أربع ساعات من السير، كان فراج بذكائه الصحراوى المعهود، قد لفت انتباهنا إلى أول شجيرة من شجرات الحض، التى تعنى أننا خرجنا من رقعة بنى جفنان ودخلنا رقعة هضبة أبو خشبة، الذى سمى باسمه قمة مخروطية تحمل الاسم نفسه، وتقع على بعد حوالى ميل فى اتجاه الشمال الشرقى من سلسلة الكثبان الرملية التى توقفنا على قمتها لتناول الغداء. عند هذا الحد كان على الجهمان وآخرون يتحرقون شوقا إلى رشفة من القهوة، بل إننا جميعا كنا جوعانين بعد عمل صباحى شاق إلى حد أننا كدنا نأكل أنفسنا. وسواء أكان ذلك هو السبب، أم على حد قول بعضهم، إنه ماء نايفة بأملاحه الكثيرة بعد أن بقى فى القراب أياما عدة، فقد ظهرت علينا جميعا علامات الإعياء خلال فترة العصر شديدة الحرارة، الأمر الذى جعلنا نتخلى عن مسألة استغلال الجزء المتبقى من النهار فى الوصول إلى شناء.

قبل توقفنا لتناول طعام الغداء كنا قد مررنا على الأثر الذى خلَّفه كل من زايد وعلى الجهمان اللذين سبقانا إلى شناء، فى حين سرى بيننا نوع من القلق عندما اكتشفنا بعد أثر كل من زايد وعلى الجهمان أثرا آخرا لجماعة من جماعات الغزو. هذا الاكتشاف هو الذى حتم علينا التوقف فى تلك اللحظة إذ كان من الضرورى تحرى الأمر تحريا دقيقا. هؤلاء الغزاة من سعار، أو قد يكونون من الدواسر، على حد قول على الجهمان، وسبب ذلك أن الإبل التى يركبونها من إبل السهوب وليست من إبل الرمال. وأنت ترى مدى عمق آثارالأقدام. قد يكون مضى على هذا الأثر مدة عشرة أيام أو أقل من ذلك، وقد يكون ذلك قبل ستة أو سبعة أيام، والمرجح أن يكون ذلك قد حدث قبل ذهابى أنا وزايد إلى شناء. هذا يعنى أننا لم نرى هذا الأثر، أثناء ذهابنا إلى شناء. وبالتالى نحن لم نر هذا الأثر لأننا مررنا بذلك المكان أثناء الليل.

بينما كنا نمشى حدث انحراف خفيف، نتيجة ظهور ثعبان رفع رأسه ثم سلك طريقا ملتويا من بيننا، إلى أن لجأ إلى مكان وسط جذور دغل الآبال المتشابكة، وبعد أن فشلنا فى البحث عن الثعبان أضرمنا النار فى الشجر الجاف، لكننا فشلنا فى إخراج ذلك الزاحف إلى العراء مرة ثانية. توقفنا مرة ثانية عند صخرة صغيرة

مكشـوفـة فى تجـويف مميـز فى واحـد من الكثـبـان الرملـيـة، وجـرى منح مكافـأة على اكتـشـاف بعض الأصداف الحلزونية. وعليه وصلنا عند السـاعـة الثـالثة والنصف إلى مـخيمنا المسائى عند حافة رقعة متـرامية من الجبس، تواجه صـخـرة على شكل حدوة فرس، لها جرف تقع قمته على ارتفـاع حوالى ٤٠ قدمـًا فوق مستوى أرض الحفرة الرملية. هذا الانكشاف كان مهما إلى حد أن على الجهمان اقترح أن نطلق عليه اسم أم القرون، وقد جرى فى صـبـيحـة اليـوم التالى توسـيع ذلك الاسم؛ ليـشـمل امـتدادا صـخريا مماثلا، لكنه أصـغر من الامتداد السـابق، ويقع فى تجويف مـجـاور يبعد عن الأول حوالى ٥٠٠ ياردة.

إلى هنا أكون قد أصبحت متعبا ومرهقا تماما وسعيدا أيضًا بأن بدأنا التخييم بعد أن مشينا مسافة عشرين ميلا أو أكثر قليلا. يزاد على ذلك أن الملح أو بالأحرى حرارة الجو سرعان ما استنفدت طاقتى، واستلقيت أرضا لأنام نوما عميقا لمدة ساعة كـاملة فى الظل المسـتطيل لصندوق من صناديقى. اسـتـغنيت فى هذه المرة أيضـا مـثل سـابقتـهـا فى المخيم السابق عن الخيمة وكان الليل لطيفًا. كانت مـلاءة الجبس بيضـاء اللون تتـألق فى ضـوء القمـر، وكانت الرمـال من حولنا تبـدو وكـأنـهـا تطبق على المشـهـد بقنا ع من السحر والغموض.

فى صـبيحـة اليوم التالى واصلنا سيرنا لمدة تـزيــد عــلى السـاعـة فــى هضـبـة أبو خشبة، التى كانت الانكشافات الصخرية تتخللها فى مواضـع كثيرة منها أطلقنا على موقع منها – دائرة صـخرية واسعة ومسطحة وشبيهة باللوح ولونها رمادى مشوب بزرقة خفيفـة وفيـها بقعتين جبسـيـتين صـغيرتين وبيضـاوين – اسـم أم الصـحنين[١] الأرض فى هذه المنطقة بدأت تتحول إلى رقعة منخفضة مكسرة يميل لونها إلى اللون الأحمر، وتتخللها بين الحين والآخر خطوط قصيرة من الكثبان الرملية، إلى أن وصلنا

(١) بمعنى أم الطبقين.

فى نهاية المطاف إلى سلسلة طويلة مزدوجة دخلنا بعدها منطقة رملة دوغا (أو إن شئت فقل خِلَّة دوغا)، التى كان المخروط المسمى باسمها يقع على بعد مسافة قريبة فى الجهة اليمنى، والذى يؤبن الجهود الفاشلة التى بذلها بعض أفراد قبيلة الغفران فى الحفر فى أحدى الصخور، أملاً فى الوصول إلى الماء فى انكشاف صخرى، يقع إلى جانب ذلك المخروط. بعد مسافة صغيرة من هذه النقطة توقفنا عند الجانب الأيسر من واحدة من سلاسل الكثبان الرملية تطل أو تشرف على المنخفضات والوديان المتدحرجة فى شناء؛ كيما نعطى كلا من زايد ومن معه فرصة استكشاف نقاط الاقتراب من البئر، قبل وصول الجماعة كلها إليها.

استأنفنا السير، وبعد فترة زمنية معقولة أوضح على الجهمان لى خلالها كل العلامات الأرضية المعروفة لما يعده هو المراعى المحلية لأهله وناسه. كانت طيور الحبارى تطير من أمامنا، كما أثار مرورنا الاضطراب والانزعاج فى مستوطنة مكونة من خمسة من طيور الدخلة المغردة، فى كل مكان حولنا كنا نشاهد رقعا صخرية كبيرة أو صغيرة، ورقعا من الأرض الجبسية أيضا، التى تحولنا جانبا إلى واحدة منها، عندما شاهدنا ثعلبا يفر هاربا عبر مجراها الصلصالى الذى يميل لونه إلى اللون الرمادى، ويتخلله شيء من الحصى أو الزلط. عثرنا فى هذا المكان على بعض الأدوات الصوانية، وعلى بعض قطع الحجر التى ثبت أنها عبارة عن شظايا حجرية نيزكية[1]، واتضح أن هذه المناسبة تستحق التأبين. وعليه أطلقنا على هذه الرقعة اسم أم الطينة، نظرا لطبيعتها الطينية، وبعد ذلك بحوالى ساعة، مضينا خلالها قدما، وعلى بعد مسافة قصيرة من وادى مستمر من المناطق الجبسية المكشوفة، وصلنا فى نهاية المطاف إلى أقصى الشمال.

(١) راجع الملحق.

الفصل الخامس

شنَّاء

أرض الأعداء، أرض الخوف !

زايد

على الرغم من أن بئر شنَّاء، في وضعها الحالي تقع عند ملتقى المدقات والدروب الجنوبية كلها، فإن تاريخها يرجع إلى الفترة من العام ١٩٢٠- ١٩٣٠، عندما وجدت مجموعة كبيرة من غفران المرة نفسها مصادفة متجمعة في منطقة مجاورة للبئر ومعها خيامها وماشيتها. لكن مراعي الجزء الشمالي من الأحساء، الذي كان هذا الجزء من القبيلة ميالا للذهاب إليه في أشهر الشتاء، بعد رحلته الصيفية المعتادة في قلب الرمال، أصبحت مقلقة وغير مريحة لأسباب تتعلق بالانزعاج والغزوات والحملات التي كان يقوم بها فيصل الدويش، الذي جعل العناصر الإخوانية، غير المنطقية والأكثر تشددا، تتمرد على الملك الوهابي المتمتع بحق الولاء الإقطاعي المقدم إليه من أتباعه ورعاياه. هذا يعني أن القبائل المسالمة هي والقبائل الموالية للملك كانت معرضة للهجوم عليها من قبل أولئك المتطرفين، وعلى الجانب الآخر كان ولاء هذه القبائل الزائف أو المزعوم يجلب عليها في أية لحظة دعوتها، على غير رغبة منها، إلى حمل السلاح إلى جانب الحكومة في مواجهة إخوان العقيدة الضالين. من هنا كان الابتعاد مسافة كبيرة عن مسرح القتال أمنية واضحة طوال مطلع خريف العام ١٩٢٩ الميلادي، وكانت قبيلة المرة تمتاز بميزة السيطرة على الربع الخالي، الذي اتخذت منه

القبيلة ملاذا لها إلى أن تنتهى العاصفة أو تهدأ. وعلى الرغم من ذلك كانت تلك الميزة محدودة إلى حد ما بظروف رعوية، وتصادف أن تسقط الأمطار الغزيرة مؤخرا على المنطقة المجاورة لشناء؛ مما أسفر عن مراعي جيدة لإبل الغفران. النقيصة الكبرى فى هذه المنطقة تتمثل فى الملوحة غير العادية لمياه آبارها المتعددة المبعثرة هنا وهناك، والتى اشتق منها اسم الخيران[1]، الذى يطلق على قسم كبير من هذه المنطقة؛ هذه النقيصة كانت أكثر أهمية عند رجال ونساء قبيلة المُرَّة من إبلهم، التى كانت تحصل على قسم كبير من غذائها السائل من أعشاب الصحراء كثيرة العصارة. الأمر الذى دفع أطرافا متباينة من الغفران إلى الانتشار هنا وهناك فى سائر أنحاء البلاد بحثا عن مصادر مائية أطيب ينتفعون بها طوال رحلتهم الطويلة فيما يعدونه مراعيهم الصيفية.

كان على بن صالح بن جهمان، مرشدنا الرئيسى هو الذى ألقى بعض الضوء على شنَّاء، ذلك المنخفض الحقيقى الواقع بين رمال الصحراء والذى فيه بعض الأماكن المكشوفة المكوَّنة من الصخر الجبسى التحتى على هذا الجانب وذاك. الأماكن التى من هذا القبيل هى التى علمت قبائل الصحراء خبرة البحث عن الماء، على الرغم من أن هذه القبائل لم يكن لديها الوسائل التى تمكنها من الوقوف على طبيعة السائل الذى يمكن الحصول عليه. كانوا يحفرون متوكلين على الله، وكانت العناية الإلهية ترعاهم، إذ كانو يصلون إلى الماء المالح على مستويات ضحلة دون أن يبذلوا جهداً كبيراً. وعندما كانوا ينزلون بالحفر إلى أعماق كبيرة، دون أن يصلوا إلى التربة الرطبة، كان يقينهم يزداد فى عدم العثور على الماء أو العثور على ماء يكون أقل ملوحة عن ماء الحفر الضحلة المألوفة لهم. وعليه كانوا يواصلون الحفر، نظرا لأنهم ليس أمامهم بديل آخر أفضل من ذلك، وكان على الجهمان قد حفر بئره الضيقة فى الجبس الناعم إلى

---

(١) جمع "خور" الذى معناه "مصب نهرى"، من ذلك مثلا "خور عبد الله بالقرب من البصرة"، أو قد يعنى "الخور" الماء المالح ليس إلا.

عمق ٥٥ قدمًا، قبل أن يصل إلى ما كان يبحث عنه وسماه شنَّاء - أو إن شئت فقل: الماء العذب الذى ينطوى على شيء قليل جداً من المرارة، مشكلا بذلك أفضل نوعيات الماء فى المنطقة المحيطة كلها. واعتبارا من ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا أصبحت شنَّاء قبلة لأنظار رعاة القبائل وجماعات الغزو، وينبوعًا من ينابيع الحياة فى الرمال الجنوبية، كما أصبحت لهذا السبب أيضا مصدرا من مصادر الموت والخطر. هذا يعنى أن أحداً لا يقترب من بئر شنناء بلا شك، ولا أحد يبقى بجوارها، أى عند البئر نفسها، فترة أطول من سقيا الماشية وملء القراب. وبذلك نكون قد اخترقنا قانون الصحراء عندما احتللنا البئر مدة ثمانى وأربعين ساعة، لكن ألم يكن رجال الملك بصحبة إبل الملك أيضا؟ ومع ذلك بقينا متوترين، ومتوعكى المزاج نتيجة عدم وضوح خططنا من ناحية، والخوف من الزوار غير المرغوب فيهم من الناحية الأخرى.

قبل ذلك بأيام كان زايد هو وعلى الجهمان، قد قاما باستكشاف المنطقة المحيطة بنا دون جدوى، ولم يعثرا على أى أثر أو دليل على وجود عرب يرعون ماشيتهم، كما قاما أيضا بزيارة شنَّاء ورسما الرمز المميز للملك على الرمل الرطب، بالقرب من فتحة البئر من باب الإعلان عن هويتنا - وهذا تحوط محسوب للإنذار وإبعاد أولئك الذين يحسبون أنهم بلغوا من القوة والإرادة حداً يستطيعون معه استثارة غضب الملك. وعلى حد قول جابر بن فصل يوم أن كنا فى جابرين، لم يكن فى الصحراء من يقوى على القيام بمثل هذا العمل فى ذلك الوقت، كانت قبائل الجنوب قد انسحبت متراجعة إلى الجبال الجنوبية، بعد أن وصلها نبأ حملتنا من سيف بن طناف شيخ المناهيل، الذى كان قد عجَّل بالرحيل عن الأحساء قبل بداية حملتنا بأيام قلائل عندما رفض ابن جلوى قبول هداياه، وكانت بعض عناصر قبيلة مرة قد بقيت فى الجنوب على بعد مسافة آمنة مع أنسباء الراشد من أهل حمد بن سلطان بن هادى - الذى كان مرشدا للسيد برترام توماس فى العام السابق - بعيدا عن متناول مسارنا مخافة أن يكون هدفنا هو تحصيل الضرائب، التى لم تكن تلك العناصر تشغل بالها وقتئذ بسدادها أو دفعها لخزانة الملك. والمعروف أن على الجهمان هو ابن عم حمد بن سلطان بن حادى. من هنا

كانت الصحراء خاوية، وكان كشافونا الذين كانوا يسبقونا بحوالى نصف ساعة، قد أشّرُوا لنا بخلو الطريق عندما كنا نمر على البئر من خلف سلسلة من الكثبان الرملية تحيط بالحافة الشمالية لمنخفض شبيه بالوادى تقع فيه تلك البئر، لم يكن المشهد خاليا من البشر وحسب، وإنما لم يزر أحد من الناس ذلك المكان، أو تلك البئر منذ أن رحل عنها كل من زايد وعلى الجهمان قبل ستة أيام.

عند سفح المنحدر الرملى النازل إلى المنخفض، مررنا بقبر شخصية شهيرة قتلت فى نزاع واشتباك قبلى خلال العام أو العامين الأخيرين. كانت حدود القبر البيضاوية الشكل مُعَلَّمه بكتل من الجبس، جرى جلبها من الصخرة أو القمة التى يصل ارتفاعها إلى أربعين قدمًا وهى من صخر الأديم الذى يمتد فى اتجاهين، تفصل بينهما فجوة كبيرة، عبر منخفض شناء. البئر موجودة فى الجزء شديد الانخفاض من المنخفض، وعلى بعد مسافة غير بعيدة. فى اتجاه الجنوب الغربى توجد صخرة صغيرة على شكل شبه دائرة موجهة صوب الشمال الغربى، لتشير إلى اتجاه مكة والمكان المخصص لصلاة المسلمين، كنا نرى هنا وهناك بعض شجيرات الآبال والحض. كانت خيامنا منصوبة، وكانت الإبل قد سقيت وجرى اقتيادها إلى مراعى الوادى بإشراف على البحيحى ومعه الصبى محمد. وسرعان ما أشعل أفراد الجماعة نارا كيما يعدّون شيئا من القهوة، فى حين قام زايد وهو ومساعده بالعمل على تجهيز طعام الغداء، وسارع الآخرون ومعهم بنادقهم إلى القمم الرملية المجاورة للقيام بعملية المراقبة المعتادة تحوطا للأعداء المحتملين أو الزائرين المفاجئين، فى حين رحت أنا أستكشف المناطق المحيطة بنا، وأجمع بعض العينات من شناء لإرسالها إلى المتحف البريطانى.

عندما تسلقت القمة الصخرية الموجودة ناحية الشرق من مخيمنا، وجدت نفسى فوق رقعة مترامية من الجبس، شبه دائرية من حيث الشكل وتنحدر انحدارا هينا من محيطها الخارجى إلى منخفض دائرى أصغر منها يغطيه الرمل والزلط، شكل هذا المنخفض الخارجى الشبيه بفوهة البركان، هو وسطح الجبس الغشيم المتآكل بفعل

الريح يوحيان بأن هذا الموقع عبارة عن مكان مجفف لبحيرة أو بركة قـديمة، لكنى لم أعثر على شيء يؤيد أو ينفى هذه الانطباع. ومع ذلك، وبالقرب من هذا المكان عثرت على حفرة صغيرة ضحلة دائرية الشكل، قطرها حوالى ثلاثة أقدام وعمقها حوالى أربع بوصات، اعتبرتها فوهة بئر قديمة مردومة، إلى أن فنّد رفاقى هذه الفكرة بمعلومات مفادها أن التجاويف التى من هذا القبيل إنما تصنعها وتستخدمها البدويات فى استخلاص الأصباغ من جذور نباتات شجيرات الآبال التى يطحنَّها فوق شرائح من الجلد يضعْنها فوق أرض هذه الحفرة، إلى أن تعطى حمض التنيك، الذى تستخدمه النساء فى مصنوعاتهن، الجلدية.

كان هناك خط طويل مبعثر، وغير متواصل من الرقع الأرضية الصخرية الجبسية المكشوفة، يمتد فى اتجاه الجنوب الغربى من هذه النقطة فى أعلى الوادى فيما بين سلاسل الكثبان الرملية التى على الجانبين، والتى يفصل بينها حوالى ميل على وجه التقريب. كان الوادى نفسه مغطى بغطاء كثيف من أعشاب صحراوية كثيفة مختلفة الأنواع من بينها عشب الزهر الذى له زهور صفراء اللون، وغير المعروف أو الذى تعرفه قلة قليلة من سكان الأجزاء الشمالية من الربع الخالى. فى شناء ذاتها نجد أن سلسلة الكثبان الرملية الشمالية تخترق مجرى وادى الجبس، الذى يستمر إلى ما بعد هذه السلسلة فى الاتجاه الشمالى الشرقى لمسافة ميل أو أكثر. هذا الخط من الرقع الأرضية المكشوفة أوحى إلى بفكرة، أنه ربما كان مجرى لنهر قديم نسبياً فى خط هذا الوادى المزعوم، هى أيضا تزيد من تأكيد ترسيخ كمية كبيرة من أصداف المياه العذبة الصغيرة[1] فى المنخفض نفسه عند سفح القمم الصخرية. وعليه أجد أن الدلائل المتيسرة كلها تشير إلى الاستنتاج الذى مفاده أن منخفض شناء هو والوادى يمثلان موقع نهر قديم لبحيرة من الماء العذب، وقد سعدت لاكتشافى دليلا أفضل من مجرد نظرية التحزير، بعد أن درست مستويات أو ارتفاعات الأرض التى قدمها من قبل السيد برترام توماس فى وقت سابق، هذا الدليل يفيد أن المنخفض الضحل الذى أشارت إليه

(١) مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، ديسمبر من العام ١٩٣١، صفحة ٥٧٤ – ٥ .

أرقام السيد برترام توماس فى المنطقة المجاورة لشناء يمكن أن يكون هو الامتداد الشرقى لقناة وادى الدواسر الكبيرة، التى تتجه أعاليها إلى اتجاه خفيف ناحية الجنوب الشرقى، والتى سبق أن رأيتها فى السليل فى العام ١٩١٨ الميلادى. النظرية التى من هذا القبيل كانت تستهدف إيجاد المزيد من التأكيد القوى لها فى الصحراء الواقعة غربى شناء، وهذا هو ما سنناقشه فى الوقت المناسب، لكن يكفينى فى هذه الرحلة أن أترك الحقائق، فى ضوء ما وصلت إليه فى هذه المرحلة من الرحلة فى شناء، أن تتكلم هى بنفسها. يمكن الزعم أن السطح الجبسى التحتى فى منطقة خيران، والذى يتأكد وجوده بتكرار الانكشافات وسط الرمال المنهارة، والآبار المالحة الضحلة التى فى هذه المنطقة، تعد دليلا قويا على وجود خليج بحرى كبير فى هـذه الأجزاء، أو خليج تكوَّن بفعل ارتفاع جبال عمان ومناطق قارة، أثناء أو بعد العصر الأيوسينى. الخليج الذى من هذا القبيل ربما يكون قد جرى امتلاؤه تدريجيا بفعل طمى الأنهار التى كانت تصب فيه من جميع الاتجاهات، أو قد يكون ارتفع عن مستوى سطح البحر إلى حد ما عن طريق هذه العملية، وأيضا بفعل الارتفاع التكتونى لسطح الأرض، إلى أن أصبحت المنطقة كلها مكشوفة، ومعرضة للتأثير التدميرى الناتج عن الرمل الذى تحمله الريح معها من الصحراء، والذى أصبح ما نعرفه اليوم على أنه محيط من الكثبان الرملية.

يبدو أن شناء بحد ذاتها تقع على مسافة غير بعيدة عن النقطة التى كان وادى الدواسر يَصُبُّ عندها مياهه فى الزمن القديم فى البحر، الذى مايزال خطه الشاطئ يمكن تعرفه فى القمم الصخرية المايسونية التى فى منطقة جيبان، وإن هذه القمم قد تكون ممتدة جنوبا إلى مرتفعات الصُمَّان الموجودة إلى الغرب من جابرين، مكَوِّنة بذلك خليجا بالقرب من مقينمة، ويمكن لمثل هذا الخليج أن يمتد شرقا حول بئر الفضيل المهمة، وحول طويريفة (بالقرب من مصب وادى مرقان)، ليواصل سيره من هناك فى اتجاه الجنوب مرة ثانية محاذيا للجانب الغربى من منطقة عين سالة – زقيرط ومنها إلى شناء. ومن هذه المنطقة (أى من شناء) يمكن لذلك الخط أن يمتد إلى الشرق إلى

مُقْشن، ومن مُقْشن يمتد شمالا محاذيا للسفح الغربى من جبال عمان لينضم من جديد إلى الخليج الفارسى الحالى فى المنطقة المجاورة لمسندام. الخط الذى يكون من هذا القبيل يخضع لكثير من التحزير، ومع ذلك يمكن النظر إليه مؤقتا باعتباره متفقا مع الحقائق المعروفة، إلى أن يمكن استكشاف أقسام أخرى من هذه المنطقة الشاسعة غير المعروفة، وتجرى دراستها بواسطة مستكشفين آخرين.

هب علينا عصر ذلك اليوم نسيم شمالى شرقى لطيف، طرى ودافئ، عندما كنت أتجول فى أعالى الوادى فى اتجاه إبلنا التى ترعى، بحثا عن محمد، الذى يعد حليفا طيبا لى فى الخطط التى أضعها لاصطياد سحالى الصحراء وطيور الصحراء المراوغة، كانت بندقية الرش غير صالحة للعمل، وكنت أقتصر على استعمال مسدس من مسدسات الجيب فى التعامل مع الأهداف الصغيرة المتمثلة فى الطيور صغيرة الحجم، والتى تكون على مسافة بعيدة وتشعر بالقلق، كنت قد فقدت بالفعل طائرا صغيرا يسمونه طائر الدغناش Shrike – وهو الطائر الوحيد من نوعه الذى شاهدته طوال الرحلة – عندما دوت عن بعد إحدى طلقات البنادق متجهة صوب الشمال الشرقى دويا واضحا فى الهواء الساكن. خيل إلىّ أن واحداً من رفاقى قد فتح نيران بندقيته على أرنب من الأرانب البرية، لكننا سرعان ما انخدعنا بتلك الطلقة. كنا ما نزال على بعد حوالى ميل من مخيمنا، وكانت تحركات رفاقنا البعدين تدل دلالة واضحة على أن الطلقة التى أطلقت كانت إشارة من إشارات التحذير. ويبدو أنه كان هناك تحركا عاما فى اتجاه سلسلة الصخور التى خلف خيامنا، واستطاع محمد تفسير الأصوات الصادرة عن تلك الضوضاء المتجهة نحونا على أنها أوامر بتجميع الإبل. وخلال لحظة تحول الوادى الهادئ إلى مكان ينبض بالحيوية والحركة البشرية، وعاونت محمد على تجميع الجمال القريبة، فى حين قام على الجهمان بتجميع الإبل البعيدة. ومشينا ببطءٍ فى اتجاه الخيام ونحن نحاول أثناء سيرنا، تفسير مغزى العقد الصغيرة لرفاقنا الذين كانوا يحتلون نقاط أفضلية متفرقة على بعد مسافة كبيرة فى الخلف أو يروحون يتجولون هنا وهناك تحت غطاء من سلاسل الكثبان الرملية، تركت محمد يسوق الحيوانات إلى المخيم، ومشيت عبر الوادى كى أتأكد من أسباب ذلك

التحوط من جماعة من الناس كانوا يحتلون قمة كثيب كبير من الكثبان الرملية. هذا الإنذار على ما يبدو كان من قبل فرج، الذى رأى أثناء قيامه بالمراقبة، ثلاثة رجال راكبين متجهين إلى شناء، قادمين إليها من اتجاه الشرق، ولو بقى فرج مختبئا بلا حراك لوقع هؤلاء الرجال أسرى فى أيدينا، ولربما كنا فى موقع قوى يمكننا من مساومة أصدقائهم، قلُّوا أم كثروا، الذين كانوا يمشون خلفهم فى المؤخرة. لكن فرج كان قد طار صوابه. لكن الرجال الثلاثة "رأوه وهربوا" مبتعدين عنا بأقصى ما وسعتهم السرعة. وكان رجالنا قد رأوهم وقصوا أثرهم إلى مسافة معلومة قبل أن يتخلوا عن ملاحقتهم. لم نجن أى فائدة من وراء موقعنا العالى، وبقينا الليلة كلها (فى حين رحت أنا فى النوم) يقظين وحذرين. كان الليل بارداً بكل المقاييس وبخاصة على أولئك الذين كانوا يقومون بأعمال الحراسة فوق قمم الكثبان الرملية المشكوفة، وكانت الجماعة التى تحلقت حول نيران المخيم انتظارا لشىء من القهوة، يشعرون جميعا بذلك البرد القارس، قبل أداء صلاة الفجر فى صباح اليوم التالى.

فى ذات الوقت كان زايد وآخرون قد أمضوا قسما كبيرا من الليل يجادلوننى ويتشاجرون معى بشأن خططنا المستقبلية، ولم نحرز أى تقدم فى اتخاذ أى قرار أو حسم الأمر. كنت قد اقتنعت أن الحادث كله لم يكن سوى عمل مؤجل، وأن هذا الإنذار كان إنذارا مزيفا، وأن تلك كانت لعبة من قبل من لعبوها، والهدف منها هو وضع حد لتجوالنا. وأنا كلما فكرت فى تفاصيل هذا الأمر، كنت أزداد قناعة على قناعتى بأن هذه هى حقيقة الأمر، قال زايد، وهو يدلف إلى خيمتى من الجنب ومعه صالح، وبعد أن جلس جلسة متواضعة على الأرض الرملية: ما رأيك؟ رددت عليه رداً مقتضبا: أنا لا أرى شيئا، فراج تصرَّف تصرُّف الجحش، عندما كشف عن نفسه بهذه الطريقة وخوَّف هؤلاء الرجال الثلاثة، الذين ربما أمكنهم إرسالنا إلى آبار الجنوب. هيا بنا نَقُصُّ أثرهم لعلنا نصل إلى مخيماتهم. أجابنى بلثغته اللغوية المميزة له، إننا لا نستطيع عمل ذلك. اسمع يا أنت، أرض المسلمين وراءنا فى الخلف من هنا

إلى جابرين، أما أرض العدو فهى أمامنا، وهى أرض الخوف. ونحن لا يمكن أن نخاطر بالدخول إلى أرض الخوف دون أن يكون بصحبتنا صنَّاع للسلام[1]. نحن خائفون. نحن في خطر. يجب علينا ألا نتطفل على هذه المنطقة. يجب أن نرجع إلى الوراء. ما رأيك يا شيخ؟ أجبته: أنا أرى أنه يتعين علينا المضى قدما فى اتجاه الجنوب فى ضوء ما وعدتنى.. يا زايد، مؤكد أنك لست خائفا من رؤية الرجال الثلاثة! صحيح أن جماعتنا ليس فيها أحد يعرف الطريق إلى ثمود أو إن شئت فقل قبر هود (عليه السلام)، الأبيار الجنوبية التى اعتبرتها هدفا أو مبتغى واضحا لنا، وصحيح أيضا أنه ليس بيننا أحد مؤهل لتقديمنا إلى المناهيل أو إن شئت فقل: سعار، الذين نتوقع الالتقاء بهم فى هذه الاتجاه، الدخول إلى مخيماتهم بلا تقديم يعنى كارثة كبرى، عل حد قول زايد فى مسألة تقديمهم "الخبز والزبد لنا عند عتبات بيوتهم"[2]. صحيح أننا كنا فى وضع حرج، لكن الأمر كان يستحق المخاطرة والمغامرة. ومع ذلك لم يكن زايد متعاونا، كما كان صالح أيضا عديم النفع على الرغم من كونه متذللا وخنوعا. أجَّلنا الجدل والنقاش إلى اليوم التالى عندما يكون على الجهمان قد عاد من استطلاعه الحذر واليقظ لمسافة بعيدة من الصحراء. وعليه تركتهم لكى يتخذوا قرارا، من المقولة التى مفادها أنهم ينبغى عليهم ألا يبلغوا هذه المبلغ من الخوف.

بعد صلاة الفجر – وانقضاء الليل بلا إزعاج – استأنفنا الجدل والحوار من جديد. كان زايد والآخرون قد عقدوا العزم على عدم المخاطرة بالمضى قدما فى اتجاه الجنوب، واضطررت إلى الاعتراف أمام نفسي – على الرغم من أنى لم أفعل ذلك علنا – أن لديهم أسبابا معقولة للموقف الذى يقفونه. وقدموا لى بديلاً آخرا مفاده أننا

(١) سلم (بكسر السين وتسكين اللام) مفرد وجمعه سلوم، وهذه الكلمة عادة ما تستخدم لمصطلح من مصطلحات الشمال بمعنى "رفيق" (ربيعه فى الجنوب) بمعنى "مقدم" أو "ضامن".

(٢) رزقهم وأهليهم.

يمكن أن نتحرك فى اتجاه الجنوب الشرقى على أن نجعل من "ظفار" هدفا نهائيا لنا. وفى كل الأحوال، سيجدون فى ظفار مؤنا وتموينات لاستعواض ما نقص منهم. كان ذلك هدفا مقبولا، على أن تكون العودة لطريق البحر، إذا ما أصبح الطقس حارًا على نحو يحول بيننا وبين مواصلة تجوالنا. هذه اللحظة لم ترق لى إلا من ناحية واحدة فقط، وهى أننا سوف نُعَرِّج على كل من راشد وحمد بن سلطان بالقرب من بئر شيسار، وأننا عن طريق مساعدتهما لنا يمكن لنا الاتجاه غربا إلى حدود حضرموت، ومنها يمكن لنا السير فى الصحراء الخالية من الماء - وهذا هدف مهم من أهداف رحلتنا. وإذا ما فعلنا غير ذلك، فإن ذلك سيعنى أننا سوف نقوم فعلا بتغطية الأرض التى استكشفها السيد برترام توماس استكشافا تاما. البديل الآخر يتمثل فى التوجه ناحية الشمال الشرقى إلى منطقة شرقى خيران على أمل العثور على عرب رعاة مستقرين بالقرب من الآبار. لكن ذلك سيقودنا بعيدا عن المنطقة الخالية من الماء، وهنا خشيت أن أجد صعوبة فى الطلب إلى رفاقى العودة إلى شنَّاء - وبخاصة إذا ما فشلنا فى العثور على أولئك العرب المستقرين - من باب المغامرة الكبيرة، على الرغم من انجذابى الشديد إلى مشروع دراسة الأرض المحيطة برملة الشُّعيت التى اقترحها السيد برترام توماس بديلا عن وبار Wabar (ويصح فيه أيضا Mbar). مع ذلك، كان لدى إحساس قوى مفاده أن مسألة احتمال اكتشاف أنقاض هذه المنطقة تعد أمرًا ضئيلاً تمامًا. وعليه رفضت ذلك البديل وأصررت على مواصلة سيرنا فى اتجاه الجنوب، فى حين تقدم رفاقى بمقترح مفاده: أنه نظرا لدخول بدايات فصل الصيف فإننا يتحتم علينا عدم إضاعة المزيد من الوقت فى الصحراء الخالية من الماء، تحفظت على ذلك البديل فى ذهنى ورحت أواصل الضغط من أجل قبول الخطة الرئيسية والموافقة عليها، وحذَّرت رفاقى من أن عنادهم قد تترتب عليه نتائج غير طيبة ونتائج غير مفيدة لهم على المدى الطويل. وهنا توقفنا عن الجدل والنقاش، وواصلنا استكشافنا لشنَّاء وتركتهم يتدبرون الأمر مع سعدان لأقوم أنا بمراقبتهم.

خرج صالح من المخيم بحثا عنى، بينما كنت أقوم بجمع بعض الأصداف والقواقع من مجرى النهر القديم. كان صالح من بين رفاقى كلهم، الأكثر بشرًا

وسحراً: كان صالح كذابا أشرا، لكنه كان على استعداد لمواجهة الجمهور بابتسامة هادئة: كان صالح أنانيا بشكل مباشر وصريح على الرغم من تفاؤله المفرط، وعلى الرغم أيضا من إحباطه وخيبة أمله بشكل دائم: كان صالح بطلاً وخائنا لكل الأسباب والأشخاص: كان صديقًا للجميع ولا يعادى أحداً بحكم دنيته البسيطة والساذجة. لم يكن هناك أحد يَفْضُل صالح فى ركوب الإبل على الطريقة العمانية. كان صالح صاحب عينين عسليتين كبيرتين، وكانت جدائل شعره طويلة ومتموجة. وكان صالح رشيقًا وصاحب صوت رخيم يضفى على أرجل الرجال سحر المرأة ولطفها. كان الحب هو مرض صالح الوحيد - حب النساء، وحب المال، وحب الطعام، وحب الراحة والأشياء الطيبة. كان تجشؤه أعجوبة، وعميق، ويخرج من أعماق معدة سليمة وغير متعبة.

جاءني صالح، مبعوثًا من تلقاء نفسه، ليشى لى بزملائه وما يحيكونه، وقد أكد لى سعدان فيما بعد تقرير صالح الخيانى. كان تحذيرى من استثارة غضب الملك مصحوبا بضغطى على المضى فى تحركنا جنوبا، قد آتى أكله وجعلهم يأخذون الأمر مأخذ الجد. سوف لا يذهبون إلى الجنوب - وقد أصروا جميعًا على هذا الموقف إصراراً تامًا. جاء استيائى أمرا حتميا، على الرغم من قلة زخم ذلك الاستياء اللهم باستثناء أصدائه فى بعض الدوائر القوية. إن الملك سيغضب إذا ما رويت له ما حدث، وقد يشتط غضبًا، وقد يكون تعامله مخيفا ومريعا مع أولئك الذين خانوا الثقة وأفسدوا المهمة. كان ابن جلوى قد حذر زايد وطلب إليه تجنب الأخطار التى يمكن تجنبها، وهذا هو ما كانوا يفعلونه بالضبط فى الوضع الراهن، على الرغم من تفسيرى لسلوكهم تفسيرا مختلفا؛ يزاد على ذلك أن ابن جلوى قد يغضب ويستاء منهم إذا ما عرف أن الملك قد يستاء من تنفيذ المهمة التى أُوكل إلى زايد القيام بها. تُرى، ما هو الطريق إلى الخلاص؟ لقد عرضوا علىَّ توصيلى إلى ظَفَار، كما عرضوا علىَّ أيضا التجوال فى الخيران بناء على طلبى، كما عرضوا علىَّ أيضا التجوال فى الصحراء الخالية من الماء بدءا من المكان الذى نحن فيه حاليا. لكن لم يرضنى شىء سوى البحث عن الموت أو الخطر وسط جبال حضرموت السوداء. هذا الخطر هم عاجزون عن مواجهته فى المرشدين وصنَّاع السلام. وبذلك أصبح خيار هؤلاء الرفاق، غضب الملك من ناحية

وغضب سيدهم عليهم من الناحية الأخرى. كان زايد هو وآخرون قد ذاقوا العقاب بأيدى ابن جلوى – فقد سجنهم فترة من الزمن وأعطاهم ما يكفيهم من الطعام، لكنه حرمهم من التمتع بالمجتمع النسائى. هل يمكن تحمُّل ذلك مرة ثانية. وهذا سويد وقد تحمَّل فى ثلاثة أماكن ثلاث شامات نتجت عن ذلك ضربات من خنجر من طراز سعار، أردته شبه قتيل، ولا يمكن أن ينسى ما حدث له. وسويد لا يمكن أن يستعيد ذكرى ذلك اليوم دون أن ينتابه الفزع والألم. وهو ليس مستعدا لمواجهة ذلك مرة ثانية. لكن ماذا عن الملك؟ وماذا سيفعل إذا ما غضب؟ تلك هى المسألة، وهنا وافق رفاقى على أن أسلم الحلول يتمثل فى العودة إلى الأحساء، لامتصاص غضب ابن جلوى، واعتمادا على قدرتهم على إقناعه بأنى كنت أطلب منهم أشياء أو مطالب غير معقولة لا طاقة لهم بها.

وعليه، وفى ضوء مواجهتى لاحتمال الفشل التام فى ظل ظروف لم تخطر ببالى فى أية مرحلة من مراحل الجدل والنقاش الذى دار بيننا، كان لابد من تغيير خططى وعندما عدت إلى خيمتى استدعيت كلا من زايد وعلى الجهمان للتشاور معهما، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى وجدت نصف الجماعة وقد تجمعوا كلهم حول الحشية التى كنت أجلس عليها. تناقشنا وتحاورنا. واعترضت بأنى لن أعود بأى حال من الأحوال إلى الأحساء. وقلت لهم: إن بوسعهم التخلى عنى إذا ما أرادوا ذلك غير أن ذلك سيكون أمراً خطيراً لهم. فلن يحصلوا منى على أية مكافأة، وسيواجهون بالقطع أشد أنواع الغضب من جانب أولئك الذين أرسلوهم إلى هنا. على الجانب الآخر، فإننى لن أصبر على رحلة الجنوب إذا ما كانوا متخوفين من النتائج التى قد تترتب على القيام بها، وسوف أضمن لهم عدم غضب الملك عليهم، بإقناع جلالته بأنى أنا الذى صممت على عبور الصحراء الخالية من الماء من منطقة شنَّاء، بدلا من أية نقطة أخرى فى الجنوب، ولكن عبور الصحراء الخالية من الماء كان ركنا مهما من أركان رحلتى. وكان ابن جلوى قد حذرهم من ذلك قبل الشروع فى الرحلة، وإن فشلهم فى هذا الأمر سيجر عليهم العقاب.

وبصورة مؤكدة ومتدرجة راح إحساس الجماعة يتحول شيئا فشيئا نحو الموافقة على مقترحاتى. كانت فكرة اصطياد الوعول البيضاء فى الصحراء الخالية من الماء تروق لأولئك الذين يحبون الصيد. يزاد على ذلك أن خُوَاء الصحراء كان يعيد طمأنة الجبناء من أفراد الجماعة. كما كانت هناك أيضا فكرة مريحة مفادها أن المشروع يمكن التخلى عنه، والانسحاب فى اتجاه الشمال إلى أقرب مصدر من مصادر المياه، فى حال ثبوت متاعب هذا المشروع الجمة، وعدم القدرة على تحقيقه، وعليه اتفقنا على حل وسط نسير بمقتضاه فى اتجاه الغرب فى صبيحة اليوم التالى، وهنا بدأ جو من الصداقة يسيطر من جديد على مناقشاتنا ومشاوراتنا. وتفرقنا على أمل أن نجتمع مرة ثانية بعد حوالى نصف ساعة لتناول الغداء، بعد الغداء – وفى حضرة الرفاق جميعهم – جرى توزيع هبة سخية على الجميع. شرحت للجميع، أنى كنت أود توزيع الهدايا عليكم عندما نصل إلى حدود حضرموت، لكننا تخلينا عن فكرة الذهاب إلى الجنوب. وبذلك تكون شنناء هى أبعد النقاط التى وصلت إليها حملتنا، ونحن بعد اتفاقنا سوف نتوجه صوب مكة عبر الربع الخالى، وأنا هنا أود أن أقدم لكم دليلا على اعترافى بفضل جهودكم التى أوصلتنا إلى هذا المكان. أما المكافأة والشكر النهائى فسوف يحظون به فى مكة فى الوقت المناسب، لكن خذوا هذا الكيس من الدولارات ووزعوها فيما بينكم حسبما ترون أنتم. أما سعدان، خادمى، فليس له نصيب من هذه الدولارات، وهذا يعنى أن هذا المبلغ سوف يوزع على سبعة عشر رجلا.

ردوا على جميعا فى صوت واحد، جزاك الله خيرا، يا شيخ عبد الله، تساءل ابن معدى: كم المبلغ الذى فى الكيس؟ رددت عليه: خمسمائة دولار، وأحدث ذلك ضجيجا وراح البعض يعدون على أصابعهم، والبعض الآخر يستلهمون الأرواح. هذا يعنى أن كل واحد من الجماعة سيحصل على ثلاثين دولارا فى حين سينقص نصيب واحد منهم عشرة دولارات. قال ابن معدى: زايد هو وعلى الجهمان سبق لهما أن أخذا نقودا من الشيخ عبد الله قبل أيام قلائل. من هنا يصح أن يكونا هما اللذان سيحصلان على مبلغ أقل من مبالغنا فى هذه المرة. قال زايد: لك ما أردت لكن أخصم المبلغ كله منى. تدخلت قائلا: لا تخف، سوف أعوض هذا النقص – تعال يا أبو جعشة وقم بتوزيع

المبلغ عليهم، وزّع أبو جعشة، بادئا من الناحية اليمنى، المبلغ بواقع ثلاثين دولارا لكل رجل من الرجال الجالسين حول نار المخيم، وفي عكس دوران الساعة إلى أن وصل إلى زايد الذى كان يجلس على يساره. كانت اللحظة عامرة بالتوتر. قال زايد: أعطنى عشرين دولارا بالتمام والكمال، وبذلك رفضت أن يبقى مرشدنا معلقا اعتماداً على كرمي. وعليه أخذ كل واحد من أفراد الجماعة ثلاثين دولار باستثناء أبى جعشة، الذى بدا عليه الانكسار والجبن فى اختبار عام لكراهية الأنانية وحب الذات. عدت إلى خيمتى ووضعت عشرين دولارا تحت مخدتى، ثم أرسلت بعد ذلك بفترة قصيرة، فى طلب أبى جعشة وجعلته ينقل بعض أمتعتى استعداد لمسيرة الغد – كان أبو جعشة رجلا يستخدم للقيام بكل الأشياء داخل الجماعة. سألوه بعد ذلك: هل أخذت الدولارات العشر؟ جاءت إجابته المراوغة: إنه لم يخيب ظنى، وقد فهموا من هذه الإجابة، كل ما يريح ضمائرهم، لكنه لم يرض فيهم حبهم للمال.

بعد تحديد مسارنا المستقبلى عن طريق الموافقة بالإجماع، تركت التفاصيل بعد ذلك لزايد هو ورفاقه، مع اقتراح مفاده أنهم إذا لم يمانعوا فأنا لن أعترض على محاولتهم عبور الربع الخالى بلا خيام أو معدات ثقيلة أخرى، التى يمكن إعادتها إلى الخلف مع بعض رجالنا وإبلنا، إلى الحد الذى يجدون عنده الصحراء الخالية من الماء تفوق قدرتهم على التحمل. هذا هو على وجه اليقين ما ينبغى عمله فى مثل هذه الظروف. وقد أعلن كل من على الجهمان هو والمرشد الدمنانى أنهما لم يسمعا مطلقا عن عبور سابق للصحراء من ناحية شناء أو من أى مكان آخر فى منطقة الخيران إلى السُّلَيِّل، أو المنطقة المجاورة لها. كانت خبرة على الجهمان تمتد إلى كل من منطقة قعاميات ومنطقة الحواية، التى يجيئ إليها غَفْران المُرَّة فى المواسم الطيبة لكى يتجولوا فيها إلى مسافة مسير أربعة أو خمسة أيام بعيدا عن كل من شناء، وزقيرط، ونايفة بحثا عن المراعى لحيواناتهم وبحثا عن الوعول البيضاء أو غزال الريم لاصطياده. لكنهم فى مثل هذه الظروف يعودون دوما فى الوقت المناسب (عندما تصبح إبلهم بحاجة إلى الماء) إلى آبارهم الأساسية، وبذلك لا تتهيأ لهم مطلقًا فرصة اختراق

المنطقة إلى أبعد من ذلك، أو بالأحرى إلى داخل الصحراء الطاردة. وبالطريقة نفسها، فإن غَفْرَان المُرَّة يعرفون حق المعرفة، أن جماعات الصيد كانت تزور قلب الصحراء الخالية من الماء في كثير من الأحيان، وأنها تأتي إلى الصحراء قادمة من مناطق الأفلاج، ووادى الدواسر، بغية اصطياد الوعول البيضاء لبيعها فى الأسواق المحلية، التي يعد فيها لحم وحيد القرن من الأشياء العظيمة الفارهة. واقع الأمر أن جسد الذبيحة الكامل المُقَدَّد فى الشمس والهواء قد يعود على صاحبه بمبلغ يصل إلى عشرة جنيهات إنجليزية أو حتى عشرين جنيها، فى المواسم التى يندر فيها وجود هذا النوع من اللحم. جماعات الصيد هذه يتحتم عليها العودة من مناطق الصيد إلى المساقى المعتادة، وبالتالى لا يخطر ببالها مطلقا زيارة شناء أو الآبار الصحراوية الأخرى التى من هذا القبيل، إذا ما استطاعت تحديد أماكنها. كان سويد قد اخترق الصحراء من ناحية السليل مع بعض جماعات الصيد، إلى أن وصل إلى منطقتي الجلادة (ويصح فيه أيضا جليدة) وريدة، فى أكثر من مرة، فى حين كان سالم يعرف مناطق الوعل الأبيض جنوبى وادى الدواسر فى اتجاه نجران، كما قام أيضا بعبور الحدود الشمالية للصحراء الخالية من الماء فيما بين مقينمه ومنطقة الأفلاج، ومن بئر فضيل مباشرة إلى السليل. واقع الأمر، وعلى حد قول أفراد الجماعة، إن عرب المرة المحبين للمغامرات – أى الرجال من أمثال على الجهمان، وحمد بن سلطان، وبن نفل، وابن فصل، وآخرون – هم الذى يجرؤن على القيام بالصيد فى تلك المناطق التى تخلو من المراعي ولا يسقط عليها المطر بشكل عام، فى حين تضطر جماعات الغزو التى تتهيأ لها فرصة عبور هذه الصحراء فى أى اتجاه من الاتجاهات، إلى الدوران حول حافة الصحراء، وأن تكون قريبة ما أمكن من مساقى الحدود حتى تتمكن من التردد عليها إذا ما كانت بحاجة إلى ذلك.

من الواضح عندئذ أنه ليس هناك هدف مفيد يمكن تحقيقه فى ظل الظروف المعتادة للحياة العربية، عن طريق العبور المباشر لتلك الأرض القاحلة الجرداء من جانب إلى آخر، وعلى الرغم من أنه كان ولا يزال من الصعب تصديق الاعتقاد، الذى مفاده أن ذلك العبور لما يحاول أحد القيام به إلى يومنا هذا، حتى ولو كان ذلك من قبيل

المتعة أو حب المغامرة، فإنى أسجل هنا الحقيقة التى مفادها أنى لم ألتق، ولا أى أحد من رفاقى، أى إنسان فى السليل أو فى أى مكان آخر يعلم أى شيء عن هذه المحاولة أو الإنجاز. من هنا يصبح ممكنا، وربما مرجحا، أنه إذا كان القسم الأكبر من الصحراء الخالية من الماء لم تطأه أرجل البشر إلى يومنا هذا، فذلك يعنى أننا كنا أول جماعة تغامر بالدخول إلى هذه الأرض مستهدفين الخروج منها من الجانب الآخر، هذا يعنى أننا كنا أول من أقبل على هذا المشروع وبصحبتنا خيام وأمتعة ثقيلة، وقد بدا لى قبل أن نبدأ أن رفاقى كانوا مذنبين عندما قرروا القيام بهذه المحاولة فى ظل صعوبة وعقبة كبيرة من هذا القبيل، لو فعلنا ذلك لعانينا الأمرّين جراء هذه الحماقة، ولوجدنا أنفسنا وجها لوجه فى الوقت المناسب أمام فشل ذريع. لكننا تعلمنا من هذه الخبرة درسا هو الذى بيّن لنا طريق النجاح. وأنا حاليا من خلال السرور والانشراح البادى على رفاقى، يجعلنى أشك فى أن مشروعنا قد لا يكون مزعجا مثلما تصورته أنا، لكنى لم أستطع تخمين دوافعهم التى تبدو واضحة فى ضوء التجارب التى مررنا بها بعد ذلك. الدافع الأول، يتمثل فى وجود ترقب أو أمل مرتقب فى صيد الوعول البيضاء، ومعروف أن العربى ولد صياداً ومحبًا للّحْم فضلا عن ميله أيضا للتفاؤل. ومن الطبيعى أن يَنْشَدَّ رفاقى إلى جاذبية الصيد والنتائج المترتبة عليه، فى حين كان هؤلاء الرفاق يتحفظون على الفكرة التى مفادها أنه إذا ما فشل مشروع الصيد وجاءت المسيرة على غير ما يرام، فإنهم سيكون بوسعهم الإفلات من المغامرة قبل فوات الأوان، والتراجع من جديد إلى الآبار الشمالية النائية التى ستكون على بعد مسافة معقولة طوال الأيام القليلة الأولى من الرحلة. ولعل هذا هو العامل الحقيقى، بلا أدنى شك، وراء قرارهم بعدم الرحيل، بصحبة الأشياء الكبيرة ثقيلة الحجم من بين مؤننا ومخزوناتنا (أعنى بذلك جوالات الأرز الكبيرة التى كنا نحملها معنا)، وذلك حتى يتسنى لهم الحصول على طعام وفير عندما يعودون عودة هينة لينة عن طريق البحر، والتى كان الكثيرون، إن لم يكن كلهم، يعلقون عليها آمالاً كبارا.

أمضوا اليوم كله فى الاستعداد. القرب الاثنتان والثلاثون، التى تمزق بعضها أو تشقق، منذ بداية الرحلة وإلى يومنا هذا، جرى رتقها وصيانتها ودهنها بالدسم، قبل

أن يجرى ملؤها بالماء من البئر، ووضعت على شكل صفوف استعداداً لتحميلها على ظهور الإبل فى صبيحة الغد. وجرى تقسيم المؤن والتموينات أيضا . إلى حزم صغيرة، كما جرى تجهيز كل شيء للرحيل فى ساعة مبكرة. كانت الإبل بطبيعة الحال، فى المرعى وكان يجرى أيضا مراقبة الأعداء أو الزوار طوال النهار من فوق قمم بعض الكثبان الرملية المتفرقة، على الرغم من أن قرارنا بالعودة عن طريق الصحراء الخالية بدا وكأنه قد خفف بعض الشيء ذلك التوتر العصبى الذى سيطر على الجميع عصر اليوم السابق. واقع الأمر أن الجميع كانوا مسرورين بشكل واضح. هذا يعنى أننا يمكن لنا خلال أسبوعين، مع يمن الطالع، الوصول إلى العالم المتحضر الذى سيؤدى إلى نسيان الفزع والخطر الذى يهيمن على موقفنا الحالى. إضافة إلى وجود النقود الفضية فى خرج الإبل وآمال كبار تراود الجميع فى الحصول على المزيد من هذه النقود الفضية. يزاد على ذلك أن تناول وجبة طيبة من الأرز والزبد والتمر بعد غروب الشمس جعل الجميع سعداء فرحين. أما سالم مرشدنا المرتقب، فقد تكلم عن عشرة أيام باعتبارها حداً مرتقباً لجهودنا خلال هذه الرحلة، ووجدت مناسبا أن أحذر الجميع من المغالاه مخافة الإفراط فى الحالة النفسية. وفى ضوء حساباتى الشخصية كانت المسافة التى سنقطعها تقدر بحوالى ٣٠٠ ميل بطريقة طيران الغراب، وهنا قلت للجميع أننا لا يمكن أن نقطع هذه المسافة فى أقل من خمسة عشر يوماً، فى ظل معدل سير مناسب، كما حدث لنا فى الأسابيع السابقة. وقد حتم ذلك علينا الحرص فى استعمال الماء، وأن نلغى من حسابنا الأطعمة التى يحتاج إعدادها إلى الماء. وافق الجميع على ذلك عن طيب خاطر إذ كانوا قد استغنوا عن وجبة غداء جيدة، وفرحوا عندما وجدونى سعيدا، على الرغم من انتصارهم فى الجدل والحوار الذى دار أثناء النهار. واقع الأمر أنه لم يكن هناك مبرر للاكتئاب من جانبى، نظرا لأننا كنا على أعتاب مغامرة كبيرة، كنت أنظر إليها طيلة أربعة عشر عاما على أنها غاية طموحى ومبتغى أملى.

فى تلك الليلة جرى توزيع خفراؤنا وحراسنا على التلال القريبة منا، ونسينا مخاوفنا المجهولة من الجنوب، مع القرار الذى اتخذناه بتجنب القيام بهذه الرحلة. لماذا

الغد بالذات؟ ولماذا نتوجه غدا إلى موطننا عبر أرض جرداء خالية تماما وبلا ماء. ينبغي أن نشعر بالأمان في أضعف الأحوال، الأمان من الأعداء، وعليه نمنا نوما عميقا انتظارا وتوقعا لذلك الأمن، وعندما تجمعنا لأداء صلاة الفجر في الظلمة الباردة التي تسبق الفجر، والترمومتر (جهاز قياس درجة الحرارة) يسجل ٤٠ درجة فهرنهيتية، عاد إلينا حراسنا من أماكن المراقبة، وكانت غالبيتهم يرتعشون من البرد. أدفأناهم بالقهوة، وجرى إحضار الإبل إلى البئر لكي نوردها على الماء للمرة الأخيرة، قبل الأزمة الكبيرة التي تنتظرها، في حين قام الطباخون بطهي وجبتنا الأخيرة من الأرز. ومن سوء الطالع أننا استعرضنا تلك الوجبة أكثر من استعراضنا للحيوانات، التي عبت جالونا من الماء قبل وصولنا إلى شناء بيومين، ولكنها ترفض الشرب تماما في الوقت الراهن. وقدر لنا أن نعاني من تلك المشكلة بعد ذلك، ولكننا لا يمكن أن نلتفت إلى هذه الأمور حاليا، ولذلك مضت استعدادتنا على قدم وساق لما نحن مقدمون على القيام به، تنازلت عن خيمتي كي يلفوها ويحزموها ويحملُوها على جمل من الجمال وأمضيت اللحظات المتبقيــة على بداية الرحلة بجوار البئر، مع رجائي لهم للمرة الحادية عشرة أن نيمم مســيرنا شطر الجنوب. وعلى حد معرفتي ذهب ذلك الرجاء أدراج الرياح وباء بالفشل. على بعد مسافة كبيرة خلف منخفضات الرمال المتدحرجة التي تنتشر فيها الأعشاب الصحراوية، يقع ذلك الأفق الجنوبي لأرض الموت التي لم يرها أحد منا ولن يراها أحد مطلقا، تلك الأرض التي أوحى اسمها لرفاقي بإحساس غامض بالخوف والحزن.

عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر فبراير كان كل شيء جاهزًا ومستعدا للسير، وخرجنا من المنخفض متجهين إلى الوادي في اتجاه الجنوب الغربي – تسعة عشر رجلا وكلبة، وثلاثين جملا من أصل اثنين وثلاثين عند مغادرتنا للدليقية قبل سبعة وأربعين يومًا. هذه الإبل تحمل حاليا صناديق مملوءة بعينات صحراوية، ناهيك عن اثنتين وثلاثين قربة وبرميلين من مياه بئر شناء. ورحت أمزح مع رفاقي أثناء سيرنا، وهم يتغنون بطريقتهم الصحراوية:

يوم جينا إلى شناء شفنا أهل ثلاثة

وشردنا منهم خايفيـن من الخباثـة

رايدين الوادى فيها خير وكرّاثـة[١]

ابتسمـوا ابتسامة ذاوية وهم ينظرون إلىّ شزراً، مخافة أن أضللهم أو أخدعهم فى نهـاية المطـاف، لم يستـوعبـوا الفـرح الذى كـان عم قلبى عندمـا انطلقنا فى الصحراء الكبيرة! وأنا بدورى لم أقو على سبر أعماق عقولهم المضللة وهم يسيرون معى فى المجهول.

---

(١) جـئنا إلى شـناء ورأينا ثلاثة من الأعداء، هربنا بعيداً تحاشيًا للخيانة، سلكنا الوادى، حيث يوجد البصل الطيب.

القسم الثالث
الربع الخالى

الفصل الأول

الصحراء الحقيقية

"هذا هو .. ذلك الذى حددوه لك على أنه الربع الخالى!"

على الجهمان

على الرغم من الرحلة الطويلة المرهقة التى تنتظـرنا، فقـد اتفقنا على تقصير سير اليوم الأول؛ حتى أتمكن من زيارة كل الآبار الموجودة غربى شناء ومعاينتها. وتقرر للقوة الرئيسية فى الجماعة والتى تحمل المؤن والتموينات أن تسير متجهة مباشرة إلى الملتقى المتفق عليه تحت توجيه سالم، فى حين تقرر لمجموعتى الصغيرة، التى تضم كلاً من زايد وعلى الجهمان. القيام بالتحول المطلوب للاتجاه صوب الآبار، وأن تنضم إلى بقية أفراد الجماعة خلال فترة العصر. سبقتنا حملة المؤن والتموينات بحوالى عشر دقائق، ومضت داخلة إلى الصحراء على الضفة اليسرى من وادى شناء، متجهة صوب الشمال الغربى، فى حين سرنا نحن أعلى الوادى نفسه فى اتجاه الجنوب الغربى إلى أبيار أرفاجة على بعد ميل تقريبا، وتقع فى منخفض عميق لقمة رملية على شكل حدوة الفرس. كانت هناك ربوة كبيرة من الصخر الجبسى المكشوف فيها قمم منحدرة إلى مسافة أربعين قدما. وتوجد بئران فيما بين هذه القمم المنحدرة والمنحدرات الرملية المحيطة بها. إحدى هاتين البئرين كانت عبارة عن مجرد محاولة لحفر بئر هجرها من حفروها بعد أن يئسوا من عدم الوصول إلى الرطوبة المطلوبة، أما البئر الثانية فقد وصلت إلى سطح الماء على عمق سبع قامات، على الرغم من أن هذه البئر لم تعط كمية مرضية من الماء، ثم جرى التخلى عنها بعد ذلك على وجه السرعة،

كانت هذه البئر الثانية قد امتلأت إلى قمتها تقريبًا بالرمال التى تحملها الريح وتأتى بها من الصحراء، الأمر الذى قد يمحو فى يوم من الأيام ذكرى هذا الجهد البشرى الذى أدى فى النهاية، وخلال الموسم نفسه إلى اكتشاف بئر شناء واستغلالها . وبعد مغادرتنا أرفاجة بعشر دقائق، وصلنا إلى خندق رملى كبير على شكل حدوة فرس مزدوجة، ويمتد عبر الوادى عند منحنى كبير فى الناحية الجنوبية من مجرى الوادى. فوق هذا الخندق أو السد كانت الريح قد أحدثت حفرة عميقة، عثرنا فى قاعها الرملى على بئرين تعرفان باسم بئرىْ ابن سويليم، أى باسم مرشدنا الدمنانى، سالم بن سويليم، الذى كان أول من حفر هاتين البئرين قبل خمسة وعشرين عامًا، فى الوقت الذى دارت فيه هذه الرمال الجنوبية دورتها وتمتعت بآخر دورة من دورات المطر الغزير والمرعى الوفير. وتلى ذلك أن طرد الجفاف العرب هم وإبلهم إلى أماكن أخرى. الأمر الذى أدى إلى ترك آبار سالم لحال سبيلها، فابتلعتها الرمال إلى أن أعيد اكتشاف هذه الآبار وتطهيرها فى موسم العام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ بواسطة على الجهمان، الذى يعد رائدًا عظيمًا من رواد الصحراء. وكما هو الحال فى إفراجة، وجدنا الماء من حيث النوعية مماثلا لماء شناء، لكن عمق الماء هنا كان يقدر بحوالى تسع قامات – هذه الحقيقة توحى بأن حفارى بئر أفراجة ربما أصابوا قدراً من النجاح؛ لو أنهم واصلوا الحفر إلى عمق عشر قامات على سبيل المثال. وبعد استعمال البئر خلال موسم واحد فقط ابتعد رجال القبائل عن مسقى ابن سويليم، لتعمل الرمال عملها فى الموقع من جديد.

الوادى فى هذه المنطقة يمتد جنوبا عبر متاهة من الكثبان الرملية ترتفع من أرض الصحراء إلى ارتفاع يتردد بين ٢٠٠ و ٣٠٠ قدم، وتتبعثر حول القناة وعبرها على شكل مجموعات صغيرة من الكثبان الرملية يتراوح عددها بين كثيبين وثلاثة كثبان. وتوجد هنا وهناك رقعة صغيرة من صخر الأديم التى استرعت انتباهنا، وبعد سير طويل أعلى التلال فى الوديان، وبطريقة متعبة، يقدر طوله بحوالى ثلاثة أميال، وجدنا أنفسنا على قمة منحدر رملى يقدر ارتفاعه بحوالى ٣٠٠ قدم، وشاهدنا حفرة أو منخفض ماموراً تحتنا مباشرة. كان على الجهمان قد بذل قصارى جهده لإقناعى بالسير مباشرة من بئر ابن سويليم إلى زويرة؛ تجنبا لذلك الجزء الوعر

من الأرض، لكنى كنت قد أوضحت له أن من الضرورى لى أن أرى بعينىّ المكان الذى أود توقيعه على الخارطة. وعليه فقد جئنا إلى هذا المكان.

هرب أرنب برى (واحد من حوالى درزينة من الأرانب البرية التى التقيناها اليوم، طوال مسيرنا فى المراعى الجيدة) عندما نزلنا إلى قاع الحفرة التى وجدنا فيها سلاحف عدة رحت أجمع البعض منها. كانت جماعة من قبيلة المُرَّة قد احتلت هذا المكان طوال موسم العام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ أى "يوم السبيلة" حسب التقويم العربى، بعد المعركة الكبيرة التى دارت بالقرب من الزلفى التى حقق فيها ابن سعود انتصارا حاسما على الإخوان المتمردين - وكان علىّ الذى ذهب كعادته لاستكشاف الماء، قد عثر على الماء على عمق ثلاث قامات - ماء شبيه بماء شناء لكنه ليس غزيرا، وعليه جرى هجر البئر، الأمر الذى تطلب من علىّ الجهمان تحديد موقع تلك البئر وسط الرمال، التى محت تماما كل أثر من آثار تلك البئر. بالقرب من هذه البئر كانت هناك رقعة مكشوفة من الصخر الجبسى، الذى تحول سطحه إلى ما يشبه المويجات الصلبة، مما يوحى بأن ذلك كان مجرى لبحيرة أو بركة قديمة.

فيما وراء هذه البئر من ناحية الغرب نجد أن مجرى الوادى ينحنى فيما بين السلاسل الرملية العالية، ويظهر على شكل رقع متعددة من صخر الأديم المكشوف إلى أن يعبر سلسلة رملية مستعرضة ومنخفضة، لننزل بعد ذلك إلى المنخفض - الذى ما يزال جزءا من الوادى نفسه - والذى يسمونه منخفض زويرة؛ ورأينا تحت المنحدر الرملى عن يميننا البئر الوحيدة فى المنطقة، والتى يصل عمقها إلى حوالى خمس قامات، والتى حفرها على الجهمان فى العام (١٩٢٨-١٩٢٩) قبل حفر بئر سبيلة، وكان واضحا، على الرغم من تغطيتها، أنها جرى استعمالها من قبل الزوار قبل أسابيع قليلة من زيارتنا لها. يزاد على ذلك أن التربة الرملية الموجودة حول البئر ما تزال تحمل دلائل الرطوبة، وأحصى رفاقى آثار خمسة عشر جملا تنتمى وبلا أدنى شك إلى جماعة من جماعات الغزو. هذه هى بقايا النار التى شبوها لعمل القهوة، كما صلّوا أيضا بجوار البئر، فى حين كشفت بعض آثار الأقدام عن رجلين مشيا على أقدامهما ليقوما بدور المراقبة من فوق قمة تل من التلال، فى الوقت الذى كان رفاقهم يقومون فيه بالمهمة العصيبة الضرورية، التى تتمثل فى سقيا إبلهم وملء قربهم بالماء.

منظر هذه الآثار، على الرغم من قدمها، أسفرت عن نوع من التوتر العصبى بين أفراد مجموعتى الصغيرة، الذين غضبوا عندما رحت أبحث بطريقتى الروتينية المعتادة عن الأشياء التى لها قيمة علمية. هذا يعنى أن الرجال الذين سبق أن مروا من هذا الطريق يحتمل، وهذا هو ما نعرفه جميعا، أن يعودوا إليه الآن. ويحتمل أن يكونوا أيضا قد التقوا بالمؤن والتموينات، وقد يلتقون بنا أيضا. تقسيم قوتنا يستوجب المزيد من التريُّث، والمنطق يحتم علينا التعجيل بالانضمام إلى رفاقنا. ومع ذلك لم تكن وقفتنا القصيرة بلا جدوى فقد عثر زايد على أداة من الصوان أضفتها إلى مجموعتى. وعليه استأنفنا سيرنا على الفور عبر رقعه الأرض المكونة من منخفضات متموجة وردية اللون، تقع فيما بين سلاسل كثبانية رملية تبعد عن بعضها البعض مسافة تزيد على الميل الواحد، ويكسوها غطاء كثيف من نبات الزهر الجميل. كان مسارنا فى اتجاه الشمال واستمر ذلك إلى ما يقرب من ثلاثة أميال، ظهر خلالها مجرى الوادى المكشوف على شكل بقع من الأرض عن يميننا، إلى أن بدأنا نطل من سلسلة رملية متوسطة على بحيرة حقيقية من الجبس، الذى كان لونه الأبيض يتلألأ بفعل أشعة الشمس الضبابية.

فى هذه المنطقة تقع بئر طريوة، آخر الأبيار الصحراوية التى فى غربى شنّاء بئر الطريوة هذه حفرها على الجهمان خلال موسم العام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ وهى عبارة عن عمود طوله حوالى ثلاث عشرة قامة، نازل إلى طبقة من الماء المالغ شأنها شأن بئر زقيرط هى والآبار الأخرى التى فى الخيران. من هنا، ربما كانت تذكارا لذراع من أذرع البحر وليست جزءا من مجرى نهر قديم، وأن هذه الذراع امتدت متحولة إلى دلتا عندما اقتربت أو اتصلت بالخليج. بئر طريوة هذه شأنها شأن بئر الزويرة زارها العرب مؤخرا، على الرغم من أن رفاقى لم يقفوا على التاريخ التقريبى لزيارة العرب لتلك البئر. فتحة هذه البئر جرت تغطيتها طبقا للأعراف المحلية، فى حين كان محراب الصلاة هو وحفرة الآبال الموجودة فى رقعة من الأرض الجبسية يقعان على مستوى أعلى قليلا من فتحة البئر، الأمر الذى يوضح أن الطريوة كانت ملتقى للعرب الرعاة، الذين يصحبون معهم خيامهم ونساءهم ولديهم مكان لنزول المسافرين العابرين.

إلى هنا نكون قد أنهينا برنامجنا الخاص بآبار منطقة شناء. وأصبح هدفنا العاجل هو اللحاق بإبل حمل المؤن والتموينات على وجه السرعة. كانت المنطقة التى مشينا خلالها تشكل جزءا من مكان يعرف باسم رملة شنّاء، أو بالأحرى رمال شنّاء - وهى منطقة تتسم بطابع السواهيب، إذ إن فيها سلاسل طويلة من الكثبان الرملية المتوازية، التى تبعد عن بعضها مسافة ميل تقريبا، وديان تتخللها الأشجار الخفيضة، أو إن شئت فقل: فيها وديان بين هذه السلاسل الكثبانية الرملية. كنا نرى الصخور الصحراوية التحتية مكشوفة هنا وهناك وسط الرمال - ذات الألوان البيضاء أو اللون الأزرق الضارب إلى اللون الرمادى.

على بعد مسافة تقدر بحوالى عشرة أميال غربى شناء يبدأ الطابع العام للصحراء فى التغير. هنا تفقد سلاسل الكثبان الرملية توازيها، ولكنها تنتشر هنا وهناك على سطح الأرض على شكل أقواس مسرحية، يغلب عليها الاتجاه ناحية الجنوب، وتضم بين أحضانها رقعا أرضية واسعة من المنخفضات الرملية وقيعان وديان من الصخر أو الرمل الخفيف. هذه المنطقة تعرف باسم القطرات. وعلى بعد حوالى خمسة أميال من طويرة توقفنا فترة وجيزة فى قاع من القيعان على سبيل القيلولة، وتناول المنعشات المعتادة فى الوقت الذى أرسلنا فيه الإبل إلى المرعى. شاهدنا صخور الصحراء زرقاء اللون مكشوفة هنا ونازلة من الشمال إلى الجنوب على شكل حيدين(*)، طول كل منهما حوالى ٢٠ قدما - مكونين بذلك رفّا شاطئيا أو ربما ضفّة نهرية، لكنهما خاليان من أية علامة أو إشارة من الإشارات الدالة على وجود الزلط. بقى المشهد بلا تغيير طوال فترة العصر التى قطعنا خلالها حوالى تسعة أميال، وكان مسارنا فوق التلال وفى الوديان محاذيا لسلسلة من الرقع الأرضية الصخرية المتشابهة، ومن القمم نزلنا لننتقل من قاع إلى قاع، ونحن نلقى نظرة على تلك المناظر الشاملة العريضة من التلال الرملية المتدحرجة، وسلاسل الكثبان الرملية

(*) الحيد: هو ما نتأ من الجبل. (المترجم)

هى والكثبان الرملية المتعزلة التى على شكل حدوة فرس. كان هناك أرنب برى راقد تحت دغل من أدغال شجيرات الأبال، في حين كان هو وصحبته المكونة من أربعة رجال معهم إبلهم، موزعين على شكل شبه دائرة حول طريدة مزقوها إربا، بفعل طلقة من طلقات إحدى البنادق عن بعد ياردات قليلة. لم نحصل سوى على أرنبين بريين من بين الأرانب التى شاهدناها، يزاد على ذلك أن الأقفة، تلك الكلبة السلوقية، تغذت غذاء مشبعا في شناء، الأمر الذى مرّنها كثيرا على المطاردة. حدث انحراف خفيف عندما اندفعت إحدى السحالى[1]، التى كانت تحتمى بدغل من الأدغال، خارجة للبحث عن ملاذ جديد، الأمر الذى أدى إلى تفريق رفاقى وتبعثرهم. وبلمسة صغرة من مشعابى[*] بدا لى وكأنى قصمت ظهر هذه السحلية، الأمر الذى جعلها تبقى أمامنا على الأرض بلا حول أو طول وهى تنظر إلينا، لكن عند هذه المرحلة لم تفلح الكمية الضئيلة من سائل الميثيل المخدر، الذى كان فى حوزتى، فى المحافظة على هذا النوع من الزواحف، وربما كان اليعسوب dragon fly هو أغرب حشرة صادفناها طوال اليوم، كما شاهدت أيضا ثلاث فراشات لكنى لم أمسك بها. كانت تلك الفراشات هى الأكثر روغانا من بين المخلوقات الصحراوية، وأنا لم أمسك إلا بواحدة فقط من تلك الفراشات طوال تجوالنا فى الصحراء.

شاهدنا فى أواخر فترة العصر رجلين فوق سلسلة رملية تبعد عنا مسافة كبيرة، وزعمنا أنهما من جماعة حمل الأمتعة والمؤن، وأنهما كانا يستطلعان وصولنا. بعد ذلك بدقائق قليلة وصلنا إلى المخيم، بعد أن قطعنا مسافة تقدر بأكثر من عشرين ميلا أثناء النهار فى مسار متعرج. كانت شناء على بعد حوالى خمسة عشر ميلا، فى اتجاه طيران الغراب، وعلى عمق حوالى ١٥٠ قدمًا أسفل منا. كانت المنطقة المسماة رملة

(١) يقولون لهذه السحلية "ورل" Waral أو "الرويلى" Ruwaili.

(*) المشعاب. عند النجديين هو العصا التى يستخدمها الجمال فى قيادة الجمل. (المترجم)

أبو ضلوع تقع على بعد مسير يوم فى اتجاه الجنوب - ورملة أبو ضلوع هذه عبارة عن سلسلة عالية من الكثبان الرملية فيها بعض السلاسل المنخفضة الممتدة ناحية الغرب إلى مسيفات(*) القعاميات. وبذلك ينتهى يومنا الأول بتحقيق شىء من التقدم، لكن الظروف كانت مواتية تماما، وتنبئ بحدوث أشياء أحسن وأفضل فى الأيام المقبلة.

عند الساعة الثانية صباحا بدأت قافلة الأمتعة والمؤن مسيرها؛ كيما تستفيد من ساعات الليل البارد، فى حين رحت أنا وقلة قليلة من الرفاق فى سنة من النوم لحين طلوع الفجر. شغلت نفسى بحزم أشيائى الخاصة فى الصباح. وفجأة نادى علينا صالح من فوق ربوة عالية خلفنا تشرف على السهل، يطلب منى إرسال نظارتى إليه، ويعلن علينا وجود أشياء تتحرك على بعد مسافة كبيرة، فشل صالح فى تدعيم تقريره، لكن الصحراء تحتم على من فيها أن يأخذ الإنذارات كلها مأخذ الجد - سواء أكانت إنذارات حقيقية أم زائفة - وعليه عجلنا فى تحميل أشيائنا والابتعاد عن المكان.

قبل ذلك بأسابيع عدة كان على الجهمان قد أسر لى بأنه يعرف مكانا عامرا بالأهداف فى هذه الأجزاء الجنوبية، وهنا أحسست أن الوقت قد حان لتذكيره بوعده لى بمصاحبتى إلى ذلك المكان. الواقع أن على لم ينس وعده لى. ولم يكن الرجل متأكدا تمام التأكد من المكان، لكنه تصور أن المكان لم يكن بعيدا عن المكان الذى نحن فيه. كان على الجهمان قد تحول جانبا مرة أو مرتين خلال اليوم السابق لفحص ودراسة الرقع الصخرية المكشوفة التى سبق أن مررنا عليها، وذلك من باب أن تكون واحدة منها هى المكان الذى يقصده الرجل، وعثرنا هنا وهناك على كمية صغيرة من الأصداف الحلزونية التى رأيناها فى شنَّاء. من هنا يتضح أننا كنا نتتبع مجرى نهر، أو نعبر دلتا من الدلتات، لكننا وعلى بعد مسافة ميل من مخيمنا، عثرنا على ما يشبه

(*) المسيف: بفتح الميم وتشديد السين وكسرها، هو الجزء الرئيسى أو المركزى من جبل أو سلسلة جبال. (المترجم)

من بعد الرقع الصخرية المتعددة والمكشوفة والتى سبق أن شاهدناها مرارا وتكرارا.
قال على الجهمان: هذا هو المكان، سألته: ماذا تقول؟ أجابنى: هذه هى الأصداف التى حدثتك عنها. لقد انقضت سنوات كثيرة منذ أن مررت من هذا الطريق وشاهدت هذه الأصداف. كنت عائدا من رحلة لصيد الوعل الأبيض فى القعاميات، ولذلك لم ألق بالا لمثل هذه الأشياء. لكنى تذكرت ذلك الانفعال الذى انتابنى جراء رؤية الأصداف فى الجيبان. واصلنا سيرنا راكبين إبلنا إلى أن وصلنا حافة رقعة الأرض المكشوفة التى لاحظت فيها بعض القواقع الحلزونية الصغيرة البيضاء المبعثرة هنا وهناك. وصلنا بعد مسافة صغيرة إلى رقعة من الأرض لاحظت فيها بعض القواقع ذوات الصدفتين[١] وهنا نزلت من فوق راحلتى. بقينا فى هذا المكان قرابة ساعة، رحت أجمع خلالها أصداف المياه العذبة بالمئات والآلاف، فى حين راح كشافونا يراقبون سلاسل التلال المحيطة بنا تحسبا للأعداء. ولم أعثر فى أى مكان على أى أثر لأى أداة من أدوات الصوان، مثلما حدث فى المنطقة الشمالية، لكن من الواضح هنا أن هذا المكان كان امتدادا لمجرى نهر قديم. بعد ذلك بحوالى ميل عثرنا على بقعة أرضية أخرى شبيهة بالبقعة السابقة لكن فيها قدر أو كمية متواضعة من رسوبيات الأصداف. وعلى امتداد ما يزيد على عشرين ميلا، كنت أعثر على دلائل وجود الماء العذب هنا فى الأزمان القديمة. لا تعليل لهذه الظاهرة سوى أننا كنا نستكشف المناطق السفلى من وادى الدواسر، وهذا هو ما جعلنى لا أتردد ولو للحظة واحدة فى التسليم بهذه النظرية، وادى الدواسر هذا هو ذلك النهر العظيم فى الأزمان السالفة، الذى كان يأتى من الأراضى المرتفعة فى كل من عسير واليمن، ليمر بكل من دام والسليل فى الصحراء الكبرى. فى أضعف الأحوال نحن نرى أن النظرية لا تتسق مع الحقائق المعروفة.
سألت على الجهمان، ما اسم هذا المكان؟ أجابنى: ليس له اسم وهنا اقترحت عليه أن نطلق على هذا المكان اسم أبو مهيرات(*) بمعنى "أبو الأصداف". لا تنس هذا الاسم،

(١) الاسم العلمي لهذا النوع من الأصداف هو unio terminalis – راجع الملحق.

(*) استعمل فيلبى كلمة "مهيرات" للتعبير عن القواقع النهرية، والصحيح هو "النهيرات". (المترجم)

وإنك قد تقول لمن يجيئون بعدى أن هذه الأصداف نهرية وليست أصدافا بحرية مثل تلك التى رأيناها فى جيبان، وأن النهر هو وادى الدواسر. قال واحد من أفراد الجماعة: إنه يتكلم كلاما لطيفا، ومع ذلك لم نعرف شيئا عن هذا الأمر إلى يومنا هذا لأننا بدو وليس لنا من المعرفة شيئا. كان على الجهمان يود الحصول على عباءة سعدان الذى كان قد أحضر معه عباءتين على أمل أن يبيع واحدة منهما لحسابه هو، وقد بلغنى أنهما كانا يتساومان على السعر، لأن على الجهمان صرح أن عشرين دولارا أكبر بكثير مما يستطيع دفعه ثمناً لتلك العباءة. قلت لسعدان: سأعطيك الدولارات العشرين، والمطلوب منك ألا تقول شيئا عن هذا الأمر لأى أحد من الناس. وعليه ركبت مع سعدان ونحن نغادر مكان ذلك الاكتشاف الكبير، وهنا اقترب منا على الجهمان ليتبين ما إذا كنت مسرورا من إرشاده لنا. سحبت العباءة من سرج جمل سعدان وناولت على الجهمان إياها. قلت له: هذه لك لكن حاول أن تعثر لى على المزيد من الصوان والأصداف إن كنت تعرف أماكن المزيد منها. رد على الجهمان قائلا: هذه هى حدود معرفتى، لكن لا تقل شيئا عن العباءة لإخواتى مخافة أن يحسدونى. وسوف أخفيها هذه الليلة عندما نصل إلى المخيم.

مضينا فى طريقنا. وراحت قنبرة صحراوية تحوم حولنا، وفرّت فى أحد الأجناب طلبا للسلامة. وظهرت لنا من جديد فراشة من فراش النوع الذى يسمونه Spindosis، ومررنا من مسارح القطرات الرملية المتكتلة إلى منطقة حض القعاميات المتموجة والتى فيها مسيفات القعاميات وردية اللون، والتى تشكل جدارا جبليا يمتد عبر الأفق الجنوبى. بدت لنا القمم الكبيرة وكأنها ترتفع إلى مسافة ٥٠٠ قدم فوق المستوى العام للصحراء، والتى يوجد فيما بينها، على حد قول على الجهمان، الأماكن التى ترتادها الوعول البيضاء، والمعروف أن الوعل الأبيض حيوان خجول ينتقل إلى مسافات بعيدة وبسرعة عبر السهب والصحراء بحثا عن الطعام، لكن هذا الحيوان يتراجع أو يعود مرة ثانية إلى الجبال الرملية، التى يصعب الوصول إليها طلبا للسلامة، واتقاء المفاجأة وتجنبا للمطاردة. تجاوزنا أيضا آثار أقدام جماعة مكونة من ثمانية أو عشرة أفراد مرت من هذا المكان مؤخرا، وكان أولئك

الأفراد من قبيلة سعار ومتجهين إلى شناء - وربما كانت تلك الجماعة التى أخافنا كشافوها، والذين خافوا منا قبل أربعة أيام. ثم عثرنا بعد ذلك على نبتات صغيرة من عشب الأنداب، الذى أنبأنا عن سقوط أمطار قليلة مؤخرا على هذه الأجزاء، كان لابد من التوقف إلى أن تأتى الإبل على ذلك التناثر الأخضر الرفيع من العشب الصحراوى. معروف أن عشب الأنداب هو أول الأعشاب التى تنمو عقب سقوط المطر مباشرة. أما الآبال فينمو بعد الأنداب مباشرة. أما القاء، والبركان والزهر فتحتاج إلى فترة أطول. ومن حيث الأهمية يأتى كل من الآبال والحض فى المرتبة الثانية. وأطول هذه الأعشاب عمرا هو الآبال إذ يعمر فترة طويلة فى فترات الجفاف. والبدو بحكم خبرتهم يستطيعون تحديد تواريخ المطر بدقة متناهية عن طريق النظر إلى أحوال تلك الأعشاب فى الصحراء.

مررنا على سلسلة من المنخفضات الشبيهة بالصحون والتى لها حواف ومنحدرات هينة، ومنها انتقلنا إلى قيعان صخرية من الجير أو الجبس وتتباين ألوانها من اللون الأزرق الضارب إلى اللون الرمادى، أى لون جبن الدورسيت Dorset - إلى اللون الأبيض واللون الرمادى - كنا نرى بعض هذه الرقع الأرضية من بعد وكأنها بحيرات شاسعة. بعض آخر من هذه الرقع الأرضية الصخرية كانت تبدو كما لو كانت مدرجات وسط الرمل الذى يحيط بها أو يغلفها، بعض ثالث من هذه الرقع الأرضية كان يبدو مسطحا ومستويا ومن فوقه غطاء من الحصى والزلط، الذى تتخلله هنا وهناك شظايا صخرية كبيرة.

مررنا من هذه الرقعة الحوضية إلى حباكة قعاميات التى هى عبارة عن رقعة من سلاسل الكثبان الرملية الممتدة فى اتجاه الجنوب الغربى، والشمال الشرقى، جنبا إلى جنب مع الوديان الضيقة التى بين هذه السلاسل الكثبانية الرملية التى يسهل التغلب عليها. على بعد حوالى نصف ميل من هذه المنطقة نجد سنام الحوار، التى هى عبارة عن منطقة من الكثبان الرملية المنخفضة، يطلقون عليها اسم "سنام صغار الإبل"، فى حين كانت سلاسل قعاميات العالية ما تزال تمتد

موازية لنا على الجانب الأيسر وعلى مسافة غير بعيدة! كان المنظر ساحراً بطبيعة الحال، لكنه كان بلا حياة! وعلى بعد مسافة كبيرة أمامنا، كان هناك نسر يحلق حولنا وحيداً وباحثا عن الطعام. كان هناك بالقرب منا غراب يراقب مرورنا عبر الصحراء، وهو جالس فوق قمة كثيب رملى، فى حين كانت قُبّرات الصحراء تظهر بين الحين والآخر. وهذا ثعبان طويل يميل لونه إلى الابيضاض، رافعا رأسه ومخرجا لسانه يمر من خلال الطابور المتقدم، وينزل على الجهمان من فوق جمله ويروح يطارد ذلك الثعبان أثناء هروبه إلى دغل من الأدغال المجاورة. كانت محاولة إمساك على الجهمان بذيل الثعبان عملية مسلية لكنها باءت بالفشل - وربما كان ذلك من حسن الحظ!

راحت سلاسل الكثبان الرملية المتوازية تتوحد تدريجيا مكونة بحرا عاصفا من الكثبان الرملية والسلاسل الجبلية غير المنظمة فيما عدا أن المنخفضات الشبيهة بحدوة الحصان كانت تبدو كأنها تواجه الجنوب الغربى بصورة منتظمة. وعند مطلع من المطالع المنحدرة، نزل على الجهمان، الذى كان يدلنا على الطريق، من فوق جمله، وراح يكشط الطبقة العليا من الرمل حتى يسهل لنا عملية المرور. كانت القمم الكثبانية الرملية ترتفع إلى حوالى ٢٠٠ قدم فوق مستوى المنخفضات، فى حين كان المستوى العام للمنخفضات الرملية هى والسلاسل الجبلية تقع فى منتصف الطريق بين الاثنين - توقفنا لأداء صلاة العصر وشرب القهوة فى منطقة المنخفضات الرملية المفتوحة، التى عثرنا فيها على قرون وعلة بيضاء ملقاة على الأرض، فى مكان يحتمل أن تكون قد نفقت فيه بسبب الجوع. كان طول القرن الواحد يقدر بحوالى ٢٩ بوصة. وظهر غراب آخر راح يتحرى أسباب توقفنا، وبعد ذلك بفترة قصيرة شاهدنا أثناء مسيرنا عبر المنخفضات الإبل التى كانت تحمل أمتعتنا ومؤننا وهى تمشى أمامنا. وأقمنا مخيمنا المسائى بجوار سلسلة تلال حباكة، التى حدد فراج - على مقربة منها - الجحر الذى يعيش فيه الثعلب الفينيقى، وأمسك بساكنى ذلك الحجر أحياء، وكانا عبارة عن ثعلب وأنثى الثعلب. وأمسك أفراد إبل النقل أثناء السير ثعبانا صغيرا، وفى تلك الليلة جذب وهج مصباح الضغط عددا كبيرا

من الفراشات[1] وبعض الحشرات الأخرى، بما في ذلك صرَّار الغيط الذي شاهدته لأول مرة في الربع الخالي. والذي أدهشني بحق، هو أن الفراش واليعاسيب كانت وفيرة إلى حد ما بين الحين والآخر، لكن لم يحدث أن شُوهد صرَّار واحد من صرَّارات الغيط في مكان يناسب نشاطاته من الناحية الظاهرية. وعندما دخلنا المخيم كنا قد رأينا آثار أقدام كروان stone curlew، لكننا لم نر الطائر نفسه. كنا قد قطعنا أثناء النهار مسافة تقدر بحوالي ٢٥ ميلا، لكننا في إجمالي اليومين كنا قد قطعنا ٤٦ ميلا فقط من المسافة الكلية التي تقدر بحوالي ٣٦٠ ميلا، التي يتعين علينا قطعها اعتبارا من منطقة شنَّاء. ومع ذلك كانت الظروف المناخية مواتية تماما إذ كانت درجة الحرارة تتردد بين درجة حرارة دنيا تقدر بحوالي ٤٦ درجة فهرنهيتية أثناء الليل ودرجة حرارة قصوى حوالي ٨٥ درجة فهرنهيتية في الظل أثناء النهار. كانت الشمس حارة في فترة العصر بطبيعة الحال، لكن من الصعوبة بمكان تخيل ليالٍ كاملة عامرة بضوء القمر، عندما يكون بدرا من فوقنا، ونحن في هذه الأرض القفر اليباب، في حين كانت مسيرات الصباح متعة فريدة للجميع. كانت روحنا المعنوية تنخفض عندما تقترب الشمس من كبد السماء، وكان رفاقي يمضون قلق فترة العصر وضجرها عن طريق الغناء الجاف الخالي من المتعة والفرح.

قطعنا في اليوم الثالث مسافة ٢٦ ميلا – وهو معدل سير لا بأس به وبخاصة عندما تكون الإبل محملة – مما تبقى من منطقة حباكة، ذلك النجد الأجرد من الرمال المتدحرجة، الذي انتقلنا منه إلى منخفضات الحُمْـرة الأكثر قحولة، والخالية تماما من أي نوع من أنواع الشجيرات الصحراوية، ثم دخلنا بعد ذلك إلى منطقة آبال الخادم العامرة بسلاسل التلال الشبيهة بالصدور المنتفخة والوديان الواسعة. وبعد أن بدأنا المسير مباشرة وصلنا إلى بقعة من الأرض الجبسية المكشوفة والصخور زرقاء اللون التي يضرب لونها إلى اللون الرمادي، والتي عثرنا

(١) قسم كبير من أنواع الفراش التي جمعناها من الربع الخالي يعد أنواعا جديدة على العلم. راجع الملحق.

فيها على انتشار كبير من الأصداف الحلزونية، ومن ثم أطلقنا عليها اسم أبو سبَّان. كان على الجهمان قد فتح نيران بندقيته على أرنب برى قمنا بشيِّه في الوقفة التالية لتناوله مع وجبة الأفطار، وأكلنا معه شيئا من التمر. كانت الريح فى ذلك الوقت تهب من الجنوب إلى الغرب، أى أن المنطقة حارة - وتتزايد قوتها شيئا فشيئا، وواصلنا سيرنا عبر أرض موحشة ذكرتني تماما بمنطقة جافورة. كانت حيوانات قافلة النقل تبلي هي الأخرى بلاء حسنا، لأننا لم نقطع سوى حوالى ثمانية أميال عندما وصلنا إلى المكان الذى أدت فيه جماعة المقدمة صلاة الفجر وأنعشت نفسها بشرب شيء من القهوة. بعد ذلك بوقت قصير رأينا جماعة المقدمة عن بعد لكن وقفتنا الطويلة لتناول طعام الإفطار جعلتهم يسبقوننا مرة ثانية، ولم نرهم بعد ذلك على الرغم من غروب الشمس علينا، ورحنا نُسَرِّع خطانا فى تلك الوحشة الآخذة فى التزايد. وبدأنا نتساءل حول ما إذا كنا قد ضللنا طريقهم نظرا لأن الريح كانت تهب علينا، ومحت كل أثر من آثارهم، لكننا رأينا فى نهاية المطاف نارا كبيرة مشبوبة فى الأمام، وسرعان ما لحقنا برفاقنا فى المخيم فى حوالى الساعة السابعة والنصف مساء، كان يومنا متعبا لنا جميعا، وكان هناك قدر كبير من الحوار الغاضب داخل المخيم، وهذا هو دوما حال المتعبين والجوعى والغاضبين، لكن الأمر لم يتجاوز ذلك الحد، كان يمكن لهؤلاء الرفاق أن يكونوا راضين تماما لو أنى وافقتهم على السير أثناء الليل طوال الوقت، لكن ذلك كان أمرا مستحيلا. لقد جئت أصلا لرؤية هذه الأرض وهذه المنطقة، لم يكن هدفى الأساسى هو عبور هذه المنطقة وحسب، يضاف إلى ذلك أنى كنت أحظى بدعم ومساندة أولئك الذين مازالوا يتطلعون إلى رؤية الوعل الأبيض واصطياده. كنا فى أحيان كثيرة طوال النهار، نصادف روثا قديما وأثرا قديما أيضا لذلك الحيوان، وفى فترة العصر مررنا على مساحة كبيرة من شجيرات الآبال التى كان زوج من الوعول يرتاحون فيها من حرارة النهار - وربما كان ذلك بالأمس، أو قبل ذلك بيوم أو بيومين. قال على الجهمان: تشمم الروث، وراح يناولنى كمية قليلة من روث ذلك الحيوان، بينما وقفت أنا لأستطلع المكان، إن له رائحة مثل رائحة المسك، رائحة لطيفة جداً للأنف، شاهدنا آثارا أخرى لذلك الحيوان فى مكان آخر، هذا الأثر عمره حوالى

أربعة أيام، وهو يدل على زوج من الحيوانات البالغة الكبيرة ومعها وليد صغير – بدأت روحنا المعنوية فى الارتفاع، وكنا نتطلع إلى شىء أفضل فى صباح الغد. وبذلك تكون خططنا تسير على ما يرام، وبدأت جماعة المقدمة سيرها من جديد عند الساعة الثالثة صباحًا.

كنا قد جمعنا بعضا من السحالى أثناء النهار. شاهدنا غرابين، وقلة قليلة من القبَّرات، وعددًا صغيرًا جدا من طائر المُغنِّى، تلك المخلوقات الصغيرة الجميلة التى كانت تلعب معى الغميضة وسط أغصان شجيرات الأبال، وكانت تنتقل من ملاذ إلى آخر كلما تجرأت فى البحث عنها (نظرا لأن بندقيتى كانت غير صالحة للعمل). كان مهما لى أن أرى كيف تطير هذه الطيور الصغيرة من شجيرة إلى أخرى دون أن يراها أحد، على شكل تحركات رشيقة بالقرب من سطح الأرض – متحاشية بذلك عين الصقر وعين الغراب الحادة، شاهدت أيضا فراشة من نوع Spindasis ويعسوبين، وعثرنا فى أحد الأماكن على قرون غزال ميت من غزال الريم. راحت الريح تدوِّى فى الجنوب وارتفعت درجة الحرارة. ثم سكتت الريح تماما فى فترة العصر، وتسلطت الشمس علينا بلا رحمة. قال على: الربع الخالى الذى حدثوك عنه، هذا هو! المطر لم يسقط هنا منذ ثلاث سنوات، ولن ترى نبات الزهر بعد ذلك إلى أن تصل إلى حرامليا – التى تبعد عن هنا مسير خمسة أو ستة أيام. الواقع أن المشهد هنا كان يبابا وخاليا من الشجيرات الصحراوية اللهم باستثناء قلة قليلة من هذه النباتات، وكانت الشمس فى وجوهنا طوال الساعتين السابقتين للغروب. كنا نحس وكأننا نسير أو نمشى فى فرن لافح.

بدأنا اليوم الرابع بإحساس من التوتر والأمل. جرت أثناء الليل مناقشة مسألة تخلينا عن مهمتنا، كما أعطى عدم تعاطفى أو إشفاقى على الإبل المتوترة الفرصة لفراج كى يلقى علىَّ محاضرة فى هذا الموضوع. قال فراج: عندما يكون جملك بخير فأنت بخير أيضا، وإذا ما ذوت الناقة ذويت أنت أيضا. قلت له: هذا صحيح تماما، لكن أنتم أيها الناس الذين لا يفكرون مرتين فى ذلك التوتر. نحن يتعين علينا عبور هذا

الربع الخالي، وأنا أركب راحلتي وأسير في خط مستقيم لا أفكر في التراجع أو الانحراف. لكن انظروا على سبيل المثال إلى كل من زايد وصالح، اللذين ركبا راحلتيهما وبعدا عنا، وهما يقتفيان أثر وعل من الوعول البيضاء. هما يركبان راحلتيهما طوال النهار أثناء مطاردتهما للطرائد، ويعودان إلينا بخفي حنين مع حلول الليل، يعودان إلينا محبطين ومتعبين. ثم يروحان يتحديانى فى عناد وإصرار ويودّان العودة إلى الماء. هذا هو دائما أسلوبكم.

عقب بداية مسيرنا اليومي وقبل تجاوز منطقة أبال الخادم إلى منطقة حضة القطا الجرداء – الفارق الوحيد يتمثل فى ندرة شجيرات الحض وسط شجيرات الآبال والقاء – عثرنا على آثار أقدام أربعة وعول، وتحرك رجالنا شوقا لمطاردة تلك الوعول والبحث عنها. اقترب مني زايد طالبا مني السماح له بقص تلك الآثار، وسعدت تماما لفكرة تخلصى من صحبته بضع ساعات. رددت على صالح أن بوسعه أن يشرح صدره ويوسعه، وانصرف الاثنان بخطى منتظمة سرعان ما أدت إلى اختفائهما عن أنظارنا من ناحية الجنب. كان على الجهمان هو الآخر قد طلب شيئا مماثلا. قال على دون أن يكون صادقا فى كلامه: اسمع يا أنت، لقد وصلنا إلى نهاية المكان الذى أعرفه. وأنا لا أستطيع إرشادك بعد هذه المنطقة، لكن ابن حميد يعرف المنطقة كلها وأنا أستطيع الانصراف للبحث عن وعل أبيض لك. رددت عليه: أنا يمكننى الاستغناء عن الوعل الأبيض، وأريدك أن ترافقنى. وعليه واصل على الجهمان سيره فوق راحلته وهو مستاء فى مقدمة الجماعة، فى حين فرح فراج لقيامه بخدمتى.

بعد مضي ساعة واحدة مررنا على المكان الذى أدت فيه جماعة المقدمة الصلاة وشربوا القهوة. كانت الساعة التاسعة صباحا وهذا يعنى أن جماعة المقدمة لابد أن يكونوا تركوا هذا المكان قبل ساعة ونصف الساعة، ومع ذلك كان مع أثرهم أثر آخر حديث لوعل كبير! كان ذلك شيئا كبيرا لنا جميعا. وراح الرجال يقصون الأثر بصوت عال – وكيف أن ذلك الحيوان الكبير جاء من الشمال معتمدا على قضم شجيرة هنا وشجيرة هناك على امتداد هذه المسافة الطويلة: وكيف أن هذا الحيوان وقف مشلولا

مدة لحظة عندما وصل إلى المدق(*) الناتج عن سير إبل حمل الأمتعة والتموينات: وكيف أن هذا الحيوان فر هاربا بحياته من رائحة وعلامات الخطر. وهنا رجاني علي الجهمان والدموع في عينيه أن أسمح له بتتبع أثر ذلك الوعل، ووافقته على طلبه. وتوسل فراج هو الآخر، ووافقت مؤنبا إياهما بأنهما سيتركوننى وحيدا فى نهاية المطاف.

عاد فراج إليّ مسرعا، محتجا بأنه لا يطيق أن يتركنى وحدى. قال فراج: انتبه نحن لا يمكن لنا أن نخلِّف عائلاتنا وراءنا ونأتى فى هذه المهمة إلا لسببين: الأمل فى الربح والخوف من العقاب، أنا لا أرغب فى شىء سوى خدمتك، لكن زايد هو وعلى الجهمان هما الملومان فى كل متاعبنا.. وأنت لا يرضيك أن يؤثر سلوكهما فينا جميعا ويضر بنا. خبِّرنى بما تريده وسوف أنفذه. كان فراج الشخص الوحيد المفتقر إلى الذكاء بين أفراد الجماعة – كان دائم المقاومة، لكنه دائم الأسف والندم، ودائم الندم لكنه مقاوم وعنيد – لكنه كان أكثر أفراد الجماعة صراحة فى مسألة الأنانية الساذجة. كنت قد استثرت فى فراج جشعه فى مساء اليوم السابق، عندما أعطيته مبلغا صغيرا نظير الجهد الذى بذله فى الإمساك بالثعلبين – ونظير العضة التى أَصابت إصبعا من أصابعه. والتى استفاد منها إلى أبعد حد ممكن بلا أى خجل.

واصلنا سيرنا فوق التلال وفى الوديان. وكانت تسترعى انتباهى بين الحين والآخر، بعض الرقع الأرضية الصخرية التى يميل لونها إلى الزرقة فى قاع وادى من الوديان. ومع مواصلة السير تبدأ الحياة النباتية فى الانحسار، وكل ما شاهدناه منها كان فى حالة موات. وسرعان ما بدت لنا المنخفضات المتدحرجة جرداء وقاحلة تماما، وكانت أشعة الشمس تتوهج فى تلك المنخفضات الأمر الذى جعل رمالها تتوهج بلا رحمة فى وجوهنا من جديد. كانت الرمال العالية تحدث بين الحين والآخر نوعا من السراب شبيه بألواح الزجاج. لم نر حتى ولو طائرًا واحدًا طوال اليوم، على الرغم من

(*) المدق: هو الطريق الناتج عن سير البشر والإبل والدواب الأخرى فى الرمال أو الأراضى الطينية. (المترجم)

سماعي صوت واحدة من القبرات. وأدهشني أن أرى يعسوبًا في مكان كهذا، وشاهدت الفراش ثلاث مرات - وهو يحدث ظلا استرعى انتباهي للحظة ثم يختفي بعد ذلك في الضوء المنعكس بفعل الرمال. كانت هناك أثناء مرورنا سحليتان بشعتا المنظر في تلك النار الرملية، وجرى الإمساك بهما، ووضعهما في واحدة من قواريري الجاهزة بصورة دائمة.

مررنا من حضة القطا إلى خلة الحواية عند الظهر - وهي عبارة عن منخفض شاسع من ضلوع رملية مستديرة من الرمل الناعم تمتد من الجنوب إلى الغرب ومن الشمال إلى الشرق، كالعادة، وتتخللها كثبان رملية مرتفعة تُغَيِّر من رتابة المكان. كان السير مريحا، لكن الحرارة كانت شديدة. توقفنا عن الساعة الثانية بعد الظهر أمام رقعة مكشوفة من صخر الأديم لنيل قسط من الراحة. فردت عباءتي فوق أغصان دغل من شجيرات الأبال، وكشطت طبقة الرمل الساخن لأصنع لنفسي مضجعا في الظل رحت في النوم، إلى أن أيقظوني لشرب القهوة، ثم أدينا صلاة العصر قبل استئناف السير.

يقع على بعد مسافة كبيرة منا في اتجاه الجنوب خط حباكة الطويل، الذي سبق أن عبرنا طرفه الشمالي في اليوم السابق، أما مرتفعات القعاميات فتقع إلى الخلف من ذلك الخط، وعن شمالنا توجد سلسلة تلال الحواية التي تمتد مسافة مسير يوم ونصف اليوم إلى منطقة بني جلاَّب، التي تقع الجلادة[1] (ذلك السهل الزلطي ظاهريا) في الناحية الغربية منها، ومعها حباكة الشمالية (حباكة فراجة) التي تقع على الجانب الشمالي من الجلادة. تغير طابع المنخفضات بصورة متدرجة ليكوِّن سلسلة من التلال الرملية شبه المتوازية (تمتد دوما من الجنوب إلى الغرب ومن الشمال إلى الشرق)، التي عبرناها في تتابع مرهق على مراحل طول كل منها حوالي ربع ميل تقريبا. زادت حرارة الجو مع دخول فترة العصر؛

(١) الأرجح هو أن جلادة، ربما تكون ساهمة أو راعلة، راجع الصفحة رقم ٣١٦ (الأصل الإنجليزي).

الأمر الذى أدى إلى تدنى روحنا المعنوية. ومع ذلك كان يهب علينا بين الحين والآخر نسيم قادم من الشرق، يذكرنا بدخول الليل واقترابه. كانت درجة الحرارة فى الظل فى أشد ساعات النهار حرارة تقدر بحوالى ٩٣ درجة فهرنهيتية، لكنها عند الساعة العاشرة مساء كانت حوالى ٦٥ درجة فهرنهيتية وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة فى المخيم حوالى ٥٠ درجة فهرنهيتية. خيمنا عند الساعة الخامسة مساء بالقرب من الحافة الغربية لخلة الحواية، وبدأ صيادونا يتقاطرون عند غروب الشمس؛ عادوا بخفى حنين من مهمة الصيد التى اضطلعوا بها. كانت الإبل قد أحست توتر النهار، إذ كانت تسير فى أرض قاحلة خالية من المرعى، لكن دار حديث بين أفراد الجماعة عن عدم الاستسلام. نحن الآن على بعد حوالى مائة ميل من شناء، والمسافة بيننا وبين أى مصدر من مصادر الماء لا تقل أيضا عن هذه المسافة، فى حين وضع كل من زايد وعلى الجهمان خطة الغد لتكون على هواهما. وبناء على تلك الخطة بدأت جماعة المقدمة، أو إن شئت فقل جماعة إبل حمل المؤن والتموينات، تحركها عند الساعة الثانية صباحًا، وبعد انتهاء الجلبة والضوضاء التى تصاحب ذلك التحرك، نمت فى سلام فى الصحراء الباردة، فى حين بدأ القمر يختفى سالكا طريقه فى سماء شبه خالية من النجوم.

صحوت كالعادة قبل طلوع الفجر، وعلى ضوضاء قهوة الصباح مع التمر، وبعد الصلاة أعلنوا عن فقدان جملى زايد وعلى الجهمان. بعد عودة الإبل فى ساعة متأخرة مساء أمس تركوها ترعى فى ضوء القمر، وبالتالى ضلت طريقها. أضعنا ساعة فى البحث عن هذين الجملين – هذه ساعة ثمينة من ساعات المهمة النهارية – وعندها اقترحنا واتفقنا على أن تبدأ الجماعة فى التحرك على أن نترك محيميد ومعه جمل واحد، محمل بالماء والغذاء، ليكون مع زايد وعلى الجهمان، اللذان سيقومان باقتفاء أثر جمليهما ثم يلحقان بنا. ربما يكونان أيضا قد أفادا من خططهما التى تبينت لى تفاصيلها على نحو جعلنى أعلق عليها. ربما سيقومان اليوم بمطاردة واحد من الوعول المراوغة – والأهم من ذلك كله – أن خططنا المستقبلية سوف يعاد النظر فيها؛ إذا ما فشل هذان الرجلان مرة أخرى. بدخول الليل علينا سنكون على مقربة من الماء

الأمر الذى يسمح لنا بالعودة، وإذا ما أخذنا ذلك بعين اعتبارنا سوف يتضح لنا المنظور الكئيب الذى ستكون عليه أحداث النهار فى اليوم التالى. وفى ذات الوقت لم يكن هناك مفر من محاولة الاستفادة من هذا الموقف السيئ والتطلع إلى ما هو أحسن - لكنى فيما بينى وبين نفسى كان يراودنى إحساس مفاده أن زايد هو وعلى الجهمان قد لا ينجحان فى هذا المسعى الأنانى. وعليه بدأنا سير اليوم الخامس وقد ركب فراج الجمل الذى يحمل صناديقى، فى حين كان ابن حميد يقوم بدور المرشد، أما صالح فكان يقوم بأداء الخدمات التى تطلب منه. مضت الأمور على ما يرام، ونكتنا وضحكنا، وعيّنا فراج فى منصب الإمارة علينا، ذلك المنصب الذى شغر بغياب زايد، كما عينّا صالحا نائبا له. وعرضت المراهنة على مبلغ كبير فى أن الصيادين سيعودون محبطين. ونحن فى الوقت نفسه قد نسعد لغياب هؤلاء الصيادين. والواقع أننا كنا سعداء تماما عندما سرنا عبر المنخفضات السهلة المتدحرجة الجرداء، التى تتخللها عن بعد مسافات كبيرة من سلاسل من التلال الرملية التى تبلغ من الانخفاض حداً يصعب معه ملاحظتها. واتضح لى أن فراج جعل من صناديقى مجثما غير مريح له، بغية أن يثبت لى رغبة فى خدمتى، وأنا بدورى رحت أمازحه، مشيرا إلى سيطرته علينا جميعا كما لو كان جالسا على عرش مرتفع. قلت: أعتقد أن كل شىء سيكون على ما يرام إذا ما سرنا دوما بدون زايد وعلى الجهمان! أنت وصالح يمكن أن تتناوبا على مركز الزعيم وتعتليان العرش، مثلما كانت تركب العذراوات العربيات، فى الأيام الخوالى، فى صندوق ويقدن مقاتليهن القبليين أثناء المعارك. تدخل صالح على وجه السرعة وقال : أنا راض تماما عن ترك هذا الشرف لفراج، وأنا أستطيع خدمتك على نحو أفضل فى الإمساك بالسحالى، أو مرافقتك وأنت تجمع الصخور والأصداف - وربما الصوان أيضا - من قيعان الوديان القاحلة التى على الطريق. وبين الحين والآخر، وعندما كان ينتهى الحوار كانوا يبدأون فى الغناء لكسر صمت الصحراء.

بعد ساعة من الزمن دخلنا منطقة قصبة الحواية، وفيها أشار رفاقى لى فيها على عشب القصب الذى يميز هذه المنطقة عن المناطق السابقة. قال ابن حميد، بعد سقوط المطر الغزير يتحول هذا المكان إلى مرعى طيب، ويأتى العرب إلى هنا

ومعهم ماشية الحليب بحثا عن الوعل الأبيض. ويبقون فى هذا المكان إلى أن تصبح الإبل بحاجة إلى الماء، أما العرب أنفسهم فيعيشون على الحليب وحده هو واللحم الذى يحصلون عليه من الطرائد. لكن عظماء العرب هم الذين يفعلون ذلك - العرب من أمثال ابن نفل وابن جهمان وابن سويليم. إنها حياة شاقة.. لكن هذه الأجزاء من الأرض لم تشهد المطر منذ حوالى سبعة أو ثمانى سنوات، ولا أحد يأتى إلى هذه الأماكن فى أيامنا هذه. وتحولت المنطقة تحولا متدرجا إلى كثبان رملية أكثر تموجا واستدارة، وإلى سلاسل من التلال الرملية المنخفضة. لكن المدهش أن الأرض هنا قاحلة وجرداء.

توقف نسيم الصباح الباكر الخفيف العليل، لكن بقى الحال على ما يرام مدة ساعة أو ساعتين، على الرغم من سكون الهواء سكونا مميتا. كان ذلك الصمت - الذى انكسر مرة واحدة بفعل شقشقة قُبَّرة واحدة - مدهشا، وتوحدت الكثبان الرملية هى وسلسلة التلال مكونة بحرا من الأمواج غير المنتظمة، تكسرت وتداعت بفعل تصارع رياح الصحراء. وعلى بعد مسافة قصيرة، كانت هناك فى الناحية الجنوبية، مجموعة من الكثبان الرملية وعلى بعد مسافة قصيرة، كانت هناك فى الناحية الجنوبية، مجموعة من الكثبان الرملية المرتفعة وردية اللون، تشرف على المنظر بكامله، ومررنا على آثار أقدام وروث وعل وحيد أبيض، عبر هذه المنطقة الجرداء قبل يومين باحثا عن مراعى فى أقصى الشمال.

يظهر لنا فجأة غور منخفض، قاع وادٍ كبير يشق المنخفضات المتدحرجة القادمة من الجنوب الغربى ومتجهة إلى الشمال الشرقى. شاهدت فى مجرى هذا الوادى سلسلة طويلة من رقع صخرية مكشوفة من صخور الأديم التى أبعدناها عن طريقنا حتى يتسنى لنا البحث عن الأصداف والقواقع. لم نعثر على شىء من الأصداف أو القواقع وصعدنا إلى أعلى المنحدر الطويل الموجود فى الخلف، لندخل عند قمته المنطقة المعروفة باسم حضة الحواية، التى هى رقعة من الوديان العميقة وسلسلة من التلال العالية، التى تمتد على شكل خطوط متوازية إلى مسافة ٤٠ أو ٥٠ ميلا فى اتجاه الغرب إلى منطقة الشويكيلة. لاحظنا هنا أن شجيرات الحض

عادت إلى الظهور من جديد بعد طول غياب، لكنها ميتة شأنها شأن الأشياء الأخرى كلها، على الرغم من أن خصلات النباتات الخضراء التى كانت تصادفنا بين الحين والآخر، كانت تبث فينا آمالا سرعان ما باءت بالفشل. عندما أشرفنا على وقت الظهيرة كانت أشعة الشمس تتوهج من حولنا ومن فوقنا بلا هوادة، وأصبح من السهل علينا تصديق مقولة إن المطر لم يسقط مطلقا على هذه المنطقة طوال عشرين عاما أو أكثر. كانت شجيرات الحض الجافة قد جمعت حولها أكواما من الرمال حول أعرافها شبه المدفونة، وحتى شجيرات الآبال القوية، التي هى الأطول عمرا بين النباتات الصحراوية، لم تنج هى الأخرى من ذلك الجفاف.

كانت جذور الآبال الطويلة تنتشر بعد أن إسودت فى التربة الرملية من حول تذكارات أجمات كانت كبيرة ووارفة فى يوم من الأيام، وتفصح أغصانها المتبعجة والمشوهة عن الآلام والأوجاع التى أصابتها فى نهاية المطاف بعد كفاح شجاع. راح الجفاف والجوع يطعنان الأرض بسيوف مشهرة هى فى حقيقتها نيران ذات لهب، تنفث علينا حرارتها نحن الذين تجرأنا على الدخول إلى منطقة هذه الشجيرات. كان المشهد مؤثرا، لكنه كان يصيب بالاكتئاب، الأمر الذى غلبنى على أمرى، بل ربما كان إنذارا مسبقا لى بالفشل. واصلنا مسيرنا فى صمت عبر سلسلة لا نهاية لها من الوديان وسلاسل التلال، أملا فى أن تدخل كل قمة من القمم السعادة إلى نفوسنا مع رؤية المراعى من أمامنا، لكن ذلك الأمل ذهب أدراج الرياح. ومع ذلك كان المنظر الطبيعى يسر الخاطر - وديان الحواية ومنخفضاتها المتدحرجة، التى تتجرأ على العيش فى مثل هذه الظروف العجيبة، كما يشن ذلك الغراب الحرب أيضا على القبرات والسحالى وطيور المغرد صغيرة الحجم.

خطر ببالى، أثناء سيرنا خلال مختلف أحزمة هذه الصحراء الرملية الكبيرة، أن الحدود المرسمة لكل من الحض، والقصبة والحمرة[1] والخلة، وما إلى هذه

(١) حمرة، وحمرور (والجمع حماير)، هذه الأسماء لا تستخدم إلا فى وصف الرقع الرملية الخالية من أى نوع من الحياة النباتية.

النباتات، لابد وأن تعكس بشكل أو بآخر الطبيعة الكيماوية لهذه الرمال نفسها أو طبيعة التربة والماء الموجود تحتها. هذا يعنى أيضا أن كل نبات من هذه النباتات له حياة شبه محددة تعتمد على معدل سقوط الأمطار، فمنها من تبعث فيه الحياة بفعل أقل القليل من الأمطار، وتستمر على قيد الحياة طوال العام متحدية بذلك الظروف والأحوال الصعبة، فى حين تأخذ النباتات الضعيفة فى الذبول إلى أن يغريها المطر الغزير فتنبت من جديد، ثم تذوى مرة ثانية عندما يبدأ الجفاف عمله وتشتد سطوته. لكن الدراسة المنظمة للنباتات نفسها وللرمال وصخر الأديم الذى يكون التربة الصالحة لهذه النباتات سوف تسفر عن نتائج شيقة ومهمة، وبخاصة إذا ما جرى ربط هذه الدراسة بدراسات أخرى مماثلة، أو بدراسات مناطق النباتات المماثلة لهذه النباتات فى الصحراء والمناطق الصحراوية الأخرى فى العالم، العين غير الخبيرة لا يمكن لها اكتشاف أى تفسير ظاهرى أو مرئى لظاهرة المنطقة. هذه العين غير الخبيرة لم تلاحظ سوى بدايات ونهايات أحزمة الحض، التى تنتشر خارجها أحزمة نباتات الخلة التى تتخللها شجيرات الآبال. أو الحمرة مع بعض المناطق الصغيرة من القصبة والبركان .

فى غضون فترة زمنية تقدر بأربع ساعات استطعنا عبور وديان كثيرة وقنوات محددة تحديدا جيدا فيما بين سلاسل التلال الرملية العريضة المنحدرة تحدرا هينًا. فى كل حالة من تلك الحالات كانت الريح قد عَرَّت المجرى؛ مما أدى إلى انكشاف بقاع الصخر الجيرى الموجود أسفل هذه الرمال، وقد جمعنا عينات من ذلك الصخر الجيرى برغم فشلنا فى البحث عن الأصداف والقواقع والحفريات. عثرنا هنا وهناك فى المنخفضات الرملية على أنابيب غريبة رقيقة[١] من الرمل المتخثر، الذى يعتبره رفاقى إشارة أو علامة على وجود تربة حاملة للماء أسفل المنطقة المجاورة لهذه العلامات، وهم غالبا ما يعثرون على هذه الإشارات أو العلامات بالقرب من الآبار المعروفة. وقد ثبت

---

(١) راجع الملحق.

أن هذه الرمال من النوع الذى يطلقون عليه اسم المومضات، أو إن شئت فقل: عصا البرق، التى تشكلت بفعل انصهار الرمل بفعل البرق والتصاق الرمل بالكتلة المنصهرة على نحو يشكل منه أنبوب رفيع. عيناتنا هذه تعد مجرد أنفاق صغيرة إذا ما قارناها بالعينات الكثيرة الأخرى في المتحف البريطاني، لكن وجود هذه العينات أو الأنواع فى صحراء لا تسقط عليها الأمطار أو تكاد، هو الشيء اللافت للنظر.

بعض هذه السلاسل من التلال الرملية تسطحت عند قممها، متحولةً بذلك إلى هضاب ذات طبيعة متعرِّجة تعرجًا هينا وتموجات ضحلة، وركام من التراب والحجارة على شكل كثبان رملية منخفضة ومستديرة على شكل مجموعات كبيرة. هذا المكان كان عبارة عن أرض قاحلة جرداء بشكل لا يمكن تخيله، وقد توترت أعصابنا بسبب مواجهتنا لهذا الجدب ساعة بعد أخرى، ونحن نحاول المضى قدما أثناء حرارة الظهيرة الخانقة، فى المدق الذى أحدثته لنا إبل الحمل التى كانت تسبقنا، لم يحدث أن توقفنا ولو للحظة واحدة منذ بداية المسير وأظن أن الوقت قد حان لعمل وقفة قصيرة نلتقط فيها أنفاسنا، مع شيء من القهوة التى تنعش قلب الإنسان. كنا قد عبرنا الوادى الثالث ورحنا نتسلق ببطءٍ المنحدر الطويل الموجود فى الخلف لنصل إلى قمة السلسلة التى ألقينا منها نظرة على وادٍ آخر تقع خلفه بعض المنخفضات. كان اتجاهنا العام غرب شمال غرب، لكن مسارنا أصبح الآن متجها صوب الشمال، عندما رُحْنَا نمسح الأفق من أمامنا، ورأينا خيال خيمة من الخيام فى مواجهة سلسلة من السلاسل البعيدة، كان واضحا أن تلك الخيمة واحدة من خيامنا، التى جرى نصبها لأول مرة بعد أن غادرنا شناء، وسبب ذلك أننا تخلينا عن كل المتاعب والراحة غير الضرورية لا لشيء سوى توفير الوقت. نصب الخيمة ينبئ بسوء، والتغيير المفاجئ للمسار يعد نذير شؤم هو الآخر. كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار بفترة وجيزة، ورحت أصب جام غضبى على جماعة النقل بسبب سيرهم البائس البطيء. وهذا هو فراج صاحب العقل الخفيف يستقبل غضبى بطريقة هستيرية. قال فراج: نحن نتعب عليك بلا طائل، نحن نجهد الإبل إلى حد تكسيرها – كل ذلك بلا جدوى. أنت دائما غير راضٍ وتنقدنا بصورة مستمرة. هل تريد منهم مواصلة السير ونحن فى عز الظهر؟! إنهم للعلم يرتاحون مدة

ساعة أو اثنتين. ومع ذلك كان فراج يعرف - مثلما أعرف أنا بحكم الفطرة - أن نصب الخيمة ينذر بما هو أكثر من الشؤم - وربما كارثة. ألا يصح للمرء أن يكون ناقدا، وأن يأخذ حذره عندما يكون بصحبة رفاق على استعداد للتضحية بالمشروع كله من أجل راحتهم؟ العرب في مثل هذه الظروف لا يرقون إلى هذا المستوى. العربي يتمسك بالحياة تمسكا شديدا، بغض النظر عن بؤسه وشقائه، وعندما يجد أن حياته يتهددها الخطر تخور قواه ويفقد صوابه - الطمع وحده هو الذي يمنع العربي من الهرب- ويمكن بصورة متدرجة إعادته إلى موقف عقلاني إذا ما جعلناه يحس أن متاعب الماضي كلها قد تكون فانية إذا ما امتنع هو عن متاعب المستقبل. في شناء كان الخوف يتمثل في الأعداء المتمردين، ولقد استسلمت لذلك عن رضا تام، على الرغم من أن ذلك الاستسلام لم يخلُ من المقاومة، كنت قد حاولت ونحن سائرون في الطريق رشوة على الجهمان بطريقة مباشرة، ولكني لم أفلح في ذلك، حاولت رشوته كي يتجه بنا جنوبا، قبل فوات الأوان، لكنه امتنع مخافة أن يجر على نفسه عداء رفاقه. ونحن الآن في صحراء خالية من الماء، والتخوف من العطش والموت هما اللذان حولا هؤلاء الرجال إلى نساء. أما أنا فلن استسلم، ولا يمكن أن استسلم. لقد قطعنا ١٤٠ ميلا. هذا يعني أننا مشينا ثلث المسافة المطلوبة، وأن الجهد المنظم المثابر يمكن أن يجعلنا نقطع المسافة كلها إذا ما تصرف رفاقي تصرف الرجال. واقع الأمر أن رفاقي كانوا محبطين وضعفاء بسبب الجوع إذ إننا لم نأكل شيئا سوى التمر منذ مغادرتنا شناء. أنا نفسي كنت جوعانا، ومن ثم كنت متعاطفا مع حالهم. أحسست كما لو كنت (سيدنا) موسى عندما كان في الجبل وثار عليه قومه، لكني لم أستطع جلب الماء أو المن.

واصلنا سيرنا متجهين صوب الخيمة البعيدة. وفي غضون نصف ساعة وصلنا إلى المخيم، لنسمع أن خمسةً أو ستةً من إبل الحمل قد تدهور حالها بسبب العطش والجوع، والإرهاق، كان واحد من تلك الإبل في الخيمة في ذلك الوقت، في حين كان جملان آخران أو ثلاثة تعاني الآلام نفسها، عندما أحضروها في الوقت المحدد من الصحراء وعليها الأحمال التي أنزلوها من عليها مؤقتا تخفيفا للتوتر الذي ألم بالإبل.

كان الموقف خطيرا بحق وحقيقة، الأمر الذى أدى إلى إعادة النظر فى خططنا. هذا يعنى أن هناك أزمة تهددنا، لكن لابد من خوض المعركة التى لن تنتهى إلا عند منتصف الليل، وهذا هو مبعث قلقى واستيائى.

نصبوا خيمتى بالقرب من الخيمة الأخرى عندما وصلنا إلى المخيم، لكنى بعد أن رتبت أغراضى داخل الخيمة، سارعت بالانضمام إلى رفاقى الذين كانوا فى حالة نفسية سيئة ومتمردين وثائرين بطريقة واضحة، وراحوا يعزون ذلك الذى حل بنا أثناء النهار لإصرارى من ناحية على القيام بهذا المشروع، والسير أثناء الحرارة الشديدة من ناحية أخرى. حاولت أن أكون تصالحيا فى هذه الظروف، وأوضحت لهم بلطف أن السير أثناء الليل كان يمكن أن يفسد مشروعنا كله، وواصلت كلامى وقلت لهم: إنى عندما كنا فى شناء اقترحت تقسيم قواتنا ونقل أمتعتنا الثقيلة كلها عن طريق الطرق السهلة القريبة من الآبار، على أن تصل الإبل إلى الرياض أو الهفوف، وبذلك يتسنى لنا عبور الصحراء الخالية من الماء بجماعة خفيفة مزودة تزويدا حسنا بالمعدات. وقلت لهم: إنهم هم الذين جروا علينا الحال السيئة التى نحن عليها حاليا لأنهم أهملوا العمل بنصيحتى. كنت قد حذرتهم أيضا فى شناء أن الرحلة قد تستغرق ما لا يقل عن خمسة عشر يوما، فى الوقت الذى تعلقوا فيه بتقدير ابن سويليم المتفائل الذى حدد المسافة بمسير أحد عشر أو اثنى عشر يوما. وأنهم يتعين عليهم تحمل المسئولية عن خيبة أملهم. لقد قطعنا بالفعل ثلث المسافة فى ثلث الوقت بالضبط الذى حددته أنا، وبالتالى لم يكن هناك أى مبرر للتخلى عن المشروع. وأنا لن أوافق مطلقا على ذلك، وسوف أواصل السير وحدى إذا اقتضى الأمر ذلك، وبوسعهم العودة ليقولوا لسيدهم أنهم تخلوا عن ضيفهم فى الصحراء - واصلت كلامى قائلا: والآن طريقنا أصبح واضحا تماما. بوسعنا إعادة إبل الحمل إلى نايفة، ومنها تستطيع الإبل العودة إلى الأحساء أو الانضمام إلينا فى وادى الدواسر عن طريق بئر فضيل والأفلاج. ويستطيع باقى أفراد الجماعة مواصلة السير مباشرة إلى السليل، التى سننتظر فيها وصول إبل الحمل والنقل. الأسلوب الوحيد هو الحزم والتمسك وعدم الاستسلام، مع أكبر قدر ممكن من المصالحة والمهادنة، لكن صراحتى زادت لهيب

التمرد استعارا بين رفاقى وهم جالسون حول النار التى شبوها لإعداد القهوة. وبدأت فناجين القهوة دورتها على الجميع.

عبد الرحمن، راعى القهوة، سليل عشائر ضرمة العنيدة والمشغول دوما بإعداد القهوة إلى الحد الذى يمنعه من المشاركة فى الحوار العام، نظر إلى الأعلى نظرة تجهم وقلق وأطلق ملاحظة هجومية عن عدم اهتمامى بالآخرين. توجهت إلى الجماعة المتحلقة حول النار وتحديتهم جميعا. قلت لهم: لقد جئت إلى خيمتكم لمناقشة الأمر معكم، وعلى أمل إعداد بعض الخطط المستقبلية. أنا لم أجئ إلى هنا لأسمع تعبيرات تدل على حدة الطبع، والذى يدهشنى هو أنكم جميعا تجلسون بالقرب منى وتطلقون مثل هذه التعبيرات البذيئة على مسمع ومرأى من الجميع. وأنا لن أقبل مثل هذه التعبيرات ولا أطيق سماعها من أى واحد منكم. وعند هذا الحد رميت فنجان القهوة على الرمل ونهضت واقفا كى أغادر الخيمة. وهنا تدخل ابن معدى، الذى استعاد بلا أدنى شك ذكرى الحادث الذى وقع لسعدان فى منطقة أدراج، تدخل مقدما غصنا من أغصان الزيتون. قال ابن معدى: إذا أردت فسوف نوسع عبد الرحمن ضربًا عقابا له على بذاءته. رددت عليه وأنا أمشى فى طريقى، أنا لا أود ذلك، لقد عفوت عنه. لكن إن أراد أحد منكم مناقشة الأمور معى، تعين عليه المجىء إلى خيمتى. لن أجىء بعد اليوم إلى خيمتكم. فى مثل هذه الأزمة ليس من الحكمة إشهار سيف العداء، وجال بخاطرى أيضا أن عبد الرحمن ربما أمضى يوما عصيبا بسبب العطل الذى ألم بالإبل. كان عبد الرحمن يشير أيضا إلى أن الموت عطشا أمر محتمل تماما. فى مثل هذه الظروف يكثر الكلام الذى لا لزوم له، وتحتد الطباع والأمزجة، وأنا نفسى كنت متعاطفا تماما مع الأشقياء التعساء، على الرغم من عدم ميلى لرغبتهم فى مطالبتهم لى بالعودة والتراجع. وعليه تركتهم يتناقشون، وكانت بعض كلماتهم تصل إلى مسامعى وأنا جالس أوقع وأدون مسيرتنا كلها من شناء إلى هذا المكان. لم تتح لى فرصة القيام بهذا العمل طوال الأيام الخمسة الماضية، وكان محتما على أن أعرف على الفور وبشكل عام موقفنا الحالى فى هذه الصحراء الكبيرة الخالية من الماء. أحضر سعدان لى براد الشاى المعتاد، ومعه لغو المعسكر

المعادى، الذى كان يصلنى منه مبعوثون بين الحين والآخر طلبا لاستئناف المفاوضات معى حول تحركاتنا المستقبلية. انتهيت من عملى مع غروب الشمس، وعندما دخل الظلام قمت بعمل الملاحظات الفلكية الضرورية للتأكد من دقة البوصلة التى أستعملها. كان تقدمنا مخيبا للآمال بعض الشيء بكل تأكيد على الرغم من استبعادى لكل هذه الطوارئ فى بداية الأمر. ما يزال أمامنا ثلثا الرحلة - وهذا يستغرق حوالى عشرة أيام، على الرغم من إمكانية اختصار هذه المدة إلى ثمانية أيام فقط عن طريق المزيد من السير المعقول أثناء الليل. هل بوسع أفضل إبلنا قطع هذه المسافة؟ هذه هى المشكلة، فى حين أنه لا يمكن أن يكون هناك أى شك فى مسألة حتمية إرسال إبل الحمل إلى أقرب مصدر من مصادر الماء فى أسرع وقت ممكن، كان الخيار ضيقا ومحدودا فيما بين نايفة وشناء، لكن رفاقى يرفضون رفضا تاما الذهاب إلى شناء. كان رفاقى يخشون شناء خشيتهم للطاعون، ولم تكن هناك أسباب تجعلنى أرفض اختيارهم. كانت المسألة بالنسبة للإبل (وللأفراد إلى حد ما) مسألة حياة أو موت. وكان هناك أربعة من الإبل ترقد أمامنا فى حال من الانهيار الكامل. لن ينعش هذه الإبل سوى الماء وهو الذى سيدفعها إلى المزيد من السير، وإذا ما أخذنا المزاعم كلها بعين الاعتبار فلن يكون معنا أى شيء من الماء.

تمكنت فى ذات الوقت من خلال سيل الزائرين الذين كانوا يترددون على خيمتى من ابتكار خطة هى فى أضعف الأحوال، قابلة للتنفيذ ومقبولة على الرغم من عدم حظوها بالحماس الذى يثور من حول الموقف المحفوف بالخطر. وتقرر تشجيع الغائبين، زايد وعلى الجهمان، على أن يكونا بصحبة إبل الحمل عند عودتها إلى نايفة، فى حين أصررت أنا على حتمية ذهاب ابن سويليم مع جماعتى كمرشد لها، نظرا لأنه هو وحده الذى يعرف الاتجاه العام وظروف السير الذى ينتظرنا، معرفة تؤهله للقيام بهذه المهمة، على الرغم من أنه لم يسبق له مطلقا عبور الصحراء من أى خط من الخطوط الواقعة جنوبى كل من فراجة ومقينمة. وكان لابد من مرافقة سعدان لى، بطبيعة الحال، نظرا لأنه راغب فى ذلك، ولأنى لا يمكن أن أستغنى عنه؛ لأنه هو الذى يقوم على خدمتى، وبذلك أصبح سعدان نواة لثلاثة، انضم إليهم صالح بلا قيد أو شرط، ليصبح

العدد أربعة. أما فراج – المتردد بين الخوف والجشع – فلم يسبق لى أن التقيت أعرابيا متذبذبا مثله أو متقلب المزاج – لكنه قرر فى نهاية المطاف أن يكون ضمن جماعتى. أما حميد فلن ينفصل عن صالح، وبذلك يزداد عدد الجماعة إلى ستة أفراد، أما سويد الذى استنكر الخطة على اعتبار أنها نوع من الجنون، فقد جاء وحده إلى خيمتى ليوضح لى بالإشارات بدلا من الكلام أنه هو أيضا سوف ينضم إلى جماعتى التى اكتملت بانضمام أبو جعشة، ذلك الرجل الذى يقوم بكل الأعمال ولا يمكن الاستغناء عنه. وأنا من ناحيتى وافقت عن طيب خاطر على قدر معقول من السير أثناء الليل – وهذه الموافقة أو الاتفاق لا يمكن رفضه فى ظل هذه الظروف، وبخاصة عندما عرفت أن ما معنا من ماء قد لا يكفينا إلى نهاية الرحلة، إذ يتعين علينا توفير بعض الماء للإبل المرهقة، ونعطى جماعة النقل كمية من الماء تكفيها إلى أن تعود إلى نايفة.

ومع مرور الساعات دون أن نرى أية علامات أو دلائل على عودة كل من زايد وعلى الجهمان، اتفقنا نظراً لضيق الوقت على أن تبدأ جماعة الصحراء تحركها مع طلوع القمر، الذى يبدأ غالبا عند منتصف الليل. أمضينا هذه الفترة الزمنية فى تقديم الشروحات الضرورية لتنفيذ الخطط التى وافقنا عليها. جرى تقسيم الإمدادات والمؤن الغذائية المتيسرة وجرى أيضا تحديد الإبل اللازمة لجماعتنا. وفى الوقت المناسب أصبح كل شىء جاهزا، فى الوقت الذى انتهيت فيه من ملاحظاتى، وعندها سمعنا عن بعد الهمهمات والدغدغة التى تنبئ عن عودة زايد ورفاقه غير الحميدة.

وفى ضوء توقعاتى وخوفى، انهارت كل الخطط التى وضعناها، فى إثر وصول زايد إلى المخيم، كان زايد غاضبا من الخطط التى جرى وضعها فى غيابه، ولم يكن هو أو على الجهمان على استعداد للكلام فى مسألة الصيد، الذى لم يسفر بأى حال من الأحوال عن أى شىء من اللحم. جعلونا نفهم أنهما أمضيا اليوم كله فى البحث عن جمليهما، وأفهمانا أنهما غاضبان لأننا لم نستشرهما فى مسألة عودة إبل الحمل إلى نايفة. ومنذ اللحظة الأولى أعلن زايد معارضته للخطة التى وضعتها. وبعد الفنجان

الأول من القهوة الذى مكنه من امتلاك زمام الموقف، وفى حدود ما تناهى إلى مسامعى وأنا فى خيمتى، من الاحتجاجات التى كانت تجرى فى الخيمة الأخرى، جاء زايد إلى خيمتى لمناقشتى فى تلك الخطة. كان الرجل لطيفا إلى أبعد الحدود وصاحب لسان معسول فى التعبير عن خدمته المخلصة لى. قال زايد: اسمع يا شيخ عبد الله، أنا لا يمكن أن أتخلى عنك على هذا النحو، سأصحبك أنا شخصيا، لأن وجهى سوف يسود إلى الأبد إذا ما تركتك لحال سبيلك هنا. الطريق طويلة وخالية من الماء والإبل تكاد تموت. ومع ذلك سوف نقوم بذلك الذى تريده – سنموت معك. سنأخذ أفضل الإبل وكل ما تيسر لنا من الماء والأشياء؟ سنثق بالله. وبمشيئة الله سنصل إلى السليل أحياء، لكن لا تلمنا إذا ما متنا ظمأً فى الصحراء. هل رأيت الإبل التى تدهور حالها اليوم. الإبل لا تقوى على المشى فى ظل عدم وجود المرعى الذى يملأ بطونها. لا يوجد من بين هذه الإبل سوى اثنين أو ثلاثة جمال هى التى تصلح للرحلة. لماذا، هذا وركوبتى وركوبة على الجهمان فى عداد الموت أكثر من عداد الحياة. ومع ذلك، سنفعل ذلك الذى تريده. لقد أديت واجبى عندما حذرتك من الخطر الذى سينزل بنا، لكن الأمر أمرك.

أدى مجىء زايد إلى تغيير الموقف تغييرا تاما. بوسعه أن يؤيد أو يفسد خطتنا، وأنا لا أثق فى قيامه بعمل الترتيبات التى يمكن أن تهيئ لنا فرصة النجاح غير المؤكد أو المضمون. أحسست بأنى خسرت رميتى مع القدر، وتحولت بعد ذلك إلى البديل الوحيد – ذلك الأمل الطفيف فى النجاح مقابل الفشل المؤكد للخطط التى وضعناها ونحن مفعمون بالأمل. قلت: اسمع يا زايد، لقد أفسد مجيؤك خططى وألّبت علىَّ رفاقى. فإما أن تتركنى أمضى مع رفاقى والإبل التى اخترناها أو أن تعطينى كلمة شرف الآن وهنا إذا وافقت أنا على العودة إلى نايفة الآن مع باقى الجماعة، هل تعطينى وعداً، أننا بعد أن نرتاح وننعش إبلنا، بأنك ستركب معى مرة ثانية عبر الربع الخالى، إلى أن نصل إلى السليل، مثلما أعطيتى هذا الوعد فى شناء؟ ذلك كان جزءا من المهمة التى كلفك بها ابن جلوى، وأنا أحذرك أن ابن سعود نفسه سيغضب منك ومن باقى الجماعة إذا ما فشلت أنت فى إعطاء هذا الوعد والبرِّ به. أنا لا يمكن أن أعود إلا عن طريق عبور الربع الخالى. أنا أعدك بذلك، يا شيخ عبد الله، وكل شىء

سيكون بإذن الله ومشيئته. تصارعت مع نفسي مدة لحظة واحدة ووجدت أنه ليس هناك بديل معقول عن استعادة ثقتي بما تبقى من صدق في زايد. كان الرجال جميعهم قلقين من زايد إلى حد أنهم لم يقووا على عمل أي شيء من تلقاء أنفسهم. وهذا هو صالح وفراج، اللذان وضعا أيديهما في يديَّ إشارة إلى الولاء والإخلاص، أثبتا أنهما شخصيتان فرعيتان بعد أن انهارا انهيارا كاملا. خلال اللحظات القليلة المتبقية على اتخاذ القرار النهائي استمعت إلى شجار بصوت عال يدور في المعسكر المنافس. سمعت من يقول: لن يستطيع الذهاب بدون مرشد، وعليه فليذهب إليه ابن سويليم ويقول له صراحة أنه لن يرافقه. انهض يا سالم وقل له أننا قد نعود إلى المسقى على وجه السرعة، وبعد ذلك بلحظة واحدة جاء ابن سويليم مقتاداً على خيمتي بواسطة سويد، ليعيد على درسه كما لو كان طفلا، ثم مضى بعد ذلك لحال سبيله.

وعليه اتفقنا في نهاية المطاف على حتمية العودة معًا إلى نايفة، وأن إبل الحمل يتعين أن تبدأ السير فعلا فور طلوع القمر. من بين التسعة عشر فرداً كنت أنا الوحيد الذي أشعر بالتعاسة في ذلك المساء، في حين كان باقي الأفراد يقومون بما تبقى لهم من عمل بعزم وقوة بدلاً من التراخي والتراجع. لقد طردنا الربع الخالي. قطعنا مسافة ١٤٠ ميلا مسير خمسة أيام في خرائبه الطاردة التي ضربها الجفاف، ونحن الآن كُتِبَ علينا الهرب من أهوال الربع الخالي. كنا على بعد مسافة ١٤٠ ميلا من أقرب مصادر الماء إلينا، وإذا ما وصلنا إلى نايفة فذلك يعني أن إبلنا قطعت مسافة مقدارها ٢٨٠ ميلا في صحراء خالية من الماء وجرداء. كان بوسع هذه الإبل السير مدة تسعة أو عشرة أيام بلا ماء، وأن القسم الأكبر من ذلك الزمن سيكون في أراضي خالية من المرعى. لكن قرارنا بالعودة مكننا من تخصيص أربع أو خمس قراب من مائنا الثمين لإنقاذ سبعة أو ثمانية حيوانات تأثر كثيرا بالآلام والأوجاع التي أصابتها طوال اليوم. واقع الأمر أن قرار العودة جرى الترحيب به في المخيم على نحو سمعت دويه في الظلام، وكأنه طقس حقيقي من طقوس الإسراف في الماء. راحت الإبل تمتص الماء الثمين من الغدران الجلدية التي داخل بطونها، في حين جرى إخضاع بعض من الإبل التي لم يستبد بها الظمأ لعملية "تشمم" الماء. هذه طريقة اقتصادية لإنعاش الإبل

وذلك عن طريق سكب إبريق من الماء من خلال فتحتى أنف الجمل لتبريد الرأس والمخ، لكن ليس هناك شك فى فائدتها في تحقيق هذا الهدف، وقدر لي أن ألاحظ هذه العملية مرات عديدة طوال الأربعة عشر يوماً المتبقية من تجوالنا فى الربع الخالى.

جرى أيضا تقديم الطعام للرجال. فقد جرى وضع قدر كبير مملوء بالأرز على نار المخيم إلى أن نضج الأرز ليوقظونى عند منتصف الليل للمشاركة فى الوليمة. كنت متعباً روحاً وجسداً، الأمر الذى جعلنى لا أعبأ كثيرا بالطعام ولذلك بقيت فى فراشى، فى حين كان رفاقى يتمتعون بوجبتهم الأولى الساخنة منذ رحيلنا عن شنَّاء. كنت لا أزال على الحمية المكونة من الشاى على فترات مناسبة - بمعدل ثلاث مرات فى اليوم وأحيانا مرتين فقط - ولم أذق طعم الماء منذ أن غادرنا الهفوف قبل واحد وخمسين يوما، على الرغم من تناولى لمقدار من حليب الإبل، كان يتناقص يوما بعد يوم مع تناقص المرعى فى الصحراء، الأمر الذى كان يؤدى إلى انكماش ضروع إبل الحليب، الأمر الذى أدى إلى تنويع الحمية التى كنت أتبعها وأعطانى شيئا من القوة. خلاصة القول أنى لم أعان كثيرا من العطش مثلما حدث لرفاقى، الذين كانوا يسرفون فى شرب الماء عندما يتوفر لهم، وبالتالى أصبحوا من العذارى الحمقاوات، يغلب عليهم شرب الماء، مما ولَّد فى داخلهم رغبة فى تناول السائل المنعش عندما بدأت كمية الماء تتناقص يوما بعد يوم. هذه التجارب والخبرات أقنعتنى أن الاعتدال فى شرب الماء هو أحسن علاجات العطش فى الصحراء أو الظروف والأحوال الصحراوية، وربما كان ذلك راجعًا إلى أن الشاى له ميزة لا تتناسب مع الكمية المستهلكة منه، كان رفاقى يفسدون هذه الفضيلة بإضافة السكر والحليب إلى الشاى.

نمت فى تلك الليلة وأنا متعب تماما ومرهق تماما، وسرعان ما رحت فى النوم وأنا أسترجع التجارب القاسية التى مررت بها أثناء النهار، ورحت أتساءل عن الخير والشر الذى يمكن أن تخفيه لنا الأيام القادمة. وعقب وليمة الأرز التى أقيمت عند منتصف الليل، بدأت قافلة النقل تحركها فى الظلام فى نور الهلال الصغير. لقد بدأ الانسحاب الكبير، حل السلام على الصحراء التى هزمتنا، كان الكفاح كابوس النهار

الليلى، هذا اليوم هو أبشع أيام الرحلة كلها من البداية إلى النهاية، وربما كان يمثل أبشع الخبرات والتجارب التى مررت بها فى حياتى. ومع ذلك فإن الخير يأتى بعد الشر، وهذا هو ما حدث فى النهاية. لكن يندر أن ينظر الإنسان إلى الفشل بهذا القدر من القناعة والرضا.

الفصل الثانى

التراجع

... ليس أرضاً للمسلمين وليس أرضاً للكفار-الربع الخالى !

عبد الرحمن

أيقظنا التأذين للصلاة لنبدأ العمل قبل صلاة الفجر، كان الليل بارداً ونحن نرقد فى العراء، بعد أن بدأت قافلة النقل سيرها قبلنا، ورحنا ندفئ أنفسنا بالتحلق حول النار وشرب شىء من القهوة. كان تموينا من التمور قد أوشك على النفاد إذ لم يكن يتبقى منه سوى الشىء القليل جداً، لكن الجوالين اللذين كان ابن جلوى قد خصصهما لاستعمالى الشخصى، واللذين رفضت المساس بهما، بأن وضعتهما تحت رعاية وحراسة سعدان، على أن يستعملا فى حال الضرورة القصوى. يزاد على ذلك أن تمويناتنا العامة جرى الإسراف فيها دونما أخذ الغد فى الاعتبار، ويزاد على ذلك أن الإبل كان يجرى تغذيتها بالتمر بدلا من المرعى. هذا يعنى أننا كنا نستهلك تموينا تنا بمعدل مزدوج كل يوم، الأمر الذى اضطررنا معه إلى الاعتماد على الأرز وحده فى الوقت الحالى، مما أدى إلى الإسراف فى استعمال الماء. كان ابن سويليم المتفائل قد قال: إن وصولنا إلى نايفة سيكون فى غضون ثلاثة أيام، فى الوقت الذى احتججت أنا فيه على هذا الكلام، وطالبت بتقسيط تموينا تنا على مسير قد يستمر خمسة أيام. فاز المتفائلون وشهد فجر اليوم الرابع آخر ما معنا من ماء. أدى سيرنا النشط الاضطرارى إلى وصولنا إلى نايفة عند منتصف ليل ذلك اليوم، لكن الكثيرين من هؤلاء

المتفائلين كان لديهم متسع من الوقت كي يعربوا عن أسفهم لافتقارهم إلى التبصر طوال السير الملتهب الذى قمنا به. عصر ذلك اليوم.

شرعنا بعد الساعة السادسة صباحا فى التحرك شرقا (أو بالأحرى فى اتجاه الشمال الشرقى) فى موازاة منخفض الوادى الرابع من وديان الصواية، هذا المنخفض عبارة عن قناة كبيرة يتردد عرضها بين ٥٠٠ أو ٦٠٠ ياردة، وتمتد بين سلسلتين متوازيتين من التلال، تحولنا إلى مسيِّفات(*) رملية طوال تقدمنا خلالها، لننتهى فى نهاية المطاف إلى ركام من التراب والأحجار، على شكل تلال مستديرة عند الطرف الشرقى من المنخفض. نحن إلى الآن لم نعبر سوى هذه الوديان من جانب إلى آخر وشاهدناها عن بعد وهى تمتد على الجانبين. وكان مهما لنا أن نتتبع واحداً من هذه الوديان على امتداد مجراه، وسيرنا فى اتجاه الشرق هو الذى هيأ لنا فرص تكرار التجربة والخبرة على امتداد الأيام القلائل التى تلت ذلك، نظرا لمصادفة أقل الخطوط مقاومة، إلى حد ما، للاتجاه الذى اخترناه. هذه الوديان تتباين تباينا تاما من حيث الطول، إذ يتردد طول الواحد منها بين ثلاثة وثمانية أميال، وكانت خطتنا بشكل عام ترمى إلى السير نحو أعالي مركز تلك الوديان ثم نعبر مناطق الركام الترابى والحجرى التى تنتهى عندها هذه الوديان، إلى المنطقة التالية لها وهلم جرا. كنا نمر هنا وهناك على رقع من أسطح الصحراء التحتية التى تَعرَّت وانكشفت بفعل الريح، وغطتها طبقة خفيفة من الحصى.

كانت الرمال تحكى لنا بين الحين والآخر شيئا عن جمل من إبل الحمل سقط على الطريق أو جرى تبريكه لإعادة تنظيم حمولته وتعديلها. وفى أحد الأماكن أبصرنا بعضا من البصل الذى تساقط دون أن يراه أحد. قسَّمنا ذلك البصل فيما بيننا وأكلناه بنهم لأننا كنا جوعى. كنت قد تخليت عن الوليمة التى أقيمت مساء اليوم السابق، ولم آكل شيئا سوى التمر على امتداد ستة أيام، مع شىء من البسكويت المحلى بالسكر،

(*) المسِّيف: الجزء الرئيسى من جبل أو سلسلة جبال. (المترجم)

الذى كـان بمثـابة التنعم الوحـيـد طوال الرحلة كلهـا (كنت أتناوله مـع الشـاى). كنت ضعيفا بسبب الجوع ومتضايقًا نفسيا. وربما كان امتناعى عن الماء سببا من أسباب ضعفى، الذى كان ما يزال فى بدايته، الأمر الذى أصابنى بالذعر عندما أدركته ووعيت حقيقته. والذى لا شك فيه أن تلك الأيام الطويلة من الجهد الشاق فى ظل حِمْية غذائية خالية من اللحم كانت سببًا آخر أيضا من أسباب ضعفى، وبدا من غير المحتمل تماما الحصـول على أى نوع من اللحم فى المسـتـقـبل، ذلك أن الأرانب البـرية هجـرت هى الأخرى تلك الأرض الخراب الجافة، ولم نر أيا منها منذ أيام عديدة. لم يكن أمـامـنا ما نفعله سوى الاستمرار فى المقاومة، وانتحيت بجملى بعيدا عن رفاقى، فى صمت وهدوء، رافضـا عزاءهم وثرثرتهم التـى تبرز الإحباط وخيبة الأمل التى شكلت فجوة فيما بيننا. أحسست أن كل شىء يعتمد على ترك هؤلاء الرفاق يتدبرون النتائج التى يمكن أن تترتب على المعرفة التى مفادها أن استحسانى وسخائى يمكن الحصول عليهما فقط عن طريق الإذعان والخضوع لهدفى. لقد أصبح ذلـك الهـدف هـاجـسـا – مسألة عبور الصحراء الخالية من الماء – مثل هـاجس استكشاف الصحراء الجنوبية الكبرى الذى تملكنى طوال الأربعة عشر عاما الماضية. يزاد على ذلك أنى تَكَوَّن لدى موقف موضوعى تجاه نفسى والأشياء المحيطة بى. كان هناك صراع بين عقلى وروحى على خلفية فريدة تماما. لماذا الشجار مع الرفاق ولماذا اتخذ منهم موقفا عدائيا، وهم فى محاولتهم إنقاذ أنفسهم والحفاظ على حيواتهم كـانوا يمنعوننى من الدخول فى كارثة لا معنى لها؟ لماذا لا أوافقهم على تجنب الصراع مع القدر المعادى ونعود معًا إلى الوطن فى خير وسلام؟ لكن روحى أجابتنى قائلة: ولماذا الحياة؟ لقد أنجزنا الكثير من كل ذلك الذى اشتقت إلى عمله طوال هذه السنوات، لكن هذا الذى تحقق لا يكفى. هناك شىء آخر – تلك الأرض الجـرداء البكر التى لم يزرها إنسـان، وقد تكون غيـر صالحة للعبور. مسألة التراجع عن هذا العمل حاليا، ونحن على أعتابه أمر لا يخطر على البال. كل شىء يهون فى سبيل هذه الرمية. الانتصارات الكبيرة لا تتحقق إلا بهذه الطريقة، وما هى قيمة تسعة عشر رجلا مقارنة بآلاف الرجال الذين ضحوا مع كل جنرال من الجنرالات الذين كرَّمهم التاريخ؟ كان عقلى يتفهم كثيرا منطق رفاقى فى

إصرارهم ومعارضتهم، فى حين كانت روحى لا تهتم إلا بالهدف. لقد انتصر رفاقى عليَّ مرتين، مرة فى شنّاء والأخرى وسط رمال الحواية. الجولة الثالثة ستنهى كل شيء وإلى الأبد، ويتعين على إرادتى أن تجبرهم على الموافقة والخضوع. لابد من تصفية الحسابات مع زايد وحده، زايد هو العبقرية الشريرة في جماعتنا، هوالشيطان المتجسد كما بدا لى فى تلك الأيام، زايد هو الذى هيمن على باقى الجماعة هيمنةً مدهشة للغاية. لم يكن أفراد الجماعة يحبونه وإنما كانوا يخافونه ويخشونه.

هكذا واصلنا سيرنا عل امتداد الوديان وفوق الركام المتداعى ساعة بعد أخرى. توجهت إبلنا الآن صوب الماء والخلاص، وواصلت سيرها متعبة لكنها كانت مفعمة بالأمل. فى الوديان كنا نبدو كما لو كنا نصعد المطالع بطريقة منتظمة، وبانتهاء مسير اليوم الأول، أظهر جهاز قياس الارتفاع (آنرويد) أننا صعدنا حوالى ٢٠٠ قدم، كانت إبل الحليب قد سارت أثناء الليل وهى تحمل أمتعتنا، الأمر الذى ترتب عليه عدم حصولى على تموينى المعتاد من حليب الصباح، فى حين كشف حليب الليلة السابقة الخفيف عن مدى معاناة الحيوانات من الجفاف.

عثرنا على زوج قصير من قرون الوعول البيضاء على الرمال أثناء سيرنا، ومرت علينا فراشتان (من نوع Spindasis) فى ضوء الشمس، كما شاهدنا أيضا فى أحد الأماكن ثلاثة من الغربان. فيما عدا ذلك لم تكن هناك حياة فى الصحراء، ولم يكن هناك ما يجذب الاهتمام أو الانتباه بين الحين والآخر سوى رُقَعٍ من الأرض التى انكشفت وتعرّت بفعل الريح. هبّت علينا طوال فترة الصباح نسمة جنوبية خفيفة، أدت إلى مسح آثار أقدام جماعة المقدمة، التى شاهدنا مكان توقفها لأداء صلاة الفجر فى أوائل تقدمنا. استغرقت جماعة المقدمة حوالى أربع ساعات فى قطع المسافة التى قطعناها نحن فى أقل من ساعتين. كان واضحا أنهم كانوا يعانون من الأحمال التى كانت معهم. سلكنا مدقا (طريقا) كانت فيه سلاسل التلال الرملية الواحدة بعد الأخرى على شكل أضلاع كاسحة شبه دائرية، شبيهة بمقاعد المسرح، والتى تتجمع حول نهاية الوادى.

عندما استأنفنا سيرنا بعد تناول منعشات الصباح، فى أرض مرتفعة متموجة تموجا خفيفا فيها كمية مناسبة من عشب الآبال، الذى راحت إبلنا ترعاه طوال فترة توقفنا، تجاوزنا منطقة شجيرات الحض إلى منطقة القصبة(*) المتميزة بالحشائش الجافة والكثبان الرملية المرتفعة التى تنتشر فيها شجيرات الآبال. بذلنا جهدا كبيرا ومضينا فى الوصول إلى الهضبة المتداعية التى ليست سوى رواب وأكمات جرداء، يوجد على يمينها منخفض وادٍ من الوديان، تنتشر الأجزاء المكشوفة منه على امتداد ميلين، وتعطى انطباعا واحداً بأن هذا المكان كان عبارة عن مجرى نهر من الأنهار. هبت علينا ريح الجنوب وتحسنت تماما ظروف السير. نُودى بوقفة قصيرة أثناء نزولنا إلى الوادى، الذى طوّفنا حول واحدة من رقعة الكشوفة، أملا فى أن يحظى رفاقى بشربة ماء، نظرا لأن ندرة الماء جعلت من الكمية المتيسرة منه ملكية مشاعة للجميع يجرى تقسيمها بالتساوى، بشكل أو آخر على نحو رسمى. وهنا راحت الإبل تلوى رقابها الطويلة لكى تتشمم أوعية السائل الثمين، لكن لم يكن هناك من الماء شىء حتى تشربه الإبل.

مررنا على عش غراب قديم فى دغل من أدغال شجيرات الآبال. كانت ألواح الرمل تكتسح وجه الصحراء بفعل الريح الشديدة، التى كانت تتسبب لنا فى المتاعب إلى حد ما، كما كانت تهب علينا أيضا من قمم الكثبان الرملية سيول من الرمال شبيهة بالدخان. عند هذا الحد كنا قد افتقدنا كل آثار الأقدام الدالة على الطريق الذى سلكته جماعة نقل الأمتعة. على الرغم من معرفتنا أن الجماعة على بعد مسافة قريبة منا فى المقدمة. ومع ذلك لم نر لتلك الجماعة أثرا. وسرعان ما وقفنا على تفسير لذلك كله. شاهدنا على بعد مسافة كبيرة فى المؤخرة، رجلا يجرى وكأنه يلاحقنا، وعندما اقترب منا عرفنا أنه هو على الجهمان. لقد رآنا على الجهمان أثناء مرورنا وكانت قافلة الأمتعة على بعد مسافة كبيرة منا على الجانب الأيسر وإلى الخلف منا. وعليه توقفنا إلى أن تلحق بنا القافلة وكنت متعبا تماما، جسديا وروحيا، الأمر الذى جعلنى أحس بالسعادة إزاء هذه الوقفة المبكرة فى مسيرنا. هدأت الريح قليلا خلال فترة العصر وتحول اتجاهها قليلا إلى الجنوب الشرقى. وبقى الجو باردا، وجاء النهار بمفاجأة

طيبة. لم يحدث قبل الساعة الخامسة مساء (كنا قد توقفنا عند الساعة الثانية) أن عادت حيوانات نقل الأمتعة، إلى المخيم متباطئة، ومجهدة ومتعبة. كان أربعة أو خمسة من الإبل قد انهارت وتدهور حالها أثناء النهار، وكان رعاة هذه الإبل مشغولين طول الوقت بتعديل الأحمال وإعادة تعديلها مرات ومرات بغية التخفيف من أحوال الإبل السيئة. جرى "تشميم" بعض الإبل حتى يمكن لها مواصلة السير، وولدت واحدة من النياق بعيرا صغيرا قبل الأوان وجرى ذبحه على وجه السرعة. كنا نحصل على اللحم من أفخاذ إبل الجماعة المختلفة، ولكن الناقة أُعطيت فترة راحة ومُنعت من تحميلها بأى شيء. قال على الجهمان عندما وصل إليّ: أنا أحمل لك خبرا طيبا عن الدسم. قلت: ربما سنحصل على المزيد من الحليب، بعد أن نقصت كميته مؤخرا. رد على الجهمان قائلاً: لا، الناقة العجوز لا تعطى حليبا إلا بعد أن تشبع من شرب الماء، واقع الأمر أنها لم تعط قط قطرة واحدة من الحليب – فقد كانت مجهدة تماما. كنت مرهقًا تماما فى ذلك الوقت، وجلست متكاسلا بين رفاقى حول النار عندما كانوا يشوون اللحم الطرى على جمر النار. كنت مستعدا مثل أى واحد منهم لاستقبال الغداء المحبوب، وأخذت نصيبى من الأشياء الطيبة، وهى طازجة وساخنة من فوق النار. وقد بث ذلك فىّ حياة جديدة وعدت إلى خيمتى بإحساس غريب عن الحياة الطيبة. واكتمل هذا العمل الطيب بإبريق من الشاى، كما قام زايد بطهى طبق من الأرز لى ولسعدان.

جاءنى زايد فى المساء للضغط علىّ للسير أثناء الليل، كان حال الإبل مؤسفا، وقلت كمية الماء التى كانت معنا بشكل يوحى بالخطر، ولم نقطع سوى عشرين ميلا فقط فى اليوم الأول. وأمامنا مسافة كبيرة لابد أن نقطعها على وجه السرعة تحاشيا لحدوث كارثة. كنت فى حال نفسية مريحة تسمح بالحوار بعد قطيعة دامت طويلا، كما كنت فى وضع قوى نسبيا يسمح بتحويل الأمور لتكون فى صالحى. لم يكن بوسعهم أن يجبرونى على السير أثناء الليل وأنا لم أطلب منهم سوى القليل من الماء الذى بحوزتنا. كان بوسعى فى أضعف الأحوال، أن أطلب إليهم عدم الإسراف مثلى تماما، وكنت أعلم أن ذلك سوف يتعبهم. قلت بصراحة: انتبه يا زايد، أنت الذى كنت تصدنى وتعوقنى عند كل منعطف. باقى رفاقنا يخافونك، ويودون أن يتبعونى عن طيب خاطر

لولا الخوف منك. أنت وحدك الذى يمكن أن تساعدنى فى خططى، باقى أفراد الجماعة لا نفع منهم. هل ستفعل ما أريد إذا ما فعلت أنا ما تريده أنت من مسير أثناء الليل؟ لقد وعدتنى بأننا سنصعد ثانية من نايفة إلى الصحراء بعد أن ننال قسطا من الراحة. هل تؤكد لى من جديد أن ذلك هو قصدك الحقيقى؟ إذا كان الأمر كذلك فسوف أمشى بحكم الضرورة أثناء الليل، على أمل الوصول إلى نايفة بأسرع وقت ممكن. أجابنى بعفوية وطنية كاملة: القوى هو الله، وإن شاء الله سنصعد ثانية وفاء بوعدى لك. سنرسل متاعنا من طريق سهل، وسوف تصحبك قلة قليلة منا، ونحن نحمل كمية كبيرة من الماء، أثناء عبورنا الصحراء. وهكذا عقدنا هدنة فى صراعنا الطويل، واتفقنا على أن تبدأ قافلة الحمل تحركها عند منتصف الليل على أن يبدأ باقى أفراد الجماعة تحركهم بعد ثلاث ساعات من تحرك قافلة الحمل. وتأسيسا على ذلك جرى عمل الترتيبات اللازمة وتحركت قافلة النقل (الحمل) بجلبتها وضوضائها. فى حين واصلنا نحن النوم إلى الساعة الثالثة والنصف صباحا، لنبدأ السير ولأول مرة منذ بداية الرحلة، فى ضوء القمر. رحت أواسى نفسى بفكرة مفادها أننى أصبحت لدىَّ فكرة جيدة تماما عن هذه الأجزاء من البلد. يزاد على ذلك أن مسير ساعة أو اثنتين فى الظلام يمكن أن يكون تجربة طيبة فى حد ذاته. كان اتجاهنا العام صوب الشمال الشرقى، بحيث يكون نجم النسر الطائر ونجم ذنب الدجاجة مرشدين لنا، فى حين كان ضوء القمر كافيا لتوضيح مواضع سلاسل التلال الرملية والوديان، وكان نجم صليب الجنوب يرافقنا على الجانب الأيمن. لكن ميزة بدايتنا الباكرة تبددت عندما توقفنا لأداء صلاة الفجر عند الساعة الخامسة صباحًا وأصر رفاقى – ثمانية منهم – على إعداد شىء من القهوة، التى اشتاقوا إليها بعد مسير دام ثلاث أو أربع ساعات. رأيت فى ذلك التصرف شيئا من التراجع، لكنى امتنعت عن التعليق أو النقد، بعد اتخاذ موقف مفاده أن تدبير تحركاتنا موكول إلى زايد وحده. فى اليوم الأول من السير، كان فراج قد تخلف ليركب معى ويرافقنى. قال فراج: أنت تعرف أنى كان بوسعى أن أصحبك فى المقدمة لو كنت قررت مواصلة السير إلى السليل. وأنا فى خدمتك فى واقع الأمر، والعون من الله. رددت عليه قائلاً: فات أوان الحديث على هذا النحو، أنت وصالح

تهيأت لكما أمس فرصة إثبات أنكم رجال. لكنكما خذلتماني وأصبحت الأمور كلها بيد زايد الآن. هذا يعني أني إذا ما كنت بحاجة إلى العون أو المساعدة فسوف يكون ذلك عن طريقه. لقد تعقل صالح عندما ابتعد عني، في حين آثر علي الجهمان، الذي استاء تماما من الأحداث التي وقعت في مخيم الحواية، المشي مع قافلة النقل طوال اليومين الأولين. أما ابن حميد فكان ملائما، إن لم يكن صموتا وغير مؤثر، لمجرد مرشد للوقت الحاضر وحسب، وأنا كنت سعيدا لتخلصي من علي الجهمان، الذي غشّني، وأصبح بلا فائدة عندي. وعزمت وصممت على ألا يكون علي الجهمان أو فراج ضمن جماعة الصحراء عندما نشرع في التحرك من نايفة. كان جميلا جداً أن نجلس حول النار أثناء برودة الصباح ونروح نتناول القهوة والحليب المحلى (من ناقة ابن حميد). وعندما استأنفنا السير هب علينا نسيم عليل من الناحية الجنوبية الشرقية ونحن نمشي عبر أرض مرتفعة متموجة، تتخللها سلاسل رملية مستعرضة بين الحين والآخر، اختفت خلفها النجوم التي كانت ترشدنا في طريقنا، الواحد بعد الآخر في ضوء النهار الذي بدأ يطلع علينا. ظهرت الشمس نفسها فوق الأفق عند الساعة السادسة صباحًا، وبدأ عمل اليوم الحقيقي بعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال.

بعد دخولنا إلى منطقة خلة الحواية، بدت المنطقة لنا وكأنها بحر مضطرب من العواصف، وكانت المحاور الكاسرة للرمال تتجه صوب الشمال الشرقي والجنوب الغربي. في خلة الحواية شاهدنا آثار أقدام حديثة ومأوى ليليًّا لزوج من الوعول البيضاء، ولاحظت أيضا وفرة الحياة النباتية مع كثرة شجيرات الآبال على وجه الخصوص، وانتشار بعض شجيرات القاة هنا وهناك. والقاة هذا من الأعشاب التي تفضلها الإبل والوعول البيضاء. كانت هناك رقع من الصخور الزرقاء الضارب لونها إلى اللون البني، الأمر الذي كان يكسر من رتابة الرمال التي عثرت فيها على شظايا من بيوض طائر صغير، هو قنبرة الصحراء في الأغلب الأعم، والتي شاهدناها مرتين أو ثلاث مرات طوال النهار. عرفنا من آثار الأقدام أن رجال قافلة الحمل توقفوا لأداء صلاة الفجر على بعد عشرة أميال فقط من نقطة البداية، وهذه نتيجة سيئة لسير دام خمس ساعات، لكن الإبل كانت مرهقة. اليوم هو اليوم السابع لابتعادنا عن

المسقى الخَطِر الأخير، ولم نعثر في أي مكان طوال كل هذا الوقت على قدر كاف من الطعام الأخضر الضروري لإصلاح النتائج الطبيعية المترتبة على مثل هذا الامتناع. في مثل هذه الظروف يصبح التطبل(*) مرضا شائعا وخطيرا بين الإبل، والعرب يلجأون في علاج هذا المرض إلى حيلة غريبة، إذ يخيطون فتحة الشرج أو يغلقونها بعجينة يصنعونها من روث الإبل، ثم يربطون ذيل الجمل بعد ذلك إلى الأسفل، عن طريق تثبيته إلى سرج (عدة) الجمل بحبل يمررونه من تحت بطن الجمل ومن بين أرجله، وذلك منعا لخروج الهواء، أو بالأحرى الريح. شَعْلَة، الناقة التي جرى احتجازها في اليوم السابق، جرى علاجها على هذا النحو أثناء الليل، وبدا عليها القلق بصورة مضحكة من جميع النواحي، ورفاقي على قناعة ولا يراودهم شك في أن الناقة كان يمكن ألا تستأنف السير بغير هذا العلاج.

اشتدت قوة ريح الصباح الجنوبية بصورة متدرجة، وحرَّفت الرمل على سطح الأرض على شكل ألواح، محت تماما آثار قدام جماعة المقدمة. كان أفراد جماعة المقدمة قد أخذوا موعظة من اليوم السابق، وعليه قاموا بوضع إشارات من أغصان الآبال فوق قمم التلال الرملية على بعد مسافات متساوية على طول الطريق الذي كانوا يسلكونه. كان غضب الرمال مؤلما طوال هذه المسيرة، وبدا لي أن المنطقة المحيطة بنا كانت في تحرك منضبط مع الريح. قال عبد الرحمن الحضري الذي أعياه الحنين إلى الديار: إننا لم نر الضباب منذ وقت طويل. نحن لم نر شيئا طوال أسابيع وأشهر غير هذه الرمال التي تهب علينا. هذا ليس بلدا من بلاد المسلمين، أو حتى الكفار – إنه الربع الخالي فقط!

قبل وقفة ما قبل الظهيرة بوقت قصير، كنا قد مررنا على مجموعة مكونة من ثلاث رقع أرضية مكشوفة عن يسارنا، كانت واحدة منها منخفضة من وسطها، على شكل تجويف صغير شبيه بفوهة البركان، وشبه ممتلئ بالرمل. المرجح أن هذه الحفرة كانت

(*) التطبل هو امتلاء البطن بالغازات. (المترجم)

بئرا قديمة، دُفنت ونسيت منذ زمن بعيد، لكننا لم نقف لتحرى تلك البئر تحريا دقيقا، واكتفينا بأن أطلقنا عليها اسم - بئر الحـواية - وذلك مـن باب تخليد تحرينا لها. كانت أدغـال شـجيـرات الأبال، مـن حـول المكان الذى كنا نخيم فيه، تبدو مليئة بالديدان الزاحفة، ثم أمسكت بعد ذلك يعسوبا، ومع ذلك كان المنظر العام للمنطقة قاحلاً وموحشًا. واصلنا سيرنا عبر سهل واسع منحدر انحدارا هينا تتخلله سلاسل رملية منخفضة بين الحين والآخر، ورأينا عن بعد إبل جماعة المقدمة فى الأمام على الرغم من أن الوقت كان ظهرا. كانت إبل المقدمة تمشى متثاقلة ثم رأيناها بعد ذلك متوقفة، فى حين راح الرجال يستعدون لنصب الخيام. وعندما لحقنا بجماعة المقدمة وجدنا ما لا يقل عن سبعة من الإبل تجرى حمايتها من أشعة الشمس فى ظل غطاء الخيمة. تدهور حال الكثير من الإبل على الطريق، وازداد الحال سوءا إذ لم نقطع من مسافة الرحلة سوى ثلثها، وقل ما معنا من ماء على نحو ينذر بالخطر. لكننا لم نكن نتوقع، فى مثل هذه الظروف، معجزات من إبل محملة بأحمال كبيرة، وسوف تحدث كارثة مروعة إذا ما جعلنا هذه الإبل تمشى من جديد فى حر فترة العصر. وفى ذات الوقت كان لابد من إرغام هذه الإبل على السير؛ وإلا نفقت فى هذه الأرض الجرداء القاحلة. وبناء على ما كنا فيه اتفقنا على أن الحل الوحيد يتمثل فى تقسيم أنفسنا إلى قسمين على أن نترك جماعة المقدمة تمشى طوال الليل وأكبر فترة ممكنة من الصباح؛ حتى يمكن الوصول إلى نايفة على وجه السرعة. القسم الثانى، الذى اقتصر على ستة أشخاص بما فيهم أنا، نظرا لعدم وجود سوى ستة من الإبل هى القادرة على تحمل الجهد والتعب، تعين عليه اتباع النظام نفسه، أى أنه يبدأ السير قبل طلوع الفجر بفترة قصيرة، على أن يتواصل السير إلى غروب الشمس. كان على الجهمان قد شفى من اكتئابه، وتطوع بأن يكون لنا مرشداً - وربما كان ذلك من أجل الاحتفاظ بركوبته، التى كانت الأفضل من بين الإبل كلها، بقى زايد مخلصا لى، وأكمل كل من صالح وحميد الجماعة الصغيرة مع سعدان. جرى ترتيب كل الأمور بطريقة مرضية، فى حين ذهبت أنا فى ساعة متأخرة من فترة العصر، لاكتشاف الوادى الذى كانا نخيم فيه. وعلى بعد مسافة قصيرة رأيت سلسلة من القمم الجيرية المكشوفة، يصل ارتفاعها إلى

حوالى ١٥ قدما، تقع مقابلة وشبه مدفونة فى سلسلة رملية عالية، تُكوِّن جانبا من جوانب الوادى، كانت حصيلة البحث الجاد الذى قمنا به فى هذه الأرض القاحلة الجرداء التى جمعت فيها تشكيلة من عينات الصخور، عبارة عن بعض الأصداف الحلزونية الصغيرة. كانت هذه المسيرة الصغيرة قد أتعبتنى وأرهقتنى، وساءلت نفسى عن مسألة العودة إلى المخيم، وهنا شعرت بالجوع الشديد - كان جسمى بكامله مشتاقًا إلى الطعام، ولكنى عرفت أن هناك وجبة من الأرز كان يجرى طبخها لكى نضفى على الترتيبات الجديدة بداية طيبة. لم أحاول الاستجابة لأذان الصلاة عند دخول المغرب، ورحت أزحف فى ضعف على الرمل، وأنا ألتهم بصلتين نيئتين، كنت أحملهما فى جيبى مع بعض أقراص النعناع من باب التحوط لطارئ من هذا القبيل. زحفت عائدا مرة ثانية إلى المخيم، حيث كانت الجماعة كلها تتجمع حول كبسة كبيرة من الأرز، كنت أنا آخر من تركها. ومن سوء الحظ أن سعدان يحتفظ بأوراق شاى الإبريق الأخير لاستعمالها مرة ثانية، وجاء الشاى خفيفا وتعين على الاكتفاء به فى ذلك المساء بعد تناول العشاء. واستعملت التفل نفسه للمرة الثالثة قبل أن أدخل خيمتى للنوم، وتركت بعض الشاى فى الإبريق كى أشربه باردًا - وكان باردًا ولذيذا بحق - قبل أن نبدأ سيرنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد. يضاف إلى ذلك أن تفل الشاى هذا نفسه ساعد فى إنعاشنا بعد صلاة الفجر، فقد غليناه مع شىء من الماء والحليب الذى جئنا به من ناقة حميد، لأن ضرع ناقتى كان قد جف تمامًا، وجرى إرسالها مع إبل (المقدمة) وأضفنا إلى الخليط السكر والهيل (الحبَّهان) لكى تستسيغه الجماعة كلها. صحيح، أننى كانت بحوزتى كمية صغيرة من الشاى احتفظت بها للطوارئ، لكنى كنت أحتفظ بهذه الكمية للمحاولة النهائية لعبور الصحراء الخالية من الماء. وعليه أمضيت الأيام القليلة التى تلت ذلك بلا شاى، فى حين كان تموينى اليومى من الحليب لا يذكر. وتوصلت إلى نتيجة مفادها أننى فى نايفة سوف أتوقف عن عدم شرب الماء، وسوف أستأنف تلك الحمية مرة أخرى عندما نبدأ التحرك من نايفة إلى السليل.

فى ذات الوقت عجَّلنا قافلة المحمل (النقل) وجعلناها تسير فى الظلام بدءًا من الساعة ٧,٤٥ مساءً، على أمل ألا نراها إلا بعد أن نصل نحن إلى نايفة. كان الليل

على غير العادة عامراً بالفراش، الذى كان السواد الأعظم منه من نوع Noctuid[1]، الذى يتغذى من شجيرات الآبال، المترعرعة بشراريبها الحمراء الكثيبة وزهورها البيضاء الصغيرة التى يأكلها الناس. أعدَّ المناصير لى طبقًا من الأرز المضاف إليه زهور الآبال، والمناصير ينصحون بعدم تناول هذا الطبق مع اللحم، وهم يسمون هذا الطبق المكيكة، والمناصير يقولون: إن تناول هذا الطبق مع اللحم يجعل اللحم يتصلب مثل الجلد. ومن حين لآخر وفى ظل جوعى الشديد كنت آكل بعض هذه الزهور أثناء سيرنا على الطريق، ولكنى اكتشفت فى الوقت المناسب أن وريقات هذه الزهرة عندما يجرى طحنها فى الهون بعد أن تجف، وبعد خلطها بشىء من الماء الساخن، يمكن أن تكون بديلاً مقبولاً للشاى. كل المطلوب هو لون هذه الوريقات، لكن السائل الناتج عنها كان مراً إلى حد ما ويتسبب فى الإمساك إلى حد ما - وقيل لى: إنه ترياق للأملاح العالية التى فى ماء نايفة. البدويات يطحن أغصان الآبال الخضراء كى يصنعن منها صبغًا، كما أن حطبه الجاف هو أفضل أنواع حطب الصحراء - أى أن الآبال نبات مفيد، وواسع الانتشار لأنه مفيد. وأهل نجد يطلقون على الآبال اسم الأرطة، ويبدو أنهم يتجاهلون استعمالاته كلها.

عند الساعة الثالثة صباحًا، وبعد نوم قصير منعش، قررنا استئناف السير من جديد، والتزمنا السير فيما بين نجم الطير ونجم النسر الواقع، ولكن قبل أن تمضى علينا ساعتان بدأ الرجال يطالبون بوقفة للراحة. قالوا: إن الفجر سيطلع علينا خلال فترة وجيزة، وأن وقت الصلاة قد حان، وكانوا يقصدون بذلك أن موعد القهوة قد حان! وسرعان ما شبوا النار، وغلوا الماء، فى الوقت الذى استلقيت فيه على الرمل ورحت فى النوم إلى أن أيقظونى لأداء الصلاة. ثم جلسنا مُتحلِّقين حول النار فى انتظار تلك الكمية الضئيلة جداً من الحليب والقهوة التى كانت من نصيبنا - وبعد ذلك مباشرة ركبنا الإبل لنستأنف السير من جديد بعد صلاة الفجر - كان هناك شفق وردى اللون

---

(١) من الواضح أن هذا نوع جديد.

قد بدأ يتسع فى السماء عن يميننا فى الأمام، إلى أن بدأت أشعة الشمس الذهبية تفيض على ذلك المحيط الشاسع من الكثبان الرملية المتدحرجة، لتغمره بضوء النهار. كانت هناك قبرتان تتناجيان فى هواء الصبح الساكن البارد - كانت نغمات الجنسين، على حد تفكيرى، مختلفة تمامًا فيما بينهما - ومر علينا غراب طائر فوقنا، وراح يبحث عن طعام لنفسه فى المكان الذى توقفنا فيه من قبل.

مررنا على كثيب رملى مرتفع غريب الخطوط والمنحنيات، لكننا أُخِذْنا على غرة عندما وجدنا أن جماعة المقدمة قد توقفت لأداء صلاة الفجر على بعد مسافة قصيرة خلف ذلك الكثيب. هذا يعنى أننا لم نقطع سوى اثنى عشر ميلاً تقريبًا اعتبارًا من المخيم الذى أمضينا فيه الليل، وكان من الصعب علينا تصديق أن قافلة النقل لم تحقق تقدمًا طيبًا خلال الساعات التسع المحصورة بين بداية التحرك ومواعيد الصلاة. ومع ذلك لم نخطئ فى قص أثر جماعة المقدمة - المكان الذى أشعلوا النار فيه لإعداد القهوة، والخط الذى تركوه على الرمل نتيجة عملية الركوع والسجود. الأرجح أنهم وقعت لهم بعض المتاعب فى الظلام الأمر الذى جعلهم يضلون الطريق، ومع ذلك تبقى الحقيقة التى مفادها أنهم لم يحققوا التقدم المطلوب، ليس هناك من شك فى أننا سوف نلحق بهم أولاً وقبل كل شيء.

عن يميننا وفى اتجاه الأمام توجد الرقعة الأرضية التى يسمونها حضة القطا. كانت مجموعات أدغال الحض التى كنا نلقاها على بعد مسافات متقاربة، توضح لنا أننا كنا نسير على خط الحدود الذى بين حضة القطا والخلأت، والذى بقينا فيه طوال القسم الأكبر من سير ذلك اليوم الطويل. هذا الخط من عشب الأنداب الأخضر يشير إلى أننا دخلنا من جديد إلى مناطق شهدت الأمطار خلال العام أو العامين الأخيرين. وبعد مسافة قصيرة انتهى السهل المتموج بسلسلة من الكثبان الرملية المتوازية هى من تكوين السواهيب نفسه، الذى يمتد متواصلاً من هنا، على حد قول رفاقى، إلى منطقة مقشن فى الرمال الجنوبية الشرقية. واصلنا سيرنا فى الطريق المتعرج، المكون من سلاسل من التلال الرملية

والوديان، وتسللنا خلال الوديان وتتبعنا التلال إلى أن عثرنا على المكان المناسب الذى يمكن منه عبور هذه السلاسل من التلال الرملية. كانت الريح تهب علينا من الجنوب الغربى، وكانت لطيفة في البداية، على الرغم من ازدياد درجة حرارتها على وجه السرعة، ولاحظت أيضًا أن آثار الرمل الموجودة على أدغال النباتات الصحراوية، كانت تسير إلى الشمال والشمال الغربى. وهذه مؤشرات على الرياح التى سادت هذه المنطقة طوال خمسة أيام.

عند الساعة العاشرة والنصف، وبعد أن سرنا مدة خمس ساعات اعتبارًا من آخر وقفة وقفناها، توقفنا لشرب القهوة. وأعدّوا أيضًا شايًا بديلاً من الحبَّهان والسكر. لحد الآن لم يكن لدينا أى شىء نأكله سوى قليل من البصل النيئ، لكننا لم نذهب إلى مسافة كبيرة نظرًا لدخول موعد الوجبة التالية. بدأنا بالسير عبر أرض مرتفعة فيها منخفضات مرتفعة متدحرجة وتلال رملية، وواصلنا سيرنا فى طريق متعرج فيه تموجات خفيفة، إلى أن عبرنا عند الساعة الواحدة مساء سلسلة تلال منخفضة، لنجد أن المنخفض الموجود خلفنا محتلاً بواسطة جماعة المقدمة التابعة لنا. كان القسم الأخير من السير ساخنًا تمامًا، وسعدنا بمنظر لم يكن سارا إلى حد ما. وهنا وجدنا أيضًا مجموعة أخرى من الإبل تجرى حمايتها من ضوء الشمس تحت سقف الخيمة، واندفعت إبلنا بدورها نحو الملجأ نفسه محاولة دخول الخيمة ومن فوقها راكبوها، ولقينا مشقة كبيرة فى تبديل الإبل فى العراء حتى ننزل عنها سروجها. وكان علىَّ أن أتقاسم خيمتى مع ثلاثة من الإبل وبعض رجالى. ومع ذلك كان زايد الطباخ قد أبلى بلاء حسنًا فى تجهيز الوجبة، وفى الوقت المناسب كنا قد أعددنا أنفسنا لنوم القيلولة بعد الوجبة المشبعة التى تناولناها، وكانت مكونة من الأرز فقط. كانت الإبل تبدو بائسة تمامًا، ومجهدة تمامًا، على الرغم من أنها لم تكن تدرك الجهد الخارق الذى سيتعين عليها بذله. هذه فراشة أغرتنى بالخروج إلى الخلاء لكنى سرعان ما عدت إلى الملجأ مرة ثانية، إلى أن أيقظ الجميع التأذين للصلاة. قبل الساعة الخامسة صباحًا بفترة قصيرة كنا قد حَمَّلنا أغراضنا وبدأنا سيرنا – على شكل جماعة واحدة من جديد. كانت المنطقة مثل سابقتها على الرغم من وجود تجاويف

الكثبان الرملية في الشمال بدلا من الجنوب الشرقي. بعد ذلك بساعة واحدة غربت الشمس خلف الأفق من خلفنا، وتوقفنا لأداء الصلاة. في الغسق واصلنا السير من جديد عبر المشهد نفسه المكون من سلاسل من الكثبان الرملية التي تفصلها عن بعضها وديان واسعة، وكنا نتخذ من كوكب المشتري اتجاها عاما لنا. ركب زايد راحلته بعد أن عرى جسمه إلى وسطه؛ حتى ينعم ويتمتع بالنسيم البارد، ومشينا مدة ساعة ونصف الساعة إلى خلات أدراج، التي توجهت منها قافلة نقل الأمتعة مواصلة سيرها مباشرة، في حين توقفت جماعتي المكونة من ستة أفراد للحصول على شيء من الراحة الليلية. أفدنا تماما من اليوم الزائد في شهر فبراير، إذ لم نقطع ما يزيد على ثلاثين ميلا، وإنما ما يصل إلى قرابة الخمسين ميلا، وعلى حد تقديري كان كل ما معنا من ماء قد نفد تماما. جلست أرضا للراحة دون أن أشغل فكري بأي شيء آخر وسرعان ما رحت في نوم عميق. أعدَّ رفاقي قهوة وحليبا لكنهم لم يوقظوني، وبذلك بقيت بلا عشاء، وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحا عندما أيقظوني استعدادا للسير الطويل الذي ينتظرنا. كان الليل جميلا، وباردًا وخاليا من الريح، وكان القمر الذاوي فوق الأفق.

توقفنا بعد ذلك بساعتين لأداء الصلاة داخل حدود حصن عين سالة، التي استخدمنا فيها آخر ما معنا من ماء، في محاولة أخيرة لبث الشجاعة والقوة بين الجميع. وأحضر سعدان ثقل الشاي الذي كان يحتفظ به من الأمس وجرى غليه مع الماء للمرة الخامسة، وجرى خلطه بالحليب. كانت القهوة شيئا لا مفر منه بطبيعة الحال، إذ جرى إعداد القهوة بشيء من الماء بعد تلبية الأغراض الأساسية التي تتطلب الماء، وجلس صالح وحده أمام نار ثانية شبَّها هو، وطهى لنا وجبة متواضعة من الأرز الذي تمت إضافة الزبد إليه من إبريق الجلد الذي كان يعلقه في مقدمة سرج الجمل. وقد زادتني هذه الوجبة قوة وحيوية، وبدأنا السير من جديد، واستعمل صالح طبخته الناجحة واللذيذة في التقرب إليّ من جديد. سألني هل أعجبك ذلك الأرز؟ لقد طبخت ذلك الأرز من أجل خاطرك، ومن أجل خاطر الأمير (يقصد زايد)، غايتي هي خدمتكما. اعترفت بأني تمتعت بوجبتي، وجاء ذلك الاعتراف خشنا إلى حد ما، نظرا لأني

لا أستسيغ مطلقا ولا أشجع أبداً هذا الضعف العربى العجيب فى التبجح بإشباع رغبة مُذِلَّة. هناك خاصة طونية شبيهة بهذه الخاصة إلى حد ما، تتمثل فى القلق الدائم والحرص المستمر من جانب العربى على أن يكون هو حامل الخبر الطيب أو السار؛ أملا فى المفاجأة والمكافأة. هذا الأمر لا اعتراض عليه إلى حد ما، ويقوم فى الأصل على التفاهم المتبادل، لكن هذه الخاصة يغلب عليها عدم تشجيع الإمداد بالأخبار الحقيقية التى هى الأهم، وتشجيع المبالغة أو حتى قمع الحقائق المادية. لكن الشرق بصورة عامة ليست لديه حساسية بالغة من مسألة العمل طلبا للمكافآت. ترى ما هو ذلك الذى يمكن أن يعمل الإنسان من أجله غير المكافآت؟ فلسفة الجزيرة العربية هى فلسفة مادية بشكل محدد، سواء أكان ذلك فى الميتافيزيقيات(*) أم فى الأخلاق.

بعد ذلك بساعتين ونصف الساعة، وبعد عبورنا وادٍ تنتشر فيه شجيرات الحض وشجيرات القاة، دخلنا خلة أدراج من جديد، وفهمت أننا منذ أن غادرنا المخيم فى الصباح كنا نترسم تقريبا (أحيانا على هذا الجانب وأحيانا أخرى على الجانب الآخر) خط الحدود الفاصل بين منطقتى حض عين سالة وخلة أدراج. صاح صالح وهو يقول: خبر طيب لك عن الدسم، قالها هو يجرى نحونا فوق راحلته قادما من المؤخرة، التى كان يمشى ضمنها مع على الجهمان. أعتقد أنهم أمسكوا بأرنب برى كان نائما فى دغل من الأدغال، لأننا لم نسمع صوت طلق نارى، لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، كانت ناقة على الجهمان قد كشفت عن أعراض إجهاض، أو بالأحرى ولادة قبل موعدها. فى ظل الإجهاد الذى تنطوى عليه هذه المسيرة، وهذا الخبر المهم كان متوقعا فى أية لحظة من اللحظات. أقل ما يمكن قوله هنا، هو أن الناقة أساءت الاختيار عندما آثرت الولادة فى هذه اللحظة التى نحن فيها بحاجة إلى كل دقيقة تساعد على نجاتنا وتخليصنا مما نحن فيه. توقفنا بسبب تلك الأم الحامل، وراح صالح يجمع الحطب استعدادا لشب النار، انتظارا اللحم الذى سوف يشوى على الجمر، ذهبت أبحث عن

(*) الميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة. (المترجم)

الحشرات فى حين أعد زايد نفسه للنوم تحت شجيرة، وشمَّر كل من على الجهمان وحميد ملابسهما استعدادا لعملية الولادة. كانت الناقة تنظر حولها نظرات بائسة كما لو كانت لا تدرى طبيعة ما يدور، قامت القابلة بمحاولات فاشلة لتعجيل عملية الولادة، لكن فى كل مرة كانت الرأس البارزة تنسحب مرة أخرى إلى داخل الرحم، كانت الناقة تقف أو ترقد على جانبها بالتناوب، إحساسا منها بآلام الوضع، إلى أن استطاع على الجهمان الإمساك بالرأس تماما عندما أطلت على ذلك العالم الغريب من الشمس والرمل. وراح على يسحب الوليد وراحت الأم ترفس بأرجلها، فى حين راح كل من على وحميد يقومان ببعض الأكروبات تحاشيا لرفس الناقة دون أن يتركا الوليد يفلت من أيديهم. أخيراً خرج الوليد من أيديهم، ومع دفق كبير من السوائل، مع آخر رفسة ترفسها الأم تعبيراً عن ألمها، ووضعت عنقها الطويل على الرمل وراحت تتأوه تأوها يدل على الإرهاق والارتياح. كان القابلان midwives قد فشلا فى الابتعاد عن الناقة التى سرعان ما هبت واقفة، وراحت ترعى أعشاب الآبال كأن شيئا لم يكن، كان الوليد يبدو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة فى ظل مثل هذه الظروف، وتجمعنا حوله لنعرف الخبر، ذلك أن ما يولد ميتا لا يحل أكله. وقفنا لحظة حول الكتلة الخاملة، لكن سرعان ما بدأت أطراف الوليد تتحرك حركة ضعيفة وتحرك الجسم بفعل نفس يشبه التنهد. الوليد حى وجرى وضع السكين أسفل الحلق. واندفع الدم الحار أحمر اللون وفارق الوليد الحياة بعد ذلك، على حد قولهم، كان الوليد بعيرا عمره يتردد بين تسعة أشهر وعشرة، لكنه كان مكتملا تماما، على الرغم من وجود رطوبة الولادة على الجلد فإنه كان يبدو عاريا تماما باستثناء ذلك الشعر القليل الذى كان على رأس الوليد ورجليه الأماميتين. كان باقى الجسم مغطى بوبر خفيف جدا وناعم، لم يظهر إلا بعد أن جف الجلد. وعلى الفور قام رفاقى بسلخ الوليد وتقطيع جسمه إلى أوصال مناسبة. وجرى الاحتفاظ بنصيب رفاقنا كى نعطيهم إياه فى نايفة، واحتفظنا بشىء من اللحم لوجبة المساء. وجرى تقطيع ما تبقى بعد ذلك إلى قطع صغيرة ألقيت فوق جمر النار، ثم جرى سحبها للأكل بعد نضجها. لم يكن يخطر ببالى فى الظروف العادية المشاركة فى وجبة من هذا القبيل، لكن الظروف التى نحن فيها بعيدة جدا عن

الظروف المعتادة، وكنت على استعداد لآكل أى شىء سواء أكان مطبوخًا أم نيئًا . على أى حال، لقد أكلت نصيبى وكان لذيذ الطعم.

هذه المسألة كلها أخرتنا حوالى ساعة وربع الساعة، وواصلنا سيرنا فرحين. منعنا هذه الناقة التعيسة من حمل أى شىء وذلك من باب إعطائها شيئا من الراحة، فى حين ركب على الجهمان رديفا خلف ابن حميد. ومنعا للتطيل والنتائج المترتبة عليه جرى ربط ذيل الناقة فى الأسفل، بالطريقة التى سبق وصفها، فى حين كان خلاص الولادة يتدلى منها إلى أن سقط أو جرى سحبه فى الوقت المناسب. كانت الحياة النباتية فى هذه المنطقة أغزر وأكثف منها فى أى منطقة من المناطق التى رأيناها خلال أيام كثيرة، يزاد على ذلك أن هذه الحياة النباتية كانت وفيرة على جانب حض عين سالة من الخط الفاصل، وقد دخلنا إلى هذا الجانب مرة ثانية فور استئنافنا لعملية السير. وجدنا فى هذا المكان بعض شجيرات الأنداب والقاة منتشرة إلى جانب شجيرات الحض والآبال، وكانت إبلنا تقضم تلك الشجيرات أثناء السير على الرغم من أنها تبدو مثل الزنجبيل، وسبب ذلك أن الإبل كانت مهتاجة بسبب العطش إلى حد أنها كانت لا تأكل شيئا إلا أثناء ساعات الليل الباردة. هذه هى الإبل بدأت تمضى قدما، بعد أن بدأ رجالنا يستحثونها على السير عبر ذلك السهل المنحدر تحدرا هينا، والذى يميل لونه إلى اللون البنى الفاتح، والذى يمتد إلى مسافة بعيدة على الجانب الأيسر. فى حين حجبت الرؤية عنا من ناحية الجنوب سلسلة من الكثبان الرملية المرتفعة، التى يمر طريقنا خلال الجانب الشمالى منها.

شقشقت لنا وهى تنطلق فى السماء الملتهبة، وتبعت ذلك الصوت بالنزول إلى الأرض مثل حجر ألقى على الأرض. وخطر ببالى أثناء السير أن نبات الحض فى ثوبه الأخضر الجديد فى فصل الربيع كان إلى حد بعيد أجمل النباتات الصحراوية. لون الحض هو ذلك اللون الأخضر الجميل الضارب إلى اللون البنى، وشطآن(*) الحض

(*) الشطأ أول ما ينبت من الورق أو الفروع، والجمع "شطآن". (المترجم)

مزينة بحلقات من أشواك غير ضارة. ياله من فرق ذلك الذى يحدثه قدر قليل من الطعام فى الإنسان! قبل أربع وعشرين ساعة كنت أشعر بالإعياء الشديد، والضعف والجوع، لكن الآن الدنيا كلها مبتسمة ومبهجة، وعلى امتداد ساعة أو اثنتين من السير كنت أمضغ عظمة طرية من عظام البعير الذى ذبحناه، كيما أحافظ على ذكر تلك الوجبة المباركة.

على بعد مسافة كبيرة فى الناحية اليمنى عند الطرف الشمالى لحضة القطا رأينا مجموعة من أربع سلاسل أو خمس من سلاسل الكثبان الرملية التى يطلق الناس عليها اسم بنى فزران، وكانت المنطقة التى مشينا خلالها يغلب عليها طابع السواهيب. عند الساعة الثانية مساء خطر ببالى أننا قطعنا شوطًا كبيرًا، وأن الموقف يتطلب وقفة قصيرة نتجنب بها حرارة فترة العصر. وقد اعترض علىَّ اعتراضا شديدا على هذه الوقفة. قال على الجهمان: انتبه يا عبد الله، أنا لا أعرف هذا المكان حق المعرفة. بوسعى أن أعرف طريقى فى ضوء النهار، لكن عندما يدخل الليل يضيع منى كل شىء. أنا لا يمكننى توصيلك إلى الماء أثناء الليل أو فى الظلام. وعلى الرغم من ذلك، أصررت على التوقف لأنى كنت أعرف أنه يكذب. لم يكن معنا ماء لإعداد القهوة، وكانت رغبته الوحيدة تتمثل فى الوصول إلى نايفة على وجه السرعة، بغية الحصول على جرعة من ذلك المنشط اللطيف. طوال هذه الوقفة التى دامت ساعتين نمت فى سلام فى ظل دغل من أدغال الآبال، فردت عليه عباءتى من أعلى.

عند الساعة الرابعة مساء، أو بعد ذلك بقليل، وبعد أداء الصلاة كالعادة استأنفنا سيرنا من جديد. كانت هناك بعض السحب فى الغرب، وقد استمرت هذه السحب فترة قصيرة أثناء الليل، وبرد الهواء على نحو غير معتاد. ركبت ناقتى حاسر الرأس كى أتمتع بذلك النسيم الخفيف الذى كان يهفهف على خدودنا ورءوسنا، فى حين أخذت الشمس الضعيفة تغوص بسرعة فى اتجاه حافة الدنيا من خلفنا. فى كل يوم يمضيه الإنسان فى الصحارى الكبيرة يتنهد تنهيدة غوث وارتياح عندما ينخفض من السماء،

على نحو يتمكن معه من فقدان قوته، وهنا يتفكر الإنسان عن رضا فى الاثنتى عشرة ساعة الباقية، من البرد والظلام إلى أن يعود مرة ثانية. الليالى تكون دوما مبهجة، لكن عصر هـذا اليـوم بدا لى غـير طبيعى إلى حد ما، على الرغم من أننا لا نعرف ذلك الذى يخفيه لنا.

توقفنا لأداء الصلاة عند قمة سلسلة كبيرة من التلال الرملية عندما كانت الشمس تغرب فى وهج ذهبى وأرجوانى. إلى الآن نكون قد قطعنا ثلاثين ميلا تقريبا، وكان ينبغى أن أكون راضيا عن تأجيل المسافة المتبقية إلى صباح اليوم التالى، لكن رفاقى الذين بدءوا يعانون من العطش أصروا على مواصلة السير. استسلمت لضغطهم وواصلنا السير خلال فترة الغسق بحذاء الوديان الواسعة وعبر السلاسل الكثبانية الرملية المنحدرة، إلى أن عبرنا السلسلة المعروفة باسم عين سالة، وكان ذلك فى حوالى الساعة السابعة مساء، وعين سالة هذه هى البئر المدفونة التى سبق أن خيمنا عندها من قبل، وكنا بالأحرى على بعد مسافة معقولة فى الشمال الشرقى من هذه النقطة. لم يخطئ على الجهمان الذى كان يركب راحلة زايد حاليا فى إرشادنا، على الرغم من مزاعمه وادعاءاته السابقة، وواصلنا السير. أما زايد فقد ركب الناقة المسماة النعرية. بدأ الإجهاد يظهر على ناقتى وراحت تتأخر، إلى أن سئمت وتعبت من حثها على السير. اقترحوا علىَّ تبديل الراحلة، وركبت ناقة أقل جمالا، لكنها أسرع، وأصبحت ناقتى السابقة منذ ذلك الحين تحمل الأمتعة الصغيرة (الأدوات وما إلى ذلك) التى لا يمكننى الاستغناء عنها. أدى ذلك التبديل إلى تحسين معدل سيرنا وتقدمنا، لكن المسافة من عين سالة إلى نايفة طويلة، ودار نقاش طويل فى الظلام حول ما إذا كنا قد ضللنا طريقنا عن الخط المستقيم المباشر. اقتادنا على الجهمان مباشرة إلى ما يشبه حاجزا جبليا لا يمكن الخروج منه. ثم اقتادنا بعد ذلك إلى أعالى الجانب المنحدر من هذا الحاجز إلى أن وصلنا إلى قمته، وهنا اضطربت أنفاسى عندما فكرت فى النزول الخطير من الجانب الآخر. لكنى أبصرت أسفل منى مباشرة نيران مخيمنا التى شبها الرجال فى منخفض نايفة ذاته، وبذلك نكون قد ضربنا قمة سلسلة الكثبان الرملية فى نقطة يوجد فيها ممر منحدر انحدارا هينا، نازلا إلى المنطقة، فيما بين كتفى جبلين كبيرين، ومنها إلى بئر

نايفة نفسها. وبذلك يكون على الجهمان قد تفوق على نفسه. هذا الرجل لديه حاسة صحراوية لا يساويه أحد فيها إلا من هم على شاكلته. هذا شيء لا يصدقه العقل، ولا تفسير له. قلت لعلى الجهمان: خطر ببالى وسط تهانى الرفاق ولهث ألسنتهم بالشكر، أنك لا تعرف طريقك فى الظلام. رد على قائلا: الله يهديك! الإبل كان لا يمكن أن تعيش يوما آخرا بلا ماء. ولم يقل الرجل أى شيء عن القهوة!

تقاطرنا نازلين إلى نايفة. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً، وكنا قد قطعنا حوالى ٤٥ ميلا أثناء النهار، وهذا أداء رائع للإبل فى اليوم التاسع بلا ماء، وأداء رائع لرجال أجهدهم الجوع. وتلبدت السماء بالغيوم الثقيلة فى الشمال والشمال الشرقى، وأنبأتنا ومضات البرق المتكرر عن حدوث عاصفة فى مكان ما بعيد.

ناديت زايد أثناء مرورى على مخيم مطبخه، هل لديك أى شيء من الماء؟ أجابنى قائلا: نعم، لدى ماء بارد مثل الثلج. أتمنى أن ينعشك! وفى لمحة نزلت من فوق الناقة وأمسكت بالطاس ووضعته على شفتى - هذا أول ماء أشربه منذ خمسة وخمسين يومًا. شربت ببطء وشهية إلى أن أتيت على الماء كله - وملأت الطاس مرة ثانية وشربت. وشربت مرة أخرى - طاسا ثالثا. عندئذ فقط كنت قد ارتويت ولم يحدث أن ذقت رحيقا فى حياتى مثل هذا الرحيق، ومع ذلك كان الماء هو ماء نايفة، غير النظيف، والمالح، والذى يحتوى على كل خصائص الأملاح التى يطلقون عليها اسم Epson أو شيء أقوى من ذلك. كنت قد كسرت امتناعى الطويل عن الماء الذى فرضته على نفسى، وأحسست أنى منتعش تماما بفعل هذه الخبرة. ولم يضع زيد الوقت منذ أن وصل إلى المكان بعد ساعة واحدة من غروب الشمس، وسرعان ما جلسنا جميعا حول طبق هائل من الأرز. وجرى سقى الإبل على الفور، وفرشت فراشى على الأرض استعدادا لنيل راحة أستحقها. لقد تحقق التراجع الكبير بنجاح كبير أيضا وبلا خسائر. لم نكن بحاجة إلى أى شيء سوى إعادة ترتيب وإعادة تنظيم قواتنا، قبل أن نشرع فى الجولة الأخيرة من صراعنا الكبير مع الصحراء.

الفصل الثالث

التعافى

"سلامة الجمل من سلامة الجمّال، لكن الجمل الضعيف يضعف راكبه"

فراج العرقان

كان الليل فظا وعاصفا . وكانت الريح تهب بين الحين والآخر، على شكل عصفات عاوية وعنيفة عبر فرَاشى، مُغَطِّية إياه بالرمل. ومع ذلك نمت نوما عميقا إلى الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا، وعندها صحوت على نقيطات لطيفة من حبات المطر، استمرت حوالى خمس عشرة دقيقة. رقدت على ظهرى كى أستقبل تلك النقيطات فى فمى، ورحت فى النوم مرة ثانية لأستقيظ من جديد على أذان الصلاة. عند الساعة الثامنة صباحًا، حدثت زخة مطر حادة وقصيرة، وطوال الساعة التى تلت ذلك كانت هناك زخات مطر متقطعة. ظلت السماء ملبدة بالغيوم، لكن المطر لم يسقط بعد ذلك، وذلك على الرغم من بعض الرياح الشديدة التى كانت تهب على المنخفض، قادمة من الشمال الشرقى، الأمر الذى كان يُصَعِّب الأمر علينا للغاية، ويقتلع الخيام التى لم نبذل جهدا فى تثبيتها، مفضلين الانتظار إلى أن تهدأ الريح بعض الشىء. فى ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، وفى ظل بقاء السماء ملبدة بالغيوم، تحولت الريح إلى نسيم شمالى شرقى لطيف يبشر بالمزيد من المطر. كان يوما مباركا بطبيعة الحال، ذلك اليوم الثانى من شهر مارس. كان العرب سعداء مثل أطفال الرمال، وراحوا طول اليوم يزورون قمم التلال الرملية المحيطة بنا، وكانوا يصيحون منادين علينا من فوق هذه القمم، ونحن فى

المنخفض معلنين علينا حال الطقس من حولنا. في البداية كان المطر في معظمه في الناحية الشمالية الشرقية، في حين نقل انتباهه في فترة لاحقة إلى الجنوب الغربي، الذي كانت تهب منه ومضات البرق وزئير منخفض الصوت يوحي برعد على مسافة بعيدة. والذي أقلقني أنه لم تكن هناك أية إشارة في ذلك اليوم إلى سقوط المطر على الناحية الغربية والناحية الشمالية الغربية. ورحت أنتظر أية إشارة من الإشارات التي تدل على المزاج العام لرفاقي، ولم أطرح أي سؤال يتعلق بظروف الطقس في الغرب. لكني كابدت لحظة من القلق عندما جرى الحديث عن بئر الفضيل. آثرت التزام الصمت.

كان اهتمامنا الأول بعد صلاة الفجر ينصب على الإبل بطبيعة الحال، التي كانت قد شربت أثناء الليل. وجرى اقتيادها مرة ثانية إلى البئر، لتشرب بغيتها من الماء. تجمعت الإبل متزاحمة على ذلك الطبق المعدني الكبير الذي استُعْمل غديرا في سقيا الإبل، كما كنا نستعمل الطبق نفسه طبقًا لنا ومائدة لطعامنا. كان الرجال يواجهون جلبة كبيرة وهم يحاولون المحافظة على امتلاء ذلك الطبق بالماء نظرا لأن عددا كبيرا من الأعناق الطويلة كانت تمتد ساعية إلى ذلك السائل، كما أن عددا كبيرا من الشفاه كانت تمتص ذلك الماء على نحو يكشف عن رضا وشبع هذه الإبل. كانت الإبل التي ترتوي تنسحب إلى الخلف برهة من الزمن، ولكنها كانت تقف على مقربة من البئر، ثم تعاود المجيء إلى الغدير بين الحين والآخر طلبا لرشفة أخرى من الماء، وفي النهاية امتلأ البرميل الأخير عن آخره. وتفرقت الحيوانات طلبا للمرعى، وبخاصة شجيرات الأبال الموجودة خلف عين سالة، التي تقرر إرسال الإبل إليها حتى تتعافى من التعب والحرمان الذي لقيته في المسيرة الأخيرة، ولكي تستجمع قواها استعدادا للملمة القادمة.

كانت هناك مسألة أخرى تهمنا جميعا وكان لابد من حسمها. كان لا يزال معنا مقدار كبير من الأرز، لكن لم يكن معنا أي شيء من التمر باستثناء الجوالين المخصصين لاستعمالي الخاص، واللذين خصصتهما للجماعة التي سيتقرر لها عبور

الصحراء الخالية من الماء. هذا يعنى أننا يجب ألا نأخذ معنا أرزا أثناء هذه الرحلة نظرا لعدم وجود ماء لاستعماله فى طهى الأرز، لكن التمر سيكون كافيا تماما فى مثل هذه الرحلة، ولا يمكن لقافلة نقل الأمتعة أن تعتمد على الأرز وحده. هذا يعنى أن اللحم يعد إضافة ضرورية إلى طعامنا، ولم يكن أمامنا سوى مصدرين وحيدين للإمداد باللحم. الصيد لا يمكن أن نعلق عليه أملا نظرا لخبرتنا الأخيرة فى الصحراء، لكن ذبح واحد من الإبل سيوفر لنا اللحم على امتداد أيام عدة، وقد وافقنا من حيث المبدأ أثناء السير على الاحتفاء بوصولنا إلى نايفة بالتضحية بواحد من الإبل فى ظل حاجتنا الماسة إلى اللحم. جرى بالفعل اختيار الجمل الذى سيجرى ذبحه، اخترنا جملاً لحمه أكثر من شحمه. والآن حان موعد تنفيذ ما اتفقنا عليه. بعد سقيا الإبل، اقترحت على رفاقى احتجاز الجمل الذى سيجرى ذبحه، ومنعه من الذهاب إلى المرعى بصحبة الإبل الأخرى، ومع ذلك لاحظت أن هناك شيئا كبيرا من التردد بين رفاقى، الذين كانوا جميعا يرغبون فى أكل اللحم. انتظروا كلهم موافقة زايد، التى بدونها لا يجرؤ أى واحد منهم على مجرد مد يده على جمل من إبل ابن جلوى. ألم يسبق لنا قبل ذلك عندما كنا فى وبار أن تخلينا عن جمل من الإبل وتركناه يموت بدلا من ذبحه والاستفادة به، بعد أن منعه العرج من مواصلة السير مع القافلة؟! لا يمكن أن يكون لدى ابن جلوى مانعا من ذلك، لكن معروف عن هذا الرجل أنه يصب جام غضبه على أولئك الذين يقللون من عدد أفراد قطيعه بغية سد الرمق والجوع أثناء الرحلات والمهمات. وزايد لن يجرؤ على إعطاء الحكم النهائى ويبقى الأمر معلقا. بذلت كل ما فى وسعى واستعملت نفوذى بغية تأمين اللحم للجماعة ووصلت إلى حد إصدار الأمر لأبى جعشة للقيام بهذه المهمة. ولكن الرجل تراجع آسفا عن تنفيذ الأمر، وكان لابد من مناقشة الأمر مع زايد، الذى أكدت له مسئوليتى الكاملة عن هذا العمل. وتراخت معارضة زايد الشديدة. وهنا قام أبو جعشة بإحضار الحيوان المطلوب واقتاده إلى مخيم المطبخ، حيث سال الدم على الرمل فى الحال. ساد الفرح المخيم كله. لم يستغرق سلخ الجمل سوى لحظات قليلة، وجرى إعطاء الراعيين جزءا من اللحم ليأخذاه معهما إلى المرعى. واندفعت الإبل خارجة من منخفض نايفة إلى الصحراء، فى حين انشغل باقى رجال المخيم فى

الأعمال الخاصة بالجزارة والطبخ. وقبلت قطعة طرية جرى شيّها على جمر النار على وجه السرعة، لكني احتفظت بقواى كلها للوجبة الرئيسية التي أوشك زايد على الانتهاء منها. ومع ذلك أمضى رفاقى القسم الأكبر من فترة الصباح فى الطهى وأكل قطع بعينها. ولم ننس نصيب الأقفة، تلك الكلبة السلوقية التى عانت الجوع معنا مدة تسعة أيام، لم تحصل خلالها على شيء تأكله سوى نوى التمر. ويبدو أن الكلبة اتخمت نفسها بأكل كمية كبيرة من اللحم النيئ، لأنى عندما رأيتها وجدتها تبذل جهدا لتجر نفسها بالقرب من إناء فيه ماء على بعد ياردات قليلة. وعندما وصلت الإناء جلست على الرمل، وراحت تلعق الماء ببطء، لكن عن طيب خاطر، بعد أن مدت مخلبيها على الجانبين من باب المحافظة على توازن الإناء. وعليه رحنا طوال وجودنا فى نايفة، نتغذى بواقع مرتين فى اليوم، غذاء طيبا، مكونا من طبق كبير من لحم الجمل مع الأرز، الأمر الذى جعلنا نستعيد الكثير من قوتنا الضائعة، فى حين كان يجرى شفاء الضرر الناتج عن هذه العملية بماء بئر نايفة.

بعد الإسراف المبدئى فى شرب الماء فى الليلة السابقة صممت على ألا أشرب مسرفا من ماء نايفة أثناء مقامنا فيها - وبخاصة في ظل عدم وجود الشاى - وقررت أن أستأنف من جديد حمية الماء فور بداية استئناف مسيرنا عبر الصحراء. التزمت بهذا البرنامج، وأنا مدين لهذا البرنامج بالحقيقة التى مفادها أني عندما وزنت نفسى بعد عودتى إلى مكة، وجدت أنه فوق الوزن المعتاد. هذا يعنى أنى لم ينقص وزنى بعد التسعين يوما التى أمضيتها فى الصحراء، وأننى عن طريق الالتزام العارض "بعلاج" غير منتظر نجحت فى استعادة صحة السنوات الأولى، التى أوهنها مقامى الطويل فى الحجاز. لكن هذه الاكتشافات ستفيدنى فى المستقبل. حاليا أنا أعرف تماما الجانب المتعب فى ماء بئر نايفة، إذ كان مذاق الماء مالحًا إلى حد أنى نجحت فى إضافة كمية كبيرة من أملاح الأينو Eno المأخوذة من الفاكهة، إلى كل شربة من ذلك الماء (وذلك يوم أن كانت زجاجة أملاح الأينو لم تنته بعد). ملح الأينو هذا له تأثير حلو، كان رفاقى يستلطفونه، والذين كانوا سعداء بمشاركتى ذلك الشربات الغريب. ماء بئر نايفة فيه قدر كبير من أملاح الأبسوم الملينة، وقوة هذا الملح يمكن الحكم عليها من الحقيقة

التى مفادها أن الجلود أو بالأحرى القراب الجلدية التى كنا نحمل فيها هذا الماء عبر الصحراء تآكلت تآكلا سيئا بفعل هذه الأملاح. ويبدو أن تأثير هذه الأملاح على لحم الجمل الذى أكلناه، ربما كان شبيها بهذا التأثير أيضا إلى حد ما، ذلك أن تكرار عملية التغوط فى الصحراء، أصبحت مصدرا من مصادر المرح والظرف فى سائر أنحاء المخيم. فقد راح رفاقى يلعنون ذلك الماء وتأثيراته المحرجة! وأنا الوحيد الذى أصررت على المزايا الطبية للموقف المدهش الذى نحن فيه. قلت: هناك أثرياء فى بلدى على استعداد لإنفاق جزء كبير من ثرواتهم، كيما يكونون فى الوضع الذى نحن عليه الآن، لو أنهم سمعوا عن هذا الماء. وعندما سألنى الملك فى مكة عما إذا كنا قد اكتشفنا شيئا له قيمته فى الصحراء، أجبته أن نايفة (وربما منطقة الخيران كلها) فيها مؤشرات لمنتجع صحى جذاب إذا ما أراد جلالته تنمية إمكانيات تلك المنطقة. ومن باب المصادفة البحتة أن الاسم نايفة هى لفظة مثل "إفيان"، الذى هو الاسم العربى المعتاد لمصدر شهير آخر هو إفيان Evian. وجرى على الفور تحليل عينة من ذلك الماء فى معمل أبحاث شركة الزيت البريطانية. الفارسية فى بلدة سومبرى Sumbury على نهر التايمز Thames واتضح أن هذا الماء يحتوى على قدر كبير من الأملاح الذائبة[1]، التى منها الكلوريات، وسلفات الصوديوم، والكالسيوم، والمغنسيوم. وليس من المستغرب أن يكتب لى الدكتور جى.أم.لير Lees قائلاً: الماء له التأثير الذى وصفته

---

(١) جاءت تفاصيل تحليل عينة الماء، المؤرخ ٦ أغسطس من العام ١٩٣٢، على النحو التالى.

إجمالى المواد الصلبة المجففة فى درجة ١١٠ مئوية ٨٦١ 100.000 861 pts.l

الكالسيوم	،،	61.5
المغنسيوم	،،	20.4
الصوديوم	،،	170
السلفات	،،	274
الكلوريد	،،	209
الكربونات	،،	19
البيكربونات	لا توجد	

أنت.. لقد اطلعت على تحاليل كثير من المياه الأوروبية لكن لا أحد منها يشبه أو يعد مثيلا لماء نايفة. الماء يحتوى على قدر كبير من الكلوريد Chloride، الأمر الذى يجعله غير صالح للشرب، فى هذا الجزء من العالم. يمكن القول إنه شبيه بماء بادنBaden إضافة إلى الملح المعتاد ونسبة قليلة من السلفات. والأرجح أن يكون أصل هذا الماء راجعا إلى الصخور الغنية بالجبس وسلفات المغنسيوم والملح.

بعد أن جنَّب رفاقى كمية اللحوم اللازمة للاستعمال العاجل، لم يهملوا متطلبات المستقبل. أوضحت التجارب السابقة أن تمليح اللحم لحفظه سوف يخلق لنا بعض المتاعب فى الأماكن التى لا يتوفر الماء فيها لرى الظمأ الناتج عن ذلك اللحم المملح. وعليه اتفقنا أن اللحم المتبقى من الجمل المذبوح – ويالها من كمية كبيرة – يجب تقديده فى الشمس والهواء بلا ملح. وعليه جرى تقطيع اللحم إلى شرائح عريضة ورقيقة، جرى نشرها فوق شجيرات الآبال كى تجف، وعليه كانت الرائحة نفاذة فى الداخل ومن حول مخيمنا، لكن رجالنا كانوا حريصين على استبعاد القطع المتعفنة عن بقية اللحم الذى كان يجرى تقديده حسب الخطة الموضوعة، وبانتهاء مقامنا فى نايفة كان لدينا مقدار كبير من اللحم الصحى المجفف على شكل شرائح من اللحم النيئ؛ ليجرى توزيعها على الجماعتين، اللتين شكلنا فيهما أنفسنا، استهدافا للمقصدين المختلفين. هذا اللحم المجفف يشبه قديد اللحم، الذى لم يسبق لى رؤيته أو تذوقه، وهذه العملية مألوفة تماما لصيادى الوعل الأبيض والغزال فى الصحراء.

اتخذ زوج من الغربان لنفسيهما مسكنا فوق كثبان نايفة الرملية طوال مقامنا هناك، وكانا يحلقان فوق المخيم، وينظران بنهم إلى المخزونات الكثيرة التى تحت تصرفنا، لكنهما لم يجرءا على الاقتراب منا لسرقة أى شىء من أشيائنا. كان لديهما الأسباب الكافية للحيطة والحذر، نظرا لأن طيرا من الطيور فقد رجلا من رجليه جراء طلقة من طلقات بندقية زايد أثناء زيارتنا السابقة لهذا المكان. ويبدو أن هذا الطائر لم يتأثر بهذه الخسارة، اللهم باستثناء أنه يعجز عن القفز مثل بقية الطيور. الساكن الوحيد للمكان غيرنا كان هو طائر الأبلق أو أبو بريق، الذى يعد زائرا دائما لهذه

المنطقة فى هذا الوقت من العام، فضلا عن أنه من الزوار الدائمين لبئر نايفة، التى لم يحتقر ماءها أو يقلل من شأنها. كان صوت أبو بليق هذا جميلا فى أذنىَّ، وبخاصة أثناء صمت الصباحات الهادئة الجميلة. راح صيادونا يفتشون فى الصحراء عن الأرانب البرية، على الرغم من إبلاغ الراعيين عن إمساكهما بواحد من تلك الأرانب، بينما كانا يرعيان الإبل فى المنطقة الواقعة خلف عين سالة.

بعد الانتهاء من مشاغلنا الرئيسية فى فترة الصباح بما فى ذلك تناول وجبة الإفطار، قررت أن أحذو حذو رفاقى بأن أستحم. وهنا استعملت صينية العشاء حماما، فى حين راح زايد يجلب الماء من البئر التى يصل عمقها إلى حوالى عشرة أقدام، فى دلو من الجلد، ويروح يصب علىَّ الماء مرة بعد أخرى إلى أن انتهيت من الحمام. كان الماء فاترا بعد خروجه من البئر – وقد جرت العادة أن نترك ذلك الماء الفاتر كى يبرد فى القراب قبل استعماله فى الشرب – وقد تمتعت تماما بذلك الاستحمام الذى يحدث لأول مرة بعد مغادرتنا الأحساء. كنت فى هذه الفترة لم أشغل نفسى بتبديل الملابس طوال هذه الأسابيع، إذ بقيت ألبس الأشياء نفسها ليلا ونهارا، إلى أن بدأت أحس بعض الدلائل الواضحة على أن جسمى أصبح عرضة للانتقاد من قبل رفاقى وإبلهم. كانت الفكرة بحد ذاتها جيدة لكنها كانت مقلقة إلى حد ما، ولذلك قررت على وجه السرعة تبديل ملابسى بعد الاستحمام. وتملكنى فضول مريض جعلنى أتفحص تلك الأجزاء من ملابسى التى جرى الاستغناء عنها، وبخاصة تلك التى كانت قريبة جدا من جسدى وجلدى، ومن هنا تأكدت الحال التى كان عليها جسمى بفعل الاستنتاجات التى توصلت إليها. وبعد ذلك حرصت تماما على تجنب تلك الحشرات الصغيرة التى يفضل الناس عدم نطق اسمها.

بذلك ينتهى أول يوم من أيام راحتنا، إذ كان كل شىء فيه على ما يرام، وتحول التوتر الطويل الناجم عن السير المتعب الذى قمنا به مؤخراً، إلى جو من الرضا وحسن النية والطوية. وهذه أجسامنا الصحيحة، التى هدها الجوع الطويل، بدأت تستجيب من جديد لتأثير الطعام الوفير والماء الوفير أيضا. وانسحبت إلى فراشى فى ساعة مبكرة

من تلك الليلة، وأنا يراودني إحساس طيب بالتفاؤل وتحسن الأحوال. ولأول مرة طوال فترة هذه الرحلة أرى النجوم في مساراتها، وكأنها تقاتل في جانبي، ودعوت الله أن تستمر ظروف العواصف والأمطار أياما عدة.

ويستجيب الله لدعائي على الفور فقد أيقظني رفاقي عند الساعة الثانية صباحاً على زخة مطر لطيفة، وكان المطر يسقط على سقف خيمتي واستمر سقوط المطر مدة نصف ساعة. وانتهى المطر بزخة قصيرة لكن غزيرة، ونمت مرة ثانية بينما كانت ألواح البرق تضيءُ سحب العاصفة الكبيرة التي كانت تنتشر في السماء في جميع الاتجاهات، كانت درجة الحرارة في ساعة الظهيرة تقدر بحوالي ٨٤ درجة فهرنهيتية، ارتفعت إلى ٨٨ درجة خلال فترة العصر ثم انخفضت إلى ٧٠ درجة أثناء الليل. كانت درجة الحرارة الصغرى في الليل في الصحراء أقل بكثير من ٧٠ درجة، إذ كانت تتراوح بين ٦٠ درجة و٦٢ درجة على امتداد الأيام القلائل الماضية.

قام صالح، الذي كان ينشد إرضائي، بإعداد بعض شاي الآبال، بعد الانتهاء من الصلاة في صباح اليوم التالي، واكتشفت أن الشاي كان له طعم الماء. وعند الظهر أخذت حماماً آخرا بجوار البئر، لكن الحرارة سرعان ما زادت واشتدت. ووجدت من الصعب عليَّ تماما المشي حافي القدمين فوق الرمل الساخن، وعند الساعة الثالثة مساء وجدت الترمومتر الموجود في خيمتي يسجل ٩٧ فهرنهيتية. هذا يعني أن أحوال العاصفة الصباحية قد تحولت إلى ضوء شمس يتوهج بلا هوادة في المنخفض الذي نحن فيه، الأمر الذي كان يضايق أرواح الجميع، إلى حد أن الناس بدءوا يتكلمون من جديد عن العودة السريعة إلى الشمال. أبلغ سعدان عن اقتراح تقدم به زايد في الحوار الذي دار بينهم عندما كانوا متحلقين حول نار القهوة والذي يقضي بأن يطلبوا مني ضمانا مكتوبا ضد احتمال العقاب في حال وفاتي في الصحراء! تقديم مثل هذا الضمان مع هذه الصحبة من الرفاق الذين من هذه النوعية أمر لا يمكن الموافقة عليه أو إقراره. لكن هذا الموضوع لم تجر إثارته في وجودي، وعندما جلست مع رفاقي لتناول القهوة بعد صلاة العصر، انتهزت الفرصة وفتحت النقاش حول خططنا المستقبلية.

قلت لرفاقي. تعلمون أننا اتفقنا جميعا، في بداية الرحلة أن ننتهي من مهمتنا معًا حتى يمكننا العودة إلى مكة في الوقت المناسب لأداء فريضة الحج. وفيما يخص هؤلاء الذين سيرافقونني عبر الصحراء إلى منطقة السليل، ما يزال أمامنا متسع من الوقت لتحقيق هذه المهمة، لكننا متفقون على أن إبل النقل لن تكون مصاحبة لنا. كنت أتطلع إلى قيام إبل النقل بالذهاب عن طريق بئر الفضيل ومقينمة ثم تنضم إلينا في وادي الدواسر، لكن الوقت المتبقي لا يسعفنا بذلك. وأنا أقترح أن تتجه إبل الحمل مباشرة إلى الرياض، وسوف أرسل معهم رسالة للأمير سعود ألتمس منه إرسال أولئك الذين يودون أداء الفريضة بالسيارات إلى مكة، في حين يذهب أولئك الذين يودون العودة مباشرة إلى عائلاتهم، إلى الأحساء بصحبة الإبل.

كنت قد ناقشت هذه الفكرة مع واحد أو اثنين من الرجال الذين تصادف وجودهم بجوار البئر عندما كنت أستحم هناك. وكانوا قد وافقوا تماما على هذه الفكرة ولذلك قاموا على الفور بتوصيلها إلى رفاقهم. وفي كل الأحوال، كنت مندهشا تماما لتلك الموافقة الجماعية على المشروع عندما عرضته عليهم. لم يقولوا كلمة واحدة عن الضمان المكتوب أو الشروط الأخرى الخاصة برحلة الصحراء، وتمكنت من تدوين أسماء أولئك الذين يودون تسجيل أسمائهم في الجماعات الثلاثة المكونة للخطة. اتفقت أنا وزايد على أن تتكون جماعة الصحراء من تسعة أفراد بما فيهم أنا شخصيا، ولم يشكل تكوين هذه الجماعة أية صعوبة من الصعوبات؛ نظرا لأنى كنت قد عبرت بدقة عن رغبتي في استبعاد كل من على الجهمان وفراج من هذه الجماعة. ونظرا لغياب الراعيين عنا بصورة مؤقتة، لم يكن هناك سوى ثمانية أفراد هم الذين يتعين الاستغناء عنهم، وكان من بين هؤلاء الثمانية ثلاثة أفراد فقط يودون الذهاب إلى مكة عن طريق الرياض، في حين كان باقي الأفراد لا يودون العودة إلى عائلاتهم على وجه السرعة. تركنا الأمور عند هذا الحد بصورة مؤقتة، في حين بلغت أنا من السرور والانشراح حدا لم أر معه الانسجام التام الذى ساد فيما بيننا. كنت في الليلة السابقة قد رأيت في منامي جلالة الملك واقفا إلى جانبي، وغاضبا لاكتئابي. سألني الملك: ما الذى يؤلك، ويجعلك تبدو بالصورة التى أنت عليها الآن؟ لا تفكر بعد اليوم في متاعبك فسوف

أسـوى أنا كـل شيء. تزامن الانسجام العام بيننا مع قرار محدد للقيام بمحاولة لعبور الصحراء الخالية من الماء، ويبدو أن هذا القرار كان من وحى الحلم الذى رأيته فى منامى.

كان تغير الظروف المناخية، هو والمطر والريح المحملة بالرمال له تأثيره الواضح على "رمال نايفة المغنّية". التى بقيت صامتة طوال مقامنا فى نايفة هذه المرة، اللهم باستثناء لحظة عابرة عند الساعة الرابعة من مساء اليوم الثالث من شهر مارس، سمعت فيها ذلك الطنين المألوف. وعلى حد معرفتى المؤكدة إلى الآن أستطيع القول: إن هذا الغناء هو بفعل أسباب طبيعية تماما، نظرا لأن أحداً من رجالنا لم يكن فوق المنحدر أو قريبا منه. لكن الموسيقى لم تستمر سوى خمس ثوانى، كما أن إيفاد سعدان إلى أعلى سلسلة التلال الرملية لتبين ما يمكن عمله، باء بالفشل. لم تكن الظروف المناخية مواتية تماما، كما أن حرارة الجو فى مثل هذه الساعة، ربما تكون قد أدت إلى أن تكون كمية الرطوبة التى تشربها الرمل هى السبب الرئيسى وراء صمت الرمال وعدم غنائها. أما أبو جعشة فكان لديه رأى مفاده أن الجن كان غاضبا بسبب مرحنا الصاخب أثناء قيامه بعروضه الموسيقية تكريما لزيارتنا الأولى لمسكنهم. من هنا راح الجن يصلينا بالعواصف الرملية بدلا من إدخال السرور إلى نفوسنا عن طريق الموسيقى الشجية.

فى تلك الليلة تواصلت العاصفة التى كان يتخللها البرق بين السحب فى كثير من الأحيان فى اتجاه الشمال والشمال الغربى، لكن المطر لم يسقط علينا، وطلع الصباح علينا صحوا، وليس فى السماء سوى سحب خفيفة كانت تتحرك فى اتجاه الشمال. هبت علينا بعد ذلك ريح الشمال على شكل عصفات عنيفة، اكتسحت المنخفض بألواح من الرمال الطائرة، التى هددت ثبات الخيام بل دفنت تماما مخزوننا الكبير من اللحم الذى كان مع جماعة المطبخ. كان الجو لا يطاق داخل المخيم فى ظل وجود دوامات الريح لكن السماء فى معظمها كانت ملبدة بالغيوم، وكانت الشمس تحاول جاهدة النفاذ خلال هذه الغيوم على فترات متباعدة. هذا يعنى أن الجو أبرد مما كان عليه فى عصر

اليوم السابق، فى حين اقتنعت أنا تماما بالحقيقة التى مفادها أن هذا السقوط الفعلى للمطر، من واقع ما أشاهده الآن، كان يتركز عن بعد فى الناحية الغربية على الخط نفسه الذى يتعين علينا السير فيه على وجه السرعة.

ذهبت إلى البئر مرة ثانية خلال فترة العصر بغية الاستحمام هربا من حرارة خيمتى وفساد هوائها، الذى ازداد فساداً على فساده، بسبب تجمع زمرتى ورفاقى بصورة دورية، كيما يستدفئون بإشراق شمس خفة ظلى الجديدة، التى توقعوا لها أن تسفر عن المزيد من توزيع الهدايا والعطايا، على الرغم من أنى عقدت العزم على عدم توزيع أية مكافآت إلا لمن يستحقها. وسوف يحصل أفراد النقل على مستحقاتهم فى الرياض بعد أن ينقلوا بسلام الصناديق والحزم الوارد ذكرها فى رسالتى، فى حين سيجرى مكافأة هؤلاء الذين رافقونى بعد وصولنا سالمين.

تساقط قليل من قطرات المطر بينما كنت أستحم عند البئر، وعند الساعة الخامسة مساءً هبت علينا عاصفة رملية عنيفة من الناحية الشمالية الشرقية. دامت تلك العاصفة حوالى أربع ساعات بصورة متقطعة. أدت هذه الدوامة إلى امتلاء منخفض نايفة بسحب كثيفة من الرمل. وتوترت الحبال والأوتاد مرة بعد أخرى فى محاولة منها للإبقاء على الخيام فى وضع الثبات. انهارت الخيمة على رؤوس رفاقى، واستوت فوق رؤوسهم. انهارت خيمتى أيضا وأنا أحكم إمساكى بكل شىء مخافة أن تذروه الريح. وهذه واحدة من قواريرى القاتلة الثمينة، التى أصيبت من قبل بشرخ نتيجة حادث من الأحداث، تصطدم بحجر وتتحطم إلى قطع صغيرة. وزحفنا من تحت حطام الخيمة، وجلسنا كلنا فى العراء بينما كان الرمل اللاذع يتلاعب بنا، كما لو كان خرطوما من الخراطيم. كان من الصعب علينا الوقوف فى صف واحد عندما قمنا لأداء صلاة المغرب. وتناولنا عشاءنا فى ظروف بالغة السوء. أما مسألة تمكن زايد ومسينيد من طهى هذا الطعام فى مثل هذه الظروف فأمر يستحق العجب، وكانت معجزة بالفعل أن تمكنوا من طهى هذا الطعام دون أن يختلط بالرمل.

كنت قد ذهبت إلى الصحراء قبل غروب الشمس كى أقوم بجولة قصيرة، وكان المشهد الذى رأته عيناى مدهشا بحق. كانت هناك سحب سوداء كثيفة من الرمال

تسابق العاصفة على امتداد القمم المحيطة بنا مثل أسراب اختيار القتلة Nalkyries، فى الوقت الذى بدأت تتقاطر فيه حبات الثلج الدوارة، من فوق قمم السلاسل الرملية العالية، كما لو كانت أعلاما داكنة اللون، ومثلثة الشكل، خلال الريح وعلى سطح الأرض، مثل صفوف متتالية من الخيّالة. هذا منظر ومشهد لا ينسى، منظر هذه الصحراء عندما تهب عليها العواصف، وصوت الرعد ينبعث من بعيد ووميض البرق الشديد فى السحب المنخفضة. وتوقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت فجأة، لكن السماء ظلت ملبدة بالغيوم، ولم أتمكن قبل طلوع الفجر من القيام بالملاحظات الفلكية الضرورية، التى كنت أنتظر القيام بها بفارغ الصبر طوال هذه الأيام. ولم أستطع مع ذلك سوى التعامل مع نجم واحد – نجم السنبلة – نظرا لأن طلوع النهار قطع علىّ ملاحظة نجم النسر الطائر.

طلع علينا يوم جديد، اليوم الخامس من شهر مارس، وهو اليوم المحدد لمحاولة عبور الصحراء الخالية من الماء مرة ثانية، تحت أى ظرف من الظروف. وصلت الإبل فى فترة الصباح حسب الخطة الموضوعة، فى حين راح زايد هو ورفاقه يتخذون الترتيبات المطلوبة طوال اليوم. كان لابد من رتق قراب الماء وتشحيمها ثم ملئها من البئر، اثنتان وعشرون قربة وثلاثة براميل سعة كل منها خمسة جالونات (كنا نحمل فيها الزيت المطلوب لمصابيحنا) جرى تخصيصها لجماعة الصحراء، فى حين تقرر أن تأخذ جماعة النقل القرب العشرة المتبقية، نظرا لأن هذه الجماعة سيكون بوسعها الحصول على الماء على فترات على امتداد الطريق. وكان لابد من تقسيم المؤن والإبل، التى سيكون خمسة عشر منها معنا فى جماعة الصحراء، وأربعة عشر جملا ستذهب مع الأمتعة والمنقولات. تقرر أن تكون الكلبة السلوقية بصحبتنا، وإلى الدقيقة الأخيرة لم نكن قد انتهينا تماما من تشكيل الجماعتين. التمس محيميد الراعى الصغير منا أن نسمح له بالذهاب إلى مكة معنا عبر الصحراء، وأحسست بالرضا عندما وجدت أن كل الذين انضموا إلى جماعتى لم يتراجعوا أو ينسحبوا، وتطوع كثيرون آخرون للانضمام إلينا، ورجوا أن نسمح لهم بذلك. أما فراج الذى كان يفكر بلا شك فى العناية "السماوية"، فكان واحداً من أولئك الذين طلبوا الانضمام إلينا، لكنى رفضت عروضه. هناك

شخص آخر هو حسن خر الديب، هو ومحيميد، قبلت في النهاية إضافتهما إلى جماعتنا، التي ارتفع عددها إلى أحد عشر شخصاً. راح الباقون يفكرون فيما بينهم وبين أنفسهم في مزايا الذهاب إلى مكة ومزايا الذهاب إلى العائلات التي تنتظر على مضض في الأحساء. أما فراج، بعد أن رفضت التماسه ضم اسمه إلى جماعتنا، فقد غيَّر رأيه ما لا يقل عن سبع مرات في ذلك اليوم، وفي النهاية قرر هو وعلى الجهمان وابن حميد التخلي عن فكرة الحج والعودة إلى الأحساء. وجرى في الوقت المناسب البت في هذه الأمور كلها والانتهاء منها، وهنا قمت بكتابة رسالة للأمير سعود دونت ذلك الذي تم الاتفاق عليه، واخترت عبد الرحمن ليكون هو حامل هذه الرسالة.

كنت قد خصصت في ذات الوقت كل وقتي لحزم كل الأشياء التي سوف ترسل إلى الرياض، ذلك أن رحلة الصحراء تطلب أقل قدر ممكن من الأدوات، لكن الأمر لم يكن سهلاً في تحديد ما يمكن أخذه وما يمكن إرساله إلى الرياض. ومن باب التحوط للحوادث المنتظرة، وهو أمر يتعين على الإنسان أخذه مأخذ الجد، قررت إرسال الخرائط كلها إلى الرياض، ومعها دفاتر الملاحظة، ومفكرتي اليومية الرئيسية حتى لا تضيع هذه الأشياء على العالم في حال فشلنا في عبور الصحراء. وعليه كتبت يومياتي حتي تاريخه قبل أن أودعها واحداً من الصناديق المرسلة إلى الرياض. كنت أكتب يومياتي إلى آخر لحظة في الوقت الذي كانت خيمتي تعج فيه بأفراد الجماعة العائدة، الذين كانوا يودون أن يؤكدوا لي حقهم في المكافأة عن أعمالهم الماضية وأعمالهم المستقبلية التي يخشون ضياعها إذا ما تخلوا عني في هذه المرحلة. كان فراج هو أكثر الناس إلحاحًا في هذه المسألة، يجيء بعده على الجهمان في المرتبة الثانية. قال على الجهمان: يا شيخ عبدالله، أنت تعلم أني كنت أود مرافقتك إلى النهاية، لكن قافلة نقل الأمتعة بحاجة إلى مرشد، وأنا أعرف المكان الذي ستمر فيه هذه القافلة، أفضل من أي فرد من أفرادها، في حين أني لا أعرف شيئًا عن المسافة بين هذا المكان والسليل. وأنا في خدمتك إذا ما أردت لي أن أكون معك. وأنت تعلم أن المؤن التي مع قافلة النقل غير كافية. ألا يمكن أن تعطينا شيئًا من النقود نستعوض به

مؤننا الناقصة على الطريق؟ سألته بشيء من الاستخفاف، وأين ستجد المؤن التى ستشتريها من الصحراء؟ أجابنى قائلاً. نحن نستطيع شراء ما نحتاج إليه من الخرج عندما نصل إليها. رددت عليه: توكل على الله ! أنتم إذا ما وصلتم إلى الخرج ستكون المسافة بينكم وبين الرياض مجرد مسير يوم واحد. عاد بخفي حنين لكنه لم يشعر بالخجل، ثم عاد إليَّ من جديد ليعبر عن أمله في ألا أكوان نسيت أن أخصص له مكافأة كبيرة عن سائر الأفراد الآخرين نظير خدماته كمرشد لنا. أنت ومن هم معك، ستعرفون المكافأة المخصصة لكل واحد منكم عندما تصلون إلى الرياض. واقع الأمر أن كل واحد منهم حصل على مكافأة مساوية لتلك التى حصل عليها زميله.

بانتهاء فترة العصر انتهينا نحن أيضًا تقريبًا من الاستعدادات كلها. سقينا الإبل وأغريناها بشتى الطرق كى تشرب بغيتها من الماء، وهو ما حدث بالفعل نتيجة فترة الراحة وسط المراعى الجيدة. ونحن بدورنا جرى استدعاؤنا لحضور الوجبة الأخيرة من لحم الجمل والأرز، والتى تحدد موعدها الساعة الخامسة مساء. وجرى تحميل الإبل، وبعد ذلك بنصف ساعة خرجت قافلة الأمتعة من المنخفض إلى الصحراء ويممت مسيرها صوب الشمال الشرقى. تأخر كل من فراج وعلى الجهمان لحظة عند نار القهوة، التى تجمعنا حولها لشرب دور من القهوة قبل القيام بمهمتنا. وعندما نهض فراج وعلى الجهمان ليلحقا بقافلة النقل حيانى كل واحد منهما بقبلة طبعها على جبهتى. قال على الجهمان: العفو والسماح عن أخطائنا، رددت عليه ليس هناك شيء حتى يمكن العفو عنه، لكنى أشكرك على خدماتك. فى رعاية الله ! وبذلك أكون قد فارقت ثمانية من رفاقنا بعد شهرين من التجول فى أرض قاحلة جرداء. وداع العرب وداع رجولى بحق. وبكلمات لطيفة على شفتيه أخذ يجرى فى الصحراء ويختفى عنا بعد ذلك. على الجهمان واحد من أولئك الذين لا ينظرون مطلقًا إلى الوراء.

الفصل الرابع

الأرض الخراب الخالية من الماء

"حيث لا يوجد الماء، هذا هو الربع الخالي، ولا أحد يذهب إلى هناك"

سويد العزومة

تراجعت رمال نايفة خلفنا فى ضوء الغسق، ونحن نسير فى الاتجاه الشمالى الغربى قاصدين أدراج، أحد عشر رجلا ومعهم خمسة عشر جملا وكلبة، جرى تحميل الإبل بقراب الماء وأكاليل من اللحم المجفف، الذى كانت تفوح منه رائحة طيبة فى هواء الليل البارد.

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب فى الوقت الذى كنا مستعدين فيه للبدء فى الرحلة، كنا قد تأخرنا لحظات قليلة للانتهاء من أداء الصلاة بجانب نار المخيم، كانت السحب قد بدأت تتجمع فوقنا، عندما ركبنا الإبل استعدادا للقيام بالمغامرة. كان الفأل حسنا - كنا جميعا بحال طيبة، بشر وحيوانات. كانت كثبان رمال الجزيرة العربية قد اكتست عباءة من الضباب الإسكتلندى، الذى كان بعض رذاذه اللطيف على فترات، بينما كنا نسير فى الظلام. كل الذى كنا نراه عبارة عن صور خيالات رفاقنا الذين كانوا يمشون فى ذلك الصمت الشبيه بصمت الأشباح. واصلنا سيرنا مدة خمس ساعات عبر السلاسل الرملية المألوفة والوديان المألوفة فى منطقة نايفة - عين سالة إلى أن وصلنا إلى سلسلة كبيرة من الكثبان الرملية على حدود أدراج، التى توقفنا فيها لتمضية الليل، وذلك عندما كان حزام نجم الجوزاء فوق الأفق الغربى. هناك حادث واحد

هو الذى تسبب فى اضطراب بسيط أثناء السير. اكتشفنا أننا افتقدنا الكلبة الأقفة. كانت الكلبة هى الأخرى قد فقدت صديقها العزيز الطباخ الذى كان فى صحبتنا، وعادت إلى نايفة للبحث عن ذلك الصديق. صالحنا أنفسنا مع هذه الخسارة المحزنة، لكن فرحنا كان عظيما عندما رأينا ذلك الشكل المألوف وهو يعود مرة ثانية إلى المخيم عقب وصولنا مباشرة. لقد ذهبت الكلبة إلى محل إقامتنا السابق وعادت مقتفية أثرنا. ذكاء كلاب الصحراء السلوقية يكاد يكون ذكاء بشريا. أثناء الظلام نجحنا إلى حد ما فى تحاشى أو التغلب على سلاسل تلال السواهيب العالية، لكن كانت هناك نسمة شمالية معتدلة مصحوبة ببعض رذاذ المطر، جعلتنا نستشعر برودة الهواء وواصلنا سيرنا ونحن حاسرو الرؤوس. ومع ذلك وصلنا المخيم ونحن متعبون وجوعى. وحصل أبو جعشة على شكرنا وامتناننا عندما أحضر لنا طبقا كبيرا من الأرز، استطاع الرجل أن يدخره من الوجبة السابقة، وأخفاه فى خرج سرج الجمل، أكلنا ذلك الأرز مع شىء من اللحم المجفف بعد طبخه على وجه السرعة على شىء من الجمر، ليتحول إلى ما يشبه الجلد. كانت نياق الحليب قد بدأت تعطى مقدارا وفيرا من الحليب، بعد الأيام التى أمضتها فى المرعى، وكانت هناك القهوة أيضا التى شربناها قبل الاستعداد للنوم. لقد بدأنا بداية طيبة وبدا كل شىء على ما يرام.

عندما صحوت قبيل الفجر – بعد أن نمنا فى العراء نظرا لعودة الخيام مع قافلة النقل – كان هناك شىء من الندى على الأرض، مثلما حدث فى نايفة صباح اليوم السابق. هبت على الصحراء نسمة شمالية باردة بشكل منتظم، فى حين كانت السحب الخفيفة تغطى القسم الأكبر من السماء بكتل من السحاب برتقالى اللون. كنّا سعداء بالحركة التى ترتبت على التجهيزات التى قمنا بها استعدادا للعمل اتقاء لبرودة الليل، وجلسنا لحظة بالقرب من النار لاحتساء نصيبنا من قطرات القهوة، عند الساعة السادسة والنصف كنا قد ركبنا إبلنا، واتجهنا صوب الحافة الجنوبية لسلسلة التلال الرملية، إلى أن وصلنا إلى تل منخفض تمكنا من عبوره، ومواصلة سيرنا فى الاتجاه غرب شمال غرب.

كانت الحياة النباتية وفيرة[1] فى هذه المناطق مما جعل الإبل تفيد منها أثناء السير، وترتب على ذلك بطء تقدمنا، لكنى لم أقل كلمة واحدة فى هذا الشأن. كانت الناقة النعرية راحلة لى، والنعرية هى بطلة الولادة فى الصحراء، إنها أفضل الإبل التى معنا جميعها. وهى ناقة قوية وسريعة من ناحية ثانية. كان على الجهمان يكره التخلى عن هذه الناقة، لكن حاجتنا كانت ماسة على نحو يجب المشاعر كلها والمسائل الشخصية. قبل شهرين كانت النعرية شموسا على نحو عجزت يداى غير الخبيرتين عن السيطرة عليها، لكن السير الطويل هدها، وأصبحت الآن طيعة فى الركوب، على الرغم من أنى تحتم علىَّ أن أكون يقظا عندما أُقبل على ركوبها. كنت أصر دوما على ركوب الناقة وحدى بلا عون أو مساعدة، وأصبحت ماهرا فى هذه العملية، على الرغم من أن أقل لمسة بالركبة على السرج يمكن أن تجعل هذه الناقة تعدو مسرعة. راحلتى الأصلية، الناقة البحرانية، أصبحت من نصيب زايد، وهى الأخرى حيوان جيد على الرغم من بطئها وثقلها إلى حد ما، لكن زايد كان هو شيخ الجمَّالة من بيننا جميعا، وهو الذى يعرف كيف يستفيد منها إلى أبعد الحدود دون أن يبذل جهدا ملحوظا.

واصلنا سيرنا عبر المنخفضات المتدحرجة، التى بدأت حياتها النباتية فى الانحسار مع تقدمنا، وجعلنا قمة أدراج البارزة عن شمالنا على بعد حوالى ميلين أو ثلاثة أميال. كان الجو بردًا ورطبا من تحت السماء الملبدة بالغيوم. وبالتالى لم يكن هناك ما نتمناه غير ذلك. وبين الحين والآخر كانت الكلبة السلوقية التى تحمل اسم الأقفة تنطلق فى أعقاب أرنب من الأرانب البرية، معتمدة فى ذلك على عينيها بدلا من أنفها. والعربى يظن أن الكلب السلوقى يستعمل حاسة البصر بدلا من حاسة الشم، لكن هذا الأمر يصعب البت فيه بشكل قاطع. يبدو أن كلبتنا كانت تقوم بالمقاطعة فى الأماكن التى تُكَوِّنُ فيها آثار أقدام الأرنب البرى دائرة، لكنها كانت أيضا سريعة جداً فى التقاط فتات الطعام التى يلقيها لها أى إنسان من فوق ظهر الجمل، حتى ونحن فى الظلام، وأنا أشك أن حاسة الشم تلعب دورًا فى نشاط هذه الكلبة.

(١) الحض، والأبال، والقاة، والأنداب والبركان.. أى كل النباتات الدائمة فى الرمال الشمالية، ما عدا الزهر.

كانت الآثار الرملية تتجه كلها إلى الناحية الشمالية من أدغال وشجيرات الحياة النباتية نزولا عن رغبة الريح الشمالية التى سادت بدءا من تغير الطقس، لكننا كنا نرى آثار هذه الرمال فى الناحية الغربية أيضا . كان سالم، من منطلق تمتعه بمسئولية المرشد الوحيد فى هذا الجزء من الرحلة، يركب معى دوما فى المقدمة. لما كانت ناقة سالم حيوانًا ضخمًا، فقد كانت تحمل قربتين من قراب الماء وشريحتين متدليتين من اللحم النيئ، الذى كان الراكب يتذوقه بين الحين والآخر. قال سالم: هذا اللحم طيب، استطعم منه قطعة صغيرة وسوف ترى بنفسك. رددت عليه: أعطنى قطعة صغيرة من القطعة التى فى يدك. لم يكن اللحم فاتحا للشهية أو مُقَبِّلاً، لكنى وجدته مستساغا تماما من حيث الطعم – هذا لحم جيد وقوى لسد وتعويض الضعف الناتج عن الجوع. كان سالم هو وسويد، وهما من قبيلة واحدة، قد احتفظا بمخزون مشترك من ذلك اللحم، كما اقتسما أيضا محتويات أربع قراب من الماء كانا يحملانها فيما بينهما. كان سالم لا يشرب دون أن يبلغ سويد بذلك ويدعوه إلى الشرب هو الآخر. وسرعان ما أصبحت أنا أيضا شريكا فى ذلك المخزون المشترك من اللحم، لكنى كنت قد توقفت عن شرب الماء. كان سالم مثل التلميذ الجيد إذ راح يفكر فى كل الأشياء الحلوة التى سيأخذها معه من مكة إلى عائلته. قال سالم : سوف تتحدث مع الملك، لكى يصدر أمراً إلى تموينات الأحساء بإعطائى جوالين من الأرز. وجوال من السكر، والقهوة. قلت: سوف نشترى قهوة من السليل أو من بيشة إذا ما وصلنا إلى هناك. قوافل القهوة تأتى إلى هذه الأماكن قادمة من اليمن عن طريق نجران، ولابد أن يكون الثمن رخيصا، قال سالم: والله، أنت صادق والله أنت صقر[1] أكثر منى. إن شاء الله سيكون طريقنا مباركا – وإن شاء الله سيكون الملك مسرورا منا. وسوف تتحدث معه عنا. كان سالم يود لنفسه عباءة لأن عباءته لم تكن من النوع الجيد، وخفيفة على نحو لا يدفع البرد عنه، وأعربت له عن رغبتى فى إعطائه العباءة التى ألبسها على أن يكون ذلك فى نهاية الرحلة إذا ما نجحت، وفى الوقت المحدد فعلا أصبحت هذه العباءة ملكا لسالم. كانت العباءة من النوع الحساوى الثقيل وتساوى حوالى ٣ جنيهات إنجليزية.

(١) صقر: العبارة هنا للتفضيل مثل ذكى وأذكى.

خلال الفترة الباكرة من الصباح كان يتعين علينا تحاشى بعض الكثبان الرملية الوعرة العالية، التى تتخللها بعض العقبات الشبيهة بالركام الترابى والحجرى، لكننا بعد أن عبرنا الحافة الحصينة التى هى الحد الفاصل بين منطقة عين سالة وخلات أدراج، دخلنا سهلا كبيرا متدحرجا فيه سلاسل من التلال الرملية المنخفضة على بعد مسافات كبيرة. هذه المنطقة لم يكن فيها أى شىء من شجيرات الحض أو شجيرات البركان، أما عشب الأنداب فقد كان ميتا أو جافا تماما، لكن حشائش الآبال كانت خضراء وكانت شجيرات الألقة حديثة النمو وزاهرة. مررنا بشىء من روث الوعل الأبيض، ولكن الشىء الحى الوحيد الذى شاهدناه قبل وقفة الصباح عند الساعة الحادية عشر صباحا كان عبادة عن طائر واحد من طيور المغنى الصحراوية. كان غداؤنا مكونًا من التمر المغموس فى الزبد والقهوة، وأخذنا بعد ذلك قسطا من الراحة كيما نترك الإبل ترعى بعض الوقت فى الأماكن العامرة بالحياة النباتية. وحسَّنْت الموقف عندما أمسكت لأول مرة بعد انتظار طويل ومحاولات كثيرة فاشلة، العينة الوحيدة من الفراش الذى يسمونه Spindasis. كانت السماء ملبدة من حولنا بالغيوم، وكانت هناك نسمة جميلة تهب علينا عندما استأنفنا سيرنا عند الظهيرة.

بدأت الأرض تزداد قحولة وتقل حياتها النباتية باستثناء بعض شجيرات الآبال المبعثرة هنا وهناك، فضلا عن قلة قليلة من النباتات الأخرى. ظهر ضمن المشهد وعلى مسافة بعيدة غراب ليؤكد لنا انعدام الحياة فى المنطقة المحيطة بنا - رحت أسجل أثناء سيرنا، السلاسل الكثبانية الرملية والوديان، وهذا بحد ذاته عمل ممل فى عالم ممل تماما. راح الرجال يغنون من باب التخفيف من ضجرهم. وراح سالم يحكى لى عن خبراته فى الصحراء. لم يسبق مطلقا لسالم أن حاول عبور الصحراء من ناحية شناء أو نايفــة، ولم يسمع قط عن أى إنسان سبق أن قام بهذا العمل. قال سالم: نحن بكل تأكيد أول من يقوم بهذا العمل، أو بالأحرى هذه الرحلة. وأنا لا أعرف شيئا بعد الحواية والشويكيلة، وكل ما لدى من معرفة عن الأجزاء الأخرى هو من باب النقل عن كلام الآخرين. لكن حدث ذات مرة منذ زمن بعيــد، أن ركبت مع النفل (المقصود

آل نقل) من منطقة الأفلاج إلى منطقة نايفة، وكنا متجهين لغزو آل سعار. وفى مرة أخرى سافرت من بئر الفضيل إلى السليل مع الإبل أثناء عملية الرعى، أى عندما كان المطر يسقط علي هذه الأجزاء. وقد بقيت القطعان فى المرعى فى الصحراء، فى حين ذهبت أنا إلى القرية لشراء بعض من التمر والتموينات الأخرى. لكن هذا هو الربع الخالى، لا أحد يأتي مطلقا إلى هذا المكان.

وعليه واصلنا مسيرنا متعبين طوال عصر ذلك اليوم، عبر سهول شاسعة متموجة تموجًا هينًا لينًا، وتتباين بين الحين والآخر عن طريق رقع من الأرض الوعرة، تشكلت بفعل التداخل بين سلاسل التلال وسلاسل الكثبان الرملية. فى البداية كانت هناك ريح خفيفة، باستثناء العصفات المنعشة من الريح الشمالية الغربية، فى حين كانت السحب متراكمة فى الجانبين الجنوبى والغربى، وأخذت الريح تقوى بصورة متدرجة، وهى دائمًا تهب علينا من اتجاه واحد، ونغّصت ستائر الرمل الطائر علينا الفترة الأخيرة من فترة العصر. وعند الساعة الثالثة والنصف مساء بدأت تهب علينا عاصفة معتدلة، وألبت علينا عاصفة رملية ضعيفة غطّت قسما كبيرا من المنطقة، الأمر الذى أدى إلى حجب الرؤية. واصلنا جلدنا وكفاحنا، لكن يبدو أن سالم بدأت تظهر عليه علامات التعب. قال سالم: أنا عطشان دعنا نقف برهة قصيرة حتى يشرب رفاقنا. رفضت كلامه رفضا قاطعا. وقلت له: سنضيع الوقت إذا ما توقفنا، نحن الآن فى المقدمة، مادمنا واصلنا السير سوف يتبعونا. انظر كيف يسيرون على بعد مسافة كبيرة منا فى الخلف. ربما يودون التخييم الآن، على الرغم من انقضاء منتصف فترة العصر، وإذا ما توقفنا فذلك يعنى التخييم هنا طول الليل. والله! أقسم الرجل بشىء من اليقين، هذا المكان فيه مرعى طيب. هذا المكان سيفيد الإبل. قلت له: سنصل إلى مرعى أفضل من هذا المرعى قبل غروب الشمس. واقع الأمر أنه كانت هناك حياة نباتية وفيرة، متباينة الأنواع، لكننا تجاوزناها، ولم تتحقق نبوءتى. بعد ذلك بساعة، وبعد بحث فاشل عن المرعى، توقفنا بناء على إصرار من زايد – كان زايد قد اندفع قادما من الخلف فى المؤخرة ليعترض على مواصلة السير – فى منخفض ضيق على الجانب الجنوبى من سلسلة عالية من سلاسل الكثبان الرملية، كنا لا نزال فى منطقة خلات أدراج،

وكنا قد قطعنا ٢٧ ميلا خلال النهار – وهذا أداء معقول لكنه ليس مرضيا بشكل خاص. ومع ذلك لم يكن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نستاء من مسافة الخمسة وأربعين ميلا التي قطعناها منذ أن غادرنا نايفة مساء اليوم السابق، ومع ذلك كانت أحوال الطقس مواتية ولا بأس بها. واقع الأمر أن السماء كانت ملبدة بالغيوم طوال فترة المساء، على الرغم من عدم اكتشافنا لأي دليل من دلائل المطر الحقيقي في أي اتجاه من الاتجاهات، وبدأت الريح تهدأ وتتحول إلى نسيم معتدل بدأ يهب علينا من ناحية الشمال. كان خلو المكان من الحياة يبعث على الاكتئاب، إذ لم نر في المنطقة التي مشيناها كلها سوى أربعة من الطير: أبو فصادة، وطائر آخر من الطيور التي يسمونها مغنى الصحراء Warbler، إضافة إلى الطائرين الآخرين اللذين سبق أن صادفناهما قبل الوصول إلى المخيم. كان لدينا بطبيعة الحال لحم نُحَسِّنُ به من وجبة العشاء، على الرغم من الخطأ الذي وقعوا فيه للمرة الثانية في طبخ شرائح اللحم المجففة، فقد طبخوها هذه المرة في شيء من الزبد، كان معنا تمر أيضا، كمية صغيرة جداً جاء بها سعدان، الذي كان مسئولا عن الاحتفاظ أو المحافظة على جوالي التمر الثمينين، والذي أعطيته تعليمات صارمة تقضي بالاقتصاد في تلك الكمية من التمر بحيث تكفي اثني عشر يوما. كان معنا أيضا قهوة وحليب كالعادة، وأخيرا وليس آخراً، كان هناك أيضا إبريق من الشاي لي أنا شخصيا، من مخزون الطوارئ الصغير الذي كان بحوزتي، والذي قدرت له أن يستمر إلى نهاية المسيرة في ضوء معدل استهلاكي المعتاد، بواقع ثلاثة أباريق (صغيرة) في اليوم الواحد – وعلى أمل السير في ساعة مبكرة، نمت مبكراً وانقضى الليل بلا أحداث سوى تغير اتجاه هبوب الريح من الشمال إلى الشرق.

أيقظوني من نومي بعد منتصف الليل بساعة، على تساقط بعض قطرات المطر من السماء. وكان ما يزال هناك نسيم خفيف يهب علينا من الشرق وكان الهواء مشبعا بالرطوبة، ركبنا إبلنا على الفور بلا طعام أو قهوة، وواصلنا سيرنا في اتجاه الغرب عبر منخفضات رملية متموجة تموجا خفيفا ليس فيها سوى ثلاث سلاسل كثبانية رملية – ولم تكن تلك السلاسل وعرة – تجاوزناها، وعند الساعة الخامسة

صباحا توقفنا لأداء صلاة الفجر وتناول إفطار خفيف. كان المطر متقطعا معنا طوال المسيرة، وقبيل الفجر حدث كثير من البرق والرعد في الجنوب.

عندما استأنفنا مسيرنا بعد توقف دام ساعة من الزمن دخلنا مباشرة إلى منطقة حض بني زينان، ذلك السهل الشاسع ذات التموجات الهينة اللينة، والذى ضربه الجفاف، فماتت الحياة النباتية فيه كلها اللهم باستثناء قلة قليلة من شجيرات الآبال، كانت الجذول(*) والجذور المكشوفة منذ زمن طويل، سوداء اللون كما لو كانت محروقة بفعل النيران. كان المشهد الذى سرنا خلاله قاحلا، وكان الصمت يغلِّفنا جميعا. وتوقفت الريح وكانت السماء تتجه نحو الصفاء. لم نشاهد أى أثر أو دليل على الحياة هنا فى هذا المكان، على الرغم من مشاهدتنا لروث الوعل الأبيض فى مكان أو اثنين. كنا فى منتصف منطقة الوعل الأبيض، لكن صيادينا كانوا قد افتقدوا الرغبة فى المطاردة، والمدهش بحق أن أحداً منا طوال هذه الأسابيع، لم يسبق أن رأى هذا الحيوان ولو رؤية خاطفة، وبخاصة أننا كنا نتطلع بثقة إلى رؤية هذا الحيوان بأعداد كبيرة. تحدث علي الجهمان عن إمكانية الحصول على الماء فى حال الطوارئ، عن طريق اعتصار السائل الموجود فى كروش الحيوانات التى سيجرى اصطيادها.

سألت سالم ونحن فى طليعة رفاقنا كالعادة: بفرض أن الإنسان كان يشعر بالظمأ الشديد، وليس معه ماء، هل يمكن للإنسان استبدال بول الإبل بالماء؟ أنتم تستخدمون بول الإبل علاجا للشَّعر ودواء للمعدة. هل يمكن لك استعماله فى الشرب فى حال الضرورة؟ أجابني، لا، لأن بول الإبل سيزيدك عطشا على عطش، لكننا نحصل فى بعض الأحيان على ماء الشرب بطريقة أخرى. نحن نأخذ الغذاء غير المهضوم من كرش الجمل ونعصر منه الماء. سألته: هل سبق لك أن أحسست بالظمأ لفترة طويلة يا سالم؟ أجابنى: ربما كان ذلك ليومين وليس أكثر من ذلك، وهذا من فضل الله! لقد سمعت عن أناس بقوا فترات أطول من ذلك بلا ماء ربما لأربعة أيام، لكن ليس أطول من ذلك، والله أعلم.

(*) واحدة جِذل (بكسر الجيم وتسكين الدال)، وهو أصل الشجرة الباقى بعد قطع جذعها. (المترجم)

مع طلوع الصباح، بدأت رقع السماء الزرقاء الجميلة تقشع مساحات كبيرة من السحب، وزادت حرارة الشمس من خلف غشاء رقيق من الضباب والغبار، كان الجو خانقا، وكان سطح الرمل يبدو متماسكا وصلبا نتيجة ارتوائه مؤخرا بالماء. كنَّا نرى هنا وهناك خليطًا غير منتظم من سلاسل التلال الرملية القصيرة منعدمة الأشكال، هذا الخليط غير المنظم هو الذى كان يكسر حدة الرتابة العامة التى تسود السهل القاحل، وشاهدنا أيضا فى مكان آخر مَسيًفا عاليا من الكثبان الرملية الناعمة يمتد مسافة ميل أو نحو ذلك فى اتجاه الجنوب برماله البيضاء والرمادية، بفعل توالى كل من أشعة الشمس والظل. كانت النباتات الصحراوية جافة وميتة فى سائر الأنحاء. ولم نر شيئا حيا إلى أن دخل علينا وقت الظهر، وعندها اندهشت عندما رأيت طائرا من طيور السنونو[*] تائهًا فى هذا التيه القفر! كان ذلك الطائر يطير من حول شجيرة من شجرات الآبال عندما رأيناه أول مرة. دار ذلك الطائر مرتين حول قافلتنا الصغيرة بطريقة ودية للغاية، مثلما يفعل حول السفن فى عرض البحر، ثم اختفى بعد ذلك فوق سلسلة من التلال الرملية ولم يعد بعد ذلك – من الواضح أنه مهاجر إلى الشمال. بعد ذلك بأيام قلائل قُدِّر لنا أن نرى رفاقه وبأعداد كبيرة فى منطقة السليل – مما يدل على أن هذه الطيور كانت تقوم بهجرتها الموسمية. قد يكون هذا الطائر ضل طريقه عن بقية القطيع، أو جرفته الرياح بعيداً عن رفاقه وجعلته يضل طريقه، لن يعثر هذا الطائر على ماء ينعش به نفسه قبل الوصول إلى جابرين.

واصلنا سيرنا، بمحاذاة سلسلة طويلة جداً وغير عادية من التلال الرملية تمتد بامتداد البصر فى اتجاه الشمال الشرقى والجنوب الغربى. وفى الوقت المحدد أصبحنا على زاوية قائمة مع منحدر هذه السلسلة الطويلة شديد التحدر، النازل إلى القمة، ومنها إلى سهل قاحل تماما، حيث يتشكل الرمل على شكل أضلع فى الطريق الذى كنا نسير فيه، وكان سطح هذا السهل رطبا إلى عمق يقارب نصف البوصة. هذا يوضح أن المطر هنا كان أكثر مما نعمنا به فى أى مكان من الأماكن الأخرى، وتحدثنا

(*) يقولون له أيضًا الخطاف، وهو طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. (المترجم)

عن الحياة النباتية الوفيرة التى ستشهدها هذه المنطقة - وقد فات أوان ذلك؛ لأننا لم نعط المطر الفرصة كي يعمل عمله. ربما استطاع عرب الصحراء الكبيرة خلال شهر أو أكثر إحضار ماشيتهم إلى هذا المكان للتمتع بالمرعى الوفير، وسيجدون فى هذا المكان المزيد من الوعول البيضاء والأرانب البرية، التى توفر لهم مصدرا طيبًا من مصادر اللحوم.

الاسم بنى زينان[١] قد يشير إلى الطبيعة السهلة لهذا المكان المكون من سهول ووديان واسعة عديمة الملامح، تقع فيما بين سلاسل بعيدة من التلال الرملية المنخفضة، وذلك على العكس تماما من منطقة الحواية[٢] التى معناها المنخفضات الكثيرة الضيقة، أو الوديان الواقعة بين سلاسل الكثبان الرملية العالية، الشبيهة بحواجز الأمواج الطويلة فى بحر من الأبحر الضحلة، هذا المكان يختلف عن كل من الحباكة أو التركيب الركامى، فى أنه يشبه محيط تتقاذفه العواصف وتغطيه "خيول بيضاء".

واصلنا سيرنا مدة لا تقل عن سبع ساعات دون توقف للراحة، وعند الساعة الواحدة مساءً، أعرب الجميع عن رغبتهم فى وقفة قصيرة طلبا للمرطبات فى هذا السهل الدوار. لم يكن فى هذا السهل شىء ترعاه الإبل، وفى وجود الشمس التى كانت تتسلل من خلال الفجوات التى بين السحب، التى ازداد تلبدها فى الجنوب، كان يغلب على الجو طابع الرطوبة والحرارة، على الرغم من هبوب نسيم شمالى خفيف. قبل التوقف مباشرة شاهدنا أثرا لأرنب برى، كما شاهدنا أيضا روث الوعل الأبيض وغزال الريم، لكن بدا من غير المحتمل أن نشاهد أية طريدة فى ظل مثل هذه الظروف. لم يكن فى المكان شىء يعتمد عليه الصيد، على الرغم من التقائنا فى فترة العصر ببعض من روث الوعل الأبيض وغزال الريم فى كثير من الأحيان، الأمر الذى جعلنا

(١) زين = طيب، سار، فى حين أن المصطلح المحلى "بنى" (يعنى "أبناء") يجرى استعماله مع كل من الكثبان الرملية وسلاسل التلال.

(٢) الحواية بمعنى كثير، كمية، وفير.

نتطلع إلى احتمال وجود مراعى جيدة على بعد مسافة قريبة أمامنا على الطريق. وبالفعل شاهدنا بعض التحسن فى هذا الاتجاه، إذ مررنا على شرائح من الحياة النباتية، كانت عامرة بشجيرات الآبال وقليل من شجيرات الحض، ناهيك عن بعض خطوط نحيفة من شجيرات الأنداب التى كنا نراها بين الحين والآخر، والتى ربما كانت ناتجة عن الأمطار التى سقطت مؤخرا على هذه المنطقة. كان سويد أو أى شخص آخر من الجماعة ينزل، بين الحين والآخر، من فوق جمله ويروح يكشط السطح الرملى للوقوف على العمق الذى وصلت إليه الرطوبة. فى بعض المرات اكتشفوا أن عمق البلل والرطوبة كان يصل إلى حوالى ست بوصات، ومررنا بعد ذلك على منخفض متوسط الحجم، كانت قد تشكلت فيه بركة صغيرة بفعل المطر، على الرغم من خلو تلك البركة من الماء فى الوقت الحالى. فى موقع آخر زخة من البرد، أو بالأحرى زخة من قطرات المطر كبيرة الحجم، التى رطَّبت سطح الرمل عبر مساحة كبيرة. ومع ذلك لم تكن هناك دلائل أو إشارات إلى أى نوع من أنواع الحياة، ولم نشاهد طوال سير ذلك اليوم، سوى طائر واحد من طيور المغنى الصحراوية وفراشة، إضافة إلى طائر السنونو.

عند الساعة الرابعة مساءً كنا جميعا قد تعبنا من السير وجلسنا أرضا، على الجانب الأيسر من جوانب واحدة من سلاسل بنى زينان الرملية. كانت السماء صافية من فوقنا فى حين كانت السحب تتركز فى اتجاه الشمال، الذى كانت تهب منه علينا نسمة معتدلة. كانت الإبل محظوظةً على نحو عَثُرت معه على مرعى أخضر فى المنطقة المجاورة للمخيم، كما استطعت أنا، وللمرة الأولى منذ أن غادرت نيفاء (نايفة)، القيام ببعض القراءات الفلكية. كنا قد قطعنا أربعين ميلا أثناء النهار، وحصلنا على فترة الراحة القصيرة للغاية التى سمح لنا بها زايد. من هنا ركبنا إبلنا قبل الساعة الثانية صباحًا، ونحن نمشى حاليا تحت سماء تضيؤها النجوم، ونسيم عليل يهب على امتداد طريقنا الشمالى الشرقى، أفراد الجماعة يطلقون على هذا النجم اسم النعش[1].

---

(١) بمعنى التابوت.

كنا قد عبرنا رقعة من الأرض تكثر فيها سلاسل التلال، التى عبرنا منها ما لا يقل عن تسعة تلال خلال ثلاث ساعات، انتهت بتوقفنا لأداء صلاة الفجر. وهذا سالم، الذى لم يعد يتمتع بحدة بصر الشباب، لا يرتبك مع دخول الظلام، كان يسير بجوارى معظم الوقت، ساحبًا ناقته، إذ بوسعه عن طريق الحس معرفة ما إذا كان سطح الأرض متماسكا، وبالتالى معرفة الاتجاه الذى تكون فيه الأسطح المتماسكة والقمم سهلة التسلق. حدث مرة أو مرتين أن تعثر الرجل فى بعض الرمال الناعمة وبعض المنحدرات الشديدة، التى شكلت خطراً على قرب الماء التى كنا نحملها معنا. الجمل إذا ما تُرِك وحده فى مثل هذه المنحدرات، فإنه يجرى فى مثل هذه المنحدرات كما لو كان الشيطان فى أرجله أو يطارده، وتحدث فى معظم الأحيان مصادمات بين هذه الحيوانات، فى مثل هذا الظرف، وغالبا ما يكون هذا التصادم بين جملين أو أكثر يلعبان اللعبة نفسها. ومن حسن الطالع أن قرب الماء لم تصب بأضرار، نظراً لأن سالم فى كل منحدر من المنحدرات، كان يقوم إما باقتياد الإبل الشقية بنفسه، أو يقوم بإنزال الواحد بعد الآخر.

سرعان ما أحس سالم بالتعب، وعليه توقفنا قبل الوقت المعتاد، كيما نقوم بإعداد القهوة والشاى قبل أداء الصلاة. كان الوقت ما يزال فجرا صافيا والهواء رطبا إلى حد ما، وانتهزت الفرصة فى الحصول على قسط صغير من النوم فى الوقت الذى كان فيه الآخرون مشغولين بالقرب من النار التى شبوها. النوم فى مثل هذه الظروف سرعان ما يغالب الجفون على وجه السرعة وبسهولة بالغة، وإن هى إلا لحظة حتى أيقظنى سويد وهو يؤذن لصلاة الفجر. كان إفطارنا عبارة عن تمر مع الحليب، والشاى والقهوة، لكنى استهلكت كمية كبيرة من اللحم النيئ أثناء سيرنا فى الظلام، وعليه لم نكابد يوما من أيام الجوع التى جعلت تراجعنا شيئا مزعجا. فيما عدا هذا الفارق، كان كل شىء يسير على ما يرام. عند هذا الحد نكون قد قطعنا حوالى خمسة وتسعين ميلا أو بالأحرى، حوالى ربع مسافة الرحلة، وبذلك يكون اليوم الرابع قد انقضى على هذه الشاكلة.

استأنفنا سيرنا مع طلوع الشمس من خلفنا، وواجهتنا رقعة من الأرض المنخفضة الدوّارة، صحيح أن هذه الرقعة كانت قاحلة وجرداء، فيما يتعلق بالحياة النباتية، لكن المشي كان سهلاً خلالها، وكان ذلك المحيط تتخلله هنا وهناك مسافات قصيرة من التلال الرملية، لكن فى ضوء النهار استطعنا الخروج من منطقة هذه التلال، دون أن نضل الطريق، طار أحد طيور المغنى Warbler الصحراوية هاربا من دغل كثيف بالقرب من طريقنا إلى مسافة آمنة، ودهشت عندما رأيت نوعا من الصقور تعرّفه رفاقى وقالوا: إن اسمه أبو حقاب، وربما كان من فصيلة الهرير، وقالوا: إن "أبو حقاب" هذا مختلف عن صقور الصيد، ومختلف أيضا عن الصقر الشُّبُوّت، أو بالأحرى الصقر العصفور. هذه الأماكن كلها كانت عامرة بالآثار والعلامات الدالة على سقوط المطر على هذه الأجزاء مؤخراً، وقد لاحظت فقاقيع صغيرة عجيبة فى الرمل. رد صالح قائلا: نحن نسمى هذه المنطقة باسم أبيار السلطان[1]. وغمز لى سالم احتجاجا على ما يقال. قال سالم: إنه يكذب، نحن لا نعرف لهذه الأشياء اسما. إنها مجرد حفر فى الرمل تشكلت بفعل قطرات المطر الكبيرة. لم تكن للأمر أهمية كبيرة، وأنا بدورى امتنعت عن التعقيب، نظرا لأن المناصير لديهم بعض العجائب التراثية واللغوية التى قد يجهلها جيرانهم. كان صالح كذابا هو الآخر - وهذا أمر لا يحتمل الشك. وقد خبرت كذب هذا الرجل فى مناسبات عدة، لكنى لا يمكن أن أرفض استعداده الكامل لإمدادى بالمعلومات على الصحراء الكبرى وحدودها. والمناصير يتمتعون بسمة مهمة وهى الدور المهم الذى تلعبه النساء فى المشروع العام للمناصير. وسبق أن أشرت إلى بعض هذه الأمور فى صفحات سابقة[2]. يجرى النداء على الرجال فى معظم الأحيان بأسماء زوجاتهن كأن يقولو مثلاً: يا شوغ[3] فلانة - بمعنى "يا زوج فلانة". فى نجد قد يعرف

---

(١) Wells of the sultan.

(٢) راجع صفحة ٧٧ و ٨١ من النص الإنجليزى.

(٣) Shaugh بمعنى "زوج"، وهى كلمة لهجية قد تكون طمسا لكلمة "زوج"، التى غالبا ما تقلب إلى "جوز".

الإنسان اسم زوجة صديقه، لكنه لا يمكن أن ينطق بهذا الاسم، إلا إذا كانت شهيرة، أو سيئة السمعة!

الغريب أيضا أن هذه الرقع المكشوفة من صخر الأديم الجبسى أو الجيرى، والتى كانت تشكل معلماً واضحا من معالم الجزء الجنوبى من الصحراء، لم نصادفها فى أى مكان من الأماكن طوال مسيرنا من نايفة إلى هذا المكان. ونحن الآن على بعد مسافة تقدر بحوالى مائة ميل عن نايفة، نعبر ونتوقف فى قطعة أرض مكشوفة يصل طولها إلى حوالى مائة ياردة. هذه الرقعة من الأرض لا تمثل شيئا ذا قيمة، على الرغم من وقوعها فى منخفض أحد الوديان، الذى دخلنا وراءه فى أرض من الكثبان الرملية غير المنتظمة وترتفع ارتفاعا متدرجًا. وفجأة وبلا سبب واضح تبدأ الحياة النباتية فى التحسن. فقد بدأت تكثر شجيرات الأبال كما شاهدنا أيضا الكثير من البادرات النباتية، كانت هناك أيضا بعض أشجار الألقة ناهيك عن شجيرات الحض حديثة النمو. صاح سالم قائلا: اخفضوا أصواتكم، هؤلاء الناس لا يفكرون وهم سائرون، وإنما يدردشون ويغنون. قد يكون هناك وعل أبيض فى هذا المرعى، وسوف يهرب إذا ما سمع أقل الأصوات همساً. وبناء على أكوام الروث التى فى هذا المكان يمكن القول إن غزال الريم اكتشف هذا الموقع وأفاد منه، لكننا لم نر شيئا من هذا الغزال، حتى ولو بطريقة عابرة.

توقفنا عند الساعة العاشرة والنصف مدة تقل عن ساعة واحدة فى أرض قاحلة مرتفعة فيها شيء من شجيرات الأبال وشجيرات الحض التى ترعاها إبلنا. مررنا فى طريقنا على بعض مناطق الكثبان الرملية الوعرة، ولاحظنا على بعد مسافة قصيرة فى الجهة اليمنى رقعة صغيرة من الصخر المكشوف، عند سفح سلسلة من سلاسل الكثبان الرملية. هذه الرقع المكشوفة من الأرض يطلق الناس عليها هنا اسم شَقَّة، وهنا سألت سالم عما إذا كان قد سمع عن كلمة "الخرايم"[1]، بمعنى "فرجة" فى

---

(١) واحده "خاريمة".

أرض أو مكان فى الرمل: كنت قد سمعت هذه الكلمة قبل سنوات من جابر، رفيقى المرِّى فى رحلة من رحلاتى السابقة. بدا سالم محتارا من هذا التساؤل. لم يسبق لسالم أن سمع مطلقًا عن هذا المصطلح، لكن صالح، الذى تصادف أن كان بجوارنا، تطوع ببعض المعلومات عن هذا الموضوع، والتى ناسبت تماما الانطباع الذى تركه جابر فى ذاكرتى. رد صالح قائلاً: "الخرايم" مثل "الشقاق" لكنها تختلف عنها فى أنها أكثر امتداداً واتساعاً. الخرايم عادة ما تكون أوعية ملحية، أو بالأحرى أحواض ملحية فى نهاية الوديان التى تجرى فى الرمال قادمة من منطقة قارة فى الجنوب. ونحن نطلق عليها اسم "خاريمه" وقد رأيت أشياء من هذا القبيل حول منطقة مفشن. بدا الشك على سالم لأنه لم يسمع قط عن أشياء من هذا القبيل، لكن صالح كان على صواب فى هذه المرة. والسيد برترام توماس يأتى على ذكر هذه "الخرايم" التى يصفها[1] بأنها "ممر دائرى" أو ميحطى، باعتبار أن الخرايم تعد معلمًا مميزًا، من معالم الصحراء التى على الحافة الجنوبية للرمال العظيمة.

صفت السماء الآن، لكن الطقس ظل بارداً إذ كان هناك نسيم شمالى يهب على الرمال المشبعة بالماء. كان مسار طريقنا يمتد مباشرة، عبر سهل كبير متموج من النباتات الزاوية والجافة، وقد صادفنا فى منتصف هذا الطريق رقعة أخرى من الصخر المكشوف فى منخفض ضحل، بحثنا فيه عن الأصداف والصوَّان، ولكننا لم نجد منها شيئا. أدى إمساكنا باثنتين من السحالى إلى انحراف طفيف عن مسارنا، فى حين جثمت الأقفة، كلبة الصيد السلوقية، على ظهر واحد من إبل النقل طلبا للراحة أثناء حرارة النهار، وكان ذلك مصدرا من مصادر المرح البرىء بين أفراد الجماعة. لقد كشفت هذه الكلبة عن افتقارها التام للذكاء، عندما استفادت على أفضل نحو ممكن مما يعد فى المقام الأول امتيازا غير طبيعى، والكلبة بدلا من تمددها فوق الأمتعة وضبط نفسها مع مكونات هذه الأمتعة، آثرت بل أصرت على الوقوف معتدلة، مخاطرة بإلقائها

(١) راجع كتاب "اليمن السعيد" صفحة ١٥٠ .

على الأرض بفعل الاهتزازات الناتجة عن سير الجمل. لما كانت الكلبة ممسكة بمخالب رجليها الأماميتين بسطح السرج غير المستوى وسطح الأمتعة غير المستوى أيضا ، فقد ظلت مشغولة طوال فترة ركوبها بمحاولة المحافظة على توازنها، الأمر الذى جعلها تبدو قلقة وغير مرتاحة تماما، على الرغم من شكرها وامتنانها لارتياحها ولو لفترة قصيرة من حمل وزنها عبر الرمال سريعة السخونة. جاء ركوب هذه الكلبة قصير الأجل، لأننا دخلنا واديا فيه غطاء طيب من الحياة النباتية الجديدة، وبزر من بين أقدامنا أرنب برى راح يجرى - وهذا أول أرنب برى نراه في الصحراء منذ حوالى أسبوعين - وتقفز الكلبة فجأة من مجثمها العالي، وتدخل فى مطاردة ساخنة، فى حين راح بعض أفراد الجماعة، الذين استثارتهم تلك المطاردة، يشاركون فى ملاحقة ذلك الأرنب من مكان إلى آخر وهو يفر هاربا من مخالب الموت، فى حين كان الأفراد يتطلعون إلى الحصول على شىء من اللحم الطازج. فى بداية الأمر بدا مؤكدا أن الأقفة سوف تمسك بهذه الطريدة، ولذلك صعدنا سلسلة التلال الموجودة خلف الوادى مخلفين زايد وراءنا لكى يحضر اللحم الطازج في الوقت المحدد، وعندما انضم إلينا زايد بعد ذلك لم يكن معه ذلك الأرنب البرى الذى التجأ إلى جحر ثعلب، الأمر الذى جعله يهرب بحياته. لم يكن هناك متسع من الوقت يسمح بحفر الجحر وهدمه وإخراج الأرنب منه.

قبل هذا الفاصل الممتع، كان سويد قد أثار موجة من الضحك نتيجة مغامرة فاشلة، أسفرت عن سقوطه هو وجمله وكل ما معه فى مَنْزَل من الرمل الناعم شديد التحدر، أقبل على النزول منه بلا حذر. معروف أن الثنيات التى تغطيها الرمال فيما بين الكثبان الرملية العالية ليست سوى أخاديد مخبأة، ومن الأهمية بمكان ألا يمشى المرء فوق هذه الأخاديد، ومع ذلك لا يوجد ما يشير أو يدل على ذلك الخطر المخبأ، لكن أعرابى الصحراء لديه غريزة لا تخطئ تدله على هذه المهاوى والأخاديد، وأنا فى معظم الأحيان كنت أعجب من حصافة الرأى التى كانت تهدى هؤلاء الأعراب إلى أعراف أو قمم بعض التلال الرملية الوعرة، مفضلين إياها على مضيق بين قمتين ظاهره السلاسة والسهولة، لكن الفحص الدقيق لهذه المضايق يؤكد أنها ليست شيئا سوى كتلة عميقة من الرمل الناعم. يندر أن يقع أحد من الأعراب فى هذا الخطأ

المحزن، وإن حدث ذلك يكون من باب الإهمال تمامًا، لكن خلال تجوالنا لم يحدث أن وقع زايد أو صالح في حادث من هذا القبيل، الذى يعد فيه سويد حاليا محطا للضحك والابتسام.

صعدنا بعد ذلك إلى أرض مرتفعة من الكثبان الرملية وسلاسل التلال الرملية فيها قدر كبير من شجيرات الآبال والحض في المسافات الضيقة التى بين هذه الكثبان وفيما بين التلال. استنتج رفاقى من حال الحياة النباتية - ومن ذا الذى يقول إنهم مخطئون؟! - أن المطر لم يسقط على هذه المنطقة فترة لا تزيد على أربع أو خمس سنوات. واعتبارًا من ذلك التاريخ لم يكن هناك ما يشجع على نمو النباتات الصغيرة إلى الآن، لكن التربة ابتلت الآن إلى الحد الذى جعلها تتفتح مثل زهرة يانعة. المدهش بحق، أنى عندما كنت أكتب عن هذه الأرض الجرداء ضيقة المنخفضات، بعد ذلك بأشهر قلائل من عبورنا، وجدت أن هذه الأرض تغطيها الآن سجادة خضراء، وهو أمر يشرح صدور الوعول البيضاء وغزال الريم والحيوانات الأخرى، التى تتجول فى هذه المنطقة دون أن يراها أحد أو يضايقها إنسان.

مررنا برقعة أرضية أخرى مكشوفة من صخر الأديم تحت سلسلة من هذه التلال المرتفعة، وشاهدنا بالقرب من هذه الصخرة رذاذا خفيفا من الرمل، ناتجًا عن حرباء كانت مشغولة بعمل بعض الإصلاحات العاجلة في مسكنها، الذى انهارَ سقفه بسبب الأمطار التى سقطت مؤخرا. كانت الحرباء المسكينة تعمل بجد فى رفع الحطام من الداخل، مستخدمة فى ذلك رأسها وقدميها الأماميتين في دفع هذه الأنقاض إلى خارج المسكن إلى الوراء، مستخدمة فى ذلك قدميها الخلفيتين. لاحظنا أيضا آثار مخالب الغراب، على الرغم من عدم رؤيتنا له فى أى مكان.

خرجنا على الفور من ذلك الحزام من الحياة النباتية الجديدة، ودخلنا سهلا شاسعا قاحلا، يمثل مرحلة انتقالية من منطقة بنى زينان إلى حَضَّة الحواية، التى يتجه خطها الخارجي من موجات الكثبان الرملية - بوسعنا رؤية أربعة من هذه الكثبان، طول كل منها حوالى ميل، وهى تنتشر أمامنا كلما اقتربنا منها - إلى

الجنوب الغربى والشمال الشرقى. كان منظر الأرض كله يبدو شديد القحولة وميتا، وهذا هو واقع الحال فعلا. كان هناك قدر كبير من شجيرات الآبال والحض، ولكن المؤسف أن ذلك كله كان ميتا، ويبدو أن هؤلاء الذين كانوا ينادون بوقفة فى المراعى الجيدة الموجودة فى الخلف، كانوا على حق فى ظل التغيير غير المواتى الذى طرأ على الأحداث. قلت لسالم: هيا بنا نواصل السير، قد نصل إلى مرعى فى مكان من الأماكن القادمة. لكنى شاهدت زايد قادما من الخلف على وجه السرعة، وعندما لحق بنا قال: إننا وصلنا إلى السلسلة الثالثة من سلاسل الحواية الكثبانية الرملية. قال: لقد مر قسم كبير من فترة العصر، والآن حان وقت الصلاة. قلت، طبقا لما سبق أن أعلنته عن تنظيم التحركات، كما تريد. وعليه نزلنا من فوق الإبل لقضاء الليل، فى حين راحت الإبل تبحث عن الطعام. شاهدنا من حولنا سلاسل الكثبان الرملية وهى تطل على منخفضات منتفخة انتفاخا خفيفا. نحن الآن قطعنا حوالى أربعين ميلا أثناء النهار. بذلك نكون قد قطعنا ثلثا من مسافة الرحلة فى ظرف ثلاثة أيام، مجرد مسافة قصيرة، وبعد أن قطعنا ١٢٠ ميلا، نكون قد عدنا مرة ثانية إلى الخط الذى سبق أن انسحبنا منه قبل حوالى عشرة أيام تقريبا. عندئذ كنا متهزمين وأحسسنا بالهزيمة، والآن نحن كلنا حيوية ونشاط كبير دون أن يكون لذلك أى تأثير كبير على نفوسنا. لم تكن الإبل محظوظة بمعنى الكلمة فى مسألة المرعى، لكن الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ من ذلك. كان لا يزال معنا شىء من اللحم، وكان الماء الذى بحوزتنا كافيا تماما – ويرجع الفضل فى ذلك إلى الطقس البارد الذى تمتعنا به حتى هذه اللحظة.

ظل نسيم شمالى شرقى يداعبنا وهيأت السماء الصافية لى فرصة القيام بالمزيد من الملاحظات الفلكية، لكن حادث المساء تمثل فى ظهور القمر الجديد الذى يسمونه ذا القعدة، وهذا هو ثالث، وربما آخر قمر جديد، فى تجوالنا هذا، نظرا لأن القمر الجديد، سيجدنا فى مكة، بمشيئة الله. أثبت حسن الذى ينعتونه بـ "وجه الذيب" (بمعنى "وجه الذئب") دعواه بأنه أَحَدُّ أفراد الجماعة بصراً. كان مدى رؤيته مدهشا، والواقع أنه كان يتراءى الهلال الصغير قبل غروب الشمس. رحنا نبحث عن الهلال دون جدوى لمدة بضع دقائق، ثم رآه زايد قبلى بثانية أو ثانيتين. تركنا سعدان فى الموقع،

ولم ير القمر إلا فى الليلة التالية. تنشئة سعدان وتربيته فى منزل خال من الهواء، وبلا نوافذ فى المجمعة هو الذى أضعف رؤيته دون أن يؤثر على روحه المعنوية. بعد قمر (شهر) آخر سيعود سعدان إلى زوجته الصغيرة فى مكة، لكن أفكار الرجل كانت تأخذ مساراً آخر. ويحتمل أن يزيد سعدان من مسئولياته مستخدما فى ذلك ما سيحصل عليه من نقود مقابل خدمته لى، إذ إن بلده بيشة شهيرة بنسائها، هكذا قالوا، ونحن سنذهب إلى هناك، إضافة إلى أن سعدان يكثر من التفكير فى هذه الأيام، وهو يتأمل مزايا وعيوب الزواج من اثنتين.

كانت الليلة مناسبة تماما للنوم فى العراء - الليلة باردة وصافية وخالية من الرياح. وفجأة أيقظونى ومشينا فى الظلام عبر سهل واسع منبسط، وكان كوكب المشترى من أمامنا. كان الجو مضاء بشكل غير عادى الأمر الذى جعل الأشكال المعتمة للإنسان والحيوان تبرز بشكل واضح على العكس من ذلك الضوء العجيب، الذى كان من الصعب تعليله أو الوقوف على أسبابه. كان الكوكب ساطعًا على نحو كان يلقى فيه بظلاله، لكنه لم يكن مسئولا عن كل الضوء المحيط بنا، والذى ربما كان انعكاسا لمجموعة مختلفة من النجوم فى المرايا البللورية الناتجة عن الرمال التى غسلتها الامطار.

مشينا حوالى عشرة أميال فى ضوء النجوم، ثم توقفنا لتناول المنعشات وأداء الصلاة قبل موعدها المعتاد، أى بعد غروب كوكب المشترى وراء الأفق. عند هذا الحد نفد ما كان لدينا من مخزون اللحم النيئ، لكن سالم وسويد كان لديهما مخزون لا ينضب، كانا يحضرانه بحذر من أعماق خُرُج الإبل. لم أكن أسائل أيًا منهما حول هذا الموضوع، وكنت آكل نصيبى دون أن يرانى أحد فى الظلام. لابد أن يكون الآخرون لديهم مخزونات مماثلة. عندما توقفنا رقدت على الأرض لأنام إلى أن يحين موعد الصلاة، الذى تناولنا بعده تعييننا (طعامنا) المكون من التمر، الذى رحنا نغمسه فى الزبد أو الحليب حسب الطعم المطلوب، قبل وضعه فى أفواهنا. وأنا بدورى كنت قد تعودت القيام بذلك الشىء، تلك العادة المتأصلة فى الشخصية العربية، لكن أصبحت

الأطعمة كلها مألوفة لطاحونتي. كان رفاقي يعصرون التمر في أوانٍ شبيهة بالأكواب، كانوا يستعملونها في سكب الزبد السائل في أفواههم، لكني لم أكن أقوى على فعل ذلك الشيء.

وجدت عند الفجر بعض قطرات خفيفة من الندى على الأرض وعلى الشجيرات الصغيرة. طلعت الشمس علينا من الخلف، كاشفة لنا عن مشهد (منظر) من سلاسل من الكثبان الرملية المتوازية في الشمال الشرقي والجنوب الغربي، هذه السلاسل من الكثبان الرملية كان فيما بينها وديان ضحلة يصل متوسط عرض الوادي الواحد منها إلى حوالي ميل، كانت الحياة النباتية الصحراوية ذاوية وذابلة في كل مكان بسبب الجفاف الذي دام مدة طويلة، والذي كان يكتنف هذه المنطقة بصورة دائمة طوال عشرين عاما. الحواية تمتد شمالا إلى سهل الرعلة الزلطي الذي يمتد مسافة مسير نصف يوم في اتجاه الناحية الغربية من طويريفة، ثم يتحد بعد ذلك مع سهب(*) أبو بحر، الذي سنصل إليه في الوقت المحدد. اتساع أو عرض سهل الرِّعله من الشرق إلى الغرب عبارة عن رحلة تقدر بمسير يومين أي حوالي ٥٠ ميلا. كنا نصادف بين الحين والآخر خطوطًا خفيفة من شجرات الأنداب الخضراء، التي تتخللها بعض شجيرات الألقة والآبال، لكن شجيرات الحض كانت كلها ميتة.

هذا عش قديم من أعشاش الغربان موجود بين أغصان دغل من شجيرات الآبال يحكي عن زمن ماض جميل، وشاهدنا أيضا آثار حديثة لأقدام بعض الفئران الجبلية، لكن الشيء الحي الوحيد الذي رأيناه في هذه الأرض الجرداء كان عبارة عن قنبرة. كان السهل يمتد حولنا هنا وهناك مثل بحر كبير يتلاطم فيه الموج الكسول المنخفض. كان النسيم يهب علينا من الشمال إلى الجنوب، وتلك إشارة إنذارية، ولذلك أعددنا أنفسنا لمواجهة الحرارة المتوقعة. هذه هي الشمس تؤكد على سطوتها وصولجانها في السماء الصا[illegible]ية. لقد انتهت العاصفة وسوف تكون بقية المسيرة كئيبة للغاية. ومع ذلك كانت

(*) السهب: الأرض الواسعة الخالية من الشجر. (المترجم)

دلائل سقوط المطر مؤخرا في كل مكان – سقط البرد في مكان من الأماكن – تتحدث عن البركان والنعم التي ستحل على هذه الأماكن بعد رحيلنا.

مع تقدم فترة الصباح، وصلنا إلى الطرف الغربي من الحوايه، وظهر أمامنا عن بعد ذلك الخط الطويل من كثبان الشويكلة الرملية. كانت هناك شريحة عريضة من حشائش السبات الجافة، وكانت تشكل حاجزا طبيعيا بين المنطقتين، وهنا طالبنا بوقفة نتناول خلالها الغداء على ظهر سلسلة منخفضة مستديرة، ثبت أنها كانت آخر متراس من متاريس الحواية. على العموم، لقد وجدنا هذا الجزء الشمالي من الحواية سلساً في تموجاته – وأكثر شبها ببني زينان – عما كان عليه في أقصى الجنوب بكل سلاسلة الكثبانية الرملية الواضحة وركامه المكدس. هنا كانت الوديان أضحل وأوسع، في حين كانت سلاسل الكثبان الرملية أكثر انخفاضا وسلاسة، وإذا ما نحينا مسألة هبوب النسيم بين الحين والآخر من ناحية الجنوب نجد أن الهواء كان ما يزال ساكنا تماما، ويزداد الجو حرارة على حرارته بين لحظة وأخرى. فردنا سجادة وبعض العباءات فوق دغل من أدغال شجيرات الآبال، وتجمعنا كلنا في الظل الناتج عن هذه العملية، في حين وقفت الإبل أو بركت متكاسلة، وقد بلغ التعب منها مبلغا جعلها بحاجة إلى العلف، الذي لم يكن له وجود في هذه المنطقة.

أمضينا حوالي ساعة معتمدين على التمر والقهوة والشاي. أمسكنا بإحدى السحالي، بينما رواغتنا سحلية أخرى، في حين بددت إحدى الفراشات الجهد الذي بَذَلْته من أجل الإمساك بها. وهنا ركبنا دوابنا وواصلنا مسيرنا. تميز دخولنا إلى الشويكيلة بوجود عش غراب مهجور، وقد دخلنا الشويكيلة من خلال فجوة في سلسلة تلالها الخارجية الطويلة المتقطعة، التي يقال إن طرفها الشمالي الشرقي يبعد عنا مسير نصف يوم في الناحية اليمنى. هناك سلسلة تلال رملية ثانية تقع على مقربة منا خلف السلسلة الأولى ومفصولة عنها بواسطة منخفض ضيق، عثرنا فيه على عش غراب قديم آخر في شجيرة من شجيرات الآبال. هذا وهج قاسي ضرب عيوننا، منعكسا عن الرمل الناعم جدا، الذي يميل لونه إلى البني الفاتح.

ربما كان ذلك مجرد خيال، نظرا لأن اسم المنطقة[١] التى فى أعمق أعماق الربع الخالى كانت قد استثارت فى أذهان رفاقى رؤى الهزيمة والانكسار قبل شهرين، عندما سألت على الجهمان عما إذا كان يعرف أو لا يعرف هذه المنطقة، كان السيد برترام توماس قد وقَّع هذه المنطقة على خارطته معتمدا فى ذلك على رواية سماعية، وعندها نظر إلى على الجهمان نظرة تعجب وتساؤل لمعرفتى بعض الأشياء التى وقعت منذ زمن طويل. وهنا استعاد رفاقى ذكريات ذلك الحادث، وسخروا من ذلك الرعب القديم. هذا يعنى أننا فى هذا الوقت محاربون أشداء نسافر عبر الربع الخالى، وأن هذه المنطقة المخيفة ليست سوى مرحلة أخرى على الطريق المؤدى إلى الشمال.

واقع الأمر أن القسم الأكبر من الشويكيلة يقع فى الناحية الجنوبية والناحية الجنوبية الغربية من المكان الذى نحن فيه. نحن لم نقطع سوى لسان ضيق من الشويكيلة، يمتد فى اتجاه الشمال الشرقى محاذيا للحافة الغربية للحواية، ويفصلها عن منطقة أخرى من الصحراء نحن نراها أمامنا عن بعد. وخلف هذه المنطقة يوجد سهل متموج من الرمل الثابت المتماسك، فيه شىء من الحياة النباتية الجافة التى من قبيل شجيرات الحض والسبات، ومن خلف هذا السهل يوجد حاجز من الكثبان الرملية، ومن خلف هذا الحاجز أيضا يوجد منظر (مشهد)، يبدو كما لو كان مجرد لمحة من بحر من البحار، وهو عبارة عن خط أزرق غامق هزنا من أعماقنا. أقسم سالم قائلاً: والله! هذه هى ساهمة! ذلك السهل الزلطى الذى يمتد امتدادا غير منتظم فى الصحراء فيما بين الكثبان الرملية. سلاسل العواريق الكثبانية الرملية موجودة خلف ساهمة. وساهمة كلها مستوية على ما أذكر، نظراً لأنى جئت إلى ساهمة مرة أخرى فى عام الجهاد – مصطلح الجهاد هذا فى الكلام البدوى الحديث يعنى الحملة الظافرة التى شنها ابن سعود على الملك حسين وأسرته المالكة فى العام

(١) يقال إن هذه الكلمة مشتقة من كلمة "شكل"، بمعنى "الشبه" – وشكيلة (وتصغيرها "شويكيلة") الحوايه، بمعنى "شبيه بالحواية"، لكن هذه الاشتقاقات البدوية تدور حولها الشكوك فى أفضل الأحوال.

١٩٢٤- يوم أن كنت بصحبة جماعة من جماعات الغزو وجئنا إلى ساهمة قادمين من الشمال. والله، أنا لم يخطر ببالى أننا سنصل إلى ساهمة فى هذه الرحلة، اللهم إلا إذا عبرنا عن طريق المصادفة البحتة لسانا جنوبيا من ساهمة بعد عبورنا أو تجاوزنا الشويكيلات[1]، التى أعرف أنها على بعد مسير حوالى ثلاثة أيام من هذا المكان. لكن، انتبه! لقد عبرنا المنطقة فى أقل من ساعتين. ساهمة تخرج منها ألسنة طويلة ونحيفة من الزلط فى اتجاه الشمال والشرق ممتدة إلى رمال الشويكيلة، لتنتهى أمام السهل على شكل حافة وعرة وغير منتظمة، وتذوب بعد ذلك فى السهل بين الحين والآخر، على شكل كثبان رملية منعزلة، أو على شكل رقع أرضية من النوع الذى يعرفه الناس هنا باسم زُبَارة. السهل الرئيسى الذى يتردد عرضه بين ميلين وخمسة أميال، بل أكثر من ذلك فى بعض المناطق، يظهر من بعد كأنه بحيرة كبيرة تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، وتحدها من الجانبين سلسلة من الكثبان الرملية - الشويكيلة من ناحية الشرق والجنوب والعواريق على الجانب الآخر، وتواصل الامتداد غربا عن طريق سلاسل بنى معاريض الكثبانية الرملية. السهل من الناحية الطبوغرافية عبارة عن مجرد انتفاخ أو نتوء من نتوءات سهب أبو بحر الزلطى الشاسع، ومن الناحية الجيولوجية يعد هذا السهل مسافة انتقالية من السهب غير المكسر إلى الرمال المتواصلة وغير المتقطعة، التى تبدأ بالشويكيلة وتمتد إلى خط السهب الذى يفصل الصحراء الكبرى الجنوبية عن المناطق الجبلية فى كل من عمان، وقارة وحضرموت. وطبقا لما رأيته بنفسى فيما بعد فإن المنطقتين الرمليتين فى كل من العواريق وبنى معاريض تتخللهما فى معظم الأحيان شرائط أرضية لها طبيعة سهل ساهمة، إلى حد أن المنطقة كلها يمكن اعتبارها وحدة جيولوجية واحدة من الزلط، الذى تغطيه سلاسل الكثبان الرملية فى بعض أجزائه، هذه السلاسل من الكثبان الرملية يمكن بمرور الزمن، أن تغطى المنطقة كلها بغطاء من الرمل. ومن الممكن أيضا

---

(١) جمع "شويكيلة".

أن تعمل عملية الكشف المعاكسة عملها فى كشف ذلك الذى نراه بأعيننا فى ساهمة، لكن المرجح هو أن تزيد الرمال من تدميرها للسهب أكثر من ضياع الأرض. يبدو أن ساهمة "مخطط" أو "مُقَلَّم"، وهذا اسم على مسمى بحق.

إذا ما نحينا جانبا هبات الريح بين الحين والآخر، والتى كانت تأتينا من الجهات الأصلية الأربع كلها، بالتناوب، نجد أن الريح كانت معطلة أثناء هبوطنا آخر منحدر هيِّن من منحدرات شويكيلة، وسرنا على الزلط للمرة الأولى منذ حوالى ستة أسابيع. وعلى الفور أدركت الإبل الخلاف وراحت تحذر وتحترس أثناء المشى، نظرا لأن الزلط كان حاداً وساخناً فى ذات الوقت. وقد عانت أخفاف الجمل آلاما كما كانت الحيوانات الكبيرة تتعثر من حين لآخر وبصورة مفاجئة، عندما كانت تدوس بأقدامها على أشياء غير عادية أو غير مناسبة بالمرة. ومما زاد من متاعبنا أن فترة العصر زادت درجة حرارتها بفعل أشعة الشمس المباشرة. وهذا طائر من طيور أبى فصادة راح يحيينا بتحركاته غير المألوفة، ثم هرب منا بحركاته الرشيقة، لكنه كان يمثل العلامة الوحيدة على وجود الحياة فى هذا المشهد القاحل. الحياة النباتية، إن صح هذا القول، عبارة عن حشائش السبات، وهى جافة ومحشوشة بفعل رياح الصحراء، إلى حد أنها كانت لا ترى على الرغم من وخزها للقدمين العاريتين مثل أسنان الإبر.

فور وصولنا إلى الشريحة الرئيسية من سهل ساهمة، وبعد وصولنا إلى منتصف هذه الشريحة، التى تحيط بها الرمال من الجانبين، نزلت من فوق ناقتى لفحص وجمع عينات من الزلط، الذى ظهر أنه شبيه تماما وبشكل عام بالزلط الذى فى الأماكن المكشوفة فى كل من جافورة ومقينمة. هذا الزلط يشكل عينة شبه كاملة من الصخور النارية، مثل التى فى غربى الجزيرة العربية، وأنا لا يخامرنى شك فى أن كل أنواع الزلط الذى فى الأجزاء الوسطى والأجزاء الشرقية من شبه جزيرة العرب يمكن ردها كلها إلى القلب الكبير من الصخور البدائية، التى تتكون منها جبال الحجاز والهضبة الواقعة إلى ناحية الشرق من هذه الجبال[1]، هذا الزلط يمكن أن يكون قد

---

(١) راجع الملحق.

جاء إلى هذه الشواطئ الشرقية بفعل الماء، ونحن نعرف الآن وعلى وجه اليقين أن أنهارًا كبيرة كانت تجـرى فى هـذا الجـزء، فى أضعف الأحوال، إلى كل من شنّاء وبئر الفضيل.

أقلق رفاقى اهتمامى بشىء عديم النفع مثل القبر، هؤلاء الرفاق لم يكونوا ميالين للوقوف عند ذلك القبر فى هذه الحرارة الخانقة. هذا هو أبو جعشة، الذى يتباهى بأنه الوحيد الذى لديه مظلة (شمسية)، يمر عليَّ وهو مستغرق فى العمل المرهق الذى يتمثل فى السيطرة على الحيوانات التى تحمل أمتعة وليس عليها راكب. بعض آخر من الرفاق مروا عليَّ وفى نظراتهم تساؤلات، ويتعجبون ما إذا كنت أتوقع أو أنتظر منهم التوقف. من باب المحافظة على السلامة أشرت إليهم جميعا أن يمضوا قدما، كما أخبرت سالم أن يمضى بجملى إلى الأمام فى أعقاب بقية أفراد الجماعة، لأنى أود اللحاق بهم حالا، وعلى ذلك تركونى وحدى أكتشف أن الأمر لم يكن بسيطا كما تصورته أنا. كنت قد توانيت فى إخراج صندلى (حذائى) من خرج سرج الجمل، وبدأت قدماى تحسان صعوبة المشى على الزلط الساخن وسطحه الحاد. كان السراب من أمامنا يبدو كما لو كان بحرا، وصعَّبت حرارة الشمس عملية السير. كنت سعيدا تماما عندما وجدت سالم يعود إليَّ لانتظارى، وأحسست أنى درست الزلط وخبرته بما فيه الكفاية، عندما ركبت ناقتى لأتبع الجماعة الرئيسية، بعد أن ابْتَعَدتْ مسافة كبيرة. كنت أنا وسالم نمشى فى منتصف السهل، فى حين انسلخت بقية الجماعة بصورة متدرجة إلى خط كثبان العواريق الرملية، التى لاحظت أنها تتخللها مجموعات من أدغال شجيرات الآبال.

أخيرًا وفى حوالى الساعة الرابعة صباحا - بدأت تهب علينا ريح جنوبية خفيفة ويبدو أن درجة الحرارة كانت ٩٠ درجة فهرنهيتية فى الظل - لاحظت بين رفاقى الذين كانوا يبعدون عنى مسافة كبيرة تلك الحركة المعتادة التى تسبق قرار التوقف. لاحظت أن هناك صفا متراصًا أخذ يعدو، كما لوكان كل راكب من راكبى الإبل كان يبحث لنفسه عن مكان يقضى فيه الليل، وفى خلال لحظات جرى تبريك الإبل على حافة

الرمال. راح سالم ينظر إليهم نظرة شوق واشتياق، وفكرة شرب القهوة متسلطة على ذهنه الساذج. أنا شخصيا، كنت متعبا ومرهقا تماما، لكن عينى الفاحصة اكتشفت وجود المانتيدات(*) الصحراوية الصغيرة فى الزلط، وهذه المانتيدات عبارة عن حشرة بلا أجنحة، ولذلك توانيت حتى أتمكن من إحضار نوع أو اثنين من هذه المانتيدات، وسبب ذلك أنى لم أر هذا المخلوق منذ أن زرنا إبراهيمة التى يتوفر فيها هذا النوع من الحشرات. نزلت من فوق ناقتى وأرسلت ناقتى إلى المخيم بصحبة سالم، فى حين رحت أبحث عن طريدتى.

بعد أن أصَبْت نجاحا لا بأس به فى بحثى عن الطريدة، اتجهت صوب رفاقى ووصلت إلى المخيم، وأنا مرهق تماما وعطشانٌ أيضا. أحضر إلى سعدان براد الشاى المعتاد، لكن ذلك وحده لم يطفئ الظمأ، قلت: يا سعدان أنت تعلم أنى لم أصر طوال هذه الأيام على الحصول على حليب ناقتى، ليلا ونهارا مثلما كان يحدث من قبل. ومع نقص التموينات أدرجت حليب ناقتى ضمن المخزون العام، وعليه تقاسمنا كلنا الأشياء كلها ما عدا الماء، الذى تحاشيت تقاسمه معكم. لكنى الآن أكاد أموت عطشا وبحاجة إلى سلطانية من الحليب. اذهب ورتب الأمر مع أبى جعشة لكى تحضر لى هذه السلطانية إلى هنا عقب مجىء الإبل، وقيام أبو جعشة بحلبها. لابد من تناولى الحليب ولو فى هذه الليلة على أقل تقدير، لكن دبر هذا الأمر سرا مع أبى جعشة. مخافة أن يغضب إخواننا من ذلك. رد علىّ، حسن سوف أنفذ ما طلبت – هذا أمر بسيط.

بعد ذلك بحوالى ساعة استدعيت سعدان من حول نار المخيم. سألته: ماذا عن الحليب؟ أجابنى: أبو جعشة لم يحلب الإبل بعد. انتبه، الإبل تدخل الآن عائدة من المرعى. ستحصل على الحليب على الفور. لكن مضت ساعة أخرى دون أن يظهر أى دليل على مجىء الحليب. وأعلن بعد ذلك بفترة قصيرة عن تقديم العشاء. خرجت لتناول

(*) المانتيد: حشرة بلا أجنحة تعيش فى الزلط والحصى واسمها العلمى Eremiaphila (المترجم).

العشاء مع رفاقى، وفى وسط الدائرة المحيطة بنار المخيم أبصرت سلطانيتين من الحليب. ظننت أنهم كانوا مرتبكين لكن أبا جعشة حيانى تحية مجاملة. صاح أبو جعشة قائلا. يا شيخ عبد الله. هذا الحليب لك، لقد حلبت ناقتك. اشرب الحليب، ولعله ينعشك! كان واضحا أن كلام الرجل ينطوى على شىء من التحدى، كما لو كان يقول. اشرب سلطانية أنت وحدك، فى حين سوف يشارك بقية أفراد الجماعة فى السلطانية الثانية، وقد جاء ذلك التحدى على الملأ، وعلى مرأى ومسمع من كل الجالسين. رددت فى هدوء، أشكرك، لكن لعلك تسمح لإخواننا بأن يشاركوا معنا فى شرب هذا الحليب. إنهم بحاجة ماسة إلى هذا الحليب أكثر منى، لقد تعبوا اليوم فى الحر الشديد، ولعلهم يوفرون الماء إذ ما يزال يتعين علينا قطع مسافة كبيرة. لقد قال ابن جلوى: إن حليب الناقة لى أنا وحدى، لكن ماذا حدث؟ لقد تقاسمنا هذا الحليب طوال هذه الأيام، ومن الآن فصاعدا سيكون هذا الحليب لك وحدك. أنا لن أشرب الحليب إلى أن نصل إلى السليل لقد أقسمت على ذلك، ومن ثم اعتبارا من الآن لن يصح شرعا أن أشرب الحليب. كان الشعور بالدهشة والغضب الذى أعقب كلامى يبدو كما لو كنت ألقيت قنبلة فيما بينهم. انقلبت الموائد على ألاعيبهم الخسيسة، وعرفوا أنهم انهزموا. ضغطوا علىَّ كيما أغير رأى. تساءلت: هل تودون لى أن أحنث فى يمينى؟ أليس هذا عملاً غير شرعى؟ وهنا أقسم أبو جعشة يمينا باطلا بأنه كان قد جلب الحليب، وكان على وشك أن يأتينى به عندما جرى الإعلان عن تناول العشاء. لا جدوى من وراء ذلك كله. فى مثل هذه الظروف يصعب على الآخرين شرب المادة غير المرغوب فيها، وعليه بقى الحليب فترة تناولنا للعشاء – كان عشاؤنا عبارة عن تمر وشىء من الزبد نقوم بغمسه فيه، لم أشر إلى الموضوع بعد ذلك من قريب أو بعيد، وتشجع صالح وغير مجرى الحديث عندما أعلن على الحاضرين أنه لدغة عقرب فى الليلة الماضية. وكل ما فعله أنه داس على سن مدبب أو شوكة، ولم يبدُ على القدم أى تورم أو تأثير سام. ومع ذلك، ذهبت على الفور لإحضار قارورة اليود، فوجدت سلطانية الحليب بجوار فراشى! صحت بصوت عال مناديا، كى يسمع الجميع، يا أبا جعشة: تعال هنا من فضلك! ما هذا؟ رد على رداً مباشراً، هذه هى سلطانية الحليب الخاصة

بك، لقد وضعتها هناك مخافة أن تظمأ أثناء الليل. تساءلت، ألم تسمع ذلك الذى قلته. هل تود لى أن أحنث فى يمينى؟ خذ هذه السلطانية وأعطها لأخواننا حتى يشربوها، وانتبه يا رجل! لا تحضر لى حليبا من الآن فصاعدا إلى أن نصل إلى السليل، وبعد السليل سوف أحتفظ بناقتى لنفسى، وأنا أقسم الآن أنى لن أتقاسم قطرة من حليبها مع أى إنسان منكم. وإلى أن يجيء ذلك الموعد فالحليب لكم. اشربوه بكل ترحاب! لكن إخواننا لن يشربوا الحليب، على حد قولهم. إذن ماذا أفعل بهذا الحليب؟ قلت: اشربه أنت أو أعطه للكلبة، وبذلك تكون الكلبة الأقفة قد استفادت من خلافنا. أنَّبتُ سعدان أيضا على تواطئه فى الحادث التعيس الذى وقع أثناء الليل، والذى اعترف بمسئوليته عنه، وأقسم هو الآخر ألا يشرب الحليب في هذه الأيام، وعلمت بعد ذلك أن سويد هو الآخر قد توقف عن شرب الحليب، قبل ذلك ببضعة أيام، فى إثر تلميح أحد أفراد الجماعة إلى أنه (سويد) شرب أكثر من نصيبه من الحليب الذى فى السلطانية، كان مهم جداً أن أكتشف أنه طبقا للقانون البدوى، فإن اليمين الذى يكون من هذا القبيل لا يجوز الحنث فيه. أما أهل الحضر فلا يقرون سوى يمين الطلاق، وأن الواحد منهم إذا ما أتى الشيء المحلوف عليه، فإن زوجته تصبح طالقا، طبقا للشرع، هذا يعنى أنه لا يمكنه الزواج منها مرة ثانية إلا بعد أن تتزوج (وتطلق) من رجل آخر.

كان مخيمنا منصوبا. وسط شجيرات الآبال الناضرة على خط الحدود فيما بين كثبان العواريق الرملية وسهل ساهمة، الذى كان عرضه يقدر بحوالى ثلاثة أميال فى هذه النقطة. وفى اتجاه الشمالى الغربى، كانت هناك خمس سلاسل من التلال الكثبانية الرملية، تجيء الواحدة بعد الأخرى وتفصلها عن بعضها البعض ألسنة زلطية، هذه السلاسل الخمسة تشكل ما يعرف باسم منطقة العواريق، وإلى عمق يقدر بحوالى خمسة أميال، ومن خلف هذه السلاسل الخمسة، توجد السلاسل المنخفضة الخاصة ببنى معاريض، ويتردد عددها بين سبع وثمانى سلاسل. وتقرر لمسارنا القادم، الذى يتردد بين غرب جنوب غرب وجنوب جنوب غرب، أن يتحاشى المرتفعات والمنخفضات فى المناطق الرملية عن طريق السير بجانب حافة ساهمة إلى ما بعد نسق الأطراف الجنوبية لمختلف سلاسل الكثبان الرملية، أو إن شئت

فقل: خطوط الكثبان الرملية. كانت الرمال المندلقة إلى حد ما من الشمال نازلة إلى الزلط على شكل ألسنة رشيقة وكثبان رملية منعزلة، كانت تعبر السهل فى بعض مناطقه لتستقر فى نهاية المطاف على طول حافة الشويكيلة. على العموم الزلط فى هذه المنطقة تحده الشويكيلة من الناحية الجنوبية، وإذا ما نحينا جانبا الألسنة السهلية البارزة التى تشكل خلجانا ومصبات فى الرمال، نجد أن ساهمة تقع إلى الجنوب تماما من العواريق وبنى معاريض. وفى حدود المعلومات التى وصلتنى من سالم، وهى معلومات غامضة إلى حد ما نجد أن ساهمة تتصل بسهل أبو بحر الكبير، بواسطة ممر ضيق بين شويكيلة، والأطراف الجنوبية لبنى معاريض.

شهدت الليلة الخامسة وجودنا على بعد مسافة تقدر بحوالى ١٧٠ ميلا عن نايفة – وهذا تقدم مرضٍ بشكل عام – لكن أفضل مسافة من المائتى ميل هى التى مازالت أمامنا، ونحن لا نتطلع إلى قطع هذه المسافة فى وقت يقل بحال من الأحوال عن خمسة أو ستة أيام. هذا يحتم علينا القيام بمسيرة ليلية، وعلى الرغم من الرحلة النهارية المتعبة التى قطعناها فى جو حار وفى ضوء الشمس، ركبنا إبلنا من جديدٍ عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ومشينا ثلاث ساعات فى الظلام. مشينا على الزلط والرمال عن يميننا مباشرة. وقد اندهشت للتأثير الشديد الذى ترتب على ظروف السير الليلى فى هذه المنطقة الرملية. كانت خيالات الإبل تبدو كأنها تحيط بها هالات ضوئية غامضة، وكنا نرى الشجيرات والحدود الخارجية للكثبان الرملية بوضوح تام.

بعد حادث الليلة السابقة كانت وجبة الإفطار كئيبة إلى حد ما، ولم يجر إحضار الإبل لحلبها للحصول على شىء من الحليب. كان الطعام عبارة عن تمر فقط، مجرد كمية هزيلة من التمر، نظرا لأننا لا يمكن أن نكون شديدى التفاؤل بشأن معدل استهلاكنا لمادة الإعاشة الوحيدة. كان معى شىء من اللحم النيئ الذى رحت آكله أثناء السير الليلى، لكن لم يكن هناك أى دليل على الكمية المتبقية من ذلك اللحم النيئ، ولذلك آثرت عدم السؤال عن هذا الموضوع. الكلبة السلوقية لم تنل شيئا سوى نوى التمر الذى كانت تلتقطه من الرمل وتبتعله سليما. والذى لا شك فيه أن هذه الكلبة كانت

معتادة على أكل الأطعمة التى من هذا القبيل، يضاف إلى ذلك أن سلطانية الحليب جاءت بمثابة عطية لها من عند الله. كانت إبلنا هى الأخرى شبه جائعة. لكن الفكرة الوحيدة التي كانت تشغل أذهاننا هى السير بأقصى سرعة ممكنة.

أشرقت الشمس علينا من الخلف بعد أن استأنفنا سيرنا من أفق شبيه بالمحيط الواسع المنبسط، وكانت الشمس تبدو كما لو كنا مقبلين على يوم مرهق ومضن. كانت إبلنا تعانى من الحصى الصلب من تحت أقدامها، لكن رأينا أن السير فوق هذا الحصى والزلط أهون وأسهل من السير فى كثبان العواريق الرملية المتموجة، والتى كانت على مقربة منا فى الناحية اليمنى. الواضح أن هذه المنطقة لم تشهد المطر خلال العاصفة التى هبت مؤخراً، ولذلك كان سطح الأرض قاحلاً بشكل يدعو إلى الدهشة والعجب، على الرغم من توقع سالم لتحسن الأحوال مع مضينا قدما، ولذلك راح الرجل يلوم بعض أعضاء الجماعة على الغناء ونحن نسير فى الطريق. قد يكون هناك من حولنا بعض الغزلان أو الوعول البيضاء، ويفزعها الغناء فتفر هاربة بعيدا عنا، أو قد تكون هناك جماعة غازية أو بعض الصيادين يسترقون السمع إلينا. كانت أغانى الصحراء هذه تبدو لى فى أفضل أحوالها، وكأنها أشياء بسيطة لا تسمن ولا تغنى من جوع، هذه الأغانى ليست سوى فوران أرواح خاوية تقوم بعمل غير محمود، كان الغناء ترياقا للضجر الذى يُحِسُّه أفراد هذه الجماعة – كان منشد الأغانى وراوى النكات بمثابة البطل بين أفراد هذه الجماعة. طبقا لقانون الصحراء فإن رفع الصوت أثناء الليل شىء ممنوع وذلك من باب التخوف والحرص من الأعداء، لكن فى الربع الخالى كان رجال الجماعة يُكَرِّمون تلك القاعدة بكسرها والخروج عليها بدلا من مراعاتها، فى حين رضى البعض منهم بذلك الصوت الذى يعلو صوت الرجل العادى. كان ابن معدى أبشع الخارجين على هذه القاعدة، لكنه لم يكن شخصية جذابة بأى حال من الأحوال، ومن باب إنقاذ نفسى منه تماما، أنه كان يفضل دومًا السير فى المؤخرة. ولما كان ابن معدى من قبيلة السبيع، وواحداً من مواطنى رانية، فقد جرى إلحاقه على حملتنا، على فرضية احتمال عودتنا إلى الحضارة والمدنية عن طريق

وادى الدواسر. صالح أيضا صوته أعلى من صوت الرجل العادى، لكنه لم يكن ضارا، ولم يكن يستاء من سخرية رفاقه منه بسبب الهنات الأنثوية التى كان يقع فيها.

اتسع سهل ساهمة إلى ما يقرب من حوالى أربعة أميال وأصبحت له الآن أصابع عديدة تمتد مثل الأخطبوط داخلة فى الرمال الشمالية، التى استجابت لتلك الأصابع وعملت لنفسها هى الأخرى ألسنة من الرمال كانت تعترض الطريق الذى كنا نسير فيه. عبرنا مصبا من الزلط عرضه حوالى ميل تقريبا، أطلق سالم عليه اسم جناح ساهمة، بعد أن سرنا عبر انتفاخ رملى كبير تنتشر فيه شجيرات الآبال. شاهدنا فى هذا المكان قنبرة وآثار أقدام غراب هجر المكان ووجدناه واقفا على قرون وهيكل عظمى لواحد من الوعول البيضاء، كان ملقى على الأرض فوق الرمل. قال سالم: إن جناح ساهمه الذى كنا نسير عليه، يتجه صاعداً فوق الشمال الشرقى لمسافة كبيرة، مشكِّلاً بذلك الخط الفاصل بين سلسلتى العواريق الكثبانيتين والرمليتين الأولتين، لم نستشعر ارتفاع الأرض أثناء سيرنا فى اتجاه الغرب نظرا لأن ذلك الارتفاع كان طفيفا ومتدرجا. لم يكن هناك مدق (طريق) أسرع من هذه الوديان الواسعة العامرة بالزلط الخفيف، وخطر ببالى وأنا أقشعر، عندما كنت راكبا فوق ناقتى، إن هذا المكان القاحل ربما يصبح فى يوم من الأيام، بعد أن تسقط عليه أمطار مثل تلك التى شاهدناها، مزارا يذهب إليه أصحاب السيارات بحثا عن الغزال والوعول البيضاء! وعلى حد علمى الحالى، عن هذا الموضوع فإن ما ينقصه هو الماء، لأن افتقار الربع الخالى إلى الماء هو الذى يمنع السيارات من اختراق قلب الربع الخالى إلى ما بعد خط عرض تسع عشرة درجة أو أبعد من ذلك. لكن الصحراء الرملية شرقى ساهمة قد تظل على ما هى عليه. وإذا ما أقحم الإنسان نفسه بسيارة فى متاهة من هذا القبيل، فإن ذلك سيكون ضربا من ضروب الجنون.

كان رفاقى ينامون بالتناوب وهم راكبون فوق إبلهم، ثم ينفجرون بعد ذلك فى غنائهم الموحش، وذلك من باب التخفيف من الملل والسأم الصحراويين. كان هناك طوال الصباح الباكر، نسيم جنوبى شرقى كان يداعبنا من الخلف، كان ذلك النسيم بارداً

ولطيفا، وكان السهل تتخلله برك سرابية. بدأنا نستشعر السأم والملل، وعند الساعة العاشرة والنصف صباحاً قررنا عمل وقفة قصيرة، لنيل قسط من الراحة وإراحة الإبل أيضا. توقفنا فوق سلسلة بارزة من التلال الرملية المنخفضة من رمال العواريق، التى كانت شجيرات الآبال تنتشر على منحدراتها. كانت ناقتي قد بدأت تكشف عن بعض علامات القلق والاستياء نتيجة العطش، وكان ذلك هو أيضا حال بعض النياق الأخرى. جلست الإبل من حولنا يائسة وعلى وجوهها مسحة من التشاؤم، وهى تنظر إلى هذا المشهد القاحل نظرة ازدراء واحتقار، قلة قليلة من تلك الإبل هى التى ابتعدت عنا بحثا عن الطعام، ولاحظت أن زايد كان أنشط أفراد الجماعة فى مسألة إعادة الحيوانات التى كانت تشرع فى الذهاب إلى مسافات بعيدة. فى مثل هذه الظروف من ظروف العطش قد يغافل الجمل صاحبه أو راعيه فى محاولة منه للعودة إلى الماء. ولكن فرصة نجاح الجمل فى مثل هذا العمل تظل ضعيفة جداً، لكن ذلك لن يكون عزاء لنا؛ لأن خسارتنا لمثل هذا الجمل لا تعوض فى مثل هذه الظروف، نظرا لأننا ليس لدينا من الإبل ما يزيد على حاجتنا، كان وهج الشمس شديدا علينا، وطالب بعض الرجال بإطالة الوقفة إلى أن تنكسر حدة حرارة الظهيرة، لكن زايد كان يقاوم ذلك الطلب مقاومة شديدة. إضاعة الوقت فى مثل هذه الظروف تعد نوعا من أنواع الجنون. كنا قد قطعنا ما يزيد على منتصف المسافة فى الصحراء، وعلى وجه الدقة كنا قد قطعنا حوالى مائتى ميل تقريبا. هذا يعنى أننا أصبحنا بعيدين تماما عن الماء – فى أى اتجاه من الاتجاهات – ولم يكن هناك طائل من وراء تفكيرنا فى التراجع أو من وراء تغيير المسار إلى الشمال أو الجنوب. موقفنا الذى نحن فيه حاليا، ونحتاج فيه إلى الماء، لا مثيل له فى طول الجزيرة العربية وعرضها. وفى الأماكن الأخرى التى من قبيل الصحراء الليبية أو الصحراء الكبرى، لا يمكن أن يصادف الإنسان موقفا مثل الموقف الذى نحن فيه حاليا، والموقف الوحيد الذى يقترب مما نحن فيه حاليا، هى تلك الرحلة الطويلة بين نقاط المياه والتى قام بها رولفس Rohlfs فى العام ١٨٧٤ الميلادى عندما انتقل من الواحة الداخلة إلى واحة سيوة، وقطع مسافة تقدر بحوالى أربعمائة ميل عبر أرض خالية من الماء، وخلال ثلاثين يوما. لكن الرجل نَعِم بمطر غزير

فى الثلث الأخير من الرحلة، الأمر الذى أغرق الصحراء بالماء، ومكن الرجال من سقيا إبله وملء قرابه بالماء.

من الصعوبة بمكان، وربما كان من الظلم أيضا أن نقارن وللوهلة الأولى إنجاز شخصيتين متشابهتين، على الرغم من أن هذه العملية تتحكم فيها بعض البيانات الفرعية مثل الزمان، والموسم، والمكان والظروف بشكل عام. ومع ذلك فإن الرحلة التى قام بها رولفس Rohlfs تشكل شبيها كبيرا لعبورنا لهذه الصحراء الخالية من الماء، وقصة هذا الرجل (التى نشرت بالألمانية[1] منذ أكثر من نصف قرن) صعبة المنال عند القارئ الإنجليزى العادى، كما أن التلخيص الموجز للملامح الرئيسية لرحلة هذا الرجل، عندما نقارنه بخبراتى وتجاربى فى رحلتى، لابد أن تكون له فائدة ومغزى فى هذا المقام.

فى البداية أقول إن الرحلة التى قام بها رولفس كانت تحت رعاية الخديوى إسماعيل باشا وبتصريح منه، وأنا أيضا كانت رحلتى تحت رعاية وإشراف ملك الجزيرة العربية. والنجاح فى الحالين كان يعتمد على دعم ومساندة قويين – وبخاصة الرحلة التى قمت بها. ثانيا، يبدو أن هدف رولفس كان يتمثل فى السير مباشرة عبر الصحراء الليبية الخالية من الماء متجها غربا من واحة الداخلة إلى واحة الكفرة (مسافة تقدر بحوالى أربعمائة ميل)، كانت رحلتى أيضا عبر صحراء خالية من الماء (يصل عرضها إلى ٣٧٥ ميلا) من شناء أو نايفة إلى السليل. وقد انتهيت رحلتى خلال عشرة أيام من الجهد المضنى الشاق، فى حين اكتشف رولفس، الذى بدأ من الداخلة فى اليوم السادس والعشرين من شهر يناير من العام ، ١٨٧٤ – اكتشف فى اليوم الأول من شهر فبراير (أى بعد حوالى سبعة أيام) أن المضى قدما فى اتجاه الغرب أصبح أمرا مستحيلا بسبب كثافة سلسلة التلال الكثبانية الرملية التى تعترض طريقه. هذه العقبة شبيهة بالعطل الذى حدث لنا جراء سبب مختلف فى

---

(١) Dei Monate in der Libyschen Wilse by Gerhard Rohlfs,pub;ished by Theodor Fischer at Cassel in 1875

المحاولة الأولى لنا لعبور الصحراء الخالية من الماء من ناحية شناء. كان رولفس قد قطع مسافة تقدر بحوالي ١٠٥ أميال في حين كنا نحن قد قطعنا حوالي ١٤٠ ميلاً في زمن يقل يومين عن الزمن الذى استغرقه رولفس. وتعين علينا التراجع من هذه النقطة إلى ١٤٠ ميلاً أخرى عائدين إلى الماء فى نايفة، وبذلك تكون إبلنا قد قطعت حوالى مائتين وثمانين ميلا بلا ماء فى تلك المحاولة. جرى حل مشكلة رولفس بطريقة مختلفة، ذلك أنه عندما كان يتدبر الأمر مع رفاقه، شهدت الصحراء ظاهرة غير عادية إذ انهمر عليها سيل من الوابل الغزير. وبذلك تكون الإبل قد حصلت على سقيا مشبعة وغير متوقعة[1]، فى حين استطعنا نحن إعادة ملء خزانات المياه التى كانت تحملها إبل الحملة. وهنا قرر رولفس السير فى الاتجاه شمال شمال غرب قاصداً واحة سيوة عبر منطقة الكثبان الرملية على خط مواز لخط واحة الداخلة والفرافرة.. إلخ، وعلى بعد مسافة من هذه الواحات، يقدر متوسطها بحوالى ١٠٠ ميل. هذا يعنى أن رولفس لم يكن فى أى نقطة من نقاط المسافة التى تقدر بحوالى ٢٨٥ ميلا، بدءا من النقطة التى يسميها ريجنفلد Regenfeld (وهى النقطة التى سقط عليه المطر عندها) على بعد مسافة تزيد على مائة ميل من أقرب مصادر الماء إليه، فى حين كان الرجل وهو فى منتصف الطريق (وربما أقل) على بعد حوالى خمسين ميلا من مسقى نسلة.

كانت رحلتنا تتفوق على رحلة رولفس، من حيث اليأس الكامل من الموقف الذى كنا فيه، إذ كانت المسافة فى البداية وفى النهاية بيننا وبين نقاط الماء تقدر بحوالى ٣٧٥ ميلا، وكانت أقرب نقاط الماء إلينا على بعد مسافة لا تقل بحال من الأحوال عن ١٨٠ أو ١٩٠ ميلا عن نقطة الوسط. يزاد على ذلك أن رولفس كان يحمل معه مددا مائيا كافيا، إلى حد أنه عندما وصل إلى المكان الذى يسميه سانضيم، والذى توقف فيه

---

(١) لم يذكر رولفس أن الإبل شربت، وفى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير قال رولفس: إن الإبل كانت قد شربت قبل سبعة عشر يوما من الداخلة، لكن الذى لا يصدق هو أن الإبل لم تستنفد إلى أبعد حد ممكن من تلك الأمطار.

مدة يوم كامل هو اليوم الثانى عشر من شهر فبراير، استطاع إعطاء إبله كلها "حصة من الماء" إن لم تكن "سقيا كاملة". كانت جماعة رولفس قد قطعت بإبلها مسيراً دام سبعة عشر يوماً منذ السقيا الأخيرة التى حصلت الإبل عليها فى واحة الداخلة، لكنها لم يكن قد مضى عليها سوى ثمانية أيام فقط منذ سقوط الوابل الغزير، فى حين وصلت الإبل بعد ذلك بثمانية أيام إلى واحة سيوة. هذا يعنى أن إبل رولفس أمضت ثلاث فترات بلا ماء طول الفترة الواحدة منها ما يقدر بحوالى ثمانية أيام، فى حين قامت إبلنا بالرحلة غير الموفقة الأولى من شنّاء إلى حض الحواية ثم العودة منها إلى نايفة (أى حوالى ٢٨٠ ميلاً) فى خلال تسعة أيام، وقطعت المسافة الأخيرة التى تقدر بحوالى ٣٧٥ ميلاً خلال عشرة أيام، وكانت الإبل فى المرتين بلا ماء اللهم باستثناء بعض التموينات المائية الطارئة التى أعطيت للإبل التى كان يتهددها الخطر، والماء الذى كان يستهلك فى عملية "تنشيق الإبل".

يبدو أن جماعة رولفس خسرت حوالى ٢٠ جملا خلال هذه المغامرة، على الرغم من أن السواد الأعظم من إبله جرى استئجارها من واحة الداخلة، فى حين لم نخسر نحن من إبلنا شيئا، على الرغم من أن إبلنا كانت قد أتمت شهرين من السير الشاق فى ظل ظروف رعوية غير مناسبة، قبل قيامنا بالرحلة النهائية الطويلة الخالية من الماء. يزاد على ذلك أن إبلنا تلتقط الغذاء، الذى يمكن أن تحصل عليه من بين الشجيرات الميتة أو المريضة فى الربع الخالى، كانت إبل رولفس على العكس من إبلنا تحمل معها العلف اللازم لها، الأمر الذى كان يفسر ذلك التشاؤم الذى كان يتملك مرشده البدوى، الحاج مجدوب، "الذى ضمن له استقرار الإبل بلا شرب طوال مدة تتردد بين ٤٠ و ٥٠ يوماً، وكان الحاج مجدوب يظن أيضا أن الإبل ستصل إلى سيوة دون أن تكون بحاجة إلى الماء، أما رجالى، وفى ظل معرفتهم مراعى الصحراء، لم يكن لديهم مثل هذا التفاؤل فى البداية، بل إنهم كانوا يخشون أن تغير الإبل على كمية الماء الصغيرة التى معنا. ولم يتبقَّ معنا فى نهاية المطاف سوى ثلاث قرب من أصل ٢٤ قربة، من قرب الماء التى حملناها معنا فى بداية الحملة، وفى ظل هذا الوضع كنا نحاول أيضا الادخار والاقتصاد فى الماء.

ربما كانت مسألة التموينات اللازمة للبشر المشاركين فى الجماعة على طرفى نقيض فى الرحلة التى قام بها رولفس، والرحلة التى قمت بها أنا. لم يكن معنا فى رحلتنا سوى اللحم النيئ، والتمر والقهوة، وشيء قليل من الشاى، وعندما وصلنا السليل لم يكن معنا أى شيء يكفى مجرد وجبة واحدة. يسجل رولفس أنه فى اليوم الأخير من رحلته اكتشف، عندما كان يعاين ما معه من تعيينات وتموينات، أن ما لديه منها "كان يكفى أياما عدة أخرى". لاحظ رولفس منذ بداية رحلته من الواحة الداخلة: "كان معنا علاوة على الماء، وعلف الإبل، والمؤن والتموينات المعتادة[1]، بعض المؤن التى كنت محظوظًا فى الحصول عليها بعد أن وصلت مؤخرا من أسيوط :لحم خنزير مملح، ونقانق، وجبن، ونبيذ، وشيكولاته، فضلا عن بعض الترفيات الأخرى، فى حين كان هناك جمل من بين الإبل يحمل فوق حمولته قفصا من أقفاص الدجاج يحتوى على ٣٠ دجاجة!". وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن معدل سير رولفس كان حوالى ١٥ ميلا فقط (حوالى ١٨,٥ ميل إذا ما استبعدنا الوقفات التى تقدر بخمسة أيام) بالمقارنة مع ٣٥ ميلا كنا نحن نقطعها فى اليوم الواحد! وإذا كانت حملة رولفس تعد مثالا طيبا على التنظيم الجيد، فإننا يحق لنا القول: إننا واجهنا اختبارات قاسية فى تلك الصحراء الطاردة.

تأسيسا على الروايات كلها، تعد الصحراء الليبية أقسى وأبشع فيما يتعلق بالحياة النباتية من الربع الخالى فى ظل تأثير الجفاف الطويل، لكن يجرى التغلب على مسألة الجفاف هذه فى الصحراء الليبية عن طريق حمل العلف اللازم للحيوانات، فى حين نجد أن الإبل فى الجزيرة العربية يجب أن تعتمد قدر المستطاع على ما تقدمه الطبيعة الجرداء وإلا ماتت جوعا. من هنا يتعين على الإبل التحرك بسرعة، وهذا هو بحد ذاته الأمر الأساسى فى مسألة تربية الإبل فى الجزيرة العربية، من ناحية أخرى نجد أن أفريقيا والجزيرة العربية تمثلان تناقضا عجيبا، فالعرب يفضلون النياق فى

(١) الواقع أن مؤن وتموينات رولفس بلغت من الكبر حداً جرى معه التخلص من جزء كبير منها، مثل التمر والبسكويت، فى ريجنفيلد Rrgenfeld قبل استئناف السير.

تنقلاتهم، فى حين نجد أن سكان صحراء مصر وليبيا يفضلون ركوب الجمال. ونحن فى قافلتنا كلها لم يكن معنا سوى جمل واحد - وللأسف كان جملا مخصيا، الأمر الذى خيب أمل أحد المربين فى السليل، الذى جاء إلى مخيمنا ومعه ناقة كان يود لها أن يسافدها جمل من السلالة العمانية الشهيرة.

ومن باب تحفيز الرفاق على العمل. راح زايد، بعد أن فرغ من عمل القهوة فى الوقت الذى كان فيه رفاقه نائمين ملفوفين فى عباءاتهم، يكشف عن طاقة كبيرة فى عملية تحميل الأمتعة على ظهور الإبل استعدادا لاستئناف السير عند الظهر. أصبحت الأرض من أمامنا الآن عبارة عن رقع تبادلية من الزلط والرمل، واصلنا السير عليها، ورحنا ننحرف انحرافا متدرجا عن سهل ساهمة الرئيسى، ونحن نشق طريقنا عبر الأطراف المنخفضة من سلاسل عواريق الكثبانية الرملية، كانت الحرارة شديدة على الرغم من هبات النسيم الجنوبى، وتولى سالم مسألة إرشادنا على الطريق وهو يغالب النوم. ثم أيقظونى فجأة من نومى على منظر غريب قلَّ أن يراه الإنسان أو يتصور وجوده فى مثل هذه الأماكن. شاهدنا على طريقنا، ويقطعه من الجنوب إلى الشمال، خطا مزدوجا لآثار أقدام ناقة ومعها وليدها! كان ذلك الأثر حديثا، ربما كان عمره يوما ويصعب أن يكون أكثر من يوم، وتكهرب سالم وراح يدرس ذلك الأثر دراسة متأنية، وراح يتتبعه إلى مسافة قصيرة دون أن يقول كلمة واحدة. ثم استأنف مسيره بصورة مفاجئة وكأنه راض عما يفعل ومقتنع به. ربما هذه جماعة من جماعات الصيد، كان سالم يغمغم بهذه العبارة لنفسه بدلا منى، ومعهم ناقة حلوب ضالة منهم، وقد تكون هذه جماعة من الغزاة. ومع ذلك لم يكن هناك سوى أثرين - حدثا أمس أو ربما أول أمس على أكثر تقدير - والغريب أن هذه الجماعة لم يلاحقها أحد. واصلنا السير إلى مسافة أخرى قصيرة بحثا عن مزيد من الأثر ولكننا لم نقع على أى شىء منه. قال سالم: المؤسف أننا لا نستطيع قص أثر هذه الحيوانات. الحيوان الصغير سيكون لحمه طريا، والناقة ستعطينا حليبا، لكنهما ذهبا بعيدا جداً عنا. لابد أن هذين الحيوانين شردا من جماعتهما إلى مكان بعيد عن هذا المكان، وإلا كنا قد شاهدنا أثر أقدام أولئك الذين كانوا يبحثون عنهما. والذى لا شك فيه أن الرجال عجلوا بالعودة

إلى السليل بسبب العطش، أو إلى نجران إن كانوا راكبين. ربما كانوا راكبين! قالها سالم وهو يتمتم كما لو كان راضيا عن الحل الذى توصل إليه، وكانت الناقة جزءا من الغنائم. ربما تكون الناقة قد شردت منهم فى الظلام، باحثة عن العودة إلى أصحابها. انتبه، لقد اتجهت شمالا، ربما إلى الأفلاج. ربما يكون هؤلاء الغزاه هم أولئك الذين تشمم على الجهمان دخانهم في مقينمة. هل تذكرون ذلك؟ وهنا راح الرجل يمضغ أفكاره وهو سائر فى الطريق، ولقيت استنتاجات سالم موافقة من زايد والآخرين، بعد أن انضموا إلينا. الواقع أن استنتاجات سالم أصابت المحز تماما. فى السليل ووادى الدواسر قدر لنا أن نستمع إلى القصة كاملة فى الوقت المناسب. كان صديقنا جابر بن فصل، قد فكر فى خطه بعد أن تركناه بصحبة صندوقى الخاص بالحفريات، لكى يقوم بتوصيله إلى الهفوف. وكان المبلغ الذى أخذه مقابلا لأتعابه وكرمه كافيًا لتوفير احتياجاته واحتياجات عائلته الضرورية عن طريق شرائها من أسواق الأحساء. وعليه قرر جابر بن فصل النزول وحده ومعه جملان: يحمله واحد منهما، أما الثانى فيحمل الصندوق، فى حين تقوم المرأة باقتياد قطيعه المكون من أربعين رأسًا من الماشية إلى مراعى الدهناء، التى ربما تبعد عن هنا مسافة مائة ميل، وتنتظر عودته إلى الدهناء فى مكان محدد معروف لهما، يقع فى المنطقة المجاورة لرجم الشويعر على طريق الرياض – الأحساء، على الطريق المؤدى إلى هناك، كانت المرأة التعيسة قد صادفت عصابة من لصوص نجران، الذين تشمم على الجهمان دخان نار مخيمهم من مسافة بعيدة في مقينمة، وسرق هؤلاء اللصوص ماشية ابن فصل كلها من هذه المرأة. كان الغزاة من باب التأدب مع الطريق فى العالم القديم، قد تركوا خمسة من الإبل، بما فى ذلك جمل أو اثنين من إبلهم المرهقة، للمرأة لتأخذها معها، فى حين اقتادوا باقى الإبل أثناء عودتهم إلى نجران. أما الناقة ووليدها اللذان شاهدنا آثارهما، فلابد أن تكون قد شردت منهما وتخلوا عنها من منظور أنها لا تستحق مشقة البحث عنها، الأمر الذى ربما عرَّض عودتهم سالمين للخطر بسبب المطاردة من ناحية والعطش من الناحية الأخرى. الأغرب من هذا كله، أننا سمعنا بعد ذلك خبرا لا يصدقه العقل،

مفاده أن الناقة الضالة هي ووليدها عادت إلى مالكها الحقيقي، الذي وصل في الوقت المناسب إلى المكان المحدد للقاء في الدهناء، ليجد نفسه في نهاية المطاف فريسة للقدر المحتوم الذي يطارد البدوي العربي المترحل طوال حياته، حتى في ظل ظروف السلم في الحكم الوهابي. صحيح أن ابن سعود استأصل جذور التسلية القديمة التي يسمونها الغزو، من برنامج حياة رعاياه، لكن ممتلكاته الشاسعة وحدوده الطويلة، ما يزال الضعف الذي في المناطق المتاخمة لها، هو وفساد الحكم، يولدان الاضطرابات التي تخل بالسلم والاستقرار. هذه العصابات تقوم بين الحين والآخر – لكن ليس بشكل عام كما في الأزمان القادمة – بانتهاك حرمة الحدود، وقد أصبحت نجران معتدًا أثيمًا في هذا الصدد، على الرغم من أنه من قبيل المصادفة البحتة، كانت هناك حملة وهابية تتعامل بالفعل مع هذا الاضطراب المزمن، في الوقت الذي قامت فيه هذه العصابة بعملية السلب والنهب، هذه عندما سرقت ماشية جابر بن فصل على بعد مسافة ألف ميل. أخيرًا استسلمت نجران لعقيد(١) ابن سعود المدعو خالد بن لؤي وهو من أهل الخرمة، في شهر مارس الحالي. ربما كان ذلك من باب العزاء البسيط لجابر بن فصل عن خسارته المأساوية، وقد آلمني أيضا أن أحس في داخلي أني كنت سببا في هذه الكارثة.

اكتشاف آثار الأقدام هذه في مكان بعيد كهذا حوَّل انتباهنا مدة ساعة أو أكثر عن الإحساس بالحرارة الشديدة في عصر ذلك اليوم. لم نر طوال الوقت كائنا حيا سوى زوج من طيور أبي بليق **Wheaters** في المنطقة المجاورة لخيمنا في وقت الظهيرة. الموت هنا له اليد العليا. الشجيرات القليلة احترقت وذوت، وكنا نرى هنا وهناك حزمة من العشب الأخضر نجحت في البقاء على قيد الحياة، وراحت إبلنا تقضمها وهي سائرة في الطريق، على الرغم من عطشها الشديد الذي يحول بينها وبين تناول أي شيء من العلف. هذه الكومة من العظام البيضاء، وهذان القرنان الأسودان والمنحنيان انحناء جميلا، يدلان على مشهد الألم الأخير الذي كابده فرد من أفراد الغزال. مررنا

---

(١) العقيد: مصطلح بدوي يعني الشخص المسئول عن إدارة وتخطيط وتنفيذ شئون القتال والمعارك في القبيلة، ولا علاقة لهذا اللقب بالألقاب العسكرية الحالية. (المترجم)

على جحر فأر صحراوى، الذى دلتنا آثار أقدامه على أنه ما يزال داخل الجحر، لكننا كنا متعبين إلى الحد الذى منعنا من حفر ذلك الجحر وهدمه والإمساك بالفأر. تبدت لنا أيضا بفعل السراب المناطق الزلطية الموجودة بين الكثبان والتلال الرملية فى العواريق. كانت الحرارة مخيفة ولا تطاق. لم يكن أمامنا من شيء سوى سن أسناننا ومواصلة السير إلى أواخر فترة العصر، التى رضينا عندها بتجاوزنا منطقة العواريق ودخولنا الوديان الضحلة المتوازية فى بنى معاريض، هذه الوديان يحيط بها من الجانبين سلاسل منخفضة من التلال الرملية المتموجة. لم يتغير أى شيء سوى الاسم فقط. هذه هى الأرض الرتيبة الكئيبة السابقة الثقيلة على النفس أكثر من الحرارة نفسها. قال سالم: انظر، هذه هى الإبل عطشانة! لابد من تنشيق عدد كبير من هذه الإبل فى هذه الليلة، لأنها لا يمكن أن تبقى أكثر من ذلك بلا ماء. وها نحن بدأنا نواجه أزمة ثانية وهذه نُذُر انهيار تحلق أمامنا فى الأفق، لكن أمامنا بعض الخيارات. التراجع والانسحاب أمر غير وارد، وكنا جميعا متفقين على ذلك – لا نقاش أو جدال فى هذا الأمر – وكان لدينا ماء وفير لو أننا اقتصدنا فى التعامل معه. كان معنا ماء يكفى لإعطاء الإبل جرعات كافية للمحافظة على أفخاخ هذه الإبل، وهذا هو الفارق المهم.

كان سهل ساهمة فى ذلك الوقت على بعد مسافة كبيرة منا فى اتجاه الشمال، وليس فى متناول رؤيتنا، لكننا كنا ما نزال نرى طُنُبًا منها، ونحن نسير فى اتجاه الجنوب الغربى، بجانب أول وادى عريض من وديان بنى معاريض. هذا يعنى أن مطر الأسبوع الفائت لم يزر بعد هذه المنطقة، وهذا واضح من المناطق التى عليها شجيرات الحض وشجيرات الآبال، إذ إن هذه الشجيرات مضى عليها سنوات وسنوات دون أن يصيبها أى نوع من الرطوبة أو البلل. قال سالم: ربما كان ذلك منذ عشرين عاما أو أكثر. كان هناك طائر واحد من طيور أبو بليق وكان يحتل المنطقة كلها لحسابه، وشاهدنا أيضًا روثا قديما ناتجا عن الغزال والوعول البيضاء، لكن كان هناك شيء مهم آخر – شظايا صغيرة من بيضة كاملة من بيض النعام موضوعة على الرمل وشبه مدفونة فيه. جمعت هذه الشظايا وأدرجتها ضمن مجموعتى. ليس هناك شك

فى أن هذه البيضة فقست هنا فى هذا المكان، وكان من الصعوبة بمكان تصديق أن ذلك حدث منذ ما لا يقل عن أربعين أو خمسين عاما مضت، ومع ذلك أصر كل من سالم وسويد على أن هذا الكلام هو الصحيح. كبار السن فى الصحراء هم وحدهم الذين شاهدوا هذا الطائر الكبير حيا فى هذه الأجزاء، عندما ذهبوا بصحبة آبائهم للصيد في هذه الأماكن. النعام عند خلف هؤلاء الأسلاف يعد أسطورة أو خرافة من خرافات الماضى.

تجاوزنا الوادى الأول من وديان بنى معاريض من سلسلة تلاله الحدودية إلى الوادى الثانى، الذى توقفنا عند حده البعيد بمحاذاة سلسلة التلال الثالثة فى وديان بنى معاريض، لنيل قسط من الراحة وسط شجيرات الآبال الكثيفة. هذا السير الطويل فى الحر مع براد شاى تناولته عند الظهيرة أجهدنى، وأنا أرقد على الأرض لأنال قسطا من النوم فى الظل الممتد لواحدة من الشجيرات الميتة. كانت الشمس خلف الأفق عندما أيقظنى سعدان على براد من الشاى، وأحسست بالانتعاش على نحو شجعنى على القيام بالملاحظات الفلكية وتدوين الملاحظات الأخرى التى يتعين على الرجال القيام بها. لكنى بدأت أتعجب ما إذا كان بوسعى الاصطبار يوما آخر على حميتى التى تقضى بابتعادى عن الماء، والاعتماد على بعض قليل من التمر، وكمية متناقصة من اللحم النيئ أعيش عليها طوال اليوم. ومع اقتطاع الحليب حاليا من طعامى أصبحت أعرف أن استهلاكى اليومى من السوائل وصل إلى خمسة (براريد) صغيرة من الشاى – ربما يصل إجماليها إلى حوالى أربع بنتات. عندما انضممت إلى رفاقى لتناول عشائنا البسيط أمسك زايد بسلطانية الحليب وقدمها إلى. قال زايد: اشرب ولا تفكر فى ذلك الذى حدث بالأمس. رددت عليه: أنا لا يمكن أن أشرب هذا الحليب، بعد أن أقسمت على عدم شربه. هذا الأمر لا يهم. اشرب الحليب، وأنا أؤكد لك أنى لا أضمر لك حقدا أو غلا. وعليه شربوا الحليب وأنعشوا أنفسهم، وبذلك نكون قد تصالحنا. بعد العشاء راحوا يتفحصون الإبل. وجدوا أن أربعة من الإبل كانت بحاجة ماسة إلى الماء، وكانت ناقتى النعرية من بين هذه الإبل، صببنا ماء قربة ونصف القربة فى جلد خروف وضعناه فوق سرج من السُّرُج لأننا لم نحضر معنا أى دلو من الدلاء. أعطينا لكل جمل

ملء غلاية واحدة صببناها له في الأنف. كنت دائما أبتعد عن المكان عندما كانوا يقومون بهذه الطبابة، وبعد منتصف الليل بنصف ساعة ركبنا إبلنا من جديد. كان جهاز قياس الحرارة قد سجل اثنتين وسبعين درجة فهرنهيتيه فى ذلك الوقت، لكن الجو كان ما يزال بارداً وكانت تهب علينا ريح جنوبية شرقية. فى الناحية الغربية، تلبدت السماء بالغيوم السوداء أثناء سيرنا فى جوف الليل، إلى أن توقفنا قبل صلاة الفجر، وعندها كان نصف السماء ملبدا بالغيوم، نمت أنا بطبيعة الحال، فى حين راحوا هم يعدّون القهوة والشاى، وصحوت على صوت التأذين لصلاة الفجر، قلت لرفاقى ونحن جلوس حول النار نحتسى القهوة: ديروا بالكم على الكلبة الأقفة، لأنى رأيتها فى الحلم. رأيتها جالسة واقفة على قمة سلسلة الدرجات المنحدرة الطويلة، ولا تقوى على النزول. وكان من خلفها رجل دفعها فسقطت من علٍ إلى الأرض على شكل كومة، وانكسرت رجل من أرجلها. وربما تسقط اليوم من فوق الجمل عندما تحاول الركوب – المؤكد أن الكلبة لا تحب هذا النوع من الركوب. لكن انتبهوا حتى لا تضيع منا هذه الكلبة. ردوا على مؤكدين، لا تخف لن تسقط الكلبة من فوق الجمل – لا قدر الله! لكن الواضح أنهم ناقشوا حلمى فيما بينهم أثناء السير. قال حميد للآخرين: هذا لا يعنى شيئا. ابن حميد هذا ذاع صيته على أنه عرّاف وشاعر – ربما يكسر الشيخ عبد الله ساعته اليوم، والله أعلم. هذه الملاحظة لم يقلها قائلها فى وجودى، لكنهم جميعا كانوا على علم بالرعاية والعناية التى أوليها للساعات التى كنت أحملها فى حزام صمم خصيصا لحمل هذه الساعات بواسطتى شخصيا. هذه الرؤية كشفت عن كارثة، وإذا ما وقع أى حادث لأى من هاتين الساعتين فإن ذلك يمكن أن يكون كارثة بحق وحقيقة. واصلنا مسيرنا مرة ثانية مع غسق الفجر، عبر سهل رملى قاحل على الجانب الأيمن من سلسلة تلال بنى معاريض الجبلية الخامسة، كان الجو بُرَاداً عند هذه الساعة، وكانت السحب الكثيفة متجمعة فوق السماء الشمالية الغربية، فى حين كان النجمان الكبيران – اللذان يعرفان لعرب الصحراء باسم الخيّال[1] Cavalier، والبغّال

(١) الخيال والزمّال.

Muleteer – يسطع نورهما في السماء الجنوبية الصافية. كانت القهوة والتمر قد ولَّدا الحياة والنشاط في الرجال، الذين راحوا يدردشون ويغنون، إلى أن بدا الضيق والضجر على سالم، الذي كان لا يزال يفكر في مسألة أو فرضية مصادفة وعل من الوعول البيضاء. تعجب سالم قائلاً: لوجه الله! العار عليك يا من تغني أثناء الليل! أضاف سالم قائلا: الرجال الحمر[1] لا يدردشون أثناء الليل أو في الكلام – إنهم يهدأون أثناء الليل. لكن الآخرين لم يلقوا لكلامه بالا، وكان أبو جعشة هو الشخص الوحيد الذي يلزم الصمت وهو راكب راحلته. بدأ الرجل بعد حادث الحليب يتصرف مثل كلب جرى ضربه بالسوط، وبدأ يختفي سلوكه الأناني، كانت الشمس الحمراء احمرار الدم، قد ارتفعت في السماء من خلفنا فوق السهل المنبسط الشاسع، الذي كانت سلاسل التلال الرملية تبدو فيه وكأنها تموجات على سطحه. ومع طلوع خيوط النهار الأولى شاهدنا آثار وعل أبيض كبير على الرمل، لقد مر ذلك الحيوان من هذا المكان من حوالي ثلاثة أو أربعة أيام.

كانت طبيعة السطح في هذا المكان عرضه للتحول التدريجي، هذا يعني أن خليطا من الرمل والزلط الخفيف كان يحل محل الوديان والتلال الرملية الموجودة خلفنا. قال سالم: هذا كله جزء من السهل الزلطي الكبير، الذي تطبق عليه الرمال. هذه السهول سرعان ما تغطيها الأعشاب، لكن الآن، وكما ترى، ليس هناك دليل أو علامة على وجود الحياة النباتية. يزاد على ذلك أن المنحدرات الرملية جرداء وقاحلة. كانت هناك قلة قليلة من شجيرات الآبال الميتة على بعد مسافة كبيرة في الجانب الأيسر، سلسلة طويلة من التلال. لكن هنا بعض الدلائل على سقوط المطر الذي وصلت إليه الرطوبة.

وصلنا أخيرا إلى آخر سلسلة من سلاسل تلال بني معاريض الرملية، والتي تنتشر فيها شجيرات الآبال انتشارا متناثرا. من فوق هذه التلال نظرنا إلى ما يشبه محيطًا ضخمًا مظلمًا. هذا هو "أبو البحر" father of the sea، أي السهل الزلطي الكبير

---

(١) الرجال الحُمُر بمعنى الرجال البيض whiteman.

الذى يسمونه أبو بحر، الذى يمتد بارزا من سهب الصُمَّان رعن شاسع من اليابسة فى وسط محيط الرمال الكبير. سهل أبو بحر هذا يمتد أمامنا شاسعا وقفرا إلى أفق شبيه بالبحر، فيه جزيرة من الكثبان الرملية على بعد مسافة كبيرة فى منتصفه فى الاتجاه الشمالى الغربى، وتكسر رتابة هذا المكان الكبيرة وتحد منها. يمتد حاجز رمال بنى معاريض على طول حافة أبو بحر الشمالية، بدءا من هذا المكان إلى امتداد البصر فى الناحيتين الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية. هذا غراب هبط على الأرض تحية لعبورنا هذا المكان، وهذا طائر من طيور أبى بليق صنع لنفسه مأوى بين عدد من الشجيرات الكثيفة، وبطريقة فطرية وجدنا أنفسنا بدأنا السير فى ذلك السهل، ونحن نجهل تماما مداه، ولا نعوِّل على الساعات المتعبة التى تنتظرنا إلى أن نصل إلى حزام الرمال الثالث، الواقع خلف هذا السهل.

بنى معاريض التى ينطوى اسمها على بعض المتاعب والعقبات، اتضح أنها عبارة عن رقعة من الأرض المتماسكة، التى تشكل غطاء خفيفا لأساس من الزلط، فى حين كانت سلاسل التلال الستة التى تمتد عبر هذه الرقعة من الأرض على بعد مسافات واسعة فيما بينها، أكثر انخفاضا وأسهل من أى شىء آخر فى منطقة السواهيب الحقيقية. كان سهل أبو بحر، من ناحية أخرى، اسما على مسمى بحق وحقيقة – محيط، أملس، هادئ وصامت، ليست فيه أية علامة تدل الرجل أو تهديه أو ترشده. كان سالم متردداً فى السير فى الاتجاه الذى بدا لى على أنه الطريق الطبيعى الواضح، وبقى لفترة من الوقت يمشى فى اتجاه الجنوب الغربى، محتضنا بذلك شاطئ بنى معاريض بما فيها من شجيرات الآبال المتناثرة والمبعثرة متجنبا بذلك المخاطرة بالسير فى تلك الأرض الجرداء التى تمتد فى اتجاه الغرب. كانت الساعة عندئذ السابعة صباحا بالضبط، وكان ذهن الرجل مشغولا، قبل ساعات قليلة من تناول القهوة المعتادة، بمسألة الحاجة إلى الحطب. قد يكون الوقت حان للسير عبر هذا المكان بعد أداء هذا الأمر المهم. لكن سالم لم يكن مرتاحا لذلك، وهذا من واقع ما لمسته من

استمرار تغطيته لعينيه، حتى يتمكن من مسح ذلك الأفق الذى لا يوحى بالأمل. كان تموين الماء الذى نحمله معنا هو القول الفصل في هذا الأمر، وعندما بعدنا عن طريقنا جاء ذلك من قبيل زيادة المسافة التى يتعين عبورها وقطعها. تناقشت مع سالم مؤيدا فكرة الطريق المباشر، ووافق الرجل على ما قلت. قال سالم: أنت على صواب، لكن ضع في اعتبارك أيها الرجل أنى لم أجئ إلى هذا المكان قط من قبل، ولا أعرف مع ذلك عرض أو اتساع سهل أبو بحر، سوف لا نجد حطبا فى هذا السهل ولن نصل إلى رمال الرميلة قبل دخول وقت الظهر بحرارته. هل سنمضى وقتا طويلا فى شرب القهوة؟ لكن، بمشيئة الله، قد لا تكون الرميلة بعيدة بهذه الصورة التى تحكى عنها. عيناى لا تريان مثل عينيك، أى أن مدى شوفك كبير، وعليه يجب أن ننظر إلى سلسلة الكثبان الرملية التى تكون فى نطاق مدى بصرنا نحن الاثنين. سمعت الناس يقولون: إن الإنسان بوسعه أن يرى رمال أبو بحر من مسافة بعيدة إذا ما دخل أبو بحر من ناحية الشرق، وأن من يراها من الشمال تبدو أكثر بعداً، لأنى عبرت رمال أبو بحر من مقينمة إلى السليل. خبرنى، هل ترى سلاسل رملية فى الأمام – بوسعك رؤيتها لأنها عبارة عن خط من الكثبان الرملية العالية؟ حملقت بعينىّ لكنى أكدت له أنى لم أر شيئا، لكنه غير الاتجاه ناحية الغرب، واعتبارا من تلك اللحظة لم يكن هناك بديل عن المضى قدما بأقصى سرعة ممكنة. لو كان سالم عرف أننا لن نرى الرميلة فى ذلك اليوم، لأنذرنا وطلب منا أن نحمل حزما من الشجيرات الميتة فى سهل بنى معاريض، حتى يمكن استعمالها حطبا للنار. شربنا الشاى والقهوة عند الساعة الخامسة صباحاً، ولن نحتسى الشاى أو القهوة قبل الغد عند الساعة الثامنة صباحاً. هذا يعنى أننا سوف نمضى سبعًا وعشرين ساعة بلا قهوة! كان ذلك اختباراً فائقا للفضيلة العربية، وقد أثبتت المسيرة التى قمنا بها عبر أبى بحران العربى هو وجمله على أحسن ما يرام فى وقت الشدة. لقد جاء الأداء رائعًا، على النحو الذى يرد فى أغانيهم الشعبية، وفى ضوء ما ورد عن هذا الموضوع ضمن ملاحم فروسيتهم القديمة. جاء ذلك بمثابة تتويج لمغامرتنا بكاملها.

في رأى سالم أن سهل أبو بحر يمتد من حدود الصُّمَّان الجنوبية مسافة مائة وخمسين ميلا فى اتجاه الجنوب، إلى الخط الذى تلتقى عنده قرون بنى معاريض المنحنية مع الرميلة، وبذلك يبتران سهل أبى بحر. تقع ريدة إلى الخلف من قرون بنى معاريض والرميلة، وريدة عبارة عن رقعة من الأرض الرملية الخفيفة أو الزلطية، وفيها منخفضات الكنيس الرملية فى ناحية الشرق وفيها أيضا امتداد لسلاسل العواريق التلالية الرملية فى اتجاه الجنوب. وخلف هذه المنخفضات وهذا الامتداد تقع منطقة كرش البعير، والذى لم يكن سالم على دراية بموقعه، أو بالأحرى كانت لديه معلومات غير واضحة عن هذا المكان، نظرا لأن المعلومات التى لديه عن هذا الموضوع تعتمد على الرواية والحكى، أما سويد، فكان قد رافق ذات مرة حملة لصيد الوعول البيضاء اخترقت المكان، وقطعت سيرا مقداره حوالى ستة أيام (ربما ١٥٠ ميلا)، ووصلت إلى الشمال الشرقى من السليل. واستنادا إلى ما يقول سويد: فإن الانتقال من الكنيس إلى بنى معاريض يتم عن طريق شريحة رملية يسمونها الظهور، وفيها أربع سلاسل من التلال الرملية المتوازية. وخلف بنى معاريض وصل سويد إلى رقعة من المنخفضات الرملية ومنها إلى كرش البعير (أو إن شئت فقل بعير الحوارية)، الذى وصفه بأنه متاهة معقدة من الكثبان الرملية غير المنتظمة، التى يغلب عليها طابع الرُّكام. وإلى الجنوب من هذه الكثبان الرملية يقع سهل جليدة الزلطى القاحل الذى يمتد إلى كثبان قعاميات الرملية المرتفعة.

من هنا حاولت أثناء مسيرنا تصور شكل طبوغرافى معقول لتلك الصحراء الكبيرة. بدأ خط كثبان بنى معاريض ينحسر بانتظام إلى ما يشبه الروابى الخيالية التى تسبح فى سراب شاسع، وهب علينا مدة ساعة أو ساعتين، نسيم خفيف أنعشنا، إذ كان يهب علينا من الشرق والجنوب الشرقى. لكن الشمس وحرارتها وصلتا إلى الذروة، ولذلك قررنا التحكم فى أعصابنا طوال فترة العصر، وتوقفنا عند الساعة الحادية عشرة صباحا وقفة قصيرة تقل مدتها عن ساعة واحدة. روى رفاقى ظمأهم وتحلقنا حول وجبة من التمر مع شىء من الزبد، وجرى أيضا تنشيق بعض الإبل لترطيب

رءوسها قبل أن تصل حرارة النهار إلى ذروتها، أخذ سويد الماء فى فمه وراح ينفخه فى فتحتى أنف الجمل، فى حين كان يجرى استعمال براد الشاى فى أداء هذه المهمة فى مكان آخر، كان المشهد غريبا بطبيعة الحال - هذا الجمع من البشر والإبل ينالون قسطا من الراحة وسط هذه الصحراء القاحلة، التى ليس فيها مطلقا ولو عود واحد من الحشائش الجافة، أو حتى عصا واحدة من حطب الوقود، حتى يمكن أن يغير مشهد ذلك الزلط القاحل، الذى يمتد إلى أن يصل إلى الأفق فى جميع الاتجاهات. جمعت تشكيلة من حصى هذا السهل قبل أن نركب إبلنا ونروح نبحث دون جدوى عن مانتيدات الصحراء، أو إن شئت فقل: الأشياء الزاحفة الأخرى. كانت الدنيا من حولنا موات.

شاهدنا بعد ذلك بساعة وعن بعد وميضا رمليا، وظننا أننا ربما كنا نقترب من الرميلة، لكن خاب أملنا، هذا الذى شاهدناه لم يكن سوى مجموعة منعزلة من الكثبان الرملية المكوَّمة فوق الزلط. شاهدنا عن بعد شيطانا ترابيا يرتفع إلى مسافة عشرين قدمًا فى الهواء، وكان ذيله يلوح فى الهواء نحو الأعلى، ثم اختفى فجأة مثلما ظهر وتشكل. كانت أشعة الشمس تلهبنى أنا ورفاقى، الأمر الذى جعلهم يغالبون النوم وهم فوق إبلهم - وهذه مسألة هم خبيرون بها، أما أنا فلا خبرة لى بها. نام سالم هو الآخر مثل باقى الرفاق لكنه كان يصحو بين الحين والآخر على تغيير الاتجاه. كنت أتعجب كيف ينام هذا الرجل، وليس معه ما يسترشد به، ويستطيع المحافظة على الاتجاه الصحيح، لكنى أراجع مساره بين الحين والآخر عن طريق البوصلة فأجد نفسى مندهشا من هذا الإرشاد الدقيق. سألته كيف يستطيع القيام بذلك، لكنه قال: إنه لا يعرف السبب. ربما كانت بداخل هذا الرجل حاسة فطرية للاتجاه، وأن هذه الحاسة موجودة أيضا فى حيوانات الصحراء، التى يتحكم فيها إدراك لا شعورى لحركة الشمس وحركة النجوم. لم يكن لدى سالم أدنى فكرة عن الزمن على هذا النحو - الساعة عنده لا تعنى شيئا على الإطلاق - لكنه لم يحدث أن ضل الاتجاه، تحت أى ظرف، عندما تكون السماء صافية.

وصلنا إلى أبشع الرقع الأرضية فى فترة العصر، أى فى الفترة من الساعة الواحدة إلى الساعة الثالثة مساء. ونظرا لأننا لم نتناول رشفة واحدة من السوائل اعتبارا من الساعة الخامسة صباحًا فقد بدأتُ أحس بالعطش، كان مشروع الشاى المرتقب أمرا بعيد المنال، أثناء سيرنا فى السراب، الذى بدأ يتحول الآن إلى ناحية المقدمة، وبدأتُ أنا بدورى، أفكر فى تحاشى الإحساس الداخلى برغبتى فى شرب الماء. حاولت إبعاد هذه الرغبة عنى عن طريق أكل بعض البصلات التى كنت أحتفظ بها لكارثة من هذا القبيل، وعندما انتهيت من أكل البصل رحت أمص حبات النعناع، التى كنت أحمل منها فى جيبى فى تلك الأيام كمية صغيرة. لكن لسبب أو آخر لم يجد ذلك العلاج، ووجدتنى أزداد عطشا على عطشى أكثر من ذى قبل. كانوا قد قدَّموا لى شيئا من الماء عندما توقفنا ولكن رفضته بشىء من الاحتقار، لكنى وجدت نفسى الآن على وشك طلب ذلك الماء، ومع ذلك قاومت هذه الرغبة ودخلت فى صراع مع نفسى - لكن ذلك لم يدم سوى فترة قصيرة، عند الساعة الثانية والنصف مساء توقف سالم ونزل من فوق ناقته ليشرب شيئا من الماء، قال: أنا عطشان وهل تود أن تشرب الآن. الشمس حارة والماء بارد فى قربتى. لقد نزلت من فوق ناقتى، لأريح نفسى ولو للحظات قليلة من عملية الركوب فى فترة العصر هذه شديدة الرطوبة والحرارة. رفع سلطانية الماء ناحيتى وكان الإغراء لا يقاوم. جلست على الأرض وشربت الماء - ماء فاتر ولونه بنى غامق - إلى آخر قطرة فى السلطانية، ونهضت واقفا منتعشا كى أواصل السير راكبا ناقتى. كانت تلك شربتى الباردة الأولى منذ أن غادرنا نايفة، التى خلَّفناها وراءنا على بعد حوالى ٢٥٠ ميلاً، ولم أندم على معاقبة نفسى بعدم شرب الماء. لقد هزمتنى الصحراء، ومن ثم يصبح بوسعى أن أشرب دون أسف أو ندم.

واصلنا السير مرة ثانية بعد هذه الوقفة التى دامت لحظات معدودات، وبعد فترة وجيزة بدأت أحس بالنعاس، وأنا لا يمكننى القطع إن كان ذلك ناتجا عن سلسلة من الليالى القصيرة، أم عن حرارة فترة العصر أو عن شرب الماء، لكنى لم أستطع تمالك نفسى وأنا فوق سرج الناقة، ولكن حدثت وقفة قصيرة أخرى لأداء صلاة العصر عند الساعة الرابعة بعد الظهر. حسَّنت المناسبة بشربة ماء أخرى، نتج عنها فهم وإدراك

مفاده أن الترحال والسفر لم يفعلا شيئا لمقاومة الرغبة فى مياه نايفة. وجرى تقديم الشاى لمقاومة التأثير الطبيعى لماء نايفة، لكن الإحساس بالتعب بدأ يعاودنى من جديد، ذلك التعب الذى تملكنى خلال الأيام الأربعة الأولى من بداية الرحلة. ومع ذلك، كنا لا نزال نسير بلا راحة طويلة، إذ كنا نبدأ المسير اعتبارا من منتصف الليل، ولعل ذلك هو السبب في إصابتي بالتعب والمشقة. ومع ذلك لم تكن هناك دلائل أو علامات بين رفاقى تدل على أنهم يبحثون عن مكان يخيمون فيه. بدا على زايد وكأنه صاحب طاقة وفيرة، كما لو كان قد تجسَّد فيه شيطان من الشياطين. فقد قفز زايد متجها إلى المقدمة عندما بدأ السير يتراخي، وراح يتجاذب أطراف الحديث مع أولئك الذين ركبوا معه، كما حكى لهم أيضا عن تجاربه وإنجازاته فى كثير من الغزوات التى شارك فيها. حكايات عن مسيرات طويلة، وأيام عجاف أمضاها على حدود الصحراء العُمَانية، وحكايات عن الكرم فى الصحراء من جانب كبار شيوخ القبائل، وعن اللحوم والقهوة التي تقدم فى هذا الكرم وتشرح صدر الرجال وتسر خاطرهم. يبدو أن الإبل المتعبة بدأت تستجيب إلى حد ما للحالة النفسية الجديدة التى طرأت على الرجال، وتحول التباطؤ إلى سباق طوال هاتين الساعتين السابقتين لغروب الشمس، ولم يسبق لى مطلقا أن شاهدت أناسا أو إبلا تمشى بهذه الطريقة التى كانت تمشى بها فى ذلك اليوم، حيث كانوا يتطلعون إلى الوصول خلال ما تبقى من ضوء النهار، إلى مكان يصلح للتخييم وفيه علف للحيوانات وحطب للنار. لكن الشمس غربت دون أن نرى علامة أو إشارة إلى الرمال الموجودة بعد هذه الأرض الزلطية، وواصلنا السير دون توقف.

توقفنا لأداء صلاة المغرب، وأنا كسلان تماما، وتنهَّدْت تنهيدة غوث وارتياح تفيد انتهاء أعمالنا اليومية عن ذلك اليوم. لكنى كنت مخطئا، لأننا ما أن انتهينا من أعمالنا وبعد أن شرب كل واحد منا شربة ماء، حتى أصدر زايد أوامره بركوب الإبل ومواصلة السير. كنت متعبا إلى الحد الذى منعنى من الاحتجاج أو الجدل، ونفَّذْت الأوامر صاغرا. لو كنا قد خيمنا فى المكان الذى توقفنا فيه؛ لأدى ذلك إلى عدم تناول القهوة فى الليل، وهذا أكثر بكثير عما يمكن أن تتحمله معى بطون رفاقى، على الجانب الآخر،

كنا قد رأينا خلال نصف الساعة السابق لغروب الشمس آثار أقدام قديمة لبعض الإبل، هذه الآثار كانت على السهل الزلطى ويرجع تاريخها سنوات عدة إلى زمن المطر والمراعى التى سبقت فترة الجفاف التى دامت عشرين عاما. فى تلك الأيام كان العرب يصلون بإبلهم التى يرعونها إلى هذا الحد من الصحراء، لم تكن الحيوانات بحاجة إلى الماء على امتداد فترات طويلة وكان الناس يعيشون على الحليب. من هنا، كان منطقيا أن نصل إلى استنتاج مفاده أن السهل الزلطى لم يعد فيه بعد رقعة كبيرة من الزلط، وأننا سوف نصل بعد عبور هذه الرقعة إلى الرمال، التى سنجد فيها شجيرات ميتة نستعملها حطبا للنار. وعليه لم نواصل المسير وإنما سرَّعنا الخطى من السير البطىء إلى العدو البطىء إلى ما يشبه خمسة أميال فى الساعة الواحدة.

كنا نشاهد فى كل مكان دلائل كثيرة على سقوط المطر مؤخرا، هذه الدلائل عثرنا على بعض الإشارات الطفيفة الدالة عليها فى وسط أبى بحر. كان هناك أيضا بعض التموجات الخفيفة غير الواضحة فى سهل أبى بحر الذى تبدو أخاديده الضحلة، كما لو كانت شهدت فيضانا مائيا فى الفترة الأخيرة. كانت تلك إشارة أو علامة طيبة إلى تغيير محدد سيحدث لاحقا، وبعد أن أسدل الظلام علينا سدوله فى نهاية المطاف، خطر ببالى انطباع مفاده أن سطح الصحراء كله بدأ يزداد تموجا، وأن تلك التموجات كانت تتخللها خطوط من الرمل، نظرت إلى ساعتى كى أعرف الوقت، لكن خاب أملى؛ إذ كنت قد فقدت ساعتى! وعلى وجه السرعة عقدنا مجلس الحرب للنظر فى هذه الخسارة الكبيرة، واقترحت عودة اثنين من أفراد الجماعة يقومان باقتفاء أثرنا بحثا عن تلك الساعة. هذا يعنى أن هذين الاثنين سوف لا يمشيان مسافة كبيرة نظرا لأنى كنت قد سجلت الزمن قبل بداية السير بعد الوقفة التى وقفناها لأداء صلاة المغرب، لكنى لا أستطيع مواصلة المشى بدون الساعة. عودة الاثنين ستوفر لنا المزيد من الوقت، لأننا سوف نواصل السير على أمل أن يلحقا بنا. البديل الآخر، هو إصرارى على التخييم لقضاء الليل. أردفت قائلا: مهلا ! دعونى أفتش خُرْج سَرْج الجمل – هذا الخرج فيه الكثير من أشيائى ومعداتى فضلا عن أن الخرج واسع الفم – مخافة أن تكون الساعة قد سقطت فيه من معصم يدى. وبالفعل وجدت الساعة داخل

الخرج فيما عدا حزامها أو إن شئت فقل: سيرها، الذى بَلِى بفعل التآكل. وهنا عم الفرح الجميع، وهنا أخبرونى عن تفسير حميد للحلم.

واصلنا السير على شكل العدو البطىء حينا وعلى شكل المشى البطىء حينا آخرا. ومضينا فى طريقنا ولم نكن نرى شيئا سوى الأرض التى تحت أقدامنا، التى كانت على شكل سهل دارج فيه بعض المنخفضات، لكن ليس فيه أية إشارة إلى ما يشبه الشجيرات أو الأعشاب. كان بوسعنا المرور بالقرب من هذه الأشياء دون أن نلاحظها فى الظلام، والذى زاد الطين بلة أن السحب الكثيفة كانت تحجب السماء قادمة من الشمال الشرقى. بعد حرارة النهار، كان طبيعيا أن نرحب كلنا بهذا البَرّاد الطيب. كما أحيت فينا قطرات المطر التى سقطت علينا آمال ظروف مناخية أفضل فى صباح الغد. فى ذات الوقت كانت الفكرة المسيطرة على ذهن زايد هو ورفاقه، هى مسألة تناول القهوة، فى حين كنت أنا لا أفكر فى شىء سوى النوم. لم لا وقد نام السواد الأعظم منهم وهم فوق إبلهم طوال هذا النهار المرهق، فى حين أن رغبتهم فى تناول المنعشات لم تكن أقل من حاجتى أنا إليها. وأنا إذا ما استطعت الاستغناء عن هذه المنعشات، فإن بوسعهم أن يفعلوا الشىء نفسه، وسرعان ما جاءت الإبل التى لم يعد بوسعى معها البقاء مستيقظا على سرج الناقة، فى حين بدت الإبل التى كان زايد يستحثها، والتى كانت تستجيب لذلك الحث، بدت وكأنها أشرفت على نهاية قوتها وقدرتها على التحمل، يزاد على ذلك أن الأمل فى العثور على علف لهذه الإبل كان ضعيفا، حتى وإن عثرنا على بعض الحطب اللازم للوقود.

ناديت عند الساعة التاسعة مساء كلا من سالم وحميد، وكنت مندهشا ومسرورا فى آن واحد، لأنهما وافقا على وجهة نظرى التى مفادها: أن مسألة البحث عن حطب فى الظلام لا جدوى منها، وبخاصة فى ضوء عدم معرفة مكان ذلك الحطب أو مسافته. فى ظل مثل هذه الظروف قد نمضى الليل كله فى البحث عن الحطب وفى النهاية ستكون آخرتنا مثل أولانا. قلت: هيا بنا نرتاح فترة الليل وننام، وسوف يتحسن حال الإبل فى الغد بعد أن تنال هذا القسط من الراحة. أردف أبو جعشة قائلا: نعم، هذا صحيح،

لأن الإبل شبه ميتة، لكن زايد يواصل السير كما هـو واضـح لك. قـلت: انتبه، أنا لا أستطيع مواصلة السير بلا نوم، إذا كان أحدكم يعرف حطبا عـلى بعـد خمـس أو عشر دقائق من هنا، فليذهب لجلب هذا الحطب. والبديل هو أنى سوف أتوقف هنا وافعلوا أنتم ما تريدون. وعليه سرت صيحة ونداء مفاده أن الشيخ عبد الله متعب وسوف يتوقف. جاءتنا من المقدمة أصوات لِعَان وسبٍّ، وتوقف زايد احتجاجا على حماقة التوقف. أردفت أنا قائلا: هذه حماقة، قلتها وأنا أربت على قدمى ناقتى النعرية، إنها حماقة أن نسير دون أن نعرف إلى أين. أنا لن أمشى أكثر من ذلك وسوف أنام هنا، أنت الأمير وافعل ما يحلو لك. قد يكون هنا وقود قريب أو بعيد، على بعد خمس دقائق أو خمس ساعات، ابحث عن هذا الحطب كيفما شئت وسوف أصل إليك عندما تجده، وسيكون بوسعى قص أثرك فى ضوء نهار الغد، لكنى لا أستطيع الجلوس على الناقة أكثر من ذلك.

استسلم زايد وهو يكظم غيظه، وبدأت الإبل تأخذ قسطا من الراحة اعتبارا من الساعة التاسعة والربع مساء، بعد مسيرة مرهقة ومقلقة بدأنا عقب منتصف الليل مباشرة. مشت الجماعة ثمانى عشرة ساعة من أصل إحدى وعشرين ساعة، بما فى ذلك تلك الوقفات القصيرة التى وقفناها بين الحين والآخر، وكانت المسافة التى قطعناها فى هذه المدة تقدر بحوالى سبعين ميلا. وراحت الحيوانات المسكينة تمد أعناقها الطويلة على الرمل البارد وبقيت بلا حراك، فى حين قمنا نحن بإنزال أحمالنا وفردنا فراشنا فى الصحراء طلبا لشىء من الراحة. أحضر لى سعدان سلطانية ماء وقبضة من التمر على سبيل العشاء – وتناولت التمر وشربت الماء، ولم يكن بالإمكان حلب النياق بعد هذا المشوار الطويل. قلت لسعدان: انتظر، هناك علبتا فاكهة فى سرج ناقتى. أحضر لى واحدة منهما وناولنى سكينك. كنت قد أحضرت معى هاتين العلبتين من مكة إلى الهفوف، ومن الهفوف إلى الربع الخالى، وقررت ألا أقربهما إلا فى وقت الأزمات. والآن هذه هى اللحظة المناسبة لذلك. ومع ذلك فإن علبة خوخ واحدة ستكون عبارة عن مجرد قطرة فى محيط، عندما يجرى توزيعها على أحد عشر فردا، هم كل أفراد الجماعة، وعليه تقاسمت هذه العلبة مع سعدان وحده، من باب إرضاء ضميرى.

كانت الفاكهة والعصير دافئين بسبب حرارة النهار، لكن الفاكهة كانت لذيذة الطعم، ورقدت كي أنال قسطاً من النوم؛ لأنى لم يسبق لى النوم من قبل، فى حين تجمّعت السحب من حولنا، فى حين كانت تصلنا موسيقى الرعد من مسافة بعيدة.

تمكنا أخيرا من قصم ظهر الصحراء، التى كانت قد قصمت ظهورنا فى الأيام الكريهة التى تراجعنا خلالها من الحواية، واليومين الأخيرين أيضا. كان لابد لنا من المقاومة الشديدة، وقد نجحت هذه المقاومة من خلال الجهد الجبار الذى أدى إلى توترنا إلى حد الانهيار. ولكن نجحنا فى نهاية المطاف ولم يعد يتبقى أمامنا سوى حوالى مائة ميل تقريبا نصل بعدها إلى المسقى أو نقطة الماء. فى خلال ستة أيام كاملة من السير اعتباراً من ركوبنا إبلنا من منطقة نايفة، قطعنا مسافة تقدر بحوالى ٢٧٠ ميلا فى ظل ظروف غير مناسبة تماما، فيما يتعلق بمسألة المرعى - هذا يعنى أننا كنا نسير بمعدل يزيد على أربعين ميلا فى اليوم الواحد. وهذا معدل طيب فى ظل الظروف المعتادة. كنا قد صادفنا ثلاثة أيام باردة فى بداية السير، لكن الأيام الثلاثة التى أعقبت تلك الأيام كانت قد قلبت تلك الميزة، وكان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نرضى عن أدائنا. يزاد على ذلك أن الإبل التى عبرت أبى بحر فى أشد أوقاته حرارة ومشت مدة ثمانى وأربعين ساعة بلا كِسْرةٍ واحدة من العلف، وصلت إلى الحال المشينة التى هى عليها الآن. هذه الإبل مشت حوالى شهرين كاملين بلا راحة، فى هذه الصحراء الجرداء شديدة القحولة، هذه الرحلة لا يستطيع القيام بها سوى الإبل الممتازة، وكانت إبلنا من أفضل أنواع الإبل التى فى الجزيرة العربية كلها.

استيقظ رفاقى فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، الموافق لليوم الثانى عشر من شهر مارس، وهم يطالبون بشرب القهوة. وعندما استيقظت وجدت أن السماء ملبدة بالغيوم فى الشمال والشمال الشرقى. وسرعان ما أصبحنا جاهزين للتحرك فى ساعة الغسق، كان الهواء رطبا وباردا من حولنا، وكانت الريح الشمالية الشرقية، التى هبّت علينا طوال الليل، قد جعلتنا نستشعر البرد أثناء سيرنا. كنا لا نزال نمشى فى سهل أبى بحر الزلطى، الذى لا يعدو أن يكون مجرد أرض خراب منبسطة وميتة وجرداء،

تحولت فى المرحلة الأخيرة إلى سهب منخفض متموج تموجا خفيفا، وقاحل وتتخلله هنا وهناك خطوط من الرمل، وبروز أرضى صخرى، والذى جاء بمثابة غوث لنا من الزلط ورتابته. وبعد أن سرنا مدة عشر دقائق صادفنا شريطا من شجيرات الحض الذّاوى، الذى كان يمكن استعماله وقودا لتصليح القهوة فى الليلة السابقة، لو كنا قد واصلنا سيرنا إلى هذه المسافة القصيرة. ومع ذلك، لم يُغْرِنا هذا الحض على التوقف. قال زايد: من الأفضل مواصلة السير علنا نجد علفا للإبل وحطبا لإعداد القهوة، وعليه واصلنا سيرنا إلى ما بعد تلين أو ثلاثة تلال من صخرة من الصخور البارزة، والتى ترتفع إلى مسافة عشرين قدما فوق مستوى سطح السهل، وعند هذه الصخرة لاحظنا علامات وإشارات إلى سيل أو فيضان حدث مؤخراً.

وصلنا خلف هذين التلين أو الثلاثة إلى انتشار رملى خفيف، كان بمثابة الانتقال من سهل أبى بحر إلى الرميلة، التى ظهرت أول سلسلة من سلاسل كثبانها الرملية، على يسارنا وهى تتموج تموجا خفيفا، وتنتشر فيها رقع صخرية كما تتخللها هنا وهناك ألسنة من الرمال. ثم وصلنا بعد ذلك إلى بعض شجيرات العراد الخضراء، وهذا أول نبات نلقاه من النباتات الصالحة للأكل خلال ثمانية وأربعين ساعة، وهنا استحال علينا إبعاد الإبل عن هذه الشجيرات الخضراء. كان جوع هذه الحيوانات مخيفا ولذلك تركنا لها العنان لتفعل ما تريد، فأتت على هذه الأعشاب الخضراء كلها، ثم مضينا بعد ذلك فى طريقنا إلى رمال الرميلة الحقيقية، التى كان صدرها المنتفخ انتفاخا لطيفا، يتميز هنا وهناك ببعض الصخور المكشوفة التى هى جزء من صخر الأديم الموجود فى الأسفل، كانت هذه المنطقة عامرة بشجيرات الحض، على الرغم من أنها كانت ميتة وذاوية أيضا، وشردت الكلبة الأقفة لوحدها، وراحت تبحث وهى خائفة عن آثار أقدام الأرانب البرية. الرميلة عبارة عن رقعة من الوديان الرملية الواسعة التى تفصلها عن بعضها موجات طويلة من الكثبان الرملية، والناس ينظرون إلى الرميلة باعتبارها امتداداً لصحراء الدهناء من الناحية الجنوبية، ولكن الرميلة يفصلها عن الدهناء - بعد مسير يوم فى اتجاه الشمال - مرباخ، أو إن شئت فقل: سهل رملى منبسط تتخلله شجيرات الحض والآبال وبعض

الأعشاب الأخرى. والرميلة نفسها لا تظهر فيها شجيرات الآبال، لكننا صادفنا خصلات من شجيرات البركان والسبات.

كان الوادى الموجود خلف السلسلة الأولى من سلاسل الكثبان الرملية عبارة عن مساحة كبيرة من الصخر المكشوف، مادة جيرية يميل لونها إلى اللون الرمادى. مررنا على رقعة صغيرة من الأرض تجوفت بشكل طبيعى لكى تتحول إلى بحيرة، هذه البحيرة جافة حاليا، على الرغم من أنها تبدو كأنها كانت تحتوى على الماء منذ وقت قريب. عثرنا بالقرب من هذه البحيرة على خط رفيع من شجيرات الأنداب الخضراء، التى أتت الإبل عليها أثناء السير. وشاهدنا زوجا من القطاط البرية وقنبرة صحراوية أثناء عبورنا الموجة الثانية من الكثبان الرملية إلى السهل الواسع، الذى توقفنا فيه وسط مساحة من شجيرات الحض الميتة. كانت الإبل مستلقية حولنا بلا حول أو طول أو تتجول حولنا بحثًا دون طائل عن العلف، فى حين كنا نحن مشغولين بأعمال الصباح – إعداد القهوة والشاى، بعد ٢٧ ساعة من الابتعاد عنهما! وكان الحليب متوفرا لهؤلاء الذين لم يقسموا على عدم تناوله. ازدادت حدة الريح الشمالية الشرقية، ونحن نتحلَّق حول طعام الإفطار – كان صالح بعد أن قلب دلة (وعاء) القهوة على النار، فى محاولة منه لإعداد قهوة للمرة الثانية، أصر على أن يبدأ هذه العملية من جديد – وعندما أصبحنا على استعداد لاستئناف السير من جديد، كان الرمل يكتسح السهل أمامه على شكل موجات طويلة غطت الأفق بستار من الضباب.

كان ركوب الإبل عبر هذه المنخفضات الرملية الدارجة مريحا بعد السير الذى مشيناه فى الأرض الزلطية المنبسطة بالأمس. غَمَرَنا إحساس بالارتياح بعد المنعشات التى شاركنا فيها، وكانت أشعة الشمس تنفذ إلينا من خلال السحاب الخفيف التى كانت تتسابق على سطح الأرض أمامنا على شكل جماعات متتالية من الضوء والظل. هنا أيضا كانت الأمطار التى سقطت مؤخرا تشجع على انبعاث الحياة من هذه الأرض الجرداء الموات. كانت هناك رءوس خضراء صغيرة تنبئ عن ميلاد بعض النباتات الصحراوية، مثل شجيرات الهلام، وشجيرات السُعدان، الذى كانت

ثماره الشائكة المتخلفة عن المواسم السابقة، تتعلق بأخفاف الإبل. كانت الإبل تدوس أقدامها بشدة، حتى تتخلص من تلك الأشواك، وكنا نحن بدورنا نتوقف بين الحين والآخر لتنظيف أرجل الإبل من هذه الأشواك، التي وصل عددها في إحدى المرات إلى ثماني عشرة شوكة في قدم واحدة من أقدام ناقتي النَّعرية. هذه الأشواك القصيرة يتعذر عليها اختراق القدم كي تسبب ضررا للحيوان، لكن الالتهاب الذي ينتج عن هذه الأشواك يكون شديدا وحاداً، وهذا هو ما خبرته أنا بنفسي عندما مشيت حافي القدمين على الرمل.

وقد أدت كومات روث الإبل، التي يقدر عمرها بحوالي شهر أو أكثر قليلا والمدفونة في الرمل، الذي محى بالفعل آثار الحيوانات التي أنتجت ذلك الروث، أدت هذه الكومات إلى إثارة نقاش حام بين رفاقي حول قيمة ومغزى ذلك الروث. تواصلت أكوام ذلك الروث على امتداد فترات متباعدة إلى أن وصلت إلى المكان الذي خيَّمت فيه الجماعة وهي ماشية في طريقها واستطعنا تقدير عددها بصورة تقريبية – حوالي ثمانية أو تسعة من الإبل. وهذه واحدة من جماعات الغزو بلا أدنى شك، وربما كانت تلك الجماعة التي تشممنا رائحة دخانها ونحن في مقينمة، على الرغم من انعدام قدرتنا على تحديد ما إذا كنا على طريق عودة أو ذهاب هذه الجماعة. أو قد تكون هذه الجماعة، هي تلك التي تاهت منها الناقة هي ووليدها اللذان عثرنا على آثارهما في قلب الصحراء. ومع ذلك اتفق الجميع على شيء واحد. أن الروث كان مثل روث الإبل التي نركبها، إبل صحراوية تمشي عبر مراعٍ فقيرة. والذين يمشون على هذا النحو هم الغزاة فقط.

حَمَلَنا مسارُنا الغربي على المشي عبر وديان الرميله وموجاتها، إلى أن دخل علينا وقت الظهيرة، فتوقفنا من جديد عند الحد الغربي للرميلة؛ كي نجمع شيئا من الحطب من الشجيرات الميتة، الموجودة عند سفح السلسلة الخامسة من سلاسل الكثبان الرملية في الرميلة. تقع خلف هذه السلسلة منطقة الكُثَيس الجرداء المتموجة، التي لم نصادف فيها أي نوع من الشجيرات، وكنا قد تعلمنا من أبي بحر حماقة الدخول إلى

هذه المنطقة دون أن يكون معنا مؤن وتموينات تفى بما نحتاجه عند اللزوم. نحن اليوم لا تراودنا رغبة قوية فى السير مسافة طويلة، وبخاصة بعد الجهد الذى بذلناه فى اليوم السابق، ولم يخطر ببالنا سوى استكشاف رمال الكُنَيْس، ثم وقفة معقولة فى سهب الجِدَّة الموجودة خلف رمال الكُنَيْس، والنوم ليلة طلبا للراحة فى ذلك المكان.

اكتشفنا عند هذا الحد أن الماء الذى معنا يكفى لغوث الإبل، التى أخضعناها لعملية التنشيق طوال هذا السير المرهق. قيل إن واحداً من تلك الإبل كان يعانى بسبب "الحسد"[١]، ولذلك سبق عملية التنشيق نوع من السحر والشعوذة، هو بالتأكيد من مخلفات الطقوس الباكرة الوثنية فى الجزيرة العربية. فقد تعين على كل واحد منا أن يتفل فى سلطانية الماء المخصص للجمل المريض، ثم جرى صب ذلك الدواء العجيب فى فتحتى أنف الجمل المصاب، فى الوقت الذى قام ستة من الرجال بالإمساك بالناقة لإجراء هذه العملية، التى أجراها سويد بنجاح كبير. وقد حذفت الكلام عن الأعراض السابقة لهذه العملية، لكن يبدو أن رفاقى كانوا على قناعة من أن الروح الشريرة قد خرجت من الحيوان. وربما تكون هذه الروح الشريرة قد دخلت فى الأطباء أنفسهم، الذين سرعان ما راحوا يتشاجرون حول مسألة الطقوس المحيطة بعملية إعداد القهوة وتقديمها، مثلما يحدث عندما يقوم يُعِدُّ القهوة بتقديم (صب) القهوة لأفراد الجماعة المتجمعين حوله، ويعطى كل واحد منهم فنجاناً - فى المرة الأولى وفى المرة الثانية، لكنه ينسى نفسه فى كل مرة، ثم تبدأ هذه الكوميديا المملة وتتكرر المرة بعد الأخرى، ومن يصب القهوة بطريقة صحيحة هو الذى يحصل على فنجان ثالث. يقول الرجل: هذا لكم، ثم يروح يشرب الفنجان. ويقوم يُعِدُّ القهوة بصب فنجان آخر لذلك الذى يُلَوِّح بالفنجان، ويحدث الشىء نفسه للوقوف على مدى مهارة يُعِدُّ القهوة فى توزيعها على الحاضرين. وهنا يبدأ الشجار والنقاش حول أدب الصحراء الذى ينتهى بإنكار الذات من قبل الحاضرين جميعهم. أنت أولا، لا، أنت أولا، يستحيل أن يكون لى! العرف

(١) منظورة، بمعنى أن عين الحاسد نظرت إليها.

الأزلى يقضى بترك الحثالة التى فى قاع الدلة لُمعِدّ القهوة نفسه، الذى يكون نصيبه أقل الأنصبة فى هذا الصراع. هذا الصراع يطول فى المناسبات العادية، لكنه يقل فى الصحراء نظرا لتوتر الأعصاب. مجرد كلمة عابرة تؤدى إلى إشعال نار هذا الصراع.

عندما دخلنا منخفضات القنيص، الذى يقع حده الشمالى على بعد حوالى عشرة أميال إلى الشمال من المسار الذى نحن فيه على حد قول سالم، غيّرنا الاتجاه وولّينا وجوهنا شطر الشمال الغربى. هذا الاتجاه الجديد كان شديد القحولة، وليس فيه سوى القليل من شجيرات السبات، لكننا صادفنا عددا قليلا من السحالى، ورأيت لأول مرة جرادة فى هذه الصحراء الخالية من الماء، جرادة واحدة ليس إلا وكانت ميتة على الرمل، لكن هذه المنطقة عامرة بالأدلة على الحياة الطيبة التى كانت سائدة فى هذا المكان فى الزمن الماضى، هذه فضلات روث الإبل التى كانت ترعى فى هذا المكان، وهذه أيضا بقايا نيران المخيمات التى هجرها أهلها. قال سالم: الوعول البيضاء تجىء إلى هذا المكان فى بعض الأحيان، على الرغم من وفرة الريم (الغزال الأبيض) بعد سقوط المطر وعودة الحياة النباتية إلى الحياة. الآن كل هذه الحيوانات ولّت هاربة بحثا عن المرعى. سوف نعثر على هذه الحيوانات فى الشمال، والحال هنا، كا نرى، يقول: إن هذه المنطقة لم تشهد المطر طوال سنوات باستثناء هذا الشهر الذى نحن فيه. ومع ذلك، هذا هو السُّعْدان ينمو فى كل مكان. كان هناك بالفعل ملاءة من الخضرة تكسو المنحدرات، يضاف إلى ذلك أن سويد كان يجس أعماق الرطوبة بصورة متكررة فى الرمال، وتوصل إلى أن نسبة الرطوبة فى الرمل تتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام، وأن ذلك كان ناتجا عن الأمطار التى هطلت مؤخرا فوق هذه المنطقة.

عن بعد، أى على مسافة تتردد بين ستة وسبعة أميال، وفى الناحية الجنوبية الغربية ظهرت أمامنا سلسلة تلال الشيميخ الرملية، ذلك المَعْلَم الأرضى المعروف لصيادى السليل. هذا المعلم يدل على أننا وصلنا إلى نهاية القنيص الذى نظرنا من فوق آخر سلسلة من سلاسل كثبانه الرملية، على مشهد أدخل الفرح والسرور إلى

نفوسنا – شيء يبدو مثل بحر أزرق شاسع، إنه سهل الجدة[١] السهبي الكبير الذي يقع خلفه سهل حاجز الطُّوَيِّق البعيد. هذه هي "الصحراء الحقيقية" أصبحت وراء ظهرنا في نهاية المطاف، وهذه أعيننا تتركز من جديد على حدود الأرض المنزرعة. تقع السليل هدفنا المبتغى في ثنية من ثنيات الأرض المرتفعة التي أمامنا، واستطاع كل من سويد هو وسالم تحديد رابية الأبرق بن جفَّال المنعزلة، التي توقفا فيها ذات مرة أثناء رحلتهما إلى مقينمة عندما كانا قادمين إليها من ناحية الغرب. رابية الأبرق بن جفال هذه تقع على مسافة بعيدة في الشمال الغربي، وفي مكان ما من الصحراء يبعد حوالي ١٥ أو ٢٠ ميلا عن مقينمة، وهما يذكران أنهما جلبا الماء في تلك المرة من بركة كوَّنها المطر في منخفض صخري يعرف باسم المَكِينِيَّة. في البداية كان السهب مغطى بغطاء خفيف من الرمل، وكان ذلك الرمل ينهال على ذلك السهب قادما من القنيص، لكننا دخلنا أرضا صخرية وزلطية جرداء خالية من التضاريس، داكنة اللون وخالية من الحياة النباتية. كان هناك صف من الروابي مسطحة القمم يبرز من الأرض المرتفعة الواقعة خلف هذه الروابي، هذا الصف عبارة عن تذكار لخط قديم من القمم الصخرية المنخفضة، التي كانت تحف مسارنا من الأمام من الناحية الشمالية الشرقية. كانت الصحراء تمتد من تلك الروابي نحو الخلف إلى أن تصل إلى الأفق الضبابي للأراضي المرتفعة البعيدة، ومرة أخرى تنشرح صدورنا عندما واصلنا مسيرنا ومن خلفنا النسيم العليل الذي كان يهب علينا من ناحية الشرق. اليوم مختلف تماما عن الأمس، الذي عانينا فيه آلاما كثيرة بسب الحر والعطش والشك! لقد غيَّرت السماء نفسها حالها النفسي، وهذا المشهد البعيد الذي في الأمام، وعلى الرغم من قحولته يعد موطنا للبشر. قال سعدان متعجبا: صحيح أن الطُّوَيِّق أبونا، الذي يقع بيته في ثنية من ثنيات هذا الحاجز المرتفع، على بعد مئات الأميال في الشمال، صحيح الطويق أبونا، كما أن الدهناء هي أُمنَّا. نشكر الله أننا رأيناها مرة ثانية، قادمين إليها من العالم الخالي الموجود خلفنا. وقد نتمكن غدا، وبمشيئة الله، من النظر إلى أوجه الناس من جديد.

---

(١) اسم هذا السهل الكامل هو جدة الفرشة، ويسمونه أيضا هضبة الفرشة.

وسننظر أيضا إلى النساء، إذ ربما تكون هناك عذراوات فى السليل نطلبهن للزواج، كانت أفكار الرجل دوما تدور حول زوجته الصغيرة فى مكة، وحول النساء الأخريات اللاتى يمكن أن يتقدم إليهن فى منطقة المعابدة.

أخذنا الأمور على علاتها طوال اليوم، وخيمنا طلبا لقضاء الليل اعتبار من الساعة الخامسة مساء، بعد سير قطعنا فيه خمسة وعشرين ميلا فى الناحية الجنوبية، وعلى بعد مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أميال، كانت سلسلة تلال مشيميخ الرملية تبدو واضحة فى المشهد. ومن خلفنا شاهدنا رمال القنيص على خط الأفق هى وساحلها الطويل لم يكن هناك فى الأماكن الأخرى سوى السَّهْب الداكن الممتد ناحية الخلف إلى المرتفعات الدارجة، كان صدر هذا السَّهْب الواسع منتفخا هنا وهناك على شكل حلمات صغيرة. غربت الشمس، ومرت السحب الثقال مرة ثانية من الغرب إلى الشمال، وامتنعنا عن القيام بأعمالنا طلبا للراحة، كانت هناك مفاجأة تنتظرنى عندما استدعونى لتناول العشاء، إذ قام صالح بطبخ طبق من الأرز احتفالا بهذه المناسبة. كان ذلك الطبق طيبا تماما، بعد طول اعتماد على الوجبات الهزيلة والمملة المكونة من التمر واللحم النيئ، إذ كان نصيب سالم من هذا اللحم يبدو وكأنه لا ينفد، وكان قد أعطانى بعضا من هذا اللحم أثناء السير وأبلغنى أنه ما يزال هناك بعض من اللحم لاستعمال الغد. وأنا لم أسأل مطلقا عما إذا كانت أنصبة الآخرين من هذا اللحم لا تزال باقية، لكن المدهش حقا هو بقاء شيء من لحم ذلك الحيوان الذى ذبحناه قبل أحد عشر يوما . بعد تناول العشاء رحت أسجل ملاحظات التيودوليت بمساعدة من سعدان كالعادة، وفى خصوصية تامة، تقاسمت أنا وسعدان محتويات علبة الخوخ الثانية والأخيرة قبل أن نستعد للنوم.

هبت علينا طول الليل ريح شرقية، فيها شيء من نسمة الشمال، وكان الليل باردًا برودة لذيذة، على الرغم من أن درجة الحرارة لم تنزل عن اثنتين وسبعين درجة فهرنهيتية، وعند الساعة الحادية عشرة والنصف مساء تلبَّدت السماء بالغيوم، وعندها أزعج زايد راحتنا ومنامنا، فى محاولة غير طيبة من جانبه، كان يهدف من ورائها إلى

جعلنا نبدأ التحرك قبل الموعد المعتاد. ومن حسن الحظ أنى نظرت إلى ساعتى عندما أيقظنى، وعندها تراجع وهو يتمتم ويهمهم جراء عنادى وإصرارى. كان زايد يود الوصول إلى السُّلَيِّل عصر اليوم التالى، لكنى لم أر مغزى لسير ليلى اضطرارى، يمكن أن يحرمنى من متعة مشاهدة المنطقة فى ضوء النهار. وعليه لم نبدأ التحرك إلا بعد ذلك بساعتين، وعندها كان الجو ما يزال مظلما بسبب السحب الكثيفة التى غطت السماء والنجوم، الأمر الذى جعلنا لا نرى إلا على بعد ياردات قليلة فى هذا الاتجاه، بل إن سالم عجز عن إرشادنا إلى الطريق، كانت بوصلتى تشير إلى أننا نسير فى الاتجاه الشمالى الغربى، فى حين كان اتجاهنا غرباً خلال الجزء الأخير من سير عصر اليوم السابق. قال سالم رداً على سؤالى: إننا ينبغى أن نكون على النقطة نفسها، ثم غير اتجاهه على الفور، طالبا منى القيام بدور الإرشاد فى ذلك الاتجاه مستخدما فى ذلك بوصلتى، نظرا لأن الرجل كان عاجزا عن القيام بعملية الإرشاد فى الظلام، وعدم وجود نجوم أو علامات أرضية يهتدى بها. كان الآخرون الذين أعيدوا من مسارهم حانقين وغاضبين وراحوا يحلفون ويتوعَّدون جراء الخطأ الذى وقع فى اختيار الطريق، وهنا جررتهم إلى حديث عن فضائل استعمال البوصلة، ونحن نواصل سيرنا غير عابئين باحتجاجاتهم. بقوا على تشككهم لكنهم كانوا يسلكون الطريق الذى كنا نسير فيه، وهم يتحدثون بصوت مرتفع عن حماقة الاعتماد على الآلات والأشياء الأخرى، فى الوقت الذى يعد فيه الإحساس بالاتجاه كافيا لإرشاد الإنسان إرشاداً صحيحا. قلت: قد تكون على صواب، لكن سالم يقول: إننا يتعين علينا السير فى الخط نفسه الذى كنا نسير عليه فى فترة العصر إلى أن خيَّمنا عند غروب الشمس، وهذا هو الخط الذى نسير عليه الآن. سألته: لكن خَبِّرنى، أين النجم الكبير – كنت أشير إلى كوكب المشترى – الذى كان يسبقنا كل يوم من أيام ذلك السير الليلى؟ وهنا أشاروا بلا تردد إلى الشمال الغربى، أى الاتجاه الذى كانوا يسيرون فيه عندما استدعيناهم. وقلت: ليس الأمر كذلك، إن النجم الكبير أمامنا مباشرة خلف السحب، والله أعلم. لم يقتنعوا بهذا الكلام بل إن سالم كان يثق بى ثقة عمياء، وعليه واصلنا سيرنا فى الظلام بأسرع ما يمكن، فى حين كانت الإبل تتألم من الصخور الحادة التى فى السهل. ثم حدثت

انفراجه مفاجئة فى السحب من أمامنا، وظهر النجم الكبير واضحا لنا! وهنا أصبح سالم في منتهى السعادة: يا شيخ عبد الله، أنت الذى أرشدتنا فى هذه الليلة ولست أنا، أنت وبوصلتك. الله كريم! انتبهوا، أيها الناس، أليس ما أقوله صحيحا؟ ذلك النجم هو الذى يجب أن نهتدى به، وأنت كنت تتسبب فى إحباط خططنا. كان مفروضا أن نتجه إلى الحمام، وليس إلى السليل، لو أننا اتبعناك. كان الفرح والسرور يكاد يعم الجميع - لأنهم أدركوا أن هناك خطأ حقيقيّا بالفعل - نظرا لأننا كنا نسير فى المسار الصحيح، لكنهم كانوا يتعجبون من مسألة إرشادى لهم أثناء الليل، باستعمال البوصلة. أريتهم النقاط المضيئة فى البوصلة وراحوا يتعجبون من ذكاء الفرنجة. قال سالم: بالله عليكم! ألم يعرف الشيخ عبد الله كل شىء عن الشويكيلة حتى قبل أن تقع عيناه على الرمال العظيمة؟ ألم يخبرنا ونحن فى نايفة باتجاه السليل ومسافتها؟ والله! كان الرجل يتكلم كلاما عاقلا على الرغم من أننا لم نكن نفهم ذلك الكلام. كنت قد قمت بحساب موقع نايفة منسوبا إلى السليل وقلت لهم قبل أن نبدأ السير: إننا سنكون بحاجة إلى مائة واثنتى عشرة ساعة من السير نقطع خلالها مسافة تقدر بحوالى ٥٦٠ كيلو متراً (أى حوالى ٣٥٠ ميلا)، من وجهة نظرى. وفى نهاية المطاف اتضح أن ساعات السير الحقيقى كانت حوالى مائة وإحدى عشرة ساعة، على الرغم من أننا كنا نسير بمعدل مقداره أكثر من خمسة كيلو مترات فى الساعة، ولذلك قطعنا مسافة تقرب من ستمائة كيلو متر، بدلا من مسافة ٥٥٥ كيلو متراً التى اقترحتها أنا - كانت المسافة التى بين نايفه والسليل تقدر بحوالى ٣٧٥ ميلا، حسب تقديرى أنا.

أطبق السحاب مرة ثانية على كوكب المشترى وواصلنا السير فى الظلام، وأنا أتأمل كيف أن هذا الكوكب الكبير كان يلازم مغامرتى منذ بداياتها الأولى - عندما كنت فى الرياض فى شهر نوفمبر، كنت أصحو على صوت المؤذن قبل طلوع الفجر لأرى ذلك الكوكب الكبير وهو يطل علىَّ من قصره المنيف فى المنجل(*)، وكأنه يسخر

(*) المنجل: ستة نجوم فى برج الأسد تشبه المنجل. (المترجم)

منى بعلامة استفهامه الكبيرة. كنت قد بدأت أرتعد ألما بسبب الهياج العصبى الذى كان ينتابنى، بسبب انصرام الأيام دون أن أعرف شيئا عن رغبة الملك. ومع مطلع كل يوم كان كوكب المشترى بكل عظمته يجدد طرح السؤال نفسه علىّ. هل سيحدث المطلوب أم لا؟ وجاء بعد ذلك اليوم المشهود الذى تكلم الملك فيه، واعتبارا من ذلك اليوم بدأ الكوكب الكبير يسير كل ليلة عبر السماء حارسا وراعيا لنا، ونحن نتجول خلال الصحراء، وفى كل ليلة كان هو الرابع من علامة الاستفهام التى تتبعه، وها هو كوكب المشترى نفسه يسبقنا فى مسيرنا أثناء الليل فى هذه الصحراء الخالية من الماء، ومن فوقنا المنجل إلى أن وصلنا إلى الليلة الأخيرة، التى ظهر فيها كوكب المشترى لمدة لحظة، وهو يبتسم من خلال السحاب، ليكون شاهدا ومؤيدا لإرشادى، وعندما ظهر ضوء الفجر الكاذب خلفنا ظهر المشترى من جديد فى موجة من السماء الصافية، فيما بين الأفق والسحاب الدارج، وعندما اختفى المشترى طلبا للراحة، كان نجم رجليوس Regulus، دون سائر نجوم الأسد الأخرى هو الوحيد الذى يتسلل من خلف السحاب – التوقف الحتمى وبلا نقاش – كما لو كان يؤشر إلى انتهاء حكايتنا. هذه هى موجة السحاب تغوص خلف الأفق، وبذلك تحجب نجم المنجل مؤذنة بأفوله، وهذه هى السماء الأعلى تعرض بريقها كله احتفاء بالنهاية السعيدة لصراعنا مع الظلام، فى حين كان نجم الغداف Raven هو ونجم الدب Bear ومعهما كل من نجم السنبلة ونجم أريتورس Areturus فى سمت السماء، كل هذه النجوم كانت على شكل قوس فى المقدمة أمامنا. لقد تحقق المطلوب، وانتهت الرحلة، وتوقفنا لأداء الصلاة وإنعاش أنفسنا بشىء من القهوة والشاى، فى حين قام الفجر البطىء بإطفاء الأضواء السماوية.

كانت لحظة مشهودة، تلك التى هممنا فيها بركوب إبلنا لاستئناف سيرنا لا نبتغى سوى الوصول إلى محل إقامتنا، كانت الدنيا قد تحولت تحت غطاء الظلام، وبدأنا ننظر الآن إلى سهل زلطى، صحيح أنه سهل زلطى، لكنه تتخلله شرائط ليس من الرمال وإنما هى عبارة عن شجيرات خضراء. كانت الأرض تبدو كأنها تنبض بالرطوبة والبلل، وكانت عامرة بصفوف طويلة من شجيرات الحرمل داكنة الاخضرار – الحرمل، ذلك النبات الغريب على حواسنا الصحراوية – التى كانت

توضح قنوات السيول الضحلة التى كانت تأتى نازلة من الطويق، وشاهدنا عن يسارنا وعلى مسافة غير بعيدة رقعة واسعة من الأرض الخضراء التى كانت تخص المسار المؤدى إلى وادى الدواسر العظيم، الذى يمتد طرفه فى الأزمان الحديثة على شكل ذيل فى الصحراء الصخرية حاملا المطر المحلى ليملأ القناة التى كانت فى يوم من الأيام - قبل أن يتعلم الإنسان تسجيل معارفه وتجاربه - تحمل نهرا عاتيا يجرى فى دلتا شنًّاء. لقد اقتفينا بعض آثار ذلك النهر فى التجوالات التى قمنا بها، أما بقية ذلك النهر فمدفونة تحت الرمل. وهنا وهناك رأينا مجموعات من أشجار السنط تنتشر فى الزلط الذى فى تلك القنوات، وهذا هو صالح استطاع أن يخرج بومة صغيرة من داخل جحر سحلية[١] .

مشيت أنا وسالم عبر السهل الكبير وخطوط الصرف المتعددة التى تعبر ذلك السهل من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، والتى تهبط نازلة من منحدرات الطويق إلى الخط الرئيسى من خطوط مجرى وادى الدواسر. بدا السهل لنا وكأنه رقع من رقع الشطرنج التى تتخللها رقع أرضية متتالية داكنة اللون وفاتحة اللون، التى بحثنا فيها دون جدوى عن علف للإبل. شجيرات الحرمل شجيرات سامة، فى حين أدهشنى احتقار الإبل العطشانة لأشجار السنط، لكن الأمر اختلف عندما وصلت الإبل إلى رقعة من الأرض يتخللها عشب الضًّاعة، شبه الميت لكنه بدأت تدب فيه الحياة بعد سقوط المطر، الأمر الذى جعل الإبل تتدافع وتتزاحم عليه. كان عشب الضًّاعة هذا مجرد حنك أو حنكين فى مجمله - ولا يكفى هذه الحيوانات الجائعة التى دخلت يومها الثالث بلا طعام، قال سالم: لم يحدث مطلقا أن بقيت أنا وإبلى فترة طويلة كهذه بلا طعام، هذه الإبل تعطش إذا ما غاب عنها العلف الأخضر، وإذا ما عطشت الإبل فإنها لا تأكل إلا بعد أن تشرب. لكنها لا يمكن أن تستمر على هذا الحال إذا ما أجبرت على ذلك. هذه الإبل تستطيع البقاء بلا طعام مدة خمسة أيام، وربما ستة،

---

(١) العرب يسمون هذه السحلية "ضب".

بلا طعام، لكن هذا هو الحد الأقصى لجوع تلك الإبل. بعد ذلك تبرك هذه الإبل على الأرض ثم تموت. ومع ذلك، سوف نجد، بمشيئة الله، علفا لهذه الحيوانات اليوم. كان ذلك هو فكر كل أفراد الجماعة، وراحوا يواصلون السير بالإبل عبر هذا المشهد الخالى من العلف كما لو كان الشيطان يطاردهم. كان مزاج زايد معتلا، ولذلك لم يشجع الاستعداد لإعداد القهوة أثناء وقفة الفجر، ليعبر عن استيائه من رفضى للسير بعد منتصف الليل. وكان كوكب المشترى قد أربك حساباته مع الطريق الذى أوضحته البوصلة التى أحملها معى، ولكن السبب الرئيسى وراء اعتراض زايد هو افتقادنا لتلك الساعات القيمة التى كان يمكن أن توصلنا إلى السليل قبل دخول الليل، ولذلك حاول زايد الانتقام عن طريق القيادة المغرضة السيئة، كما لو كان يستهدف تحقيق ذلك الهدف رغما عنى أولا وقبل كل شيء، كانت لديه فكرة دقيقة تماما عن هذه المسافة، مما جعلنى لا أسمح بالغائها بأشياء من هذا القبيل، لكنى التزمت الصمت الكامل عندما قالت لى البوصلة: إن سالم انحرف بسبب خطأ فى التقدير عندما بدأ الرجل يسير فى اتجاه الجنوب الغربى بدلا من الاتجاه إلى الغرب مباشرة، وهو المسار الذى يتعين علينا السير فيه. كانت الصحراء المفتوحة التى لا حدود لها من أمامنا، وكان بوسعنا الانحراف إلى الاتجاه الصحيح إذا ما أردنا ذلك. ولو سرنا بضعة أميال إضافية فإن ذلك لن يضرنا بشيء، على الرغم من أنها قد تحرم زايد من انتصاره.

مشينا ما يقرب من خمس ساعات عبر أرض قاحلة واسعة يميل لونها إلى الابيضاض، هذه الأرض من الزلط، والتقينا فيها كثيرا من جحور الضب، لكن لم نصادف فيها من الحياة النباتية شيئا سوى الصفوف الخالية من شجيرات الحرمل وأشجار السنط. كنا نرى فى كل مكان بوادر نباتية صغيرة إلى الحد الذى كانت الإبل تعجز معه عن ملاحظتها، ونحن بدورنا كنا نبحث دون جدوى عن شيء يبرر وقوفنا لتناول المنعشات، أحضر سالم آخر ما معه من اللحم النيئ، واتفقنا على أن الأمر يتطلب شيئا من القهوة إذا ما أمكننا العثور على شيء تأكله الإبل. لكن صفوف شجيرات الحرمل البعيدة جعلتنا نواصل السير على أمل أن تكون شجيرات من شجيرات الضاعة، الأمر الذى أحبطنا عندما وصلنا إليها، وعند الساعة العاشرة مساءً

أعربت عن رغبتى فى التوقف عند الرقعة التالية من أشجار السنط، التى يقولون لها: سمر. ضاعف زايد من جهده ووصل إلى المقدمة، لكن باقى أفراد الجماعة تخلفوا على أمل أن أبرّ بوعدى وأتمسك بكلامى. واحتراما لكلامى توقفت عند الشجيرات التى تلت ذلك، ورحت أطارد فراشة عملاقة رأيتها تندفع من زهرة من زهور الحرمل إلى أخرى، فى الوقت الذى راح باقى الأفراد يشبون النار ويجهزون دلال القهوة. عاد إلينا زايد الذى تركناه فى الهواء وهو غاضب تماما، ولم أقل كلمة واحدة وتركت الباقين يمتصون غضبه. ونظرا لأنه كان من النوع الذى لا يمكن امتصاص غضبه فقد انتحى لنفسه مكانا جلس فيه وحده، فى حين رحنا نحن نتمتع بالقهوة والتمر. مضت علنيا ساعة كاملة، وبعدها استأنفنا سيرنا، وهنا أبلغت سالم بالخطأ الذى حدث فى الاتجاه الذى حدده. ومع طلوع الشمس أضحت السماء ضبابية إلى حد ما، وتسبب ضعف الرؤية فى استحالة رؤية المرتفعات البعيدة. ومع ذلك اتفق سالم معنا أن من الأوفق السير غربا إلى أن يتمكن من الاهتداء إلى علامة من العلامات الأرضية. غيَّرنا مسارنا بناء على ذلك، وجاءنا زايد يجرى من المؤخرة وهو غاضب وحانق تماما. صاح زايد قائلا: ما هذا الذى تفعلونه؟ أين حواسكم وأنتم تغيرون المسار؟ هذا هو وقت العصر دخل علينا وأنتم تتجولون هنا وهناك فى الصحراء. الماء موجود هنا وهناك، قالها وهو يشير ناحية الجنوب الغربى، إلى الاتجاه نفسه الذى تحولنا عنه. لم أكن ميالا إلى ترك سالم يستمع إلى زئير العاصفة، ورحت أتحداه قبل أن يشرع هو فى الإجابة، لأن الرجل فى واقع الأمر لم يكن واثقا بنفسه. رددت عليه قائلا: يا زايد، سالم هو مرشدنا وهو الذى تولى الارشاد طوال ثلاثة أيام فى الصحراء. ما الخطأ الى اكتشفته وجعلك تتساءل حول مصداقية إرشاده لنا الآن؟ هل أنت أيضا من المرشدين لكى تخبرنا بالأماكن التى نسير فيها، والتى لم ترها مطلقا منذ أن خلقك الله؟ لكنك على صواب يا زايد؟ كلامك طيب بحق، لأن الماء فعلا فى المكان الذى تتحدث عنه – مياه كل من حاسى وقرية على طريق نجران. لكن إذا كنت تنشد السُلَيِّل هى وأبيار لاتوه، فذلك شيء آخر، لأنهما تقعان فى ذلك الاتجاه الذى كنت تسير فيه – وهنا أشرت له إلى الانحراف قليلا إلى الشمال من

اتجاه الغرب – ونحن ذاهبون فى هذا الاتجاه، وليس إلى الاتجاه الذى كنت تسير فيه، لكن فيما يحصل فالأمر أمرك والترتيب ترتيبك. لكن، انتبه يا زايد، لقد عبرنا الربع الخالى، وهذا بفضلك أنت، على حد معرفتى، لأنك أنت الذى حاولت مرتين إفساد آمالى المرتقبة – أو تصل بتلك الأهداف إلى ذلك الذى فعلته أنت الآن، وعليه، لماذا تبحث عن الشجار الآن فى أمر لا فائدة لك منه؟ إذا ما وصلنا السليل يصبح بوسعك العودة إلى موطنك إذا لم تكن تود صحبتى، وبوسعك أيضا الذهاب معى إلى مكة إذا ما أردت أنت ذلك. لكن بدءًا من الآن أنا لم أعد بحاجة إليك، وعليه أرجو أن يكون الخير هو ما بينى وبينك. لقد اختلفنا مرات كثيرة وأنا لا أود المزيد من الخلاف. ومع ذلك، سوف أذهب مع سالم إلى هناك، وإذا كنت تود رؤية السليل، فالأفضل لك أن تأتى معنا – لكن التزم الهدوء.

عاد زايد إلى المؤخرة، مذموما مدحورا، فى الوقت الذى فرح فيه سالم فرحة طفل لأنى تكلمت نيابة عنه. وعليه واصلنا سيرنا فى الأرض القاحلة، الجرداء تماما دون أن نرى شيئا يدلنا على واحدة من العلامات الأرضية، التى لم نر منها شيئا إلى وقتنا هذا. كان سالم يقلل من شأن المسافة المتبقية، وهذا هو كل ما فى الأمر لكن الواضح أن سالم بدأ يشعر بالقلق بصورة متزايدة. أخيرا توقف الرجل، وراح يظلل عينيه لينظر إلى الفراغ الكبير ويطيل النظر إليه. قال سالم: انتبه، يا شيخ، أنا تائه. لقد مضى وقت طويل جداً على مجيئى لهذا الجزء من البلاد، وأنا لم أعد أعرفها بعد. أجبته، لا تخف، وإذا أردت فدعنا ننحرف إلى الناحية الشمالية الغربية الشاسعة الخالية من الماء، وعليه حوّلنا اتجاهنا إلى الشمال الغربى مدة نصف ساعة، وظهرت لنا عن بعد عن يسارنا سلسلة من التلال الرملية المنخفضة تنتهى بربوة صغيرة عليها كومة من الركام، فى حين ظهر عن يميننا حزام عريض من شجيرات الحرمل والسنط، هذا الحزام كان بمثابة تحديد لمجرى قناة قادمة من منحدرات الطريق. قال سالم: أنا لا أرى جيدا، لكن إن كان ذلك هو كوم الركام فهو بالقطع رجم الماء – بمعنى: رجم السُّقْيا، نادى سالم سويد قائلا: هل لك أن تذهب مع بعض الإخوة للتحقق من هذا الرُّجْم. وعليه ذهب سويد ومعه صالح فى حين توليت أنا مسألة الاستمرار فى

السير فى اتجاه الشمال الغربى، وسرعان ما وصلنا إلى اثنين أو ثلاثة من مدقات (طرق) الإبل المتعرجة فى الصحراء. وهنا تنفس سالم الصعداء. المؤكد أن هذه المدقات يمكن أن تهدينا إلى المسقى إذا ما سرنا فيها. ومع استمرار السير بدأت مدقات أخرى تتصل بالمدق الرئيسى، هذه المدقات سلكتها أجيال من الإبل التى كانت تتقاطر من مراعى الصحراء قادمة إلى المسقى، الذى على شكل حفرة عميقة فى السهل الزلطى. مررنا على مُصَلَّى محاط بالأحجار، يُصَلِّى فيه الرعاة، وعن بعد ظهر لنا خط الكثبان الرملية الذى يسمونه عرق الرماك، وعرق الرماك هذا هو الخط الفاصل بين سهل الجدة الشاسع وسهل الفرشة الأقل منه، والوادى يتحول عند سهل الفرشة إلى دلتا فى منطقة الزاوية الناشئة عن القسمين الشمالى والجنوبى من الطُّوَيِّق. وهبت علينا ريح شرقية طيبة من الخلف مُلَطِّفَة رطوبة فترة العصر وحرارتها وكانت السماء من فوقنا ملبدة بالغيوم. وسقطت علينا بعض قطرات المطر عندما انحرفنا ناحية الجنب ودخلنا إلى أيكة، أو إن شئت فقل: غيضة صغيرة من أشجار السنط لأداء صلاة العصر. توقفت فى هذا المكان قبل شهر أو أكثر، إحدى الجماعات الغازية، وكان فى هذا المكان أيضا قدر كبير من روث الريم، الذى كان يتردد على هذا المكان بأعداد كبيرة ليمضى فترات العصر الحارة فى هذا المكان الظليل.

ازدادت قوة الريح وتحول اتجاهها إلى الجنوب الشرقى، طوال مسيرنا عبر الكتف المنبسط الأيمن من سلسلة كثبان الرماك الرملية، التى تراءينا من خلفها ذلك الخط العريض من الشجيرات الكثيفة التى هى الفرشة، أو إن شئت فقل: قناة فيضان وادى الدواسر اعتبارا من النقطة التى تبدأ عندها التدفق فى الصحراء فى منطقة مضيق لاتوه. كان خط الطُّوَيِّق الخارجى عن يميننا وتتخلله مسارات سيول متعددة عامرة بالشجيرات، وكانت مصبات مجارى السيول هذه مسدودة بسلاسل من تلال الكثبان الرملية التى تكسوها شجيرات الغاضة، وكانت من بين هذه السلاسل سلسلة هى الأكثر بين هذه السلاسل كلها، ويعرفها الناس باسم قوز الشَّعدية، وهذا الاسم مأخوذ من اسم مجرى سيل يحمل هذا الاسم، وقد سبق لى عبور هذا المجرى من قبل

فــى أعالى منتـصف الطويق، خـلال الرحلة التى قمت بهـا فى العـام ١٩١٨ الميـلادى.
سقطت علينا بعض حبات المطر ونحن نؤدى الصـلاة، ورافقنا رذاذ متقطع فى المرحلة
الأخيرة من سيرنا اليومى، عبر سـهل زلطى تتناثر فيه الرمال إلى أن يصل إلى قناة
الفرشـة الواسعة، التى قررنا نَصْبَ خيام مـخيمنا الأخير فيهـا. كانت قـنـاة الفرشـة
تشكل منظرا سـاحـراً عندمـا رأيناهـا فى صبـاح اليـوم التـالى، والسـبب فى ذلك أن
الشـفق، أو إن شئت فقل: حـمـرة الشـمس قبل الغروب، كـان قد تحـول إلى ليل شـديد
الظلمـة، عندمـا وصلنا إلى حـافـة شـجـيـرات قناة الفرشـة. كانت الريح تدوى من حـولنا
ونحن مـسـتلقـون فى العـراء، وكـان البرق يومض من السـحـاب الغـاضب الذى كـان يدق
طبوله على شكل رعد مكتـوم. أتعبنا ذلك السير الذى قطعنا خلاله ثمانية وأربعين ميلا
على الرغم من ظروف الطقس الطيبة، وقد خيمت كآبة زايد على نفوسنا وأرواحنا فى
الوقت الذى كـان يتـعين علينا فيـه الاحـتـفـال بآخـر ليلة من ليـالى مـقـامـرتنا النـاجـحـة
الكبـيـرة، بشـىء من المرح فى حدود ما تسـمح به البقية البـاقية لنا من المؤن والتموينات.
لم أبذل جـهدا، أو بالأحرى لم أحاول التحلق مع الجماعة حول نار المخيم، كما رفض
زايد الدعـوة، التى أصررت على توجيـهـهـا له، مثلمـا كنت أفعل طوال المسـيرة. وعليه
تناولت التمر وحدى مع براد من الشاى لكى أسـهل نزول ذلك التمر إلى معدتى. لم تكن
الظروف مـواتيـه لقـيـامى ببـعض الملاحظات والدراسـات للنجـوم، وكـان مـخـزونى من
البرافـين قد انتـهى، لم يكـن أمــامى مـا أفعله سـوى النوم، ومـا أن دخلت إلى فراشى
حتى انفـتـحت علـيـنـا بـوابات فـيضـان السـمـاء، لتبللنا بوابل ثقيل، توقف فـجأة مثلمـا
بدأ فـجـأة أيضـا، على الرغم من هطول المطر بصـورة متقطعـة طوال الليل، الأمر الذى
حـال بيننا وبين النوم بصـورة مـسـتـمرة. قـام سـويد بالصـيـاح فى الاتجـاهـات الأربع
الأصلية ليعلن وجودنا، ويعلن أيضا عن شخصيتنا بالطريقة المتعارف عليها، مخافة أن
يكون أهل السوء مختبئين أو متحفزين لنا فى الظلام بين الشجيرات. وصـاحبت الدعوة
المعتـادة لتناول الوجبة موجة من الضـحك. ختم سويد كلامه قائلا: انتبهوا أيها النـاس،
نحن رجـال ابن سـعـود، نسـير، فى مـهـمـة خـاصـة بجـلالة الملك، قـاصـدين السليل، وأنا
سـويد من الدمنان، وولد الأزمـة. تعـالوا إلينا ومـرحـبـا بكم، إذا أردتم أن تشـاركـونا
طعـامنــا. لـدينا الكثير من الأشيـاء، ولدينا القـهوة أيضـا. أطبق علينا جميعا صمت

الليل من جديد، ولم يكن يكسره سوى اجترار الإبل لطعامها أثناء الليل، بعد أن أصبحت تجد العلف بكميات وفيرة – المرخ والحض، وكذلك الغاضة – وسمحنا للإبل بالتجول حولنا تحت الحراسة مدة ساعة، بعد أن رفعنا عنها سُرُجها.

صحوت على نداء متأخر عن الموعد المعتاد لصلاة الفجر، وعلى صوت شقشقة الطيور بين الشجيرات والأشجار – أشجار السمر (السنط) وأشجار السرح التى حولنا. كان ذلك الصوت حلوا فى مسمعى بعد ذلك الصمت التام فى الصحراء الكبيرة. أخذنا الأمور مأخذا هينا لينا، فى حين راحت الإبل ترعى من جديد النباتات الطرية فى حين جففت الريح فراشنا وأمتعتنا المبتلة. كانت النجوم قد غابت قبل أن أستيقظ، ولم يعد يتبقى سوى خط طفيف جداً من قوس النصر. غاب المشترى وغاب أيضا نجم رجيولس طلبا للراحة، وجرى الرد على السؤال المهم. لقد انتهى كل شىء ولن نسير بعد ذلك فى الظلام. يقول المثل العربى: إذا ما توفرت الإرادة، انفتح الطريق، وكل إنسان يجنى ما يريد.

عقب الانتهاء من الصلاة وشرب القهوة أوفدنا عبد الله بن معدى ومعه سويد قبلنا لإبلاغ عمدة السُّلَيِّل المندهش ومجلسها البلدى بعودتنا. ولم ننس تكليفهما بإعداد عشاء طيب يناسب وصولنا. كلنا كنا نشتهى لحم الطلى(*)، طلى سمين مطبوخ طبخًا جيداً، بعد حوالى شهرين ونصف الشهر مضيناهما بالقليل جداً من اللحم. هذا اللحم القليل كان من لحم الإبل والأرانب البرية بين الحين والآخر، وكان نصيبنا الإجمالى من الأرنب البرى يعادل أرنبا ونصف الأرنب على امتداد فترة تقدر بحوالى ثمانية وستين يوما. أكثر من ذلك، إننا كنا نتحرق شوقا إلى الخبز الذى لم نتذوق طعمه منذ أن غادرنا الهفوف، نظرا لأن هيئة العاملين مع ابن جلوى رأت أن لا تشتمل مؤننا وتمويناتنا على الدقيق. وعليه كنا نتطلع إلى أوانى اللحم فى السليل عندما شرعنا فى السير متجهين نحوها، بعد أن أوفدنا مراسلينا قبلنا عند الساعة

(*) الطلى عند أهل نجد هو الخروف النجدى. (المترجم)

الثامنة صباحا بحيث يسلكان طريق الحافة الشمالية من قناة الفرشة. ورأينا عن يميننا عبر سهل منبسط مكون من الزلط والطمى، القمة الصخرية المنخفضة لشمال الطويق وهى تطبق على طريقنا بصورة متدرجة، هذا الطريق أو المسار كان ينحرف انحرافا طفيفا ناحية الشمال الغربى، على الممر الضيق الذى يخرج الوادى عنده عن مجراه بسبب حاجز من الحواجز، على الجانب الآخر كانت منحدرات جنوبى الطويق تطبق على النقطة نفسها من الناحية الجنوبية الشرقية، وفيما بين هذين الجانبين كانت غابة النباتات الصحراوية، التى يصل عرضها إلى حوالى ميل تقريبا، تمتد على شكل خط مستقيم فى اتجاه الجنوب الشرقى لتصل إلى الكتف الجنوبى لكثبان رماك الرملية.

كانت فضلات روث الأغنام تعلن لنا أننا على مشارف الحضارة، والتقطت من بين الرمال يد هون مصنوعة من الرخام، ضاعت من راع من الرعاة المُهْمِلين. كانت أشجار الصرح اليانعة تسر خاطرنا، عوضا عن تلك الصحراء الخالية من النبات والأشجار، وكانت ارتفاعات تلك الأشجار تصل إلى ما يتردد بين ٢٠ أو ٣٠ قدما، كما كانت أشجار السنط تُزَيِّن المشهد بزهورها الصفراء الجميلة. كانت الطيور تشقشق أو ترفرف بين هذه الأغصان، كما كانت طيور السنونو تطير على ارتفاع قليل فوق الأرض، تقتفى أثر الحشرات التى تعيش بين زهور الربيع. الواقع أن المشهد كان يسر الخاطر، أخيرا شاهدنا مبنى من عمل بنى آدم، هذا المبنى عبارة عن مخفر صغير مستدير الشكل يستعمله الرعاة، وهو على حافة القناة التى تغطيها الشجيرات خلف قاع من الطمى يسميه الناس هنا المنقع، بمعنى المستنقع. كان الجو جافا، ويقال إن هذا المنقع يحتفظ بالماء أشهرا عدة بعد سقوط الأمطار، لكن آثار الأقدام العميقة للإبل التى كانت ترد هذا المكان تحكى حكاية طريفة عن أزمان أخرى. توقفنا لحظة لكى نطيل النظر إلى ذلك المخفر، أو إن شئت فقل: البرج الصغير، الذى يصل ارتفاعه إلى حوالى ١٥ قدمًا كما أنه دائرى الشكل، وهو يعد أول مسكن بشرى رأيناه منذ أن غادرنا جابرين.

كانت رحلتنا تقترب من نهايتها. بدأت تتراءى لنا تجمعات أشجار الأبل التى فى المجرى فى لاتوه، كما كانت هناك أيضا أشجار أثل فى مجرى الفرشة، فى

حين تمكنا أيضا من رؤية الأنقاض الحجرية التى على منحدرات الطويق الخارجية، التى سبق أن شاهدتها قبل أربعة عشر عامًا - وفجأة شاهدنا وسمعنا حركة فى الشجيرات البعيدة عنا وعلى الجانب الأيسر فى الأمام - ربما كانت هذه الحركة ناتجة عن المواشي. لكن، لا! كانوا رجالا يتحركون تحركا منظما فى العراء خلسة وعلى جبهة واسعة، كانوا يتحركون على نحو يوحى بأنهم يودون اعتراض طريقنا. أحصينا منهم سبعة رجال - قد يكونون أكثر من ذلك - وهنا امتدت الأيدى إلى البنادق المعلقة فى سرج الإبل، وهذا هو الصوت الناتج عن حشو الذخيرة فى البنادق استعدادا لفتح النار. واصلنا تقدمنا، بلا توقف، وببطء وانتظام إلى أن ظهر لنا - من بعد أيضا - أن هؤلاء الناس البعيدين عنا لا يحملون سلاحا! قال صالح متعجبا: لماذا! إنهم عُزّل، بلا سلاح! قال آخر: نعم، وهن نساء، ليسوا رجالا، لكنهن يأتين إلى طريقنا - هن من جامعات الحطب، أو إن شئت فقل: حطّابات، ربما يجمعن الحطب لنيران القرية، والذى لا شك فيه أنهن يفكرن فى أننا جئنا لغزوهم. انظر! كيف أنهن جئن لسد الطريق أمامنا. لأن هذه هى شيمة نساء نجد! عند هذا الحد كانت أقربهن إلينا على بعد مسافة تسمح بإلقاء السلام. صحنا قائلين: السلام عليكم. ردت علينا: وعليكم السلام، ويا هلا، ومرحبا! انتظرنا إلى أن جاءت بقية النساء، وكن يلبسن ملابس سوداء ومنقبات بنقاب أسود من الموسلين، كما هى عادتهن. وجرى تبادل السلام مرة ثانية، فى حين تولت امرأة عجوز دور المتحدث الرسمى، بعد أن تقدمت بقية النساء. سألها زايد، ما الأخبار؟ أجابت السيدة العجوز، بخير ومرحبا بكم، ومن أين أنتم؟ نحن قادمون كما ترين، من الصحراء. نحن عائدون، "عائدون" من الصيد. نحن لم نر شيئا سوى الخير - لا مرعى بطبيعة الحال، ولكن المطر غزير. تساءلت العجوز، وهل رأيتم آثار أقدام الأعداء؟ أجاب زايد: لا، لكن خبريني، ماذا عن حاصلاتكم؟ وما سعر الدقيق والتمر بين أهليكم هنا؟ أجابت قائلة: الحمد لله بارك لنا هذا الموسم، يمكنك الحصول على معيارين[١] من الدقيق الناعم نظير دولار واحد، والتمر يباع بسعر ست أو سبع

(١) صاعين: واحدها صاع، وهو وحدة كيل.

وزنات نظير الدولار الواحد(*). كانت النساء الأخريات يقفن على مبعدة قليلة من بطلتهن، وهن يقظات، وفاغرات أفواههن، من تحت خمرهن بطبيعة الحال، لكن واحدة منهن، الواضح أنها ابنة السيدة العجوز صاحبة الصوت اللطيف، تقدمت إلى الأمام إلى أن أصبحت عند كوع أمها، وراحت تعيد ترتيب خمارها، وتكشف عن عينين لامعتين تحت جبين جميل. لقي جمال هذه الفتاة، على الرغم من الصمت، رداً حتميا من الشباب المتألق، الذين واصلت أمها معهم الحديث والحوار، وقد لاحظت أن عظمة تجهيزاتي النسبية والناقة الممتازة التي كنت أركبها استرعت نظرة حلوة في الاتجاه الصحيح. ومع ذلك، لم يكن الوقت يسمح بالتلكؤ أو التواني، الأمر الذي جعل زايد والسيدة العجوز يختتمان هذا الحوار المؤدب الذي اقتضته ظروف هذا اللقاء. وعليه سرنا بقلوب مكلومة بعد أول طلّة من الجمال البشري بعد أسابيع وأشهر من الترحال في أرض جرداء، لكن الطالع الحسن هو الذي هيّأ لنا هذا اللقاء الإنساني الجميل، وهذه فراشة من النوع الذي يسمونه برمستون Brimstone تطير فوق أعشاب الحرم شديدة الخضرة، كما لو كانت تتحدى المقارنة، وواصلنا سيرنا خلال عنق الزجاجة في وادي لاتوه، مخلفين النساء وراءنا وهن يجمعن الحطب ويفكرن في أمور أخرى. وها أنذا أعود مرة أخرى إلى ذلك المشهد المألوف لماضٍ بعيد لا ينسى.

هذه هي أنقاض منازل مستوطنة السليل المبنية من الحجر لا تزال تغطي منحدر الطويق الهين، في المنطقة الذي ينزل عندها إلى حافة الوادي، هذه هي الحصون والأبراج لا تزال هياكلها باقية عند حافة البلدة. لكن وادي السليل نفسه لا يزال يحمل النُّدَب والجراح الناجمة عن جفاف قاس لا يرحم دام زمنا طويلا، حتى على هذا الجزء من الجنوب بعد عام أو عامين من زيارتي الأولى وتواصل بلا انقطاع إلى يومنا هذا، عندما شهدت زيارتي الثانية بمستقبل أفضل عوضا عن الماضي الأليم. بيارات النخيل التي شاهدتها متناثرة في العام ١٩١٨ لم يعد لها وجود – لقد مات النخيل وجرى تقطيعه. السواد الأعظم من الأبيار وحفر الماء هجرها الناس لنفوق

(*) وزنة.

الماشية، التى تعمل فى جلب الماء من هذه الأبيار، نتيجة الجفاف من ناحية، وعجز البشر عن القيام بهذه المهمة من الناحية الأخرى. أكواخ الزراع وحقولهم تحولت إلى أنقاض، لا يوجد شيء سوى القحولة والخراب، اللهم باستثناء بعض حقول القمح فى بعض الأماكن التى استطاع أصحابها الأثرياء المحافظة على تلك الأبيار. وعليه وصلنا إلى انتفاخ فى الوادى تحده من ناحية الشمال أنقاض قصر التارى، وفى ذلك الوادى عثرنا على بعض الأبيار التى ما تزال تستخدم فى رى المحاصيل - مثل القمح والشعير. شاهدنا أربعة رجال وامرأة واحدة وهم يشدون الحبال لإخراج قربة الماء من البئر إلى مستوى البكرات الخشبية التى تزيق أثناء شد الحبال، ليجرى صب ماء القربة فى الخزان الذى يتوزع الماء منه، على المجارى المائية الصغيرة التى تغذى الحقل.

نهض عبد كان يستظل بأشجار الأثل القريبة من أحد الأبيار ليحيينا باسم عمدة السليل. قال الرجل متعجبا: مرحبا بكم، أهلا ومرحبا بكم مرة ثانية! قواكم الله وأطال أعماركم! بعد ساعة واحدة من وصول رسوليكم إلينا، خرجت بناء على أمر من الأمير فرحان، لكى أكون فى انتظاركم وفى خدمتكم. كان اسم هذا العبد، ماجد، وهو رجل طيب المحيا حلو الكلام، فارع الطول، نزلنا من فوق نياقنا كى نتقبل تحية سلامة الوصول. وجرى إنزال الأحمال من فوق الإبل، وإطلاقها نحو البئر، وراحت الأيدى تعمل من أجل ملء الغدير بالماء حتى تشرب الإبل. وهنا أيضا جرى إعداد الشاى والقهوة. وتنتهى الرحلة، بعد أن عبرنا الصحراء الخالية من الماء، وربما كانت هذه هى المرة الأولى فى التاريخ البشرى - ٣٧٥ ميلاً أو أكثر بين الماء والماء - ومع ذلك لم تشرب الإبل إلا قليلا من الماء، رغم أنها كانت ظمأى تماماً.

الفصل الخامس

الخاتمة

"عادت جماعة من الربع الخالى، حيث يوجد الجفاف والجوع !"

زايد

انتهت حكاية الربع الخالى. أوصلنا مسير ساعة واحدة إلى بيارات نخيل السُّلَيِّل، قبل ظهر اليوم الرابع عشر من شهر مارس. وصلنا إلى المكان الذى نصبت فيه الخيام فى ركن من أركان هجرة من هجر الواحة – واحة آل محمد – لم تتغير الأمور هنا كثيراً عما كانت عليه قبل أربعة عشر عامًا – هذا هو الصف الطويل نفسه من البيوت الطينية الممتدة إلى الصحراء، وهذه هى النساء اللاتى يرتدين ملابس حمراء، ويقفن بالقرب من بئر القرية، وهذه هى تجمعات الأطفال الذين لا يجدون ما يفعلونه، هذا هو نفسه موقف الكبار البائسين الذين لا هدف لهم. ومع ذلك جاء توالى السنين بما هو أسوأ مما كان، فقد أدى الجفاف إلى نفوق الماشية وقلَّص المساحات التى يزرع فيها النخيل. أدى السِّلْم إلى إغلاق الممرات التجارية المؤدية إلى الأسواق التركية غير المحاصرة فى اليمن فى زمن الحرب. يزاد على ذلك أن انهيار صناعة صيد اللؤلؤ فى الخليج الفارسى، تحت وطأة الكساد الاقتصادى فى سائر أنحاء العالم، أخرج سكان أو بالأحرى مواطنى الواحة الصحراوية من مهنتهم الغريبة المعتادة. وهذا عبدالله بن النضير، الذى رحَّب بى ترحيبًا حاراً فى هجرة آل حنيش، انضم هو الآخر إلى آبائه وأسلافه، وهذا هو ولده سالم، يحكم حكمًا زاهراً بدلاً منه. وهذا هو

فرحان الراوية لا يزال أميراً على آل محمد، وهو بهى الطَّلعة فى هذه السن المتقدمة، وهو ثعلب في نظراته ورؤاه، وطمَّاع، لكنه كلُّه حنان، الأمر الذى يمسح الانطباع الذى كان لموقفه الذى يمكن اغتفاره له فى تلك الأيام. وهذا تاجر آخر من كبار التجار فى ذلك الوقت، جاء يطلب الصدقة والإحسان، بعد أن هوى من قمة الثروة إلى حد أصبح معه يشحذ قوت يومه، ومعه صبى صغير يقتاده إلى أماكن الخير والإحسان. كان الفقر واسع الانتشار فى ذلك الوقت وكان لابد لى من توزيع فارذات(*) Farthings ونصف البنس على ما لا يقل عن ٥٠٠ شخص، خلال مقامى الذى دام يومين فى قرية السليل – معظمهم من الأطفال الجوعى والنساء اللاتى فى حال بالغة السوء والتعاسة. ومع ذلك بثت الأمطار التى سقطت خلال الأسابيع الماضية الأمل فى كثير من أولئك الذين كانوا قد سلموا أمرهم لله سبحانه وتعالى بعد اليأس والإحباط.

جلسنا نتناول وجبة الظهيرة المكونة من لحم طلى وخبز مُخمَّر، وأرز، ورحنا نملأ بطوننا بعد أيام الخواء والجوع. وفى المساء تناولنا العشاء مع فرحان – وجبة أخرى مثيلة لوجبة الظهر، وبسيطة ومطهية جيداً ومغذية تماماً. لكن أمعاءنا رفضت هذا الإسراف، وعانى البعض لا لشيء سوى الإكثار من الطعام الجيد فى منظومات تعودت على جوع الصحراء. قيل إن قطعان السليل تتغذى بدرجة كبيرة على السَّانة، الذى هو مُطَهِّر شديد يعرفه ذوَّاقة مكة، وقد يكون ذلك التعب ناتجاً عن تحييق اللحوم بالملينات. أو، قد تكون القشعريرة الشديدة التى صاحبت الرياح الباردة، هى والمطر الذى سقط علينا فى هذه الأيام عملت عملها وجعلتنا مرضى.

كنا كلنا مرضى، مرضى بحق وحقيقة ! وحل علينا اليوم الرابع عشر من شهر مارس، وكان يوماً عاصفاً، والجماعة كلها تعانى من المغص. حاولت بين نوبات الألم وعدم القدرة على الحركة، التجول فى الحدائق بحثًا عن الفراش والنباتات، فى حين راح الأطفال الصغار يحضرون إلىَّ طيوراً صغيرة، جرى الإمساك بها عن طريق فخاخ

(*) واحدة "فارذنج"، وهو قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس. (المترجم)

تنصب فى منازلهم. كان ما يزال هناك طريق طويل ومضن ينتظرنا، وكان الوقت غير كاف إذا ما انتوينا السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج. لم نتحمل التأخير أو التوانى ولم يكن فى السليل ما يحتم علينا البقاء فيها وبخاصة بعد أن نالت إبلنا قسطًا كبيرًا من الراحة وبعد أن ملأت بطونها بنباتات الصحراء أثناء النهار، وعَلْفها على نبات القُصَّة أثناء الليل.

سوف نزور فى الأيام القادمة من جديد مستوطنات وادى الدواسر لنجدها بخيلة وعدوة، مثلما كانت من قبل – لكن العداء غير معلن – بتوجيه من رجل دين متعصب، سوف نرى واحات وادى بيشة الكبير، وسوف نعبر القناتين الشقيقتين التثليث ورانية، وسوف نمر فى الوقت المناسب على حقل البقوم البركانى، الذى يشيرون فيه إلى يومنا هذا إلى الطرق التى سلكتها قطعان وانسحبت منها فى "عام الفيل"، وينبغى أن نشاهد أيضًا ميادين المعارك الكبيرة التى دارت فى الجزيرة العربية، وفيها جماجم وعظام وأشلاء جيش الشريف حسين، الذى حاصره الوهابيون ودمروه عند أسوار تربة. وأخيرًا يجب أن نصل إلى مكة فى اليوم التسعين اعتبارًا من بدايتنا من الهفوف.

والإبل التى حملتنا عبر الصحراء هى التى ستحملنا طوال عملية الحج. وعندها يمكن أن نفترق إلى الأبد، أنا ورفاقى، ونتذكر الخير وننسى الشر، فى مشروع كان يشغل أحلامى كلها طوال أربعة عشر عامًا، لكنه أتعب أعصاب رفاقى أسابيع عدة. الفضل يرجع إلى هؤلاء الرفاق وإلى الحيوانات العظيمة التى حملتنا – وجاعت وعطشت دون شكوى – فى القيام بهذه المغامرة العظيمة. أما أنا فيسعدنى أن أروى هذه الحكاية مصحوبة بخالص شكرى لقيصر الجزيرة العربية.

"إذا ما أخلص الإنسان النوايا، وبذل الجهد مخلصًا للوفاء بها، فقد تحقق الهدف، سواء أنجح أم لم ينجح".

ملاحق الكتاب

(أ) الأحجار النيزكية والمومضات

بقلم د. إل. جى. سبنس

إدارة المعادن، المتحف البريطاني

١ - الحديد النيزكي والزجاج الرملي من فوهات البراكين النيزكية فى ويار

توضح قطعة المعدن، التى عُثِرَ عليها بالقرب من فوهات البراكين فى ويار، الأسطح المقعرة التى تميز الحديد النيزكى الذى تأثر بعوامل الطقس. هذه القطعة مغطاة فى بعض أجزائها بقشرة من الصدأ، والواضح أنها متبقية من قطعة أكبر منها بكثير. هذه القطعة التى وصلت إلى المتحف البريطانى كانت تزن خمسة وعشرين رطلا (أى ١١,٤ كيلو جرام). شكل هذه القطعة غير منتظم وأبعادها فى اتجاه الزاوية القائمة هو ١٠ × ٦ × ٥ بوصات. جرى تنظيف جزء من القشرة السائبة، لكن على أحد الأجناب توجد كتلة سميكة من قشرة رقائقية فيها حبيبات رمل أسمنتية. هذه القشرة لونها بني غامق وهى قشرة مغناطيسية. بعد تصوير القطعة (الشكل ١٤أ) جرى نشر أحد أطرافها باستعمال منشار حديد وجاء السطحان منبسطين ولامعين، وبعد غمر السطح اللامع فى محلول مخفف جداً من حمض النايتريك، أمكن الكشف عن البنية البللورية الداخلية لهذه الكتلة، وجرى وقف التنميش بعد ذلك بدقيقتين أو ثلاث دقائق، وأمكن الوصول إلى النتائج المبينة فى الشكل ١٤ب. الأنماط الجميلة التى ظهرت على السطح المُنَمَّش تعرف باسم أشكال Figures ودمانستاتن Widmanstatten، وهى

لا تظهر بهذا المقياس إلا فى الحديد النيزكى. البنية مكونة من أحزمة متبادلة من سبيكتين من الحديد والنيكل، وأحزمة أخرى من الكماسايت Kamacite أعرض من الأحزمة السابقة، وتفصلها عن بعضها أحزمة شديدة الضيق من التاينايت Taenite. هناك مكون ثالث يشغل الفراغات الزاوية الداخلية، ويعرف باسم البلسايت Plessite، وهو أيضا مكون من الحديد والنيكل لكن بنسب مختلفة، هناك قلة قليلة من الفقاعات الترويلايت Troilite الصفراء (سلفات الحديد) البرونزية المدموجة فى الحديد النيكلى. وفى ضوء البنية البللورية لهذه الفقاعات توجد أنوا ع متعددة من الحديد النيزكى، حديد وبار يمكن تصنيفه على أنه من النوع "ثمانى السطوح" المتوسط Octahedrite. هو منظومة معقدة مكونة من خطوط دقيقة جداً (تسمى خطوط نيومان Neuman)، وهى تظهر على أحزمة الكماسايت Kamacite. هذه الخطوط الدقيقة يرجح أن تكون نطاقات انزلاق بللورية، ناتجة عن الصدمة التى نتجت عن ارتطام النيزك بالأرض.

التحليل الكيمياوى المفصل الذى أُجْرى لحديد وبار بواسطة السيد م.هـ. هى Hey، أحد العاملين فى المتحف البريطانى، يبين أن الحديد يحتوى على ٩٢٪ من الحديد وحوالى ٧,٣٠٪ من النيكل، مع مقادير صغيرة من الكوبالت، والنحاس الأحمر، والكبريت، وأثر خفيف من البلاتين، والكلور، والكربون. كما يوضح التحليل الكيمياوى أيضا أن الجاذبية النوعية هى ٧,٦٦٪[١].

جمع السيد فيلبى إلى جانب هذه القطعة الكبيرة ست قطع صغيرة أخرى من الحديد كما جمع شظايا أخرى كثيرة من مادة صدئة تماما عليها حبيبات من الأسمنت والرمل. هذه القطع الصغيرة والشظايا هى بدورها عبارة عن قطع من كتل أخرى كبيرة تأثرت بالعوامل الجوية. أكبر شظية من هذا المعدن تزن حوالى ٣٣ جراماً (أى ما يزيد قليلا على أوقية واحدة). جرى نشر واحدة من هذه الشظايا إلى قسمين، باستعمال منشار حديد وجرى تليمعهما وتنميشهما لتحديد البنية الداخلية. واتضح أن

(١) سوف ينشر التقرير الكامل عن حديد وبار النيزكى، فى فترة لاحقة، فى مجلة المعادن.

التركيب الداخلى لهذه الشظية مختلف تماما عن تركيب كتلة وبار. صحيح أن تركيب الكتلة الكبيرة موجود فى الشظية الصغيرة لكنه ليس واضحا تماما، وبذلك يكشف عن شيء من الغموض نظرا لطمسه بعض الشيء. الأحزمة التيناتية Taenite واضحة أيضا فى الشظية، لكن الكماسايت Kamacite فيه تحببات صغيرة جداً. هذا التغيير فى التركيب يمكن إحداثه صناعيا فى الحديد النيزكى عن طريق التسخين إلى درجة حرارة ٨٥٠ درجة مئوية. هناك دلائل على ذلك التحبب Granulation فى بعض أجزاء كتلة وبار، كما هو مبين فى الصورة (الشكل ١٤ب).

الأحجار النيزكية التى تأتى من الفضاء الخارجى تكون درجة حرارتها صفر مطلق (أى – ٣٧٥ مئوية). هذه الأحجار عندما تُحَلِّق بضع ثوان خلال الغلاف الجوى للأرض، وعندما يتوهج سطحها بسبب الاحتكاك بالهواء، لا يكون هناك متسع من الوقت لتوصيل أى مقدار من الحرارة إلى داخل هذه الكتلة الطائرة. ولذلك عندما يجرى التقاط هذه الأحجار بعد سقوطها مباشرة تكون دافئة فقط. الكتل الصغيرة من هذا الحديد النيزكى التى تزن الواحدة منها بضعة أرطال، والتى شوهدت وهى تسقط، يتضح فيها تركيب ودمانستاتن Widmanstatitten بشكل واضح تماما على مستوى منطقة شديدة الضيق على السطح الخارجى لكتلة الحديد، مما يدل على أن درجة الحرارة لا يمكن أن تكون قد تجاوزت ٨٥٠ درجة مئوية.

لابد أن الظروف فى وبار كانت شديدة الاختلاف وشديدة الاستثناء أيضا. لابد أن يكون قد تساقط على وبار وابل من كتل الحديد النيزكى الكبيرة أدت إلى حفر مجموعة فوهات البراكين، وهذا دليلٌ قاطع على ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيراً جداً، وهو ما يؤكده الزجاج الذى جمعه السيد فيلبى. كتل الخبث المعدنى المتقدة المبعثرة بكميات كبيرة حول كئوس البراكين هى التى أوحت، بلا شك، بخرافة المدينة المحروقة. هذه الكتل ربما أوحت أيضا بفكرة البركان. لكن عنما فحصنا هذه الكتل وجدنا أن هذه المادة عبارة عن زجاج رملى بشكل قاطع، وأن هذا الزجاج الرملى، فى ضوء التحليل المفصل الذى أجراه السيد هى Hey، يحتوى على ٩٢,٨٨٪ من الرمل

Silica مع مقادير صغيرة من الألومينا(*) aluminaوأكسيد الحديد، والحجر الجيرى، والبوتاس(**) إلخ. الجاذبية النوعية ٢,١٠، ومعامل الانكسار ١,٤٦٨، والزجاج نظائرى.

وهذا أكبر وأبرز وجود جرى اكتشافه فى الطبيعة حتى الآن. هناك، بالإضافة إلى الكتل المتوهجة المفتّتة التى يصل عرضها إلى حوالى تسع بوصات، أعداد كبيرة من "القنابل" مختلفة الأشكال والأحجام، وتتدرج من ٥ بوصات فى العرض إلى "حبات اللؤلؤ" الأسود. هذه "القنابل" خفيفة جداً، لكونها خلوية ومليئة بالفقاقيع. الفقاقيع بكل أحجامها يتردد حجمها بين ٢,٥ إلى ١/٦٠٠ من البوصة، الكثير من هذه القنابل مكون من الداخل من زجاج رملى أبيض بياض الثلج يشبه الرماد البركانى، ومغطى من الخارج بقشرة من الزجاج الرملى حالك السواد. هذا الزجاج الأسود يكاد يكون خاليًا من الفقاقيع وسطحه غالبا ما يكون ناعماً وبراقًا، لكنه فى معظم الأحيان تكون فيه بثور صغيرة هى أيضا من الزجاج الأسود، وقد أوضح التحليل الذى أجراه السيد هى Hey أن نسبة الرمل فى الزجاج الأسود أقل منها فى الزجاج الرملى سالف الذكر، الذى تصل نسبة الرمل فيه إلى حوالى ٨٧,٤٥٪، وأن الزجاج الأسود فيه نسبة حديد أعلى (أكسيد حديد ٧٧,٥٪ وأكسيد حديديك(***) بنسبة ٢٨,٠٪) كما يحتوى أيضا على قليل من النيكل (٣٥,٠٪).

هذه "القنابل" جرى قذفها من بركة من الرمل المنصهر، ناتجة عن انصهار الرمل النظيف فى المكان الذى ضرب النيزك فيه الأرض، والطابع الخلوى Cellular لهذه القنابل يرجع بلا أدنى شك للتبخر الجزئى للرمل Silica، ونظرا لطيران تلك القنابل إلى الخارج من خلال جو من السليكا، والحديد، وأبخرة النيكل؛ قد تغطت تلك القنابل

(*) الألومنيا: هى أكسيد الألومينيوم. (المترجم)

(**) البوتاس: هو هيدروكسيد البوتاسيوم. (المترجم)

(***) حديديك: يحتوى على حديد ثلاثى التكافؤ. (المترجم)

بقشرة من الزجاج الأسود، وربما كانت البثور السوداء تمثل قطرات ندى السليكا (الرمل) التى تكشفت فوق سطح هذه القنابل. وفى فترة لاحقة من الزمن تدخل فى العملية الحجر الرملى الأقل نقاء (يحتوى على السليكا بنسبة ٩٢,٦٪) الموجود تحت الصحراء، وانصهر بدوره إلى زجاج رملى رمادى اللون ويميل لونه إلى الزرقة، مطمور فيه شظايا زاوية من الزجاج الأبيض الذى جرى تجميده بالفعل، لكنه لم يجر بعد قذفه إلى خارج كأس (فوهة) البركان، الأمر الذى أدى إلى ارتفاع نوع من أنواع "الحجر المُسَوَّط"(١) (الشكل ١٢ب). هذه العينة تكشف عن سطح حَبْلى من السليكا المصهورة (شكل ١٢أ)، ويبدو أن هذه كانت واحدة من "القنابل" التى أسقطت بعد ذلك بفترة وجيزة.

ينصهر الكوارتز Quartz عند درجة حرارة ١٧٠٠ْ مئوية، ويمكن أن يتبخر بعد ذلك فى درجات الحرارة الأعلى فى القوس الكهربائى، وبحسبة صغيرة يمكن لنا أن نتبين أن درجات الحرارة الأعلى من ذلك يمكن الوصول إليها عن طريق اصطدام حجز نيزكى كبير اصطداما مباغتا، شأنه فى ذلك شأن كتلة كبيرة من الحديد فيها قوة تحرك، عندما تلقى عرقلة صغيرة نتيجة مقاومة الهواء.

كتلة الحديد التى تزن ١٠٠ طن (٢,٢٤×١٠ْ)(٢) وتتحرك بسرعة ٢٥ ميلاً (١,٣٢×١٠ْ) فى الثانية، تكون لها حسب المعادلة e = 1/2 mv2 طاقة حركية تقدر بحوالى ١,٩٥×١٠ قدم – رطل. إذا ما توقفت هذه الكتلة فجأة، فإن طاقة الحركة سوف تتحول إلى حرارة، وطبقا للمساوى الحرارى عند جولز، فإن هذه الكتلة تعطى

---

(١) التسويط: هو تحريك الحديد المصهور مع خبث مؤكسد، لجعله سهل التشكيل. (المترجم)

(١) هذا تقدير متواضع. حجر هوبا Hoba النيزكى فى جنوب غرب أفريقيا، الذى يزن فعلا ٦٠ طنا، أكل الصدأ بعضه وعندما سقط كان وزنه حوالى ١٠٠ طن. وقدر وزن الحجر النيزكى بمليون طن، الأمر الذى أدى إلى إحداث كأس البركان فى أريزونا، وكرة الحديد التى تكون بهذا الوزن يكون قطرها ٢٠٨ قدم – وهذا صغير بالنسبة لقطر الجرم السماوى، وربما قدرت السرعة بحوالى ٤٥ ميلاً فى الثانية، وإذا ما ربّعنا هذه السرعة نحصل على أرقام أكبر من ذلك.

وحدات حرارية بريطانية مقدارها $٢,٥١\times ١٠^{١٢}$ – وهذه الوحدات الحرارية كافية لرفع ما مقداره $٢,٥١\times ١٠^{١٢}$ من الماء درجة واحدة فهرنهيتية. لكننا هنا نتعامل مع كميات محدودة من الحديد والكوارتز، والحرارة النوعية لكل منهما في درجات الحرارة الأعلى من ذلك جرى تحديدها على أنها ٠,٢٢ بالنسبة للحديد، و ٠,٢٥ بالنسبة للكوارتز. إذا ما قسمنا هذه الحرارة على ١٠٠ طن من الحديد وعلى كتلة أخرى مساوية لها من الرمل فإن الحرارة الناتجة عن مثل هذه القسمة ستكون $٢,٢٨\times ١٠^{٧}$ درجة فهرنهيتية، أو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ درجة مئوية. وحتى إذا كانت السرعة تقدر بحوالى ١٠ أميال في الثانية فإن الحرارة الناتجة عن ذلك يمكن أن تصل إلى ما يقدر بحوالى ٢,٠٠٠,٠٠٠ درجة مئوية.

هذه النتيجة تبدو غير منطقية، وإن كثيرا من العوامل جرى إغفالها فى هذه الحسبة البسيطة. لكن الذى يضعه الإنسان فى ماكينة حسابية هو الذى يحصل عليه. الحرارة الناتجة فى مثل هذا الحال تكون كافية لتبخير الكتلة كلها، لكن الصدمة كانت قائمة ولن يكون هناك متسع من الوقت لتوصيل الحرارة إلى مركز كتلة الحديد، قبل أن يقذف بكتلة الحديد هى والأرض المحيطة بها، بواسطة الغازات المتولدة عن هذه العملية. هذا يعنى أن الرطوبة التى فى الرمل وفى الصخور التى تحت الرمل سوف تتحول على الفور إلى بخار ماء، لكن الأرجح هو أن الغازات الناتجة عن تبخر الحديد والسليكا ستكون ما تزال أكثر فاعلية فى إنتاج "اشتعال خلفى" هائل.

تركيب ودمانستاتن Widmanstatten الذى ظهر فى كتلة وبار الكبيرة يثبت أن هذا الجزء من الكتلة لم ترتفع درجة حرارته إلى ٨٥٠° مئوية. كما أن التدمير الجزئى لهذه البنية أو التركيب هو وتطوير التركيب الحبيبى الذى لاحظناه فى القطعة الصغيرة، يشير على الرغم من ذلك إلى الوصول إلى درجة الحرارة هذه. من الواضح أن قطع الحديد التى نقوم بفحصها هى مجرد بقايا من كتلة أو كتل أكبر. يزاد على ذلك أن التركيبة أو البنية التى كشف عنها الزجاج الرملى Silica، إنما تؤكد الحقيقة أن بعضا من الحديد والسليكا Silica قد تبخرا بالفعل.

من يمن الطالع أن التساقطات النيزكية التى من هذا القبيل، والتى تكون لها تكوينات مثل كئوس البراكين، تكون نادرة، ويندر أن تحدث على سطح الأرض، على الرغم من الادعاء بأن هذه التساقطات كثيرة الحدوث على سطح القمر. وباستثناء ذلك التساقط الذى حدث فى سيبيريا فى اليوم الثلاثين من شهر يونيو من العام ١٩٠٨ الميلادى، التى لا نعرف عنها سوى الشىء القليل جداً، نجد أن لا شىء من تلك التساقطات حدث فى الأزمان التاريخية. هذا يعنى أن تساقطا واحداً من هذه التساقطات يكفى لمحو لندن كلها من الوجود. هناك، فى واقع الأمر، عدد قليل من كئوس البراكين النيزكية التى تشتهر بكونها معالم طبوغرافية على سطح الأرض. وقد ألقت ملاحظات السيد فيلبى هى والفحوص والتحاليل التى أجريت لهذه المادة المزيد من الضوء على هذه المشكلة، أكبر هذه الكئوس (فوهة) البركانية موجود فى ولاية أريزونا Arizona، عرض هذا الكأس يقدر بحوالى ثلاثة أرباع الميل أما عمقه فيصل إلى حوالى ٥٧٠ قدماً، وقد جرى تعرف هذه الكأس فى العام ١٨٩١ الميلادى وقد دار جدل كبير حول هذه الكأس. وأمكن التوصل إلى كثير من والدلائل من مجموعة كئوس البراكين التى جرى اكتشافها فى العام ١٩٣١ الميلادى بالقرب من هنبرى Henbury فى وسط أستراليا، لكن اكتشاف وبار والتطور العجيب للزجاج الرملى هو أكثر الاكتشافات اكتمالا[١].

القطعة الصغيرة الأخرى من الحديد النيزكى، التى يصل حجمها إلى حجم وشكل حبة الفول الصغيرة وتزن ثمانية جرامات (١/٤ وقية)، جرى التقاطها من فوق الرمل فى نايفة والتى تقع على بعد حوالى ١١٠ ميل جنوب شرق وبار. هذه الشظية ربما تكون جزءا من تساقط وبار Wabar (وفى مثل هذا الحال يكون النيزك العملاق قد تحرك من الجنوب)، أو ربما يكون العرب قد نقلوا هذه القطعة. فى هذا الصدد ينبغى

---

(١) نشر مقال بعنوان "كئوس براكين الصخور النيزكية" فى مجلة نيتشر NATURE، بتاريخ ٢٨ مايو من العام ١٩٣٢ (من صفحة ٧٨١-٧٨٤) بعد أيام قلائل من إنزال عينات السيد فيلبى فى المتحف.

أن نأتى على ذكر حديد نجد النيزكى، بما أنه من حيث التركيب البللورى والتركيب الكيمياوى يتطابق تماما مع حديد وبار. قطعتان من هذا النوع من الحديد، وزن القطعة الأولى منها ١٣١ رطلا، والثانية ١٣٧ رطلا، جاءتا من الجزيرة العربية فى العام ١٨٨٥ الميلادى، و١٨٩٣ الميلادى. قيل إن هاتين القطعتين سقطتا أثناء عاصفة العام ١٨٦٣ الرعدية. ومع ذلك، يرجح أنهما جرى نقلهما من وبار Wabar بواسطة العرب قبل ذلك التاريخ. إحدى هاتين القطعتين محفوظة ضمن مجموعة المتحف البريطانى من الأحجار النيزكية، فى متحف التاريخ الطبيعى فى سويث كنسنجتون South Kensington.

عثر السيد فيلبى على العديد من شظايا الأحجار النيزكية التى تأثرت بعوامل الطقس فى كل من عين سالة، وأدراج، وأم طية التى لا تبعد كثيرا عن نايفة Naifa. هاتان القطعتان تشبهان كتل الحجر الحديدى وسط المجموعة الكبيرة من عينات الصخور. فى العينات المجهرية تبدو هذه العينات وكأنها من الحجر النيزكى نفسه الذى عثر عليه السيد برترام توماس فى بواح فى العام ١٩٣١ الميلادى فى المنطقة نفسها، وجرى وصفه حجر سواحيب النيزكى(١). هذه الأحجار تنتمى كلها بطبيعة الحال إلى التساقط النيزكى نفسه، لكنها مختلفة تماما عن تساقط وبار، من الحديد النيزكى، ولا علاقة بين الاثنين. الواضح أن صحراء الجزيرة العربية عبارة عن مكان جيد للمحافظة على الأحجار النيزكية التى تساقطت فى الأيام الغابرة.

٢- الومضات

الزجاج الرملى عبارة عن شكل آخر مختلف تماما عن المادة الوفيرة فى وبار، وقد جرى جمعه بكميات صغيرة من ثلاثة مواقع فى الصحراء. هذه العينات لها شكل

(١) صدر مقال آخر بعنوان "حجر نيزكى جديد من سواحيب، فى الجزيرة العربية، بقلم د. كامبل سميث فى مجلة المعادن، فى العام ١٩٣٢ المجلد ٢٣ من صفحة ٤٣-٥٠ .

الأنابيب الصغيرة، وهي تشبه جلود الحشرات في الرمل، وقد لاحظ السيد فيلبي عينات الزجاج الرمل Silica على شكل تراكمات Accretions، ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الطابع الحقيقي لهذه التراكمات. هذه التراكمات تسمى الومضات Fulgurites أو الأنابيب المضيئة، التي تنتج عندما تضرب تفريغات البرق الأرض، إذ تؤدي الحرارة الشديدة الناتجة عن الشرارة القوية إلى صهر الكوارتز الموجود على مسار التيار الكهربائي. أنابيب الزجاج الرملي هذه تكون ملساء دوما من الداخل ومزججة(*)، هذه الأنابيب تكون خشنة الملمس من الخارج، وتمسك بها حبيبات من الرمل المنصهر صهرا جزئيا. جدران هذه الأنابيب عادة ما تكون رقيقة جداً وقابلة للتفتت، ويمكن جمع عينات هذه الأنابيب على شكل شظايا. وعلى الرغم من أن هذه الأنابيب تكون أسطوانية بشكل عام فإنها تكون مستدقة الطرف نحو الأسفل، وقد تكون متفرعة في بعض الأحيان. هذه الأنابيب إذا ما فلطحناها يكون له شفرات رقيقة من المادة المنصهرة وتكون بارزة من جوانب الأنبوبة: وهذا النوع من الأنابيب يسمى "الومضات المجنحة". أكثر العينات اكتمالا في مجموعة المعادن التي في المتحف البريطاني عبارة عن جزء طوله ثلاثة أقدام، من أنبوبة قطرها يتراوح بين ١ . ١,٥ بوصة، جرى العثور عليها في مالدونادو Maldonado في أوروجواي Uruguay في أمريكا الجنوبية، الأنبوبة الأطول أيضا، لكنها مكونة من شظايا مجزأة، ويصل طولها إلى حوالي ١٦ قدماً فقد جرى الحصول عليها من منطقة بالقرب من درسدن Dresden وهناك أنبوبة مضيئة في تلال درج Drigg الرملية على ساحل كمبرلاند، جرى قص أثرها إلى مسافة ٣٠ قدماً دون الوصول إلى نهايتها. هذا يعني أن هذه الأنواع من الأنابيب نادرة وليس لها مجموعات عامة.

العينات التي جمعها السيد فيلبي عبارة عن شظايا جرى العثور عليها سائبة على سطح الرمل، وقد جرى العثور على هذه الأنواع في المنخفضات التي بين الكثبان

(*) مزججة: أي لها سطح صقيل لامع. (المترجم)

الرملية، والشيء المهم أن العرب يتخذون من هذه العينات دليلا على وجود الماء. ومما لا شك فيه أن البرق يضرب الأجزاء الرطبة من الأرض، والأجزاء ذات القابلية الكبيرة للتوصيل. وجاءت تلك العينات على النحو التالي:

(١) العينات التي جرى (جمعها يوم ١٩٣٢/٢/٩) من بني جلاَّب. أنابيب ضيقة قطر الواحدة منها حوالي ٢/١ سنتيمتر، أطول شظية من هذه الشظايا يصل طولها إلى سبعة سنتيمترات. هذه الأنابيب أسطوانية ومستقيمة وتشتهر بجدرانها السميكة، حيث يوجد بها تجويف مركزي شبيه بالخيط، الوموضة كلها تقريبا مكونة من زجاج رملي رمادي اللون مليء بالفقاقيع الصغيرة. هذا يوحي بأن البرق ضرب رملا جافاء وأنه حدث توسع شعاعي صغير جداً للأنبوب، وأن هذا التوسع الطفيف جداً نتج عن ضغط بخار الماء. القطعة الواحدة منقسمة إلى فرعين.

(٢) العينات التي جرى (جمعها في يوم ١٩٣٢/٢/١٨) من بني جفنان هذه العينات عبارة عن شظايا غير منتظمة الشكل ولها بروزات شبيهة ببروزات العمود الفقري. جدران هذه الأنابيب رقيقة والتجويف الرئيسي كبير ومزجج من الداخل. أكبر هذه الشظايا يصل طولها إلى حوالي ٢/١ ٣ سنتيمتر، وفيها قطاع مستعرض مفلطح طوله ٢/١ ١ سنتيمتر وعرضه حوالي ٢/١ سنتيمتر.

(٣) العينات التي جرى (جمعها في يوم ١٩٣٢/٢/٢٤) من حباكة قعاميات، على بعد حوالي أربعين ميلا غربي شنَّاء – العينات عبارة عن شظايا مكسرة لأنابيب مفلطحة لها بروزات مثل بروزات العمود الفقري، ولها أجنحة أيضا. جدران هذه الأنابيب سميكة، وبها تجويف مركزي شديد الوضوح يكاد يكون وسطا بين التجويفين المركزيين المذكورين في العينة رقم (١)، والعينة رقم (٢). أطول شظية في هذه العينة يصل طولها إلى ٤ سنتيمتر، ولها قطاع مستعرض يقدر بحوالي ٢سم ×١سم.

(ب) النتائج الجيولوجية

١- المعادن والبتروليات

د. كامبل سميث ،ماجستير فى الكيمياء وماجستير فى الآداب

إدارة المعادن بالمتحف البريطانى

(أ) تقديم

جلب السيد فيلبى للمتحف البريطانى مجموعة جيوليوجية شديدة التباين، وذلك إضافة للأحجار النيزكية، والمواد الشهيرة المرتبطة بتكوين كئوس البراكين النيزكية. قام الدكتور ل.جى.سبنسر Spencer بوصف تلك الأحجار النيزكية، فى حين قام السيد ل.ر.كوكس بوصف الحفريات وعلاقتها بالتاريخ الجيولوجى للجزيرة العربية، كما وصف أيضا المادة الثرية، التى توضح الظروف العجيبة السائدة فى المناطق الصحراوية الجافة.

قد يكون مفيدا، تصنيف المادة التى جلبها السيد فيلبى تحت العناوين الرئيسية التالية:

صخور لها نتوءات فوق سطح الأرض

السهول الزلطية والأحجار السيَّارة

الرمال

الرسوبيات السطحية

(٢) صخور لها نتوءات فوق سطح الأرض

في الناحية الغربية من جرف الصخور الجوراسية، الذى ورد وصفه فى التقرير الخاص بالاستراتيجرافية(*) والإحاثة(**) Palaeontology الذى أعده السيد ل.ر.كوكس Cox، باعتبار أن هذه الصخور تُكَوِّن هضبة الطويق، نجد أن السيد فيلبى قد عثر على منطقة كبيرة من الصخور القديمة تحتل المنطقة الواقعة غربى الخط الممتد تقريبا من الدوادمى (غربى الرياض) إلى المنطقة المجاورة لكل من بيشة والتثليث (جنوب غرب مكة). والصخور التى جرى جمعها بالقرب من الدوادمى عبارة عن شست ميكائى Mica Schist وسربنتين(***) وجرانيت. على طول مجرى وادى الدواسر بدءا من الجزء الشرقى من جزل Jizl واتجاها إلى ناحية الغرب عثر السيد فيلبى على تشكيلة كبيرة من الصخور، كما هو مدون فى القائمة التالية مطبقا للعينات الواردة:

الجزء الشرقى من جزل	رماد بركانى متحول، وحجر رملى رمادى، وبورفير ميكائى أسود
الجزء الغربى من جزل	ريوليت(****) أحمر متحول
أبرق مجاريب	ريوليت أبيض متحول أو فلسايت Felsite
شيب ملاح	جرانيت ميكائى أحمر، وكوارتز مجزع، وبورفير هورنبلندى(*****)

(*) الاستراتيجرافية: هى علم وصف طبقات الأرض. (المترجم)

(**) علم الإحاثة: علم الحفريات القديمة. (المترجم)

(***) السربنتين: هو حجر الحية، وهو مكون من سليكات المغنسيوم المميأة. (المترجم)

(****) ريوليت: صخر بركانى دقيق الحبيبات. (المترجم)

(*****) هورنبلند: خام من سليكات الكالسيوم والمغنسيوم والحديد. (المترجم)

بنى شوحاتة	جرانيت أحمر، وكورتز مجزَّع
بنى هوباى	جرانيت أبيض فيه نسبة كبيرة من البيوتيت الأسود، وأبليت(*) وردى اللون
المحمل، فيما بين بنى هوباى وعرق	جرانيت بيوتى أبيض
منطقة شرق التثليث	إيديوريت
غرب التثليث	ميكرودريت، وجرانيت أحمر
خشيم ذيب	بجماتيت[1] أحمر، وأبليت وردى اللون، وجرانيت بيوتى أبيض.
المتعرِّضات	بازلت متحول، وجرانيت هورنبلند أبيض، وإبيدوت في كوارتز معرَّق.
الدَّهثامى	جرانيت بيوتيتى أحمر، ودوليريت متحول
بالقرب من وادى رانية	ديوليت محزَّم
روضة ابن غنام	ريوليت أحمر
بئر ابن غنام	أبليت وردى اللون
هضبة شعْب الضَّاعة	جرانيت بيوتيتى هونبلندى، وإبيدوت فى كوارتز معرَّق.

(*) أبليت: نوع من الجرانيت. (المترجم)

(١) صخر نارى متبلر متباين الطبقات. (المترجم)

وادى قارة	شست كوارتز، وجنيس Gneiss دقيق الحبيبات
تربة	شست هورنبلندى، وبروفيرى كوارتز.

هذا دليل على عصر الصخور البركانية القديمة فى هذا الجزء من البلاد، أو إن شئت فقل: دليل على زمن تداخل الجرانيتيات، لكن هذه الجرانيتيات شبيهة بشكل عام بالصخور المتحولة والصخور النارية البركانية القديمة، التى فى صحراء مصر الشرقية على الجانب الآخر من البحر الأحمر.

لا توجد فى الوقت الحالى صخور وسيطة العصر بين تلك الصخور النارية وصخور الحجر الجيرى الجوراسية الحاوية لبقايا متحجرة التى جرى اكتشافها فى هضبة الطويق Tuwaiq الصخور الطباشيرية، شأنها شأن الصخور الجوراسية، عبارة عن حجر جيرى لونه سمنى شاحب، لكن قد توجد أيضا فى المنطقة نفسها طبقات من الرمل الهش، وهذه الطبقات هى التى تكون الطبقات السفلى المكشوفة فى ممر البويب. فى السليل وفى خشم آمور فى وادى الدواسر، نجد أن طبقات الحجر الجيرى الصفراء المكتنزة تقع فوق الحجر الرملى الأصفر. هذه الطبقات تحتوى على شظايا من الأصداف لكن لم يجر التعرف على أى من هذه الأصداف. جرى أيضا فى منطقة القاحة اكتشاف نوع من الحجر له لون الجلد، أو إن شئت فقل: لون أديمى.

جرى أيضا جمع أنواع أخرى من الحجر الجيرى السِّمنى اللون والمكتنز – لكنها لا تحتوى على بقايا متحجِّرة – من دكاكة برباك، ومن روضة برباك (فى الصُّمَّان)، ومن المنطقة التى بين الجيدة وسلسلة تلال الشوكية (فى الأحساء)، ومن جنوب الهفوف، ومن قليبة ومقينمة، ومن وادى الدواسر. ولا يوجد فى الوقت الحاضر دليل على العصر الذى تنتمى إليه هذه الصخور.

جرى اكتشاف عقيدات من العقيق الرمادى فى كل من أم النوسى والحفاير، جنوبى جابرين، كانت هناك أنواع من الصوَّان سنجابى اللون مبعثرة حول كل من

الحفاير وظربون. هذا الصوان هو والعقيق يرجح أنهما جرى الحصول عليهما من طبقات الحجر الجيرى.

صخور المايوسين ممثلة خير تمثيل فى جوب أنباك وفى نسلة بالقرب من أنباك. الطبقات الحاوية لبقايا متحجرة عبارة عن طبقات من الحجر الجيرى الصلصالى الأبيض أو المرل(*)، نظرا لكون كاربونات الكالسيوم فى حالة انقسام شديدة الدقة، والأرجح أنها فى حالة ترسيب كيمياوى. بعض هذه الترسيبات الكيمياوية متحدة مع الملح على شكل صخر صلب.

الطبقات التى فوق الطبقة الحاوية على بقايا متحجرة تتكون من الآتى:

رقم ١ – حجر جيرى وردى اللون حاو على أصداف صغيرة.

رقم ٢ – حجر رملى كلسى هش جداً، آجورى اللون.

رقم ٣ – حجر رملى كلسى أبيض وأحمر اللون.

توجد أيضا طبقات مماثلة للطبقتين رقم ٢و٣ فى جوب البعيج وفى الخرزة، وهذه الطبقات تكون فى الخرزه متحدة مع دماليك أو فُضَّات حصوانية. وفى قرن أبو وعيل بالقرب من سكاك تكون الصخور ذات العلاقة بحفريات عصر المايوسين المتحجرة عبارة، عن صلصال رملى لونه أخضر باهت مشبَّع بالملح، وصلصال كلسى وردى اللون مع الكربونات فى حالة انقسام شديدة جداً. هناك نوع مماثل من الصلصال الأحمر يجرى الحصول عليه من أبيار الجديرات .

أنواع المرل الأبيض شبيهة بالمادة التى يجرى حجرها لصناعة الأوانى الطينية فى المنطقة مابين الهفوف والمبرَّز. والمحاجر القريبة من الهفوف عبارة عن صلصال

(*) المرل: هو الطين الجيرى. (المترجم)

عمقه حوالى ١٠ أو ١٢ قدمًا لونه أخضر باهت، وصلصال وردى اللون مع جبس ليفى وألواح من السلينيت(*). لم يتم العثور على حفريات فى هذه الطبقات. هناك نوع آخر من الصلصال الذى يميل لونه إلى الاخضرار فى تل من التلال، بالقرب من عيون.

طبقات الحجر المكتنزة التى جرى العثور عليها فى مواقع متباينة تعد أمثلة جيدة على ورنيش الصحراء، الذى يجرى تسجيله غالبا فى الأقاليم الصحراوية الجافة، لون هذا السطح اللامع يتباين من اللون الجلدى إلى اللون السنجابى إلى اللون الطوبى، لكن أكثر الألوان شيوعا هو اللون الرمادى بمختلف ظلاله، اتضح أن السطح الصقيل فى بعض الشظايا رمادية اللون هو الجلد الحقيقى - أى أنه هو "الشوتزرند" Schutz-rinde الذى وصفه السيد جى والتر[1] Walther.

نوع من أنواع هذا الحجر الجيرى ذو اللون الرمادى الشاحب، والذى جرى إحضاره من ماموراً Mamura يحتوى على تجويف ويبدو أنه حجر جيرى نقى. وهناك نوع آخر لونه بنى كئيب، يحتوى على كمية كبيرة من حبيبات الكوارتز الزَّاوِّية الدقيقة على شكل أسمنت كلسيتى(**) خفى التبلور. يبدو أن الشوتزرند Schutzrinde الرمادى[2] يتكون على الحجر الجيرى، هذا الشوتزرند يوجد على كل من الأجزاء البارزة من النتوءات، وعلى القطع السائبة. وهو يغطى تماما بعض المجمدات الكلية.

(*) السلينيت: هو الجبس البللورى الشفاف. (المترجم)

(١) والتر Walther (جوهان Johanne). Das Gesetz der Wiistenbidung Gegenwart and vor zeit، Leipzig، 1912 p.p 144 - 153.

(**) الكالسيت: هو كربونات الكالسيوم البللورية. (المترجم)

(٢) مسألة أن اللون الرمادى هو والورنيش عبارة عن تأثير سطحى، توضحها عينة من الحجر الجيرى الصدفى البللورى ذو اللون الأصفر والمختلف تماما. هذه العينة جاءت من المليحة بالقرب من الخثيقان، وهو شبيه بأنواع الحجر الجيرى الطباشيرية.

الأماكن التى أحضر منها السيد فيلبى العينات هى:

الميتوى، وقليبة، وبئر فضيل، ورقة الشلفة، وبئر مُكَسَّر، وأيضا من بنى جفنان، ومامورة، وأبو مهيرات وشقة الحواية، وغرب أبو مهيرات. لم يكن الورنيش رمادى اللون فى الموقع الأخير، وإنما كان سنجابى وطوبى اللون.

توجد صخرة بارزة فوق سطح الأرض أكثر من اللازم بين رمال زويرة وغرب أبو مهيرات. تبدو هذه الصخرة من الوهلة الأولى على أنها من الحجر الجيرى المكون من حبيبات كروية يتراوح قطر الواحدة منها بين ١/٢ ملليمتر و ١ ملليمتر. يوضح الفحص الدقيقة لهذا النوع من الحجر الجيرى أن حوالى ٥٠ فى المئة من هذه الحبيبات، عبارة عن كوارتز شفاف، والباقى عبارة عن حبيبات مستديرة من الحجر الجيرى المُغلَّف بغشاء من كربونات الكالسيوم حديثة الترسيب. هذا الصخر يبدو وكأنه خليط صلد من الكوارتز والحجر الجيرى والرمل، وبذلك يكون هذا الصخر شبيهًا بتلك الصخور التى عثر عليها السيد برترام توماس[1] حول شناء. هذا الصخر ملحوم لحاما خفيفا بنوع من الأسمنت الكلسى، الذى يغطى أيضا الحبيبات الحتاتية، التى تجعل لهذه الأنواع من الحجر الجيرى سطحا كئيبا.

جرى فى الإقليم نفسه اكتشاف أحجار رملية كوارتزية هشة جداً ودقيقة الحبيبات، وتحتوى على مقدار صغير جداً من الأسمنت الكلسى، فى كل من أبو مهيرات، وآبال الخادم، وأم طينة. هذه النوعية من الأحجار لونها لون أديمى زيتونى أو لون أديمى فاتح، ولابد أن تحتوى على كمية قليلة جداً من أكاسيد الحديد التى تضفى لونا على الرمال الحديثة. فى عين سالة توجد بعض الرمال الصخرية خشنة الحبيبات نوعا ومن النوع نفسه. هذه النوعية من الحجر الرملى تتكون كلها من الكوراتز، الذى يصل قطر الحبيبة الواحدة منه إلى حوالى ١ ملليمتر، وتكون مدورة. يجب أن نلاحظ أن الحبيبات

(١) برترام توماس، اليمن السعيد، ١٩٣٢، صفحة ٢٠٧ .

الصغيرة من هذا الحجر الرملى تكون زاويّة angular أو مدورة تدويرا خفيفا. وعلى عمق حوالى ٢٢ قامة في بئر من الآبار التى في بئر فضيل، يحتوى الحجر الرملى على فقاعات صغيرة يتردد قطر الواحدة منها بين ٢و٣ ملليمتر.

قد تكون الأحجار الرملية النقية التى من هذا النوع ممثلة فى الصخور الأصلية التى جرى فيها العثور على كئوس البراكين النيزكية فى وبار. الصخور المحيطة بكئوس البراكين، والتى وصفها الدكتور سبنسر Spencer، فى ملاحظته التى أوردها عن الأحجار النيزكية، عبارة عن أحجار رملية سمنية اللون لها شكل مزجج عجيب. وقد أوضحت التحاليل التى أجراها السيد هى Hey أن هذه الأحجار الرملية تحتوى على نسبة ٩٢ في المئة من السليكا (الرمل). وتحت الميكروسكوب تبدو حبيبات الكوارتز، التى يصل متوسط قطر كل منها حوالى نصف ملليمتر. محطمة ومتعرجة بفعل مستويات الانكسار المتعددة. توجد مع هذه الأحجار الرملية كمية من المعدن الأبيض الشفاف والمسحوق، والتى تعمل رابطا، ولم يجر حتى الآن تحديد هذا المعدن تحديدا قاطعا، لكن يرجح لها أن تكون سيلكا Silica غير متبلرّة.

هناك أحجار رملية طباشيرية بيضاء واسعة التوزع والانتشار وشبيهه بتلك الأحجار التى عثر عليها الرائد د.إى.شيزمان Cheesman فى جبل غنيمه، بالقرب من الهفوف، هذه الأحجار تتكون من حبيبات صغيرة كثيرة من الكوارتز المدوّر مثبتة فى أسمنت كلسى أبيض شفاف. هذه الحبيبات خالية تماما من البقايا المتحجرة اللهم باستثناء موقع أو موقعين فى الحواية وبنى زينان، اللتين تحتويان حبيبات الصخر الرملى فيهما على Melanoids tuber culata.

التقى السيد فيلبى هذه الأحجار الرملية أول مرة على الحافة الغربية للنعلة، على الطريق المؤدية إلى الهفوف، كما تظهر هذه الأحجار الرملية مرة أخرى على شكل مجموعات من أم الخيسة، وعيون، وسلسلة تلال ثوير. هنا وفى الخرزة تشكل هذه الأحجار الرملية سلاسل من التلال الرملية، التى يتخللها فى الخرز

شــىء مــن الحـصى النـاجم عن الزلط. هذه الأحـجـار الرملية تظهـر خلف الهـفوف على شكل سلسلة التـلال الرمليـة التى بين الخين وجـابرين، مُشَكِّلةً بذلك روابى عند الحافـة الجنوبيـة للصـمَّـان وعلى بعد مـسـافـات تصل إلى أدراج، وإلى الحواية وبنى زينان، والرميلة.

وقد عثر الرائد شيزمان على الصخور نفسها إذ يتكون منها جبل جوامير، وجبل جابرين الوسطى.

عثر الرائد شيزمان على هذه الصخور الرملية فى جبل جوامير، تحت طبقة من الحجر الرملى الوردى ملتحمة معه بواسطة الملح. عثر السيد فيلبى على حجر رملى مكتنز، لكن مع أسمنت كلسى أسفل أحجار رملية طباشيرية بيضاء فى الخرزة، وربما أيضا فى جوب بعيج.

ليس هناك دليل يقـينى على العـصـر الذى تنتـمى إليـه هذه الصــخـور الرمليـة الطباشيرية، والمؤكد أن هذه الصـخور أصغر من عصر المايوسين **Miocene**، والأرجح أن هذه الصخور الرملية أصغر عمرا من الزلط الذى يكون السهول الحجرية.

وجود عنصر **Melanoids Luberculata** فى هذه الصخور الرملية فى بعض المواقع يدل على ترسب الرمال فى الماء فى هذه الأماكن، لكن يمكن أن تكون المادة الأسمنتية اللاصقـة، قد جرى استـخلاصـها من التـسييل التـدريجى للمحـاليل الغنيـة بكربونات الكالسيوم (والأرجح السلفات)، كما هو الحال فى "الأحجار الجيرية السطحية" فى بعض أجزاء جنوب أفريقيا. مسألة توفر إمدادات أملاح الكالسيوم، تتضح من مسألة تسود الرسوبيات الجبسية السطحية والتجمدات الكلسيَّة فوق الجزء الأكبر من المساحة التى تستغلها الأحجار الرملية "الطباشيرية".

هناك بعض آخر من الأحجــار الــرملــية الكـلسية ذات الفقاقيع، والتى جاءتنا من رقة الشلفة ومن الحافة الشرقية لساهمة، هذه الأحجار فيها أيضا مادة لاصقة كلسيـة بيضـاء، شأنها فى ذلك شأن الأحـجار الرمليـة "الطباشيرية"، وقد تكون هذه

أيضا رسوبيات سطحية. وقد عثر الرائد شيزمان على صخر مماثل موجود تحت أنوا ع من الزلط السائب في صحراء الجافورة.

هناك دماليك حقيقية فيها فقاقيع مدورة متآكلة بفعل الماء لا توجد إلا في مجرى وادى سحبة ووادى الدواسر. هذه الدماليك تشكل هضاباً صغيرة مدورة بالقرب من برزان، حيث توجد الدماليك فوق الحجر الرملى. هذه الدماليك تحتوى على فقاقيع الحجر الرملى، وعلى فقاقيع الكوارتز، والجرانيت، إلخ والمادة اللاصقة هى الرمل، مع غشاء رقيق من الجبس يحيط بهذه الفقاقيع في معظم الأحيان. المادة اللاصقة في دملــوك وادى سـهـبـة أكـثـر كلسـيـة وتشـبـه المادة اللاصـقـة فى الـحـجـر الرملى "الطبــاشـيـرى". هناك دملوك من وادى رانيـة مظهـره وشكله يدل على أنه زلط جرى لصقه مؤخرا.

رسوبيات الماء العذب: الأرجح هو أن الطمى هو تلك المادة الكلسية الناعمة ذات اللــون السنجابى الفــاتح، التى تــأتى مــن النميلة وشقة الخلفات. فى شقة الخلفات يكون مصحوبا بأصداف الماء العذب Unio ، التى أبلغ عنها السيد جى.سى.روبسون . هذا الطمى يتكون من حـبيبات زايوة دقـيقـة (١٤, ٠ ملليمـتر) من الكوارتز والمعادن الأخـرى والتـراب الكلسى. ومن الســهــولة بمكان أن تذرو الريح هذه المادة، أثناء العواصف الترابية، وتنقلها إلى البرك والمياه الراكدة.

الصخور البركانية: سوف نتناول فيما بعد بعض شظايا البازلت التى جرى العثور عليها على سطح الصحراء حول منطقة عوج وأم الحديد، التى تبعد مئات الأميال عن أى مركز من مراكز البراكين المعروفة. شاهد السيد فيلبى أقرب البراكين الخامدة فى المنطقة المجاورة لبلدة تربه (حرة البجوم وحرة النواسيف). العينات التى جرى جمعها من أبال رياط فى هذه المنطقة هى عبارة عن "قنابل" بركانية وقطع بازلتية من حيث المعدن المصــهـور ولــونـها هــو اللـون الأحمـر الكئيب المعتاد، لكن تجىء من عـان (غربى تربة) عينة حمراء أخرى من التراكيت(*) المتأثر بعوامل الطقس، الأمر الذى

(*) التراكيت: صخر بركانى دقيق الحبيبات. (المترجم)

يكشف عن بعض الصلات والعلاقات ببعض الحمم البركانية فى الإقليم الحبشى، هذه الحمم البركانية ثلاثية الأصل وأكثر حرارة من تلك الصلات والعلاقات. جمع المزيد من هذه اللابات أو إن شئت فقل: الحمم البركانية، وبخاصة التراكيت، من هذا الإقليم، يمكن أن يؤدى إلى اكتشاف مادة شديدة الأهمية.

(٣) السهول الزلطية والأحجار السيارة

تمثل السهول الزلطية العظيمة التى عبرها السيد فيلبى أكثر التشكيلات الفقّاعية جمالا وتباينا. هذه السهول كلها مصقولة بفعل حركة الريح، ومن ثم فهى تكشف عن ألوانها الجميلة، وعن خصائص هذه الأحجار على أفضل نحو ممكن.

هذه الأنواع من الزلط كانت موضوعا لملاحظة مقتضبة وردت فى الملحق رقم ٢، فى كتاب الرائد د.إى. شيزمان Cheesman المعنون "فى المجهول من الجزيرة العربية"، (الذى نشرته دار ماكملان وشركاه، فى العام ١٩٢٦ فى مدينة لندن بالمملكة المتحدة). عثر الرائد شيزمان على هذه السهول الزلطية ووجد أنها تمتد من حراملبا، فى صحراء الجافورة، وعبر سهل سراميد و (جنوب وادى سحبة) إلى جبل عقولة الذى يبعد خمسة عشر ميلا عن جابرين، أما السيد برترام توماس Thomas فقد عبر هذه السهول الزلطية من أقصى الشرق، شمالى بنيان فى منطقة جوب وشمالى سنام . أما السيد فيلبى فقد صادف هذه السهول أول مرة فى كل من مترب وخرزة حيث بدءا من زبارة محميد إلى هضبة البدوع. وقد جرى جمع عدد قليل من الفقاقيع من منطقة عوج، ثم يجرى تتبع هذه السهول الزلطية مرة أخرى بدءا من مقينمة إلى طويريفة. وأمكن العثور على رقعة أخرى منعزلة من هذه السهول فى كل من أم الحديد وإبراهيمة.

هناك أيضا سهل زلطى فى أقصى الجنوب الغربى، والسبب فى ذلك أن السيد فيلبى جمع بعض الفقاقيع الشبيهة بفقاقيع الشمالية، فى كل من شامة، وأبى بحر ، وهضبة فرشة.

فقاقيع هذه السهول هى الفقاقيع نفسها التى سجلتها مجموعة الرائد شيزمان: كوارتز، وأنواع أخرى من الحجر الجيرى السنجابى اللون وأصفر اللون، والمختلط ببعض البرقشات سوداء اللون، وريوليت أسود وريوليت وردى غامق، وبروفيرات الكوارتز، وطفات[*] بركانية.

الأنواع الوحيدة فى مجموعة فيلبى، والتى تعد نادرة تماما فى العينات التى جاء بها الرائد شيزمان، عبارة عن أنواع من الجرانيت الأبيض والجرانيت الأحمر صغير الحبيبات[1].

عند مناقشة مشكلة أصل الزلطيات التى صادفت الرائد شيزمان قيل "نحن لا نعرف المصدر الأصلى لهذه الفقاقيع". كان ذلك هو الموقف فى العام ١٩٢٦ الميلادى، لكن السيد فيلبى نجح فى حل هذه المعضلة حلاً مرضيا.

يرى السيد فيلبى أن الكتلة الواقعة غربى الخط الذى يمتد من كل من بيشة والتثليث (جنوب شرق مكة)، إلى الدوادمى (غرب الرياض)، هى كتلة من الصخور النارية القديمة والصخور المتحولة، وأن هذه الكتلة هى بمثابة العمود الفقرى فى هذا البلد. وفى الجزء الشرقى من جزل إلى تربة عثر فيلبى على تشكيلة من الجرانيت الأحمر والأبيض، والبروفير غامق اللون، والبروفير البنى، والمحزَّم، والريوليت الأحمر الغامق، والكوارتز المعرَّق (المختلط غاليا بالأبيدوت)[**]. هذه الأنواع من الفقاقيع متوفرة فى الزلطيات وليس هناك ما يدعو إلى البحث عن أصلها فى أشياء أخرى غير الزلطيات. وعليه يمكن لنا أن نعزو بصورة محددة فقاقيع المنطقة الجنوبية (من ساهمة إلى هضبة فرشة) إلى هذه الصخور النارية القديمة

(*) الطفة: بتشديد الطاء وفتحها هى: الصخر الفتاتى الذى يتجمع من مقذوفات البراكين. (المترجم)

(١) جرى العثور على قطعة من الجرانيت الأحمر فى قصر دهباش (جابرين)، وكذلك القطعة التى عثر عليها الرائد شيزمان، فى ناتج حفر البئر القريبة من جبل جوامير، يمكن أن تكون شظية من هذا الحجر.

(**) الأبيدوت: سليكات الكالسيوم والألومنيوم والحديد المميأة. (المترجم)

البارزة فى أقصى الغرب، والممتدة بطول وادى الدواسر، وبالتالى يمكن لنا تحديد مصدر غربى لهذه السهول الزلطية المترامية فى كل من الجافورة والصمَّان.

الأدلة على عصر الزلطيات جد نادرة. يزاد على ذلك أن الفكرة التى وردت ضمن الملاحظة الواردة عن مجموعة الرائد شيزمان، والتى مفادها أن هذه العينات تنتمى إلى عصر البليوسين Pliocene، متماثلة مع سلسلة الفقاقيع التى جرى جلبها من بكتيارى فى العراق، هذه الفكرة هى مجرد تخمين، ومع ذلك قد تكون هى الأقرب إلى الحقيقة. ومن موقع هذه العينات (الفقاعات) نسبة إلى الصخور معروفة العصور، يمكن القول إن هذه الفقاقيع تنتمى بالقطع إلى عصر ما بعد الميوسين Miocene. زد على ذلك أن علاقة هذه الفقاقيع بالحجر الرملى الطباشيرى فى كل من جابرين والهفوف ليست واضحة، لكن بعض الأدلة تشير إلى أن هذه الفقاقيع أقدم من هذه الصخور، التى يمكن، كما سبق أن قلنا، أن تكون تكوينا سطحيا متأخرا أو شبه متأخر.

الامتداد الشاسع لهذه السهول الزلطية يثبت أن هذه السهول أكثر اتساعًا من الرسوبيات التى فى كل من وادى سحبة ووادى الدواسر، وأن هذه السهول الزلطية أقدم بكثير عن أحواض الوديان التى تأثرت بعوامل التعرية.

فقاقيع الحجر الجيرى الأصفر اللون والسنجابى اللون فى هذه السهول الزلطية توضح توضيحا تاما الآثار الكبيرة الناجمة عن التآكل بفعل المحاليل، والذى يحدث عندما تكون فقاقيع الحجر الجيرى مدفونة فى الرمل الرطب الموجود أسفل السطح. هذه الفقاقيع المتآكلة تكون واضحة ومعروفة تماما عندما توجد فقاقيع الحجر الجيرى فى الصحارى الرملية. كان الناس يعتقدون منذ زمن بعيد أن تكوين المجارى المائية إنما يكون بفعل عمل الرياح وتأثيرها، لكن الآن أصبحت المجارى المائية تحدث بفعل تأثير الذوبان. هذا الذوبان يتجلى تماما فى بعض أنواع الحجر الجيرى التى تحتوى على المرجانيات سالفة الذكر، إذ يظل المرجان واقفا بعيدا عن مادة الترابط المحيطة به. عمل الريح، الذى تنتج عنه لافحة رملية طبيعية، يسفر عن تلميع الأحجار وصقلها، وليس خدشها أو الحفر فيها، يزاد على ذلك أن تكوين الأحجار التى تؤثر الريح فى

أسطحها، والتى تعرف باسم الحصيات الرياحية(*) Ventifacts ، أو الحُصَيَّات ثلاثية القرن Dreikante يتجلى بكل مراحله تجليا واضحا فى الحجر الجيرى.

هناك شكل شائع من هذه الفقاقيع له قاعدة طويلة بيضاوية، وله جانبان منحدران انحدارا هينا، وكلاهما مصقول ويلتقيان عند حافة منحنية انحناء هينا، شكل آخر من هذه الفقاقيع طويل جدا ورفيع ومدبب من الطرفين مثل المغزل. الشكل الأكبر شيوعا عبارة عن أقراص دائرية لكل منها سطح مفلطح ومصقول إلى حد ما. هذه الأشكال ناتجة عن تقصير الفقاقيع الدائرية المفلطحة التي توجد بكثرة فى السهول الزلطية. واستناداً إلى الدكتور إيه. واد Wade الذى قام بدراسة دقيقة للفقاقيع الرياحية فى مصر، فإن هذه الفقاقيع تمثل المرحلة الأخيرة من تقطيع الأحجار، نظرا لأن السطح الصقيل يكون على مستوى واحد مع سطح الرمل.

الأحجار السيَّاره: يعتقد العرب أن هناك بعضا من الصخور يتجول هنا وهناك فى الصحراء، تاركة وراءها أثرا فى الرمل. وهم يعزون هذه القوة إلى الأرواح. والرجل المرِّى الذى تولى إرشاد الرائد شيزمان، قص للرائد شيزمان أثر هذه الصخور فى الرمل، ورسم الرائد شيزمان لهذه الأحجار ما يشبه تماما رسم أى شىء له ذيل طويل متعرج، وهذا الذيل يحتوى على كثير من العقد غير المنتظمة. وقد وصف الرجل هذه الأحجار بأنها مدوَّرة، وأن حجمها فى حجم بيضة الدجاجة، ثم أحضر بعد ذلك حجرا بيضويا معرَّقا بالكوارتز بأبعاد ٦×٥×٥ سم، قال: إنه واحد من الأحجار التي يقال: إنها تمشى(١). ومع ذلك لم ير أى فردٍ من أفراد جماعة شيزمان أيا من هذه الأحجار وهى تتحرك حتى نهاية مساره، على الرغم من أن الجنود عينوا واحداً منهم يعرف حدود المسار معرفة جيدة، ليرافق المرشد الذى بقى مسروراً إلى أن اكتشف الحيلة.

عاد السيد فيلبى بالعديد من هذه "الأحجار السيَّارة". أكبر هذه الأحجار "عثر عليه اثنان من أعضاء الجماعة شاهدا الآثار أولا، ثم تتبعاه فى الأسفل عند حباكة

(*) الحصيات الرياحية: هى حصيات صقلتها الرياح المحملة بالرمال. (المترجم)

(١) راجع الرائد شيزمان، فى كتابه المعنون "فى المجهول من الجزيرة العربية" لندن، ١٩٢٦، صفحة ٢٣٠ و ٢٨٣ .

قعاميات. هذا الحجر السيار عبارة عن فقاعة أسطوانية ناعمة من الحجر الجيرى طولها حوالى ١٢سم وعرضها حوالى ٦ سم وتزن حوالى ٦٧٠ جرامًا. هناك حجر سيار آخر من طويريفة، وهو عبارة عن حُصَيَّة ثلاثية القرون Dreikanta، وشكلها شكل المثلث إلى حد ما، طولها حوالى ٤سم، وتزن حوالى ٢٦ جراماً. وإذا كان الحجر الأول يستطيع التدحرج بسهولة، فإن الثانى لا يستطيع سوى الزحف!

هناك "حجر سيار" من نوع ثان مختلف تماما، هذا الحجر عُثِرَ عليه فى الطويريفة. هذه الحجر عبارة عن نصف قطعة مستديرة من خبث معدنى بازلتى أسود إسفنجى الشكل إلى حد بعيد جداً، ويزن حوالى ١٨ جراماً، وقطره حوالى ٤سم. هناك حجر آخر، وهو أكبر من الحجر السابق وهو شبيه إلى حد كبير بالحجر الخبثى البازلتى، وقد أحضر السيد فيلبى هذا الحجر من بئر فضيل. هذا الحجر يزن ٢٠٧ جرام، وأبعاده على وجه التقريب ٩×٥×٥ سم. ولم يتضح لنا ما إذا كان هذا الحجر "سيارا"، أم أنه مجرد حجر فقط من "النوع الذى يمشى"، لكن مهم أن نجد بين مجموعة سابقة أرسلها إلينا السيد فيلبى، قطعتين خبيثتين بازلتيتين لونهما بنى مائل إلى الاحمرار، جاء بهما السيد فيلبى من حرَّة الكشب بالقرب من الطائف (المتحف البريطانى، العام ١٩٣١، ٤٣٠، ١)، واللتان "شاهد الأمير عبد الله أثرهما إلى مسافة تقدر بحوالى خمسين ياردة".

يجب ترك مسألة ذيوع الاعتقاد فى الأحجار السيارة إلى أناس آخرين، على أن تضاف إلى هذه المسألة مسألة أخرى. كيف وصلت الشظايا الإسفنجية البازلتية الخبيثة إلى الصحراء؟

يقول العرب: إن قطعا مثل هذا الحجر من بئر فضيل يجرى العثور عليها بين الحين والآخر على سطح الرمل. وقد سبق أن عرفنا أن الجماعة عثرت على حجر آخر فى طويريفة.

التأكد من أن هذه الأحجار عبارة عن خبث بازلتى، ثم عن طريق تحليل كيمياوى كمى كامل قام به السيد م.هـ.هى Hey. وقد جاء التركيب متفقا تماما، مع تحليل بعض أنواع اللابا (الحمم البركانية).

إلى جانب هاتين القطعتين الخبيثتين، جرى أيضا العثور على شظيتين بازلتيتين: إحداهما فى عوج، والأخرى فى أم الحديد، ولا علاقة لهما "بالأحجار السيارة". هاتان القطعتان من البازلت الحقيقى فعلا: القطعة الأولى لها طابع الزجاج، وهى إسفنجية إلى حد بعيد جداً وتشبه "حجر" طويريفة "السيار" إلى حد بعيد، القطعة الأخرى متبلورة إلى حد بعيد، ومن البازلت زيتونى الليل، وهى شظية زاويةٌ، وإسفنجية إلى حد ما، وليست متآكلة تماما بفعل الماء، لكنها مصقولة بفعل الريح.

هاتان القطعتان البازلتيتان، هما من "الأحجار السيارة" التى من الخبث البازلتى جرى العثور عليهما على بعد مسافة تقدر بحوالى ١٥٠ ميلاً عن الطريق الذى سلكه فيلبى. وعلى الرغم من العثور على هذه الأحجار فى منطقة السهول الزلطية، لم يجر العثور على أحجار أخرى بين فقاقيع الزلط ومن غير المحتمل أن تكون هذه الأحجار قد انتقلت عن طريق الماء. يزاد على ذلك أن أقرب منطقة بركانية تقع فى المنطقة المجاورة لبلدة تربة على بعد حوالى ٦٠٠ ميل شرقى الطائف. ليست هناك أية إشارة إلى أى بركان لم يجر اكتشافه فى الربع الخالى، ولذلك يبدو البازلت وكأنه لا ينتمى إلى هذه المنطقة من الصحراء على الإطلاق[١]. التفسير الوحيد هو أن هذه الأحجار جرى حملها وإسقاطها بواسطة العرب، والتى مفادها أن مسحوق الأحجار التى من هذه القبيل يستعمله العرب (البدو) دواءً للعينين.

(٤) الرمال

رمال الربع الخالى هى رمال ذات طبيعة واحدة ولا تحتاج إلى تعليق طويل، هذه الرمال كلها مكونة من الكوارتز مدور الحبيبات ومتوسط، قطر حبة الرمل يقدر بحوالى ٠,٧ ملليمتراً. بعض هذه الرمال تحتوى على خليط من الكوارتز الأصفر الشاحب،

(١) جرى إحضار القطعتين الأخريين من رحلة سابقة إلى عشيرة بالقرب من الطائف.

واللون الغالب على الرمال هو اللون الرمادى اللامع، هناك فى عين سالة نوعية من الرمل البرتقالى الفاقع، هذه النوعية من الرمل مكونة من حبيبات كاملة الاستدارة قطر الواحدة منها حوالى ملليمتر واحد، وهذه النوعية تعد استثناء من الرمال كلها. الواقع أن كل عينة من العينات التى جرى فحصها تحتوى على حبيبات من الحجر الجيرى، الذى يتسود هذه المنطقة، وقد كان السيد برترام توماس أول من لاحظ هذا التسود فى مجموعة العينات التى أتى بها الرجل. حبيبات الحجر الجيرى بيضاء اللون وبنية اللون أيضا، وهى عادة من بين المكونات الدقيقة إذ يصل متوسط قطر الواحدة منها إلى ٠,٧ ملليمتراً. ومع ذلك، نجد أن هذه الرمال تحتوى، فى بعض الأحيان على كريّات من الأحجار الرملية "الطباشيرية" البيضاء، ومن الحجر الجيرى السنجابى اللون أو الرمادى الذى يصل عرض الحُبَيْبة حوالى ٢ أو ٣ ملليمترات. لم يجر بعد تحديد المعادن الثقيلة التى فى هذه الرمال، لكن الجلوكونيت(*) الأخضر الذى لاحظناه فى العينات التى جاء بها السيد برترام توماس يظهر فى معظم الأحيان على شكل حبيبات منعزلة. وقد لاحظنا أيضا فى كثير من الأحيان وجود حبيبات الفلسبار المدوّرة. ومن وجهة النظر المعدنية فإن "رمال" نايفة "المغنية" ليست لها خصائص عجيبة أو غريبة. هذه الرمال تتكون أصلا من الكوارتز على شكل حبيبات كاملة الاستدارة متوسط قطر الواحدة منها ٠,٣ ملليمتر، وأكبر قطر بين هذه الحبيبات يصل إلى حوالى ٠,٧ ملليمتراً. وإلى جانب الكوارتز هناك أيضا حبيبات بيضاء صغيرة وحبيبات بنية صغيرة أيضا، وكلها أيضا من الحجر الجيرى، كما توجد فى بعض الأحيان حبيبات من الفلسبار.

(٥) التكوينات السطحية

كربونات الكالسيوم: تحدث التجمدات الكلسية فى أشكال مختلفة فى معظم المواقع والأماكن التى على طريق السيد فيلبى فيما بين عين سالة والحواية. هذه

(*) الجلوكونيت: هو سيليكات البوتاسيوم الحديدية. (المترجم)

الكتل الكلسية جرى جمعها من خارج هاتين المنطقتين، وبخاصة من منطقة رقة الشلفة، وطويريفة، وأم الحديد وبنى زينان.

وتسهيلا لعملية الوصف قمنا بتقسيم هذه الكتل الكلسية إلى ثلاثة أنواع:

(١) رقع من الأرض غير منتظمة الشكل تماما يرجح أن تكون تكونت فى الرمال عن طريق تَسيُّل المحاليل الكلسية إلى أعلى. وعندما يجرى إبعاد الرمل تظهر هذه الكتل الصلبة التى غالبا ما تكون صقيلة بفعل الريح. بعض هذه الكتل تكتسى معطفا أو قشرة رمادية لامعة، ثم تبدو بعد ذلك كما لو كانت قطعًا من فحم الكوك العامر بالخلايا.

(٢) قشور صلبة متكونة على سطح الحجر الجيرى أو الرمل. الصخر الموجود داخل هذه القشور يكون طريا بفعل الطقس، ويمكن نقله فى النهاية، مخلفا وراءه القشور الكلسية المجوفة أو الشظايا المصفحة.

(٣) التجمدات الأنبوبية. هذه التجمدات أو الكتل تكون مستقيمة فى معظم الأحيان ويصل قطر التجمد الواحد إلى حوالى ١ ملليمتر. ويندر أن تكون هذه التجمدات أو التكتلات منحنية مثل الجذور. وعادة ما تكون هذه التجمدات مجوفة. ويرجح لهذه التجمدات أن تكون قد تكونت حول جذوع أو جذور النباتات فى الرمل. هذه التجمدات ليست شائعة فى المجموعة، لكنها تمثلها عينات جرى جمعها فى المنطقة ما بين حض أبو خشبة والحواية.

هذه الرسوبيات الكلسية على النطاق الأوسع حدثت ذات مرة فى عين سالة. من عين سالة قام السيد فليبى بجمع عدد كبير من قطع الطوفة(*) شبه الإسطوانية، وكل قطعة من هذه القطع تغلف طوفة إسطوانية ناعمة الجدار. قطر كل أنبوبة من هذه الأنابيبت يتردد بين ١ – ٢ سم، ويصل طول الواحدة منها إلى ١٥ سم. هذه الأنابيب

(*) الطُوفة : صخر جيرى مسامى محبب يترسب حول الينابيع. (المترجم).

ناعمة الملمس من الداخل وقطرها موحَّد من البداية إلى النهاية. قد تحتوى بعض قطع الطوفة هذه على أكثر من أنبوب، وفى الحالات التى تكون من هذا القبيل تصبح الأنابيب شبه متوازية أو منحرفة انحرافًا طفيفًا جداً. عندما تكون الأسطح الخارجية لقطع الطوفة شبه أسطوانية، فإن هذه الأسطح تصبح غير مستوية وكثيرة المسام، شأنها فى ذلك شأن الطوفة الكلسية تمامًا أو الترافرتين(*). بعض هذه الأسطح تكون ناعمة فى بعض أجزائها وصقيلة بعض الشىء بفعل الريح.

بقيت مسألة تلك الأنابيب المكسية بالطوفة لغزًا بلا حل فترة من الزمن. قال البعض إن جذور النباتات وسيقانها هى السبب، لكن الأنابيب بلغت من النعومة ومن الاستقامة واتساق القطر حداً ينفى أن جذور النباتات وسيقانها هى السبب. وجاء تفسير هذه المسألة بالمصادفة البحتة من العقيد جى. ك. روبرتسون Robertson، الذى خطرت بباله رؤيته لأنابيب شبيهة بهذه الأنابيب فى الطوفة الكلية التى جاء بها من شرق الأردن. وبناء على ذلك تكرم الرجل بإرسال عينة إلى المتحف البريطانى عن طريق السيد جى. إى. جى بالمر Palmer. هذه العينة مكونة من ساق من غاب الأرندو Arundo قطره يصل إلى حوالى ١٤ ملليمتراً، ومكيَّس تكيساً تامًا لما يزيد على ٤٠ سم من طوله بطوفة كلسية أسطوانية، ولها تركيبة مشعَّة. وبعد نزع الأنبوبة عن الساق وُجِد أن الأنبوبة كانت ناعمة تمامًا من الداخل ولها قطر شديد الاتساق أيضًا. كانت هناك انتفاخات عند النُّدب على السطح الخارجى للكيس الطوفى. وعندما قمنا بمقارنة عينات السيد فيلبى الأسطوانية بتلك العينة لم يكن هناك أى شك فى أن هذه الأنابيب هى الأخرى عبارة عن تكيسات من سيقان الغاب.

جرى العثور على عينة شرق الأردن هذه بواسطة واحد من السادة رندل Rendel، أو بالمر Palmer، أو تريتون Tritton، الذين كانوا مهندسين فى مجرى وادى زهار، الذى هو رافد من روافد وادى العرب، على الجرف الشرقى لوادى الأردن.

(**) ترافرتين: ترسبات جيرية من مياه الينابيع الحارة. (المترجم).

يمكن لنا في ضوء هذا التحديد، وفي ضوء وفرة الإسطوانات المجوفة المبعثرة هنا وهناك، التوصل إلى استنتاج مفاده: أنه كان هناك حوض من الغاب نما في عين سالة في تاريخ (جيولوجي) ليس ببعيد جداً. وعليه يمكن لنا الربط بين هذا المجرى (الحوض) الغابي والزمن الذي عاشت فيه أصداف الماء العذب التي ورد ذكرها في تقرير السيد كوكس، وسبب ذلك أن السيد فيلبي جاء أيضًا بعينة وحيدة من الطوفة فيها ثقب ناجم عن ساق الغاب. هذا هو التسجيل الوحيد الثاني لتذكارات أزمان الرطوبة.

الجبس – يبدو أن الجبس كان واسع الانتشار على شكل قشور سطحية في كثير من مناطق الطريق التي سلكها السيد فيلبي. وقد جرى جمع عينة من الطوفة صغيرة الحبيبات من كل من ضريون، وعوج، وبئر بن جُهيِّم. وفي ضريون توجد قشرة الجبس فوق حجر رملي وردي اللون. وفي أقصى الجنوب تظهر بعض الرسوبيات الجبسية المماثلة لهذه القشرة، في بني جفنان وأبي خشبة (مكشوف في إحدى الصخور الشاهقة)، وعلى طول الطريق من شنَّاء إلى أبي مهيرات.

في بعض المواقع القليلة تكون كتل الجبس على هيئة تجمعات بللورية شديدة التفلطح ومخططها دائري إلى حد ما. وقد جرى العثور على هذه التجمعات، وفي جوب بعيج في أم النوسي وفي بئر الحفاير .

التجمدات الأنبوبية موجودة في أماكن كثيرة والأرجح أن هذه التجمدات تكونت حول جذور النباتات أو سيقانها شأنها شأن الأنابيب الكلسية التي جرى وصفها آنفًا، واقع الأمر أن هذه الأنابيب تتكون في بعض أجزائها من كربونات الكالسيوم. الجدار الداخلي لهذه الأنابيب يكون في معظم الأحيان مبطنًا بالجبس على شكل مسحوق، شبيه بذلك الجبس الذي يغطي سطح "الطوقة الجبسية" في معظم الأحيان.

بالإضافة إلى هذه الطوفات والتجمعات السطحية، عثر السيد فيلبي في كثير من المواقع، على بللورات الجبس المعبَّأة بحبيبات الكوارتز التي أحاطت بها أثناء نموها

فى الرمل الرطب[١]. هذه البللورات مألوفة ومعروفة لزوار تونجورت Tonggourt فى الجزائر باسم "ورود الصحراء"، وهذه البللورات لها لون أديمى مائل إلى اللون الوردى، وسطحها الخارجى سداسى إلى حد ما، وعدسية الشكل فى القطاع المستعرض. القسم الأكبر من العينات الجزائرية يوجد على شكل مجموعات، لكن البللورات التى عثر عليها السيد فيلبى فى الجديرات عبارة عن بللورات فردية سائبة قطر الواحدة منها ٨ سم.

البللورات التى جرى العثور عليها فى مناطق أخرى لها شكل مختلف. وهذه البللورات شبيهة بالهيئة التى عليها البللورات الجبسية الشائعة التى تحتوى على "الكليفوبنياكويد" (٠١٠) Clinopinacoid والأهرامات (١١١)، ولكن المنشورات هى والقباب المتعامدة لا تمثلها سوى أشباه التجاويف المتكهفة. بعض هذه البللورات يزيد طول الواحدة منها على عشرة سنتيمترات. يجرى من حين لآخر العثور على بللورات توأمية من النوع الذى يعرف باسم ذيل الخطاف. تتكون فى معظم الأحيان بللورات أصغر وأفضل تكويناً، ولاتزال تحتفظ بسطحها المنشورى.

جرى العثور على بللورات من هذه الأنواع فى كل من: عين سالة، ومنيفة، وزقريط، ومامورة، وطريوة وبئر ابن سويليم.

توجد البللورات الأصغر من ذلك على شكل تجمعات وردية اللون أو سنجابية اللون. والرمل يكون سميكًا فى هذه الأنواع من البللورات، الأمر الذى يجعل هذا الرمل يبرز من سطوح هذه البللورات، على نحو تبدو معه وكأنها مكونة كلها من حبيبات الكوارتز، ويترتب على ذلك عدم إمكانية الكشف عن الجبس المكون لهذه الكتل، حتى وإن استخدمت العدسات فى ذلك. فى بعض الأحيان قد تكون حبيبات الرمل أكثر من الجبس، الأمر الذى يؤدى إلى عدم وضوح الشكل البللورى التحتى وضوحاً تاماً.

---

(١) طريقه نمو هذه البللورات شبيهة بالبللورات الكلسية، المعبأة بالرمل فى فونتنبلو Fontainebleou، التى تحتوى على نسبة من الرمل تتردد بين ٦٠ و ٨٠ فى المئة.

جرى العثور على الجبس فى أشكاله الأخرى، التى من قبيل الألواح الشفافة التى تعرف باسم السلينيت(*) وكذلك المرمر، فى المحاجر الصلصالية فقط بالقرب من الهفوف و(المرمر) فى جوب جديرات وعلى شكل قطع صغيرة فى جوب أنباك. هذه القطع والاكتشافات يُرَجَّح أن تكون لها علاقة بأحواض الميوسين Miocene فى هذه المناطق.

الليمونيت(**) - "قشرة الحديد" التى يشيع وجودها فى كثير من التكوينات الرملية ليست موجودة بصورة متكررة فى الربع الخالى. العينات الثلاثة، التى افتُرض فى البداية أنها تمثل كتلاً مستديرة من "قشرة الحديد"، أثبت الفحص والتحليل الدقيق أنها أحجار نيزكية شبيهة بالحجر النيزكى الذى عثر عليه السيد برترام توماس فى منطقة بواح فى سواهيب. وهذه العينات الثلاث لها مذكرة خاصة بها[1].

جرى الحصول على عينة من الليمونيت صقيل السطح تماماً من منطقة ظبا فى عارمة، وعلى شكل "قشرة الحديد" وتجمعات حديدية أنبوبية تظهر على السطح بالقرب من الدغم فى منطقة الرياض.

(*) السلينيت: هو الجبس البللورى الشفاف. (المترجم).

(**) الليمونيت: هو أكسيد الحديد المائى. (المترجم).

(١) راجع المذكرة المعنونة "الأحجار النيزكية التى جاءت من سواهيب، فى الجزيرة العربية"، بقلم و. كامبل سميث W.Campell Smith فى مجلة المعادن، بتاريخ مارس من العام ١٩٣٢، المجلد الثالث والعشرين.

٢ - الاستراتيجرافية(*) وعلم الإحاثة(**)

بالمتحف البريطانى

بقلم ل. ر. كوكس Cox ، ماجستير فى الآداب - قسم الجولوجيا

(١) الصخور الجوراسية وجبل طويق

أثبتت الرحلات السابقة التى قام بها السيد فيلبى أن هضبة الطويق، التى تشكل حافتها الغربية، جرف مستمر، يتردد ارتفاعه بين ٥٠٠ و٨٠٠ قدم، من وادى الدواسر فى الجنوب إلى ما وراء الزلفى فى الشمال - أى مسافة تزيد على ٤٠٠ ميل - وأن هذا الجرف مكون من صخور جوراسية. وفى الناحية الغربية مباشرة من السهل توجد رقع مترامية من الحجر الجيرى المكشوف، الذى يرجع إلى عصر سابق لعصر صخور الجرف، لكن إلى يومنا هنا لم نحصل من تلك الصخور على أية حفرية من أى نوع كان. وفى أقصى الغرب وإلى أن نصل إلى مُرَكَّب الصخور النارية فى غرب نجد وفى جنوبها الغربى، نجد أن الصخور الأقدم عمراً تغطيها أقنعة زلطية واسعة الانتشار. الحفريات القليلة التى جرى الحصول عليها من ثلاثة مواقع على هضبة الطويق (بكَّين Bakkain) فى شمال غربى الرياض، وعشيرة، وحَمار

(*) الاستراتيجرافية هى علم (وصف) طبقات الأرض. (المترجم)

(**) علم الإحاثة هو علم الحفريات القديمة. (المترجم)

فى منتصف الطريق بين الرياض ووادى الدواسر)، وصفها السيد ر. ب. نيوتن، فى العام ١٩٢١ الميلادى بأنها تنتمى إلى العصر السكوينى Sequanian أو العصر الكمريجى Kimmeridgian.

جمع السيد فيلبى فى آخر رحلاته عينات متعددة من صخور الطويق الجوراسية، والقسم الأكبر من هذه العينات من الصخور المكشوفة العامرة بالحفريات المتحجرة لم يأت فقط من المنطقة المجاورة لمضيق الحيسية، فى شمال غرب الرياض، وإنما جاء أيضًا من منطقة شِعب مرخ ، على بعد حوالى ٥٠ ميلاً فى اتجاه الشمال، ومن الجنوب أيضًا من خشم عمور، الذى يقطع عنده وادى الدواسر جرف هضبة الطويق.

حفريات الحيسية محفوظة فى حجر جيرى طينى لونه أصفر فاتح يحتوى على الأمونيات، الأمر الذى يساعد على تحديد عمر هذه الأمونيات(*) بأنها تنتمى إلى العصر الكالوفيانى Cauovian الأعلى. ونحن نورد هنا بعضًا من هذه العينات التى جاءتنا من هذا المكان.

الأمونيات: Erymnoceras Spp.

الصفائحيات وتشمل ما يلى:

Paralle Lodon Sp.,

Mylilus jurensis Roemer,

Mylilus (Arcany lilus) Cfasper (J. Swerby),

Mylilus (Pharomylilus) Plicatus (J. Sowerby),

Heligmus integer Douville,

(*) الأمونيت: الصدَفة المتحجرة لحيوان منقرض. (المترجم).

Lopha Cf. Solitaria (J. de G. Sowerby),

Exogyra nana J. Sowerby,

Chlamys cf. fibrosa (J. Sowerby),

Chlamys n. sp.,

Ceratomya excentrica (Roemer),

Ceratomya cf. Paucilirata (Blanford),

Ceromyopsis cf. helvelica de Loriol'

Ceromyopsis cf. rostrata Douville,

Quensledia cf. mactroides (Agassiz),

Homomya inornala (J. de G. Sowerby),

Phaladomya carinata Goldfuss,

Phaadomya aubryi Douville.

فى الأوينيض Uwainidh، فى المنطقة نفسها، جرى العثور على عينة من الفرع الصفائحى المسمى Lopha hostellala. العينات التى جرى جمعها من الرياض نفسها ماتزال توضح أن المدينة نفسها فوق أنواع من الحجر الجيرى الجوراسى شبيه بالأنواع الموجودة فى الحيسية.

الحفريات التى جاءت من شعب مرخ تتكون أصلاً من مقذوفات من نوع كبير اسمه نيرنيا Nerinea، المحفوظ فى حجر رملى بنى مائل إلى الاصفرار، لكنه يحتوى أيضاً على حفريات من النوع الذى يسمى Ilomamya cf. Inorata، والنوع الذى يسمى Mactromya. من المهم أن نلاحظ أن مادة الترابط فى هذه الأنواع هى نفسها المادة التى فى النوع المسمى نيرنيا، الذى جرى تسجيله من بكّين Bakkain فى البحث

الذى أجراه نيوتن، وهى أيضًا المادة نفسها التى فى الصخور المسماة brachiopods والتى تم جلبها بها من حَمار Hamar، وورد ذكرها عند ديفيد سون DavidSon تحت اسم Rhynchonella.

حفريات خشم عمور موجودة إلى حد ما فى الحجر الرملى، الأفتح لونًا عن الحجر الرملى الموجود فى حوض نيرنيا Nerinea، فى كل من بكِّين، وشعب مرخ، كما توجد أيضًا بصورة جزئية فى الحجر الجيرى الطينى خفيف اللون تشتمل هذه الحفريات على الأنواع الآتية:

بطنيات الأقدام(*) : Nerinea cf. desvoidyi d'orbigny

الصفائحيات:

Paralleldon SP.,

Musculus n. SP.,

Mylilus (Pharcomylilus) plicatus (J. Sowerby),

Helgimus cf. asialicus Douville,

Mactromya cf. qlobasa Agassiz,

Ceratomya excentrica (Roemer),

Ceromyopsis cf. Helvetica de Loriol,

Homomya inoranta (J. de. G. Sowerby),

Phaladomya aubryi Douville.

تشمل الحفريات السابقة الأنواع الثلاثة التى جرى العثور عليها فى حوض النيرنيا Nerinea فى شِعْب المرخ، ومن ثم يتضح أن أفق هذه الحفريات واحد. جرى

(*) طائفة من الحيوانات الرخوية. (المترجم)

العثور على العديد من هذه الأنواع السالفة فى صخور الزمن الكلوفى callovian فى أرض الصومال، ومن ثم فنحن نرجح أن تكون هذه الأحواض مثل أحواض الحيسية من عصر واحد.

إيجازاً لما تقدم يمكن القول: إن هناك دلائل قوية على أن كل هذه الحفريات التى جرى جمعها من صخور الطويق الجوراسية تنتمى إلى العصر الكلّوفى Callovian أكثر منه إلى العصر السكوينى - الكمريجى Sequanian - Kimmeridgian. النوع الموصّف توصيفاً جيداً، والذى يسمى Lophaphilbyi نيوتن Newtain الذى يعد من سوء الحظ مرادفاً للنوع L. Costellata (دوفيل Douville) ، والذى أحضره السيد فيلبى من الحَمَّارHamar، لم يجر الحصول عليه أو العثور عليه فى أى مكان آخر من الطويق، لكن المعروف حالياً أن هذا النوع من صخور العصر الكلُّوفى فى الصومال (وربما أيضاً فى صخور العصر الباثونى Bathonian)، فى حين نجد أن هذا النوع يشكل أفقاً فى سيناء، وأن دوفل Douville يعتبر هذا النوع من العصر الباثونى الأعلى. حفريات الطويق الفيزيقية، التى تعد بعيدة جداً - على الرغم من ارتباطها الوثيق - عن N. desvoidyi، الذى هو نوع مرجانى Corallian، جرى إحضارها أيضاً بواسطة الرائد هـ. س. هازيلجروف Hazelgrove من منطقة قريبة من نوبات Naubat، فى المناطق الداخلية من عدن[1]. عصر أحواض نوبات غير مؤكد على الرغم من الحديث عن بعض الحفريات الكلُّوفية من جول ركان Gol Rakab، فى المناطق الداخلية من شقراء Sha-qra، التى تقع فى الشمال الشرقى من عدن[2]. الحفريات التى جاءت من الضَّالع، التى تبعد مسافة ٥٠ ميلاً شمالى نوبات والتى وصفها كل من نيوتن وكريك Crick، تنتمى إلى العصر الكمريجى الأدنى. هذه الحيوانات ذات الأفق الأعلى تتميز بالأنواع التى تسمى Parallellodon egertonianus و Nucula cuneifarmis وTroclus arabiensis نيوتن، والتى لم يجر العثور عليها فى هضبة الطويق.

(١) راجع مقال نيوتن فى المجلة الحولية للتاريخ الطبيعى، السلسلة الثامنة، المجلد الثانى، ١٩٠٨ ص ٩ .

(٢) راجع ستيفانينى Stefanini، ملحق بـ أو. هـ. ليتل Little "جغرافية وجولوجيا المكّلا (جنوب الجزيرة العربية)، ١٩٢٥، صفحة ١٠٤ .

(٢) الصخور الطباشيرية العلوية في هضبة عارمة

فى الشمال الشرقى من الرياض، وعلى بعد مسافة تتردد بين ٣٠ و٤٠ ميلاً شرقى جوف الطويق، يوجد جرف موازٍ هو بمثابة الحافة الغربية لهضبة عارمة. فى الخفس، التى تبعد حوالى ٦٠ ميلاً شمالى الرياض، يصل ارتفاع هذا الجرف إلى حوالى مائتى قدم، لكنه يغوص ثانية فى اتجاه الجنوب، إلى أن يصل إلى مستوى السهل الزلطى فى الجزء الغربى من صحراء الربع الخالى.

جرف عارمة هذا مكون من أحجار جيرية بيضاء وسمنية اللون، مما يؤكد أنها تنتمى إلى العصر الطباشيرى العلوى. أكثر الأنواع الحفرية شيوعًا، والتى جمع منها السيد فيلبى عينات متعددة من الخفس ومن المسجيرى Masjiri، هو المحار الكبير مروحى الطىّ، الذى يسمونه Lopha dicholoma (بايل Baylei)، وهذا الشكل من المحار يوجد فى سونتنيان Senonian فى بلاد فارس وفى أماكن أخرى فى شمال أفريقيا. بعض الحفريات الأخرى التى تم العثور عليها فى الخفس تشمل، إضافة إلى النفايات الداخلية للعديد من الأنواع الرَّخوية، عينة شهيرة من الرخويات السونيانية الصفائحية التى تسمى Roudairia drui (منير شالماس Chalmas)، ويرجح أنها تنتمى إلى نوعين من الجنس المسمى Cyclolites وإلى الجنس O.Polymarpha، وهما ينتميان إلى أنواع العصر السونيانى Senonian، ومن هنا يمكن القول بكل تأكيد إن صخور جرف عارمة تنتمى إلى العصر السونيانى. ويجب إجراء المزيد من الأبحاث لتحديد ما إذا كانت هناك صخور طباشيرية من الأفق الأدنى موجودة فى الناحية الغربية.

(٣) صخور الأيوسين

من المرجح تمامًا أن صخور الأيوسين توجد فى مكان ما بين هضبة عارمة وصخور المايوسين التى فى جنوب خليج البحرين، وبإمكاننا أيضًا أن ننسب أنواع الحجر الجيرى التى فى الهفوف إلى هذا التكوين. ومع ذلك لم يجر الحصول على أية

حفرية من هذا المكان. توصل الدكتور جي. إم. ليز Lees إلى أن شبه الجزيرة القطرية مكونة من صخور الأيوسين، وقد أكد السيد بي. إس. توماس Thomas هذه الملاحظة، إذ قام الرجل بجمع بعض حفريات الأيوسين، عندما وصل إلى الدوحة قادماً إليها من الجنوب.

(٤) صخور المايوسين

من قرن أبو وعيل، بالقرب من سكاك، عند نهاية خليج البحرين من الناحية الجنوبية، ومن المنطقة المجاورة لجوب أنباك، على بعد حوالى ٣٠ ميلاً فى اتجاه الجنوب الغربى، جرى جمع عينات متعددة من بعض الأحواض المكشوفة العامرة بالحفريات، وقد ثبت أن هذه الحفريات تنتمى إلى عصر المايوسين. هذه الأحواض تتكون من طين جيرى أبيض اللون وطين جيرى وردى اللون، مع بقايا من أصداف صغيرة متعددة، وكثير من أصداف المحار المحفوظة حفظاً جيداً، والتى تنتمى بصفة أساسية إلى النوع المسمى Ostrea lalimarginata الذى اكتشفه فيردنبرج Verdenburg، على الرغم من أن قلة قليلة من هذه الأصداف يمكن ردها إلى النوع المسمى O. hyotis (لين Linne). الأنواع الرِّخوية تنتمى أصلاً إلى النوع المسمى Diplodanta cf. rodundata (مونتاجو Montagu)، وتنتمى أيضًا إلى النوع المسمى Clementia Papyracea (جراى Gray)، وهناك أيضًا أصداف أخرى كثيرة تنتمى إلى الأنواع التالية: Mylilus وAnomia وChlamys وAnadora وLucina و Cardium وCypraea و Turritella وإلى أجناس أخرى. بعض عينات حفريات O.lalimarginata فيها نُدب توضح النمو المتصل بالصدف المسمى Turritello كما هو واضح فى عينة فارسية مايسونية من النوع نفسه، وذلك على حد قول دوغاس[١] Doughas توجد بعض المنْخْريَّات البيضاء أو وردية اللون الداخلة فى النوع المسمى OOlite، وهذه المُنخْريَّات

(١) مساهمات فى الحفريات الفارسية القديمة، الجزء الأول، ١٩٢٧ اللوحة رقم ١ الشكل ٢ .

تكون مرتبطة بالطينيات الجيرية الرُّخوية. توجد أيضًا بعض أحواض الجبس الذى يجرى استخراجه فى جابرين، وأحواض الجبس هذه تقع بالقرب من الحد الجنوبى الغربى لخليج المايوسين.

وجود كل من O.lalimarginata هو والخصائص الحجرية للأحواض يوضح أن هذه الأحواض كانت معاصرة لأحواض الفارس المنخفضة فى بلاد فارس، والتى تنتمى إلى عصر Burdigalian - Helvetian (أى إلى عصر المايوسين الأوسط المنخفض). جرى فى الكويت مؤخرًا اكتشاف أحواض تنتمى إلى العصر نفسه. فى جوب أنباك نجد أن الأحواض العامرة بالحفريات موجودة تحت أحجار رملية حمراء، يمكن أن تنتمى هى الأخرى إلى سلسلة المايوسين، على الرغم من أنها قد تكون مساوية لأحواض بختيارى الفارسية، التى تنتمى إلى عصر البلايوسين Pliocene.

(٥) البليستوسين أو الهولوسين – رسوبيات الأنهار

اكتشاف السيد فيلبى لروسوبيات الأنهار التى تحتوى على أصداف الماء العذب، فى كثير من المواقع فى قلب الصحراء، أمر له أهميته الكبيرة، نظرًا لأن هذه الرسوبيات وتلك الأصداف تؤكد أن ظروف الجفاف لم تكن تتسود هذه الأماكن فى الأزمان الماضية. فى زقيرط نجد أن هذه الرسوبيات مكونة من صخر كلسى مكتنز، وفى الحواية نجد أن الصخر مكتنز أيضًا لكن الصخر من الحجر الجيرى الرملى، فى هذين النوعين من الصخور نجد أن الأصداف (وبخاصة Melanoids tuber-cutata (مولر) ممثلة فقط بقوالبها الخارجية. هناك سطح صخرى كلسى ناعم، من خلة الحواية، يحتوى على أصداف صغيرة من النوع الذى يسمى Planorbis. فى بعض الأماكن الأخرى وبخاصة فى شُقَّة الخَلَفَات وفى "أبو مُهيرات"، نجد أن الأصداف توجد بكميات كبيرة سائبة وفى حال طيب. وطبقًا لما ورد فى التقرير الذى أعده كل من السيد جى. سى. روبسون Robson والرائد إم. كونوللى Connolly فإن هذه الأصداف يمكن ردها إلى كائنات حية، ومن هنا، ولسوء الحظ أيضًا، ليست هناك دلائل على العصر الدقيق الذى تنتمى إليه هذه الأصداف.

فى الختام يتعين علينا أن نسجل هنا أن مجموعة حفريات السيد فيلبى تكرم جلالة ملك الحجاز ونجد وتوابعها، بإهدائها إلى قسم الجيولوجيا فى المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى)، ونحن نتطلع إلى احتمال نشر المزيد من الأوصاف المفصلة عن الحفريات فى بعض الأماكن الأخرى. وأنا فى إعدادى لهذا التقرير لا يسعنى إلا أن أشكر الآنسة هـ. م. موير Muir وود Wood، والدكتور إل. فز سباث Spath، والدكتور هـ. د. توماس Thomas على مساعدتهم لى فى تحديد الأمونيتات، والمرجانيات.

٣ - أصداف المياه العذبة

بقلم جي. سي. روبسون

أحد العاملين فى المتحف البريطانى

لقد انتهى الرائد كونولّى Connolly من فحص ودراسة أصداف الجزيرة العربية، وأنا هنا أرفق قائمة بالأماكن وأسماء الأصداف التى جرى العثور عليها فى كل مكان من هذه الأماكن.

الحياة الحيوانية ممثلة تمثيلاً أصيلاً فى تجمع سورى - وبلاد الرافدين، هذا التجمع يحتوى على بعض الأشكال واسعة الانتشار والتوزيع (مثل Melanoides tube-culata) لكنها غير جَلِيَّة أو واضحة. هذه الحياة الحيوانية لا صلة أو علاقة لها بالحيوات الحيوانية السحيقة، بمعنى أن هذه الحياة الحيوانية لا علاقة لها بالحيوات الحيوانية فى النيل أو شمال أفريقيا. وهنا نستطيع أن نقول بشكل عام: إن هذه الحياة الحيوانية تعد عينة ممثلة للحياة الحيوانية فى "الشرق الأدنى" بشكل عام.

من الواضح تماماً أن التحليل الإحصائى لن يفضى إلى نتائج مفيدة، وسبب ذلك أننا لا نعرف الكثير عن الحياة الحيوانية المحلية الأمر الذى يجعلنا عاجزين عن تقييم وتحديد الصفات والخصائص التى يمكن ملاحظتها فى الأشكال التى قدمتموها لنا. وفيما يخصنا فإن الحياة الحيوانية فى هذه العينات أمر لا شك فيه ولا خلاف عليه، على الرغم من أن هذه الأشكال لا تمثل اختلافاً بيّنا عن الحياة الحيوانية الحديثة.

الحقيقة المهمة هي وجود ما يسمى Unio الذى يثبت وجود ماء جيد ودائم. الشكل

الذى يسمى U.terminalis هو واحد من الأشكال التى توجد فى البحيرات، من حيث توزعه الحديث فى أضعف الأحوال. الشكل الآخر الواضح هو ذلك الشكل من الأصداف الذى نطلق عليه اسم Carbicula. هذا الشكل من الأصداف معروف بأنه نهرى، ووجوده يدل على ما هو أكثر من المستنقعات، والحفر والمجارى المائية الصغيرة.

قائمة الأصداف التى جمعها السيد فيلبى من الجزيرة العربية

المكان	النوع
١ – بئر فضيل	Melanoides tuberculata (Mlill)
	Corbicula Crassula Mouss (?)[١]
٢ – شُـقَّـة الخلفـات	Unio terminalis Bgt.[٢]
٣ – النُّمـيلة	Unio terminalis Bgt.
	Bulinus trucatus (Aud)
	Mel. Tuberculata (Mull)
٤ – رَقَّة الشَّلْفة	Mel. Tuberculata (Small)
	Corb. Crassula Mouss (?).
	Bul. Truncalus (Aud).
	lyamnaea logolis Schrank (?)[٣]

---

(١) لا تظهر أى من هذه الأصداف على شكل الصدفة الكبيرة التى تسمى O. fluminalis مول Mull، والتى يكون ارتفاعها أكبر من عرضها، كل الأشكال التى تحت الملاحظة عرضها أكبر من ارتفاعها، ونحن نحتار فى الاسم الذى يمكن أن نطلقه عليها، نظراً لوجود عدد كبير من هذه الأسماء، وكلها مرادفات، والاسم Crassula Mouss واحد من أقدم هذه الأسماء، والأرجح أنه = Syriaca Locard، بل يساوى أيضاً أسماء لاحقة أخرى.

(٢) كل أصداف الـ Unio تدخل ضمن هذا النوع المتغير.

(٣) قلة قليلة من الأصداف غير المكتملة، لكنها كلها من النوع logatis، وهو الشكل السورى الشائع.

٥ – طويريفة	بقايا ويحتمل أن تكون من نوع Unio
٦ – عين سالة	بقايا من .Cyprea sp
	بقايا من Cardium leucostamum
٧ – هضبة أبو خشبة	Mel. Tuberculata Mull,medium size
	lagolis ، lymnaca juv.
	Mel. Tuberculata Mu ll.
٨ – أبو مهيرات	Unio terminalis Bgt.
	Mel. Tuberculata كبير وصغير
	Corb. Crassula Mouss (?)
	Planorbis cf. Corneus (Lin)[1]
٩ – أبو سبّان	Mel. Tuberculataو صغير نوعاً ما
	Corb. Crassula Mouss (?)
١٠ – خلَّة الحواية	Mel. Tuberculata
١١ – كميدة	Mel. Tuberculata, صغير
١٢ – وادى رانية	Planorbis sp. عينة واحدة مشوهة

(١) القسم الأكبر من أصداف الجزيرة العربية بلا سُرَّة فى هذه الأنواع واسعة الانتشار، لكنها متغيرة ومتنوعة إلى حد بعيد (راجع جرمين فى مجلة المتحف الهندى المجلد الحادى والعشرين)، ونظراً لتسجيل هذا النوع فى كثير من مناطق آسيا الصغرى، وعلى الرغم من عدم تسجيله فى سوريا أو فلسطين، فليس هناك ما يدعو إلى الشك فى وجوده فى الجزيرة العربية.

وصلتـنا فى صناديـق مـخـتـلـفـة (لا تحـمل بطاقـات مـعلومـات لكنهـا من أبى مـهيرات) مـجمـوعة من الأصداف نفسـها، وأهمـها عبارة عن عينتين أو ثلاث من نوع Bulinus truncates، وأفضل هذه العينات هى Lymnoeas، على الرغم من صـغر حـجمـها.

لا يتـوفـر لدينا شيء يمكننا من تحـديد تاريخ لهـذه المجـمـوعـة من الناحـيـة الجيولوجية، والسبب فى ذلك أن الأنواع كلها تبدو كـأنها لا تزال موجودة فى الشرق الأدنى، لكن وجـود كل من Unionidae، هو والـ Corbieulidoe ومـعـهـمـا Lymnaea يؤكد وجود كمية وفيرة من الماء العذب، ويرجح أن تكون أنهاراً أو بحيرات، فى المناطق التى جرى فيها العثور على هذه العينات.

مـلاحظة – الملاحظات سـالفة الذكر التى تفـضل الرائد كـونولّى Connolly (الذى تعـرف العـينات) بالقـيـام بهـا بالتـعـاون مـع السـيـد روبسـون Robson، يتـعين قـراءتهـا باعتبارها وثيقة الصلة بالأهمية العامة لمجموعة أصداف الماء العذب فى الربع الخالى، وليس باعتبارها إسهاماً فاصلاً أو قاطعًا فى أدبيات الموضوع.

مســألة المغـزى الكـامـل لأصداف الماء العذب هذه القادمة من الجزيرة العربية لا تزال تسـتـحـوذ على انتبـاه الخـبـراء. قد يكون مـهـمـا أن أضـيـف هنا، أن الأدوات الصـوّانية التى تم العثور عليها بصـحبة أصداف الماء العذب هذه، ومبعثرة على سطح التربة الفيزيقية التى يتخللها الزلط، تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث (أو ربما أحدث من ذلك) لم يتم العثور على قطع من صوان العصر الحجرى القديم فى الربع الخـالى.
هـارى سينت فيلبى.

(حـ) بيض النعام

تقرير عن بقايا بيض النعام التى جمعها السيد فيلبى فى الرحلة التى قام بها مؤخرًا عبر الجزيرة العربية

بقلم :بيرسى ر. لوى Lowe

يمكن تقسيم قشر بيض النعام، الذى جمعه السيد فيلبى من مواقع مختلفة، خلال رحلته التى قام بها إلى الربع الخالى إلى مجموعتين:(١) القشور الحديثة، التى إذا ما استثنينا "الجلد" شديد اللمعان، نجد أن لها نفس اللون والشكل الناعم الذى تتسم به بيضة النعام السورى Struthio syriacus.(٢) القشر المتحجر أو المُعَدًّن، والذى اكتسى ألوانًا مختلفة تبدأ من لون الشيكولاته البنى، مع ظل خفيف من الموف(*) إلى لون القهوة المخلوطة بالحليب. وإلى جانب هذا التلوين الواضح جداً، نجد أن حواف هذه الشظايا المتحجرة مشطوفة بطريقة واضحة بسبب عوامل التعرية من ناحية والرمال التى تحملها الريح من الناحية الأخرى.

الشطف الذى أصاب هذا القشر جاء على حساب السطح الخارجى، وفيما يتصل بالقشر الذى جاء من شقة الخلفات نجد أن هذا الشطف يمتد من الحافة إلى الداخل لمسافة حوالى أربعة ملليمترات. وعلاوة على هذا الشطف والتَّبقُّع العجيب، نجد أن القشر المتحجِّر يكشف أيضًا عن تلميع شديد، ناتج عن تأثير الرمال. هذا التلميع يُلاحظ بشكل واضح على السطح الخارجى، يزاد على ذلك أن الصقل الشديد فى كل الأحوال يكون فوق سطح غشيم إلى حد ما أو سطح مُجوَّف. ويرى زميلى السيد كمبل سميث أن هذا الصقل إنما هو مجرد خدش ناتج عن عمل الندى.

(*) اللون البنفسجى الزاهى. (المترجم)

العجيب بحق هو أننا لاحظنا أن هذين الصنفين اللذين ينتميان إلى المجموعة (١) جرى جمعهما من مهادير Mahadir الصُّمَّان ومن بنى Bani معاريض Ma'aridh: هذا يعنى مع بداية وفى نهاية الرحلة التى قام بها فيلبى إلى الربع الخالى.

جمع الشظايا القشرية التى جرى جمعها فى المرحلة الوسطى كانت متحجِّرة أكثر ومخططة أكثر ورقيقة أكثر، بل أرق من اللازم فى بعض الأحيان، وذلك نتيجة للتعرض الطويل للتآكل الذى يحدثه الرمل.

الشظايا التى جرى مؤخرًا جمعها من مهادير الصُّمَّان، قيل إنها تنتمى إلى بيضة واحدة، ومن المهم أن نلاحظ أيضًا أن النعام السورى لم تتم رؤيته بعد (هذا هو ما فهمه السيد فيلبى من مرافقيه) فى هذا الجزء من الجزيرة العربية منذ مدة تقدر بحوالى أربعين أو خمسين عامًا. ومن المؤكد تمامًا أن الصنفين: الحديث والحضرى ينتميان إلى نوع واحد من النعام (S.Syriacus)، لكننا نرى أن الصنف المتحجِّر قد ينتمى إلى أفق أقدم، وأن هذا الأفق يمكن أن يكون مصادفًا لسطح الأرض قبل أن تغطيه الرمال.

ألبسا مورنس - طائر النعام العملاق

هناك استثناء مهم ينبغى التنبه إليه فيما يتعلق بالعينة التى جرى جمعها من شقة الخلفات. هذه الحفرية يصل سمكها إلى ٣ ملليمتر بالمقارنة مع أقل حفريات البيض الحديثة سمكًا، والتى يتراوح سمكها بين ١,٩ ملليمتر و١,٢ ملليمتر. ونحن عندما نتناول مسألة السُّمْك النسبى لقشر البيض نجد أن سمك هذه الحفرية يمثل فارقًا ضخمًا، ومن ثم لا يراودنى شك فى أن هذه القشرة كانت تنتمى إلى بيضة تفوق حجم البيضة التى تضعها النعامة السورية. وفيما يتصل بالسمك فإنها تقترب فى ذلك من شظايا أو حفريات بيض النعام الذى يسمونه Psammornis rothschildi (٣,٢ ملليمتر)، والذى جرى جمع حفريَّاته من المنطقة الواقعة بين تاجوراء والعويد فى الجزائر، بواسطة كل من روتشيلد Rothschild وهارترت Hartert ، وجرى وصفها بواسطة آندروز Andrews الذى قال إن هذه الحفريات تنتمى إلى حفريات جنس جديد من النعام.

فحص قطاعات جزء من الحفرية التي عثر عليها السيد فيلبى فى الجزيرة العربية، تحت المجهر يتفق من جميع النواحى مع قطاعات أخرى مشابهة، مأخوذة من حفريات قشرة بيض النعامة العملاق Psamnarins، التى جرى الحصول عليها من الجزائر.. وعليه، فإن النتيجة الوحيدة التى يمكننى التوصل إليها هى أن النعامة العملاقة المعروفة باسم Psamnarins سكنت الجزيرة العربية.

اكتشف السيد فيلبى قشرة بيض النعام العربى فى حوض نهر قديم عند خط عرض ٢٢ درجة شمالاً، فى المكان الذى جرى فيه اكتشاف أصداف وقواقع الماء العذب. وقد أبلغنى اللورد روتشيلد أن الحفريات الجزائرية جرى العثور عليها بواسطته، فى منطقة من الأرض جرى مؤخراً اكتساح تلالها الرملية بواسطة العواصف العاتية، والتى جرى فيها أيضًا اكتشاف بعض الآبار القديمة. وقد أمكن اكتشاف أو العثور على هذه الحفريات من على السطح فى منطقة قريبة من هذه الآبار.

امتداد مدى النعام العملاق Psammornis إلى هذا الحد يعد أمراً مهمًا، من منطلق أن ذلك يوحى بما مفاده، أنه خلال الفترة التى ازدهر فيها هذا الجنس من النعام، كانت هناك وصلة أرضية أكثر اتساعًا مع شمال أفريقيا أكثر مما هو موجود حاليًا، هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن حقيقة العثور على حفريات قشر بيض النعام العملاق، وارتباط تلك الحفرية بالقرب من حفريات الماء العذب، توحى بأن هذا النعام العملاق كان عضواً فى حياة حيوانية، كانت تعم السطح القديم للجزيرة العربية، قبل أن تطغى عليها الظروف الصحراوية.

وصفت[١] مؤخراً حفريات بيض النعام التى جرى جمعها من صلصال هيباريون الأحمر Hipparion (البليوسين Pliocene الأدنى) فى شمالي الصين، على أنها تنتمى إلى جنس النعام المسمى Struthio.

---

(١) راجع مجلة Palaeontologia Sinica، فى العام ١٩٣١، المجلد السادس، الملزمة الرابعة من صفحة ١ - ٤٠ والشكل رقم ١٢ .

ومن الحفرية نفسها وصفت حوض نعامة أطلقت عليها اسم Struthio Wimani حفرية بيضة نعام عصر البليوسين Pliocene، التى كانت أكبر بكثير من النعام الحديث، كان معدل سمكها ٢,٦ ملليمتر. ونظراً لأن هذه الحفرية جرى حجبها بعيداً عن الصلصال المتأثر بالعوامل الجوية فإنها لم تصب بأذى كبير من عوامل التعرية الجوية، فى حين نجد أن حفريات بيض النعام العربى متآكلة تآكلاً كبيراً بفعل الرمال، وبذلك يمكننا أن نوجز القول فى أن حفريات بيوض نعام الجزيرة العربية كانت فى الأصل أكثرى من ثلاثة ملليمترات من حيث السمك، وعليه يمكن الوصول إلى استنتاج مفاده أن النعام العملاق Psammornis كان أكبر من النعام الحديث(١).

أحب أن أضيف أن بيض نعام شمال أفريقيا المسمى S.Camelus يتراوح سمك قشر الواحدة منه بين ١,٨ و١,٩ ملليمتر.

---

(١) فى رسالة لاحقة رد علىَّ الدكتور لوى Lowe، فى إطار رده على بعض التساؤلات التى طرحتها عليه، وجاء رده على النحو التالى: (١) عجيب منك أن تثير مسألة ما إذا كان النعام العملاق Psammornis ينتمى بحق إلى مجموعة "الصخر" – هناك حفرية من حفريات جنس النعام العملاق مقصورة حتى الآن على جزيرة مدغشقر – لأنى أثرت هذا السؤال بالفعل.

يرى لامبرشيت Lambrecht أن هذه الفرضية مدعومة من اكتشاف حفرية عظمية (لثلاث من النعام العملاق) فى أحواض الأوليجوسين Oligocene فى الفيوم (فى مصر)، وقد أطلق على "نعام الفيوم Stromeria Fayumensis" ومع ذلك، وفى ظل افتقارنا إلى المعرفة، نطرح دوماً السؤال التالى: ما العلاقات التى بين النعام العملاق Psammornis ونعام البليوسين المسمى نعام ومنانى، فى الصين؟ من هنا لا أود أن ألزم نفسى بصورة محددة بالفكرة التى مفادها أن النعام العملاق Psammornis يمكن إرجاعه إلى عصر الصخور. هذه فكرة مهمة. صحيح أنه لم يثبت أن "الصخر" Roc أو Ruc الخرافى قد تأسس على صخور مدغشقر الضخمة، لكنى لا يراودنى أى شك فى حدوث ذلك بالفعل. (٢) هل يشرب النعام الماء؟ ليس لدى معلومات حول هذا الموضوع من خلال الملاحظة، لكنى أعرف من البحث الذى قام به لينوس Lynos عن طيور شمال ووسط دارفور (المرجع السابق، ١٩٢٥، صفحة ٧٠) أنك كان بوسعك إدراج الطيور بصفة عامة ضمن مسألة النعام.

يقول لينوس "فى شمال ووسط دارفور، على سبيل المثال، لا يمكن لأى طائر من الطيور الحصول على مياه الشرب، بما فى ذلك الندى، على امتداد العام اللهم باستثناء الأربعة أو الخمسة أو الستة أشهر المطيرة". وقد قال لى باتس Bates الشىء نفسه فيما يتعلق بالصحراء الجنوبية – لا ماء، لا ندى، بل إن الملابس يمكن تجفيفها أثناء الليل. وأنا هنا أتخيل أن النعامة يمكن أن تستغنى عن الماء إلى ما لا نهاية.

ويجب ألا ننسى أن النعام Aepyornis، كان يمكنه فى صحراء مدغشقر الحصول على كميات وفيرة من الماء، وهناك بعض من التساؤل حول ما إذا كان هناك نوع من النعام يسكن أو يعيش بالقرب من حواف البحيرات.

يقول نيتوتن فى معجمه عن الطيور: "على الرغم من أن النعامة عادة ما تسكن المناطق شديدة الجفاف، فإنها تحتاج الماء للشرب، يزاد على ذلك أن النعامة تستحم فى كثير من الأحيان". لكن أى طائر سوف يفعل ذلك إذا ما تهيأت له الفرصة.

(د) "الرمال المغنية"

بقلم د. فوغان كورنس

فيما يلى أورد الحديث الذى دار بينى وبين الدكتور فوغان كورنش Voughan Cornsh عن موضوع الرمال المغنية:

فيما يتعلق بفكرة الضوضاء الكبيرة، التى قد تحدثها الرمال فى الصحراء بسبب تذبذب هذه الرمال على مستوى منحدر داخل الكثيب الرملى، أرسل لك هذا التعليق لأعطيك شيئًا يمكن الرجوع إليه إذا ما أردت ذلك.

رأى فى ميكانيكية هذا الموضوع - وهى فكرة يمكن اختبارها وتجربتها على المستوى المحلى - هذه الفكرة تقوم على أن حبيبات الرمل الموجودة على السطح السائب المنحدر فى الكثيب الرملى، عندما تتحرك نحو الأسفل نتيجة أى اضطراب من الاضطرابات البسيطة، فإن هذه الرمال تسحب معها الرمال الموجودة أسفلها مباشرة، وهذه هى الأخرى تسحب الرمال الموجودة تحتها، الأمر الذى يؤدى إلى زيادة الاضطراب وتعمقه، وتزداد الضوضاء التى تحدثها حبيبات الرمل طوال هذه العملية، لكن على نحو مضطرب ومشوش. ومع ذلك، تصل هذه الرمال فى نهاية المطاف إلى مستوى محدد تتوقف عنده عن ذلك الاضطراب عند سطح الكثيب، ويتحتم هنا أن يكون ذلك السطح التحتى محدداً ومستوياً، أو شبه مستوٍ، وهذا الأمر يبدو بسيطاً إذا ما تذكرنا الحقيقة التى مفادها أن الرمل الذى يبقى مدة طويلة تحت الضغط يكتسب درجة كبيرة من الثبات، فى ظل عدم وجود مادة لاصقة.

التغير من الضوضاء المشوشة إلى الزئير المنتظم الذى لاحظته أنت أعزوه - والأمر يحتاج إلى القيام ببعض الاختبارات المهمة - إلى مرور ذلك الرمل العلوى فوق

هذه الأرضية المنحدرة. هذه الحقيقة التى مفادها أن مستويات الانزلاق الداخلية تحدث أثناء تحرك التربة ذات الطابع الصلصالى، وقد عرفتها وأدركتها من ملاحظاتى للمنزلقات الأرضية الكبيرة فى قطع كوالبيرا Culebra فى قناة بنما. وقد وصل بى الحد إلى جمع عينات من ذلك السطح المنزلق، الذى تخَدَّد وتحزَّز وصُقِل بفعل الحركة النسبية للمادة الراكبة العلوية.

وفيما يتصل بمسألة إحساسك بالرمل وكأنه يُمَصُّ من تحت قدميك ومن تحت يديك عندما غمستهما فى الرمل، وذلك أثناء هذه الضوضاء والتحركات، فقد خطر ببالى تفسير لهذه المسألة عقب الحوار الذى دار بيننا. فى البحث الذى حدثتك عنه والذى قام به جى. هـ. داروين Darwin (مجلة المعادن، المجلد الحادى والسبعين (١٨٣٣) من صفحة ٣٥٠ – ٣٧٨، والمعنون: الانزلاق الأفقى لكتلة الرمل)، يقول صاحب البحث: قبل انزلاق الرمل، تكون حبيبات الرمل ساندة بعضها بعضًا لتحفظ لنفسها انتظامًا أوسع عما كانت عليه فى الوضع السابق. إذا ما حدث الشىء نفسه عندما يبدأ رمل الكثيب فى الانزلاق، فإن هواء الفراغات البينية يتخلخل بسبب التمدد، ضغط هذا الهواء المتخلخل لن يكون مساويًا لضغط الهواء العلوى، ومن ثم تغوص نحو الأسفل القدم أو اليد المغموسة فى الطبقات العليا السائبة من الرمل بفعل الجو Otmosphere، الذى يدخل لملء ذلك الفراغ الجزئى.

هذه هى الأفكار التى خطرت ببالى وأن أتفكر فى العمل الذى قمت به منذ سنوات طوال، لكنى عندما أتذكر كاتبًا آخر غير كل من أوزبورن رينولدز Osborne Reynolds و جى. هـ. دارون Darwin أجدنى قد تصفحت ملخص بحث بقلم سى. إى. إس. فيلبس Phillips، ونشر فى مجلة المعهد الملكى، المجلد التاسع عشر، صفحة ٧٤٢ (محاضرة ألقيت فى ١١ فبراير من العام ١٩١٠)، وجدت أن ذلك الملخص كان عبارة عن محاضرة عملية حضرتها. هذا الملخص لا يحتوى فقط على خلاصة البحث الذى أجراه أوزبورن رينولدز عن تكوّم حبيبات الرمل، وإنما يحتوى أيضًا على بعض التجارب المبتكرة التى أجراها الرائد فيلبس، والتى مكنته فى البداية من الحصول على صوت ضجيج، ثم الحصول فى النهاية عل نغمة موسيقية من انسياب الرمل (بحركة

تفاوتية) في أنبوب زجاجي. وقد ابتكر الرائد فيلبس هذه التجربة، على حد علمي، مستهدفًا بها تفسير الأصوات الصحراوية، باعتبارها متميزة عن أصوات رمال شاطئ البحر. كنت قد نسيت ذلك أثناء الحوار الذي دار بيني وبينك، ولكن ملاحظتك جعلتني أستعيد ذكرى ذلك الذي سبق أن رأيته على نطاق كبير في منطقة قناة بنما. وبذلك تكون تجربة الرائد فيلبي قد اختبرت وأثبتت الفكرة، التي مفادها أن الرمل يمكن أن يصدر نغمة محددة عندما تنساب حبيباته على مستوى منزلق، وأنا أرى أن الملاحظات التي أبداها الكثيرون منا حول تغير تماسك الرمال على عمق محدد، ودعم هذه الملاحظات بالحقيقة المؤكدة والخاصة بمستويات الانزلاق الداخلية في المنحدرات الأرضية العادية، بالشكل التي هي عليه في قطع كولبيرا Culebra في قناة بنما، إنما تعد دعمًا وإسنادًا أكيدًا للتجربة التي أجراها الرائد فيلبس، من منظور أن هذه الملاحظات وهذه الحقيقة تعدان دعمًا حقيقيًا، وتوردان أمثلة على وجود انفصال الأسطح في ظروف انسياب حر وخالٍ من العوائق الاصطناعية التي في الأنبوب الزجاجي الصغير. افعل ما يحلو لك بهذه الملاحظات والمعلومات. وأعتقد أنه من المفيد إيفاد بعض الرحالة، للبحث عن وجود أو عدم وجود مستوى الانزلاق في الصحراء التي تزأر وتدوي.

(هـ) ثدييات الربع الخالى

بقلم نقيب جى. جى. دولمان

(مع خالص شكري وتقديري للنقيب جي. جي. دولمان Doliman من المتحف البريطانى)

مسلسل	الاسم العربى	الاسم العلمى	ملاحظات
١	الخفاش	Eptesicus sp.	عينة واحدة من شنّاء
٢	ثعلب الصحراء	Cynalpex sp.	ثلاث عينات من عين سالة وآبال الخادم، ويبدو أن هذه العينات من نفس العينة التى جاء بها برترام توماس وقد تحتاج إلى وصف
٣	القطة	Felis Ocreala	جمجمة مهشمة من أم القرون، والاسم العربى أطفع أو هرِّة.
٤	الأرنب البرى	Leous - omanensis cheesmani	٣١ عينة من أماكن مختلفة فى الجافورة وجيبان والربع الخالى. الاسم العربى أرنب.
٥	الجربوع	Jaculus	أربع عينات من الجافورة، وجابرين.
٦	الجربل	Gerbillus - arduus	عينتان، والاسم العربى "فأر"
٧	الوعل الأبيض	Oryx Leucoryx (beatrix)	رأس واحد، وقرون عدة، وعظام إلخ (والاسم العربى: الوضيحى).
٨	الغزال الأبيض	White Gazelle	أزواج عدة من القرون (الاسم العربى هو: الريم).

(و) طيور الربع الخالى

بقلم : ن. ب. كنير

من المتحف البريطانى

المجموعة الصغيرة التى جاء بها السيد فيلبى لها أهمية كبيرة؛ نظرا لأنها لا تبين فقط الطيور التى تسكن الربع الخالى، وإنما هى تبين أيضا أنواع الطيور التى تعبر هذه الرمال الطاردة، وهى فى طريقها إلى أماكن تكاثرها فى فصل الصيف.

قسم من العينات التى جرى الحصول عليها، وبخاصة تلك الطيور التى تسكن حافة الصحراء، هى عبارة عن طيور زائدة تأتى إلى هذا المكان قادمة من أقصى الشمال.. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هناك خمسة أنواع من بين هذه الطيور المهاجرة جرى الحصول عليها فى الجزر البريطانية، على الرغم من اعتبارها من ضمن الطيور المختلفة شديدة الندرة.

(١) الكروان العربى: Burhinus aedicnemus عينتان جاءتا من جوب بعيج ومن سلوة (بتاريخ ١١ يناير). شوهدت عينات أخرى فى كل من عين سالة وحلة الحواية. هذا الطائر مقيم وشائع فى جنوب الجزيرة العربية، ويمتد إلى العراق وجنوب بلاد فارس.

(٢) الحبارى: Chlamylotis undulate macqueenii عينة واحدة من الحديدة (وبار) (٤ فبراير). شوهدت عينات أخرى على فترات متباعدة فى الربع الخالى. هذه الطيور توجد فى المنطقة التى تبدأ من جنوب روسيا، وتمتد إلى تركستان وبلوخستان. هذه

الحبارى تهاجر فى فصل الشتاء إلى الهند والجزيرة العربية)، وقد تتحول فى بعض الأحيان إلى أن تصل إلى غرب أوروبا، إذ جرت مشاهدة هذه الطيور أربع مرات فى الجزر البريطانية.

(٣) الصقر العصفور (الشُّبُّول): Accipter nisus nisus. عينة واحدة جاءت من أنباك (بتاريخ ١٢ يناير). حيث أمكن ملاحظة زوج من هذه الطيور. هذا هو الصقر العصفور الشائع فى الجزر البريطانية، وفى أوروبا وأجزاء من سيبيريا. هذا الطائر يعبر الجزيرة العربية أثناء هجرته فى فصل الربيع والخريف.

(٤) البومة (القبيسة) Olus scops scops. هذا النوع الصغير من البوم منتشر فى أوروبا وفى غربى آسيا. هذه البومة زائر شتوى يتردد على الجزيرة العربية وأفريقيا، إلى أن يصل إلى أوغندة.

(٥) أبو بليق الصحراء الشرقية (أم غوير) Oenanthe deserti atrogularis. عينات من مقينمة، وطويريفة، وسعفيج (بتاريخ ٢٤ يناير إلى اليوم الثانى من فبراير). وجرى ملاحظتها فى كثير من الأماكن طوال الرحلة. ونقلا عن الرائد شيزمان، يعد سجل العقيد "ماينر يتز هاجن" Meinertzhagen طائر أبى بليق على أنه من الطيور الشائعة فى عدن. أبو بليق الصحراوى هذا يعيش فى وسط آسيا، ويتنقل جنوبا فى فصل الشتاء إلى شمال أفريقيا والهند، ويقضى عدد كبير من هذه الطيور فصل الشتاء فى الجزيرة العربية. عُثِرَ على بعض الطيور الضالة من هذا النوع من الطيور فى كل من أوركينى وكنت.

(٦) أبو بليق الجزيرة العربية المُرَقَّط (البجرى أو الوعجة) Oeuanthe Lugens Lugentoides. عينة واحدة من السليل (بتاريخ ١٥ مارس). جرى من قبل تسجيل هذا الطائر فى اليمن، وفى محمية عدن وشمالى الصومال.

(٧) القليعى الأوروبى المطوق (البوسية) Saxicola torquqta rubicala. عينة من السليل (بتاريخ ١٥ مارس). يعد طائر القليعى الأوروبى المُطَوَّق والشائع، زائرا من

زوار الجزيرة العربية فى فصل الشتاء، ويمر عبر الجزيرة العربية أثناء هجرته فى الربيع والخريف.

(٨) المغنى الصحراوى (السُّوَيْوِلة) Sulvia nana nana. عينات من سنام، وماجارى مَعْشيَّة وبنى جلاب وعين سالة ومن أدراج (من ٦ فبراير إلى ١٢ فبراير). جرت ملاحظته أحيان كثيرة فى الربع الخالى. يبدى الرائد شيزمان ملاحظة مفادها أن هذا المغنى الصغير كان أكثر الطيور شيوعا فى جابرين، وجاءت خبرة السيد فيلبى على الوتيرة نفسها. حيثما وجدت الأدغال فى الصحراء يوجد زوج أو زوجان من هذه الطيور يعيشان بين شجيرات هذا الدغل. طائر المغنى الصحراوى هذا يسكن الصحارى الرملية فى جنوب غرب آسيا من سيناء إلى بلاد السند.

(٩) السَّعْو أسود الرأس (الأنثى: سَعْوة) Motacilla feldegg feldegg. عينة من السليل (بتاريخ ١٥ مارس). يتكاثر هذا الطائر فى جنوب شرق أوروبا وشرقى آسيا، ويهاجر عبر الجزيرة العربية فى فصلى الربيع والخريف، كما يمضى عدد من هذه الطيور فصل الشتاء فى الجزيرة العربية. هذا السَّعْو وجد فى إنجلترا حوالى أربع مرات.

(١٠) السَّعْو الأبيض (العقيلى أو المسليك) Motacilla alba نوع فرعى. عينة من السليل (بتاريخ ١٥ مارس). جرت ملاحظة عينة واحدة فى سالة فى الصحراء الخالية من الماء. كانت عينة السليل تالفة على نحو يتعذر معه معرفة سلالة السَّعْو الأبيض التى ينتمى إليها هذا الطائر. ونظرا لأن الرائد شيزمان والسيد "ماينر يتز هاجن" Meinertzhagen صادفا أمثلة كثيرة على السعو الأبيض dukhunensis، أو بالأحرى السعو الأبيض الهندى، أثناء مروره، فإن هذا يرجح أن يكون هذا الطائر منتميا إلى هذا الجنس، الذى يتكاثر فى سيبيريا.

(١١) القنبرة الفلسطينية قصيرة الحافر (الحمراء): brachdactyla hemonensis Calandrella. عينات من الصمان (بالقرب من مقينمة) ومن النميلة (بتاريخ ٢٣ يناير إلى ٢٩ يناير). جرت ملاحظة بعض العينات الأخرى. هذا الشكل الضارب إلى الحمرة

من أشكال القنبر ذو الحافر القصير يعيش فى فلسطين، وفى شمال أفريقيا، كما يوجد فى أقصى الغرب فى المغرب. الواضح أن هذا النوع من الطيور يتجول فى فصل الشتاء، فقد وجدت عينات من هذا الطائر فى السودان، كما استطاع ويمان بيورى Wyman Bury الحصول على عينتين من هذا الطائر فى اليمن.

(١٢) القنبرة ذات الوجهين (أم سالم): Alaemon alaudipes doriae. عينات من مقينمة، ومن الحواية، ومن الطويريفة ومن سعافيج ومن سنام (من ٢٥ يناير إلى ٦ فبراير)، وهذا النوع من الطيور كان شائعا طوال الرحلة. القنبرة ذات الوجهين واحدة من الطيور القليلة التى تسكن المناطق الداخلية من الربع الخالى. هذا الطائر يسكن أيضا كلا من بلاد السند وبلوخستان، فضلا عن الجزيرة العربية.

(١٣) قنبرة الصحراء (الحمراء): Ammomanes Cinctura. عينة واحدة من الجافورة (١٤ يناير). وعينة أخرى من خفيفية فى نجد (٢٢ نوفمبر ١٩٣١). قنبر الصحراء هذا لا يتفق مع أى عينة من العينات التى فى المتحف البريطانى، ومع المزيد من الدراسة قد يكون هذا القنبر من جنس جديد.

(١٤) الغراب بنىّ العنق: Ruficollis. أربع عينات من جابرين، والنميلة، وحض فارس (بتاريخ ٢١ يناير إلى ٨ فبراير)، وجرت ملاحظة هذا النوع من الطيور هنا وهناك. الغراب بنى العنق يمتد مداه من غربى الهند إلى شمال أفريقيا، وينتشر بشكل كبير فى الجزيرة العربية، ويخترق صحاريها. وكقاعدة عامة، يوجد الغراب بنىّ العنق على شكل أزواج ويتكاثر مع مطلع العام. وقد عثر الرائد شيزمان على عش غراب من هذا النوع فى منطقة الجافورة فى اليوم الثالث عشر من شهر فبراير، كما عثر السيد فيلبى على ثلاثة من صغار هذا النوع من الطير فى عش فى النميلة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير.

ملاحظة: إضافة إلى أنواع الطيور سالفة الذكر التى أكد وجودها السيد ن.ب. كينير Kinnear، يمكن أن أضيف الأنواع التالية التى لاحظها وراقبها السيد هارى سينت فيلبى.

(أ) العقاب ربما كان هو النسر الحبشي: Aquila rapax raptor

(ب) النسر: ربما كان هو النسر المصري: Neophron Percnopterus

(جـ) أبو حقب: نوع من الصقور ربما كان الهار، وهو نوع من الصقور.

(د) العداًء سمني اللون (دراجة أو دراجلان): Zursorius cursor cursor (جرى تعريفه من عينة جاءت من مكان قريب من الرياض، ومن الواضح أنها نفس الطيور التي لاحظناها في الربع الخالي.

(هـ) دغناش أُوشر (سراد أو سُريتي): Lanius excubitor aucheri. شوهد طائر من هذا النوع في منطقة شنًاء، وثبت أنه من النوع نفسه الذي جرى اصطياده بطلق ناري في القيعية في نجد.

(و) الهدهد: شوهد واحد من هذا النوع في سنام Sanam (في اليوم الرابع من شهر فبراير).

(ز) طائر السنونو (أبو خسيفان، الرقيعي). شوهد اثنان من هذه الطيور في مناسبتين مختلفتين في وسط الربع الخالي، في اليوم السابع والعشرين من شهر يناير، وفي اليوم السادس من شهر مارس. وطائر السنونو يوجد بأعداد كبيرة في السليل.

(ز) الزواحف

(تحقيق وتدوين وملاحظات قام بها السيد هـ. و. باركر من المتحف البريطانى)

١- السحالى

(a) Geckonidae

(1) Stenodactylus sthenodactylus

وردت خمس عينات من دفينة فى وسط نجد. هذا النوع لم يجر تسجيله من الجزيرة العربية، وإنما جرى تسجيله من سيناء، ومن فلسطين، وسوريا، وشمال أفريقيا.

(2) Alsophylax blandfordii

وردت خمس عينات من الربع الخالى، لم يسبق تسجيل هذه العينات من قبل فى المنطقة الواقعة بين حضرموت ومصر.

(3) Hemidactylus persicus

وردت عينة واحدة من الأحساء. وطبقا لمضمون الاسم فإن هذا النوع يعد فارسيا ويمتد وجوده إلى العراق. والتسجيل الحقيقى الوحيد جاء من الهفوف (بواسطة الرائد شيزمان).

(4) Ceramodactylus major parker

عينتان وردتا من الربع الخالى.

(b) Agamidae

(1) Phrynocephalus maculates

وردت إحدى عشرة عينة من الربع الخالى. هذا النوع يسكن الرمال.

(2) Phrynocephalus arabicus

وردت ثلاث وثلاثون عينة من الربع الخالى. هذا هو مقابل النوع السابق فى المناطق الحجرية (الزلط والسهوب)

(3) Agama jayakari Anderson

وردت عينة واحدة من الربع الخالى.

(c) Lacertidae

(1) Acanthodactylus cantoris

وردت خمس عينات من الربع الخالى. هذه العينات عبارة عن نوع وسط فيما بين النوع الفرعى المسمى arabicus (من عدن إلى حضرموت) والنوع المسمى blandfordi (فى بلاد فارس). حصل برترام توماس على النوع الأول من ظفار وحصل على النوع الثانى من جوب العزية ، لكن النوعيتين لم تكشفا عن أية صفات أو خصائص وسطية.

ملاحظة: لما كانت عيناتى كلها قد جاءت من الربع الخالى، وبالذات من المنطقة الواقعة ما بين جابرين وشنّاء، فذلك يعنى أن صحراء الجنوب الكبيرة تشكل جسرا بين هذين الجنسين (هارى سينت فيلبى).

(2) Acanthodactylus scutellatus audouini

وردت سبع عينات من الربع الخالى.

(3) Acanthodactylus boskianus

وصلت عينة واحدة من الربع الخالى

(4) Acanthodactylus sp.n

وصلت عينة واحدة من الربع الخالى

(5) Eremias bevirostris blanf

وردت عينة واحدة من الربع الخالى

(6) Eremias adramitanan bouleger

وردت أربع عينات من الربع الخالى

(D) Sincidae

Scincus mitranus Anderson

وردت عينات كثيرة من الربع الخالى

٢ – الثعابين

(1) Tarbophis guntheri Anderson

عينة واحدة من الحجاز

(2) Pasammophis schokari forsk

عينة واحدة من قطرات (الربع الخالى)

٣ – الضفادع

Rana ridibunda pallas

وردت ثلاث عينات من الأحساء. عثر الرائد شيزمان على هذا النوع فى الهفوف، لكن من الطبيعى ألا يكون هذا النوع واسع الانتشار فى الجزيرة العربية.

(ح) الحشرات

١- خنافس الربع الخالى

بقلم: ك. جي. بلير

من المتحف البريطاني

الخنافس التى جمعها السيد فيلبى هى من النوع الصحراوى تماما، والقسم الأكبر من هذه الخنافس ينتمى إلى النوع المسمي Tenebriondae. والقسم الأكبر من هذه الخنافس عبارة عن أنواع سوداء كبيرة الحجم، وبعض هذه الخنافس يمشى فى ضوء الشمس، ولكن البعض الآخر يختفى أثناء النهار.

الجنس Teberionidae الذى يشمل ٦٠ صنفا من إجمالى ٦٧ صنفا، يمثله ٧ أنواع من إجمالى ١١ نوعاً، والنوع الوحيد من هذا الجنس، أو الذى يسمى Mesostena pun- clicollis واسع الانتشار، إذ إنه يشيع وجوده فى كل من مصر والجزيرة العربية. كانت هناك أربعة أنواع غير مسجلة فى المتحف البريطانى إلى أن جمعها مؤخرا السيد برترام توماس من الإقليم نفسه. نوعان من بين هذه الأنواع الأربعة: Pimelia Arabica kluq، tentyria thomasi Blr ومعهما النوع الفرعى Thomasi، جرى وصفها من جديد. النوعان المتبقيان: Apentanode و Rhyinota لم يجر وصفهما بعد. هناك يرقة غاية فى الأهمية قد تكون يرقة خنفساء من النوع المسمى ..Sepidium sp هذه اليرقة، على العكس من يرقات الجنس Tenebrionid مكسوة بشعر حريرى طويل، والأرجل قوية جداً، ومفلطحة، ولها مخالب ضخمة. الواضح أن هذه الخنفساء من النوع الحجرى

العتيد، ويرجح أنها تحفر فى الأرض إلى عمق كبير. يبدو أن يرقات الأسرة الفرعية من النوع Sepidiinae غير معروفة تماما. واليرقة الصفراء الأسطوانية العتيدة، التى تشبه الدودة السلكية، يمكن العثور عليها أثناء الحفر بحثا عن الماء.

وإذا ما نحينا جانبا الجنس Tenebrionidae، نجد أن أهم الخنافس هى الخنفساء ديناستد Dynastid، التى تنتمى إلى النوع الفرعى المسمى Temnorrhynchus، الذى ربما يكون بلا وصف هو الآخر.

فيما يلى نورد قائمة بالخنافس التى جرى تحديدها بصورة مؤقتة[١]

(a) Tenebrionidde (خنافس الصحراء)

(1) Apentanodes philbyi sp.n.

جرى الحصول على عينة من عين سالة

(2) Erodius octocostaio peyer

تنتشر هنا وهناك (جرى الحصول على ٤٥ عينة)

(3) Erodius rechei all

عينتان من ابن جلاب

(4) Tentyria thomasi Blr

تسع عينات (من مداره إلى نايفة)

(5) Rhytinota deserticola sp.n.

عينة واحدة من طويريفة

(١) للحصول على قائمة مفصلة بالخنافس التى جمعها السيد فيلبى، مع وصف الأنواع الجديدة، راجع المقال الذى كتبه Blari,k.g فى مجلة Ent.mo.mag، المجلد ٦٩ (العام ١٩٣٣) صفحة ٤- ٧ .

(6) Mesostena puncticollis sol.

ثمانى عينات (من شناء ونايفة).

(7) Pimelia Arabica klug subsp. Thomasi Bir

عينة واحدة من مرباخ أبو ليلى.

(b) Buprestidae

psiloptera mimosae klug

عينة واحدة من أبى خشبة. جرى الحصول على شكل مميز آخر بواسطة السيد برترام توماس.

(c) Dermeslidae

Dermestes frischi klug

عينة واحدة من عين سالة. واحدة من خنافس الخنزير الموجودة فى سائر أنحاء الدنيا. هذه الخنفساء تتغذى على الجثث الجافة.

(d) Hybosoridae

Hybosorus illigeri Rshe

عينة واحدة من بربكة. هذا النوع واسع الانتشار فى أوروبا، وأفريقيا ويمتد شرقا إلى الهند.

(e) Dynastidae

Temnorrhynchus sp.

أربع عينات من بئر فضيل، وبنى جلاب، وقعاميات، وحض الحواى.

(٢) بقّ Hemiptera Heteroptera الربع الخالى

بقلم : و. أى. شينا، ماجستير
من المتحف البريطانى

(a) Pentatomidae

chroantha ornatula HS.

عينة واحدة من النميلة. جرى تسجيلها من قبل من الجزيرة العربية (حضرموت) بواسطة تيودور بنت Teodore Bent، وجرى تسجيلها أيضا من بلدان كثيرة فى جنوب أوروبا، وشمال أفريقيا، وآسيا فى المنطقة ما بين أسبانيا وتركستان.

(b) cydnidae

Amanurocoris Orbicularis Jak

عينة واحدة من قعاميات. مسجلة من تركستان ومن الجزيرة العربية (برترام توماس فى العام ١٩٣٠).

(c)Capsidae

(1) Laemocoris sp. N.

عينة واحدة من عين سالة. هذه العينة مرتبطة بالنوع zaruduyi REUT الفارسى. هذا النوع واسع الانتشار فى كل من إسبانيا، والجزائر، ومصر ومن بلاد فارس إلى تركستان.

(2) Tuponia pallida Reut

عينة من بنى زينان هذا النوع جديد على مجموعة المتحف البريطانى. هذا النوع كان معروفا فقط فى تركستان.

(d) Belastomatidae

(1) Hydrocyrius columbiae (بقة الماء العملاقة)

عينة من الهفوف. سبق تسجيلها من المكان نفسه بواسطة الرائد شيزمان. كما جرى تسجيلها أيضا من مسقط ومن بلدان أفريقية متعددة، بدءا من الجزائر إلى الحبشة وموزمبيق.

(٣) فراش وعث Lepidoptera الربع الخالى

(مع الشكر والتقدير للسيد ن.د. رايلى، مسئول قسم الحشرات، فى المتحف البريطانى)

(أ) الفراش

(1) Apharitis gilletti Riley

(جرى وصفها أيضا من أراضى الصومال، ولم يسبق الحصول عليها قبل ذلك من الجزيرة العربية، حيث توجد هذه الفراشة المسماة فى سوريا، والعراق، وعدن وأيضا فى بلاد السند وفى مصر)، جرى الحصول على عينة واحدة من خلة أدراج، وجرى مشاهدة حوالى عشرين فراشة أخرى فى كثير من الأماكن فى منطقة الرمال.

(2) Pyameis cardui:

شوهدت عينة واحدة بالقرب من نايفة، لكن لم يجر الإمساك بها.

(ب) العثة

مسلسل	اسم العثة	الاسم العلمى	ملاحظات
(1)	Sphingidae	Macroglossa Stellatarum	شوهدت عينة واحدة في عين سالة لكن لم يجر الإمساك بها
(2)	Agrotinac	Chloridaepelligera	عينة واحدة
(3)	Agrotinac	Euxoa Saracenica	عينة واحدة
(4)	Hadeninae	Scotogramma trifolit	عينة واحدة
(5)	Erastranae	Tarache hortensis	عينة واحدة
(6)	Catocalinae	Leucanitis cabylana	عينة واحدة
(7)	Catocalinae	Anydrophila? Sp.	عينة واحدة
(8)	Ophiderinae	Anumela Stramineata	عينتان
(9)	Ophiderinae	Anumela ? sp.n	عينة واحدة بالقرب من spatzyl
(10)	Ophiderinae	Anumela ? sp.n	٤عينات بالقرب من Cestis Menant
(11)	Ophiderinae	Anumela ? sp.n	٤٩عينة بالقرب من hitgeri كرست Christ
(12)	Ophiderinae	Anumela ? sp.n	٦٤ عينة بالقرب من spilota إرش Ersch
(13)	Ophiderinae	Anumela Tathorhynchus Exsiccate	عينتان
(14)	Lasiocampidae	Chilena? sp. n	عينة واحدة بالقرب من geyri
(15)	Anerastunae	Saluria ? sp. n.	عينة واحدة
(16)	Anerastunae	Saluria ? sp. n.	عينتان
(17)	Phycitinae	Lardomia biformis	ست عينات
(18)	Phycitinae	Heteregrophis? sp. n.	ثمان وعشرون عينة
(19)	Phycitinae	Heteregrophis? sp. n.	عينة واحدة بالقرب من كوستابلا costabella
(20)	Phycitinae	Ancylosis ? sp. n	عينتان
(21)	Phycitinae	Ortholepis ? sp. n.	عينة واحدة
(22)	Larentunae	Eupithecia ? sp. n	عينة واحدة
(23)	Larentunae	Eupithecia ? sp. n	عينة واحدة
(24)	Larentunae	Eupithecia ? sp. n	عينة واحدة
(25)	Sterrhinae	Evis? Sp. n.	ست عينات

ملاحظة: - تجدر الملاحظة هنا، أن من بين ١٨٠ عشة المسجلة فى هذه القائمة، والتى تمثل ٢٥ نوعًا، ما لا يقل عن ١٦ نوعًا تضم حوالى ١٠٤ عشة، لا يمكن إرجاعها فى الوقت الحالى إلى أى نوع من الأنواع المعروفة. إجراء المزيد من الدراسة والبحوث يمكن أن يقلل عدد الجديد المشكوك فيه، لكن الواضح أن الربع الخالى فيه حياة حيوانية عجيبة من الفراش.

(٤) ذباب Diptera الربع الخالى

(مع خالص الشكر والتقدير للآنسة أوبكرتف من المتحف البريطانى)

(a) Calliphoridae

(1) Rhynchomyia Callopsis Lowe

عينة واحدة

(٢) ثلاث عـينات، يرجح أنهـا ترجـع إلى جنس من الذباب يدعى "أرابا" **Araba**، وهذه العينات جاءت من بنى زَيْنان. تقول الآنسة أوبرتين **Aubertin**: إنها لم تشاهد من قبل أشياء من هذا القبيل. وهى لا تعرف كيف تتصرف فى هذه العينات".

(b) Tachinidae

عينة واحدة من هذا النوع ومشكوك فيها.

(٥) جُنْدُب Orthoptera الربع الخالى

(مع خالص الشكر والتقدير للسيد / ب. ب. يوفاروف من المتحف البريطانى)

(a) Mantidae

(1) Eremiaphila laevifrons,uvar

جرادة واحدة بالغة من شقة الخلفات، والعديد من اليرقات غير المحددة، وربما كانت تنتمى إلى النوع نفسه، وقد جرى جمع هذه اليرقات من ست مناطق واسعة. وقد جرى وصف هذا النوع بصفة أساسية من مسقط.

(b) Acrididae

(1) Schistocera gergaria,Frosk

جراد الصحراء

جرى جمع العينات من خمس مناطق فى الرمال .

(2) Playpterna Piclipes, uvar.

جرى جمع عينة واحدة من شقة الخلفات، وجرى وصف هذا النوع من مسقط، وقد استطعت الإمساك به أيضاً فى جدة.

٦ – الزنابير والنحل إلخ Hymenoptera فى الربع الخالى

بقلم : السيد هوج سكوت من المتحف البريطانى

والتى جرى جمع عيناتها بواسطة السيد فيلبى

هذه الزنابير والنحل.. إلخ التى جمعها السيد فيلبى كلها أشكال جنوبية ولا صلة أو علاقة لها بالحبشة أو الشرق. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك نوعًا من النمل واسع الانتشار، ويمثل هذا النوع فى الربع الخالى تشكلية جرى جمعها من قبل من سورية، لكن فى جبال قارة تجد أن هذا الصنّف من النمل تمثله أنواع فرعية واسعة لانتشار فى أفريقيا الاستوائية. قد يمثل ذلك خطًا فاصلاً بين الحيوات الحيوانية فى لجبال الساحلية الجنوبية من الجزيرة العربية والصحراء الواقعة إلى الشمال من هذه لجبال. لكن نظرًا لأن أنواعًا كثيرة يجرى تمثيلها بواسطة نوع واحد أو قلة قليلة من لأنواع، ونظرًا أيضًا لأن هذه الأنواع يمكن ردها إلى أجيالها وأجناسها المختلفة، دون زيد من التدقيق، فإن التعميم يصبح هنا أمرًا مبالغًا فيه.

(a) Ichneumanidae (ophioninae)

(1) Ophion sp.

جرى الحصول على عينة واحدة لهذا النوع من مدارة Madara

(2) Hemicopilus sp.

جرى الحصول على أربع عينات لهذا النوع من عين سالة، وحض فارس، حواية. وهذه العينات لا تتفق مع أى نوع من الأنواع التى جرى وصفها فى المتحف يطانى.

(b) Braconidae (Cheloninae)

Phanerotoma sp.

جرى الحصول على عينة واحدة من عين سالة.

(c) Eumenidae

(زنابير حقيقية وحيدة)

Odynerus sp. Near O.floricolo Sauss

جرى الحصول على عينة لهذا النوع من عين سالة،

(d) pompilidae (psammocharidae).

(زنابير أغوار وخنادق وحفر وأخاديد تتغذى على العناكب، التى تستخدمها فى تزويد أعشاشها بالطعام).

(1) platyderes sp.

جرى الحصول على عينة من هذا النوع من بنى جفنان Bani Jafnan

(2) pompilus sp. Near p.playacanthus kohl.

جرى الحصول على عينة من هذا النوع من عين سالة.

(e) Scoliidae.

(زنابير طفيلية وحيدة. فى الحالات التى تعرف فيها طبائع هذه الحشرات، فإنها تتطفل على يرقات الخنافس من النوع Cockchafer، لكن ذلك قد لا ينطبق على الجنس المشار إليه هنا).

Iswara sp., possibly I. chobauti Andre

هذا النوع مسجل من بلوخستان. جرى جلب سبع عينات (كلها ذكور) من بنى جلاب، ووبار، وشنًّاء، ونايفة، وقعاميات. الذكور من هذا الجنس يكونون مكتملى الأجنحة، وعادة ما يكونون طيارين ممتازين، أما الأنثى فهى قصيرة الأجنحة، ويرجح أن تكون غير قادرة على الطيران تماماً.

(f) Bees النحل

Megachile sp. (نحلة صغيرة قارضة للأوراق)

جرى الحصول على عينة واحدة من آبال الخادم.

(g) النمل

(1) Camponotus (Tanaemyrmez) Comptessusf

جرى الحصول على عينة لهذا النوع من عين سالة (جندى، وشغالتان كبيرتان، وشغالة صغيرة). هذه العينات نفسها سبق أن جاء بها برترام توماس من جبال قارة، وسبق تسجيل هذا النوع من صحارى الجزائر وتونس.

(2) Messor barbarusl., subsp. Semirufus Andre, var, migriceps Santschi.

جرى الحصول على ثلاث شغالات من طويريفة. هذا الصنف من هذا النوع جرى تسجيله من قبل من فلسطين. الصنف المسمى **Messor barbarus** جرى الحصول عليه بواسطة برترام توماس من جبال قارة، مختلف وينتشر فى سائر أنحاء الحبشة، والسودان وأفريقيا المدارية.

(3) Crematogaster (sphaeracrema sp.

جــرى الحصــول على عيـنة مـكونة مـن سبع إناث من بئر فـضيل، ومدارة، وأبو خشبة والحواية. هذا النوع يتعذر فيه تحديد الإناث، وقد جلب برترام توماس عينة هذا النوع من الربع الخالى أيضًا. نظام التعرُّق فى الأجنحة الأمامـية غـير عـادى، إذ تغيب عنها الخلية القرصانية، وقد يكون من الضـرورى إيجاد جنس فرعى مستقل أو جنس مستقل لهذا النوع.

Jehovae Forel.(4) Crematoyaster (Acrocoelia) auberti Emery, subsp.

جرى الحصول على شغالتين من بنى زينان. وهذا النوع جرى تسجيله من قبل من فلسطين.

النمل الأبيض (h) Termite

جرى الحصول من بنى زينان على فرد واحد من هذا النمل، وقد وُصِفَ وصـفًا مستفيضاً، ويصعب البت فى نوعه، فى ظل غياب المزيد من المعلومات.

(ط) الحياة النباتية فى الربع الخالى

(مع خالص الشكر للسيد جي رامسبتوم Ramsbottom، مسئول قسم النبات في المتحف البريطانى)

الاسم العربى	الاسم العلمى	الاسم العربى	الاسم العلمى
Abal آبال	Calligonum sp.	Hadh حض	Cornulacea monacantha Del
	Artemisia monosperma Del	Halam حلام	
Adhir أضير	Artemisia scoparia waldsl and kit	Hamdh حمض	Zygophyllum album
Aqa ألقة	Dilerygiun qlaucum Deene	Harm حرم	
Andab أنداب	Cyperus Conglomeratus Rottb	Harmal حرمل	Phazya stricla Deone
Aqul' عقول	Prosopis stephaniana kunth	Ithil أثل	lamarix sp. T. articulato rahl.
	Prosopis sp.	Khis خيس (خيسه)	
Arlaj عرفج	Francoeurla crispa Cuss	Kurraish قريش	
	Rhanterium Suaveolens Desf	Marak مرخ	
Arrad' عرّاد		Namas ناماس	Juncus maritimus Lam
Arta أرطة	Colligonum Comosum	Nussi نوسى	Aristida sp.
Birkan بركان	Fagania glutlnosa Del	Qarnua قرنوة	Irodlum bryanifollum Boiss
Dha'a ضاعة	Laslut us hirsuteus (Forsk)	Qasab قصب	Graminea Indet
Danun ضانون	Phelipaea	Qalaf قطاف	
Dhumran ضمران	Troganum mudatum Del		Heliotroplum europacum
Duraima دويمة	Fogonia critical.		Varienuiflorum (Guss) Boiss
Fani فانى		Ramram رامرام	Heliotropium lingosum
Ghadha غاضة	Arthrocnemon frulicosum Maq.		Heliotroplum sp. off hispidum
Ghaf غاف	Phragmites Communis Trin	Rimdh الرمض	Forsk
Sabat سبات	Aristida sp.	Suwwad سوّاد	Heliotroplum sp.
Sa'dan سعدان	Neurada procumbens L		Suaeda Vermiculata Forsk
	Acacia asak willd	Tarla طرفة	
Salam سلام	Acacia flava Schweinf	Tarthuth طرثوث	Tamarix gallica L.
Samr سَمُر	Acacia laeta R. Br. (Pods)	Thamam ثمام	Cynomorium coccineum
	Acacia Tortilis Hayne branch.	Thullaith ثُليث	? Graminea sp.
Sarh صرح	Moerua uniflora vahl		Halapeplis perfoliata (Forsk)Bge
Shinan شينان	Seiditzia rosmarinus Bunge	Zahr زهر	Tribulus macropterus Boiss

(ى) قائمة بأسماء أماكن مجهولة الاسم، أعطيت

أسماء أثناء الرحلة

(١) روضة الرمح (فى الصُّمَّان، بالقرب من مقينمة) - جرى العثور على رأس سهم برونزية فى هذا المكان.

(٢) رقة الشَّلْفة (فى الرمال، شمال النميلة) - عثرنا فى هذا المكان على بعض الأدوات المصنوعة من الصوَّان.

(٣) شقة أبو نهار (فى الرمال، جنوب النميلة) - مرعى عامر بالأدغال.

(٤) بير مقران (بالقرب من الطويريفة) - بئر مدفونة فى حوض وادى زلطى.

(٥) بير مكسر (بالقرب من الحافة الغربية لرقعة بنى مقصّر) - بئر مدفونة فى أرض زلطية.

(٦) بير المخفى (غرب عين سالة) - صخرة مكشوفة فى الرمال، ويشك بأنها بئر مدفونة.

(٧) السيلان (بالقرب من عين سالة) - قطعة من الأرض المكشوفة يُرجَّح أن تكون بئرًا مدفونة.

(٨) المنيفة (بالقرب من عين سالة) - ربوة صخرية بصفة أساسية داخل تجويف رملى على شكل حدوة الفرس.

(٩) بير جفنان (عند الحافة الشمالية لمنطقة بنى جفنان) - يحتمل أن تكون بئرًا مدفونة.

(١٠) أم القرون (جنوب بير جفنان) – أرض مكشوفة من الجبس الأبيض.

(١١) أم السَّهانين (جنوب أم القرون) – منطقتان دائريتان مفلطحتان من الجبس.

(١٢) أم طينة (شمال شنَّاء) – قطعة من الأرض المكشوفة الغرينية، والمخلوطة بالزلط فيها بعض شظايا الصوَّان وبعض شظايا الصخور النيزكية.

(١٣) أبو مهيرات (عند الحافة الغربية للقطرات) – رسوبيات كبيرة من أصداف الماء العذب.

(١٤) أبو شبَّان (غرب أبو مهيرات) – رسوبيات من أصداف الماء العذب.

(١٥) وادى الحواية (فى هضبة الحواية) – سلسة من أربعة غدران شبيهة بالوادى وأراضى مكشوفة عبارة عن قيعان صخرية.

(١٦) بير الحواية (فى خلة الحواية) – هناك شك فى كون هذا المكان بئرًا مدفونة.

(ك) الارتفاعات الأرضية فى الربع الخالى

ملاحظة. - جرى إعداد هذه القائمة بواسطة جهاز قياس الضغط الجوى والارتفاعات، وعن طريق قراءات قياس الفلوٌ عن طريق قياس درجة غليان الماء، والتى قام بها بعض أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية، وهذه القائمة مؤقتة :

مسلسل	المكـــــان	الارتفاع بالقدم	ملاحظات
١	العقير	سطح البحر	على الساحل
٢	الهفوف	٢٥+	بلدة
٣	قصر دُلَّيقِية	٤٧٠+	ــــــــــــ
٤	بئر نابت	٤٢٠+	ــــــــــــ
٥	أبيار دعيج	٢٥٠+؟	مخيم + ٣٢٥
٦	سلوة	سطح البحر	على الساحل
٧	قرن أبو وايل	١٤٠+	قمة تل منعزل
٨	سكاك	٢٠ -	عند سفح التل السابق
٩	بئر أبو أرزيلة	١٤٠ +	حوض مصب
١٠	أنباك	٥-	مخيم فى قناة
١١	بئر حديرات	١٢٠+	فى قناة من القنوات
١٢	حفاير بئر ابن القطم	٢٥٠+	ــــــــــــ
١٣	بئر قاضة	٤٥٠+	ــــــــــــ
١٤	وادى سحبة	٥١٠+	ــــــــــــ
١٥	سرٌ المعبد	٥٦٠+	مخيم
١٦	بئر بركان	٤١٥ +	مخيم على ارتفاع + ٥٨٠
١٧	قرية الخين	٤٥٠ +	ــــــــــــ
١٨	جابرين (أم الرماد)	٤٩٠ +	حدد شيزمان ارتفاع هذا المكان بـ + ٦٠٤
١٩	قر بن دهباش	٥٧٠ +	ــــــــــــ
٢٠	أبيار الحفاير (حوض جابرين)	٦٣٥ +	ــــــــــــ

مسلسل	المكـــان	الارتفاع بالقدم	ملاحظات
٢١	قمة ظربون	+ ٦٧٠	عند سفح سلسلة صخرية +
٢٢	بئر قليبة	+ ٦١٥	٥٥٠
٢٣	بئر عوج	+ ٥٨٥	————
٢٤	بئر ابن جهيم	+ ٦٨٠	————
٢٥	بئر مقينمة	+ ٨٥٠	————
٢٦	بئر فضيل	+ ٧٧٥	————
٢٧	شقة الخلفات	+ ٨٥٥	————
٢٨	بئر النميلة	+ ٨٠٠	رسوبيات صدفية
٢٩	بئر طويريفة	+ ٦٠٠	————
٣٠	كئوس براكين وبار	+ ٧٦٥	————
٣١	بئر فراجة	+ ٥٩٠	مخيم
٣٢	بئر أم الحديد	+٦٨٠	مخيم
٣٣	بئر إبراهيمة	+ ٦٦٠	————
٣٤	وادى مجارى تسرات	+ ٧٨٥	————
٣٥	وادى مجارى معشية	+ ٦٠٠	
٣٦	خلات جدير	+ ٧٩٠	أرض جبسية
٣٧	عروق بنى جلاب	+ ٧٣٠	صخر أديمى مكشوف
٣٨	بئر عين سالة	+ ٥٢٥	————
٣٩	بئر نايفة	+ ٥١٠	————
٤٠	بئر زقيرط	+ ٥٥٥	————
٤١	أم القرون	+ ٩٢٥	————
٤٢	أم الطينة	+ ٩٦٠	————
٤٣	بئر شناء	+ ٩٢٥	مخيم فى منخفضات رملية
٤٤	بئر ابن سويليم	+ ٩١٠	رسوبيات صدفية
٤٥	بئر ماموره	+ ٩٣٠	مخيم فى منخفضات

مسلسل	المكـــــان	الارتفاع بالقدم	ملاحظات
٤٦	بئر زويرة	+ ٩٤٠	————
٤٧	بئر طويرة	+ ٩٦٠	رسوبيات صدفية
٤٨	قطرات	+ ١٠٨٠	مخيم منخفضات
٤٩	أبو مهيرات	+ ٩٨٠	مخيم منخفضات
٥٠	حباكه قعاميات	+ ١١٩٥	مخيم منخفضات
٥١	أبو سبان	+ ١٠٥٠	مخيم منخفضات
٥٢	آبال الخادم	+ ١٢٣٠	مخيم منخفضات
٥٣	خلات حواية	+ ١٣٤٠	مخيم فى منخفض
٥٤	هضبة حواية	+ ١٢٨٠	مخيم فى منخفضات
٥٥	قصبات حواية	+ ١٤٥٠	الحافة الشرقية
٥٦	خلات حواية	+ ١٣٥٠	سطح صحراوى حقيقى
٥٧	خلات أدراج	+ ١١١٠	مخيم فى منخفضات
٥٨	بئر نايفة	+ ٥١٠	الحافة الشرقية
٥٩	خلات أدراج	+ ١١٠	الحافة الغربية
٦٠	بنى زينان	+ ١٠١٠	الحافة الغربية
٦١	هضبة الحواية	+ ١٠٨٥	مخيم فى سهب
٦٢	سهل ساهمه الزلطى	+ ١١٤٥	مخيم فى سهب
٦٣	بنى معاريض	+ ١٣٦٠	واحة
٦٤	سهل أبو بحر الزلطى	+ ١٣٤٥	مخيم
٦٥	سهل أبو بحر الزلطى	+ ١٦٤٥	
٦٦	الرميلة والمنخفضات	+ ١٨٧٠	
٦٧	جدة الفرشة	+ ١٩٠٠	
٦٨	قناة الفرشة	+ ٢١٢٥	
٦٩	السليل	+ ٢١٣٥	

ملاحظة: اختلاف الارتفاعات بالنسبة لمكان واحد، يعني مخيمات فى أماكن مختلفة من المكان نفسه.

(ل) أقسام قبيلة المرَّة

مسلسل	القسم	الشيخ الكبير	القسم الفرعي	الشيوخ والأعيان
أ	العفران (٦٠٠)	حامد بن صالح بن جلاب	١- العوير	حمد بن صالح بن جلاَّب
				فرج العوير
				على بن صالح الجهمان
				محمد بن حُمَيْد
			٢- آل زايد	صالح بن على أبو ليلة
				حمد بن سلطان بن هادى
			٣- آل بريص	سعيد بن الأحيمير
			٤- البوقية	سالم بن سعيد آل دماغ
			٥- البنا	حمد بن محمد بن سويليح
			٦- النقل	————
			٧- الشيبة	
ب	العضبة (٤٠٠)	فيصل بن عبد الله بن	١- المنصور	فيصل بن نقيدان
		عبد الرحمن بن نقيدان	٢- الجفيش	جابرين حمد بن برجس بن حنزب
			٣- القارس	هزاع بن هزاع
				فضيل (صاحب بئر فضيل)
				ابن حوقاى
جـ	البُحيح	متعب بن محمد بن	٤- الغفير	ابن عقير
		صعاق (بن سمرة)	١- آل سمرة	متعب بن صعاق
				ابن أدهم
			٢- الستيد	محمد بن عداية
			٣- الحسانة	راشد بن أنديله (نديلة)
			٤- آل سعيد	محمد آل هطيل
			٥- آل صالح بن غمرفاس	طالب المهنّا
			٦- الخيتيم	متعب بن مُنَخَّس
			٧- الجهيش	سويد بن الحوال
			٨- البرير	على المدهوس
			٩- السويحيت	جابر بن فرج (توفى)
			١٠- آل - زقيبة	محمد بن لحيم
			١١- آل - راشد	محمد بن راشد
				على بن صالح

مسلسل	القسم	الشيخ الكبير	القسم الفرعى	الشيوخ والأعيان
د	الجرَّابة (٣٠٠)	حمد بن نهاب	١- الجَبْران	سعيد بن فصل (متوفى)
				جابر بن سالم بن فصل
				سالم بن فصل
			٢- آل - نجم	محمد الحسوان
			٣- آل - تابيتة	مبارك بن راشد بن معيوف
			٤- الغَياثين	سعيد بن سعيد الحرير
			٥- البزامَ	على بن خميس
هـ	الحُطَيلة (٥٠)	محمد بن سويليح	؟————	يحتمل أن تكون مثل القسم الفرعى
				سعيد من البحيح
و	الدّمنان (٦٠)	سويد بن هادى العزمة	١- العزمة	سويد العزمة
			٢- آل ضاكمة	محمد بن على الضاكمة
			٣- الخيارين	على بن ناشر
ز	الجابر (٢٠٠)	فيصل بن حمد المرضف	١- آل - زُقَيمْة	فيصل المرضف
				عويضة بن عضيمان
				عايض بن أوزة
				على بن جهيم
				صالح بن رمنية
				صالح بن ــــ ؟
			٢ - آل هادى بن حمد	ضيغام بن حجام
			٣ - الغضوان	على أبو ساق
			٤- المقلين	حمد بن توتان
				سعود بن قوراى ؟
				على بن دهباش (؟)
				هادى بن شادوك (؟)
ح	الفُهَيْدة	لاحم بن شُرَيِّم	١- الشافع	سالم بن جابر (؟)
	(البشر) (٤٠٠)		٢- آل شافع	لاحم بن شُرَيِّم
			٣- العزيب	على بن جلمود
			٤- النُميَّان	على بن حنضل
			٥- الغانم بن هادى	صالح بن رشد
				بجاش بن حمد

ملاحظة: الأرقام الواردة بين قوسين هي عبارة عن العدد التقريبي للخيام (أي العائلات)، والتي تشكل على حد قول الرواة خيام علي بن جهمان، وسويد العزمة. وإذا ما سلمنا بأن كل أسرة مكونة من أربعة أفراد، فذلك يعني أن عدد أفراد قبيلة مرَّة يقدر بحوالي ١٠٤٤٠ نسمة (أي حوالي ١٠٠٠٠ نسمة يسكنون ٢٦٠ خيمة الواردة في الجدول. هذا التقييم مبالغ فيه إلى حد ما، وربما قدر عدد أفراد القبيلة بحوالي ٥٠٠٠ نسمة، وهذا هو ما يقترب من العدد الحقيقي لأفراد هذه القبيلة. أقسام قبيلة المرَّة موزعة على النحو التالي:

الغفران .... المنطقة المحيطة بشنَّاء والخِيران.

عضبة .... جيبان والمنطقة المحيطة بها إلى بئر فضيل.

البُجيح .... الجافورة.

جرَّابة .... وبار، والجزء الأوسط من الرمال.

هطيلة .... منطقة الأحساء.

الدِّمنان .... الصحراء الخالية من الماء، من مقينمة إلى نجران.

جابر .... جابرين والمنطقة الميحطة بها.

فُهَيْدة .... منطقة الأحساء.

ملحق الصور
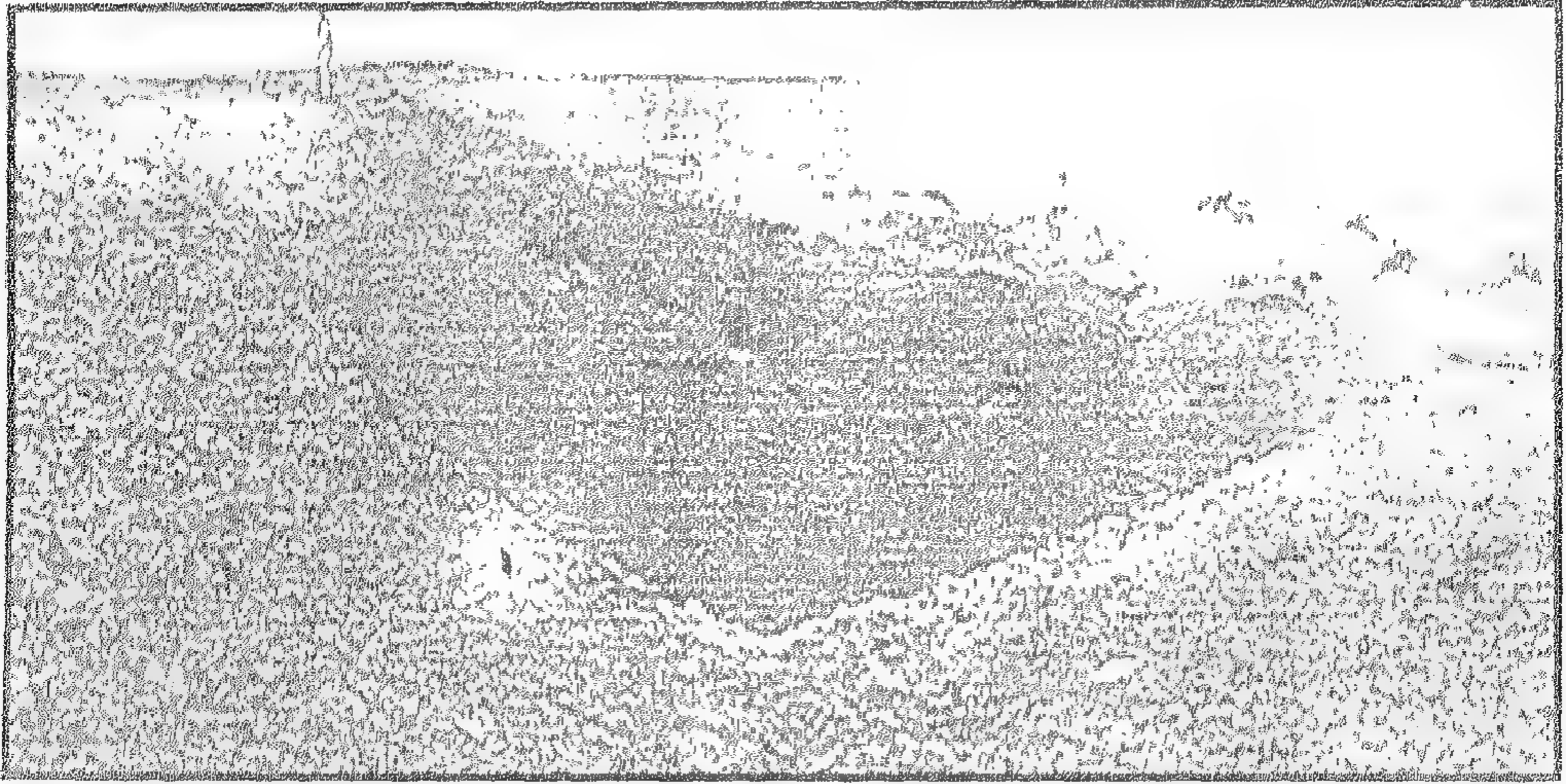
فوهة بركان حجرية نيزكية فى أوبار تطل على الجنوب الغربى
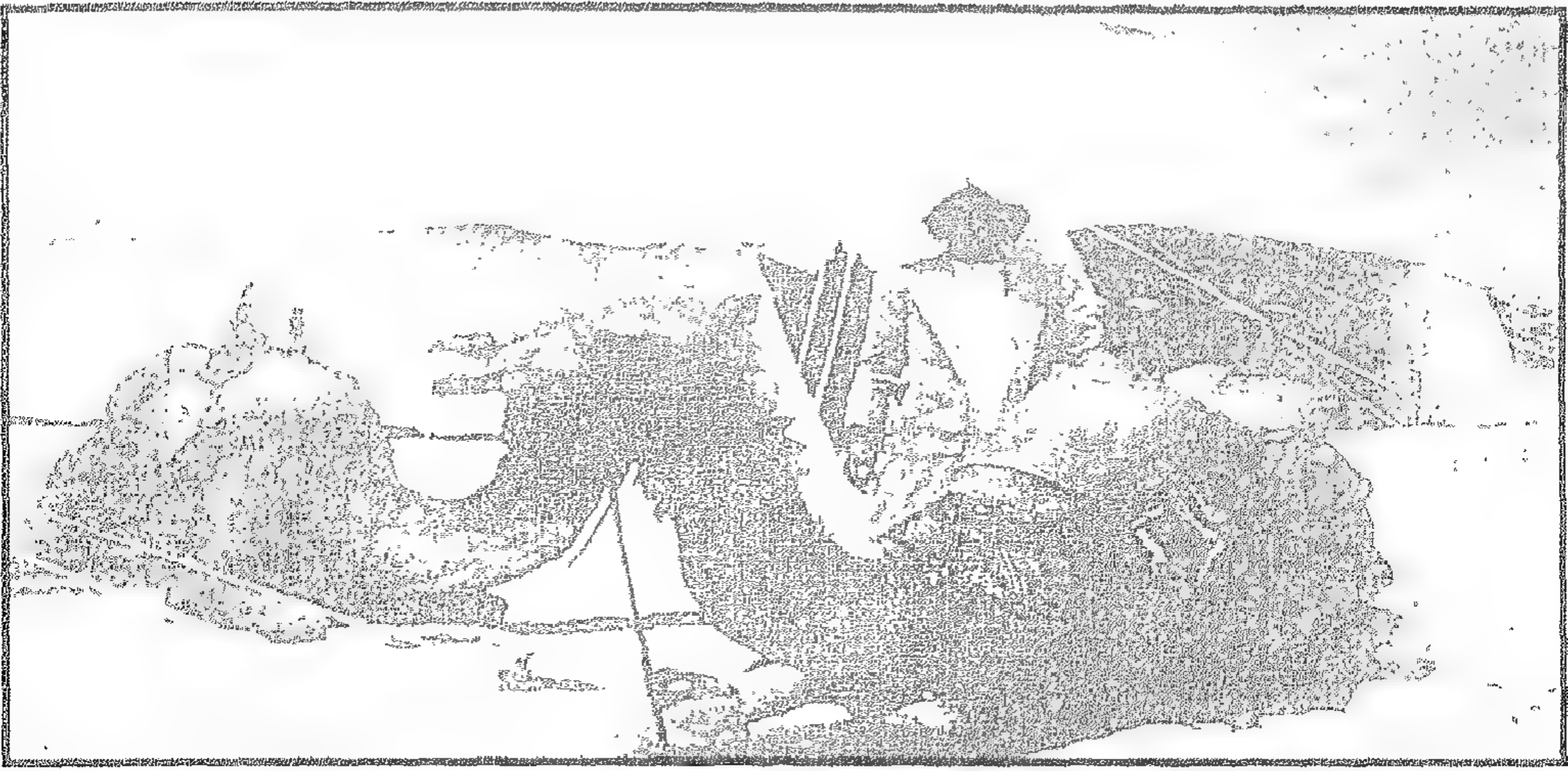
سعدان والناقة البحرانية

بيادة نخيل على الساحل في سلوة
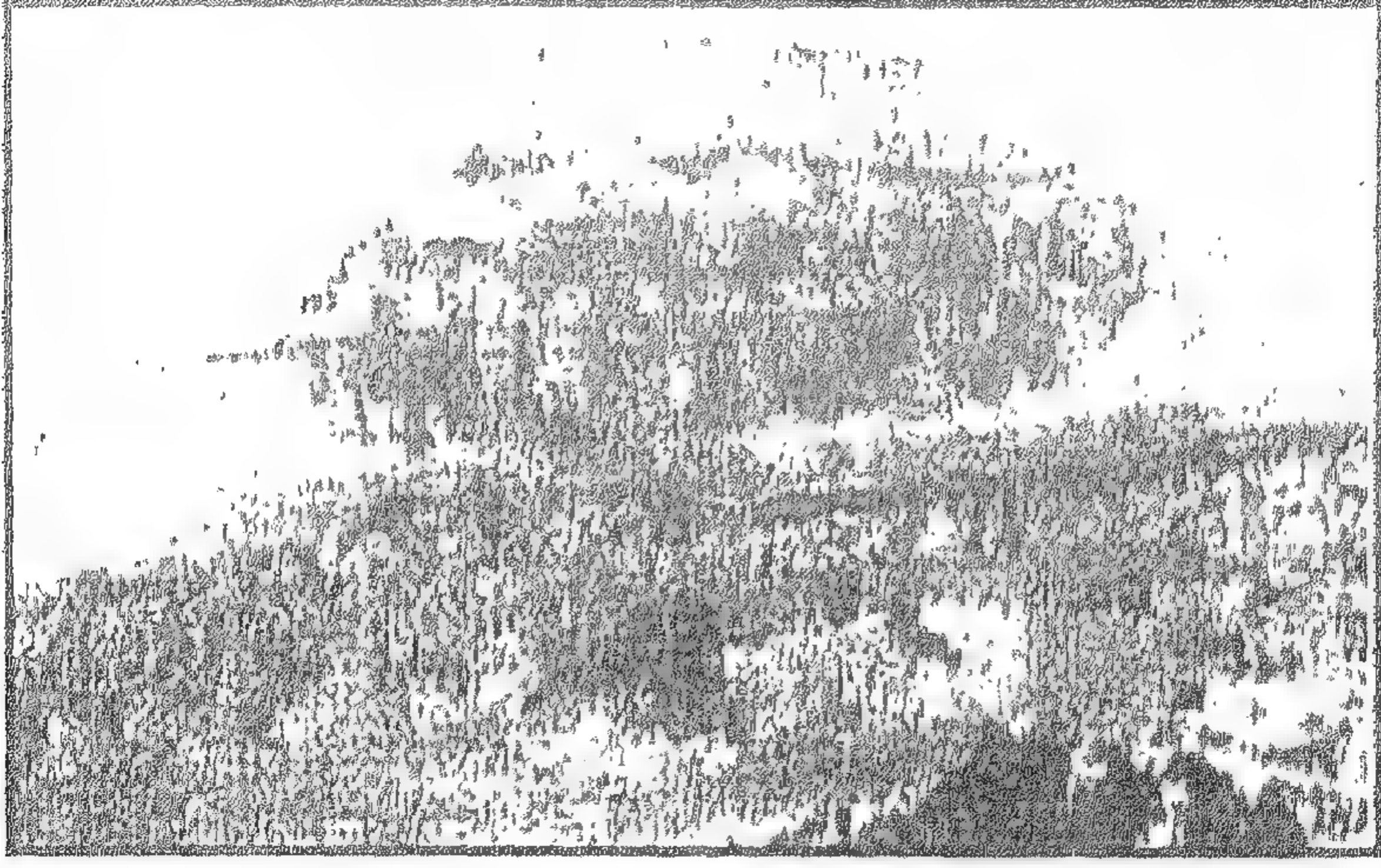
ربوة منعزلة من قرن أبو وعيل بالقرب من سكاك
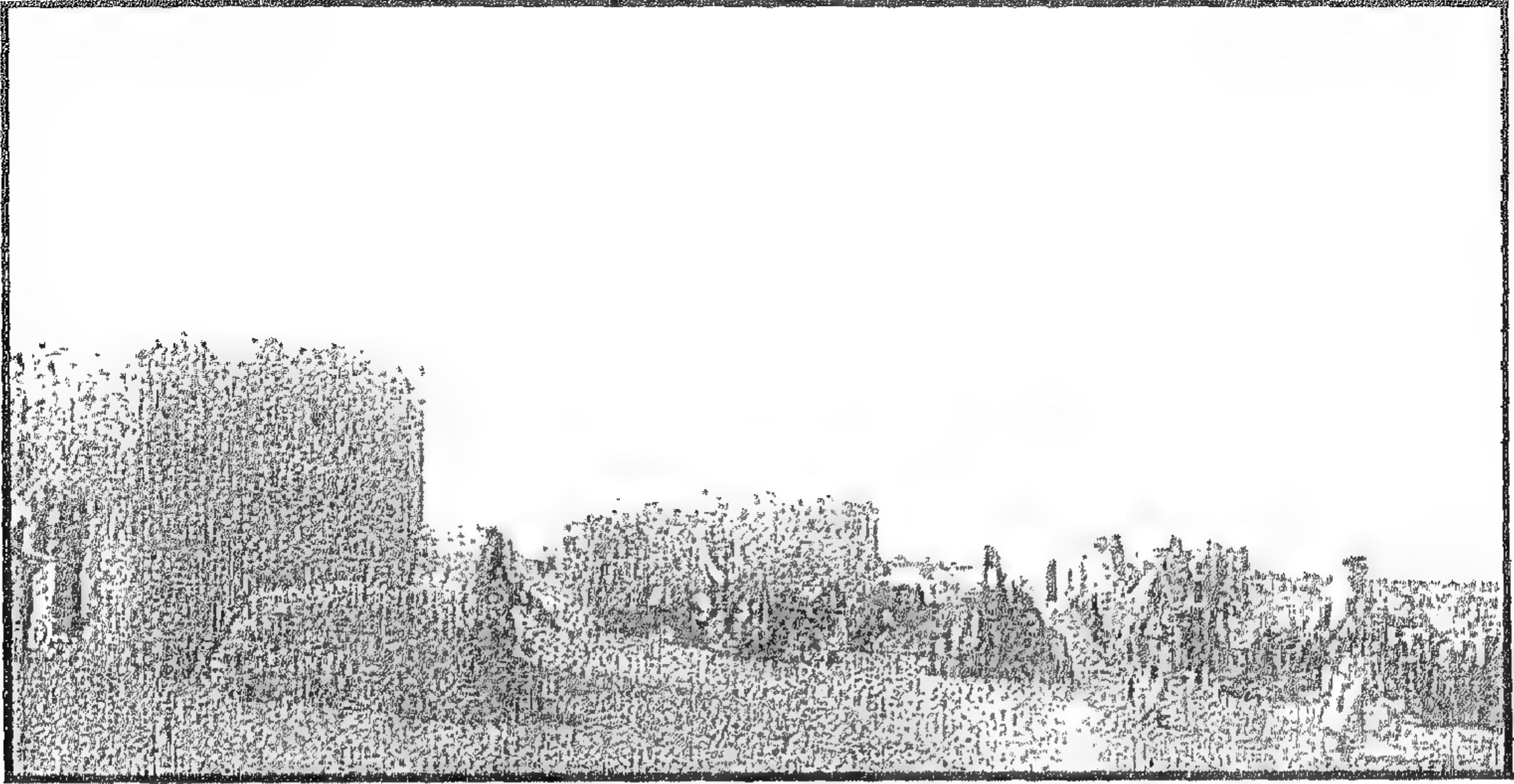
وقفة عند قرية خين المهجورة، مستوطنة أصيلة من مستوطنات حركة الإخوان

عين فى أنباك ومن حولها الغاب والنخيل
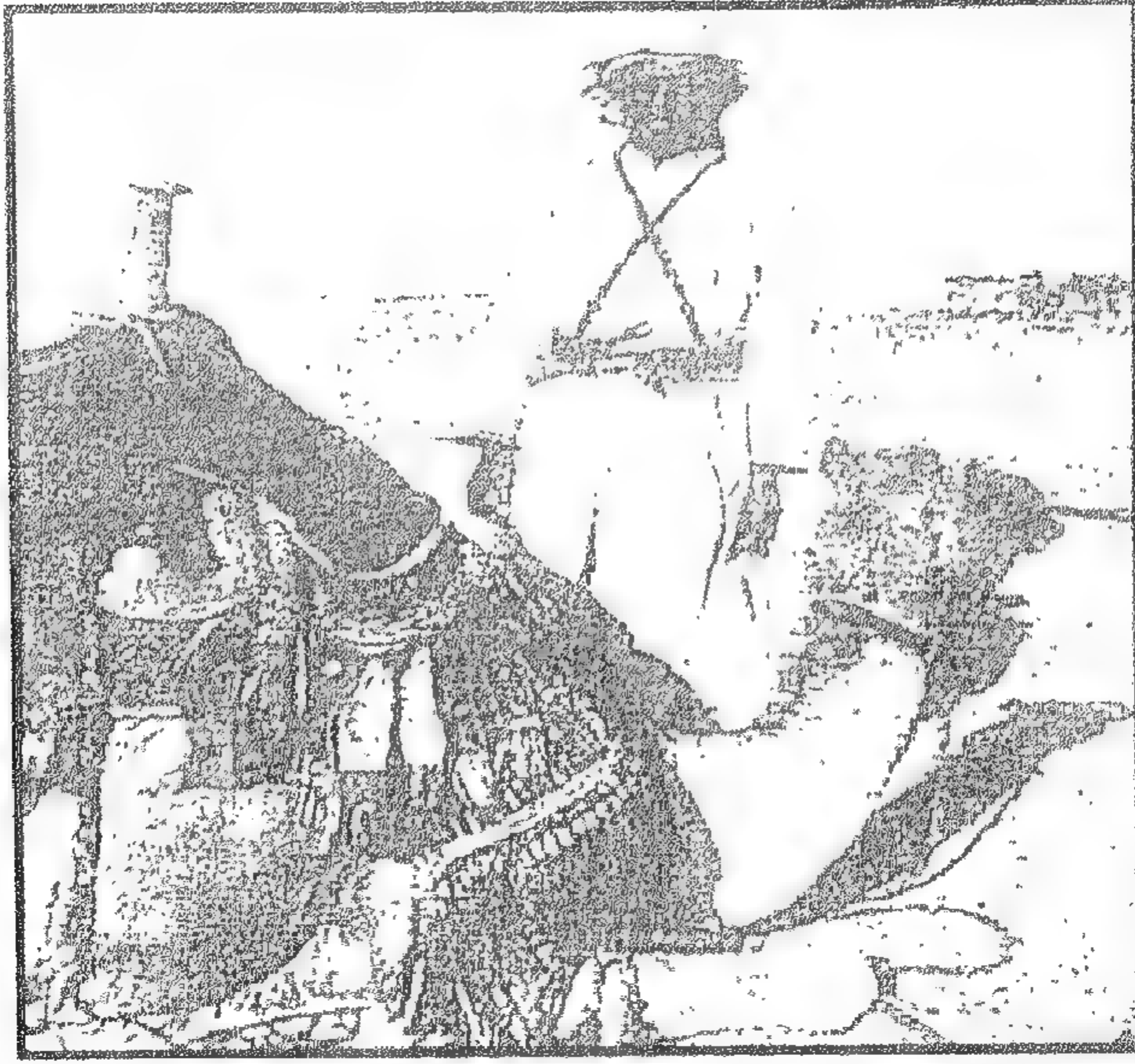
على بن صالح بن جهمان : المرشد الرئيسى ومعه البحرانية فى مقينمة

العضوان المنصوريان فى المهمة : حميد بن أمهج وصالح بن عزيز
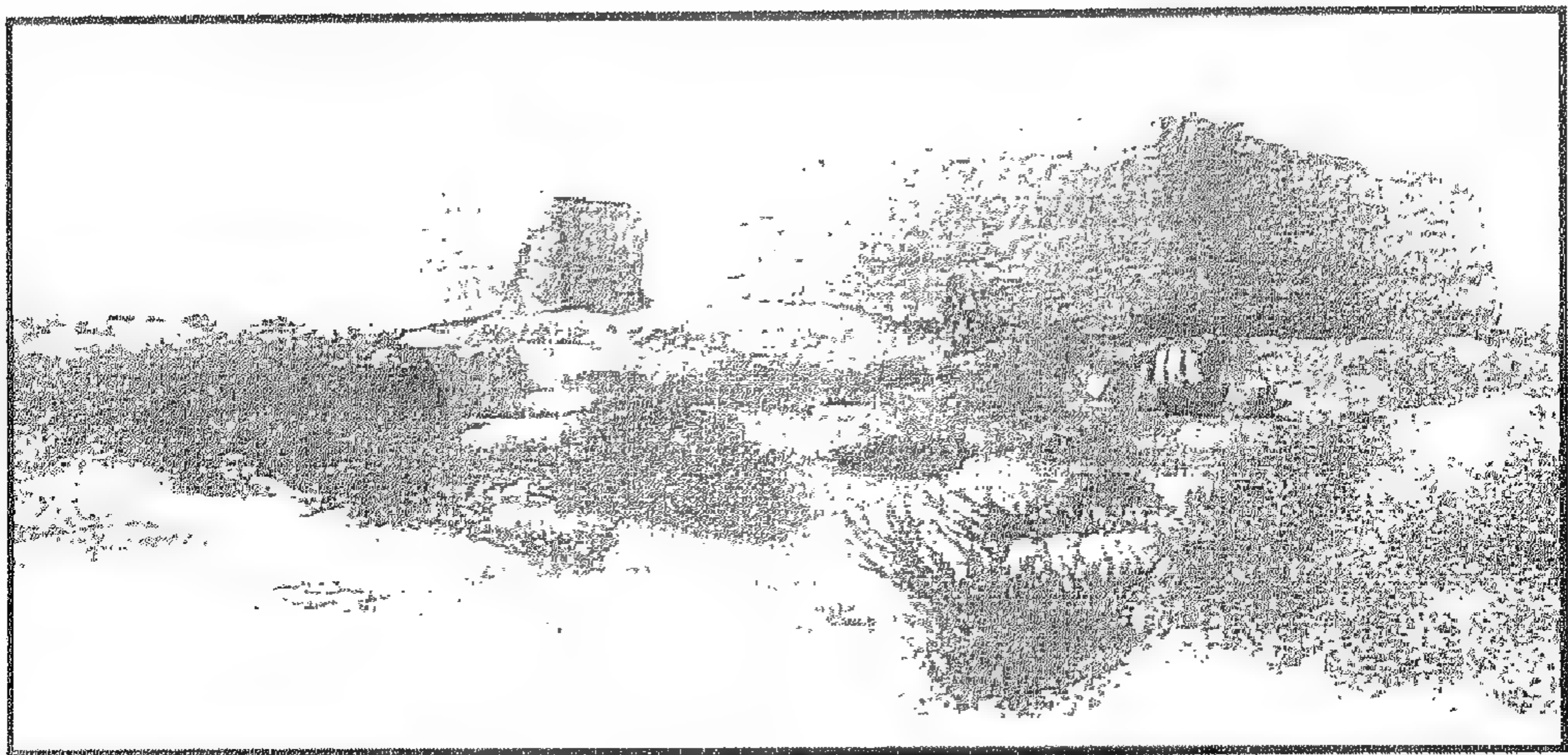
قصر ابن دهباش فى منطقة جابرين
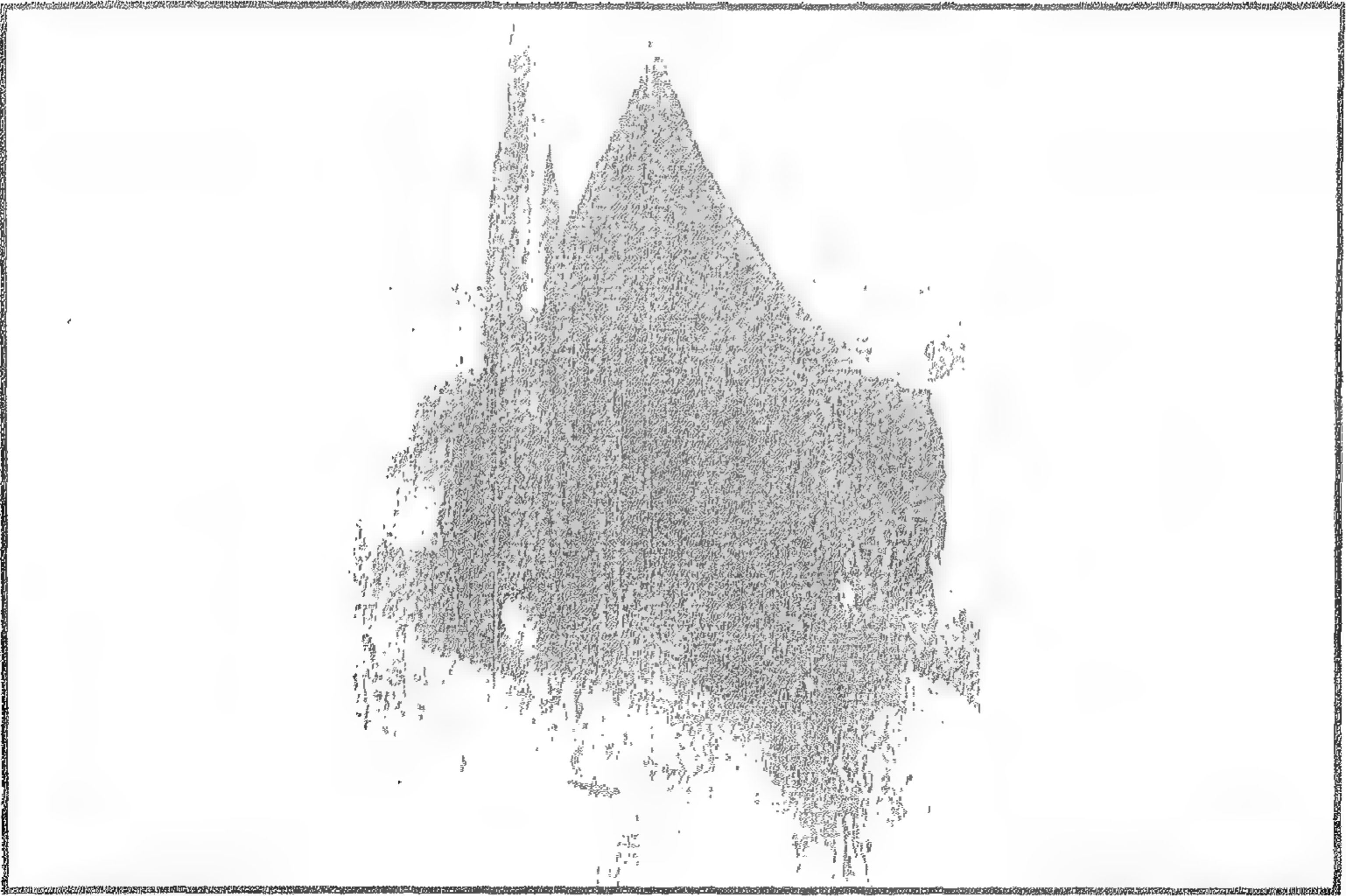
آخر البشر الذين شاهدناهم على امتداد ثلاثة وخمسين يوما : جابر بن فصل المرى وخيمته وعائلته فى جابرين
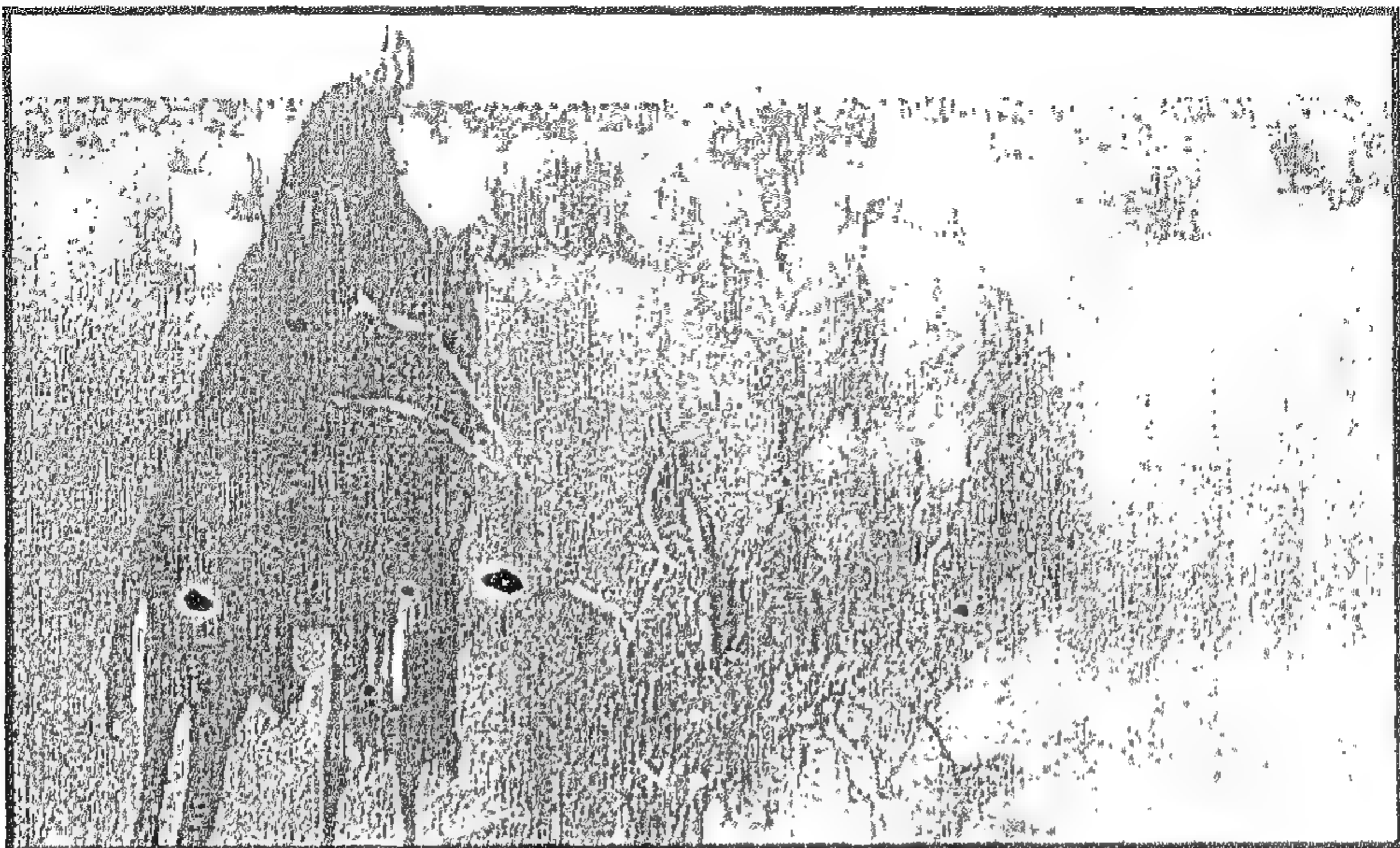
عش غراب قديم فى دغل من أدغال الغاضة فيما بين مقينة وبير فضيل
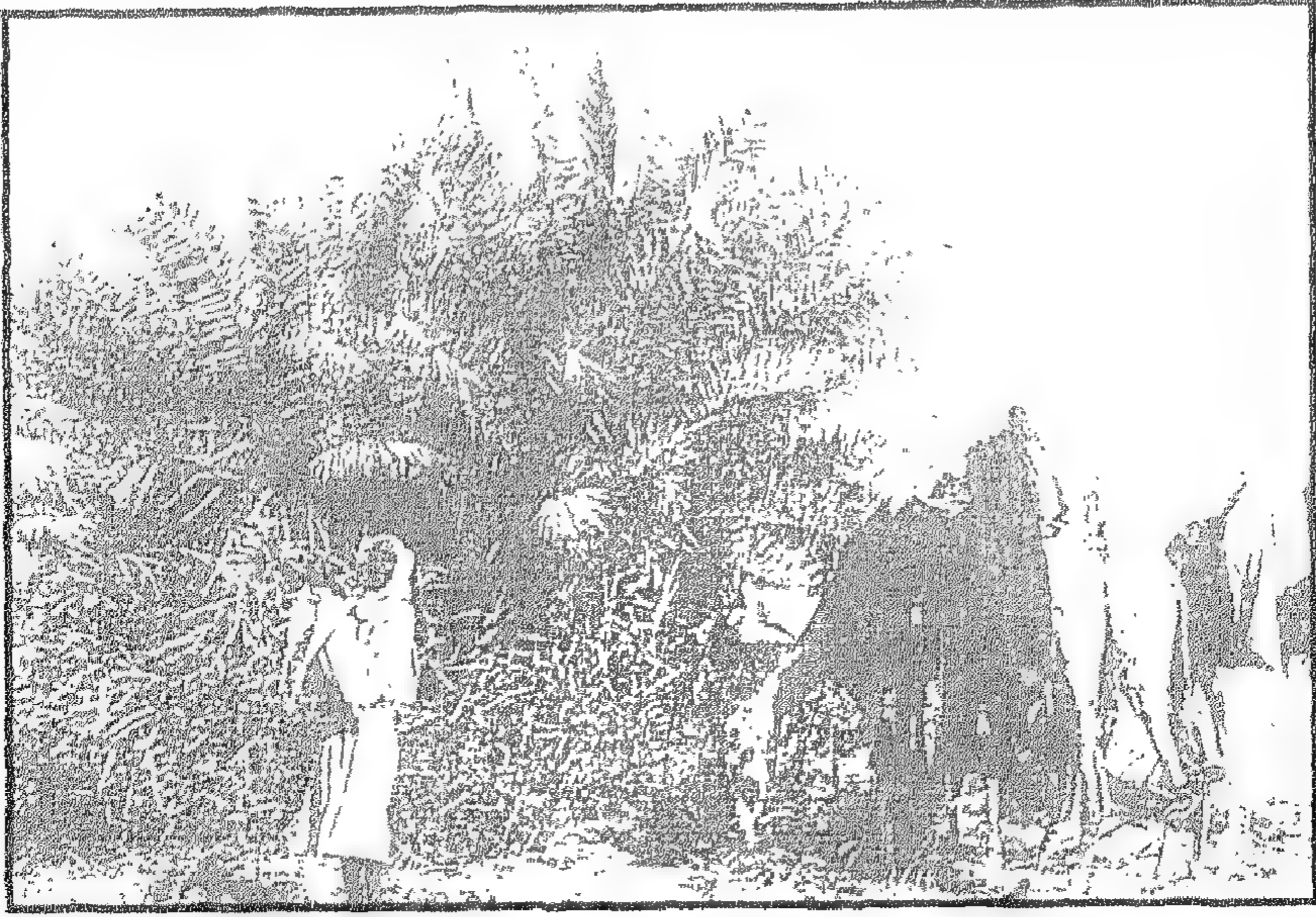
سويد والغراب بالقرب من الغاب والنخيل الذى ينمو فى بركة غوباية فى منطقة جابرين

مخيم فى مقينمة وإبل تسقى من بئر فى الخلف
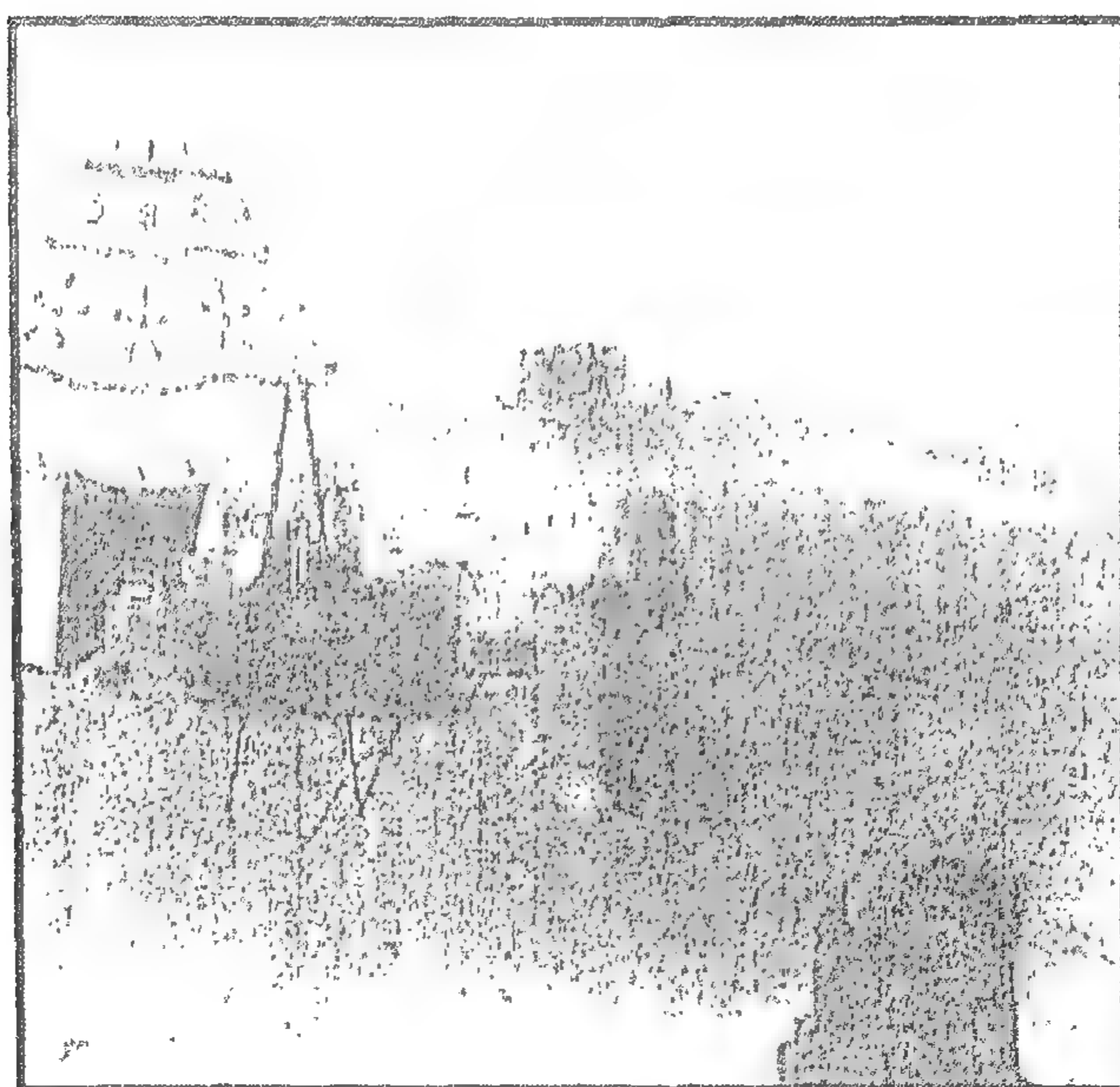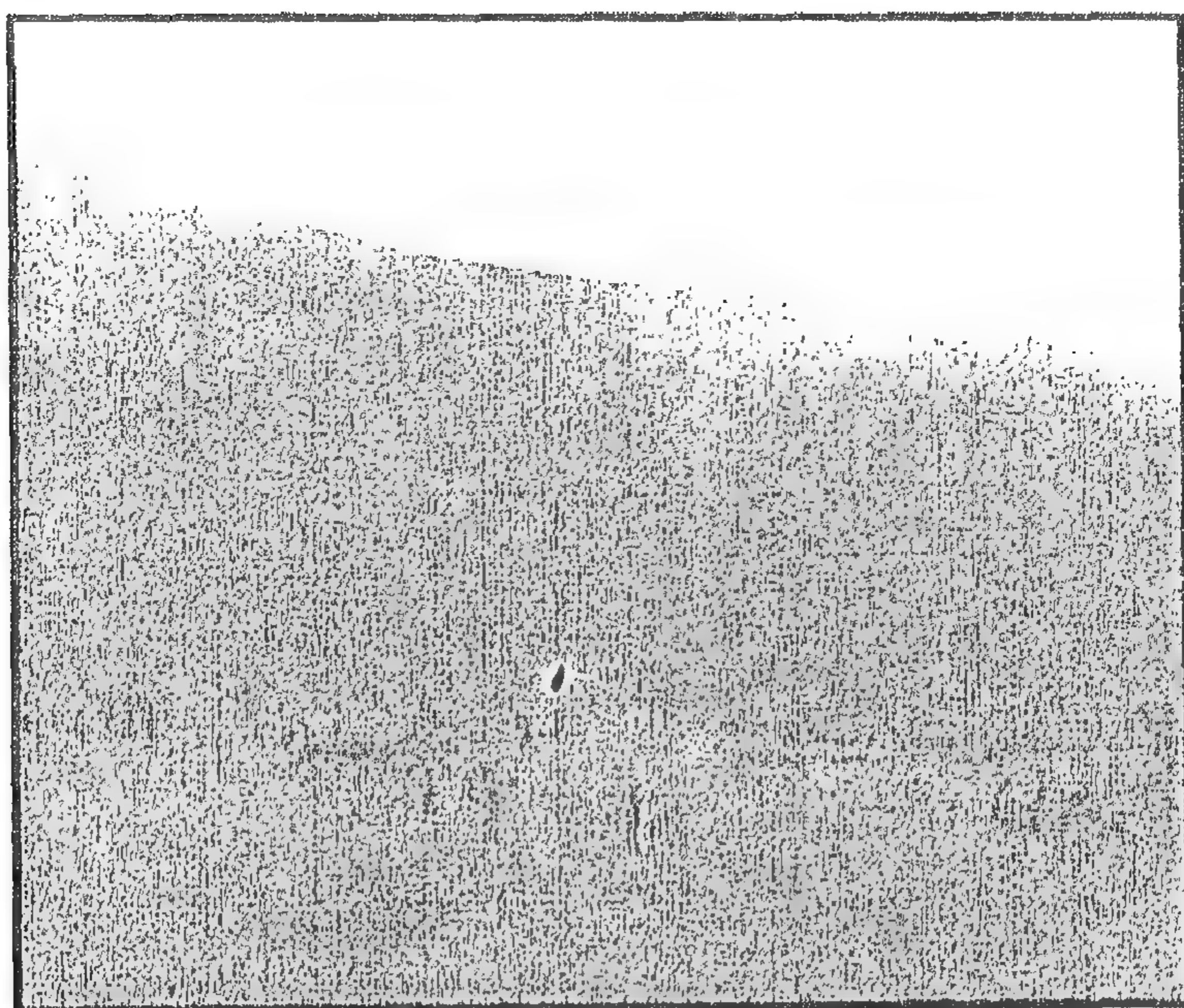
أبيار أدراج تطل على الجهة اليسرى

علي بن جهمان، وسالم وزيد يفتحون فوهة بئر مقينمة المغطاة
ببعض العوارض والجلود لحمايتها من الرمال.
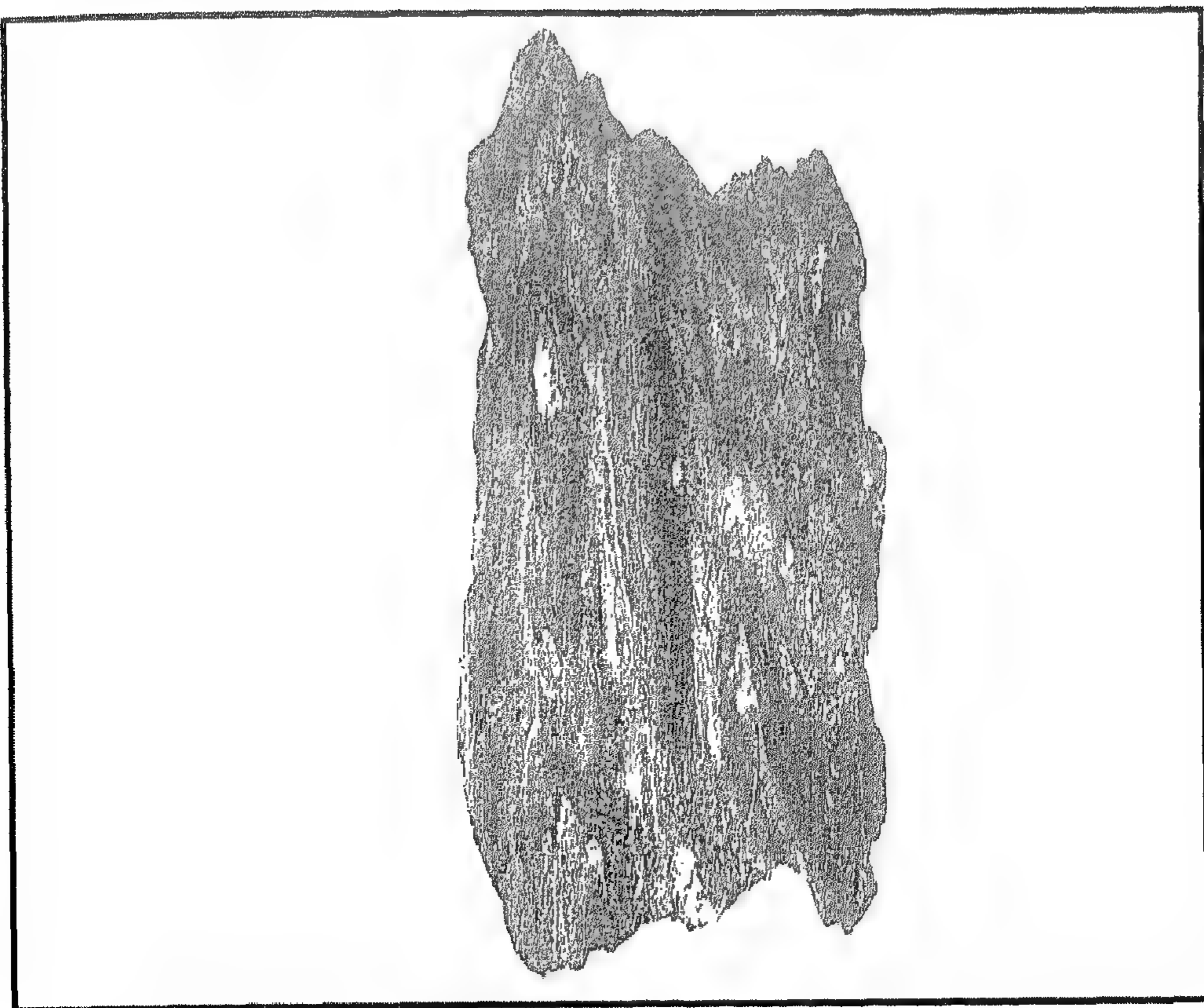
كتلة من الزجاج الرملي من الكأس البركانية المعدنية النيزكية فى أوبار
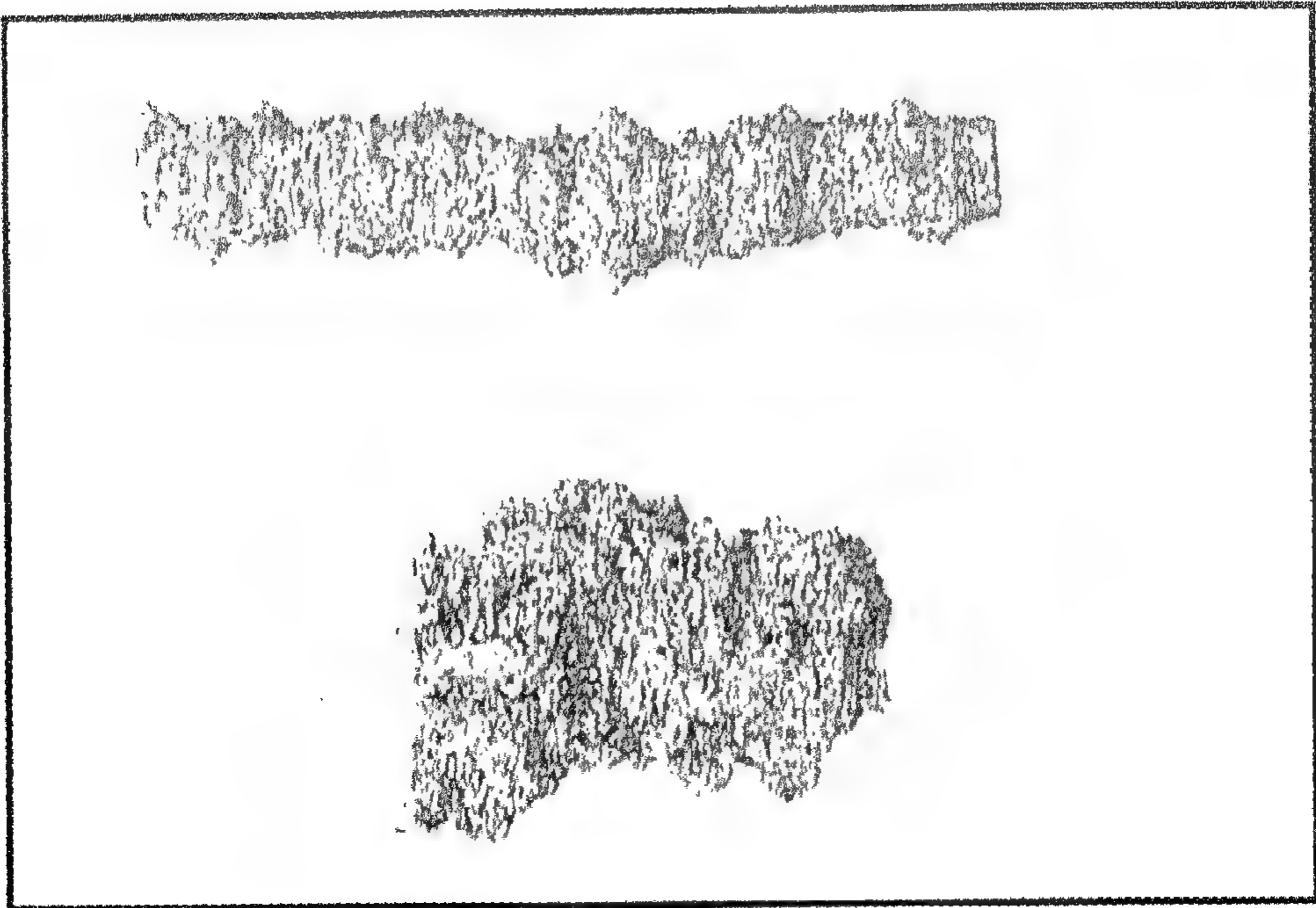
عينتان من الصخور المومضة من الرمال الجنوبية
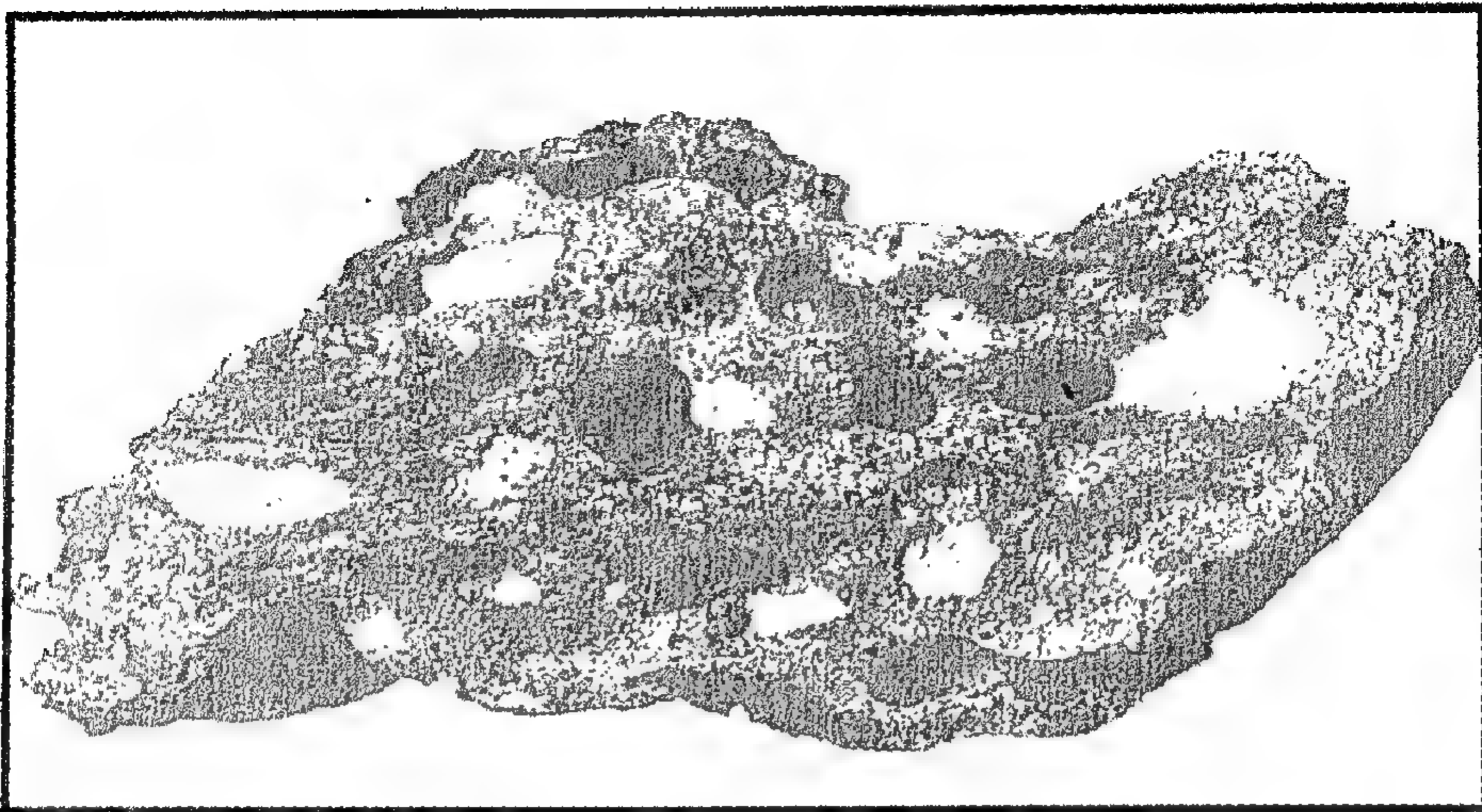
الجزء الداخلى من قطاع يوضح تركيب الزجاج الرملى المتكوّن بواسطة انصهار الرمل بفعل الحرارة الشديدة الناتجة عن النيزك
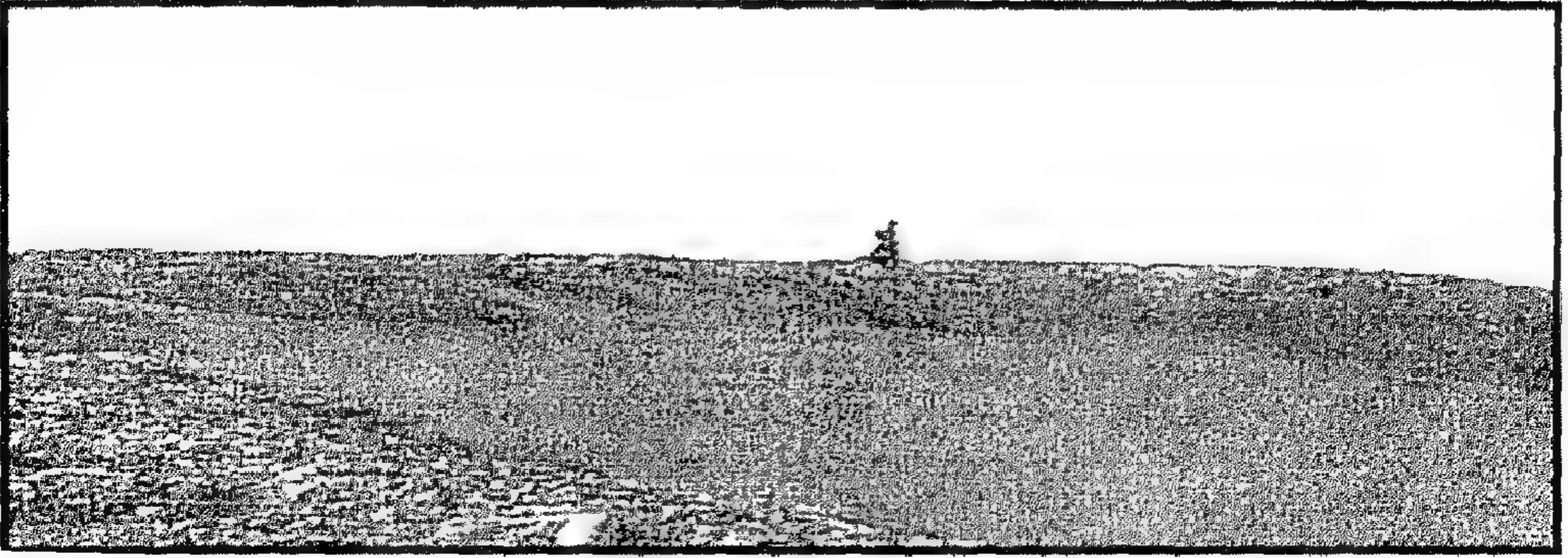
مخيم عند البئر "الميتة" فى عين سالة فى تجويف حدوة الفرس المنخفض أسفل سلسلة مرتفعة من الكثبان الرملية

(أ) حديد صخرى نيزكى عثر عليه فى أوبار
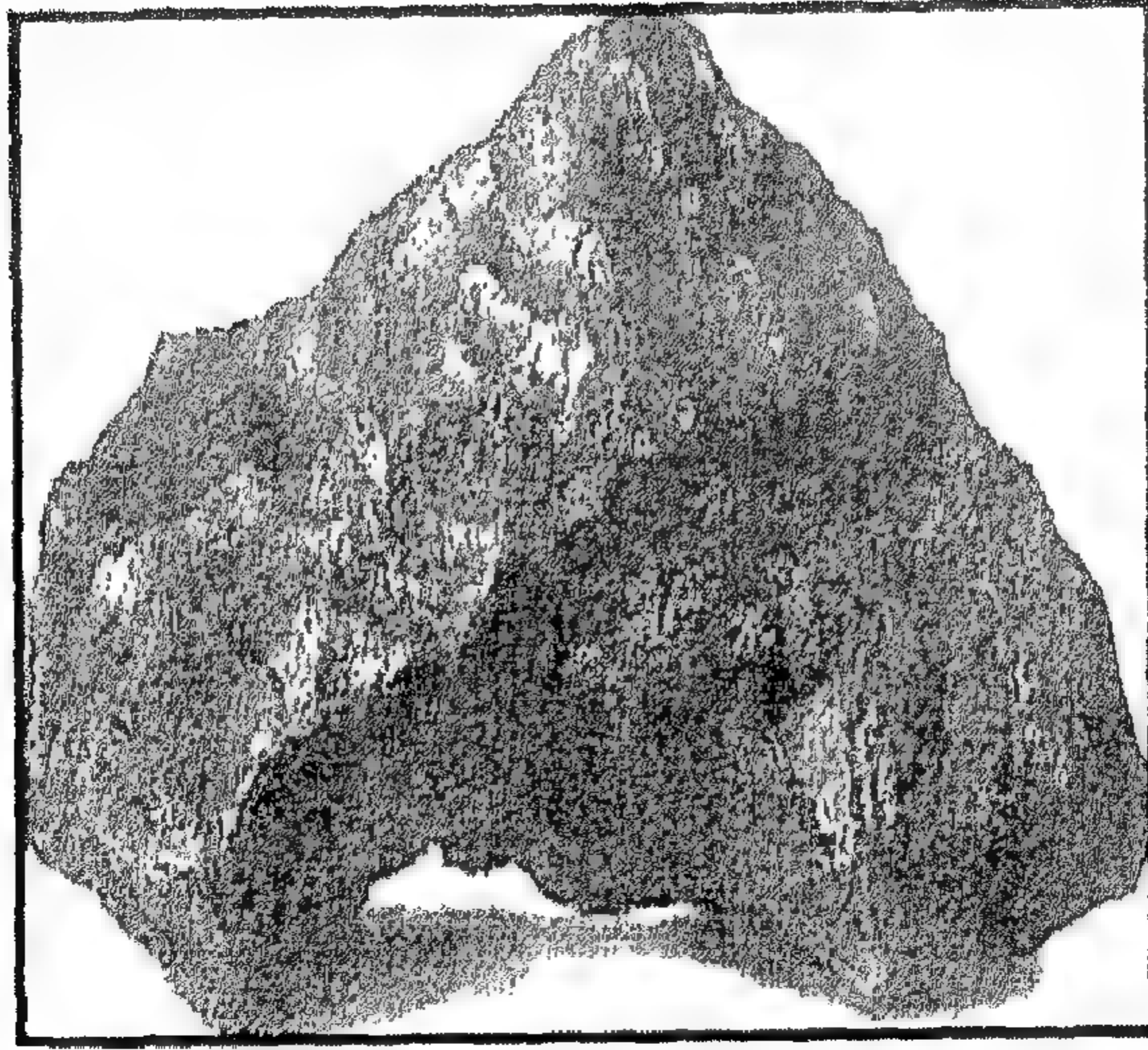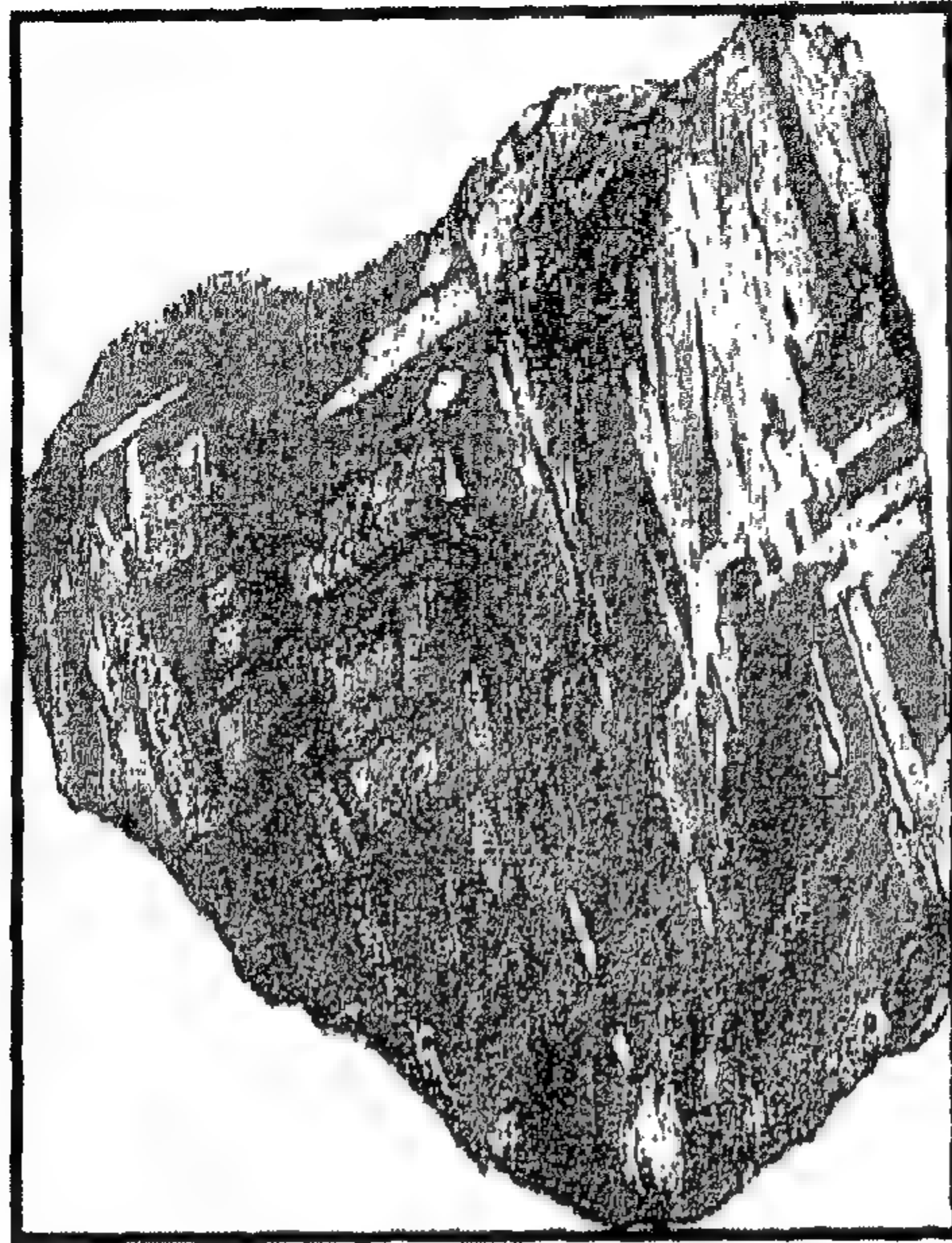
طرف قطاع جرى تلميعه ليبين تأثير الخدش الناجم عن الحديد المخلوط بالنيكل

AL HADIDA (WABAR)

PLAN OF THE METEORITE CRATERS

from a survey by

H. St. J. B. Philby C.I.E.

1932

Scale 1:4.500

Yards

50 0 50 100 150 200

Explanation

A B *Exposed craters*

C D *Submerged craters?*

E *Reputed site of large iron block*

Patches of slag

Sand dunes
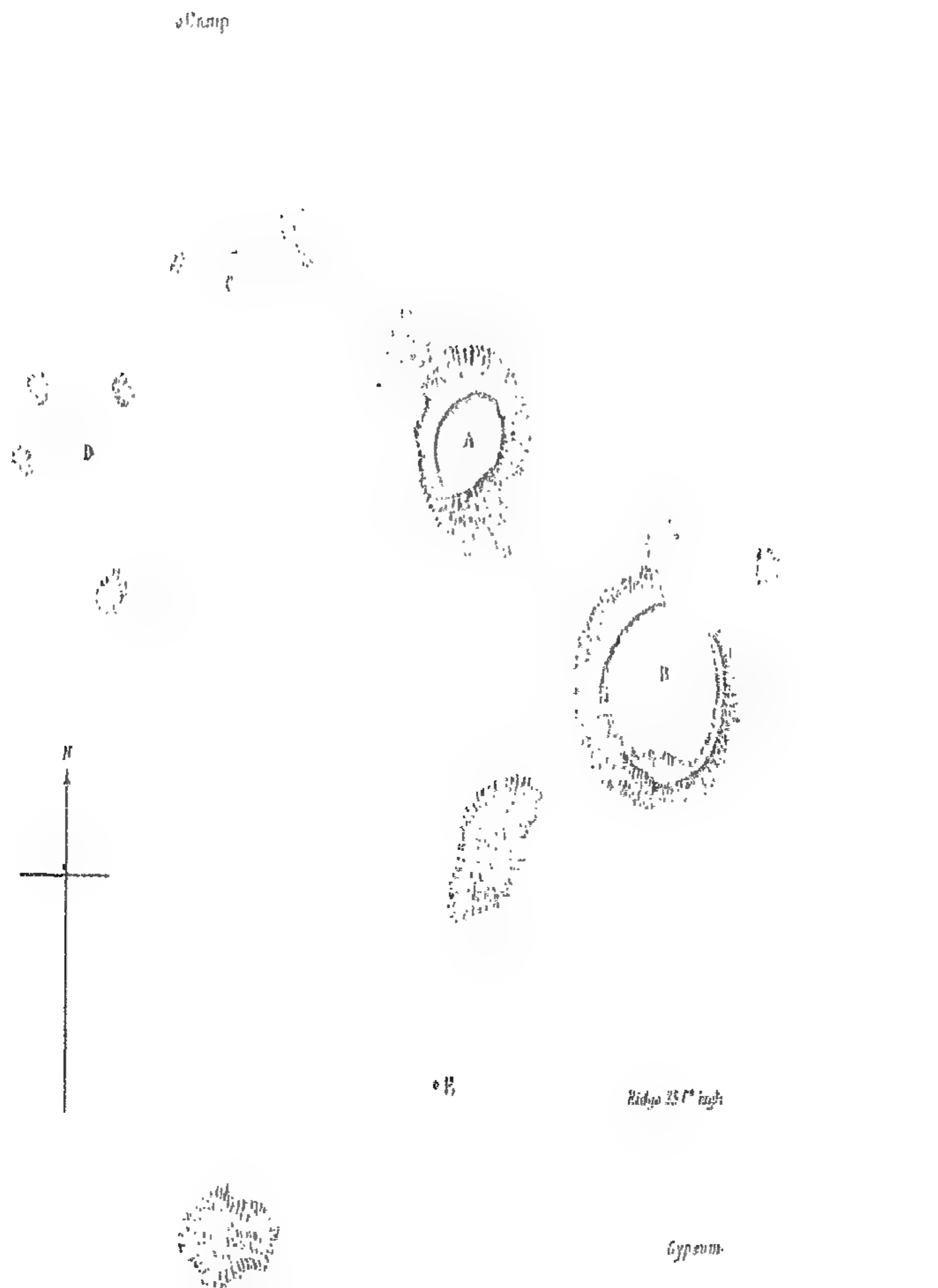
فوهة بركان صخرية فى أوبار

الوصول إلى المخيم فى منطقة بنى جلاب

قمة رملية فى واحدة من سلاسل الكثبان الرملية عند بنى نصير

مخيم عند أبيار زقيرط ، يوضح صخرة مكشوفة من صخور القاع، الواقعة تحت الرمال

مخيم عند أبيار شنَّاء ، التى تطل على الجنوب الشرقى

انكشاف كامل بين الرمال لقاع من القيعان الجبسية في أم القرون
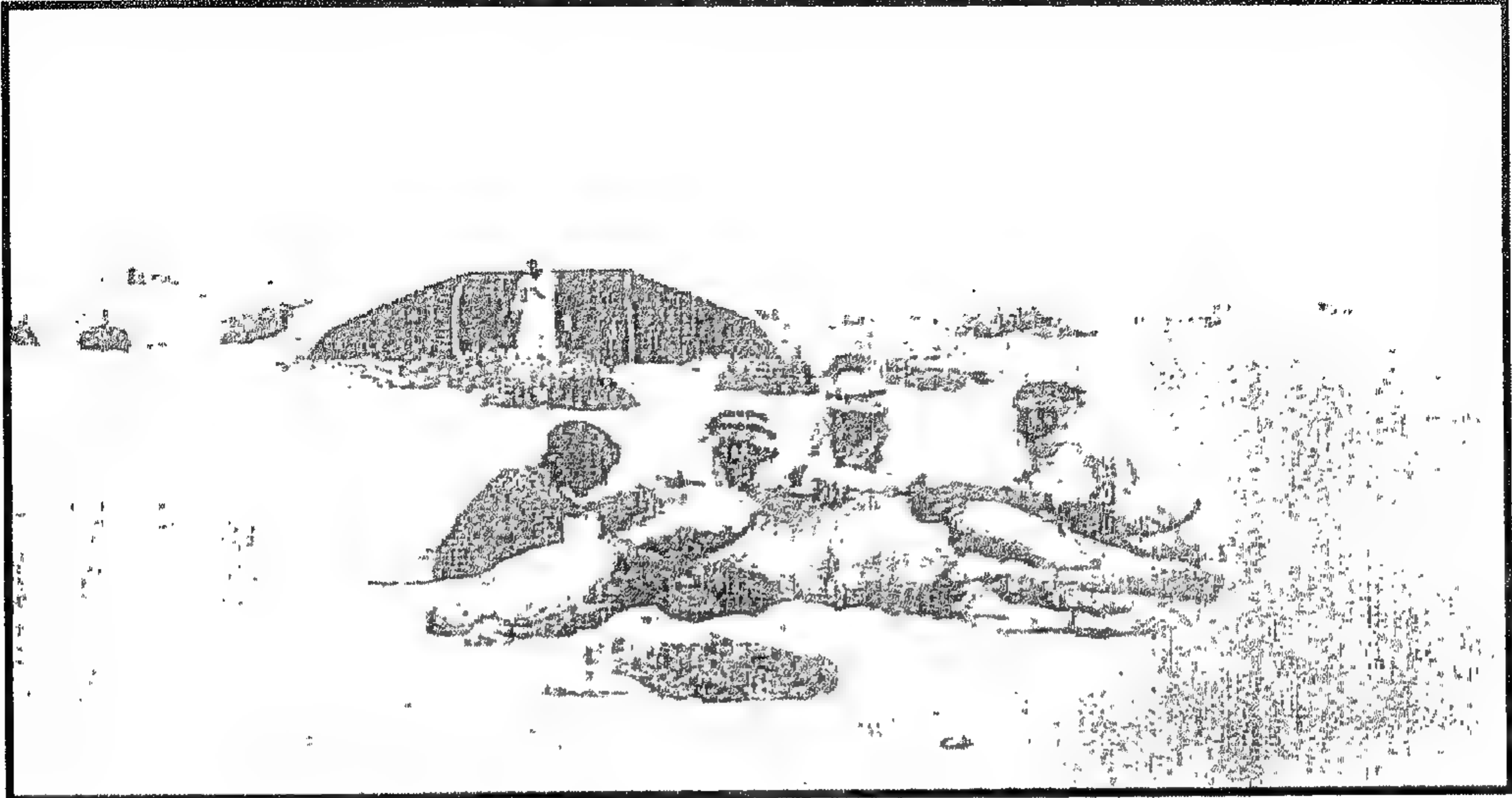
معالجة قدم جمل تأثرت بسبب المشي على الحصى
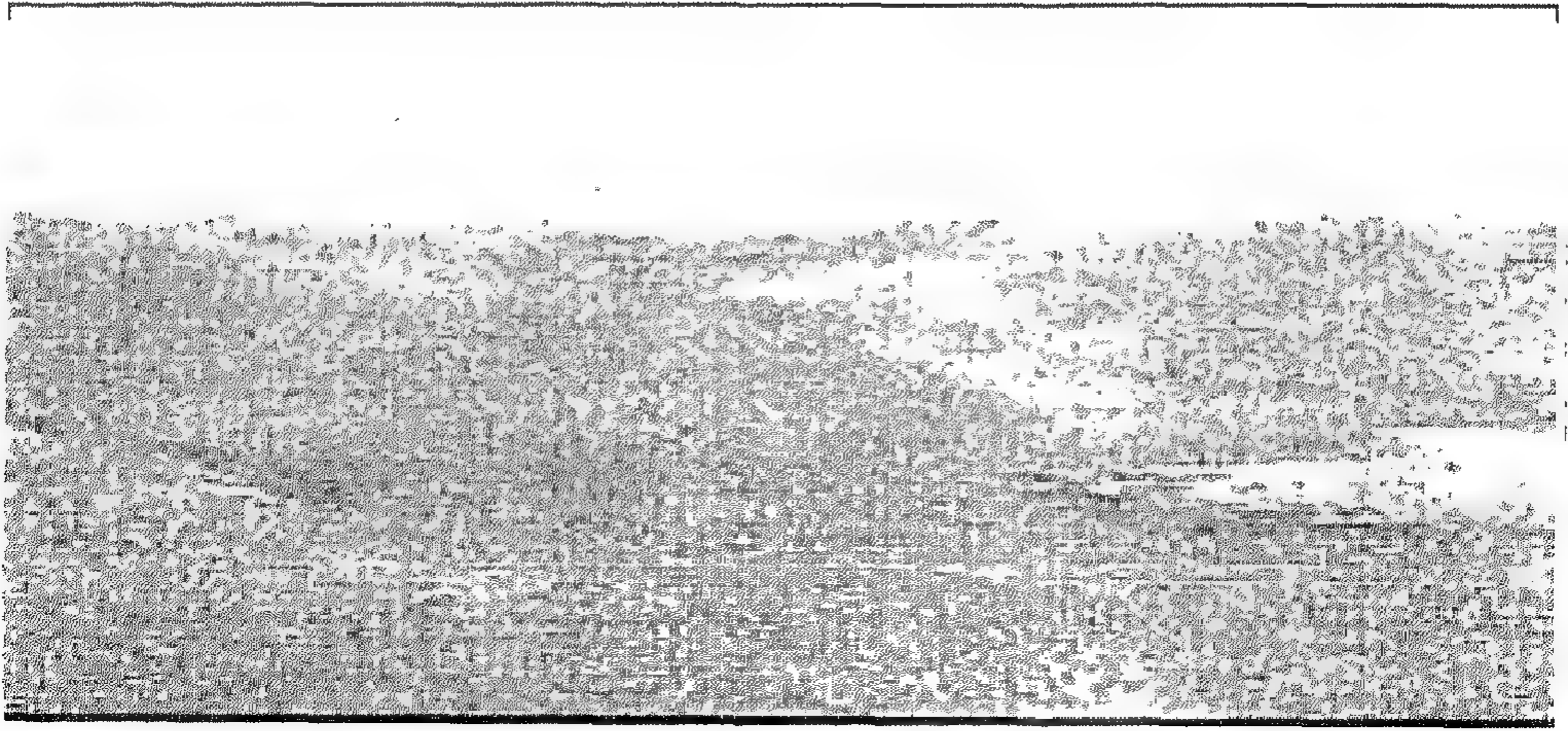
مخيم عند أبيار شنًّاء
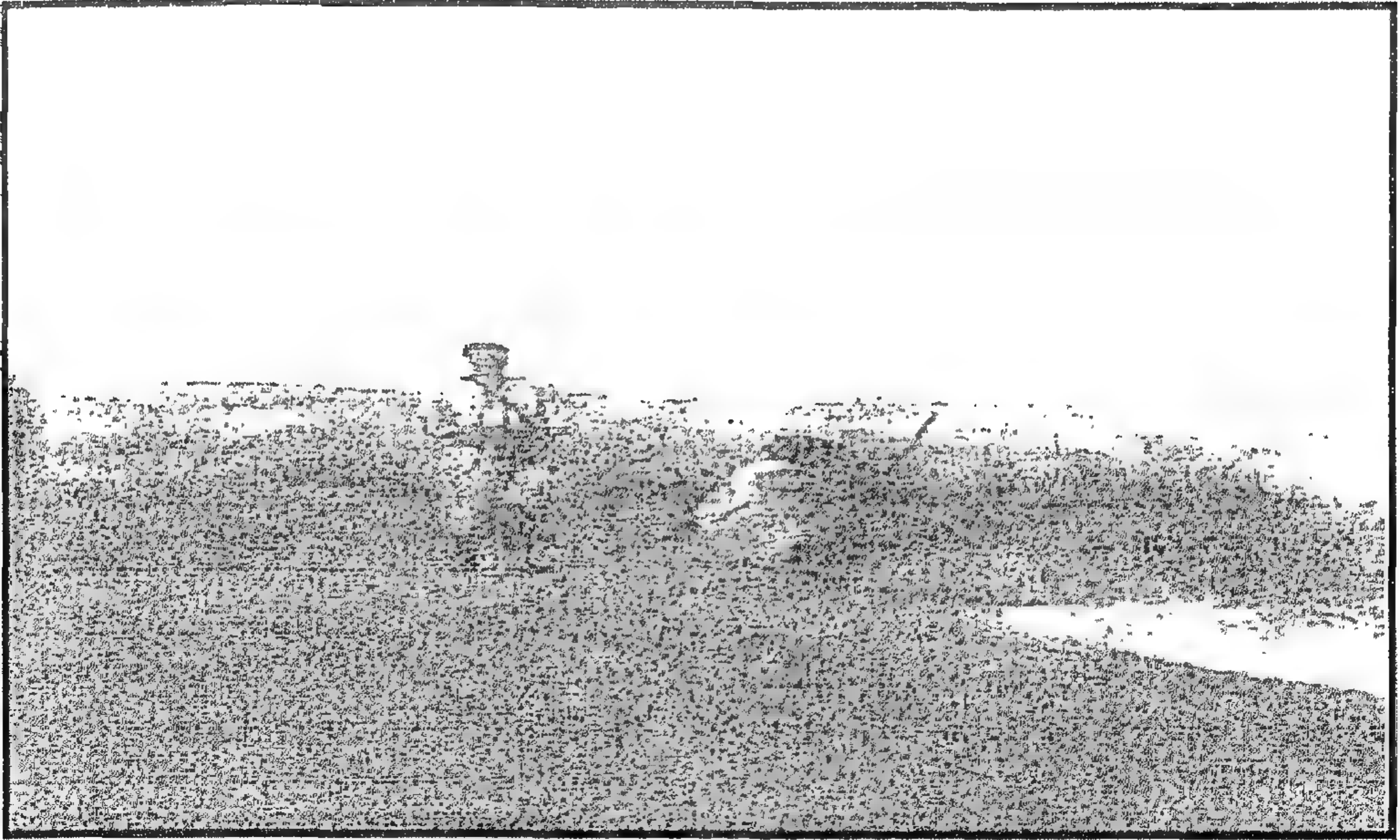
(ب) وعل أبيض مات جوعا في الصحراء، ولم تأكله الغربان أو الحِدَأ أو المخلوقات الأخرى التي تأكل الجيف
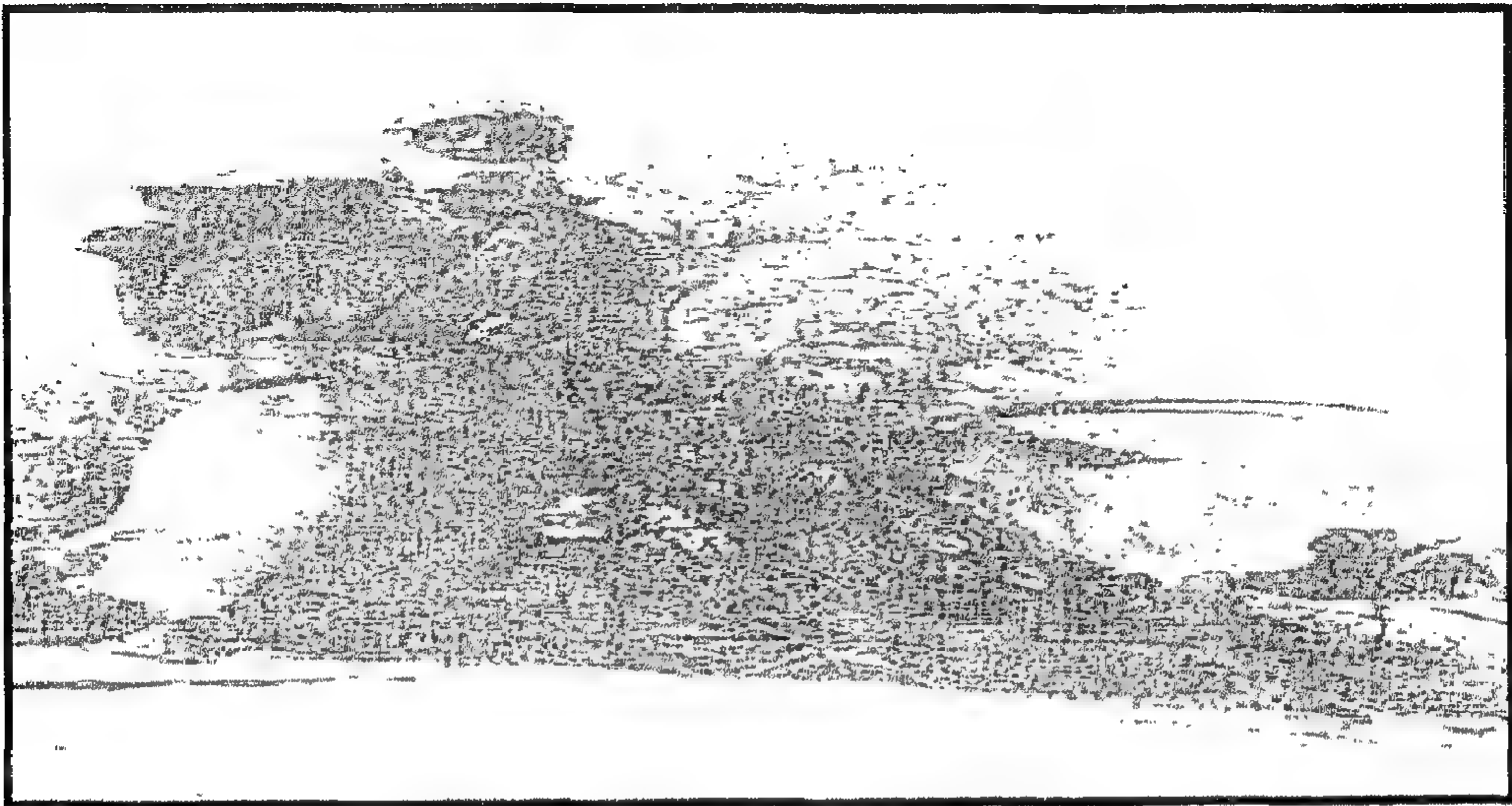
(أ) سويد وسالم ينتبهان إلى السير إلى شنَّاء

مشهد أصيل من خلات حواية
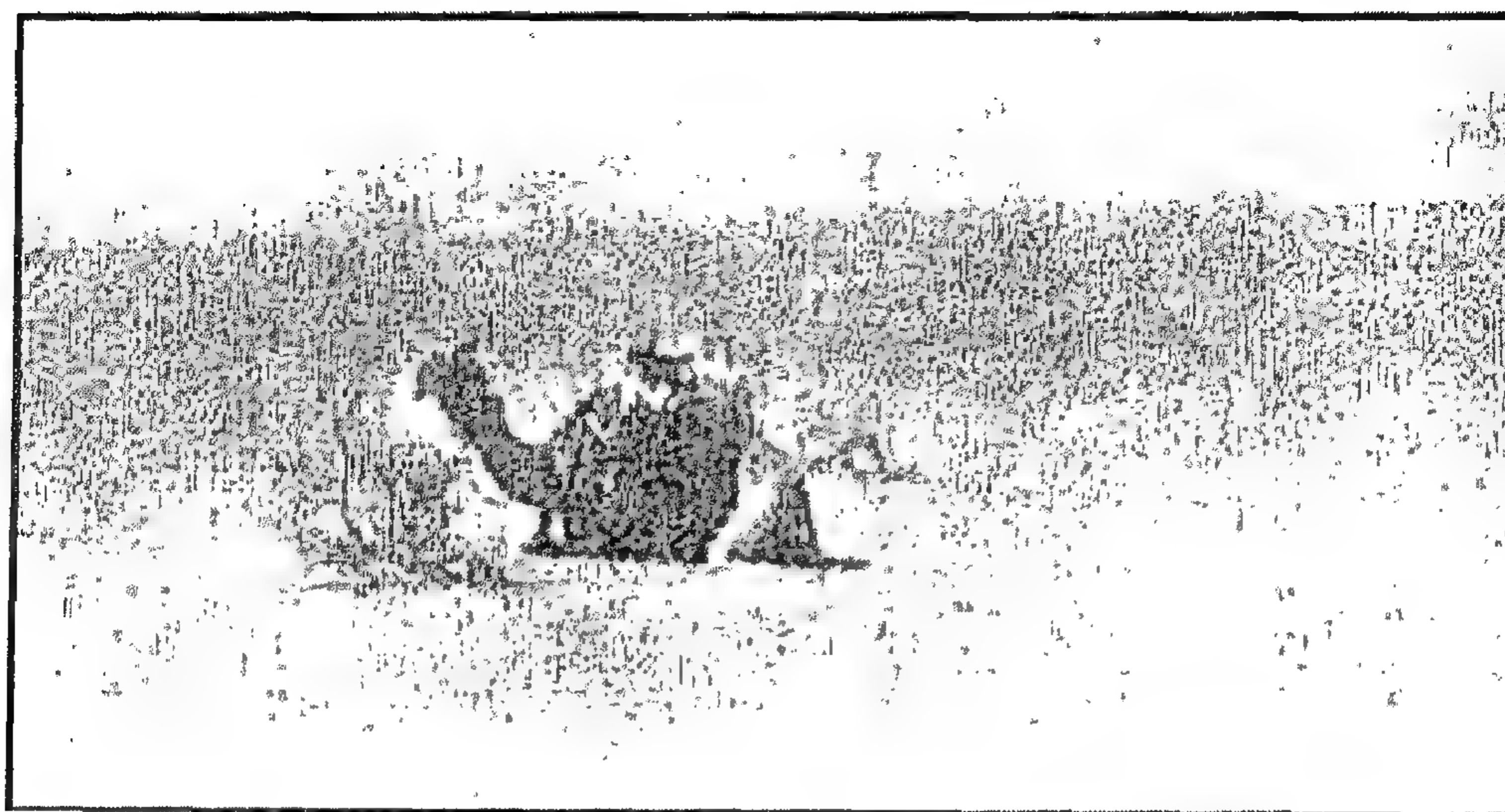
سلسلة من الكثبان الرملية فى خلات حواية
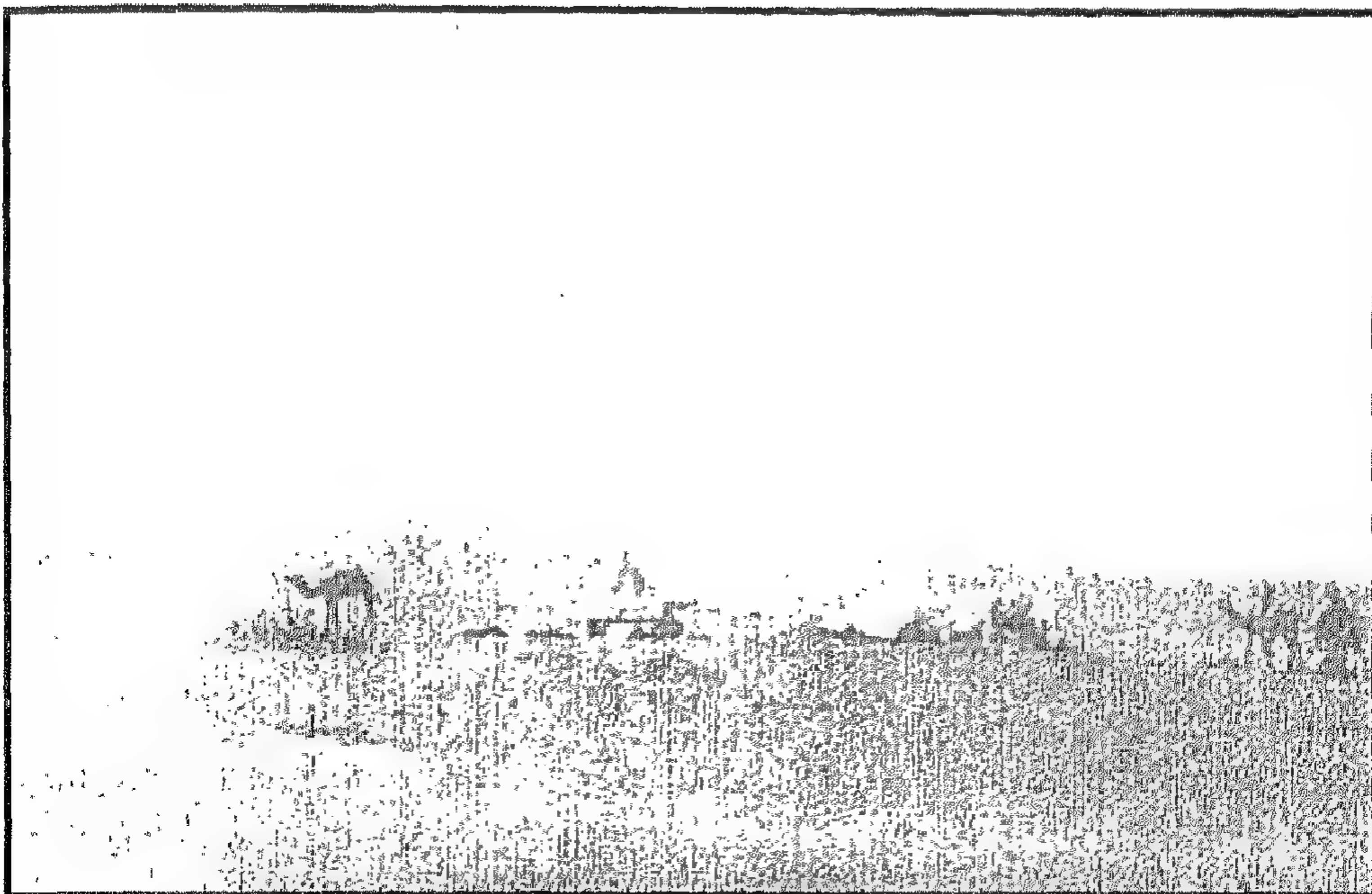
أبعد نقطة جرى الوصول إليها فى المحاولة الأولى فى الصحراء الخالية من الماء

(أ) الجماعة تعود إلى الرياض قادمة من نايفة

(ب) إبل تسقى من بئر نايفة فى اليوم الخامس من شهر مارس
من العام ١٩٣٢، قبل الشروع فى عبور الصحراء الخالية من الماء

(أ) النعرية التى ركبها المؤلف عبر الصحراء الخالية من الماء من نايفة إلى السليل ومنها إلى مكة

السير بحذاء سلسلة الكثبان الرملية المرتفعة من بنى زينان بحثا عن المكان المناسب
الذى يمكن منه عبور هذه السلسلة
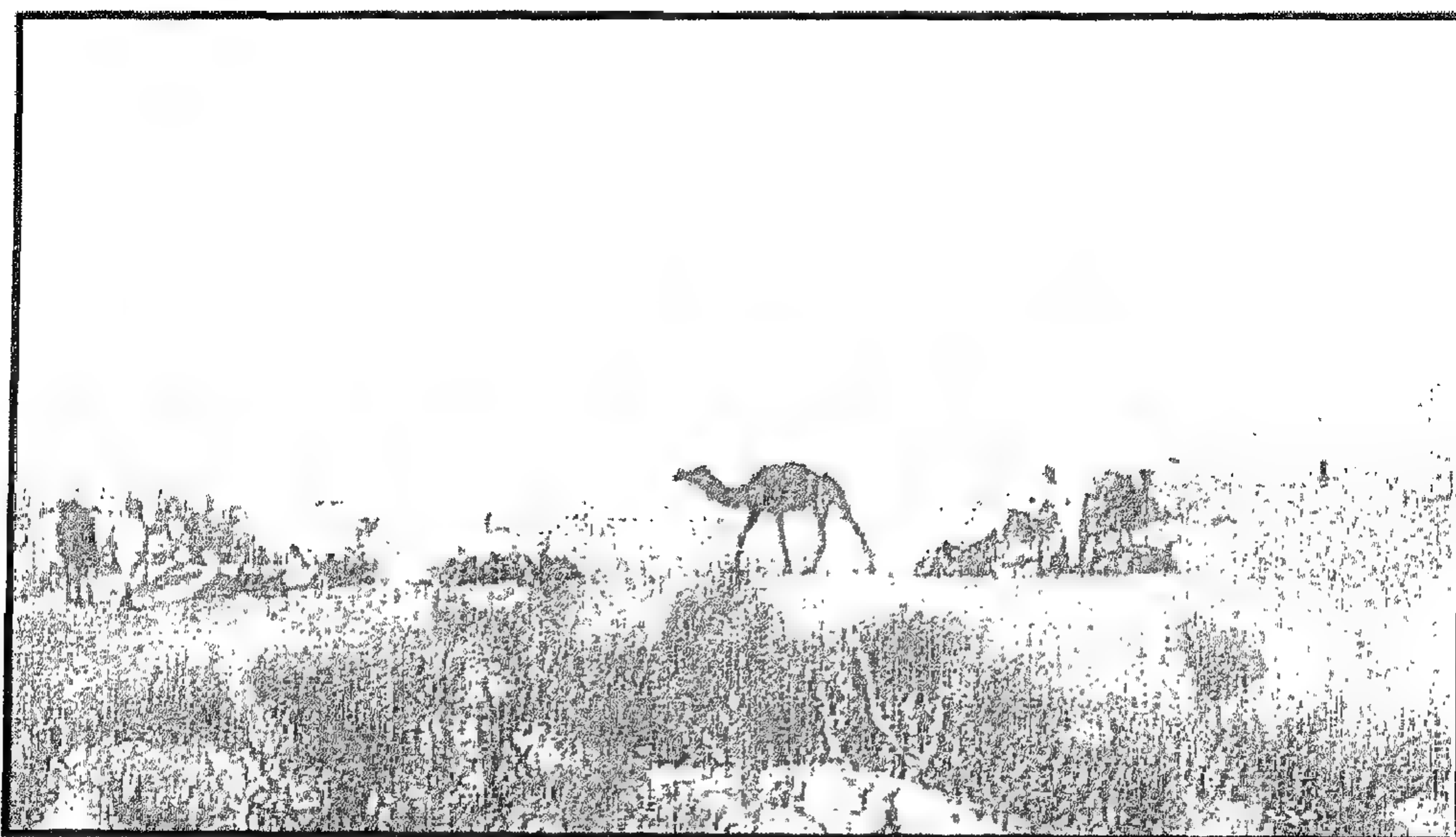
مخيم فى بنى زينان
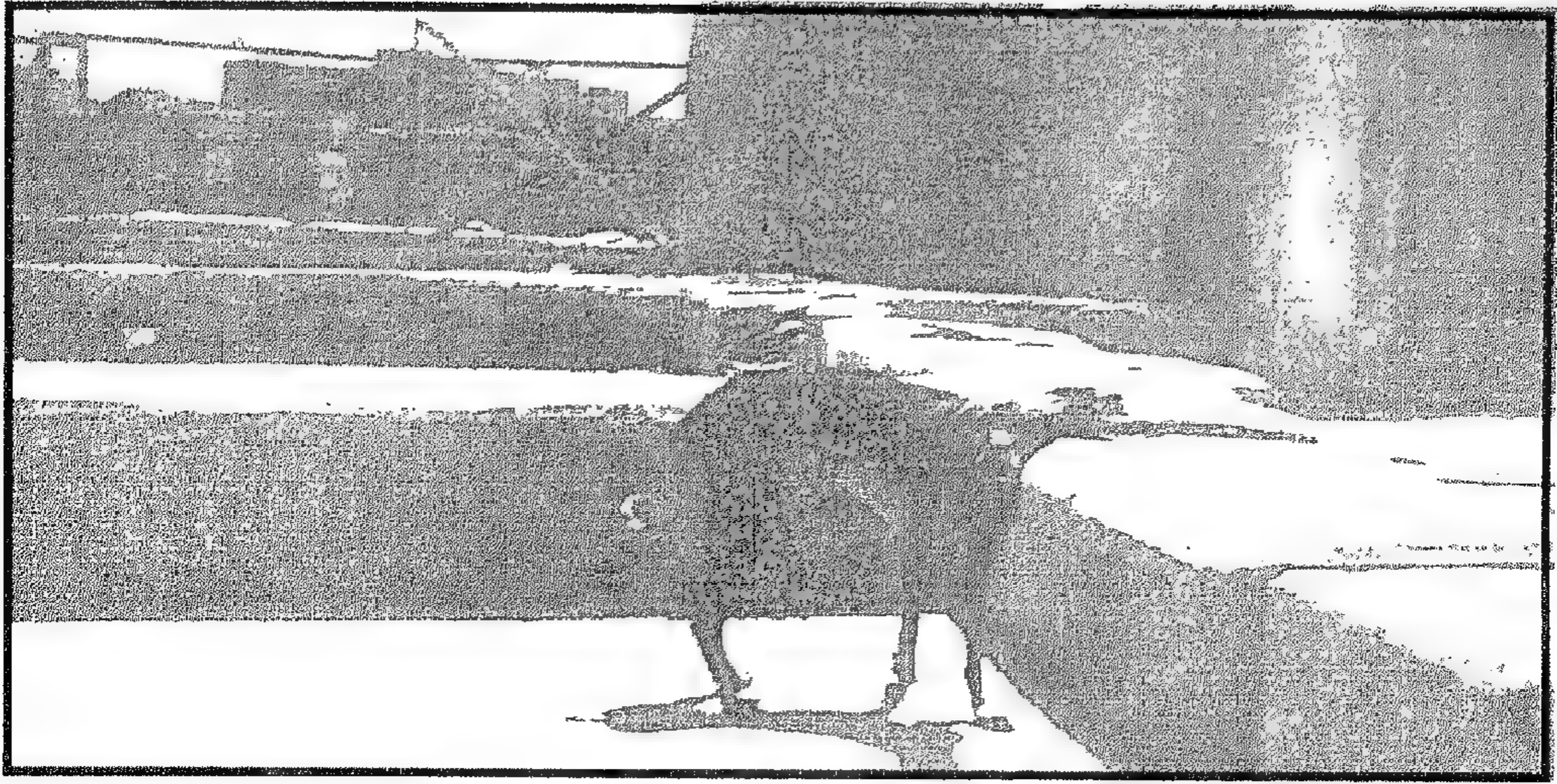
الأقفة، الكلبة السلوقية التى رافقت البعثة من جابرين حتى النهاية
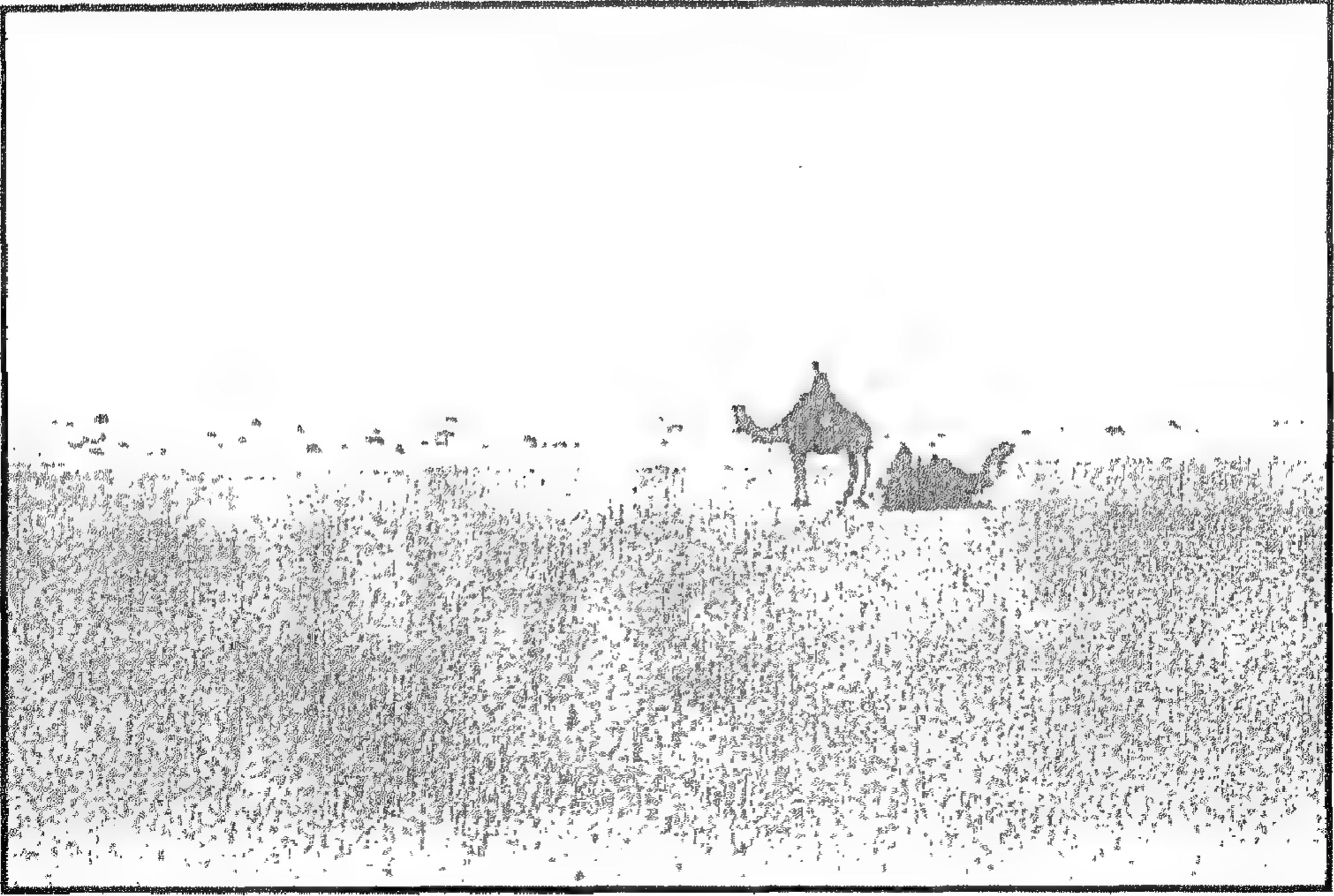
(أ) سهل ساهمة الزلطى وسلسلة عواريق الرملية ، التى تطل على الناحية الشمالية
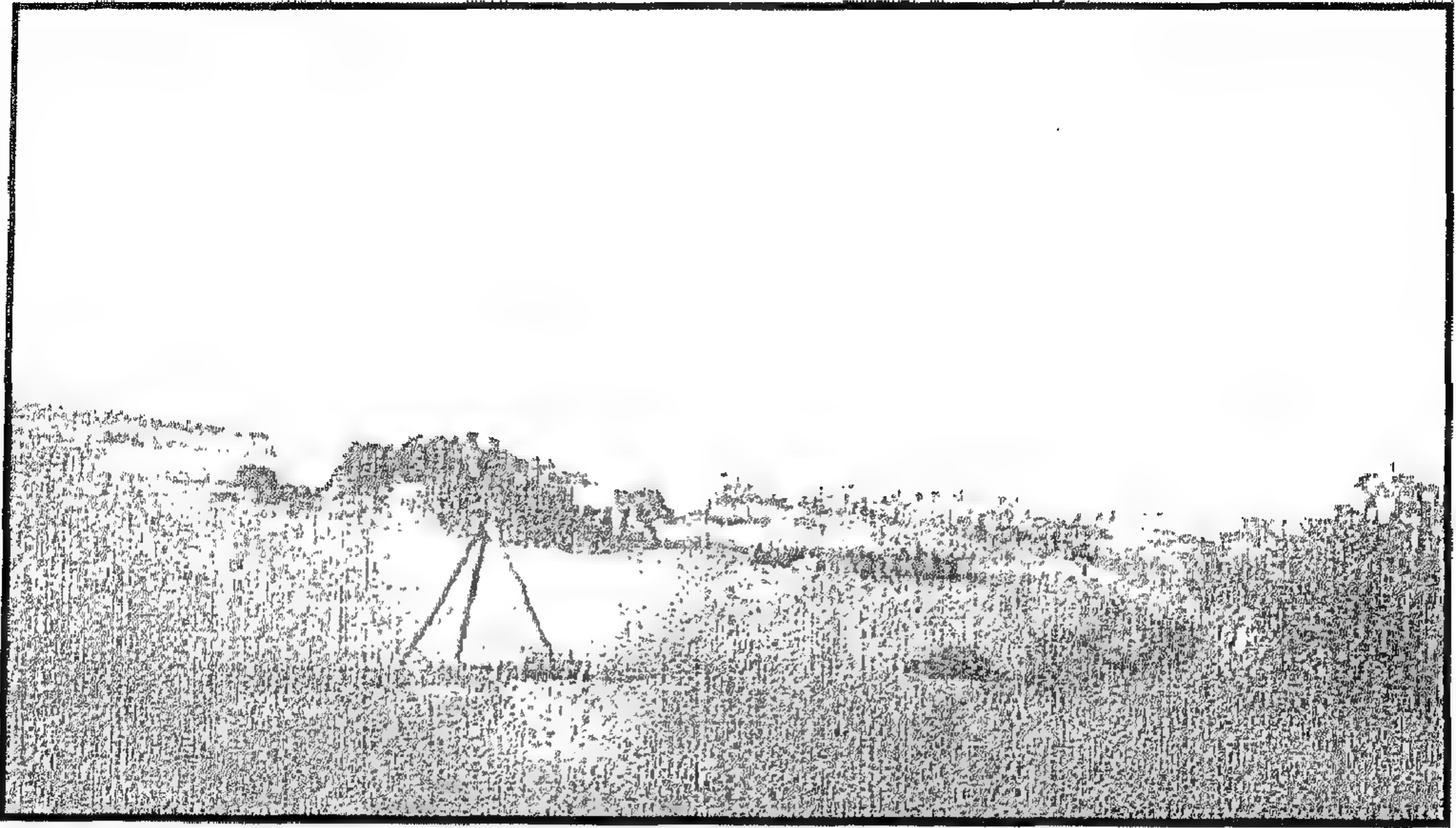
(ب) مخيم بين أدغال أبال فى رمال عواريق عند حافة جبل ساهمة
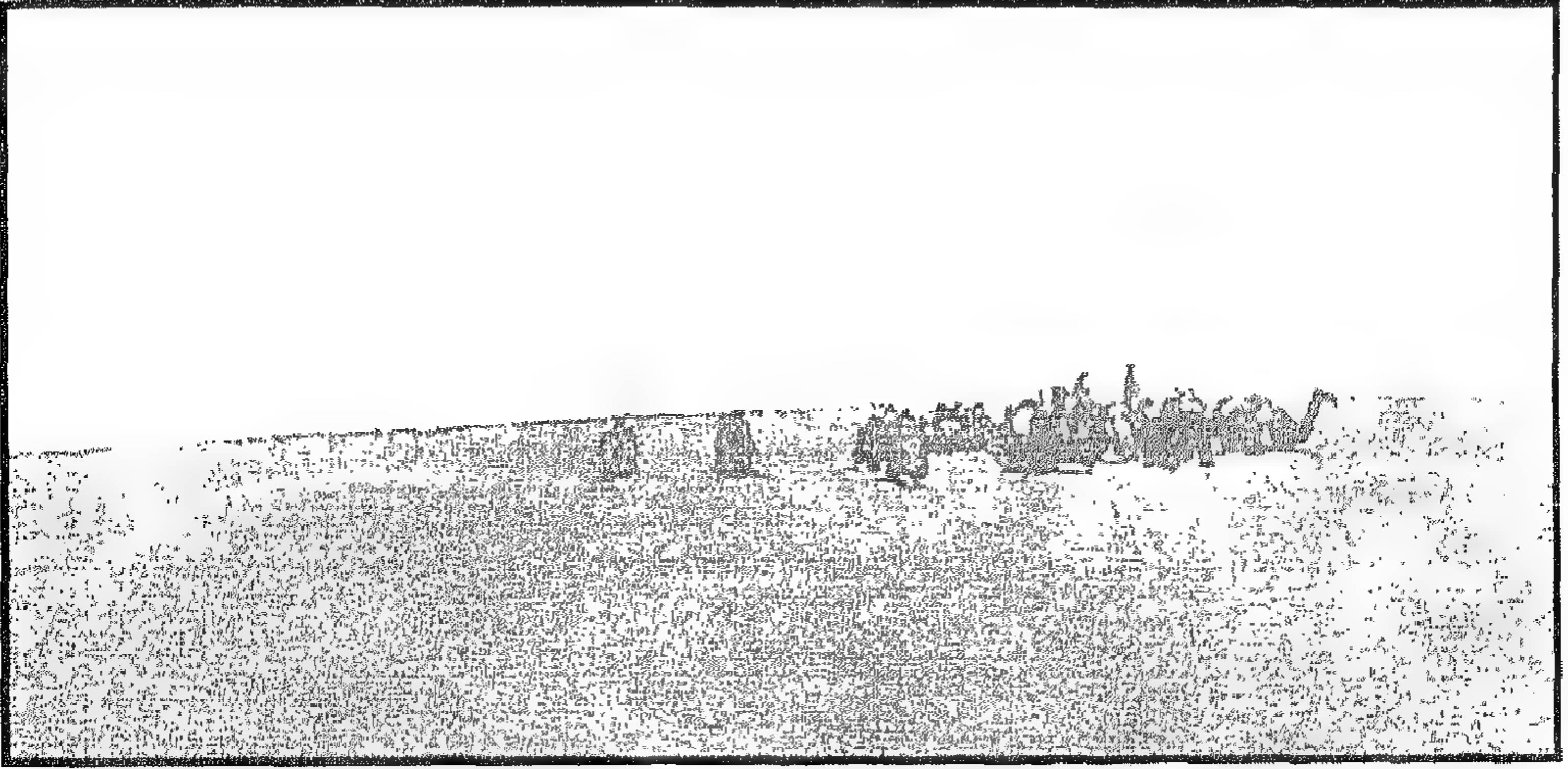
وقفة فى سهل أبو بحر الزلطى

حميد هو وصالح "ينشقان" الجمل مستخدمين فى ذلك براد (غلاية) ماء فى الرميلة

الفرشة، آخر المخيمات فى الصحراء الكبرى، قبل الوصول إلى الماء بالقرب من السليل
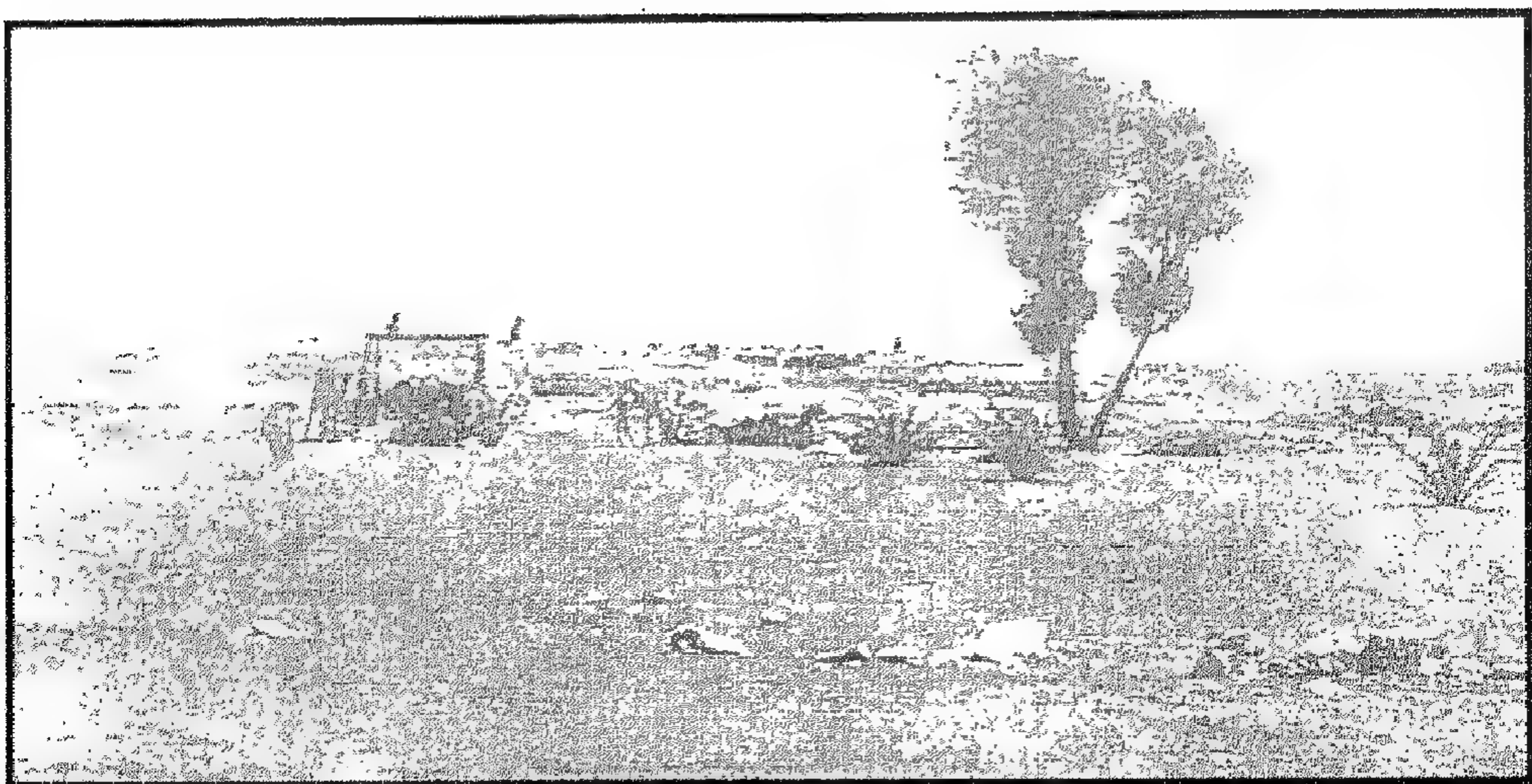
أبيار لتوة بالقرب من السليل، التى وصلناها فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس بعد عبور الصحراء الكبرى
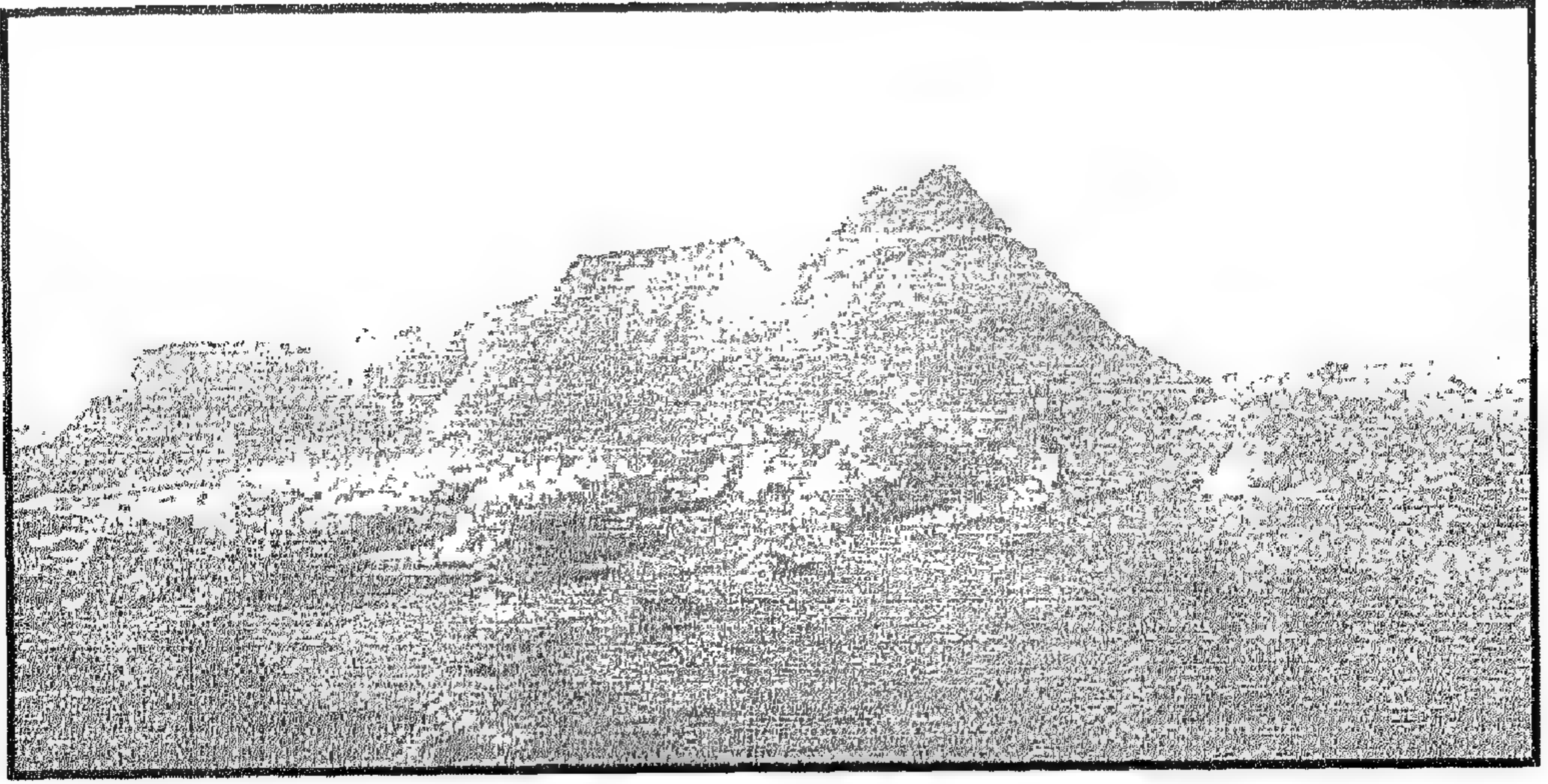
أرض خشم الأمور الرئيسية، التى ينساب عندها وادى الدواسر داخلا إلى هضبة الطويق لينتهي داخلا إلى الصحراء الخالية من الماء

ARABIA
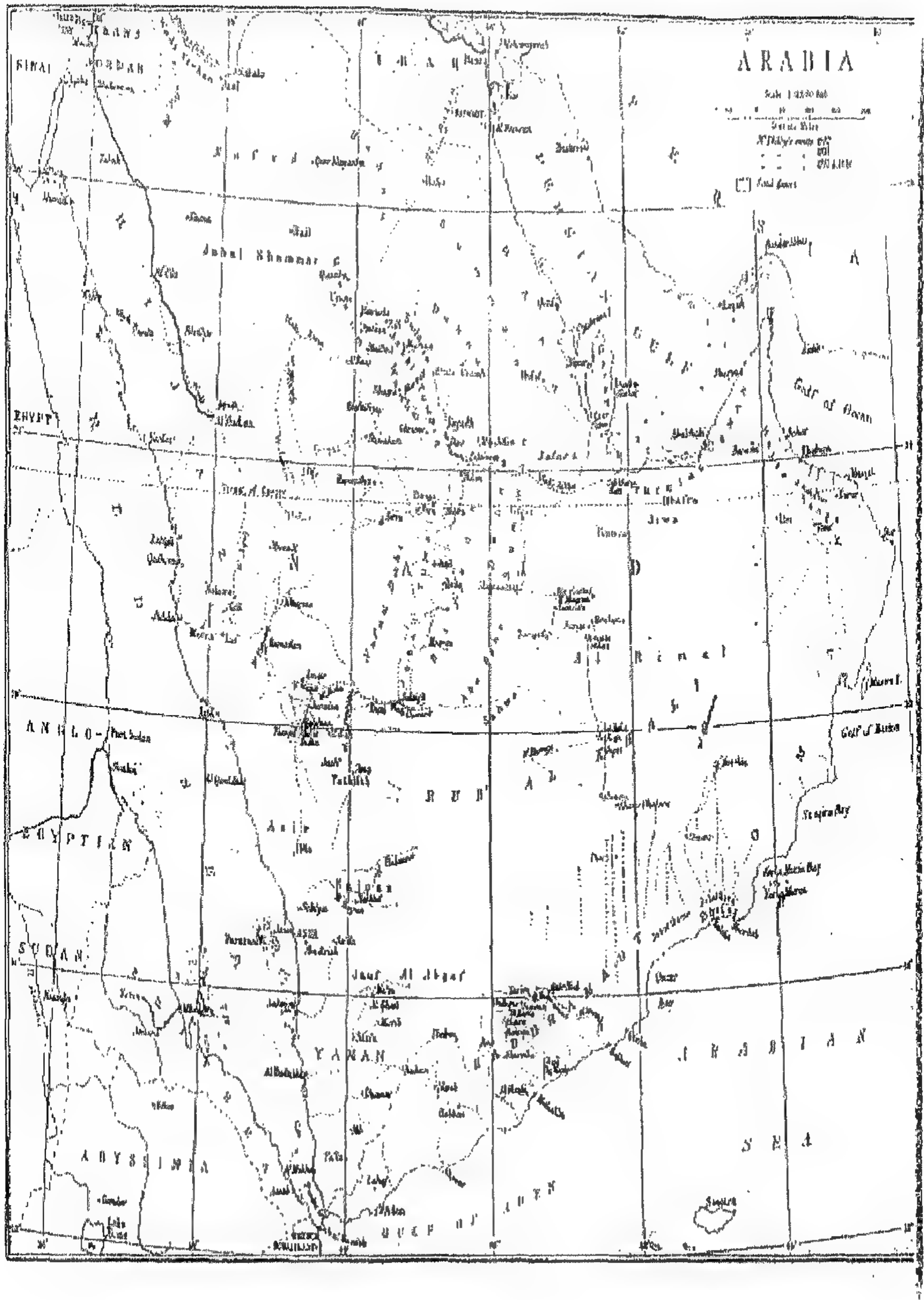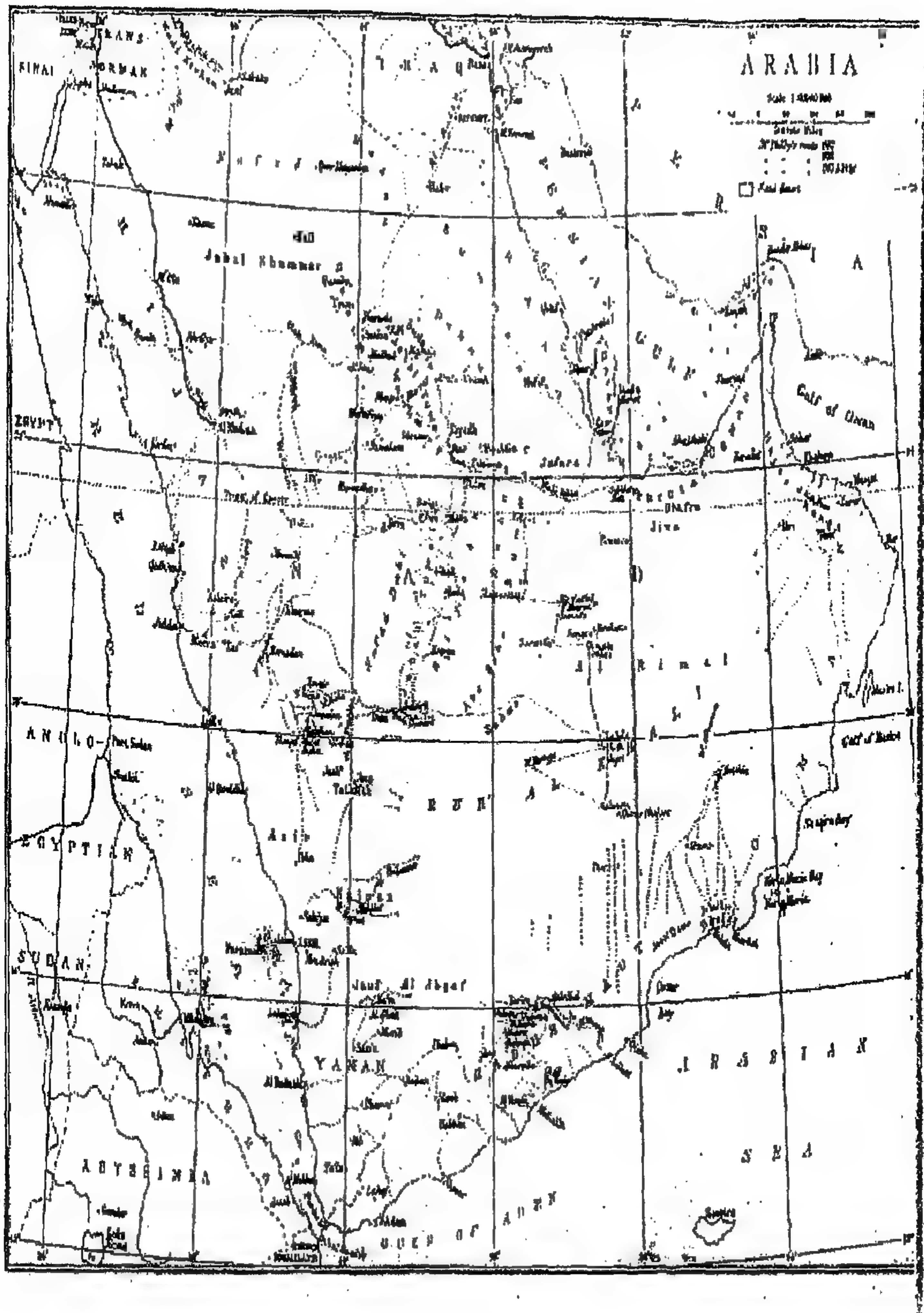
الجزيرة العربية

المؤلف فى سطور :

هارى سينت جون بردجر فيلبى

مستكشف ومؤلف بريطانى ، ولد عام ١٨٨٥م، وتوفى فى عام ١٩٦٠م ، وهذا يعنى أنه عاش خمسة وسبعين عامًا . وفى عام ١٩١٧م التحقق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية ، وأوفد فى مهمة خاصة إلى الجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التى تشكلت للمشاركة فى المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) .

وكان مستشرقًا مستعربًا بارزًا ، سافر إلى الشرق الأوسط فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وسرعان ما ذاع اسمه وصيته ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمضى بعض سنوات فى استكشاف السعوية ، ووضع مجموعة من الكتب فتحت شبه الجزيرة العربية المجهول أمام القراء فى كل أنحاء الدنيا .

وبعد أن أسلم فيلبى أطلق على نفسه اسم عبد الله فيلبى ، وكتب كتابًاعن «هارون الرشيد» نشرته دار بيتر ديفز ليمتد فى عام ١٩٣٣ ، كما كتب كتابًا آخر بعنوان : «الحاج فيلبى» ، وكتابًا ثالثًا بعنوان «الجزيرة العربية فى ظل الحكم الوهابى ».

المترجم فى سطور :

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية ، منها :

مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية والمجلة العربية : الرياض - المملكة العربية السعودية . ومجلة الهلال : القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية :

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة، تأليف : كرسيتوفر نوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل، تأليف : جدسون جيروم - دار المريخ .

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه - دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات - دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية :

١ - المعطف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة، جمهورية مصر العربية :

١ – هارون الرشيد، تأليف : فيلبى .

٢ – الكوكائين والمراهقين .

٣ – بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال :

١ – حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ – سبعة أنماط من الغموض، تأليف : وليم أمبسون .

٢ – وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف : بالجريف (جزآن) .

٣ – حركات التحرر الإفريقى، تأليف ريتشارد جبسون .

٤ – إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ – قلب الجزيرة العربية (جزآن) .

٦ – سيرتى الذاتية، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ – سكين واحد لكل رجل .

٢ – نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ – المهمة الاستوائية، تأليف : آن بلنت .

– صدرت له مؤخراً ترجمة "الحج إلى نجد" تأليف : آن بلنت، فى جزأين، عن المركز القومى للترجمة .

هذا الكتاب نشرته دار كونستيبل وشركاه فى عام 1933 ، أى منذ أكثر من سبعين عاماً. هل كتب فيلبى هذا الكتاب لإماطة اللثام عن الألوان الجذابة التى أضفاها على الربع الخالى بعض الرحالة الأوروبيين والعرب المستقرين الذين لم يدخلوا الربع الخالى مطلقاً حتى يروا ما بداخله؟ أم لأن عبور الربع الخالى فى حد ذاته يعد مغامرة يجب ألا يستخف بها أولئك الذين ليست لديهم بسائط الخبرة والتجربة؟

هل صحيح أن الكتاب كان حلم حياة الرجل طوال خمسة عشر عاماً، إذ كان لا يسيطر على حياته طوال هذه المدة سوى طموح واحد وفكرة واحدة، أو إن شئت فقل هاجس واحد لا ثانى له؟ وهل قام الرجل طوال هذه السنوات بملاحقة هذه الطريدة، التى ترقد أمام القارئ فى شكل هذه الصفحات، بعد أن قام فيلبى بتشريحها، وعنونتها ووصفها؟

تصميم الغلاف: نسرين كشك